



ماري إليزا روجرز

الحياة في بيوت فلسطين

رحلات ماري إليزا روجرز في فلسطين وداخليتها (1855 - 1859)

ترجمة: جمال أبو غيدا

تقديم: د. مي صيقلي



الحياة في بيوت فلسطين

رحلات ماري إليزا روجرز
في فلسطين وداخليتها
(1859-1855)

تأليف

ماري إليزا روجرز

ترجمة: جمال أبو غيدا

مقدمة

بقلم الدكتورة / مي صيقلي

جامعة وين ستيت ،

ديترويت ، ميتشغن

سبتمبر 2012

دبّت الحياة في أوصال التاريخ الاجتماعي لفلسطين خلال العقود القليلة المنصرمة ، إذ شهد هذا المجال خروج مطبوعات مهمة للنور على يد جيل جديد من الباحثين العرب والفلسطينيين ؛ فعظيم الشكر حقيقٌ بأهله من الأفراد والمؤسسات مثل مؤسسة الدراسات الفلسطينية وداعميها الخيّرين على مستوى العالم وغيرهم من أهل العرفان (1).

وبالرغم من الإسهامات سالفة الذكر ، ما زالت المراجع التي تتناول الأوضاع في فلسطين خلال القرن التاسع عشر غير كافية ، فضلاً عن القلة الملموسة في الدراسات المفصلة عن الأوضاع المعيشية اليومية للمجتمعات الفلسطينية في تلك الحقبة ، باستثناء القدس ؛ ذلك بأن تلك الدراسات - سواءً أكانت مستوحاة من تجارب شخصية أم نتاجاً للاستقراء من وثائق قانونية أو رسمية أو قنصلية أو وثائق عائدة لما تحتفظ به الأسر الفلسطينية من أوراق للأباء والأجداد - إنما هي قليلة العدد ، بل وتظل فائدتها مقصورة على كونها مصادر إرشادية او إيضاحية. ومن ثمّ ، فإن ما سُبر من أغوار التاريخ الاجتماعي لفلسطين ، أو ما قد يسميه البعض المعيشة اليومية في البيوت لعموم الناس القاطنين في مدن فلسطين وقراها إبان الفترات السابقة على الانتداب البريطاني (1917 / 1918) ، ما زال محدوداً ، لا سيما ما يتعلق منه بالفترة التي رافقت نهاية القرن التاسع عشر وسبقت ومهدت للتحول الكارثي الذي أصاب فلسطين في مستهل القرن العشرين.

بيد أن الأدهى هو عدم إطلاع جمهور القراء العرب على هذا التاريخ والأحداث التي يزخر بها ، وهنا تبرز أهمية هذا الكتاب وترجمته إلى العربية كونه إضافة مهمة صوب تحقيق الغاية المنشودة ؛ فبفضل الجهود الفردية للمترجم جمال أبو غيدا - النابعة من عقل صاف وبصيرة

نافذة - بات بين أيدينا هذا الكتاب: حياة البيوت في فلسطين بدقته الظاهرة وترجمته الوافية لمؤلفته ماري إليزا روجرز ، وهي سيدة إنجليزية خبَرت بنفسها الحياة اليومية لمعظم شرائح المجتمع الفلسطيني إبان خمسينيات القرن التاسع عشر ، عندما رافقت أخاها إدوارد توماس روجرز ، الموظف الدبلوماسي الإنجليزي الذي خدم في عدة مناصب قنصلية ودبلوماسية في البلاد العربية وتحديدا في القدس وحيفا وبيروت ودمشق والقاهرة ، في العام 1855 لدى عودته لفلسطين لمزاولة مهام منصبه الدبلوماسي الجديد كنائب للقنصل البريطاني في حيفا ، فأقامت بمعيته هناك حتى العام 1859 ؛ وها هي تجربتها بين أيدينا باللغة العربية الآن.

كان المجتمع الفلسطيني في تلك الفترة - شأنه شأن الشرق الأوسط بأسره - على شفا التغيير والتطور والاتصال بالعالم الخارجي. ومع أن هذا الكتاب يسلط الضوء على تفاصيل عملية التحول التي شهدها المجتمع الفلسطيني آنذاك ، الا أنه يتناول ذلك من منظور يشب عن طوق المحلية. لقد تعرضت المنطقة في تلك الحقبة إلى موجة عاتية من الانكشاف على الآخر ، والاستغراق في التحولات بل والاضطرابات التي نتجت عن احتلال نابليون لمصر في العام 1798 ، فأميط اللثام عن بُعد جديد حمله القرن الوافد في صورة صراعات أوروبية سياسية واقتصادية عنيفة شاءت الأقدار أن تكون فيها فلسطين وغيرها من بلدان الشرق الأوسط مسرحاً لتلك الصراعات. لقد أفضت السياسات الغربية الخاصة بفلسطين خلال نهاية القرن التاسع عشر إلى ما يعرف باسم وعد بلفور وإلى تحديد مصير فلسطين وشعبها طوال العقود التي تلت الحرب العالمية الأولى. أما داخل البلد نفسها فقد تضافرت هذه السياسات الدولية مع الفساد والإفلاس السياسي الذان ميّزا أداء الإدارة العثمانية في مراحلها الأخيرة ، فأشاعت أجواء وأوضاع تركت أثرا بالغا على كافة أطياف المجتمع الفلسطيني.

سطرت المؤلفة هذا الكتاب خلال منتصف القرن التاسع عشر (1855 - 1859) ، كاشفةً عن تفاصيل ودقائق الأنماط المعيشية للفلسطينيين آنذاك ، مع بعض التركيز على المناطق الشمالية من فلسطين ،لا سيما حيفا والبلدات والقرى الشمالية ، لكن الكتاب غطى معظم

مناطق فلسطين وتحدث عنها.

وتجدر الملاحظة في هذا المقام أن هذه الفترة تميزت بالتأثير الذي تركه النشاط الزراعي وصناعة الصادرات الفلسطينية القائمة على المنتجات الزراعية ، وخصوصاً في مناطق الشمال الفلسطيني على حياة المجتمع والشرائح والطبقات الاجتماعية المكونة لهذا المجتمع كما تبين التجارب التي خبرتها السيدة روجرز وساقتها في كتابها هذا.

لقد أجادت المؤلفة توثيق صور النفوذ الغربي ، لا سيما البريطاني والفرنسي ، وتعاظم حضوره في فلسطين ، مؤكدةً ومرسخةً ما أصبح حقيقة سياسية وطّأت لها الإتفاقيات التجارية التي كانت تركيا العثمانية قد بدأت بإبرامها مع القوى الأوروبية العظمى كاتفاقيات تجارية في القرن السادس عشر ، والتي تحولت لاحقا الى إستسلام (2) للنفوذ الغربي مكّن هذه الدول العظمى من التسلل تدريجيا إلى الإمبراطورية العثمانية. وجاءت الأثار التي تركتها هذه الأحداث على المجتمع الفلسطيني بانكشافه البطيء على أنماط الحياة والأفكار الغربية والنفوذ الغربي واضحة المَعالم. فاتجه الفلسطينيون الأكثر ثراء في تلك الحقبة إلى محاكاة الغرب والأخذ بالابتكارات الغربية المستوردة في حياتهم.

كانت ماري إليزا روجرز نتاجا لمجتمعها وزمنها ، وكانت ذات خلفية إنجيلية أصولية وأفكار تتناسب وهذه العقلية عند تفسير وفهم التاريخ والأحداث. ورغم نهجها الاستشراقي إزاء المجتمع العربي بمسلميه ومسيحييه ، الا أنها كانت راوية صريحة وأمينة للحقائق التي تظهر مدى رسوخ المجتمع الفلسطيني وتمسكه بأركان ثقافته وثباته على تراب أرضه. بل إنها - باستقراء الكثير من الاوجه - عالمة مثقفة بعلوم الإنسان وباحثة غير متكلفة ، تقيم صلة شخصية وثيقة بما تتناول من مواضيع ، فضلاً عن استعدادها لخوض الصعاب من أجل الحصول على القصة بتفاصيلها.

وعلى الرغم من الأوضاع الاجتماعية الاقتصادية المزرية التي سادت تلك الحقبة (كانعدام النظافة العامة ، وتفشي المرض والجهل والإنقسامات الإجتماعية الصارخة) في فترة اصطبغت بالفساد وبتداعي أركان المؤسسات الرسميه للدولة العثمانيه ، فإن السيدة روجز تكشف بكتابها هذا عن أصول المظاهر الاجتماعية والثقافية التي أقام عليها الفلسطينيون

وما يزالون (من تقاليد وعادات في الطعام والتضامن والتراحم).

لقد اطلعت السيدة روجرز خلال الأحاديث الحميمة التي كانت تتبادلها مع الذين عرفتهم من الفلسطينيين ، على مؤشرات مهمة ودقيقة عن مقدار الوعي الفكري والسياسي المبكر للمجتمع. ومن الجليّ أن تلك الفترة شهدت بزوغ البدايات الأولى لنشوء الوعي القومي العربي ، وما صاحبه من مد انتشاري وتنامٍ للإحساس بالعروبة كهوية قومية واضحة المعالم على المستوى الشعبي. وجاءت تعقيبات المؤلفة على الآثار الهدّامة للنظام العثماني على مسار التنمية والتطور التي يتوق المجتمع اليها ، ومدى لهفة هذا المجتمع إلى الخروج من تلك الشرنقة الموغلة في التخلف طلباً للحرية في أماكن عديدة من الكتاب ؛ علماً بأن هذا المنحى الفكري جاء على أيدي أفراد انحصرت تجربتهم في الداخل المحلي ، وكانوا يتحلون ببعض القدرات الفكرية - إذ بدا وجود دوائر من مجموعات النقاش المنظمة التي لم يغب عنها العملاء الغربيون ،-كالقناصل ، بالحضور والمشاركة! - فكان ذلك - إن شئنا التعليل - إيذاناً بتطور الرأي العام المحلي المناصر لفكرة العروبة وما لاقته هذه الفكرة من اعتراضات والمسار الذي اتخذته في طريق تشّكلها كأيديولوجية منظمة!

تقدم ماري قصصا تنبض بالحيوية والدقة عن حياة المرأة داخل أجنحة الحريم المغلقة في البيوت في المدن والقرى الفلسطينية وتستعرض الأنماط الإجتماعية التي كانت تحكم حياة النساء ومعيشتّهن في تلك الفترة ، وهو ما يمنح القارئ فرصة للتعرف عن كثب على الظروف المعيشية للنساء في كافة أطياف المجتمع الفلسطيني ، مّسلطة الضوء على حياة النسوة الريفيات في قراهّن وبلداتّهن ، وعلى سيدات المجتمع في المدن الأكبر والأكثر تعرضا للتأثير الغربي. وبالمجمل ، فأن الصورة التي تقدمها ماري للحياة داخل أجنحة الحريم الخاصة بالنسوة فلسطينيات من شتى الخلفيات الإجتماعية والعرقية والدينية ، تساعدنا على التعرف عليّهن وعلى سلوكّهن في الأفراح والأتراح والعديد من الأحداث الحياتية الأخرى التي كنّ يعشنها في تلك الفترة. كما تطرقت ماري بكثير من الإسهاب الى موجة الحداثة التي كانت تجتاح بعض الأوساط النسوية الفلسطينية خصوصا في البلدات والمدن. وفي الوقت الذي نتعرف فيه عبر صفحات الكتاب على سيدات ونساء بدأن بالتأثر بالنمط الغربي في

المعيشة والسلوك الإجتماعي ، نرى أيضا نسوة متمسكات بعاداتهن وموغلات في الإيمان والتشبث بالخرافات والأساطير والتفكير المحافظ الذي يتماشى وطبيعة المجتمع الفلسطيني خصوصا والشرقي عموما ، في تلك الفترة الزمنية.

إن هذا السِفر لهو كنز من المعلومات عن الكثير من المواضيع التي كانت حاضرة في تلك الحقبة. وإذا شئنا ذكر بعضها في هذا المقام فسنجد أن الكتاب يرسم خارطة طريق توضح تضاريس فلسطين ومناطقها للقراء العرب: أي المدن والقرى التي طُمِست بفعل السياسة الإسرائيلية / الصهيونية القاضية بمحو وطمس الذاكرة الفلسطينية. كما أحيت المؤلفة بكتابها مناحي حياتية لم تجر العادة بسبرها أو دراستها دراسةً وافية على أيدي الباحثين والمؤرخين. وفي حين استأثرت القدس باهتمام وعاطفة الكثير من الكتّاب ذوي الميول السياسية والفكرية ، غُض الطرف عن البلدات الصغيرة والكفور والقرى والحواضر الشمالية في تلك الحقبة المبكرة من التاريخ الفلسطيني الحديث. لذلك يعتبر هذا الكتاب مصدراً ممتازاً للمعلومات في هذا الخصوص.

ومن واقع جولاتها وتجوالها الكثيف في البلد ، قدمت المؤلفة للقارئ الكثير من جوانب المجتمع الفلسطيني بجالياته وطوائفه وعلاقاتهم وعاداتهم وقضاياه الجدلية المتعلقة بوجوده. وتواكب هذا الجهد الوافر مع إشارات المؤلفة إلى أسماء وذريات العائلات في البلدات والقرى التي زارتها ، ما يقدم سجلاً طيباً للمؤرخين ويثري خزائن مراجعهم.

إن هذا الكتاب - مع ترجمته العربية الممتازة بأسلوبها الرشيق وعباراتها الدقيقة وصياغتها الرائقة للعين واللسان - إنما يقدم مورداً عظيماً من المعلومات في هذا المجال للقارئ والباحث العربي والفلسطيني ؛ فهو مصدر حافل بالمعلومة وشائق في الأسلوب. وإنني على يقين من اعتبار القارئ العربي هذا الكتاب كنزاً من المعلومات ومنطلقاً لمعرفة تلك الحقبة التاريخية البالغة الأهمية عن كثب. وعلاوة على ما سبق ، يستعرض الكتاب تفاصيل وجزئيات دقيقة لأنماط الحياة في أوساط الفلسطينيين ، التي قد يبدو بعضها الآن بالياً أو متقادماً ، لكن ذلك المهجور أو المتقادم - أو جوهره إن شئت - ما زال حياً في الذاكرة الجمعيّة لكل الفلسطينيين حيثما كانوا ، في الوطن وفي الشتات.

الفصل الأول

من لندن إلى حيفا

قد لا يكون المقام ملائما هنا للحديث عن لحظات الفراق وتحيات الوداع المتبادلة على متن سفينة الراين ، التي رست بالقرب من جسر لندن ليلة الرابع عشر من حزيران /يونيو 1855.

كان المد مواتيا عند انتصاف الليل ؛ فقرع جرس السفينة وانطلق البخار وسارع الأصدقاء المتبقون لمغادرة السفينة ، فوجدت نفسي وحيدة مع أخي ، الذي كان قد أمضى إجازة امتدت لبضعة أشهر في إنجلترا ، بعد أن عمل لأكثر من ست سنوات بوظيفه قنصلية في سورية ، وقد وافقت بسرور على السفر معه لدى عودته للالتحاق بوظيفته من جديد.

رست السفينة في اليوم التالي في مرفأ بولون الفرنسي ، قبل أن ننطلق من هناك إلى ميناء مرسيليا لنبلغها في الوقت المحدد ، من أجل ركوب سفينة إيجبتوس في صبيحة الحادي والعشرين من حزيران /يونيو ، ثم عبرنا مضيق بونيفاشيو في ظهيرة الثاني والعشرين من الشهر ، أما يوم الأحد في الرابع والعشرين من حزيران /يونيو فقد أمضينا بضع ساعات على شاطئ مالطا.

وصلنا الإسكندرية صبيحة يوم الخميس ، وبعد أن زرنا قصر سعيد باشا ومسلة كليوباترا وعمود السواري ، صعدنا على متن الباخرة تايج في مساء التاسع والعشرين من حزيران / يونيو ، حيث كانت تعج بالركاب اليونانيين والسوريين والأتراك واليهود ، الذين اضطروا لمغادرة الإسكندرية نتيجة لانتشار الكوليرا فيها ، وقد انطلق مدفع الغروب من قلعة المدينة في الوقت نفسه الذي كانت سفينتنا تغادر فيه المرفأ.

بقينا على سطح السفينة حتى وقت متأخر من الليل ونحن نستمع إلى أغاني البحارة اليونانيين ، الذين كانوا يحتفلون بعيد القديس بولص ، شفيع سفينتهم وحاميها ، بينما كان الركاب المسافرون على سطح السفينة يهيئون أماكن نوم مناسبة لقضاء الليلة ، وسرعان ما بدا الرجال والنساء والأطفال من المسلمين والمسيحيين واليهود ، الذين ناموا متدثرين بعباءاتهم وسجاجيدهم وشراشفهم ، وكأنهم أصداف عملاقة اصطفت بجانب بعضها البعض في ضوء القمر.

اتجهنا في فجر اليوم التالي إلى الصالة الصغرى المريحة الكائنة على سطح السفينة ، وشعرت بالرثاء لما حل بالركاب الذين كانوا نياما وقد فاجأتهم مياه البحارة الذين شرعوا بتنظيف سطح السفينة ، فصاروا يتراكضون جيئة وذهابا في محاولات يائسة للنأي بأنفسهم عن البلل ، ولإبعاد متاعهم وحقائبهم عن المياه المتدفقة.

كنا نستمتع بمشاهدة منظر شروق الشمس فوق البحر الذي تحول لونه فجأة من الرمادي إلى الذهبي ، بينما اكتست السماء بلون قرمزي على امتداد الأفق ، إلا أنني لم أكن قد رأيت اليابسة التي كنت أتوق لمشاهدتها بعد.

في اليوم التالي ، الأول من تموز ، نهضت من فراشي وقد غمرني السرور لسماعي نبأ اقترابنا من الشاطئ ، فصعدت إلى سطح السفينة في الحال ، لأنظر وبفيض من مشاعر الفرح والعواطف الغريبة ، من فوق البحر الأزرق إلى شاطئ فلسطين الممتد شمالا وجنوبا في خطوط متعرجة منخفضة.

أما بلدة يافا ذات الأسوار الرائعة - جوبا القديمة- فقد كانت أمامي مباشرة بمنازلها الحجرية البيضاء ، التي تكاد تلامس مياه البحر ، والتي يعلو بعضها البعض على هضبة مستديرة تنحدر نحو البحر.

بادرني أخي قائلا: انظري بعيدا نحو الجنوب الشرقي ، حيث أشرقت الشمس للتو ، تلك التلال البعيدة التي تكاد تختفي في الضباب هي مرتفعات يهوذا - التلال المحيطة بالقدس ، ويمكنك من قممها رؤية أول مشاهد المدينة المقدسة ، حيث تفصلها عن هذه التلال التي ترين ، السهول الساحلية الشمالية والجنوبية الخصبة لفلسطين وذكرني أخي بالطريقة التي جلبت بها أشجار الأرز والصنوبر من لبنان بواسطة القوارب عبر البحر إلى يافا لكي تنقل من هناك إلى القدس لبناء الهيكل!.

هذا الميناء القديم الذي يمتاز بمرفئه الدائم الازدحام ، والأديرة الكبيرة والمآذن الشاهقة وأشجار النخيل والحدائق الغنّاء ، يكاد يكون البقعة الزاهية والوحيدة المفعمة بالحيوية ، على امتداد الساحل الفلسطيني الرتيب ، الذي يمتد كخط متصل من القمة الجرداء لجبل الكرمل على بعد خمسين ميلا شمالا إلى أطلال غزة ، أربعين ميلا للجنوب.

سرعان ما رسونا خارج الحزام الصخري الشبيه بالهلال بانحناءته ، والذي تبرز بعض صخوره القاتمة اللون فوق سطح الماء ، بينما غمر بعضها الآخر بالكامل تحت الماء ، ولم يكن ثمة ما يدل على وجودها هناك سوى ارتداد الأمواج عنها. يمتد هذا الحزام الصخري كحاجز أمام البلدة ، ويشكل ميناء طبيعيا بعمق يبلغ الخمسين قدما تقريبا ، لا يمكن عبوره سوى بواسطة القوارب الصغيرة ، ولا يوفر ولا حتى الحد الأدنى من الحماية خلال الظروف الجوية السيئة. ترتبط هذه الصخور الجرداء تقليديا بأسطورة بيرسيوس وأندروميدا (الملك الإغريقي الذي تزوج ابنة ملك الحبشة حسب الميثولوجيا الإغريقية-المترجم).

كانت بارجتان حربيتان نمساويتان راسيتين على مقربة منا بانتظار اصطحاب الأرشيدوق ماكسميليان وحاشيته الذين كانوا يزورون مدينة القدس آنئذٍ ، علاوة على بعض السفن التجارية الفرنسية واليونانية وبعض الزوارق العربية الصغيرة التي كانت تبحر في الأنحاء.

وفي هذه الأثناء ، اقترب منا قارب الحجر الصحي الذي كان يقل رجل أمن وموظفا من موظفي الحجر الصحي في المدينة ، لتزويدنا بسلال من البرتقال والمشمش والليمون. وقُدم لي غصن برتقال جميل يزهو بأوراقه النضرة وحبات البرتقال الطازجة. واجهنا صعوبة في الانتقال إلى قارب الحجر الصحي الصغير المخصص لنقلنا للشاطئ ، نظرا لهبوب رياح خفيفة أدت إلى تشكيل أمواج ساهمت في اضطراب المياه ، وكان البحارة العرب على متن القارب المخصص لقطر قارب الحجر الصحي يرفضون مجرد لمسه ، حتى ولو اقتضت الضرورة ذلك ، خوفا من احتجازهم في المحجر الصحي كإجراء احترازي لمنع الانتشار المحتمل للعدوى. بعد العديد من المحاولات اليائسة ، نجحنا نحن واثنان من الرهبان الفرنسيسكان والمتاع الذي كان بمعيتنا ، وبعد أن شارفنا على السقوط في مياه البحر بالنزول بشكل فوضوي إلى قارب الحجر الصحي ، ثم جررنا بواسطة الزورق الصغير بعنف عبر الأمواج التي كان يختفي خلفها تماما بين الحين والآخر عندما تفصلنا عنه إحدى الأمواج المرتفعة ، وعندما دنونا من الحزام الصخري شعرت بأنه من المستحيل أن لا يتعرض قاربنا للارتطام بالصخور وأن يتحول إلى حطام ، فالتزمت الصمت وانتابني الخوف طوال الوقت الذي استغرقناه لعبور الممر المائي الضيق ، ولكن سرعان ما تلاشى الخطر المحدق بنا ،

فقد كانت المياه داخل الحزام هادئة جدا كمياه البحيرات ، حينها فقط ، عدت للتأمل بالمشهد الأخاذ المحيط بي. كان للحاجز الصخري فتحتان ، إحداهما صوب الشمال بينما الأخرى باتجاه الغرب ، وهي التي دخلنا منها ، حيث أحسست خلال عبورنا باحتكاك القارب بالصخور من تحتنا.

كانت الساعة قد شارفت على الثامنة والنصف ، وكان المرفأ قد بدأ يزدحم بالناس الذين ارتدت الغالبية العظمى منهم أزياء محلية زاهية الألوان ، كما تواجد بعض الغربيين الذين كانو يرتدون الملابس الدارجة في بلاد الشام ، التي تمتاز بلونها الأبيض من الرأس حتى أخمص القدم. كما رفرفت الأعلام والرايات من على السواري التي تعلو مباني القنصليات الأجنبية والأديرة ، ومن على السفن أيضا ، ونظرا لأن اليوم كان يوم أحد ، فقد سادت في الأنحاء أجواء العطلات.

عبرنا المدينة في طريقنا إلى مركز الحجر الصحي ، الذي كان عبارة عن مبنى معزول يقع على مسافة قريبة من الأسوار الجنوبية للبلده.

تعالت صيحات الترحيب الودية الموجّهة لأخي من الشاطئ بالعربية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية ، وعندما شارفنا على الوصول إلى وجهتنا ، سحب القارب نحو الرمال ، وقام موظف الحجر الصحي الذي اقتصر لباسه على ثوب طويل وحزام للوسط ، بالقفز إلى المياه التي وصلت حتى ركبتيه ، ليحملني بذراعيه القويتين ركضا عبر المياه نحو الشاطئ الرملي ، ثم على اليابسة ليطلق سراحي ، بعد أن تركني في عهدة موظف صحي آخر كان يقف على أسفل الدرجات المؤدية إلى مركز الحجر الصحي ، وما لبث أن عاد مسرعا للقارب من أجل الركاب الآخرين ، الذين عاد بهم حملا على ذراعيه أيضا واحدا تلو الآخر نحو اليابسة.

كثيرا ما كنت أتساءل عن المشاعر التي ستنتابني عندما تطأ قدمي تراب فلسطين ، ولكن الأحداث التي مرت بنا لدى وصولنا تكفلت بالقضاء على رومانسية الموقف ، فقد نسيت أو كدت أن أنسى بأنني في الأراضي المقدسة ، بينما ازداد شعوري بأنني سجينة في واقع الأمر ، وبعد أن انضم الي شقيقاي والراهبان المرافقان لنا ، تم اقتيادنا عبر الدرجات الحجرية إلى باب يؤدي إلى ساحة داخلية مربعة تتكون أضلاعها من جدران مبان حجرية ذات أسقف

مستوية وواطئة تمتاز بحالتها المزرية. كان في منتصف الساحة بئر عميقة تعلوها مظلة خشبية ، وتحف بها أشجار توت مكسوة بأوراق كبيرة نسبيا ترتفع نحو السماء لتترك حولها ظلالا وارفة ومريحة ، وكان مركز الحجر الصحي مكتمل العدد على غير العادة بسبب انتشار وباء الكوليرا في مصر.

أما رفاقنا ، راهبا الفرانسيسكان ، فقد تم إيواؤهما مع مجموعة من الحجيج في غرفة ضمت ثمانية منهم.

الغرفة الوحيدة الشاغرة كانت ذات باب يفتح على ساحة صغيرة في الزاوية اليمنى من المجمع ، وقد تم تخصيصها لنا ، ومع أنها لم تمتلك ما يؤهلها لتكون سكنا ملائما إلا أننا عقدنا العزم على استغلالها بأفضل شكل ممكن ، مساحتها كانت 12 قدما مربعا تقريبا وذات أرضية حجرية ، وقد طليت جدرانها باللون الأبيض ، أما بابها الذي لم يكن أكثر من ألواح خشبية متراصة كيفما اتفق ، فلم يكن مزودا بمصاريع من الداخل ، كما احتوت الغرفة على نافذة شمالية ذات زجاج بارز ، تطل على البحر الأزرق والشاطئ الصخري والسور الشمالي ليافا ، مع ما يجاوره من مشهد جميل للبيوت ذات الأسطح المستوية التي يعلو بعضها البعض ، وتتصل فيما بينها بأدراج تفصلها عن بعضها شجرة نخيل هنا أو مئذنة جامع هناك ، وكانت مجموعات من الصبية ترتع وتلعب تحت الأشجار القريبة منا ، بحيث عوضت حسنات المشهد خارج الغرفة الكآبة التي كانت طاغية في داخلها.

خلت الغرفة من أي شيء باستثناء حقائبنا وحارس الحجر الصحي المرافق لنا بعصاه الطويلة ، والآلاف من الحشرات الطائرة وبيت للنمل ونحن!

جلست بصعوبة على المقعد الضيق المحاذي للنافذة ، بينما ألقى شقيقي بنفسه على الحقائب وصناديق الأمتعة ، ولم يكن بوسعنا سوى الضحك على بعضنا البعض ، وعلى الأوضاع السخيفة التي وجدنا أنفسنا فيها ، ولولا أننا كنا نتمتع بصحة جيدة ومعنويات مرتفعة لاختلفت خطورة الموقف تماما.

من حسن الطالع أن أخي لم يكن غريبا عن المنطقة وهذا ما وفر لنا الكثير من المساعدة ، فقد قام السيد خياط ، القنصل الإنجليزي- وهو من بلاد الشام أساسا- بإرسال مترجمه

الخاص لمساعدتنا ، حيث سارع بتوفير حصير وفرشات للنوم ولحافات ؛ وهو الأمر الذي مكننا من تهيئة مجلس أو ديوان مؤقت.

بعد وقت قصير ، جاء السيد جراهام ، صديقنا العزيز من القدس لزيارتنا ، حيث وقف خارج نافذتنا بوجود الحارس الذي وقف هناك لمراقبتنا ، فلو حدث أن لامست أيدينا أيدي الضيف الزائر ، فسوف يتعين عليه الانضمام إلينا في الحجز المفروض علينا ، وقد قام السيد جراهام بإعارتنا شيئًا من أثاث خيامه وبعضا من أواني الطبخ وغيرها من اللوازم الضرورية ، ما جعل إقامتنا أكثر راحة واحتمالا.

عندما اضطررنا لارسال من يشتري لنا الطعام من السوق ، وجب علينا أن نضع النقود في كوب مليء بالماء لمنع انتشار العدوى ، والطريف أننا كنا نتمتع بصحة أفضل بكثير من مظهر أي من السُّعاه القذرين وشبه العراة ، الذين قاموا على خدمتنا وشراء احتياجاتنا من الدجاج وحليب النعاج والبن والأرز والفاكهة والخضراوات من السوق بأسعار معقولة جدا.

كانت الساحة تضم غرفتين أخريتين إضافة إلى غرفتنا ، كان في إحداهما مجموعة من المسافرين المسلمين بينما احتل الحجاج الفرنسيسكان الغرفة الأخرى ، ولما كانت الساحة التي تتوسط المكان تنعم بظلال الأشجار الباسقة ، فقد كانت الحرارة فيها أبرد بكثير من حرارة الغرف ، ما دعانا جميعا لتناول طعام الإفطار سوية فيها.

توضأ جيراننا المسلمون وفرشوا سجاجيد الصلاة الخاصة بهم وأدوا صلاتهم ، ثم تحلقوا حول طبق من الأرز والسمن والبندورة ، وأكلوا جميعا بأيديهم من الصحن نفسه ، كانوا يأكلون بسرعة وبصمت ثم غسلوا أيديهم وشرعوا بتدخين غلايينهم وأراجيلهم ، وفي تلك الأثناء دعانا الرهبان ، الذين كانوا يجيدون الفرنسية والإيطالية والإسبانية ، إلى تناول شيء من المأكولات المحفوظة والعصائر التي كانت بحوزتهم.

سُمح لنا بعد أن مالت حرارة النهار للاعتدال بالخروج لنتمشى ، برفقة أحد حراس مركز الحجر الصحي الذي كان مكلفا بمنعنا من الاحتكاك بالناس.

هبطنا الدرجات المؤدية إلى سجننا بسعادة بالغة ، ووصلنا رمال الشاطئ مع غروب الشمس

التي صبغت السماء والبحر وجدران يافا البيضاء باللون الأحمر المتوهج. مشينا بمحاذاة الشاطئ باتجاه الجنوب ، فكانت التلال الرملية المكسوّة بالأعشاب على يسارنا ، وأمواج البحر المتقاذفة باتجاهنا على ميمنتنا ، وصادفنا هيكلا عظميا لجمل غمرت أجزاء كبيرة منه بالرمال ، كما عثرنا على العديد من الأصداف وعظام لأسماك متنوعة بما فيها الحبار ، وعلى بعد حوالي الميل من مركز الحجر الصحي كان الشاطئ يعج بالأصداف التي كانت غالبيتها العظمى قد تحطمت ، أما الصخور التي شكل بعضها أرصفة بحرية طبيعية ، بينما ارتفع بعضها الآخر فوق الشاطئ ، فقد بدت وكأنها رواهص صخرية مكونة من الرمال والأصداف التي تتفاوت درجات صلابتها ، وعلى الرغم من تشابه هذه الكتل الصخرية من حيث المظهر العام ، إلا أن بعضها كان بصلابة الرخام ، بينما كان من السهل تفتيت البعض الآخر منها ، وكان من السهل أيضا فصل الأصداف المطمورة داخل الرمال بقليل من الجهد.

عندما اختفت الشمس تماما وراء الأفق ، استدار الحارس عائدا إلى مركز الحجر الصحي فتبعناه بطاعة وإذعان ، كانت أنوار البلدة قد سطعت ، وانعكست الأضواء المنبعثة من السفن الراسية في الميناء على المياه الهادئة ، وكانت النجوم تُشع في السماء ؛ لأن الليل يحّل سريعا عقب النهار في هذا الجزء من العالم ، ما يجعل من تكّون الشفق امرا نادر الحدوث.

أعد الصبي الذي تولى دور الطباخ والنادل الخاص بنا وجبة العشاء ووضعها على الأرض تحت أشجار التوت ، وكان السراج الموضوع على حجر أسود كبير يلقي بنوره المترجرج على أطباق الطعام ، أما الملح الذي كان خشنا ولاذع المذاق ، فقد قام الصبي بوضعه في صدفة فارغة وملساء ، وهو ما حاول لفت انتباهنا إليه ، أملا بأن نبدي إعجابنا بأفكاره الخلاقة ، ثم جلسنا على حصير من القصب ونحن محاطون بنمل أحمر يبلغ طول الواحدة منها ثلاثة أرباع الإنش ، وهرعت القطط من مخابئها في الظلام وهي تتوق لمشاركتنا وجبتنا.

نام العديد من الحجاج والبدو على الأرض في الهواء الطلق ، وتوزعت فرشات النوم على الأسطح المستوية وشرفات المباني المحيطة بالساحة.

لم يكن هناك نساء ضمن طاقم العاملين في مركز الحجر الصحي ، كما لم تكن هناك نساء

بمعية رفاقنا المحتجزين ، وبينما كان شقيقي مستلقيا في الساحة وهو يدخن في ضوء النجوم ، قمت أنا بتجهيز وإعداد غرفتنا لتكون مريحة قدر الإمكان في ظل الظروف المتاحة ، وبالرغم من الأوضاع المزرية المحيطة بنا ، فقد حاولنا الترويح عن أنفسنا ، في الوقت نفسه الذي حصلنا فيه على دروس مفيدة في كيفية التمييز بين الضرورات والكماليات في الحياة المتمدنة.

في اليوم التالي جاء من يبلغنا بأن طبيب مركز الحجر الصحي ، وهو فرنسي ، سيقوم بزيارتنا بغرض الاطمئنان على صحتنا ، ووصل بعد ذلك بوقت قصير إلى الساحة الصغيرة ، بمعية ثلاثة من موظفيه الذين وقفوا مقابل باب غرفتنا وهم يتجنبون اي اتصال جسدي بنا أو بأي من النزلاء الآخرين الموجودين في المركز ، وعندما تقدم لتحيتنا ، عبّر عن سروره البالغ لمظهرنا الصحي وهنأنا على اختيارنا لأفضل غرفة في المركز ، وعلى احتفاظنا بها لأنفسنا بالكامل خصيصا ، ثم انصرف محييا إيانا بانحناءة فخمة وهو يقبل يده ويردد سأتشرف بمنحكم شهادة الخلو من الأمراض المعدية غدا

أُطلق سراحنا في الساعة السابعة والنصف من صباح الثالث من تموز/يوليو ، فصعدنا السلالم الخلفية لمركز الحجر الصحي بسعادة ، واجتزنا المقبرة القريبة المكتظة بالقبور ، ثم مررنا بالقرب من صوامع الحكومة التي كانت مبنى ضخماً خارج البلدة احتشدت أمامه قوافل الجمال التي كانت بانتظار تفريغ أحمالها الثقيلة ، بينما وقفت النسوة ببراقعهن وعباءاتهن البيضاء في مجموعات ، وسلال العنب والتوت تستقر بتوازن عجيب على رؤوسهن ، وكانت أسوار يافا التي تحاكي أسوار القلاع الحربية المحاطة بالخنادق على ميسرتنا ، بينما كانت أشجار البرتقال والليمون والنخيل والرمان ذات الظلال التي شكلت ما يشبه رقعة الشطرنج على الشاطئ الرملي في الجهة المقابلة ، وسرعان ما بلغنا الطريق العريض على مدخل بوابة البلدة ، حيث احتشدت أعداد من الجمال والفلاحين والبغال والبغالّة ، قريبا من سوق الفواكه والخضراوات الذي انتشرت فيه الأكشاك والخيم الصغيرة ، التي تظلل المدخنين الذين جلسوا تحت الأشجار الباسقة بطرابيشهم وعمائمهم ، وبدا أن الباعة المتجولين للقهوه والشربات والفحم المشتعل والجاهز لإشعال المئات من

الغلايين والأراجيل التي يعج بها المكان ، يلاقون طلبا متزايدا من الجمهور.

وجب علينا أن نعبر المدخل المقنطر للبلدة بحرص وحذر كي لا نعلق في الحبال المتدلية من الجمال ، وقد سررت حين عثرت على ملاذ ظليل يقيني من أشعة الشمس اللاهبة ، خلال مرورنا في البازارات التي كانت عبارة عن أروقة ومجازات طويله تصطف الدكاكين الصغيرة على جانبيها ، وتظللها قطع من القماش أو الحصائر الضخمة ، وكان صانعو الأحذية منهمكين في صناعة الشباشب المغربية الصفراء أو الأحذية الجلدية الحمراء في العديد من هذه الدكاكين ، بالإضافة إلى الخياطين وهم منشغلون بتطريز الأثواب ، وصانعي الغلايين الطويلة وهم يقولِبُون الصلصال جلوسا على الأرض أمام منصات واطئة ترتفع نحو قدمين عن الأرض. وفي دكاكين أخرى في البازار ، كان أرباب الدكاكين يعرضون بضاعتهم من الحرير المستورد من حلب ودمشق ، والقطن القادم من مانشستر ، والبراقع والمناديل المستوردة من إسطنبول وسويسرا ، وهم يدخنون بشراهة ويستلقون باسترخاء وسط هذه السلع الزاهية. أما دكاكين الحلاقين والمقاهي فقد كانت أكثر اتساعا ، وكان الزبائن يترددون عليها بأعداد أكبر من الدكاكين الأخرى. لم ألتق بامرأة واحدة في البازار ، فالرجال والصبية هم من يتولى كل عمليات البيع في بلدات الأراضي المقدسة.

نزلنا عبر أزقة من الأدراج الضيقة والمتهالكة إلى دار القنصلية الإنجليزية ، التي كانت على مقربة من الشاطئ وقتئذ ، واستقبلنا بحفاوة وأُخذنا عبر الباحة إلى غرفة مربعة يعلوها عقد حجري ذو فجوة جدارية مرتفعة متصلة بشرفة مطلة على البحر ، وأضفت الوسائد الموزعة على الأرائك في الديوان والسجادة التركية على الأرض أجواءً حميمة للغاية على المكان ، ومع الارتياح الناتج عن تحرري من قيود مركز الحجر الصحي ، سرعان ما شعرت أنني في بيتي ، خصوصا بوجود السيدة خياط ، وهي من السكان الأصليين للبلاد ، والتي قالت لي ، بمشاعر الضيافة المعروفة لدى الشرقيين: البيت بيتك ، اطلبي ما تشائين كما تشائين

كانت شقيقتها الأصغر ، فرحة ، تتحدث الإنجليزية بطلاقة بفضل دراستها في مدرسة الإرسالية التبشيرية في بيروت ، وكانت ترتدي ثوبا قطنيا أبيض مفتوحا حتى الخصر ، تظهر فتحته قميصا شبكيا خفيفا يبرز صدرها ورقبتها ، وكان من السهل رؤية بنطالها التركي

المصنوع من الحرير الأزرق عبر التنورة الشفافة ، بينما ارتدت أمهما جاكيتا مخمليا مطرزا بخيوط من الفضة وتنورة حريرية بيضاء.

ضمت القاعة أيضا عددا من السادة الذين كانوا يدخنون الأرجيلة ، كما هي الحال مع السيدات ، ودارت القهوة القوية والخالية من الحليب في فناجين صغيرة تخلو من المقابض وضعت على مناصب صغيرة بحجم كؤوس البيض العادية ، ويومئ الضيف بعد أخذ فنجان القهوة إيماءة خفيفة برأسه ويرفع يده حتى جبهته لتحية المضيف أو المضيفة ، اللذين يردان على تحية الضيف بمثلها.

بوشر بإعداد وجبة فطور عربي اشترك في تحضيرها العديد من الحضور ، بمن فيهم بنات القنصل الثلاث ، بأزيائهن الجميلة التي كانت مزيجا من الزي الأوروبي والزي الشرقي التقليدي ، الطبق الرئيسي في الوجبة كان عبارة عن كمية كبيرة من الأرز المطهو بالسمن ، الذي يحتوي قطعا من اللحم المقلي ، بالإضافة إلى طبق من الكوسا المحشوة باللحم المفروم والبهارات بعد أن أفرغت من لُبّها وبذارها ، إضافة إلى سمكة شهية ، وورق العنب المحشو بالأرز واللحم المفروم والتي بدت كحبات النقانق الصغيرة ، علاوة على طبق من اللحم المغطى بالبندورة والصنوبر والسمن والبيض ، ثم طير داجن مطهو جيدا وسلطة شهية ، ثم أطباق التحلية التي كانت تتألف من كل أصناف الفاكهه التي يمكن أن تنمو في بيارات يافا ، وقد خرجت من هذه المائدة بانطباع إيجابي جدا عن الغلال الصيفية الموجودة في بلدة واقعة على ساحل فلسطين.

عند الظهر تقريبا ، بعد تناول وجبة الفطور هذه ، كان كل أفراد العائلة تقريبا ينشدون الحصول على قسط من الراحة ، على مقاعد الديوان أو على الأسرة المزودة بالناموسيات ، للتدخين أو النوم.

دعتني السيدة خياط ، عندما خفت حدة القيظ في الخارج ، لمرافقتها لزيارة ابنة عمها الست ليا ، وذلك من أجل تهنئتها بمولودها الجديد ، وسرعان ما كانت السيدات جاهزات للخروج ، وذلك لبساطة الملابس التي يرتدينها عند خروجهن ، فهي تتألف من برقع من الموسلين الملون بألوان زاهية تبلغ مساحته ياردة واحدة تقريبا ، يغطي الرأس والوجه ،

ووشاح أو شال يحيط بالخصر كحزام ، ثم عباءة تتكون من قطعة قماشية ناعمة بمساحة ياردتين مربعتين تقريبا ، تغطي الرأس والكتفين وتطوى بعناية عند جبهة الرأس ، وتأخذ استدارة الوجه في نزولها إلى أسفل الذقن ، بحيث تغطي الصدر والجزء الأمامي من لباس المرأة بالكامل ، وتُزمّ عند مقدمة حزام الوسط ، ما يؤدي إلى ارتفاع العباءة نحو ثلاث بوصات عن الارض ، بينما ترتخي بشكل مستقيم من الخلف وصولا إلى كعبي قدم المرأة ، وتبقى اليدان داخل العباءة للإمساك بإحكام بها من الداخل ، بحيث لا يبدو للعيان سوى منديل الموسلين الملون والمخصص لتغطية الوجه ، وبهذا الشكل يكاد يكون من المستحيل تمييز أية امرأه ترتدي هذا اللباس إلا إذا امتازت بمشية معينة أو بسمات جسدية معروفة ، ويكتمل هذا الزي أخيرا بخف أصفر أو أحمر ينتهي بنتوء مرتفع عند نهايات أصابع القدم.

من الممكن لقراءي أن يصنعوا نسخة مقلدة من هذا اللباس بسهولة ، باستخدام قطعة قماش كعباءة ومنديل حريري ملون كبرقع ، بحيث تتكون لديهم فكرة واضحة عن الهندام الخارجي للنساء في البلدات الرئيسية في فلسطين ، ولا بد من التذكير بأن الكرينولين القطني (ضرب من الملابس التحتية التي استخدمتها السيدات في الغرب في القرن التاسع عشر-المترجم) لا يستخدم على الإطلاق في هذا الزي ، بل إن بناطيل طويلة وناعمة تعلوها تنورة وسترة وقميص هو كل ما يتم ارتداؤه تحت العباءة أو الإزار(3).

قادتني السيدات المغطيات من الرأس حتى أخمص القدم إلى الخارج ، وسبقنا قوّاس تولى مهمة فتح الطريق لنا ، وهو ما لم يكن ضربا من الترف على الإطلاق ، فمن الضروري أن تخطر السيدات في مثل هذه الطرقات المتدرجة والضيقة بانحناءاتها الشديدة والمتعرجة ودرجاتها المحطمة ، بقدوم حصان جامح أو بغل محمل بأوزان ثقيلة أو بجمل هائج مندفع عبر هذه الطرقات.

كنت ألحظ عند مروري بالقناطر التي تشكل مداخل بعض البيوت الفخمة ، بقايا أعمدة جرانيتية وقواعد رخامية وتيجان منحوتة ومزخرفة للأعمدة الجرانيتية ، وقد أحضرت على الأرجح من خرائب عسقلان ، لتستخدم للمساعدة على امتطاء صهوات الخيول أو النزول

منها.

اجتزنا بوابة منحفضة لنجد أنفسنا في ساحة كان فيها فتيات زنجيات منهمكات بغسل الملابس ، قبل أن يفاجئنني بالانقضاض على يديّ وتقبيلهما ووضعهما على جبهاتهن الشبيهة بالأبنوس ، فأدركت حينها أهمية البقاء على استعداد لسحب يدي للخلف بلطف ولكن بحزم ، وفي الوقت المناسب تفاديا للإحراج ، بعد أن علمت بأن هذه هي الطريقة المتبّعة في الرد على فروض الاحترام والخضوع التي يتلقاها المرء ، كما أن رفض تقبيل اليد يعني بأنك لا تقبل بإذلال الشخص الذي يقوم بذلك.

لكن الوضع يكون مختلفا في حالات بعينها ، فعلى سبيل المثال ، إذا تقدم شخص ما لطلب الصفح منك أو لطلب حمايتك أو لطلب أي معروف اخر ، فإن رفضك السماح له بتقبيل يدك أو قدمك ، سوف يفيد بأنك ترفض تلبية طلبه.

يصر الكهنة في العادة على انتزاع هذا التبجيل الذي يقدمه الناس لهم من دون تردد ، أما الرجال العاديون الذين يحاولون نيل هذا التبجيل بشكل مستمر ، فيطلق عليهم العامة كنية الخوري أو الكاهن.

نزلنا سلالم حجرية إلى مصطبة مشتركة بين غرفتين ، دخلنا الغرفة الأولى منها فكانت مربعة الشكل وقد طليت جدرانها باللون الأبيض ، وغطتها ستائر من الموسلين الأبيض والزهري اللون ، كان في أحد أركانها سرير منخفض ، بينما كانت فرشات بعرض الياردة تقريبا موضوعة على الأرض ، على طول الأضلاع الثلاثة الأخرى للحجرة ، كما كانت المساند والوسائد المغطاة بقماش البروكار الدمشقي الموضوعة عليها مستندة إلى الحائط ، بحيث شكل هذا الأثاث بمجموعه قاعة جلوس مريحة للغاية ، وتكفلت سجادة تركية بتغطية الأرض الحجرية للغرفة ، التي جلست عليها النسوة وهنّ يدخن نراجيلَ انبثقت أنابيبها الطويلة من قوارير حمراء كبيرة من الكريستال البوهيمي ، التي وضعت في أحد أركان الغرفة بينما كانت فقاعات الهواء تضطرب وتكركر في داخلها.

اضطجعت أم في ريعان الشباب على السرير المنخفض ، وقد استرسل شعرها الأسود الطويل وغير المجدول على وسادتها المطرزة ، أما طربوشها الأحمر الذي وضعته فوق رأسها

فقد زيّنته بعصابة زرقاء وأزهار من فصيلة النجميات ، وتركت يديها الشاحبتين باسترخاء فوق لحاف من الحرير الأحمر القاني ، وأعطت ألوان ثوبها الحلبي المخطط بالأبيض والأصفر تضادا وتباينا هادئين مع لون وجهها الشاحب وعينيها المتعبتين من الحمى ، وعندما أمسكت بيدها بادرتني قائلة: أهلا بك يا أختي ، أنا مش لازم أحكي ، بس قلوبنا بتحكي مع بعض ، ثم أزاحت لحافا صغيرا أزرق مطرزا بخيوط فضية أطلّ من تحته طفل حديث الولادة لا يتجاوز عمره بضعة أيام ، فرفعته بين يدي ، وجاءت أصوات السيدات من خلفي وهن يردّدن سوية: ان شا الله بتفرحي عن قريب بحمل ولاد من نسل أبوكي! ان شالله يتزوج أخوكي عن قريب والله يرزقه بأولاد كثار

عندما حملت الوليد بين يدي ، كان مقمّطا بقماش قاس وصلب للغاية بحيث بدا كمومياء ، وامتدت العصبة التي ربطت أسفل ذقنه إلى جبهته ، حيث كان قد أُلبس طاقية حريرية صغيرة وضعت قطع من العملات الذهبية الصغيرة في أهدابها ، وغُطي من الخارج بلحاف حريري مخطط بالأحمر والأبيض ، ولم يكن هناك ما يدل على وجود الذراعين أو الساقين أو اليدين أو القدمين.

أخذت أخت زوج ليا ، التي كان رأسها مزدانا بقدر أكبر من المجوهرات والأزهار ، الوليد مني ، ووضعته في مهد متأرجح مجلل بالموسلين الزهري والأبيض الموشح برسوم لأزهار متنوعة ، وغطّت المخلوق الصغير بأغطية سميكة جدا بحيث بدا مهددا بالاختناق ، ثم أسدلت ستارة الموسلين بحيث يصبح وصول البعوض إليه مستحيـلا.

أُقتدت إلى غرفة مجاورة ، بعد أن قامت خادمة سوداء بتوزيع الشربات والقهوة ، وجدت فيها أخي بصحبة حبيب ناصر ، زوج ليا والأب الفخور بابنه البكر ، فهنأته وردّ علي بتمنياته بأن أهنئ شقيقي بمناسبة مماثلة في وقت قريب ، وهي ما تعتبر الإجابة التقليدية.

احتوت كل غرفة من غرف المنزل صورا أرثوذكسية حديثة لشخصيات مقدسة ونسخاً قُلدت بطريقة رديئة للوحات بيزنطية قديمة ، ما يوحي بأن السيد حبيب من رعايا الكنيسة الأرثوذكسية.

عدت إلى القنصلية للتجهيز لرحلتنا للقدس ، وكان كل من السيد جراهام والسيد إتش ، وهو

أحد جوالي القرم ، التي كانت مسرحا للحرب آنئذ ، قد وصلا للتو على متن باخرة نمساوية ، وهما يستعدان لمرافقتنا في رحلتنا ، وعندما أصبحت أمتعتنا بعهدة البغّالين وجهزت خيولنا للانطلاق ، تناولنا وجبة سريعة مؤلفة من جبنة مصنوعة من حليب الماعز وبعض الفاكهة ، وحلوى مصنوعة من النشا ، علاوة على النبيذ المحلي الصنع ، جالسين على وسائد على الأرض ومتحلقين حول طاولة صغيرة واطئة مرصعة بقشور الصدف في غرفة السيدة خياط.

بعد أن استأذنّا مضيفنا الكريم وعائلته لانصراف ، امتطينا صهوات جيادنا على باب منزلهم وكان دعاؤهم وأمنياتهم لنا برحلة آمنه تطرق أسماعنا: تسافروا بالسلامه وترجعولنا بالسلامه ، إرجعوا بسرعه ، الله معكم ، واستمر الأولاد والخدم بترديد هذه الكلمات إلى أن توارينا عن الأنظار. تولى رجل مسن يرتدي معطفا ملونا يبدو كالكيس المليء بالرسوم الفسيفسائية الغريبة على ظهره اقتياد حصاني عبر الأدراج الشديدة الانحدار والأسواق المزدحمة وصولا إلى بوابة البلدة التي دخلناها في الصباح ، والواقعة في منتصف الحائط الشرقي للبلدة وهي بوابتها البرية الوحيدة. لا بد لي في هذا المقام ان أذكر قرائي الشباب بأن العربات ذات العجلات لا تستخدم بتاتا في فلسطين ، لدرجة أنني لم أر فيها ولو حتى عربة يدوية واحدة ، إن حالة الطرق هناك مزرية لدرجة تصبح معها هذه الأدوات عديمة الفائدة ، لذلك فإن الناس تتنقل دائما بواسطة الجمال أو الحمير أو البغال أو الخيول ، وهو ما قمنا به أيضـا.

شارفت الساعة آنئذ على السادسة ، وكان أهالي يافا يستمتعون بتدخين غلايينهم في ظلال الأسوار خارج بوابتها والشمس تميل في غروبها نحو البحر ، بينما تنّزه البعض منهم على صهوات جيادهم على طول الطريق الرملي العريض ، والذي قادنا إلى ممر لسير الخيول تحف به شجيرات الصبّار الضخمة ذات الجذوع المكتنزه والمتشابكه والمكلّلة بالورود الصفراء ، والتي بشرت بحصاد وفير من الصبار. هذه الشجيرات الكبيرة والمتشابكة فيما بينها كالسياج ، والتي يتراوح ارتفاعها بين قدمين إلى ثمانية وأحيانا عشرة أو اثني عشر قدما ، كانت محاطة بنباتات تسلقتها برشاقة علاوة على معرشات من الكرمة البرية التي تشابكت معها والتفت من حولها بنمط لولبي ، وعلق صديقنا الآتي من القرم قائلا بأن هذا

السياج من أشجار الصبار يشكل حاجزا طبيعيا منيعا لصد جنود المشاة في الحروب. حظينا خلال ثلاثة أو أربعة أميال من سيرنا على هذا الطريق الرملي بالاستمتاع بمناظر بيارات الفواكه الجميلة ، التي ارتفعت فيها أشجار النخيل المثقلة بثمارها الذهبية عاليا فوق جميع الأشجار الأخرى ، كما أينعت فيها أشجار البرتقال والليمون والفستق والمشمش واللوز والتوت وأشجار الرمان بعناقديها الكثيفة من البراعم ذات اللون الأحمر القاني ، إضافة إلى أشجار الأكاسيا والخروب والطرفاء والتين والزيتون.

اقتربت الساعة من السادسة والنصف عندما بلغنا الأرض الخلاء الواقعة وراء بيارات يافا الجميلة والواسعة ، وكانت الشمس قد مالت للمغيب في البحر وراء ظهورنا ، واكتست التلال الجنوبية الشرقية البعيدة التي كنا نقصدها بلون أحمر متوهج ، وبدأت ظلال الليل الأرجوانية اللون بالانتشار السريع من حولنا ، وانتشرت الخيام والأكواخ الصغيرة للفلاحين هنا وهناك ، خلال اجتيازنا حقول الخبيزة وبساتين الخيار.

غربت الشمس وحلقت النسور والصقور في السماء من فوقنا ، وبينما أرخى الليل سدوله ، تجمع أفراد قافلتنا الصغيرة ، المكونة من ستة بغّالة وخدمنا وعبيدنا ، سوية لكي نبقى قريبين من بعضنا البعض لبقية الطريق.

كنا نستطيع تمييز جماعات من المزارعين وثيران الفلاحة وهم يأخذون قسطا من الراحة على قارعة الطريق ، وكنا أحيانا نجتاز قطعاً من الأراضي الصلبة المخصصة لدرس الحنطة وذريها ، وعلى وهج النيران المضطرمة بالأعشاب الجافة والأشواك كنا نرى فلاحين بوجوه تشبه وجوه الأشخاص في لوحات الرسام رامبرانت ، بملامحهم القاسية وأسمالهم التي تغطي أجسامهم بشكل جزئي ، وهم نائمون أو وهم يشعلون غلايينهم الطويلة برائحتها القوية. كان البغّالة في قافلتنا يغنون أغانيَ ذات ألحان حزينة ورتيبة لا يقطعها سوى ضجيج البغال المهرولة عند احتكاك احمالها ببعضها البعض بين الحين والآخر ، فيصرخ البغالة قائلين: أي‍ـوااا..... أي‍ـوا ، وهي كلمة اعتراضية ذات دلالات فضفاضة تشبه بشكل أو بأخر مصطلح وماذا بعد في اللغة الإنجليزية ، عند استخدامها للتعبير عن الاستهجان ، أو كمرادف لكلمة استمر أو كل شيء على ما يرام عند التعبير عن الرضا عن الأوضاع (4).

سرنا عبر سهوب وعرة في ظلمة الليل ، وبين الفينة والأخرى ، كنا نصادف بئراً للماء أو ضريحاً أو قرية وادعه تغط في النوم ، أو كرم زيتون عتيقاً ، إلى أن وصلنا الرمله قرابة الساعة التاسعة والنصف.

تلقينا دعوة لقضاء الليلة والمبيت في منزل واحد من الوجهاء المسيحيين العرب في البلدة ، وكان الخدم وحاملو المشاعل الذين أرسلهم لاستقبالنا ينتظروننا على مقربة من بيته ، فصعدوا بنا عبر مجموعة متواصلة من الأدراج الحجرية إلى أن وصلنا إلى ساحة صغيرة مربعة بنيت حولها غرف فخمة من الحجر.

ثم اصطحبنا مضيفنا إلى غرفة الضيوف ، والتي كانت غرفة علوية فسيحة ومفروشة بديوان وأرائك ومقاعد نافذية.

انضمت زوجته إلينا ، وهي سيدة جميلة ووقورة ، ترتدي ثوبا شرقيا أنيقا ، فحيّتنا ورحبت بنا واصطحبتني إلى غرفة عقد طويلة بُنيت من الحجر ، واحتوت على فرشتي نوم وضعتا على الأرض ، خصصت إحداهما لي بينما كانت الأخرى لفتاتين زنجيتين عينتا لخدمتي والاهتمام بطلباتي. تم تقديم العشاء لنا في ساحة الليوان الخارجي الكبير للمنزل ، وقام خادمان حبشيان على خدمتنا بخفة ورشاقة وبديهة حاضرة.

قامت فتاتان حافيتان ذوات قوام طويل ورشيق وطلعة بهية وشعر أسود طويل ارتدين ثيابا بيضاء بمرافقتي إلى غرفتي ، وتناوبتا على سكب الماء الحار والبارد على قدمي ويديّ ، ولم تدخرا جهدا لتوفير سبل الراحة كافة لي. وبعد بضع ساعات من الراحة ، استيقظت على ضوء القمر الذي انسكب عبر النافذة المقوّسة العريضة غير المظلله لغرفتي.

استرعى انتباهي التصميم الجميل لمفاصل ومقابض وأقفال الأبواب في جميع أرجاء المنزل ، إذ إنها كانت تحاكي الأعمال الفنية الإيطالية من القرن السادس عشر.

ما إن استيقظ البغّالة من نومهم ، وتجهزت خيولنا لرحلتنا ، أشرقت شمس النهار وانطلقنا لنتابع مسيرنا عبر الأسواق ، التي كانت قد بدأت تعج بحركة الباعة والمشترين ، وتمتاز بيارات الرملة بامتدادها وخصوبة تربتها الرملية (5) ، كما تتميز بنمو أشجار النخيل بكثرة

فيها.

على تخوم البلدة ، وتحت أجمة من الأشجار المتشابكة ، كان مجموعة من الرجال البؤساء ، الذين يرتدون أسمالا ملونة ، يجلسون في مشهد تصويري ، وما إن مررنا بمحاذاتهم حتى سارعوا بالنهوض عن الحجارة التي جلسوا عليها ، وتقدموا نحونا حاملين أكوابا تنكية صغيرة لجمع الأعطيات والصدقات ، فأدركت حينها بأنهم من المساكين المصابين بالجذام! وكانت وجوههم مشوّهه لدرجة يصعب فيها تمييزهم كآدميين بسبب تلف شفاههم وجفون أعينهم ، بينما كانت وجوه قسم آخر منهم منتفخة بشكل مخيف ومريع ، وقد كان هذا المشهد من أكثر المشاهد التي رأيتها في حياتي إيلاما.

يتزاوج أفراد العائلات المبتلاة بهذا المرض الوراثي المرعب من بعضهم البعض ، وقد يحدث أن يكون المواليد من مثل هذه الزيجات خالين تماما من أي أثر للمرض ، ولكنه ينشط مجددا في الجيل التالي لهولاء المواليد الأصحاء ، كما يتمتع البعض منهم بصحة ممتازة إلى أن يبلغوا التاسعة عشرة أو العشرين من العمر ، لكنهم يعتقدون بأنهم جنس ملعون ، ويعيشون في عزلة تامة عن العالم الخارجي ، معتمدين اعتمادا تاما على الأعطيات والصدقات في معيشتهم ، إذ إن الضرر الذي يسببه المرض لأصابعهم يؤدي إلى تعطيل القدرة الحركية لأيديهم. ويؤثر سلبا على مقدرتهم على استخدام أيديهم بشكل كامل (6).

ومقابل الدراهم القليلة التي منحناهم اياها ، دعوا لنا بصوت خفيض وأجش قائلين: الله يردلّكم اياها أكثر عشر مرات ، مع السلامة

ثم عبرنا حقولا خصبة وبيارات غناء ، وصادفنا فلاحين منهمكين بجر ثيرانهم وجمالهم ، ورعاة يافعين يقودون قطعان ماشيتهم إلى مراعيها ، وبالرغم من أن الشمس كانت على ارتفاع منخفض ، ما جعل ظلال أجسادنا تمتد في خطوط طويله ، إلا أن وهجها وحرارتها كانا لا يطاقان. كانت حقول السمسم من حولنا في غاية الجمال ، ونبتة السمسم هي نبتة طويلة تمتاز جذوعها باللون الأخضر اللامع ، وتختال بأزهارها النضرة بلونيها الأبيض والزهري ، الشبيهة بزهرة قفاز الثعلب ، وتنتج بذور السمسم زيتا عالي الجودة يشبه في خصائصه زيت الزيتون ، وكانت نباتات من مختلف الأنواع والأحجام والألوان تغطي جانبي

الطريق ، كالهندباء البرية ، ونبتة الكتان وأشجار الورد واللبلاب ، وسرعان ما وصلنا إلى سهل أجرد خال من النبات حرقت أرضه وتشققت إلى صدوع وأخاديد عريضة وعميقة ، وانتصبت صخور ضخمة ملقية بظلالها على الأرض المتصدعة. وأخذت بمراقبة أعداد من السحالي الغريبة والزواحف الخضراء اللون ، وهي تتراكض مسرعة من وإلى الشقوق ، أو تتقافز عن الصخور وإليها ، ثم تتوقف للحظات قصيرة لتفتح عيونها النارية باتجاه الشمس وهي تهز رؤوسها الضخمة بشكل مضحك ، وحلقت أسراب البط البري فوق رؤوسنا وهي تصفق بأجنحتها ، وكان رعاة الجمال التي كانت تمر بالقرب منا بين الحين والآخر في مجموعات من ثلاثة أو اربعة جمال يلقون التحية علينا ، بانحناءة وبرفع أيديهم حتى جباههم بأدب جم ، بعض الفلاحين كانوا عراة الا من بعض الأسمال البالية التي تستر أجسادهم. كما كانت قطعان الماشية والأغنام ترعى في السهل المحترق في الجوار ، والرعاة يصدحون بالألحان عبر شبابات ونايات فجّة الصنع من القصب أو الخيزران.

وصلنا التلال قرابة الساعة الثامنة والنصف ، فأخذنا استراحة قصيرة على مدخل واد صخري مغطى بالأشجار يسمى وادي علي ، وأحضر لنا بعض العرب مياهاً عذبة في قرب جلدية ، وكان السيد فِّن ، قنصل صاحبة الجلالة البريطانية في القدس ، قد أرسل لنا القوّاس الخاص به ، الذي التقيناه عند تلك البقعة ، لكي يرافقنا ويكون دليلنا من هناك ، نظرا لضرورة وجود دليل متمرس عند السفر عبر تلك التلال ، انبثقت أشجار التين والبلوط والزعرور من بين مفاصل الصخور ، وحلقت فوق رؤوسنا الآلاف من القبّرات بسبب اقترابنا منها مصفقة بأجنحتها وهي ترتفع سريعا نحو السماء ، لكنها لم تصدح بأغاني القبرات العذبة التي تشدو بها القبرات في حقول الذرة في بلادنا.

شرعنا باجتياز تلال صخرية وعرة وشديدة الانحدار ، كانت صخورها تنزلق تحت حوافر خيولنا ما يجعلها تتعثر في مشيها في معظم الوقت ، وكانت هذه الممرات الجبلية تضيق في بعض الأماكن لدرجة نضطر فيها للمسير فرادى ، ونحن نراقب بانتباه ويقظة حركة قائد القافلة خلال دخوله وخروجه من بين الأجمة والصخور ، ضّمت قمم هذه التلال في ثناياها العديد من الخرائب والصخور الكبيرة المنحوتة ، التي ما زالت تثير الكثير من الجدل بين

العلماء المختصين بدراسة طبوغرافيا الأرض المقدسة كما وردت في الكتاب المقدس. شاهدنا أطلال لمصاطب قديمة وآثار أعمال بستنة وفلاحة في أرجاء المكان ، لكن سيول الشتاء تسربت على ما يبدو عبر الحجارة المخصصة لمنعها من الجريان ؛ فتسببت بتجريف التربة الحمراء ذات الخصوبة العالية ، ما أدى بالتالي إلى تعرية قطع كبيرة من الصخور الكلسية ، وبالرغم من ذلك ، فقد كنا نلحظ وجود المزروعات على الأراضي المستوية كافة. وكانت الشجيرات وأشجار الفاكهة البرية والأعشاب العطرية والأشواك تظهر مدى الخصوبة الطبيعية للتربة ، حتى إن أزهار الربيع الصغيرة ، وعلى وجه الخصوص الزهر البري ونبتة إبرة الراعي ، نبتت بين مفاصل الصخور والشقوق التي تتخللها. سلكنا دروبا متعرجه إلى ذُرى شديدة الانحدار ، فكنا نرى البحر الأبيض والجزء الشمالي للسهل الساحلي الفلسطيني من جهة ، بينما كنا نرى التلال التي تحجب عنا مدينة بيت المقدس من الجهة الأخرى ، وبين الفينة والأخرى كنا نلج واديا ضيقا ومسدودا في نهايته بتلال لا يمكن اجتيازها ، وكانت الدروب التي نسلكها مجرد ممرات ضيقة على حواف التلال في معظمها ، تحدها من الأسفل وهاد شديدة الانحدار ، بينما تعلوها تلال تنتصب كالأسوار من الأعلى ، وهو ما كان يضطرنا في كل مرة لإرسال مرشدنا إلى نهايات الممرات الجبلية للتأكد من صلاحية الطريق ، وللتأكد من بقائها كذلك إلى حين اجتيازنا لها ، وحلقت النسور وغيرها من الجوارح في الهواء ، وكانت السماء ذات زرقة في غاية الصفاء تتوسطها شمس ساطعة ، بينما كانت عصافير الدوري تزقزق بين الأشجار على الأرض.

ترجلنا عن ركائبنا حوالي الساعة العاشرة بالقرب من تل صغير يقع في مركز قطعة أرض مثلثة الشكل تمثل نقطة التقاء أودية ثلاثة ، كان فيها بئر ماء عذبة وصافية محاطة بأشجار التين والزيتون والخروب والبلوط دائم الخضرة ، انهمكت مجموعة من البدو في سقاية جمالهم من القناه المتصلة بالبئر ، ترجلنا واسترحنا في الظلال الوارفة للأشجار المحيطة بالبئر ، بالقرب من شتلات الزعتر البري وغيره من الأعشاب البرية ، ووضعنا مؤونتنا المتواضعة المكونة من سلة من فاكهة الصيف والقليل من الكعك المصنوع من الدقيق وبعض من النبيذ الجديد. في الجهة المقابلة لنا تماما ، استلقى بعض الفلاحين طلبا للراحة

على مدخل مغارة واسعة على سفح تل ، هذه المغارة كالعديد غيرها من الكهوف والمغارات الصغيرة التي صادفناها في طريقنا ، تكونت أساسا بفعل العوامل الطبيعية ، ولكن الإنسان قام بمرحلة ما بتسوية جدرانها الداخلية واستخدامها كمكان صالح للسكنى.

عندما واصلنا مسيرنا ، اجتزنا منطقة مزروعه جزئيا ، وأحاطت بيارات الزيتون بمجرى الماء الجاف الذي يخترقها ، في الوقت الذي نمت دوالي العنب والخضروات والقش على ضفتي هذا المجرى الجاف ، ثم بلغنا هضابا أكثر ارتفاعا وأشد انحدارا ، مغطاة بنباتات المريمية والخزامى بالقرب من قرية يالو ، استمرت درجات الحرارة بالارتفاع حتى الظهيرة قبل أن يهب النسيم العليل ، هكذا هي الحال في التلال الواقعة في الأرياف خلال فصل الصيف ، إذ يهب النسيم عند الثانية عشرة ظهرا تقريبا ، ويستمر لساعة أو ساعتين بما يكفي لترطيب الأجواء.

اقتربنا من أراض مزروعة من جديد ، ما كان يعني بأننا نقترب من قرية ما في الأنحاء ، وسرعان ما رأينا الجدران البيضاء للبيوت المربعة الشكل الشبيهة بالقلاع لقرية ابو غوش القابعة على جانب أحد التلال ، وأطلالاً جميلة لكنيسة مسيحية قديمة ألحق بها دير للرهبان الفرنسيسكان فيما مضى ، ترجلنا عن جيادنا عند بوابتها المقّوسه ، وكان سقفها المضّلع والأجزاء العلوية من مبناها المستندة إلى أعمدة طويلة ضخمة في حالة جيدة جدا ، يستخدم المبنى حاليا كخان وإسطبل للدواب ، ولكنه كان فيما مضى قلعة حصينة. مر زمن طويل على الأيام التي كانت ابتهالات الرهبان الفرنسيسكان تتردد في جنبات هذا المبنى ، فقد تعرضوا للنفي في حوالي منتصف القرن الثالث عشر للميلاد ، عندما أقدم سلطان مصر على غزو بيت المقدس.

شيخ القرية الحالي ، وهو ابن عم الزعيم أبو غوش الشهير ، يتبع سياسة تتسم بالأدب واللياقة مع السياح والمسافرين الغربيين.

أخذنا قسطا من الراحة على الدرج المؤدي إلى بوابة الكنيسة ، وكانت النسوة ينتشلن الماء من بئر في المكان ، فراقبناهنّ وهنّ يمشين واحدة تلو الأخرى في طريق عودتهن للقرية ، بعد أن ملأن جرارهّن التي استقرت بإتقان على رؤوسهن. كانت قطعان الأغنام والماشية

المنتشرة على التلال المحيطة ، بالإضافة إلى البيارات الخصبة وكروم العنب وأشجار النخيل المتناثرة هنا وهناك ، تدل على رخاء وازدهار هذه القرية الوادعة ، التي يطلق عليها الآن اسم قرية العنب والذي يحتمل أن يكون الاسم القديم كريات يعاريم

عبرنا بعدئذ بضعة تلال تفاوتت شدة وعورتها وصعوبتها ، وعلى واحدة منها ، لا تصلح تضاريسها سوى لتقافز الماعز والأرانب ، كنا مجبرين على الترجل عن خيولنا لنمشي على قطع من الصخور الملساء كالرخام المصقول ، ولأن نقفز من صخرة إلى أخرى فوق الأشواك والأزهار البرية إلى أن نال مني التعب ، وغمرتني السعادة عندما امتطينا ركائبنا من جديد ، ثم شارفنا على طريق جميل ممتد على سفح إحدى التلال ومطلة على وادٍ خصب للغاية يضم قرية عربية قامت على أنقاض مستعمرة رومانية قديمة ، وما زالت القرية تحتفظ بتاريخها من خلال اسمها الحديث وهو قالونيا ، وقد أُرشدت إلى أطلال مسرحها وتحصيناتها التي شيدها سكانها القدماء. قطعنا الوادي نحو الجهة الأخرى ، وتابعنا مسيرنا على شريط صخري إلى أن وصلنا إلى نبع تتدفق مياهه من صخرة مرتفعة وتصب في حوض يفيض بهذه المياه على الدوام ، وتشق المياه المتساقطة من الحوض طريقها عبر قنوات أرضية إلى وجهتها النهائية في الوادي الذي تركناه للتو ، نمت الأعشاب ومعرشات من النباتات المتسلقة والسرخسيات في أرجاء المكان الذي كان يعج بآلاف العصافير ، وهو السبب في تسمية المكان بعين العصافير ، فشربنا نحن وجيادنا من مياهها الباردة والمنعشة ، قبل أن نعتلي صهوات خيولنا من جديد ونتابع المسير لنعبر جسرا رومانيا قديما يعلو قناة مائية تجاور أنقاض قرية يهودية قديمة كانت تقبع بالقرب من النبع ، وتقول الحكايات المحلية بأن داوود التقط الحصاة التي صرعت جالوت من قاع النبع. كان الزعرور البري ، وأشجار الورد والعليق والتوت والأشواك تحجب بشكل جزئي صخور ضخمة قطعت وصقلت بعناية وانتشرت في أكوام في المنطقة المحيطة ، ونمت شجيرات أخرى بين الحجارة غير المستوية التي رصّت على ارتفاع منخفض لكي تحدد مساحات البيارات وكروم العنب المجاورة ، ولا شك بأن هذه الحجارة الضخمة كانت فيما مضى جزءاً من جدران القصور الفخمة والقلاع الحصينة التي شيدها البناة العبرانيون في الأزمان الغابرة. قال عاموس: لقد بنيتم بيوتا من

أحجار صقيلة ، لكنكم لن تسكنوها ، وزرعتم كرمة جميلة ، لكنكم لن تشربوا من نبيذها

لدى العرب قول مأثور شائع مفاده أن اليهود شيدوا المباني ، والإغريق زرعوا الأرض ، والترك يهدمون من المعلوم بأنه يتم العثور في جميع البلدات والقرى الواقعة في يهوذا على بقايا وأطلال لصروح معمارية ضخمة شيّدها اليهود- الذين تدرب أسلافهم بكّد وتفان في بناء أهرامات مصر ومعابدها- وقد استخدمت هذه الأطلال في كثير من الأحيان كأساسات للقلاع والمدرجات التي بناها الرومان فيما بعد ، والتي انهارت وتساقطت في الأزمان اللاحقة ، مفسحة المجال للمباني التي شيدها المسلمين والمآذن والأكواخ والزرائب البائسة التي بناها الفلاحون من الطين ، ويقال أيضا بأن الإغريق هم من زرع كل أشجار الزيتون العتيقة ، والتي تقف في صفوف منتظمة وعلى مسافات متساوية من بعضها البعض لتشكل طرقا مشجّرة في جميع الاتجاهات ، عاكسة تناقضا صارخا مع أشجار الزيتون البرية الفاتنة والأصغر سنا التي تمر في مرحلة الإزهار حاليا ، والأشجار العتيقة التي بدأت بالاضمحلال والذوبان في الآونة الأخيرة٠

بادرني السيد جراهام قائلا: أعدي نفسك لمفاجأة سارة الآن يا آنسة روجرز ، عندما نصل قمة هذه التلة ، ستبصر أعيننا مدينة الملك الأعظم ، فحثثت الخطى ونسيت تعبي وإرهاقي لأصل بسرعة إلى قمة التل ، وأجيل النظر من حولي ودون دليل يرشدني لأرى السور المنخفض والممتد طويلا وقد ارتفعت من ورائه بعض القباب ومآذن المساجد ، للمدينة التي تتوج القمة السهلية للتلة المنتصبة بين التلال ، لأدرك ساعتها بأنني أنظر إلى بيت المقدس التي شيدت كمدينة تلتف من حولها الجبال كانت شمس العصر تسطع من ورائنا وتسكب أشعتها على الأسوار البيضاء للمدينة ، والألوان الخضراء الرمادية لأشجار الزيتون التي تنتشر خلفها ، وسلسلة جبال مؤاب الطويلة في البعيد والتي تشاهد من حين لآخر بين مرتفعات يهوذا ، أما جبل الزيتون (الطور) الواقع شرق القدس كما قال زكريا فكان يتألف من ثلاث هضاب تفصلها منخفضات بسيطة٠ قبعت قرية مسلمة بأسوارها البيضاء على أوسط هذه الهضاب وأعلاها ارتفاعا وقد أحاطتها أشجار الزيتون والتوت ، أما قمة الهضبة الشمالية فقد ارتفع بالقرب منها برج صغير من الحجر ، ودعاني السيد جي لزيارته في هذا البرج ، فهو مقر

إقامته الصيفية الذي يطلق عليه الأوربيون القاطنون ببيت المقدس اسم قلعة جراهام

نزلنا باتجاه واد ضيق وطويل ومملوء بالحجارة ، لكن المشهد الذي رأيناه من أعلى التلة التي تركناها انطبع في ذاكرتي كصورة فوتوغرافية لم تفارق مخيلتي على الإطلاق. على الرغم من أنني رأيت بيت المقدس مرارا بعد تلك المرة ، ومن مواقع أفضل ، إلا أن الانطباع الأول تميز بسحر غامض.

تركنا طريق يافا واتجهنا نحو الطالبية حيث يخيم السيد فن ، القنصل الإنجليزي خلال فصل الصيف. يقع المخيم على بعد ميل تقريبا غربي المدينة ، اجتزنا سلسلة حجرية واطئة تحيط بأرض شاسعة زرعت أجزاء منها ، على سفح تلة مطلة على بيت المقدس. انتصب في البقعة الاكثر ارتفاعا من هذه الأرض مبنىً حجري صغير مربع الشكل ، تحيط به سبع أو ثمان خيم نصبت بين الصخور والأشجار والشجيرات الصغيرة. كان هذا هو المخيم القنصلي ، وترجلت من جوادي بسعادة هناك في الساعة الرابعة من بعد الظهر ، واستقبلت بالترحاب من القنصل وأفراد أسرته.

كان البيت الحجري بسيطا ومكونا من غرفة واسعة ذات عقدين ، تستخدم كصالة طعام وغرفة جلوس ومعيشة في آن واحد ، لها شرفة مظلله تضم بعض المقاعد في مواجهة الشرق ، بالإضافة إلى ليوان تعلوه الأقواس في مواجهة الغرب ، بحيث يكون مغطى بالظلال في ساعات قبل الظهر. يحتل المطبخ والمكاتب الجهتين الأخريين من المبنى. شّيد هذا البيت عمال يهود بحجر أحمر وأصفر جلب من مقلع قريب للحجارة ، ولم تكن الجدران مغطاة بالجص لا من الداخل ولا الخارج.

قادني السيد فن عبر مجاز وعر يقطع أحواض صغيرة من التربة الحمراء المحروثة حديثا التي زرعت بالشمام والخيار والكوسا ، وانتصبت أشجار الخروع والنخيل والدفلى بين الكتل المتناثرة من الصخور ، ونمت في ظلالها شجيرات الريحان والورود والأزهار ، بالإضافة للعديد من الشتلات الإنجليزية ، ما جعل من المنطقة المحيطة بالخيمة المصرية التي نصبت لمبيتي حديقة غناء. وربطت حبال خيمتي بجذوع أشجار زيتون لا يتجاوز عمرها العامين أو الثلاثة. اكتشفت بأن متاعي قد أصبح في داخل الخيمة بالفعل ، إذ إن البغالة

كانوا قد وصلوا إلى هنا قبل ساعة أو ساعتين من وصولنا. كانت الخيمة ذات الشراشف الزرقاء التي زينت حوافها باللونين الأحمر القاني والأسود، والمطرزة بأنماط جميلة للغاية، والكانافا البيضاء والسجادة الزرقاء اللون والأثاث البسيط الموجود بداخلها، تبدو في غاية الجمال والأناقة، وأسعدتني مناظر سهل بيت لحم وجبل صهيون ومدينة بيت المقدس التي كنت قادرة على رؤيتها من بوابة خيمتي.

أمضينا السهرة مستمتعين بصحبة السيد والسيدة فن، ونحن نتحدث عن رحلتنا الحالية وفي التخطيط لرحلات مستقبلية. كان أطفالهم تواقين لأن يروني كنوزهم، ولأن يأخذوني إلى الأماكن الأثرية الواقعة في الأرجاء المحيطة التي يعرفونها عن ظهر قلب، فقد ولدوا وترعرعوا هنا وبالكاد ابتعدوا عن بيت المقدس. سوف أصطحبك إلى جبل الزيتون، والى قمة جبل المشارف (سكوبوس) حيث يمكنك رؤية نهر الأردن والبحر الميت، هكذا تحدث اسكندر، الابن البكر، قبل أن تضيف كونستانس، أخته الصغيرة، ماما، هل يمكن أن آخذ الآنسة روجرز لترى شجرة يهوذا وبستان الجثمانية، وهل يمكن أن نذهب إلى بيت لحم وبرك سليمان؟

هؤلاء الأطفال الذين كبروا وترعرعوا بين هذه المناظر، والذين تعلموا اللغة العربية خلال تعلمهم للإنجليزية، أثاروا اهتمامي كثيرا، فقد ظهر تأثرهم بالبيئة المحيطة بهم في كل ما كانوا يقولون أو يفعلون. أخرجت صورة مطبوعة لشاطئ انجليزي لأريها لكونستانس، فقالت على الفور مشيرة إلى قلعة قريبة ها هو برج داوود ومن ثم وهي تشير إلى معدات الاستحمام وتلك هي قبور الملوك، وهناك البحر الميت، وكان البحر الوحيد الذي رأته في حياتها. بعد احتساء الشاي، ذهب الأطفال إلى خيمتهم بصحبة أم عيسى، المربية الأرمنية البشوشة، وقال لي إسكندر بعد أن تمنى لي نوما هنيئا: لا تفزعي إذا سمعت عواء قطعان ابن آوى، فهي لا تقترب من خيمنا، لكننا نسمعها ليليا فهي توقظ كلابنا وخيولنا وحمارنا، وفي بعض الأحيان تعلو أصواتهم جميعا في الوقت نفسه كانت حلوة وهي سيدة من بيت لحم، قد أحضرت مبكرا القناديل التي كنا سنستخدمها عندما نأوي إلى خيمنا، ورافقتني السيدة فن إلى خيمتي وشرحت لي كيفية إغلاقها من الداخل، بينما نبهتني ابنة شقيقها لأهمية تفحص

ملابسي ونفضها جيدا قبل أن أرتديها في الصباح التالي ، للتخلص من النمل والعناكب أو حتى العقارب التي من المحتمل أن تكون قد تسللت إليها خلال الليل. راقبت القناديل وهي تختفي تباعا في الخيم المحيطة بخيمتي واستغرقت في نوم عميق في خضم الأصوات والمشاهد التي وجدتها في غاية الغرابة. كان من الصعب علي أن أقتنع بحقيقة أنني غادرت لندن قبل ثلاثة أسابيع فقط!

الفصل الثاني

بيت المقدس

تعالت أصوات الأطفال في صبيحة اليوم التالي وهم ينادونني لتناول الإفطار في الليوان في الجهة الظليلة من المنزل ، بينما كانت الشمس تسطع فوق المدينة وتلالها ، لكن أسوار المدينة ومنحدراتها الغربية كانت مغطاة بالظلال.

اتجهنا بعد الفطور إلى غرفة المعيشة ذات الأثاث البسيط الذي يحاكي أثاث الأديرة ؛ إذ احتوت على مناضد بسيطة وكراسي واطئة وحصائر وبعض الرفوف من الخشب غير المصقول والمخصصة للكتب ولعب الأطفال.

جلست على عتبة الباب متأملة التلال المقابلة للمنحدر الصخري المليء بالأشواك بالقرب منا ، والتي علمت بأنها تحدد مسار وادي النار ، الواقع أمام الجدار الغربي لبيت المقدس ، حيث يرتفع برج داوود البالغ الضخامة ، وبوابة يافا التي تقطع الاستمرارية الرتيبة للسور.

كانت الكنيسة الإنجيلية ودار القنصلية ذات الواجه الزجاجية والتصميم المعماري الحديث ، ومبنى الدير الأرمني بقبابه البيضاء ، ومئذنة جامع ، وبضع أشجار نخيل وأشجار صنوبر وسرو ، هي كل ما تمكنت من رؤيته من المدينة المقدسة حينئذ ، نظرا لوقوعها على منحدر باتجاه الشرق.

كان سهل ريفايين على ميمنتي وقد امتد جنوبا نحو تلة دائرية يتربع دير مار إلياس على قمتها ، كانت صفوف طويلة من الجمال وأرتال من الخيالة وقطعان الأغنام والحمير المحملة بالخضروات وأفواج من النساء القرويات اللاتي وضعن السلال على رؤوسهن ، تقطع الطريق الواسع الذي يشق السهل جيئة وذهابا طوال النهار ، بينما حلقت النسور في السماء.

امتطينا انا وأخي صهوات جيادنا عند الظهيرة وعبرنا الوادي الوعر القريب من دير الصليب ، ومررنا بالقرب من الجدران البيضاء لدير الأرثودوكس الذي تم تجديده مؤخرا ، وشققنا طريقنا عبر الصخور والأشواك إلى وادي النار ، الذي تنتشر أشجار الزيتون والتين والرمان بكثافة فيه ، ثم هبطنا التلة المؤدية إلى بوابة يافا فالتقينا بالعديد من الناس ، الراجلين منهم

والراكبين ؛ وقد بدأوا للتو في جولاتهم ونزهاتهم المسائية.

مررنا تحت القناطر المرتفعة وتحت قباب القاعة ذات العقد للبوابة الكبيرة ، ثم على طول حائط المدينة والخندق العميق لبرج داوود ، لننعطف بعد ذلك عبر مجاز ضيق يؤدي إلى دار القنصلية المتصل بالكنيسة الإنجليزية ، حيث ترجلنا عن جيادنا ، وانتابني شعور غريب بالسعادة عندما وطأت قدماي ، وللمرة الأولى ، الأرض داخل أسوارك يا بيت المقدس!

وصف السيد بارليت طرقات المدينة المقدسة بإسهاب في كتابيه جولات في بيت المقدس والعودة لبيت المقدس من جديد ، أما الدليل القيم الذي نشره السيد موراي ، فقد احتوى على معلومات في غاية الدقة والكمال عن طوبوغرافية المدينة وبياناتها الإحصائية ، ما يجعلني أحيل قرائي إلى هذه المصادر ، وأكتفي بتقديم لمحة بسيطة عن المدينة كما رأيتها.

عدت مع أخي من جديد إلى الأرض الخلاء المواجهة للبرج ، التي يقام فيها سوق يومي في ساعات الصباح الباكر. مررنا بمقهى مفتوح وضخم يضم عددا من الجنود والمسلمين الذين كانوا يدخنون في داخله. كان دير اللاتين ، وهو صرح ضخم شيد من الحجر المصقول ، يقع في مواجهة البرج ، بينما كان عدد من الرهبان والصبية ، بأثوابهم السوداء ، يذرعون سطحه الطويل والمستوي كشرفة ، جيئة وذهابا ، محركين أجسادهم بحركات متواترة ومنتظمة. أما بيت مطران الطائفة الانغليكانية الذي يطل على السوق ، فما إن غادرناه حتى وجدنا أنفسنا في شارع صاخب ، عبدت أرضيته بدرجات واطئة تنحدر تدريجيا ، بعد أن تحولت إلى بلاطات ملساء لِقدمها ، وقد تلطخت بقشور الشمام وغيرها من بقايا الخضروات لدرجة يصعب فيها ان يتأكد المرء من موطىء قدمه. كان أصحاب الدكاكين العربية على جانبي الطريق منشغلين بطيّ وترتيب بضائعهم من الأقمشة ذات الألوان الزاهية ، أو منهمكين بفرز وتصنيف سلال الفواكه المجففه وصواني الغلايين ، تمهيدا لإغلاق محلاتهم نظرا لحلول الظلام بعيد الساعة الحادية عشرة بقليل. ثم سلكنا شارعا مسيحي الطابع ، فقد ضم إضافة إلى دكاكين الحلاقين المشرقيين ، والمقاهي وصانعي الغلايين والمخابز ، العديد من المحال والدكاكين الأوروبية بإدارة تجار مالطيين وإيطاليين وألمان ، وكانت مجهزة تجهيزا جيدا ومليئة ببضائع مستوردة من لندن وباريس ، بالإضافة إلى أدوات ومواد الزينة

والإكسسوارات الضرورية للملابس ، والتي كانت تباع كما هو متوقع ، بأسعار باهظة. التقينا خلال طريقنا جماهير غفيرة من المسلمين واليهود الأسبان واليهود الألمان والبدو واليونانيين ورهبان من شتى الطوائف المسيحية. كنت أسمع أخي وهو يتلقى تحيات المارة ويرد عليهم بلغات متعددة ، كونه شخصية معروفة في المدينة التي خدم فيها بوظيفة مستشار في القنصلية البريطانية لسنوات عديدة. شققنا طريقنا إلى كنيسة القيامة ثم توقفنا في الساحة المربعة أمامها لنتأمل واجهتها الجميلة. بوابتان تعلوهما الأقواس تقفان جنبا إلى جنب ، زينتا بأشكال هندسية معقده ومزخرفة بالأزهار ، تفصل بينهما كتلة ضخمة من خمسة أعمدة من المرمر ، يمتاز العمود المركزي والعمودان الجانبيان منها باللون الأخضر ، بينما كان العمودان الآخران باللون الأبيض ، وزينت تيجان هذه الأعمدة بأشكال لأوراق الشجر المنحوتة بمهارة وإتقان ، واحتوى الإفريز الأيمن المنبثق من قاعدة الأقواس والذي يعلو البوابة المسدودة بالآجر لوحة محفورة لأولاد مرحين بأسلوب الزخرفة العربية التقليدية (الأرابيسك) ، أما الإفريز الذي يعلو البوابة اليسرى ، والتي تعد المدخل الوحيد للكنيسة ، فقد احتوى نحتا مجسما لمشهد دخول السيد المسيح للمدينة وللعشاء الأخير ، ولم تتماشَ موضوعات هذا الإفريز مع تلك التي ضمها الإفريز الآخر. اتجهنا بعدئذ إلى أطلال كنيسة فرسان القديس يوحنا القريبة من موقعنا ، فمررنا عبر قنطرة رومانية عريضة ذات ارتفاع منخفض ومشغولة بأشكال هندسية لمربعات مسننة وأنماط هندسية متدرجة ، تستند إلى عمودين رخاميين بتاجين منحوتين. تسلقنا كومة تراب ملأى بخضروات تالفة وجثث قطط وكلاب عفنه ، شّكلت مرتعا خصبا من القاذورات للذباب والبرغوث ، وانهمك بعض الأطفال البائسي المظهر وشبه العراة باللعب وبأكل قشور البطيخ بشراهة ونهم ، عبرنا ساحة ملأى بالقاذورات التي كانت الكلاب تنبح وتزمجر وهي تتقاتل عليها ، لكننا أُخذنا بالجمال الغريب لهذا الصرح المهجور من زمن الفروسية القديمة. تبين لنا بأن ثلاثة من الجدران الخارجية لهذا المبنى الضخم ما زالت واقفة في مكانها ، وفي داخلها قواطع تحدد ثلاثة أجنحة مستقلة ، استخدم أحدها كمدبغة ، بينما كان الجناحان الآخران يحتويان على هياكل عظمية لحمير وخيول ، حيث تُجّر جثث الحيوانات التي تنفق في الأماكن المجاورة والمحيطة إلى

هذا المكان القذر ؛ لكي تلتهمها الكلاب والجوارح من الطيور ، ثم صعدنا كومة من النفايات والكلس المحترق نحو سلالم حجرية زلقة ، قادتنا إلى رواق علوي ذي تصميم يحاكي تصميم الطابق السفلي للدير ، فوجدنا نافذتين كبيرتين محاطتين بزخارف نباتية يفصلهما عمود حجري وقوالب جصية تعود في تصميمها للعصر الإنجليزي المبكر ، وقد كانت جميعها في حالة جيدة.

بالرغم من الإزعاج الذي تتسم به المنطقة المحيطة بالدير ، إلا أنني زرته مرات عديدة. كان النمط المعماري في معظم أرجائه يشبه النمط الروماني الصقلي ، بينما كانت بعض أقسامه تذكرني بالأسلوب المعماري الإنجليزي في العصور المبكرة ، يبدو أن المبنى كان قد شُيد ليكون حصنا وملاذا كنسيا للعبادة وأداء الصلوات. يقال بأن بناءه تم في القرن الحادي عشر ليكون استراحة للحجاج الذين يؤمون بيت كنيسة القيامة ، وكانت أهميته تتنامى بسرعة وبشكل متواصل حتى القرن الثالث عشر لدى الانهيار المفاجئ للنفوذ المسيحي ؛ فتعرضت معالم تلك الفترة للتدمير أو أنها تركت لتذوي وتضمحل تدريجيا كما حدث لهذا الدير. استرعت الرسوم والتصاميم والشعارات المحفورة على البوابة الرومانية التي عبرناها انتباهي ، مع أن معالمها تعرضت للاندثار والتشويه بفعل إساءة استخدامها في الآونة الأخيرة ، وسيكون العثور عليها أمرا صعبا للرحالة الذين سيؤمون هذا المبنى في المستقبل. عندما زرت المكان مجددا في العام 1859 ، أي بعد مضي أربع سنوات ، فوجئت بأن البوابة قد أغلقت ، وبأن الأرض الخلاء المواجهة لها قد أغلقت أيضا وتم تحويلها إلى دكان أو متجر متخصص ببيع الخرز والأساور المصنوعة في الخليل. نفضنا الغبار عن أقدامنا وتابعنا مسيرنا لمسافة قصيرة عبر درب الآلام ، إلى أن انتبهنا عند استطالة الظلال وصوت آذان المغرب الصادر من المآذن القريبة ، بأن الشمس مالت نحو الغروب ، فحثثنا الخطى عبر الطرقات والبازارات. كانت الدكاكين الصغيرة قد تركها أصحابها وأغلقوها بسبب هبوط الظلام.

كانت خيولنا تنتظرنا عند البوابة التي تركت مفتوحة من أجلنا. بعض المارة كانوا يعبرونها مسرعين ، لكن أبوابها الضخمة أغلقت فور خروجنا منها ، لكي يعاد فتحها عند شروق

الشمس.

كانت النجوم قد بدأت بالظهور خلال رحلة الإياب إلى بيتنا عبر وادي النار ، مارّين ببستان محاط بسياج من أملاك الطائفة الأرثودوكسية ، حيث جلس بعض العرب على فرشات وثيرة تحت الأشجار ، وبالقرب من بئر تتوسط البستان ، وهم يغنون بشجن ويحركون أجسادهم للأمام والخلف بحركات بطيئة متزامنة مع اللحن الذي كانوا يغنونه. وكان السراج المعلق على غصن شجرة يلقي بنوره على أجسادهم وعلى ملابسهم ذات الألوان العديدة ، تاركا تأثيرا أخاذا لتمازج الظلال والضوء.

سرعان ما وصلنا الطالبية وحفت الطريق المغطاة بالحصى أعدادا كبيرة من الديدان التي كانت تلتمع بوضوح في ظلمة الليل. اتضح لي بأن وضع عدد من هذه الديدان سوية على حجر أو سطح بارد ، يساعدني على القراءة بفعل النور الأخضر المنبعث من أجسامها المضيئة كالقناديل.

امتطينا خيولنا وسلكنا طريق وادي الصليب في صبيحة اليوم التالي ، وعبرنا التلال التي تملؤها الصخور والمغطاة بالأزهار والأشواك والعليق ، متجهين إلى قرية لفتا الصغيرة ، حيث انتصب مخيم المطران جوبات والكاهن إتش. كراوفورد وعائلاتهم الكبيرة في بيارة زيتون جميلة على أرض منبسطة على جانب أحد التلال. كانت خيامهم منتشرة في المكان بشكل جميل تحت الظلال الوارفة للأشجار الضخمة.

خلا المكان من بيت يصلح لأن يكون مأوى أو ملاذاً من قيظ النهار ، كما هي الحال في الطالبية ، ولكن الشجرة التي نصبت تحتها الخيمة التي خصصتها السيدة جوبات لتكون غرفة جلوس ومعيشة ، أدت الغرض المنشود منها في الوقاية من أشعة الشمس ، أما الأريكة بوسائدها وكراسي الرحلات ومناضد الكتابة والمناضد المخصصة للعمل والأطفال والدمى التي كانوا يلعبون بها وكتبهم المدرسية ، فقد أسهمت جميعها في إضفاء لمسة بيتية حميمية على المكان ، وتكفلت بإبعاد الشعور بالطبيعة المؤقتة للحياة تحت الخيام. رحبت السيدة جوبات بي ترحيبا حارا وعرفتني على أصدقائها الذين قدموا من الخيام المحيطة بنا ، وعلى الأطفال الذين قطعوا لعبهم ودراستهم وجاءوا للترحيب بنا.

اجتمع عدد كبير من الحضور داخل الخيمة وعلى الأريكة تحت الشجرة المقابلة للخيمة خلال زمن قصير. بعيد وجبة الغداء المكونة من الفاكهة والخبز والزيتون والجبنة ، دخنت السيدة جوبات نرجيلتها ، وكان استمتاعها بالتدخين جليا ، ولا زلت أذكر المذاق الذي ميّز التنباك الذي دخنته بمعيتها. تولى خدم أحباش يرتدون الزي العربي التقليدي ، توزيع القهوة وحلوى التوت والحلوى المغطاة بالشوكولا. كان من الواضح بأن أطفال السيدة جوبات الأنيقين والودودين ، وأطفال آل كراوفورد الصغار ، يستمتعون للغاية بحياتهم داخل الخيام ، وقد اصطحبوني لرؤية أرجوحتهم المعلقة على شجرة التوت ومحاولاتهم لبناء أشكال معمارية باستخدام الحجارة المتوفرة بكثرة في الأنحاء. كانوا يأخذونني بشغف وحماسة من خيمة إلى أخرى ، من خيم المطابخ ، إلى خيمة المؤن ، إلى خيمة الدراسة ، انتهاء بالخيم الصغيرة المعدة للنوم والبالغة الترتيب ، ثم أروني أفضل المواقع في الأنحاء ، فقبر النبي صموئيل كان يربض على قمة هضبة مخروطية الشكل ترتفع في الأفق البعيد من هذه الجهة ، والوادي المترامي الأطراف والقرية الصغيرة والحقول وكروم العنب والأراضي المعدة لدرس الحنطة المحيطة بها من الجهة الأخرى. كانت ماعز صغيرة ولطيفة تقتفي أثرنا حيثما اتجهنا ، وهي الماعز ذاتها التي رسمها السيد وليام هولمان هنت في لوحتة الذائعة الصيت التي أسماها كبش الفداء كانت اثنتان من الماعز قد نفقتا قبل انتهائه من رسم لوحته ، لكن هذه الماعز أصبحت أليفة للغاية وصارت تستجيب له عندما يناديها ، وعندما أكمل العمل بلوحتة وهب الماعز لهولاء الأطفال. كانت الأصوات الحادة والعالية التي تصدرها حشرات الزيز تسمع من كل شجرة من أشجار الزيتون ، وقد أكدوا لي بأن الضوضاء الصادرة عنها خلال الليل مرتفعة لدرجة تبقي الناس غير المعتادين على صوتها مستيقظين طوال الليل.

أمضيت العديد من الأيام السارة في هذا المنتجع في مناسبات كثيرة ، كالولائم التي يقيمها المطران لمناسبة اجتماعية ما ويتصدر مائدة الطعام الطويلة تحت الشجرة ، أو خلال حفلات الشاي التي يقيمها آل كراوفورد في خيامهم في ضوء القمر وفي الأنوار المنبعثة من القناديل المعّلقه على جذوع الأشجار ، أو تلك المتدلية من أعمدة الخيم. تمكنت خلال

مناسبات اجتماعية كهذه ، أو كتلك الحفلات التي ينظمها السيد فن ، من التعرف على معظم أصدقائي من أبناء الطائفة البروتستانتية في بيت المقدس. كنا نخرج في بعض الأحيان للتنزه سيرا على الأقدام في مجموعات صغيرة لزيارة كروم العنب ومزارع السمّاق التي تمتاز نبتتها بلمعان أوراقها الخضراء أسفل المخيم ، أو الأرض المخصصة لدرس وذري الحنطة في المرتفعات أعلى المخيم ، والأكواخ القليلة المبنية من الحجارة والطين والمسقوفة بأغصان الأشجار ، التي كانت بيوتا للفلاحين الذين كانوا يحرسون البساتين. رأينا امرأتين تطحنان الذرة باستخدام طاحونة حجرية تدار باليد في واحد من هذه الأكواخ.

يلجأ الأوروبيون المقيمون في بيت المقدس ، خصوصا الذين يعيلون أطفالا أو أولئك المعتادون على المناخ المعتدل ، إلى التخييم بهذه الطريقة طوال الفترة الممتدة من حزيران/يونيو حتى أيلول/سبتمبر ، ويختارون بقعة تبعد ميلاً أو اكثر عن المدينة ، بحيث يتمكن الرجال من الذهاب للمدينة يوميا ، بينما يندر أن تفعل النسوة والأطفال ذلك إلا في أيام الآحاد. هذا التقليد هو واحد من أكثر المباهج التي يستمتع فيها الأوربيون خلال إقامتهم في بيت المقدس ، والفضل في ذلك يعود بالطبع للسيد فن الذي كان أول من بادر بالمغامرة في التخييم مع أسرته في البرية. كان منزله الحجري الصغير في الطالبية -والذي صممه بنفسه ، وبناه اليهود- لردح طويل من الزمن ، المسكن الخاص الأول والأوحد خارج حدود المدينة ، أما الآن ، في العام 1862 فإن المباني المهمة والمنازل تنتصب بسرعة كبيرة على التلال المحيطة ببيت المقدس.

في يوم الأحد الثامن من تموز/يوليو ، استمتعنا برحلة صباحية على صهوات الخيول للمدينة ، وقوبلنا بترحيب من أجراس كنائسها التي كانت تقرع حينئذ. كانت الرايات ترفرف على مباني البعثات القنصلية كافة ، وكانت السيدات وأطفالهن القادمون من أماكن نائية يترجلون عن حميرهم الرشيقة والمزيّنة بأناقة على أبواب الكنيسة الانغليكانية. كان عددهم يناهز المئة من الأوروبيين بمن فيهم الأطفال ، ونصف هذا العدد تقريبا من اليهود والعرب الذين تحولوا إلى البروتسنانتية. احتل تلاميذ المدارس الأبرشية الممرات الجانبية للكنيسة ، وقد ارتدوا جميعا ملابس أوروبية بسيطة ، لكن كان من السهل تمييز الطلعات البهية

والمفعمة بالذكاء للأطفال اليهود والأطفال الأحباش الودودين والمهذبين ، والأقباط الأذكياء ، والفتيان العرب بوسامتهم ونضجهم المبكر ، والأطفال الأرمن بجاذبيتهم على الرغم من ملابسهم المميزة.

كانت الحرارة مرتفعة جدا في ذلك اليوم ، فقبلت دعوة السيد نيكلسون للمكوث في بيته إلى أن تنقضي ساعات القيظ عند العصر ، عدنا بعدها للطالبية قبيل غروب الشمس بقليل. كانت حشود من العرب يتنزهون وهم يرتدون ملابس العطلات في الميدان ، وهي مساحة واسعة من الأرض المستوية التي تقع خارج المدينة نحو الشمال الغربي ، تستخدم لتدريب الوحدات العسكرية في العادة. وهي المكان المفضل للتنزه عند الأهالي.

كان الرجال يرتدون ملابس جميلة ومتنوعة بألوان وصبغات عديدة ، فمن الأثواب الداكنة للرهبان ، إلى المعاطف المزركشة والمطرزه بالخيوط الزاهية الألوان للجنود والموظفين الأتراك ، إلى القبعات المدببة العالية وأثواب الغباردين التي تميز اليهود ، إلى عمائم الرجال المسلمين وأحزمتهم الزاهية الألوان ، إلى البذلات الأنيقة للمسيحيين العرب وطرابيشهم الحمراء. أما النسوة اللاتي جلسن في مجموعات منفصلة تماما عن الرجال ، في ظلال أشجار الزيتون ، أو كنّ يتمشين في الوادي القريب بالأسفل ، فقد تسربلن بالملاءات السوداء ، وسواء كانت مسلمة أو مسيحية أو يهودية ، فإن ما يميز زي المرأة هو لون النقاب أو البرقع ، وشكل أو لون الخف الذي ترتديه في قدميها. ارتدت بعض النسوة أحذية أوروبية ، بينما ارتدت أخريات جوارب ونعالاً مدببة من الجلد الأصفر. وكانت الإماء السوداوات يرتدين نعالا حمراء أو صفراء اللون فقط ، ما يسهل تمييزهن عن سيداتهن. حملت بضع سيدات مظلات أنيقة مطرّزة بخرز لامع.

تجولنا في ضوء النجوم في المرتفعات المتاخمه للطالبية. كنا نرى نيران المراقبة التي أوقدت فوق العديد من التلال المحيطة وعلى سهل بيت لحم ، وكنا نسمع في سكون الليل ومن مسافات بعيدة ، أصوات الرعاة الذين كانوا يرسلون إشارات لأقرانهم من الرعاة الذين يرعون القطعان في أماكن أخرى.

امتطيت صهوة جوادي في يوم الثلاثاء ، العاشر من الشهر ، واتجهت للمدينة من جديد ،

عبرت الشارع المسيحي والبازارات الرئيسية ، ونزلت درجا ضيقا مليئاً بالقاذورات ، ثم دخلت ممرا معتما ومغبرا تحت جسر مقنطر ضيق ، ثم عبرت مجازات عريضة وطويلة إلى بازارات تقام فيها أسواق الخبز واللحوم والحنطة والجلود.

كان الباعة ينادون على المارة: اللي حامل مصاري ، ييجي يشتري ، اللي معو...ييجي يشتري! لكن بعضهم كانوا يتحلون بقدر متواضع من النزاهة ، فقد بادرني أحد باعة الفواكه مدللا على فاكهته بالقول: خذي من فاكهتنا ببلاش يا سِتي ومن دون فلوس ، خذي اللي بدك اياه ، ثم يقوم بتحميل قوّاسنا بكل ما يمكن حمله من معروضات دكانه ، ومن ثم يفرض علينا ضعف السعر في النهاية. جلست فلاحات قادمات من قريتي العيزيرية وسلوان بصحبة بناتهن الصغيرات في أحد الشوارع المؤدية إلى واحدة من هذه الأسواق ، لبيع الخضراوات والفواكه. لم يرتدين الملاءات البيضاء التي ترتديها سيدات المدن عادة ، بل كنّ يرتدين أثوابا طويلة من الكتان المدبوغ باللون النيلي ، ويتمنطقن بشال أو زنار أحمر عند الخصر. كانت رؤوسهن مغطاة بمناديل ملونة أو بشالاتٍ أو بقطعٍ من القماش الأبيض توضع بطريقة معينة لإخفاء الوجه جزئيا ، وكانت وجوههن ذات بشرة غامقة جدا تنتشر فيها وشوم لنجوم زرقاء ونقاط وشمت على جباههن وحول شفاههن. بدت عيونهن الغامقة بحجم أكبر من حجمها الطبيعي وبلون أكثر قتامة من لونها الحقيقي بسبب الكحل الذي يكتحلن به ، والأثر الذي تتركه الصبغة التي يضعنها على رموشهن ، كما ارتدين أساور ملونة من الزجاج - من صنع مدينة الخليل- وخلاخيل فضية ، وكان بعضهّن يضعن قلادات عُلقت بها قطع نقود معدنية وخواتم من الفضة. قالت لي فتاة صارخة الجمال من سلوان وهي تجذب طرف فستاني ثوبي قائلة: ذوقي غلال بياراتنا يا أختي تسبب أخي لدى مروره بالقرب من إحدى النساء اللاتي يتلفعن بملاءة صفراء ، من دون قصد ، بإفساد طيات إزارها ، فسارع بالاعتذار لها قائلا: عفوك يا ستي ، فأجابته قائلة: لا تنادني يا ستي ، هذا لقب ستِّنا العذرا صادفنا عددا كبيرا من مرضى العيون أو الذين يعانون من العمى الجزئي أو الكلي خلال تجوالنا ، ولكن وبشكل نسبي ، فالأشخاص ذوو العاهات الخلقية تندر رؤيتهم في فلسطين.

وفي واحد من أكثر الأسواق التي زرناها اكتظاظا ، شاهدنا رجلا هزيلا طويلا يتسكع بين

حشود الناس وهو عارٍ إلا من قطعة خيش بالية تستر عورته. كان يحمل قضيبا طويلا وسميكا في يده اليمنى ، وحجرا كبيرا في اليسرى. ذكرني صراخه العنيف وحركاته الهائجة وعيناه اللتان تشعان شررا ، بالوصف الذي نعرفه للأشخاص الذين يجلبون النحس ، والذين مسّتهم الشياطين في الأزمنة الغابرة. شعره كان طويلا وأشعث ، ولحيته تكاد تصل إلى مستوى وسطه.

صرخ بالعربية قائلا: هذه المدينة مصيرها الخراب! ستأكلها النيران بسبب الشر الكامن فيها! وبالرغم من سيل الشتائم واللعنات التي أطلقها ، والأسلحة التي كان يحملها ، إلا أن الناس المحيطين به لم يكترثوا به ولم يضايقوه أو يتعرضوا له. كان جنونه واضحا ، ويسمي العرب هذا النوع من الناس بالمجنون ، وأخبرني شقيقي بأنه تُرك هائما في البازارات على هذه الحال طوال سنوات ، وبأن مجموعة من المتبطلين والعاطلين عن العمل يتبعونه أينما حل ، وبأنه يعتاش على الصدقات والهبات. ويميل المشرقيون عموما للعطف والشفقة على هذا النوع من الناس ؛ لإيمانهم الراسخ بأنهم يحظون بحماية خاصة من الله. كما يشاع بأنهم يمتلكون معرفة وعلما أوسع بالأمور الغيبية بما يتناسب وحاجتهم لها مقارنة بأمور الحياة الدنيوية.

دخلنا الزقاق الضيق الجميل والهادئ الذي يقطن فيه قنصل بروسيا. كانت أقواس مستدقة الرأس تعلوها أسقف مضلّعة ومطّوقة بإطارات تغطي الزقاق هنا وهناك ، ودعامات متينة تسند بعض المنازل التي بنيت من الحجارة الكبيرة التي قطعت زواياها وصقلت بعناية ، ورصت فوق بعضها البعض باستخدام قضبان من الرصاص عوضا عن استخدام الملاط أو الطين. البوابات التي تعلوها الأقواس العميقة والمغطاه بالمشربيات المزخرفة ، كانت خير مثال للنمط المعماري الموريسكي ، جلس على المقاعد الحجرية الواطئة داخل البوابات خدم تبدو عليهم علامات الجلال وعبيد سود يتمنطقون السلاح. امتلأت الجدران بألواح من المرمر وأنماط زخرفية فوق الابواب وتحت المشربيات وفي الليوانات التي تظللها القناطر والأقواس ، وكانت جميعها تحتوي على نقوش وخطوط عربية نافرة قليلا مرسومة بعناية وإتقان فائقين ، وطلي بعضها بالألوان الأحمر والأزرق والذهبي. استخدمت الأبجدية العربية

الرشيقة بحروفها الطويلة الممتدة بكثافة في هذه الزخارف ، بغية تزيين وتجميل الأجزاء الداخلية والخارجية لمباني المساجد. كما وضعت التيجان العلوية للأعمدة القديمة للمباني المنحوتة من الحجر إلى جانب البوابات كعتبات ودرجات في سلالمها ، وفي العديد من الأماكن ، كانت أرسان الخيول تربط بواسطة حجارة مثقوبة وناتئة من الجدران.

مشينا عبر درب الآلام وكنا نتوقف أحيانا لإفساح المجال لعبور مرور صف طويل من الحمير المحملة بالحجارة أو أغصان الشجر وقد غطتها سحابة من الغبار ، أو عندما كان مرور قافلة من الجمال المحملة بالبطيخ في طريقها للسوق يؤدي إلى إغلاق الطريق.

التقينا بالعقيد المسؤول عن سلاح الفرسان التركي والعديد من الضباط ، فدعوني بلباقة لصعود الدرجات غير المستوية التي تؤدي إلى شرفة مرتفعة وواسعة في السراي أو قصر الباشا. أتيح لي من تلك الشرفة المطلة والمركزية ، لأن أكون للمّرة الأولى فكرة عامة عن المدينة والروابي المحيطة بها. كان مبنى السراي الذي وقفت على شرفته مجاورا للجدار الشمالي للحرم القدسي ، ولذلك وبالنظر نحو الجنوب ، كنت أُطل على ساحة الحرم بأكملها ، التي تبلغ مساحتها ربع المساحة الإجمالية للمدينة تقريبا. في مركز هذه الساحة تنتصب قبة الصخرة الشهيرة.

تستند هذه القبة الجميلة إلى قاعدة دائرية ، وتتوج مبنى فسيحا مثمن الأضلاع ، تزين كل ضلع من أضلاعه الثمانية ستة أقواس فخمة ، كُسي الجزء السفلي منها ببلاط لامع ومطلي بالمينا بألوان متعددة. يقوم هذا المبنى على قطعة أرض منبسطة شاسعة ومربعة الشكل ، وترتفع بعض الشيء عن بقية أجزاء الحرم ، ويتم الوصول إليها من ستة مداخل عبر مجموعة من الأدراج العريضة المتصلة ببوابات جميلة تتألف من ثلاثة أو أربعة أعمدة منحوتة بإتقان تعلوها قناطر مدببة. تحتوي ساحة الحرم القدسي على العديد من المحاريب الصغيرة والقباب الحجرية التي تسندها الأعمدة ، ومنابر منحوتة من المرمر ، وتوجد مثيلات لها في المنطقة العشبية أسفل صحن الحرم ، حيث تؤدي العتمة الجميلة لظلال السرو وأشجار الزيتون وشجيرات الورد ، إلى تخفيف البياض الناصع للجدران والقباب الحجرية. يؤدي بستان جميل من الأشجار إلى المسجد الأقصى الكائن في الجزء الجنوبي من المنطقة ،

حيث المنظر الأخاذ لسقفه الطويل المجملن وقبته الضخمة وواجهته التي صممت بالطراز العربي. ويضيف المسلمون ذوو العمامات البيضاء الجالسون تحت ظلال الزيتون ، والمصلون الخاشعون في خلواتهم في المحاريب وتحت القباب الصغيرة ، والخطوات الرتيبة والبطيئة للجنود الأتراك وحراس الأماكن المقدسة من العبيد السود وهم يتجولون في الأرجاء ، الحيوية التي يحتاجها المشهد الذي كان سيبدو كصورة فوتوغرافية ساكنة لولا ذلك.

هناك تفاوت كبير بين هذه البقعة المفعمه بالحيوية من جبل موريا ، والجهة الأخرى من المدينة التي يقطعها واد وتنتشر بها المباني البيضاء ذات القباب والشرفات ، وتتخللها شجرة قديمة هنا وكنيسة أو مسجد هناك. الجزء الأبعد والأكثر عزلة من المدينة هو الجزء الجنوبي الذي يسكنه اليهود. يسكن الأرمن الجزء الجنوبي الغربي من المدينة حيث ينتصب ديرهم ، أبيض ورائعا ويميز حيّهم بكل وضوح. أما الحي الشمالي الغربي من المدينة ، وهو الأكثر ارتفاعا من بين أحيائها ، فيمتاز بكثرة الأوربيين القاطنين فيه ، وتقع فيه كنيسة القيامة ودير اللاتين والكنيسة البروتستانتية والعديد من قنصليات الدول الأجنبية. والحي الشمالي الشرقي هو حي المسلمين. يستخدم البعض من قطع الأرض العراء المنتشرة داخل المدينة كمساحات مخصصة لتجفيف الكتان المدبوغ بالصبغة النيلية ، بينما يستخدم بعضها الآخر لتجميع النفايات والقاذورات. صرت قادرة الآن على تتبع السور الحصين للمدينة الذي ينخفض تدريجيا باتجاه الوادي ، ليعود ويرتفع من جديد في خط متعرج بحيث يتوج مرتفعات جبل صهيون.

بعد أن تسكعنا هناك لبعض الوقت مأخوذين بروعة المناظر المحيطة بنا ، اصطحبنا الحاكم العسكري إلى ديوان لاحتساء القهوة وعصير الفواكه ، واعتذر هو عن مشاركتنا بسبب صيام رمضان ، وهو الشهر الذي يمتنع فيه المسلمون عن تناول الطعام والشراب من شروق الشمس حتى مغيبها يوميا.

انطلقنا بعدئذ لزيارة العديد من العائلات الأوروبية ، من الإنجليز والألمان واليونان والروس. تميزت غرف وقاعات العقود الحجرية التي استقبلونا بها ببرودتها وأجوائها اللطيفة حتى أثناء الظهيرة ، وقد أثثت وفرشت لتمزج الكماليات الشرقيه والأوروبية معا. وضعت الوسائد

الوثيرة داخل الكوّات الجدارية المقنطرة ، وعلى مصطبات النوافذ بأناقة وترتيب ، وتدّلت الستائر المصنوعة من الموسلين على النوافذ العريضة ، وهو ما ساعد على تلطيف أجواء الغرف ، وغطت السجاجيد التركية والبسط المصرية الأرضيات الحجرية. الجرائد والصحف وأرفف الكتب والصور المعلقة على الجدران والبيانو والتحف التذكارية المتنوعة ، تكفلت بالتنبيه إلى أن الأوروبيين سكنوا هذه البيوت ، إضافة إلى الورود الإنجليزية التي أينعت بين شجيرات الدفلى والياسمين ، في ظلال المعرشات التي تغطيها دوالي العنب ، لكن رؤية خدم أوروبيين في هذه البيوت الأوروبية كان أمرا نادرا. من السائد هنا تفضيل الخدم الأحباش على الخدم من السكان المحليين ، نظرا لذكائهم ودماثتهم وأمانتهم وإخلاصهم ، مع أن سيدات بيت لحم اللاتي يمتزّن بجرأتهن وعنادهن يلاقين طلبا كبيرا عليهن للعمل كخادمات منزليات لشهرتهّن في أداء أعمال المنزل بنظافة وحرص. تنامى إلي بأن تدريب وإدارة أطقم الخدم من الشرقيين هي من أصعب التحديات التي تواجهها ربات البيوت الأوروبيات.

كان يوم الخامس عشر من يوليو/ تموز يوما شديد القيظ. خلدنا مبكرين جميعا إلى خيامنا بسبب الإرهاق الناتج عن الحرارة الشديدة. استيقظت عند منتصف الليل تقريبا بسبب الحركة العنيفة لسراج خيمتي وأصوات مرتفعة لجلبة وضوضاء. أول ما تبادر إلى ذهني حينها كان بأن التلال تتعرض لهزة أرضية ، ثم تخيلت أن وحشا بريا اقترب من معسكرنا ، وأخيرا توصلت إلى نتيجة مفادها- وثبت بأنه كان الاستنتاج الصحيح- بأن خيمتي تتعرض لخطر الاقتلاع بسبب الزوبعة القوية التي أحدثت فتحتين في جدران الخيمة ، ما أدى إلى أن يرفرف قماشها ويرتطم بشدة بهيكل سريري السفري.

أدت الضوضاء الصادرة عن رفرفة الجدران القماشية للخيمة والارتخاء والشد الحاصل في الحبال التي تربطها ، وحفيف وخشخشة أوراق الشجيرات الصغيرة ، والجلبة الناتجة عن اهتزاز الأشياء المحيطة بي بفعل قوة الرياح ، إلى أن أبقى مستيقظة لوقت طويل. لم أستبعد أن ينتهي بي الأمر في العراء الطلق فقد كانت خيمتي في أعلى بقعة من المخيم. بوشر بإصلاح وترميم الخيام في صبيحة اليوم السادس عشر من الشهر ، وبدأ البحث عن

أوتاد ومطارق لتثبيت الخيام التي تضررت كليا أو جزئيا بفعل الرياح العاتية لليلة المنصرمة. كان النسيم عليلا ودافئا عند شروق الشمس ، وكانت السحب تأتي من الشمال بمجموعات عاكسة الوهج المنبعث من شمس الصباح. كانت رياح جنوبية غربية قد جلبت هذه الغيوم من مصر قبل يوم أو يومين ، وها هي تعود اليوم إلى مصدرها ، النيل العظيم. تجولنا في غضون ذلك في الأنحاء لكي نغرس الأشجار التي اقتلعت ونسند تلك التي تكسرت ، إذ لم تسلم شجرة منها من تأثير الرياح العاتية.

قبل موعد طعام الفطور ، اتجهت أنا وشقيقي على صهوات جيادنا إلى دير الصليب ، الكائن في الوادي المقفر الذي يحمل اسمه. شهد الدير أعمال ترميم وصيانة واسعين من قبل اليونانيين ، مّلاكه الحاليين ، كما شيدت فيه كلية مرموقة تستوعب أربعين أو خمسين تلميذا. كان الدير مملوكا فيما مضى للجورجيين الذين أسّسوه في القرن الخامس في البقعة نفسها التي نمت فيها شجرة الزيتون التي صنع منها الصليب ، هذا على الأقل ما رواه لنا الراهب الجليل الذي قادنا إلى الكنيسة ، وهي عبارة عن مبنى فخم طوله حوالي سبعين قدما ، يعلوه سقف مقنطر يقوم على أربعة أعمدة في غاية الضخامة. كُسيت الجدران بلوحات جصية جميلة ، واحتوت واجهة المذبح على تأريخ مصور للشجرة المقدسة منذ أن زرعت على يد إبراهيم ولوط إلى أن قطعت كصليب. وبما أن الكنيسة الجورجية والأرثوذكسية تحرم النحت تحريما تاما ، اعتمدت جميع أعمال الزخرفة على الألوان ، لكن بعض اللوحات انطوت على حلول وسط ، حيث قصت أشكال الأشخاص على خشب رقيق وعلقت على خلفيات مناسبة. الهالات النورانية كانت في معظم الحالات تقريبا ، معمولة من الذهب الخالص ، واستخدمت المجوهرات والأحجار الكريمة لتزيين ملابس شخصيات هذه اللوحات.

كان في مركز الدير لوحة فسيفساء كبيرة ومربعة ، كانت من أجمل ما رأيت في فلسطين. كانت تظهر صورا لطيور جميلة وأشخاص غريبي الشكل ورموز مسيحية ، أما الفراغات المحيطة باللوحة وهي معينات هندسية نتجت عن تقاطع الخطوط الإطارية للوحة الجميلة ، فقد كانت تعّج بتصاميم فائقة الروعة. تبلغ مساحة القطعة الواحدة من القطع

المتراصة ، التي تتكون منها هذه اللوحة ، حوالي ثلاثة أرباع بوصة مربعة ، وقد لونت بالالوان الأسود والأبيض والأحمر والأزرق والأصفر.

عُدنا أدراجنا مسرعين من أجل الفطور ، وكانت السماء الزرقاء فوقنا مرقطة بغيوم خفيفة كالزغب تجري مسرعة ، وكانت ظلالها تقطّع الجبال المحيطة بنا إلى مربعات ؛ إذ تغمر أشعة الشمس ربوة ما في لحظة معينة ، لتغطيها ظلال السحب بالكامل في اللحظة التي تليها. كانت قطعان الماعز التي ترعى على جوانب التلال والفلاحات المتجهات إلى المدينة وهّن يحملن الخضراوات وأوعية الحليب وأقفاص الدواجن ، تضفي مزيدا من السحر على هذا المشهد الطبيعي. عاد (إل) والأطفال معي للدير ، حيث أمضيت بقية النهار وأنا أستمتع برسم لوحات الفسيفساء الجميلة (أرجو من قرائي المهتمين بالفن المسيحي المبكر الرجوع إلى رقم 878 من كتاب البنّاء الذي نشر في 3 كانون الأول / ديسمبر 1859 الذي يحتوي على نماذج من هذه اللوحات التي رسمتها في دفتر الرسم خاصتي). من المذهل بقاء الأعمال الفنية الأثرية بهذه الحالة في هذه المباني التي هجرت وتحولت إلى أطلال وخرائب طوال قرنين أو ثلاثة قرون. انتقلنا إلى كهف يقع أسفل مذبح الكنيسة ، وأرشدنا إلى البقعة التي نمت فيها الشجرة المقدسة في مشكاة جدارية معتمة ورطبة. شاهدنا بعض العمال وهم يزيلون لوحة جورجية عتيقة. استخدموا الشرائح الورقية في صنع أكياس لوضع بودرة الأصباغ الجافة ، وقدموا بعض هذه الشرائح كهدية لي عن طيب خاطر. الشرفة المطلة على حديقة الدير كانت مظللة بمعرشات تغطيها دوالي العنب ، التي تدلت قطوفها الثقيلة الملأى فوق رؤوسنا. قفلنا راجعين للمنزل مشيا على الأقدام ونحن نجمع أزهار أبو العرق الزرقاء والورود الزهرية وأزهار نبتة الراعي ذات اللون الأحمر.

حّل ليل هادئ أناره الضوء الخافت للقمر ، بعد الشفق الذي رافق الغروب وصبغ السماء التي تغطت بالسحب بلون أحمر. لم يقطع سكينة الليل سوى نباح قطعان ابن اوى وأصوات الضباع والذئاب البرية في الخارج ، وأزيز البعوض في الداخل. اكتشفت صبيحة اليوم التالي أن ستائر الخيمة قد بلّلها الندى ، وكانت الملابس التي علقت بالقرب منها خلال الليل رطبة إلى درجة قد تضرّ بالجسم إذا لُبست وهي في تلك الحال.

الفصل الثالث

بيت المقدس وما حولها

أمضيت كل ساعات فراغي في تلك الأيام في تعلم اللغة العربية. لم يملّ الصغار في معسكر الطالبية من إضافة كلمات جديدة إلى قائمة مفرداتي على الإطلاق ، فكنت أستخدم هذه المفردات كلما سنحت لي الفرصة عند استقبال الضيوف أو العمال العرب ، وخلال تعاملي اليومي مع الخدم العرب الذين اعتدت على أصواتهم العالية سريعا. كانت بعض الخادمات المتقدمات في السن حّنونات وعطوفات للغاية ، وكنت كلما طلبت شيئًا أو أصدرت توجيهات لأداء مهام معينة ، بالاستعانة ببعض المفردات التي تعلمتها حديثا ، يكافئنني ويعبّرن عن سرورهن بالتصفيق أو بالقبلات. اعتدت سماع اللهجة العربية العامية لعام أو يزيد ، لذلك لم تكن الأصوات غريبة على أذني.

في السابع عشر من يوليو/تموز ، وبعد يوم دراسي هادئ ، انطلقت بمعية أخي إلى بيت لحم ، وكانت الشمس توشك على المغيب ، وصبغت الظلال البنفسجية السماء من جهة الشرق. شققنا طريقنا عبر منحدر متعرج وغير ممهد ، وبضعة حقول مزروعة بالسمسم ، إلى أن بلغنا الطريق الواسع الذي يقطع سهل ريفايين الخصيب ، حيث تعرض الفلسطينيون القدماء للهزيمة على يد داوود. يبلغ طول الطريق قرابة الميل وهو الطريق الوحيد الذي ما زال صالحا لسير العربات في أنحاء بيت المقدس ، ولو أنه ما زال من الممكن رؤية بعض آثار الطرقات القديمة التي تروي حكايات الزمن الذي امتلك فيه سليمان الملك أربعة آلاف مربط للفرسان وعرباتهم الحربية ، والاثني عشر ألف خيّال الذين نشرهم في بيت المقدس والمدن المحيطة بها

إجتزنا السهل مسرعين يتقدمنا قوّاسنا إلى أن بلغنا بقعة لا يمكننا فيها استخدام العربة. تعثرت جيادنا على الصخور الملساء والحصى الزلقة ، خلال صعودنا الهضبة المستديرة التي تنتصب عليها كنيسة مار الياس ؛ وهي مبنى رمادي ضخم من الحجر ، تنتصب وسط بساتين من الزيتون والبيارات النضرة ، بزغ القمر الذي كان هلالاً ذا ثلاثة أيام ، والنجمة الساطعة المرافقة له في السماء الزرقاء الصافية فوق قمم الأشجار التي اكتست باللون

الفضي. توقفنا على الهضبة لنُريح خيولنا اللاهثة ، ولكي نجيل البصر في ما حولنا. كانت بلدة بيت لحم الجميلة تتألق وتومض بلونها الأبيض جنوبا. وكنا نرى بين فتحات التلال في جهة الشرق شذرات من البحر الميت وجبال مؤاب من ورائه. حين استدرنا صوب الشمال رأينا السور الشمالي لبيت المقدس وقد غطاه ضوء القمر ، والمباني القائمة على حافة منحدرات جبل صهيون ، وكان كرم زيتون يحجب الرؤية باتجاه الغرب. أحضر لي القواس قليلا من الماء من الخزان الحجري التابع للكنيسة ، والذي أوقفه رهبانها الطيبون كسبيل للمسافرين والرحّالة ، في كوب جميل صغير من الفخار الأحمر.

هبطت بنا طريقنا فجأة نحو وادٍ عبر منحدر حاد كان سيدبُّ الرعب في أوصالي لو مررت به قبل أسبوع أو أسبوعين ، لكنني اعتدت الآن على ركوب الخيل فوق التلال الوعرة لبيت المقدس. صعدت بنا الطريق من جديد وكنا ندور حول التلال المغطاه ببساتين التين والزيتون. ازدانت الجدران الحجرية المخصصة لحفظ التربة الخصبة بنباتات متسلقة وشجيرات كثيفة الأوراق ألقت بظلال قاتمة وناعمة على الحجارة الكلسية البيضاء. رأينا أسرابا من الغربان الغريبة المظهر هنا وهناك ، مُصطفة على حواف الحجارة في طبقات متتابعة ، وفيما كان بعضها صامتا وساكنا ، كانت طيور منها تهز رؤوسها بانفعال ، وكأنها تتحدث فيما بينها. أوصلتنا طريق حرجية جميلة مرتفعة بعض الشيء عن واد رحيب ، إلى الأسوار البيضاء والأسطح المستوية لبيوت مدينة بيت لحم. عبرنا أسفل قناطر مدببة بين بيوت واطئة ومتناثرة إلى أن دخلنا شارعاً مظلماً محاطاً بجدران مرتفعة. عندما التفتنا يسارا ، رأينا عبر الأبواب المفتوحة عائلات تجلس في ضوء القناديل في غرف بيوتها التي تنخفض بضع درجات عن مستوى الشارع. نظرت النسوة والأطفال بوجوههم الباسمة والرجال بنظراتهم الحادة عبر ظلمة الليل ، محاولين رؤيتنا خلال عبورنا ، فقد قطعت أصوات حوافر خيلنا على الطرقات المبلّطة سكون المكان. بلغنا بعد حين أرضاً مستوية أخرى ، كنا خلال سيرنا نرى البيوت المنتشرة أعلى التل وعلى سفحه بالأسفل ، حيث كانت عائلات بأكملها تغط في سبات عميق على سطوح هذه البيوت. انبعثت أنوار مترجرجة من النوافذ الخالية من الزجاج. تنتشر أحراش صغيرة من الأشجار في أماكن متعددة من البلدة.

انتصبت كنيسة المهد وما يحيط بها من أديرة بروعة ورصانة كحصن أحد البارونات على السفح الأكثر انحدارا من التـل.

عبرنا بعدئذ ممرا مقنطرا قادنا إلى ساحة الدير ، فترجلنا عن خيولنا ليستقبلنا الرهبان اللاتين الثلاثة الذين كانوا يتوقعون وصولنا بالترحيب ، وكان القنصل الأسباني في القدس وزوجته متواجدين أيضا ، فأمضينا أمسية مسلية معهما ومع رئيس الدير وبعض الرهبان الطليان والأسبان ذوي الثقافة الرفيعة في قاعة الاستقبال ، ثم أرشدونا إلى غرف نومنا بعد أن تناولنا عشاء شهيا. رافقني رئيس الدير إلى غرفة عقد رحبة ومعتمة ، وما إن أوصد بابها الضخم علي وبقيت فيها بمفردي حتى أحسست بالضياع. احتوت الغرفة على ثمانية أسّره معدنية مظللة بالستائر الخفيفة ، فنظرت ببعض الخوف في داخلها جميعا. وُضع سراج من الفخار الأحمر اللون يشبه الوعاء العميق وله حافةّ خصصت لإسناد ذبالته المشتعله داخل مشكاة صغيرة ، لكن الوهج الأحمر لنوره الواهن كان يكاد يتلاشى بفعل أشعة القمر المنسكبة عبر النافذه المشبكة التي عَلت باب الغرفة ، لتُنير الجدران والستائر البيضاء ، تاركة مربعات من الظلال والضوء على أرض الغرفة الحجرية. سقطت شهيدة لقرصات البعوض في تلك الليلة ، وما ان بزغ ضوء النهار عبر النافذه المشبكة حتى نهضت وتجولت في الممرات ، والتقيت فيها بالرهبان الذاهبين لأداء صلاة الصباح ، وللإشراف على توزيع الخبز على الفقراء والمسّنين الذين تزاحموا على بوابات الدير. وضعت النسوة حصصهن من المساعدات في أطراف براقعهن الكتانية ، بينما وضع الصبية والرجال أرغفة الخبز التي حصلوا عليها في صدور أثوابهم المفتوحة ، لتسندها أحزمة خصورهم وتمنعها من السقوط.

عندما التقيت أخي ، اتجهنا بصحبة مرشد من الرهبان اللاتين إلى كنيسة المهد التي بنتها الامبراطورة هيلينا في العام 37. يقال بأنها أقدم الصروح المعمارية المسيحية في العالم. يستند سقفها القديم ذو التصميم الهندسي الفخيم إلى أربعين عمودا ، صنع كل عمود منها من قطعة واحدة وكاملة من المرمر ، بقطر يبلغ القدمين تقريبا ، وترتفع إلى علو 16 قدما لتنتهي بتيجان من الحليات المعمارية المتقنة التصميم. ربما كانت هذه الأعمدة جزءاً من مبنىً أكثر قدما ؛ إذ يروى بأنها جلبت من خرائب الهيكل في بيت المقدس. عُلقت في

الأجزاء العلوية من هذه الأعمده لوحات وصور جصية لقديسين وشهداء بيزنطيين وأرثودوكس ، بينما احتوت أجزاؤها السفلية على رسوم وخطوط غريبة الشكل من المحتمل أن تكون من عمل فرسان الحملات الصليبية أو الحجاج المسيحيين في القرون الوسطى. وكانت آثار للوحات فسيفسائية عتيقة من الزجاج والحجر والمعدن على الجدران التي تعلو هذه الأعمده بادية للعيان. تمكنت من تمييز بعض الشخصيات ومناظر المدن ورسوم غريبة وبراويز مزخرفة ، تم اكتشافها مؤخرا تحت طبقة من الجص ، وكانت عرضة لتشويه وتخريب كبيرين ، عندما قام رحالة إنجليزي بوضع حد للدمار الذي كانت تتعرض له بأن لفت انتباه رئيس الدير إلى قيمتها وأهميتها الأثرية.

يقيم الأرثودكس واللاتين والأرمن صلواتهم ويأتون لزيارة مقاماتهم المقدسة في الكنيسة ، فتنشب في بعض الأحيان نزاعات عنيفة عليها فيما بينهم. نزلنا إلى مغارة المهد المعروفة جيدا بسبب الصور والمجسمات الكثيرة المنتشرة لها ، بقناديلها الفضية وبخورها المعطر ، وسجاجيدها المصنوعة من الحرير وصور القديسين المذّهبة. كان على الأرض أمام المذبح نجمة تحدد الموضع الذي يقال بأن السيد المسيح قد ولد فيه ، لكنني لم أتأثر بمشاعر الرهبة الغامضة ، فلم يكن هذا هو المكان الذي رأيت فيه مشهد الميلاد في المذود ، ولولا أنني كنت محاطة بكهنة قادمين من فرنسا وإيطاليا واسبانيا واليونان بعباءاتهم الجميلة وأيقوناتهم ومجوهراتهم النفيسة ، لما كنت لأصدق بأنني كنت في بيت لحم.

زرنا مدارس الدير. كان في إحدى الغرف أربعة عشرة صبيا من أبناء بيت لحم ، الذين تبدو عليهم سمات الذكاء والوسامة وهم يتعلمون اللغة الإيطالية. أرونا فروضهم الدراسية والترجمة التي كانوا منكبين عليها ثم أنشدوا ترنيمة لاتينية للسيدة العذراء ، بدت لكنتهم الشرقية المميزة بوضوح في الصوت الأخير من كل مقاطعها. اكتظ صف دراسي آخر بصبية أصغر سنا ، كانوا يتعلمون قراءة وكتابة اللغة العربية ، لكنهم كانوا قذرين ومشاغبين وفوضيين ، فلم نطل المكوث هناك.

بعد تناول طعام الفطور بمعية رئيس الدير- الذي حدثنا عن المعجزات التي وقعت مؤخرا في المغارة المقدسة بعفوية وصدق بالغين وبإيمان يصل حد اليقين بما كان يقوله ، ومتمنيا

علينا أن نستفيد من ذلك - سارعنا بالمغادرة واجتزنا الشوارع والطرقات المنحدرة بين المباني المتناثرة للبلدة. تقطن البلدة غالبية من المسيحيين العرب من رعايا الكنائس اللاتينية والأرثودوكسية والأرمنية ، ويبلغ تعدادهم جميعا حوالي 2300 نسمة (7). يقومون بفلاحة حقولهم وبياراتهم بحرص وعناية ، ويزودون بيت المقدس بكميات وفيرة من الخضروات والفواكه بشكل منتظم يوميا ، لكن إحدى المهن الرئيسية التي يحترفها التلاحمة هي حرفة الحفر على خشب الزيتون وصناعة وتنسيق الصدفيات.

بحثنا عن شاب يافع ، يتيم ، كان أخي يعرفه كواحد من أفضل النحاتين المهرة في البلدة. قال لنا الجيران الذين قادونا إلى بيته: افرحوا ، وفوتوا البيت وإنتو فرحانين ، لأنو البيت في فرح اليوم وجدنا النحات منهمكا في عمله جلوسا على الأرض ؛ فنهض والفرحة بادية على وجهه للترحيب بشقيقي الذي وفر له الحماية في الماضي وساعده على البدء بعمله الخاص. بادر أخي قائلا : أهلا وسهلا يا سيدي ، الحمدلله اللي رجّعك لهالديار ، مشان ثمرة طيبتك والخير اللي عملته ، انت اللي عمّرت بيتي ، انت اللي فرحتني ، انت السبب بأني صرت أب ، فردّ عليه أخي وهو يضحك: انت عم تحكي الغاز مش مفهومه ، وضّح كلامك يا صاحبي فرفع النحات بيده بعض العدد اليدوية وقال: إنتا أعطيتني هذه العدّة يا سيدي- اللي كسّبتني ذهب ، والذهب خلاني أتزوج ، وزوجتي جابت لي ابن ، في أول الشهر والقمر بدر

كان قد عمل في خدمة أخي ذات مرة ، وأظهر خلال عمله ميلا واضحا لأعمال النحت ، فشجّعه شقيقي بأن أعطاه بعض التوجيهات الفنية لإتقان هذه الصنعة وزّوده ببعض العدد اليدوية الإنجليزية.

عُلقت على الجدران البيضاء للغرفة شرائح صدفية صغيرة من أسطح المناضد المعّدة لتقديم القهوة والفاكهة المجففة في بيوت المشرقيين. وازدان المكان بمسابح وتماثيل للسيد المسيح وهو على الصليب ، وفناجين وصلبان نحتت من خشب الزيتون. أرانا النحات بزهو وفخر واضحين شرائح كبيرة ومستوية من الصدف نحت عليها صورا لرموز دينية ومقدسات دينية ، بالإضافة إلى خرز معمول من القار الذي يجلب من ضفاف البحر الميت. لقد جنى ارباحا وفيرة في عيد الفصح الأخير ، نظرا لإقبال الحجاج المسيحيين الشديد على شراء هذه

المصنوعات اليدوية ، خصوصا إذا ما باركها الكهنة ، حيث يحتفظ الحجاج بها كأيقونات مقدسة. اشترى السياح الإنجليز أيضا كميات كبيرة من سكاكين فتح المغلفات والأساور ودبابيس الزينة التي صنعها النحات ، بناء على اقتراح شقيقي وحافظ على تصاميمها الأصلية بمحبة شديدة ، وعرضهم علي بامتنان وهو يقول: الله يسلم إيديه خلال حديثه ، بدت عليه امارات التألق والذكاء بشكل جلي. كانت ملابسه المكونة من معطف أزرق داكن بخطوط حمراء ، وحزامه القرمزي اللون وكوفيته الملونة بالأحمر والأصفر التي لفّها حول رأسه على شكل عمامة ، تجسد بمجموعها ما يبرع به في الحياة. دعاني للقاء زوجته وطفله ، فنهضت بسرور وتبعته عبر ساحة صغيرة مربعة ظللت بعض أجزائها حصائر مسنودة بألواح خشبية وبأغصان الشجر ، بينما غطت أجزاءها الأخرى دالية عنب تسلقت تعريشة خشبية فجّة. في أحد أركان الساحة ، تكدّست مجموعة كبيرة من الصدف والمحارات المجلوبة من البحر الأحمر كان بعضها بقطر يبلغ ربع الياردة تقريبا ، إضافة إلى قطع كبيرة من القار المستخرج من قفار عين جدي ، وأجزاء حمراء وصفراء اللون من صخرة من الصخور المحيطة ببيت المقدس. أخبرني النحات وهو يريني هذه المواد بأنها تمثل المواد الخام التي يستخدمها في حرفته. تراكمت كميات من البطيخ فوق بعضها وصفّ من جرار الماء في إحدى جهات الساحة ، بينما استرعى انتباهي صوت الثغاء الصادر من الجهة المقابلة ، التي كان فيها خروف مسمّن مشغول بمضغ أوراق التوت. تُطل أبواب غرف البيت الأربع على هذه الساحة المركزية ، لكن الدكان تنخفض بدرجة أو درجتين عن مستوى الساحة ، نظرا لأن البيت يقع على سفح هضبة ، بينما يرتفع مستوى الغرفة المواجهة لها تماما بدرجة كبيرة. ارتقينا بعض الدرجات قبل أن يتركني مضيفي على الباب المفتوح لهذه الغرفة العلوية ، حيث جلست فيها امراة جميلة القسمات لوجه بدت عليه إمارات الفرح على حصير موضوع على الأرض. نهضت من مكانها دون أن يبدر منها ما يشير إلى أنها فوجئت بقدومي ، وبعد أن وضعت راحة يدها على صدرها ثم رفعتها نحو جبينها ، قالت: أهلا وسهلا ، خذي راحتك وتفضلي هون . كانت هذه زوجة النحات. وضعت امرأة مسنة ، تبين لي فيما بعد بأنها والدتها ، بعض الوسائد على بساط صغير تحتي ، ثم تناولت شيئا صغيرا من مهد خشبي هزاز ذي لون أحمر

ومجلّل بالستائر، ووضعته على تنورة ثوبي وقالت: شوفي نعمة الرب! حملت المخلوق الصغير بين يديّ. كان جسمه متيبسا وصلبا بسبب الطريقة التي لفُّ بها بالقماش الأبيض والأرجواني. أطرافه كانت مقيدة تماما ورأسه مغطىً بشال صغير ناعم أحمر اللون يلتف من تحت ذقنه صعودا إلى جبهته في طياتٍ صغيرة، وعُلقت بالشال قطعة صغيرة من ذخائر القديس يوسف موضوعة داخل حلية صغيرة من الكريستال. ارتدت الأم قميصا كتانيا طويلا ذا لون أزرق مفتوح من مقدمته حتى مستوى الخصر، ومعطفاً نسوياً قصيراً بلون أحمر قانٍ مخطط بالحرير الأبيض، وشالاً لُفّ على الخصر كزنّارٍ. وتدلت طرحة سميكة من الكتان فوق رأسها وكتفيها وغطت جزء يسيرا من طربوشها المزدان بصف من العملات الذهبية الصغيرة وعروق الأزهار الخضراء. أما السيدة المسنّة فكانت ترتدي ثوبا ثقيلا من الكتان الأزرق، تظهر أكمامه الواسعة الأوشام والأساور التي تغطي ذراعيها، ارتخت الطرحة الكتانية البيضاء التي وضعتها على رأسها نزولا لتغطي كتفيها وبقية جسمها بِطيّات أنيقة وصولا إلى قدميها العاريتين. ربما كانت راعوث، الأرملة المؤابية الشابة التي التقطت السنابل من البيادر الخصيبة للوادي الرحيب والقريب من هنا قبل ثلاثة آلاف سنة، قد استخدمت طرحة كهذه في حمل المكاييل الستة من الشعير التي قام بوعز، أحد أكثر الرجال ثراء في بيت لحم وما جاورها آنذاك، بمنحها إياها بكرم بالغ وهو يقول لها: هاتي الرداء الذي عليك وامسكيه فأمسكته فاكتال ستة من الشعير ووضعها عليها ثم دخلت المدينة راعوث 3 :15.

سألت الأم الصغيرة عن اسمها، فأجابتني: أنا مريمفقاطعتها أمها: مش صحيح، اسمها مش مريم، اسمها أم يوسف، لأنها ولدت صبياً اسمه يوسف

من العادات الراسخة في الشرق أن تكّنى الأم باسم ابنها البكر فتكون أم إلياس أو أم إيليا، وربما كان هذا مصدر أسماء مثل إيما وإيميلي وأميليا. استنادا إلى المبدأ نفسه، يتغير اسم الأب فور ولادة ابنه البكر فيكّنى باسم المولود البكر. يسبب هذا الأمر قدرا كبيرا من الاحباط وخيبة الأمل للآباء التواقين لإنجاب الأولاد، الذين يضطرون للإحتفاظ بأسمائهم الشخصيه.

بدأ الكائن الصغير الشبيه بالمومياء الذي حملته بين ذراعي بإظهار إمارات الحياة عبر إصدار أصوات خافتة باللغة العالمية للمواليد الجدد. أخذته أمه مني ، وقبّلت صرّة حريرية صغيرة مطرّزة بالذهب ، ثم رفعتها نحو جبهتها باحترام وخشوع قبل أن تضع الطفل على صدرها. ردا على نظراتي المتسائلة ، شرحت لي بالكلمات وبالإشارات بأن هذه الصرّة الصغيرة التي تتدلى من رقبتها ، تحتوي على فتات حجر أبيض من حجارة مغارة قريبة من بيت لحم ، تقدّست بحليب السيدة العذراء ، بعد أن فاض حليبها في تلك المغارة ، وبأن الأمهات يتلهفن للحصول على فتات حجارة هذه المغارة وتعليقها على صدورهن جلبا للبركة.

فرشت الغرفة التي جلسنا فيها بأثاث في منتهى البساطة. كانت غرفة مربعة تقريبا ، ذات أرضية حجرية وجدران مطلية باللون الأبيض. عرضت عدة قطع من الآنية الفخارية والمصنوعات الخزفية التقليدية على الرف العريض والمرتفع ، الذي يمتد على ثلاثة جدران من جدران الغرفة ، حيث اصطفت الفناجين والجرار والقناديل والأطباق النحاسية. وغطيت الأرضية بحصير من القصب ، وسجادة بحجم البساط الذي يوضع أمام المواقد ، وبعض الوسائد والمخدات. أدى صندوق كبير أحمر بمفصلات نحاسية ومقابض مزخرفة وظيفة خزانة ملابس الأسرة. أما المهد الصغير وحوض الماء المعدني وإبريق الماء وفناجين القهوة الصغيرة الموضوعة على منضدة واطئة من الخشب الغامق المطعّم بالصدف ، فقد أضفت جميعها زينة إضافية على الغرفة. طُويت عدة فرشات ولحف بعناية وترتيب في مِطواة جدارية (تجويف جداري مخصص لتوضيب الفراش-المترجم) عميقة في مواجهة باب الغرفة. لا تستخدم الأسرة المعدنية في البيوت العربية التقليدية ، لذلك لا توجد فيها غرف مخصصة للنوم. توضع فرشات النوم في أي مكان في غرف المنزل أو الساحات التابعة له أو على شرفاته ، حسب فصول السنة وتبعا لما تفرضه ضرورات الموقف ، ثم تطوى هذه المراتب والفرشات واللحف وتوضع خلال النهار في المطواة المخصصة لها. لذلك بوجود عدد كاف من الفرشات واللحف يمكن استضافة وإيواء عدد كبير من الضيوف في أية ليلة فور وصولهم. تتم تهوية الغرفة من خلال كوّتين مربعتين كبيرتين تواجهان بعضهما البعض ، كانت إحداهما فوق باب الغرفة ، والأخرى فوق مِطواة الفراش (8). شربت فنجانا

من القهوة وأكلت شيئا من الحلوى ونهضت قائلة لمريم وداعا أو بالأحرى الله معك رافقتني السيدة المسّنة في طريق خروجي عبر ساحة البيت وهي تشير إلى مطبخ البيت في أحد أركان البيت ، والى غرفة المؤونة الملأى بالمواد التموينية في ركن آخر. ثم سحبت طرحتها الطويلة البيضاء وغطت الجزء السفلي من وجهها فور دخولنا للورشة ، وانحنت لتقبيل يدي شقيقي ثم قدمت لنا القهوة والفاكهة المجففة. وصل خدمنا وقد جاءوا بخيلنا في تلك الأثناء ، فغادرنا ورشة نحّات بيت لحم. ذكرتني تحية الوداع التي قالها: في أمان الله يا سّيدي ونصيري والتحية التي ردّ بها أخي عليه: بارك الله فيك وفي بيتك ، بالمجاملات والتحيات التي تبادلها بوعز في قديم الزمان مع الحصادين ، في بيارة من البيارات الواقعة على سفح التلة التي كنا نهمّ بنزولها ، ونحن نشاهد الثيران المستخدمة لذري الحبوب في الأراضي المعّدة لدرس الحنطة المنتشرة في الأرجاء.

دخلنا المنطقة المرتبطة محليا باسمي بوعز وراعوث ، ويكفيني أنهما التقيا في مكان ما من هذا الوادي الخصيب والرحيب ، وبأن بلدة بيت لحم على الرغم من التغيرات التي شهدتها ، فهي ما زالت البلدة ذاتها التي شهدت فرحة راعوث بولادة ابنها البكر ، لتتحول أتراح نعمي وأحزانه إلى أفراح ومسرات ، وحيث فرحت جاراتها معها وقفنا وسط مجموعات صغيرة من الرجال والنساء والأطفال. أشرف بعضهم على الثيران والبغال العاملة في أحواض درس الحنطة ، وانهمك البعض الآخر في اقتلاع الأعشاب الضارة في الحقول القريبة ، أما الأكثر ضوضاء والأكثر نشاطا فكانوا أولئك الذين انشغلوا بتحميل بعض الجمال الباركة على الأرض بأكياس الحنطة. استرجعت أحداث الصباح وأنا أتأمل في هذا المشهد الحافل ، فتمكنت من استيعاب المغزى الكامن في الحكاية الجميلة لراعوث. اجتزنا حقلا مزروعا بالذرة الهندية وقررنا التوقف فيه لأخذ قسط من الراحة ، في ظلال حرش من الأشجار ، في البقعة نفسها التي يعتقد بأن الرعاة كانوا يتناوبون على السهر على قطعانهم ليلا فيها عندما خرجت الأنباء السارة. يطلق على المكان حاليا اسم بستان الرعاة ، وهو تحت رعاية وإشراف رهبان بيت لحم. صعدنا سفح التلة من جديد وألقينا نظرة خاطفة على مغارة الحليب التي يقال بأنها كانت موئلا لمريم العذراء عشية هروبها إلى مصر. خضعت هذه المغارة ، التي هي

عبارة عن كهف ذي جدران من الحجر الجيري الأبيض ، لحفريات استكشافية على مر القرون بسبب البركة المفترضة لحجارتها. تحظى هذه الحجارة وفتاتها بالتبجيل والاحترام في سائر أنحاء بلاد الشام ، وفي العديد من البلدان في أوروبا. وكثيرا ما رأيت استخدامات ناجحة لها. يبدو لي بأن عدم احتفاظ السيدات المتوترات ، واللاتي يعانين من القلق ، بقطعة من هذه الذخائر ، يؤدي إلى نقص إدرار الحليب لديهن ، وفي حالات كهذه لا تجدي الاستعانة بالأعشاب الطبية والأدوية ولا حتى القابلات والأطباء نفعا ، لكن السكينة وراحة البال تعودان فور تدبير فتات هذه الحجارة ، خصوصا إذا ما تم ذلك على يدي أحد الكهنة ، وتأتي النتائج السارة بعد ذلك على الفور. من الممكن تفسير العديد من الخوارق المزعومة المماثلة بهذه الطريقة.

تابعنا مسيرنا باتجاه الجنوب نحو أرطاس ، وعبرنا قرب تلال تعج بأشجار الزيتون وكروم العنب والتين ، وقد انتصبت فيما بينها أبراج حجرية صغيرة للمراقبة ، في مواقع مشرفة ومطلة وسط هذه الأحراش الكثيفة. كنا نرى بين الفينة والأخرى كوخا أو عرزالا مبنياً من حجارة فجّة وغير منتظمه ، تعلوها سقوف من اغصان الشجر ، داخل بساتين الخيار أو البندورة أو تحت كروم العنب. خضع أحد هذه الأكواخ الرثة لعملية ترميم غير متقنة على يد مجموعة من الصبية ، الذين كانوا يجمعون الأغصان والحجارة لتلك الغاية بمرح بالغ. خرجت من كوخ آخر من هذه الأكواخ خمس فتيات من بنات بيت لحم ، وقد بدا خروجهن منه لنا عملا من أعمال السحر ، إذ لا يوحي مظهر الكوخ إطلاقا بأنه يتسع لهّن. ثلاثة منهّن كنّ سمراوات وجميلات جدا ، بينما كانت البنتان الأخريتان متوسطتي الجمال. بدت عليهن جميعا علامات القوة والرقة ، وكانت عيونهن ملونة وواسعة وصافية جدا. كنّ مترددات خلال محاولاتهن لاختلاس النظر إلينا خلال مسيرنا. أزياؤهن البسيطة المكونة من أثواب أرجوانية واسعة ، وأحزمة تنخفض عن الوسط قليلا ، يبدو أنهن تمنطقن بها على عجل ، وأكمام واسعة تدلت لتظهر أذرعا اصطبغت باللون البرونزي واصطفت عليها الأساور ، وطرحات قطنية بيضاء تعلو جبهاهن ورؤوسهن وتغطي أكتافهن وتتدلى منها ، وأقدامهن الحافية ؛ انسجمت تمام الانسجام مع خلفية المشاهد الكهنوتية المحيطة!

شعرت بظمأ شديد فناديت إحداهن قائلة: إسقيني ماء يا أختي ، وعلى الفور قُدمت لي جرتان فخاريتان ذات تصميم عتيق ، ولدى انتهائي من ارتشاف الماء العذب والبارد الذي احتوته إحدى الجرتين ، قالت الصبايا بصوت واحد: ان شالله بالهنا والشفا فأجبتهنّ بعد أن نبهني شقيقي : الله يحفظكم استفسرنا عن مصدر هذا الماء العذب ، فأجبننا: من البير اللي برات البلده لذلك ، يحتمل أن نكون قد تذوقنا المياه نفسها التي تأوه عليها داوود متحسرا: من يسقيني من ماء البئر التي عند باب بيت لحم نفحنا الفتيات بقشيشا وقمن بدورهن بالدعاء لنا خلال ابتعادنا عنهن٠

كان الرجال والصبية الذين قابلناهم أو أولئك الذين يعملون في البيارات من فوقنا أو السهول التي في الأسفل ، لا يرتدون سوى أثواب قصيرة بيضاء ، وأحزمة جلدية حمراء عريضة ومزركشة على خصورهم٠ حمت رؤوسهم كوفيات مخططة بالأحمر الفاقع والأصفر ، لُفت بعناية وأناقة حول طرابشيهم المزينة بالشّرابات ، وقد لوحتها أشعة الشمس٠ ارتدى البعض منهم نعالا مدببة حمراء اللون ، كانت جميلة بالرغم من أنها غير متقنة الصنع٠ مع ذلك ، تميل الطبيعة لأن تكون سخية جدا مع الحُفاة ، وتمنحهم مقدرة متزايده على الاحتمال والصلابة المتنامية ، التي تساعد أقدامهم على تحمل الحجارة والأشواك والحقول الوعرة٠

رأينا في الوادي الذي كان أسفل طريقنا حقولا واسعة مزروعة بالدخُن وذرة المكانس-وهي عبارة عن نبات قوي يصل ارتفاعه إلى خمسة أو ستة أقدام ، تصنع منه المكانس- لكن القمح والشعير كانا قد حصدا ، وكانت الثيران والبغال منهمكة بالعمل في أحواض درس الحنطة وذريها٠

خلت التلال الواقعة على الجهة الشرقية من الوادي من الحقول والبيارات ، ونمت على الأراضي المنبسطة منها أشجار التين البري وأشجار السنديان والأشواك٠ كنا نرى أجزاء من البحر الميت بهدوئه ولمعان مياهه الزرقاء تحت أشعة الشمس عبر الفجوات التي تفصل بين هذه التلال ، ومن ورائه السلسة الجبلية الطويلة لمرتفعات مؤاب وتلالها المشقّقه والمتجعدة التي تحد الرؤية وتلتقي ذراها بالسماء بشكل أفقي تقريبا٠

كانت أشعة الشمس حارقة للغاية ، إذ إنها كانت الساعة الخامسة (حسب التوقيت الغروبي-المترجم)، بين العاشرة والحادية عشرة (حسب التوقيت الزوالي المعمول به في العصر الحديث - المترجم)· فحمينا رؤوسنا بوضع أشرطة طويلة من الموسلين حول قبعاتنا خوفا من التعرض لضربة شمس ، في محاكاة لأسلوب لبس العمائم التي تعد أفضل أنواع أغطية الرأس في البلدان ذات الأجواء الحارة·

غادرنا التلال المفلوحة بالمزروعات ووصلنا تلالاً نمت فيها الأشواك والمعرشات والزعتر البري والميرمية ، إلا في الأجزاء التي تعرضت التربة فيها للانجراف عن صخور زرقاء ورمادية اللون وسطوح شبه مستوية·

نزلنا وادي أرطاس عبر منحدر وعر توقفنا فيه قليلا لمشاهدة خط طويل من الجمال ، وثلة من البدو الذين كانوا يحاولون إدخالها عبر وادٍ ضيق في الجهة المقابلة· كان ثلاثة رجال تبدو عليهم علامات القوة والبأس قد سبقوهم على صهوات خيولهم ، وكانوا يحملون رماحا يبلغ طول الواحد منها حوالي اثني عشر قدما مزينة بالسنابل وريش النعام·

كان من الجلي أنهم يبحثون عن موقع مناسب لنصب مضاربهم خلال الصيف ، إذ إنهم اصطحبوا معهم عددا كبيرا من النساء والأطفال ، الذين اعتلوا هوادج وسلالاً غير متقنة الصنع وضعت على الجمال في مقدمة الركب ، بينما حُمّلت الجمال الأخرى ببيوت الشعر المصنوعة من الصوف الأسود وأعمدة بيوت الشعر وأواني الطهو وجرار الماء والحصائر وأكياس المؤن· لحقت بالقافلة قطعان من الماعز والأغنام وبضعة حمير ، توقفت لبرهة من الزمن للشرب من ماء البرك الضحلة التي تجمعت من الأحواض الحجرية الطبيعية في وسط الوادي ، والمحاطة بالعشب الأخضر الندي والزهور· تردد صدى صلصلة أجراس الجمال والأهازيج البطيئة والحزينة التي كانت تغنيها النسوة لوقت طويل بعد أن غابت القافلة عن ناظرينا· لا شك بأن هؤلاء البدو الرحل استراحوا في بيوت الشعر التي نصبوها مع غروب شمس ذلك اليوم على مقربة من نبع أو عين ماء عذبة· يمكن نصب بيوت الشعر الداكنة اللون الخاصة بهم بسرعة متناهية لدرجة أنهم يمكنهم بناء قرية كاملة في غضون ساعة من الزمن·

صادفنا لدى بلوغنا بطن الوادي صخرة كبيرة وناتئة اضطرتنا للالتفاف من حولها عند عبورها ، أُخذت وانبهرت بالمشهد من أمامنا ، والذي كان وبحق ، من أروع المشاهد التي رأيت في المشرق.

لا غرابة إذن في أن علماء تاريخ العهدين القديم والجديد يتفقون على أن أرطاس هي موقع جنائن سليمان ، ولا عجب أيضا في اختيار سليمان لهذه البقعة لكي تكون استراحته الخاصة ، والمكان الذي يمارس فيه هواياته المحببة. لا بد من أن المكان كان أكثر عظمة وأبّهةً في تلك الأزمنه ، عندما كانت الأعمدة المحطمة والملقاة على الأرض ، تنتصب لتسند مباني فخمة ، وعندما كانت الشرفات قد رصفت بقطع الفسيفساء التي تنتشر بقاياها هنا وهناك في الزمن الحاضر ، ومع ذلك ، فمن غير المرجح أن تكون قد أظهرت جمالا ونضارة في تلك الأزمنة الذهبية أكثر مما هي عليه الآن ، إذ إن أشجار الرمان ما زالت تزهو بثمارها اللذيذه ، وما فتئت أشجار التين تطرح ثمارها اليانعة حول نافورة الحدائق - بئر المياه العذبة فيها. تكسو نباتات الكوسا والخيار والبطيخ والبندورة بطن الوادي بأوراقها العريضة وثمارها اللماعة ، أما الطريقة التي زرعت فيها أحواض العدس والفاصولياء والبطاطا والدخن والذرة الذهبية الصفراء وأشتال التبغ والسمسم ، فهي خير دليل على البراعة والمهارات الزراعية التي يمتلكها أحفاد سليمان (!). في المنطقة المرتفعة من الوادي تقع بيارة بالغة الروعة ، تنتصب فيها أشجار الخوخ والدراق والتفاح والإجاص والبرقوق جنبا إلى جنب مع أشجار الفاكهة الأكثر شيوعا في البلاد ، وتسقى جميعها بواسطة جداول رقراقة تقطع البساتين والبيارات وكأنها خيوط فضية.

سلكنا طريقاً زراعيا ضيقاً يرتفع قليلا عن قاع الوادي. قادتنا هذه الطريق إلى بيت حجري منعزل ، يقوم على الجهة المقابلة لتلة شديدة الانحدار على يميننا. ترجلنا هنا واستقبلنا بترحاب من قبل قاطني البيت ، السيد ميشوليم وعائلته ، المزارعين الذين يملكون هذه البقعة الجميلة حاليا. كانوا يهودا بالولادة ولكنهم اعتنقوا المسيحية ويحظون بالحماية البريطانية الآن. استرحنا في ظل شجرة تين عملاقة ، على ديوان أُعدِّ من الصخور والحجارة وغطيت مقاعده بالسجاد والوسائد حول جذع الشجرة الضخم. مدخل البيت كان عبارة عن

ليوان فسيح مغطى بالقناطر. غطت خزانة خشبية أحد جدرانه الثلاثة ، وغطت الجدارين الآخرين دكتا جلوس حجريتان فرشت فوقهما السجاجيد. يستخدم هذا الليوان كغرفة جلوس صيفية. عُلقت فوق الباب الرديء الصنع المؤدي للغرف الداخلية للمنزل جلود لحيوان الغرير من أجل تجفيفها ، إضافة إلى ذيول ثعالب وأنياب خنازير برية ، كتذكارات تدلل على الشجاعة والمهارة التي يتحلى بها أبناء آل ميشوليم الشباب. تدلت حزمٌ من الذرة الهندية أيضا وحبّات يقطين وقرع ذهبي اللون من الأقواس التي تسند السقف ، وبعض الطيور الحيّة داخل أقفاص توزعت هنا وهناك ، وسراج كبير.

تميزت الغرفة الداخلية بالبساطة نفسها. تناولنا طعام الغداء فيها مع السيد ميشوليم وعائلته بصحبة السيد هنري وينتورث مونك ، الذي أمضى في البلاد عامين كاملين في حياة أشبه ما تكون بحياة النُّساك والرهبان ، رفيقه الوحيد خلال هذه الفترة كان الكتاب المقدس باللغة اليونانية ، وسيلة اتصاله بالعالم لم تكن أكثر من صحيفة التايمز. أمضى معظم وقته في العراء ولم يدخل للبيت سوى للنوم وتناول الطعام. عُرضت صورته النابضة بالحياة ، والتي رسمها هولمان هنت في معرض الأكاديمية الملكية في العام 1860.

وأخبرتني مضيفتي السيدة ميشوليم ، وهي يهودية إيطالية ، بأنها لن تقدم أكثر من عشاء إيطالي قروي في تلك الأمسية ؛ لأنهم لم يتوقعوا وصولنا في ذلك اليوم ، لكن الشوربة المكونة من العدس والخضروات المتنوعه وأطباق اللوبياء المقلية وفطائر البطاطا والبيض المقلي والفاكهة التي عجت بها مائدتها ، لم تكن تستدعي الاعتذار.

تكّرم أبناء السيد ميشوليم بعد الغداء باصطحابنا لصعود المنحدرات الصخرية للتلة لرؤية خرائب أرطاس. كل ما بقي من الأطلال كان حطام الحجارة والأعمدة المتهاوية وأساسات البيوت والجدران المتصدعة. يؤم هذه الخرائب ومغارات الهضاب الكلسية التي تنتصب خلفها أعداد قليلة من عرب التعامرة ، منجذبين إلى عين ماء دافقة تخرج من صخرة تكسوها الطحالب والسرخسيات تحت الظلال الوارفة للأشجار المحيطة بها. تصب المياه المتدفقة بغزارة في حاووز مربع ، أحاطت به مجموعة من أولاد البدو كانوا يستمتعون برذاذ الماء. وباشرت مجموعة أخرى من الرجال بالوضوء بغسل أيديهم وأرجلهم استعدادا للصلاة.

تنساب المياه من هذا الحاووز باتجاه حوض أكثر انخفاضا واتساعا ، تحلقت حوله بعض نسوة وفتيات أرطاس لغسل أثوابهن البيضاء والأرجوانية اللون والطرحات الرّثة التي يضعنها على رؤسهن ، بأسلوب بدائي للغاية ، إذ كنّ يطوينها ويضعنها على بلاطات ملساء تحت حافة البركة ، ثم يطرقنها بحجارة مستوية يحملنها في أيديهن. بعض الأطفال العراة بأجسادهم البرونزية ، كانوا يرتعون في الماء ويتلوون فيها كالضفادع الصغيرة. نادتني الفتيات للنزول لغسل قدميّ بالماء. انتشرت الطحالب ونبات الخردل والنباتات المتسلقة والحشائش على الجدران الحجرية غير المستوية المحيطة بهذه البرك.

تتبعنا الجدول وانحدرنا مع مجراه وصولا إلى الوادي الواقع بين الجدران الحجرية الواطئة ، التي تطوق بيارات الزيتون والتين والليمون والرمان (المعروفة في فلسطين بسلاسل أو سناسل الحجارة-المترجم). فكان علينا توخي الحيطة والحذر خلال سيرنا تارة على هذه الضفة ، وتارة على الضفة الأخرى لمجرى الجدول السريع الجريان.

صوت خرير الماء ، وزقزقة الحساسين ، ومنظر الأشجار المزهرة المترعة بالثمار في البيارة أسفل الطريق ، المحاطة بالتلال الوعرة المكسوة بالأعشاب العطرية ، والنسيم العليل المشبع برائحة شبيهة برائحة أشجار التين ، إضافة إلى الأزهار والأعشاب المنتشرة بكثرة ، منحتنا جميعها شعورا غامرا بالنشوة والفرح. لم يكن بمقدور سليمان الملك أن يمتع بصره بمناظر أكثر جمالا من هذه ، عندما دخل قبل سنين عديدة خلت إلى البستان ونادى حبيبته لتتذوق الفاكهة الشهية: انتبهي يا رياح الشمال! وتعالي يا رياح الجنوب ، هبي في حديقتي لكي تفوح رائحة التوابل منها

قادنا الجدول إلى بطن الوادي ، وتابع مساره بسلاسة أكبر عبر مجرىً ضيق تحف به الحشائش وأزهار الغدران ، بمحاذاة اطراف التلة التي اكتست بحلة قشيبة خضراء من السرخسيات والطحالب. كنا نسلك مجازا صخريا يرتفع تدريجيا ، أو جسرا قديما ، عبر البساتين ، ثم نعبر حقلا مزروعا بذرة المكانس الطويلة بسيقانها المتوجة بخصلات من الزغب الريشي ، وقد تسلقتها نباتات اللبلاب الزهري والأبيض اللون. رأينا عددا من البستانيين والعمال الذين يعملون لدى السيد ميشوليم ؛ فهو يملك دكانا متخصصاً ببيع

الفواكه والخضروات التي تنتجها هذه البقعة في بيت المقدس. وسبق وأن نجح في استزراع العديد من فواكه وخضروات لم تزرع في الشرق من قبل ، وحقق نجاحا باهرا في ذلك وخصوصا في البذار والأشتال المجلوبة من أمريكا. ولولا الحماية المستمرة التي يوفرها له السيد فن (القنصل البريطاني في بيت المقدس- المترجم) ، لما كان بمقدور السيد ميشوليم أن يتصدى بمفرده لانتهاكات وتجاوزات القبائل العربية المتواجدة في المنطقة ، ولتحولت الجنان الغناء في الوادي إلى صحراء قاحلة في غمضة عين!

ودّعنا آل ميشوليم ، وتسلقنا التلال المحيطة بالوادي لكي نرى البرك الثلاث الكبرى ، التي تعلو احداها الأخرى ، والمخصصة لجمع مياه الينابيع التي تجري في الأنحاء. يبلغ طول أكبر هذه البرك وأكثرها انخفاضاً حوالي 582 قدما بعمق يصل إلى 50 قدما ، تليها بركة يبلغ طولها 423 قدما بعمق يصل إلى 39 قدما ، وتعلوهما البركة الأعلى البالغ طولها 380 قدما بعمق يصل إلى 25 قدما. تملأ المياه الزرقاء الصافية هذه البرك إلى منتصفها تقريبا ، وهو مخزون ذو قيمة كبيرة خلال مواسم الجفاف. يعلو قاع البركة العلوية سطح البركة التي تليها وهكذا دواليك. تشكلت هذه البرك من فتحات حفرت في الصخور في بعض الأجزاء ، ومن حجارة ضخمة في أجزاء أخرى. يطلق عليها اسم برك سليمان ، وربما كان يعنيها ويعني بساتينه في أرطاس عندما قال: عملت بساتينا وبيارات زرعتها بأشجار من كل أنواع الفاكهة وحفرت فيها برك ماء لسقاية غابة الأشجار المحيطة بها لا شك بأن الجداول والينابيع التي تصب في هذه البرك كانت تشق طريقها فيما مضى عبر وادي أرطاس وصولا للبحر الميت ، لتفقد عذوبة مائها عندما تصب في البحيرة المالحة ، إلى أن احتبسها سليمان ووجّه مسارها إلى هذه الأحواض الضخمة ، ومد القنوات الشهيرة التي تنساب على أطراف التلال فوق الجرود وعبر الوديان لجر المياه إلى الهيكل على جبل موريا. حتى في أيامنا هذه ، فإن النافورة المواجهة للمسجد الأقصى تتغذى بالمياه المتدفقة فيها بهذه الطريقة. صحيح أن المياه لا تصل إلى وجهتها في بعض الأحيان ، لكن هذا يعود للإهمال الواقع في إدارة وصيانة القنوات ، فالخيّالة يسقون خيولهم من الفتحات المتعددة في مسارها ، ما يؤدي إلى هدر المياه قبل وصولها للمدينة. حاول كل الباشاوات الجدد الذين جاؤوا لإدارة المدينة

بذل ما في وسعهم لفرض إجراءات صارمة للحد من هذا الانتهاك ، لكنهم كانوا يصابون باليأس بعد مضي وقت قصير.

قفلنا عائدين نحو الديار ، باذلين جهدنا بالبقاء ما أمكن بالقرب من مسار القنوات المائية. نمت الطحالب والسرخسيات بكثافة عند الفتحات التي تتسرب منها المياه ، وكانت النسوة عند العديد من هذه الأماكن ، وفي مخالفة صريحة للقانون ، يغسلن الملابس أو يملأن الجرار. تفاجأت باحتمالية وجود طريق قديمة لسير العربات بمحاذاة القنوات ، يحتمل أن تكون قد أدت دور حاجز استنادي أو متراس لهذه القنوات. لا يمكن العثور على طريق العربات هذه في الوقت الحاضر ، لدرجة أن الطريق تمتاز في هذه الأيام بوعورتها الشديدة حتى للبغال ، ومع هذا فإذا ما أخذنا الأضرار التي تسببها سيول فصل واحد من فصول الشتاء بعين الاعتبار ، فسوف نستغرب كيف أن سيول الأمطار طوال قرون عديدة لم تسبب أضرارا توازي أو تعادل الأضرار التي تسببوا بها هم.

لا بد أن طرقات هذه الأرض تطلبت عناية واهتماماً بالغين. جاء في التلمود أنه في الزمن الذي كان يسبق صعود القبائل ثلاث مرات سنويا لبيت المقدس ، كان يتم تمهيد وتسوية الطرق والدروب المؤدية إليها. مهدوا طريق الشعب ، نظفوا الطرقات ، اجمعوا الحصى ، أزيلوا العوائق من طريق شعبي يمكنني تصور الاستعدادات التي كان يتم اتخاذها لتنفيذ هذ الأمر ؛ والكيفية التي كانت تزال فيها الحجارة والحصى والطمي التي تجرفها سيول الشتاء من التلال المحيطة ، وكيف كان يتم جمع جذوع الأشجار وتوضيبها ، وكيف ترمم الأطراف المتضررة للطريق ، وكيف تردم الحفرات التي تسببها الأمطار ، كما يمكنني أن أتخيل طرق العربات وهي تلتف حول الربى والتلال المتدّرجة وعبر كروم العنب والبيارات الجميلة ومراعي الجرود ، كما كانت عليه الحال في الأزمان التي حكم فيها ملوك مثل سليمان العظيم ، أو الملك عزريا المحب للزراعة (انظر سفر أخبار الأيام الثاني 26: 10 ، 11).

مالت الشمس نحو الغروب بألوانها الحمراء والذهبية والأرجوانية عندما تركنا الطريق المتعرجة المحاذية لقناة المياه. لم نعد نسمع صوت الخرير الساحر للجدول الذي كانت مياهه تنساب بحرية نحو بيت المقدس ، ثم سلكنا طرقا أكثر استقامة تنعطف باتجاه دير

مار إلياس. ارتقينا التلة ثم أسرعنا الخطى عبر سهل ريفايين ، فصادفنا أرتالاً من الجمال غير المحملة وهي ترعى بهدوء ، وأعداد من فلاحين ونسوة بيت لحم في طريق عودتهم لديارهم ، وقد وضعت النسوة سلالهن الفارغة على رؤوسهن ، حيث كنّ يبعن الفواكه والخضروات في بيت المقدس.

وصلنا الطالبية في ساعة الغسق وعرفنا بأن بعض العمال اليهود الفقراء قد تم توظيفهم خلال النهار لتشييد شرفة أو معرشّة من القصب في مدخل البيت الحجري الصغير ، والتي أثبتت نجاعتها فيما بعد. جلب القصب المستخدم في تشييدها من ضفاف نهر الأردن. كان قطر القصبة الواحدة منها يبلغ بوصة ونصف البوصة إلى بوصتين بارتفاع يبلغ 12- 13 قدماً ويعلو قممها زغب كثيف يجعلها تبدو كنخلة صغيرة. يحتمل أن يكون هذا النوع من القصب هو المقصود في قصة صلب السيد المسيح ، حيث ورد في النص: وعلى الفور أسرع أحدهم والتقط اسفنجة ونقعها بالخل ووضعها على قصبة وأعطاه إياها لكي يشرب (متّى 27: 48).

أويت إلى خيمتي بسعادة بالغة مع أنني كنت تعبة جدا ، وغسلت قدميّ وذراعيّ بالحليب والخل لتسكين الحكة التي تسببت بها لدغات القارص والناموس التي هاجمتني في الدير في بيت لحم ، بناء على نصيحة الممرضة الأرمنية. أثبتت هذه الوصفة أنها دواء ناجع وهو ما أوصي المسافرين بتجربته.

الفصل الرابع

من بيت المقدس إلى حيفا

كنا قد خططنا لأن نمكث لبضعة أيام فقط في بيت المقدس ، لكن المهام القنصلية لأخي تسببت في تأخيرنا ، فقد اختير لمرافقة كامل باشا في حملة عسكرية على مدينة الخليل ، لقمع الانتفاضة العنيفة التي اندلعت فيها.

تركت في كنف أصدقائي الطيبين في الطالبية ورعايتهم الكريمة ، فحظيت بفرص ممتازة لتحسين لغتي العربية ، ولكي أجمع معلومات أكثر عن الفلسطينيين. كل يوم جديد كان يجلب مُتعاً جديدة. زرت كافة المواقع المثيرة للاهتمام في المناطق المجاورة ، فرسمتها ودونت ملاحظات حولها ، كما حظيت بشرف مرافقة السير موسيز والليدي مونتيفيري في جولتهما الاستطلاعية لمساجد المسلمين وأماكنهم المقدسة على جبل الهيكل.

انشغل السيد ويليام هولمان هنت في تلك الأثناء في محترفه القائم على جبل صهيون ، وأتيح لي متابعة سير العمل في لوحته الرائعة: اجتماع في الهيكل ، واستمتعت بتصفح مجلداته ودفاتر رسوماته. ذهبت في الحادي والعشرين من آب / أغسطس إلى الخليل ، وأمضيت فيها بضعة أيام برفقة أخي في معسكر الباشا ، ثم عدت ثانية للطالبية ، لكنني لن أسهب في الحديث عن تلك الرحلة بالتفصيل في هذا المقام.

تساقطت زخات من المطر في فجر التاسع من أيلول / سبتمبر ، وكانت أول مرة أشاهد فيها المطر في فلسطين. استمر هطول الأمطار لنصف ساعة تقريبا ، وبدا أنها أمطارٌ محلية خالصة. ارتفعت أقواس قزح فوق ذُرى التلال ، طبقة تليها الأخرى ، بالغة الوديان وتاركة تأثيرا ساحرا. لاحت أسراب الطيور القادمة من جهة الشمال بعد توقف المطر بوقت قصير ، وكانت أصواتها الغريبة تعلو تدريجيا خلال مرورها بنا. كانت من إحدى فصائل السنونو وذات ألوان زاهية. سرعان ما هبت رياح شمالية قوية حملت السحب الماطرة وأسراب الطيور بعيدا ولطّفت الجو الذي كان خانقا بعض الشيء.

في الحادي عشر من أيلول / سبتمبر اصطحبتني الآنسة كريسي - المقيمة في بيت المقدس منذ زمن طويل - لرؤية نافورة فيليب (عين الحّنية-المترجم) والتي تقع على مسافة ساعتين

جنوب غرب القدس. انطلقنا مبكرين برفقة أحد القواسين وسرنا على صهوات خيولنا فوق التلال الوعرة باتجاه دير الصليب قبل اختفاء ندى الصباح. التقينا في طريقنا بأفواج كبيرة من النسوة القرويات - الفلاحات اللاتي كنّ في طريقهنّ للمدينة وهنّ يحملن الخضروات والفواكه. ارتدت غالبيتهن ثيابا كتانية زرقاء ، وطرحات قطنية بيضاء تدلت على أكتافهن ، وأحزمة قرمزية اللون لُفت على مستوى منخفض من خصورهن. الغالبية الكبرى منهن كنّ يحملن كميات متنوعة من الخيار والكوسا والباذنجان الشبيه بالإجاص ، بلونه البنفسجي المحمر ولمعانه المميز. شكّلت الصبايا اللاتي حملن سلال العنب المقطوف من بساتين الأرثودكس مشهدا جميلا للغاية ، وقد تدلت الأغصان اللولبية وأوراق الكرمة على أكتافهن. ثم سلكنا واديا ضيقا زرعه رهبان دير الأرثودكس مؤخرا بالتوت والكرمة. على قمة ربوة شديدة الانحدار على يميننا ، شاهدنا قرية المالحة الصغيرة الجميلة ، وكانت النار تضطرم داخل أفران التنور المخصصة لإعداد الفحم ، على رف الصخور الواقع تحت القرية.

دخلنا وادي الورد ، وهو اسم على مسمى ، وكان قاعه الرحب وعلى امتداد الميل تقريبا أشبه بدغل من شجيرات الورد المزروعة لغايات استخلاص ماء الورد وتحضير الفاكهة المحلاّة. عثرنا وراء هذه الفردوس الغنّاء التي تؤمها آلاف الطيور للتغذي على توتها القرمزي اللون وثمار الورد البري فيها ، على بيارات من التين وأدغال من أشجار التوت وأشجار الجوز. على يسارنا ، شاهدنا أطلال صرح قديم ، وحجارة ضخمة مصقولة وحفريات في الصخور ، وبضعة أعمدة ملقاة على الأرض ، ونافورة حجرية صغيرة تسمى عين يالو ، أو ينبوع أيالون. سلكنا الطريق العتيق المنحدرة من بيت المقدس نحو غزة سلك هذه الطريق في قديم الزمان أحد خصيان الملكة كنداكه ملكة الحبشة ، على عربته التي تجرها الخيل ، لكن الرومان كانوا يقومون بصيانة الطرق في تلك الأزمنه باستمرار ، لا يمكن لعربة قطع هذه الطريق الآن. إنها ملائمة نسبيا لمرور البغال عليها ، وهي تمتد فوق أرض شبه مستوية صعودا باتجاه الربوة الكائنة على يسار الوادي. كانت الحواف الصخرية الوعرة تنتشر أعلى وأسفل دربنا ، وبضعة قطعان من الماشية ترعى على الكلأ الغث والأشواك ، وانتشرت الأراضي المخصصة لدرس الحنطة وبيادر ذري الشعير في قاع الوادي. بعد حوالي نصف الميل من عين يالو ، وصلنا

إلى عين الحنّية وهي عين صافية للماء العذب ، تعرف باسم نافورة فيليب. عمودان حجريان تعلوهما تيجان كورنثية نحتت ونقشت بأناقة ، كانا على طرفي تجويف أشبه ما يكون بالمحراب ، بُني من حجارة كبيرة قطعت بمهارة. في مركز المحراب ، تتدفق مياه غزيرة من مشكاة عميقة يعلوها قوس ، لتتساقط بقوة في حوض صغير ، ثم تفيض لتسقط من جديد في حوض حجري يقع في الأسفل ، ثم تشق طريقها بعدئذ على شكل جدول صغير يجري بانسياب نحو الوادي. تسلقت صخور كبيرة بمساعدة صبي من الرعاة وجمعت بعض الأعشاب والطحالب التي زينت الكّوة المقوّسة لعين الماء. يمكن تمييز بناء محراب أكبر وراء هذه العين مباشرة ، وفي مواجهتها تماما ، وعلى مسافة 40 خطوة منها تقريبا ، تناثرت بقايا قاعدة عمود يبلغ قطرها حوالي ستة أقدام بارتفاع خمسة أقدام فقط. كما تناثر حطام أعمدة أخرى أصغر حجما في الحقل المجاور. يأخذ الفلاحون القاطنون في القرى المجاورة الحجارة المقطّعة المتناثرة حول عين الماء لبناء أبراج الحراسة في قراهم أو لإعادة بناء منازلهم. تشير المرويات المحلية إلى أن هذه العين هي العين ذاتها التي أشار إليها عبد الملكة كنداكه عندما قال لمعلمه فيليب: أترى ، توجد مياه هنا ، ما الذي يمنع تعميدي ؟ جلست على أكبر الأعمدة لكي أرسم المشهد من أمامي ، فاقترب مني أولاد وبنات أكثر غرابة من الماعز التي اقتادوها للشرب من عين الماء. في تلك الأثناء ، تمكن جوادي الذي كان أقل إذعانا من الخيل التي جرت عربة خصي الملكة كنداكه ، من الإفلات من الصخرة التي ربط بها ، وشرع بالجري بسرعة قصوى باتجاه الوادي. أدى صياح وصراخ الصبية إلى قدوم متطوعين من جميع الأتجاهات للمساعده في إلقاء القبض على الحصان الفار ، وبعد برهة من الزمن ، ألقي القبض على الحيوان المذعور وجيء به محاطا بمجموعة من الصغار ، الذين لم أر مثلهم في حياتي سواء من حيث ضجيجهم أو مظهرهم المتوحش ، والذين كانت القروش القليلة التي نفحتهم إياها بمثابة ثروة بالنسبة لهم.

عدنا أدراجنا عبر مسار مختلف فمررنا بعين ماء أكثر بساطة من العيون الأخرى ، ولكنها جميلة جدا ومؤلفة بشكل أساسي من مجموعة من الحجارة غير المنتظمة. انهمكت نسوة في غسل أثوابهن الكتانية وطرحات رؤوسهن في حوض الماء ، وجلست مجموعة من

الرجال المتبطلّين والبائسي المظهر حول عين الماء. نظروا في كرّاسة الرسم خلال انشغالي في رسم بعض الأشكال. فقال أحدهم: لو جبنا الرجال اللي في الوادي واللي على التلال، ولا واحد فيهم واحد بيقدر يعمل شي زي هيك بدا واضحا من تعليقاتهم أنهم مقتنعون بأن موهبة الرسم هي مهارة لا يتقنها سوى الأوروبيون. كانوا توّاقين للحصول على البقشيش، وتبعونا لمسافة قصيرة وهم يغمغمون ويتأففون ويتشاجرون فيما بينهم. عندما يئسوا من جدوى اللحاق بنا، اكتشفت بأنني أضعت دفتر الجيب الذي دّونت فيه ملاحظات مهمة. عدت على جوادي نحو العين بالرغم من أشعة الشمس القوية. أخبرت الصبيان الرعاة الذين صاروا الآن حلفائي الأوفياء بالأمر، ثم اتجهت نحو العين الأخرى، حيث وجدت مجموعة الرجال الذين لاحقونا من قبل واقفين وكأنهم يتشاورون فيما بينهم. انتابني شعور أكيد بأنهم من أخذ دفتري. قلت لهم بأنني من القنصلية الإنجليزية وطالبتهم بمساعدتي في بحثي، فأكدوا لي بأن دفتري لم يفقد في تلك البقعة فتأكدت أكثر من أي وقت مضى بأنه بحوزتهم. فجربت التأثير عليهم بقطعة صغيرة من الذهب عرضتها كمكافأة لمن يعثر على الدفتر. وخلال لحظات، سحب أحد الرجال دفتري من حزام خصره ووضعه في يدي والتردد باد علي وجهه. فخفت أن يتراجع عن إعطائي الدفتر فناولته للقواس لكي يتولى زمام المبادرة فورا، وسارعنا بمغادرة المكان. كان هولاء الرجال جميعهم مدججين بالسلاح ويرتدون أسمالا بالية ورثة. وكان جليا بأن أي غنيمة بصرف النظر عن قيمتها، كفيلة بأن تثيرهم للحد الذي يتسببون فيه بالأذى ويسيئون التصرف. بعد أن ابتعدنا لمسافة آمنة منهم جلسنا وتناولنا غداءنا الذي حضرناه قبل أن نخرج في نزهتنا. استرحنا تحت ظلال شجرة جوز خلال ساعات الظهيرة ولم نصل للطالبية قبل الساعة الثالثة عصرا، حيث كانوا ينتظرون عودتنا بقلق بالغ، نظرا للخطورة الشديدة التي تتسم بها طريق غزة. في الصحن الخلفي للمنزل، كانت عناقيد من تين أرطاس قد علقت لكي تجف. وجلست إحدى الخادمات في الظل وقد انشغلت في نزع وتقشير اللحاء عن أكواز كبيرة من الذرة. قالت لي بأنها تقوم بعمل فرشة نوم لأحد الخدم من القشور الجافة، وأضافت قائلة بأن الفقراء الذين لا يقدرون على شراء مراتب من القطن الصوفي المخصص للفراش، يصنعون فراشهم من

القشور الخارجية للبصل ، التي تجفف وترقق عبر تعريضها للشمس ثم تحشى في أكياس غليظة من الكتان.

رجع أخي في اليوم التالي من مدينة الخليل ، وصار بمقدوره أخيرا أن يغادر بيت المقدس ويتجه إلى حيفا لتولي مهام مسؤولياته القنصلية الجديدة. انقضت بضعة أيام في التحضير والتجهيز للرحلة. استعنت خلالها بخدمات كاترين ، وهي أرملة من بيت لحم. تم ترشيحها لي بكثير من الإطراء والمديح كسيدة مخلصة ورقيقة ، مع أنها تعاني من نقيصة واحدة تتمثل في الاضطراب النفسي. في الأحداث الدامية التي شهدتها بلدتها في العام 1834 ، ذبح زوجها وأطفالها الصغار في فراشهم أمام أعينها ، ما تسبب فيإصابتها بلوثة (9) عقلية. (من ذا الذي يمكنه التنبؤ بحجم الضرر المشابه الذي ستتمخض عنه المذابح الأخيرة في لبنان ودمشق ، وكم من الأمراض والعقد النفسية ستنتقل للأجيال القادمة بفعل ذلك ؟ يمكن للرجال أن يتعايشوا مع المشاهد الفظيعة للقتال في ميادين المعارك ، ولكن من ذا الذي يمكن أن يستغرب ان تفقد النساء عقولهن أو أن تجن كَمداً ورعباً ، بعد أن يشهدّن ذبح أطفالهنّ وآبائهنّ أمام أعينهّن ؟).

لازمتني كاثرين في المنزل طوال الوقت ليوم أو يومين ، وهي تعرف أخي منذ سنوات طوال ، وكانت تتخيل بأننا كنا أبناءها. كثيرا ما روت لي قصصا مشوقة عن طفولتنا ، كانت جميعها من بنات أفكارها وخيالها طبعا. كانت أوهامها وتخيلاتها هذه تمنحها السعادة وتجعلها من أكثر الخدم الذين عملوا معنا تفانيا وإخلاصا.

نهضت قبل شروق شمس الرابع عشر من أيلول / سبتمبر على صلصلة أجراس البغال ، فتذكرت بأننا خططنا للانطلاق في رحلتنا اليوم. سادت الضجة والحركة الصاخبة أرجاء المخيم. جلس الخدم العرب بين الصخور. وانتشرت الحقائب والأمتعة في أرجاء المكان. نزعت أعمدة الخيام وفكت الخيام وطويت ، ووقفت البغال والبغّالة بانتظار التعليمات. كان السيد فن على وشك الخروج في جولة مع ابنة أخيه وواحد من أصدقائه ، وقرر مرافقتنا في رحلتنا حتى يافا.

بعد العديد من التأخيرات المتكررة ، كان الجميع على أهبة الاستعداد للانطلاق بحلول

الحادية عشرة ظهرا ، ولكن أخي الذي غادر في الصباح إلى بيت المقدس لأداء بعض الأعمال ، اضطر لأن يتأخر ويبقي محتجزا في بيت المقدس ؛ لأن اليوم كان يوم الجمعة ، وهو يوم الشاباث (السبت- المترجم) للمسلمين! ، حيث تغلق بوابات المدينة في ذلك اليوم في العادة خلال ساعات صلاة الصبح (ربما قصدت صلاة الجمعة-المترجم) ، فأدركنا حينها بأنه لن يتمكن من الإفلات بأي حال من الأحوال قبل الظهر. (يتم التقيد بهذا التقليد بشكل صارم نظرا للنبوءة التي تفيد بأن بيت المقدس ستتعرض للغزو والاجتياح خلال صلاة الجمعة!). لذلك فقد انطلق القنصل ومجموعته في رحلتهم على أن نلتقي بهم في يافا ، وأمضيت انا أمسية أخرى مع السيدة فن وأطفالها الصغار في الطالبية. لم يكن هناك ما يعيقنا في اليوم التالي ، فنهضت من فراشي في الساعة الثالثة والنصف فجرا ، مستعينة بنور السراج والأضواء الخافتة للنجوم ، وغصن من شجرة الزيتون التي تظلل الخيمة التي كانت مقر استراحتي طوال عشرة أسابيع ، وتناولت فطوري مع السيدة فن ، لننطلق بعد ذلك على صهوات جيادنا ، بينما كانت الخيوط الأولى للشمس تبزغ في سماء الشرق.

تولى قّواس مسلم قيادة قافلتنا ، وجلست والدتي المفترضة ، كاترين وهي مسيحية من طائفة اللاتين ، متسربلة بعباءة عربية حمراء غطتها من رأسها حتى أخمص قدميها ، على الرُحل العريض لحمار صغير رشيق ، يتبعها بغلان محملان بالمتاع بقيادة أحد البغالة. بالرغم من أن الخدم المرافقين لنا كانوا ينتمون إلى طوائف دينية مختلفة ومتخاصمة ، الا أنهم انسجموا جيداً خلال الطريق.

لم نتوقف إلى أن وصلنا عين العصافير ، حيث أحضر لنا ولد من أبناء الفلاحين عناقيد لذيذة من العنب ، كما ساعدنا في سقاية دوابنا. كانت البيارات المحيطة بنا في أوج جمالها وهي تزهو بثمار أشجار الرمان وبراعمها المزهره ، وأشجار التين وأوراقها المبتلة بقطرات الندى برائحتها الفواحة ، وقد تشابكت دوالي الكرمة الثرية بعناقيد العنب على جذوعها وأغصانها. هزّت العصافير الصغيرة الأوراق الفضية لأشجار الزيتون وهي تتجمع عليها بين الفينة والأخرى بزقزقاتها الفرحة ، وتعاود التحليق من جديد.

بلغنا أبو غوش في الساعة الثامنة ، وبينما كنا بانتظار كاترين وقائد البغال ، الذين تأخروا

وراءنا ، رسمت الكنيسة القديمة ثم تابعت طريقي بخطى سريعة. في الساعة العاشرة استرحنا وتناولنا طعام الغداء في ظل شجرة قريبة من بئر ماء على مسافة قريبة من اللطرون ، وتمكن القوّاس من تدبير طريقة لعمل القهوة لنا. أصابتني الدهشة عندما اكتشفت بأنني أسافر عبر تلال يهوذا (الضفة الغربية-المترجم) دون خوف ولا تعب ، سالكة الطريق نفسها التي بدت لي مليئة بالمخاطر والمصاعب قبل زمن قصير. صارت التلال أكثر انخفاضا ، والمناطق الوعرة أكثر انبساطا وسهولة. عندما دخلنا المنطقة السهلية والجرود كانت الشمس تختبئ بين الحين والآخر بين الغيوم السريعة الحركة ، وهبّ النسيم العليل من الغرب فرطّب وجوهنا.

عدت خيولنا مهرولة على الأرض السهلية إلى أن وصلنا قرية القباب ، وهي قرية بائسة ، تحف بها بضعة بساتين مسيجة بنباتات الصبار المزهرة. توقفنا بالقرب من بئر ماء داخل ما يشبه الحاكورة ، وقدمت فتاة عرجاء الماء لنا في جرة حمراء اللون. قامت في أثناء ذلك بعمل حركات وإيماءات غريبة ، فأدركنا بأنها صماء وبكماء. نفحناها بقشيشا ، فابتعدت بمشيتها العرجاء والسرور بادٍ عليها. لحق بنا غلام مطالبا إيانا إعطاءه بعض القروش عندما امتطينا جيادنا ، لكننا لم نعطه شيئًا ، فأسرع عائدا للفتاة العرجاء المسكينة ، وطرحها أرضا واستولى على كنزها الصغير. فنهضت بتثاقل ، وبغضب حزين وصامت ، ألقت بقبضات من التراب بيديها وراءه ، وما إن غاب عن الانظار ، حتى بدأت تمزق الأسمال البالية التي كانت ترتديها. عدنا أدراجنا محاولين مواساتها ، لكن كلمات العزاء كانت بلا جدوى ، مقارنة ببعض قطـع الشوكـولا التـي أثبتـت فاعلية أكبر بكثير. تسللنا مبتعدين عنها وهي مشغولة بأكل الشوكولا ، ومضينا في سبيلنا ونحن نفكر في حجم البؤس في حياتها.

وصلنا الرملة قبل الظهر بقليل تاركين خدمنا وراءنا. كنا نمشي على صهوات خيولنا تحت أشجار النخيل الباسقة ، المحملة بعناقيد التمور الحمراء والذهبية اللامعة ، المتدلية من سويقات برتقالية اللون. سببت أرتال طويلة من الجمال والحمير ازدحاما في الشوارع القذرة والمغبرة ، فشققنا طريقنا إلى بيت أحد الأصدقاء العرب بصعوبة بالغة. ركض الأولاد لاستقبال أخي بالعناق والقبلات ، وقادني عبد من الخصيان الأحباش إلى سيدته الأرمله ،

التي كانت امرأة وقورة المظهر ترتدي ملابس سوداء من الحرير المطرز بخيوط من الذهب. رحبت بي قائلة: أهلا وسهلا يا بنيتي وبعد أن قدمت لي الليموناده ، رافقتني إلى حجرة جميلة تطل على شرفة فيها أحواض من الورود والأزهار. نادت على العبد فسارع بفرش مرتبة لي على الأرض. ثم أخذت قبعتي وردائي وقالت لي : ارتاحي بهدوء وجلست بجانبي على مرتبة محشوة وأخذت تحرك مروحتها اليدوية بلطف لكي تبعد القارص والبعوض عني. عندما استيقظت بعد ساعة أو ساعتين من النوم المريح ، كانت مضيفتي قد غادرت بينما بقي العبد راكعا بالقرب مني وهو يحرك مروحة صغيرة صنعت من سعفة نخيل خضراء مضّفرة بإتقان. كان وجهه الغامق اللامع وعيناه الواسعتان تحت عمامته البيضاء ، وثوبه القطني الأبيض وزنّاره الحريري الأزرق ، تكفي لدبّ الرعب في أوصالي قبل أن أتذكر اين كنت. علمت في وقت لاحق بأنه كان عبدا محبوبا وأثيرا وبأنه يعمل في خدمة هذه العائلة منذ سنوات طويلة.

سكب ماء الورد على يديّ واصطحبني إلى قاعة أُعدت فيها وجبة من المأكولات العربية الأصيلة لنا. تألفت الوجبة من القمح المغليّ المغطى بالسمن والمخلوط باللحمة المفرومة (ربما كانت الفريكه-المترجم) ، وسمكة مشوية طازجة وضعت فوق مشمش مطهو وأرز (10) ، ودواجن مشوية مزينة بقطع البندورة ومحشوة بالأرز وقطع اللحم. تلا الوجبة تحلية مكونة من العنب والتمر والنشا المُحلى المغطى باللوز المقشور. جمعنا مرافقينا من الخدم بعد احتساء القهوة وتدخين الأرجيلة وامتطينا خيولنا متجهين صوب يافا عند الساعة الخامسة تقريبا. سطعت الشمس في وجوهنا مباشرة وراقبناها خلال غروبها تدريجيا خلف التلال الساحلية المنخفضة التي حجبت البحر الأبيض المتوسط عن ناظرينا. ارتفع الهلال صافيا ولامعا في كبد السماء ، ملقيا بظلالنا الطويلة والمعتمة وراءنا على الطريق الرملي الذي كنا نسير عليه.

شاهدنا مجموعة من البدو يتناولون طعامهم جلوسا على قارعة الطريق. ما إن مررنا بالقرب منهم ، حتى نهضوا على الفور وأطلقوا سيقانهم للريح وهم يتقافزون ويصرخون بصخب ، وعندما هدأنا من سرعتنا قليلا لانتظار الخدم الذين تأخروا عنا ، مر هؤلاء البدو عنا وهم

يتراكضون ويتراقصون ويشدون كوفيات بعضهم بعضا ليقذفوها في الهواء ، ويستعرضوا عصيِّهم ويلقوا بمناديلهم في وجوه بعضهم وهم يصرخون ويهزجون. رؤوسهم كانت حليقة بالكامل باستثناء منطقة تاج الرأس ، حيث ترك الشعر لينمو طويلا بحيث جدّلوه على شكل ضفائر. عادة ما ترفع هذه الضفائر وتختفي تماما تحت أغطية الرأس طرابيش أو كوفيات. تبدو الأزياء العربية عموما شبيهة بتلك التي اعتاد عليها قرائي في الصور التي تحتويها الكتب المدرسية ، لذلك فلا أجد من داع للخوض في الحديث عنها في هذا المقام.

تبيّن لنا بعد وقت قصير بأن هولاء الرجال كانوا مسالمين للغاية. كانوا قد استراحوا على قارعة الطريق للإستمتاع بوجبة طعام مميزة ، بعد أن تركوا جمالهم لتسرح وتمرح كما تشاء برفقة اثنين من الحداة ، وكانوا يتسابقون للحاق بها وهو ما نجحوا به سريعا. ثم تابعوا سيرهم ببطء شديد فتمكنّا من اجتيازهم. اعتلى بعضهم سنام الجمال وهم يغنون بصوت خفيض متناسب مع حركة أجسامهم فوق الجمال ، وبأداء جماعي ولحن شجي حزين ، شرعوا يهزجون:

غالي علي مثل نظر عيني

يا جملي

غالي علي متل روحي

يا جملي

رنة جرسك احلى صوت

يا جملي

واحلى أغاني

هي الاغانيّ اللي بغنيها لك ياها المسا

يمضي هولاء الرجال أياما عديدة دون أن يتناولوا وجبة طعام كافية أو حقيقية ، ولكنهم في سعي منهم للتعويض عن هذا الحرمان من المأكل الجيد ، عندما تتوفر لهم الظروف المواتية ، يأكلون بنهم وبصخب. حلّ الظلام على الطريق الزراعي الذي شّق بيارات يافا ،

لكن اللهيب الصادر عن النار التي أوقدت في العديد من أبراج الحراسة المنتشرة في الأنحاء ، كانت توحي بأن الفواكه الناضجة في البساتين محروسة بشكل جيد.

عبرنا بوابة البلده ، حيث كانت حشود من الناس تتمشى لتمضية الوقت. كان أكبر أسواقها منارا بالقناديل والفوانيس ، لكننا سرعان ما انتقلنا إلى دروب وأدراج أكثر ظلمة وأكثر ضيقا ، وطلب مني أن أتبع القوّاس بانتباه وتيقظ. بدا شرواله التركي الأبيض الكبير وكأنه يتحرك بتأثير من قوى غامضة أمامي ، دون دعامات أو علاّقات ، لأن حصانه الأسود لم يكن مرئيا في الظلام ، كما كانت عليه حال طربوشه الأحمر القاني وسترته المطرزه ، فلم نكن نرى سوى عينيه اللامعتين عندما كان يستدير بين الحين والآخر للاطمئنان علينا. اقتفيت خطى مرشدي الشبح إلى أن وصلنا دار القنصلية البريطانية قريبا من الشاطئ ، حيث حظينا باستقبال حافل من أصدقائنا الدكتور خياط وزوجته والسيد فن ، الذي لم يكن قد مضى على وصوله سوى ساعة ، وجاء فور وصوله لاستقبالنا. أمضى الليلة الفائتة في الرملة ، واندهش كثيرا عندما علم بأننا قطعنا المسافة من القدس بهذه السهولة في غضون يوم واحد فقط. جلبت أصوات الألعاب النارية الصادرة من سفينة راسية في الميناء انتباهنا ، فاتجهنا للمشربية المطلة على البحر ، ومكثنا هناك لمدة طويلة من الزمن ونحن نراقب الأمواج وهي تقترب مسرعة من مكاننا ، يعلوها الزبد الأبيض وخطوط من الضوء الفوسفوري يلتمع تحتها ، ليختفي بمجرد ارتطامها بالشاطئ.

ذهبنا في اليوم التالي ، وكان يوم أحد ، إلى منزل الكاهن السيد كروسيه ، واستمعنابرفقة السيد فن وجماعته ، والدكتور خياط وأسرته ، إلى الدكتور باون- أسقف سيراليون الشهير ، الذي انتقل إلى رحمة الله- وهو يلقي أكثر عِظات الأحد بساطة وصدقا. تولى بعض الصبية العرب من تلاميذ مدرسة الإرسالية التبشيرية ، بمرافقة السيده كروسيه وأسرتها ، والكاهن هنري ريتشارت ، القادم من القاهرة ، مهمة إتمام شعائر القداس الصغير. راقبتنا بعض السيدات العربيات طوال الوقت من النافذة المفتوحة للمنزل المجاور ، وبدا أنهن كن يستمتعن كثيرا بذلك. تُليت التراتيل بالعربية بأصوات جهيرة وواضحة ، بينما قرأت شعائر القربان المقدس باللغة الإنجليزية ، وقام التلاميذ العرب الصغار بإنشادها بصوت واضح

وقوي. أمضيت الساعات المتبقية من النهار مع السيد فن وصحبه ، في بيت حديث وفخم لأحد الأصدقاء العرب. جلسنا على شرفة مظللة بشجيرات الياسمين تطل على أسطح البيوت وشرفاتها الظليلة والبحر الذي يتلألأ تحتنا. كان الحائط الغربي للمدينة وخندقها العميق والجاف يقعان على يسارنا. على مقربة منهم منحدر صخري حاد ، كان الفرسان يجوبونه مستعرضين مهاراتهم في استخدام الرماح والبنادق. وعلى مسافة قريبة كانت المقبرة الكبيرة التي توسطتها معرشة مسنودة بالأقواس ، كان الأطفال الذين انهمكوا باللعب والمدخنين الذين يرتدون العمامات يستظلون بظلها. كما كان هناك بستان من أشجار التين وأشجار النخيل وأشجار الطرفاء التي نمت على أرض منحدرة متاخمة للشاطئ الرملي ، الممتد بيننا وبين مركز الحجر الصحي ، وكنا قادرين على تمييز عباءات وطرحات النساء البيضاء خلال سيرهن بين الأشجار بسهولة. حدّت كثبان الرمال المتحركة من مدى رؤيتنا. أما البحر بهدوئه وزرقته الصافية فقد كانت أمواجه تتكسر بهدوء على الرصيف لتغطي صخوره بالزبد. شاهدنا الشمس أثناء غروبها ، واكتست التلال الجنوبية بألوان وردية وبنفسجية ورمادية. وتغطت السماء بسحب رمادية داكنة تحيطها هالات ذهبية من ناحية الغرب. وأُطلق حينها مدفع الإفطار فاصطحبنا مضيفنا إلى فناء مظلل على سطح البيت من أجل تناول الطعام في ضوء القناديل. من ضمن العديد من أصناف الحلويات ، تناولنا حبات رمان ياقوتية اللون ، نُقعت مسبقا بالنبيذ ، ورش عليها السكر المطحون ، بينما أحاط اللوز المقّشر محتويات هذا الطبق الذي يأسر الألباب.

جلست في اليوم التالي على المشربية في القنصلية البريطانية بصحبة الكاهن الدكتور باون ، وكان الدكتور خياط منشغلا مع قبطان إنجليزي وبعض المراجعين العرب في الجزء السفلي من القاعة. أقبلت غيوم داكنة مسرعة من جهة الغرب فوق البحر ؛ فبدأ الدكتور باون بالترتيل مرددا كلمات السيد المسيح: إذا رأيتم غيمة ترتفع من الغرب ، قلتم في الحال: سينزل المطر ، فينزل ، وما إن انتهى من تلاوة الآية حتى تفرقت الغيوم وانهمر المطر بغزارة. هاج البحر وتراكضت أمواجه بقوة نحو الشاطئ. بدت السفن على وشك الإفلات من مراسيها ، وعندما دوى هزيم الرعد اهتزت المشربية التي كنا نجلس بها اهتزازا عنيفا. فأسرع

القبطان راكضا للخارج خوفا على المصير الذي قد تؤول إليه سفينته على شاطئ صخري كهذا. عندما توقف المطر وسطعت الشمس من جديد ، اتجهت برفقة الدكتور باون لزيارة السيد جونز ، وهو مبشر أمريكي يعيش في حديقة غناء تقع غربي البلدة. كان قد أبلى بلاء حسنا في تعليم الجنائنيين وعمال البستنة العرب طرقا وأساليب حديثة وعلمية في الزراعة ، لكنه اكتشف أنهم كانوا بطيئي التعلم.

انهمرت أمطار غزيرة في فجر اليوم التالي واستمر هطولها حتى الظهر ، حيث جلست بعد توقفها في مكاني المفضل على المشربية وبرفقتي ناصيف جمال ، شقيق السيدة خياط. شاهدنا عبر نافذة المشربية موكبا عشوائي التنظيم يضم رجالا وأطفالا متجمعين حول رجل يرتدي ملابس غريبة ، ويستعرض ماعزا مدربة على أداء حركات بهلوانية طريفة. وقفت وقد ضمت سيقانها الأربع على عمود طويل جدا ، وتركت الحاوي ليرفعها عاليا ويحركها بشكل دائري ، ثم جثمت الماعز على أربعة قضبان وحملها الحاوي من جديد. تولت فرقة موسيقية صغيرة تعزف الناي والطبل والرق دعوة الناس من كافة أرجاء البلدة لحضور الاستعراض. رقصت الماعز وكانت تحافظ على توازنها وتلتزم بالتعليمات بشكل مذهل ، فكانت تأخذ أوضاعا غير طبيعية إطلاقا ، وكأنها كانت تفهم كلمات وتعليمات سيدها حرفيا. اكتست وجوه الرجال الذين تابعوا الحركات العجيبة للماعز بعلامات الجدية والرزانة وكأنهم كانوا يتابعون محاضرة علمية أو فلسفية.

اضطرت الجموع بعد قليل لإفساح الطريق لمسيرة طويلة يتقدمها خيّالة يحملون رماحا طويلة ويطلقون الرصاص من بنادقهم. ركب ولدان صغيران يرتديان حللا قشيبة ، ووضعوا على أعناقهما أطواقاً من الورود فوق صهوة جواد أبيض. حمل اثنان من الخدم وسادتين مطرزتين وضع على كل واحدة منها مجلد ضخم. سارت نسوة مبرقعات بالكامل بجانب الولدين وهن يغنين بصخب ويصدرن أصوات مجلجلة من حناجرهن تشبه أصوات صهيل الخيل المعّدلة بإضافة إيقاع موسيقي إليها (ربما تقصد الزغاريد الفلسطينية التقليدية- المترجم). شرح لي ناصيف ، الملم باللغة الإنجليزية سبب الاحتفال قائلا: إنهم أطفال مسلمون خرجوا تواً من عملية لا يخضع لها الأولاد المسيحيون ، بينما يخضع لها الأطفال

اليهود والمسلمون أيضا ساعدني شرحه هذا على أن أفهم أن الصبية قد أجريت لهم عملية ختان (طهور) وهم يطوفون في أنحاء البلدة احتفاء بذلك.

اتفق أخي مع ربان عربي يملك مركبا صغيرا على أن يقلنا بحرا إلى حيفا بمجرد هبوب رياح الجنوب. طلب اثنان من رهبان جبل الكرمل مرافقتنا في رحلتنا ، وقد وضعنا خطتنا على أساس أن نكون على أهبة السفر فورا ، وأمضينا السهرة مع الست ليا. فقد تعافت تماما من نفاسها وأرتني رضيعها الصغير سليم بفخر بالغ ، ولاحظت أن الجميع ينادونها ويخاطبونها باسم أم سليم ، كما هي الحال مع الأب الذي صار يكّنى باسم أبو سليم

في يوم الأربعاء التاسع عشر من أيلول / سبتمبر أُيقظت من النوم قبل شروق الشمس ، وأُبلغت بأن الرّيس - أو القبطان العربي - قد أرسل من يبلغنا بأن الرياح كانت مواتية للإبحار. فهرولنا نحن والرهبان وناصيف جمال مسرعين نحو رصيف الميناء. تغير اتجاه الرياح في غضون ذلك فلم يعد بمقدور الرّيس أن يبحر عكس الريح ، لكنه قال: رح تهب الريح الجنوبية مرة تانية بنص الليل ، ورح نوصل حيفا بثماني لعشر ساعات كان الوقت ما زال مبكرا جدا ، فتمشّينا على مهل في أزقة وطرقات البلدة. كان الناس قد بدأوا نشاطهم للتو. رُفعت مغاليق الدكاكين في البازارات -كانت ألواح من الخشب المعّلق بمفصّلات صدئة ثبتت بالجسر الذي يعلو واجهة الدكان- ، عند فتح هذه الألواح ورفعها للأعلى ، تصبح مظلات ممتازة ، يمكن إنزالها بسهولة والاستفادة منها لتأمين الدكان ليلا.

عندما عدت للقنصلية ، وجدت اثنتين من الخدم مشغولات بتحضير العجين وهن جالسات على الأرض حول لوحة خشبية مستديرة وواطئة بعض الشيء (الطّبلية الفلسطينية- المترجم). كانت إحداهن تخلط الطحين بالماء بينما تضيف الأخرى الملح وكمية قليلة من مسحوق الخميرة لكي تخمر كمية صغيرة من الخميرة العجين كله ثم شرعت بعجنه بقوة بالتناوب مع الخادمة الأخرى. تُركت العجنة لتتخمر قبل أن تقوم البنتان الكبريان للدكتور خياط بتقطيعها إلى قطع مكورة ، وترقيقها على شكل أرغفة صغيرة مستديرة ، ثم حُمِلت إلى الفرن بواسطة أطباق دائرية من القش.

أعددنا أنفسنا للرحلة من جديد وخلدنا إلى فراشنا مبكرين دون أن ننزع ثيابنا. عند منتصف

الليل أرسل الرّيس وراءنا ، فخرجنا على الفور في عتمة الليل مع ناصيف وثلاثة أو أربعة من حملة القناديل. رأيت خلال عبورنا للشوارع المحيطة بالميناء العديد من الرجال المتدثرين بلحافاتهم وهم يغطون في نوم عميق على بلاطات حجرية مستوية أو على مقربة من الجمال الجاثمة على الأرض. كان مُتسلّم البلدة ، أو حاكمها ، يتجول في الأنحاء. أخبرني ناصيف بأن الحاكم يقوم بمثل هذه الجولات بين فترة وأخرى ، ويقوم ببعضها متخفيا في بعض الأحيان ، للاطلاع على أحوال البلدة خلال الليل ، ليتأكد بنفسه من قيام الحراس بأداء المهام الموكولة إليهم. التقينا بالراهبين الكرمليين على رصيف الميناء المظلم ، وفتحت البوابة الضخمة للميناء من أجلنا. أُنزلت بطريقة ما إلى داخل قارب بمجذافين يطفو على الماء في الظلام الدامس بالأسفل ، وصرت في عهدة اثنين من البحّارة المفتولي العضلات. بعد كثير من الصراخ والاهتزاز ، صرنا جميعا داخل القارب فسُحب نحو المركب الشراعي الذي انتظرنا خارج الحاجز الصخري. اكتشفت أنه مقّسم إلى ثلاثة أقسام - قسم مركزي يتألف من قمرة غير مسقوفة بعمق أربعة أقدام مساحتها ثمانية أقدام مربعة. بينما خصص السطحان الأمامي والخلفي للمركب للأشرعة والعدد والحبال ، وكانا يعجّان بالبحارة الذين كانوا يغنّون غناء شجيا. كانت القمرة مضاءة بسراجين ومفروشة بالحصائر ومخصصة للركاب ومتاعهم. استخدمنا حقائبنا وصناديق متاعنا كأريكة ، وجلس الرهبان على حقائب السروج التي حملوها وتدثروا بالأردية ذات القلنسوات التي كانوا يرتدونها. لم يسبق للمسكينة كاترين أن ركبت البحر من قبل ، فكانت في غاية التوتر. غطت جسدها بأكمله بعباءتها وأستلقت بجانبي وقد مدّت جسدها بالكامل ، وغطّت سريعا في نوم عميق هانئ. دخن قوّاسنا غليونه بمعية الريس في الأعلى ، أما الإيطالي الذي استغل الظلام والفوضى ليتسلل حاملا حقائبه خلسة للمركب ، فنأى بنفسه وانعزل بعيدا عن البحارة.، تلألأت النجوم في السماء وهبت الرياح الجنوبية بقوة لتملأ الأشرعة وتدفعها ، ونمت أنا نوما خفيفا متقطعا بطريقة أو بأخرى حتى مطلع الفجر ، حين نهضت وأخذت أتملى في منظر المجموعة الصغيرة المحيطة بي ، الرهبان بقلنسواتهم وهم يغطون بنوم عميق ، وشقيقي المستلقي عند قدميّ ، وكاترين المتدثرة بغطائها بطريقة يصعب فيها التمييز بين رأسها وأخمص

قدميها.

توقف هبوب الرياح المواتية ، فانشغل البحارة في العمل على الأشرعة. عندما ارتفعت الشمس فوق التلال الساحلية المنخفضة ، غيرت الريح اتجاهها نحو الغرب ، فصرنا عرضة لخطر الاصطدام بالصخور. لكن الريح غيرت اتجاهها فجأة نحو الشمال وهبت بقوة اضطرت الرّيس لأن يلقي بمرساة المركب ، فعلقنا بالقرب من شاطئ ناءٍ لا يصلح لأن ترسو عليه المراكب. سطعت الشمس قوية في كبد السماء عند الساعة التاسعة تقريبا ، فاستخدمت الأشرعة التي فقدت أهميتها كخيمة لتظليل القمرة المكشوفة. تبين لنا أن أماكن جلوسنا ليست مريحة على الإطلاق ، لكننا عقدنا العزم على الإستفادة قدر الإمكان منها. عند انتصاف النهار كانت الحرارة في أسفل القمرة شديدة وخانقة للغاية ، فصعدت إلى سطح المركب وجلست على ربطة من الحبال ممسكة بصاري المركب ، انتعشت بفعل النسيم القوي ورذاذ البحر. الشاطئ الذي كان يختفي بين الحين والآخر وراء الأمواج العالية ، كان عبارة عن كثبان متحركة من الرمال التي تسرح فيها قطعان من الأغنام ، سعيا وراء الأعشاب الشحيحة التي نمت عليها. خلت هذه الكثبان من أي أثر للاستيطان البشري ، حتى إننا لم نرَ إنسانا واحدا أو مركبا أو سفينة طوال اليوم الذي استغرقته رحلتنا. توقفت الرياح في ساعات العصر ، لكن مركبنا استمر بالتأرجح ببطء بفعل الأمواج التي لم تكن قد هدأت تماما بعد.

تلا شقيقي علي مقاطع من رحلة بولس الرسول كما وردت في الإصحاح السابع والعشرين من سفر أعمال الرسل. أحسست أن الآيات كانت مشوقة أكثر من أي وقت مضى. كنا على مقربة من قيسارية ، الميناء الذي أبحر منه بولس الرسول حين أعاقته الرياح المعاكسة لدى هبوبها في هذا البحر لعدة أيام. لا بد ان ذلك حدث في هذا الوقت نفسه من السنة أيضا ، خلال موسم الأنواء ، عندما قال: كان الإبحار محفوفا بالخطر من المؤكد أن تفسير هذه الآية يعني حدوث ذلك بعد يوم الصوم الكبير (عيد الغفران) وهو اليوم العاشر من شهر تشري (الشهر العاشر في التقويم العبري -المترجم) الموافق للجزء الأخير من شهر أيلول/ سبتمبر. هبت الرياح الجنوبية اللطيفة مع مغيب الشمس ، فرفعت الأشرعة على الفور ، وجلسنا

لتناول وجبة العشاء بمعنويات أفضل ، وشاركنا الرهبان بأطباق الدجاج والشوربة التي كانت معنا ، حيث شاركوا بدورهم بالبيض والجبن والكونياك الذي كانوا يحملونه معهم. أمضينا ليلة امتازت بالسهاد والنوم المتقطع خلال الإبحار البطيء للمركب ، وفي الصباح كنا قد اقتربنا من الطنطورة ، عندما تغير اتجاه الريح إلى شمالي شرقي ، ما دعا شقيقي للإصرار على النزول للشاطئ وإكمال رحلتنا براً. فغيرنا اتجاه المركب وسمحنا للريح القوية بأن تدفعنا نحو الشاطئ الجميل. طفت جزر صخرية صغيرة ومبان قديمة متهالكة أمام الشاطىء لتصد الأمواج عنه. رسا مركبنا بسلام على الشاطئ بعد مناورات قصيرة ، حيث استقبلنا العديد من رجال الطنطورة وانتشلونا من بين الأمواج إلى الرمال الصفراء الناعمة. فشعرت بسعادة بالغة حين وطأت قدماي اليابسة من جديد ، ولسوف أتذكر دائما النصيحة التي أعطاها بولس الرسول للرجل الروماني ، وشجع الناس على عدم المجازفة بركوب البحر في بلاد الشام خلال الخريف.

جاء الموظف المسؤول عن مركز الجمارك لاستقبالنا ، ومع جموع الرجال والأولاد الذين تبعونا ، دخلنا البلدة الصغيرة المكونة من ثلاثين إلى أربعين منزلا بنيت من غير إتقان بمداميك غير منتظمة من الحجر المصقول وبقايا الأعمدة المكسرة وكميات من الوحل والطين. قادنا موظف الجمارك ، أبو حبيب إلى بيته المكون من غرفة واطئة كبيرة ومربعة مكسوة بالطين ومسقوفة بأغصان الأشجار التي سوّدها الدخان. اختفى نصف السقف وراء الحصائر ، وأضفت الأغصان المتدلية لمسة جمالية على النصف الآخر. كانت النوافذ كوَّات صغيرة في الجدار ، أما الباب المصنوع بقليل من الاتقان ، فقد كان قابلا للحمل. وُضعت فرشة على أرضية الغرفة لتقوم مقام مجلسٍ صغير. واصطفت مجموعة من الجرار الفخارية والأواني المعدنية في مواجهة الجدار. بُني فرن الطهو في أحد أركان الغرفة من حجارة عتيقة مشطوفة وصلصال محروق. كان بالقرب منه سلال ملأى بالملح الخام المجلوب من شاطئ البحر. أعد حبيب ابن مضيفنا القهوة لنا ، فحمص حبات البنِّ في حضورنا ، ثم طحنها في هاون حجري. انتصب قرب الباب صندوق خشبي كبير يشبه صناديق حفظ الوثائق في الغرب ، يعلوه قفل مزخرف ومفصلات من الحديد المشغول ، فاتخذته مقعدا وجلست عليه

لأبتعد قدر الإمكان عن الأرضية الموحلة ، التي رأيت فيها بمنتهى بوضوح ، مجموعات لا تعد ولا تحصى من البرغوث تتقافز وتتحلق في الهواء. أما الرهبان ، وبسلوكهم الكنسي المفعم بالتقوى ، فلم ينزعجوا من وجود هذه الحشرات إطلاقا. استرقت بعض النسوة اللاتي بدت عليهن علامات الهزال وهنّ يخفين وجوههن بأخمرتهن القطنية البيضاء النظر إلينا ، وتجمع حولنا بعض الأطفال الصغار الوسيمين ولكن قذري المظهر.

خرجت كاترين في جولة في المدينة ، واصطحبتني لدى عودتها إلى المنزل الذي اعتبرته الأكثر ترتيبا ونظافة ، حيث استرحت بصحبتها واستعدت نشاطي. ارتدت النسوة اللاتي استقبلنني سترات نسائية ضيقة وسراويل طويلة منسوجة من قماش بالٍ من مانشستر ، تملأها الرقع غير المنتظمة دون أي اعتبار لألوانها أو نمطها. غطّوا رؤوسهن بمناديل ملونة من الموسلين ، وتزينت أعناقهن بقطع العملات المعدنية ، ومعاصمهن بأساور مجدولة من الفضة. كنّ مأخوذات للغاية بحقيبة زينتي السفرية ، وأخبرنني بأنهن لم يشاهدن فرشاة شعر من قبل على الإطلاق. إذ أنهنّ يقمن بفك ضفائرهن الطويلة والمصبوغة بالحنّاء مرة في الأسبوع ، ويغسلن شعرهن بين الحين والآخر باستخدام الطين ، ويمشطن شعورهن باستخدام أمشاط مسننة صغيرة من العظم أو القصب.

بعد القليل من التأخير ، تم تأمين الدواب لنا ، وكنا لحسن الحظ نحمل سروج خيلنا معنا. تركنا متاعنا الثقيل في عهدة الريّس ، وعند الساعة الثانية من بعد الظهر ، امتطينا خيولنا وغادرنا الطنطورة. كان ترتيب قافلتنا مثيرا للضحك ، اعتلى القوّاس بغلا أشعث يحمل الصناديق التي تضم سجادينا في مقدمة الركب ، وركب الرهبان حميراً صغيرة للغاية لدرجة أن صنادلهم وأرديتهم الكنسية الثقيلة كانت تلامس الأرض. وامتطى شقيقي حصانا عجوزا أبيض اللون ، زينت رأسه بجُلٍ مزخرف ومزين بالصدف. ووضعت أنا على صهوة حصان قزم ليس له عُرف ولا ذيل ، ولم يتقبل السرج المعّد لركوب السيدات (السرج الجانبي) الذي جعله يدور حول نفسه من أجل اكتشاف الغموض المحيط بهذا السرج ، أما كاترين التي كان نصيبها حمارا حرَوناً ، فقد عانت الأمرين وهي تحاول اللحاق بنا.

سارت قافلتنا شمالا بموازاة الشاطئ المليء بقطع الرخام والحجارة المصقولة. وانهمكت

النساء والأطفال في جمع سلال كبيرة من الملح البلوري الخام ، الذي يستقر في الحفر الطبيعية والأحواض التي صنعها الإنسان في الصخور. وكانت القطعان الكبيرة من الأغنام والماعز ، وهي الثروة الرئيسية لأهالي الطنطورة ، ترعى في السهل ذي الأشواك والأعشاب ونباتات السنط وأدغال من الشجيرات الصغيرة ، والواقع على ميمنتنا.

على مسافة قريبة من الطنطورة ، تقف قرية دور الكنعانية القديمة على لسان بحري وعر ، وتنتصب أطلال جدرانها على حافة جرف بحري. رأيت في مركزها ما اعتقدته للوهلة الأولى برجا أو حصنا ، فاتضح لي عند اقترابي منه بأنه مجرد حائط غربي لأطلال أحد المباني المنهارة. يبلغ ارتفاع هذا الحائط حوالي ثلاثين قدما. المكان مهجور بالكامل حاليا لأن جدرانه متداعية وآيلة للسقوط ، والجروف مغمورة بالمياه. تؤخذ حجارة البناء لاستخدامها في أبنية الطنطورة على الدوام. مقابل هذه الأطلال ، يختفي السهل وراء تلال صخرية منخفضة نسبيا بالقرب من الشاطئ الرملي ، الذي تبعث أشجار النخيل المنتصبة هنا وهناك الحياة في جنباته.

تابعنا مسيرنا قريبا من الشاطئ فوصلنا بعد ساعة ونصف تقريبا إلى عتليت أو حصن كاستلوم بليغرنيوم ، وكانت مجرد أطلال لمبنى غريب يقف على لسان بحري صخري. امتازت حجارة الأساسات فيه بضخامتها ما مكّن البناء من الصمود في وجه عواصف الزمان قبل عهد الرومان ، الذين وضعوا أساسات الحصن وشيدوا الجدران ونحتوا وزخرفوا الأعمدة التي هوت محطمة على الأرض الآن. ترك الصليبيون بصماتهم في المكان أيضا ، فالقناطر المدببة وأطلال الكنيسة المسيحية ما زالت تتحدث عن مآثرهم. أقيمت بيوت فظّة المظهر قاطنوها من فقراء المسلمين في الأجزاء الداخلية من الكنيسة وفي ظلال الحصن المنيع. استراحت بضع نساء على مقربة من بئر ماء حجرية خارج جدران الحصن. في مواجهة هذا الموقع المثير للاهتمام عثرنا على مجاز ضيق يمر بين الصخور ويتجه شرقا ليصل الشاطئ مباشرة بالسهل القريب. علامات عجلات العربات كانت بادية بوضوح على الطريق الذي لا يتسع لأكثر من خيّالين اثنين. ارتفعت جدران كلسية بيضاء على جانبي الطريق ونمت بين أحجارها أعشاب عطرية ونباتات الحزاز الصفراء اللون. تظهر أثار العتبات المتبقية على طرفي

هذا المجاز بأنه كان محصناً ببوابات ما زالت أثار تحصيناتها القديمة بادية للعيان.

خرجنا من هذا المجاز المثير للاهتمام إلى السهل الخصيب لكن غير المزروع بكثافة والمسمى ب وادي دور ، الممتد بين سلسلة جبال الكرمل والتلال االساحلية الصخرية التي كنا نستظل بظلالها اللطيفة خلال مسيرنا. كنا قادرين على أن نرى الزاوية الحادة التي تشكل نقطة التقاء السلسلتين الجبليتين بعيدا في الشمال. وبين الحين والآخر كانت الأخاديد الطبيعية المتكونة بين الصخور أو الأودية الصغيرة التي اكتسبت خصوبتها بفعل سيول الأمطار ، تمكننا من رؤية الشمس والبحر.

توقفنا لسقاية دوابنا من عين صغيرة يطلق عليها اسم عين الدستري ، التي تتجمع المياه المتدفقة منها في بركة صغيرة لتشق طريقها بين التلال وصولا للشاطئ. تجمع عدد من رعاة الماعز لتدخين غلايينهم المصنوعة من القصب حول معلف طيني لإطعام الدواب ، بينما تزاحمت مواشيهم على شرب الماء. كما نمت أشجار الدفلى والترمس والأعشاب الطويلة وأشجار القطلب بكثافة في المكان. وسرعان ما أشار الرهبان بفرح عارم إلى دير مار الياس الأبيض اللون على قمة جبل الكرمل.

تناهت إلى مسامعنا أصوات صخب وغناء وأجراس وضحكات مرتفعة ، فرأينا قافلة صغيرة تقترب منّا ، تتألف من أناس يعتلون جمالا ازدانت رؤوسها ورقابها الطويلة والمتمايلة بالخرز والأصداف والأهداب القرمزية اللون ، وسلاسل من الأجراس الرنانة الصغيرة. توقفت على جانب الطريق لرؤيتهم يمرون ببطء من أمامنا. ربطت ثلاثة عشرة جملا بعضها ببعض ، وحمل كل جمل منها امرأتين أو ثلاثاً بمعية أطفالهن يرتدون جميعا ملابس احتفالية مصنوعة من الحرير القرمزي الناعم على الأغلب ، وتعلوها أشرطة بيضاء. وكنّ يعتمرن طرحات أو مناديل بألوان متنوعة من الحرير والموسلين والصوف ، تلتف على جباههن بمحاذاة الحواجب تماما ، وترتد نحو مؤخرة الرأس ، لتلتف من جديد بحيث تغطي وجوههن بأكملها باستثناء عيونهن اللامعة. تركت النهايات المهدّبة لأغطية الرأس هذه لتتدلى برشاقة فوق الكتفين. وأرخت بعض هولاء النسوة طرحاتهن أو براقعهن إلى مستوى الذقن تقريبا لكي يشاركن في الغناء ، الذي كانت ترتجله اثنتان من المغنيات المحترفات المرافقات

للموكب. استطاع شقيقي أن يستنتج بأنه كان موكبا لحفل زفاف (فاردة فلسطينية-المترجم) بسبب كلمات الأغاني والأهازيج، الشبيهه إلى حد بعيد بنشيد الإنشاد الذي لسليمان!!

أحاط بعض الرجال بالموكب وساروا معه كفرقة من الحرس للنساء الموقرات. كان هذا الجمع من الناس من أهالي قرية كائنة في سهل أو وادي دور في طريق عودتهم من حيفا، بعد أن ابتاعوا من دكانينها فساتينَ وحلياً وأثاثاً لحفلي عرس لواحدة من الأسر ذات النفوذ في المنطقه وما جاورها. بدأت أصواتهم بالغياب عن أسماعنا عندما صادفنا مجموعة أخرى تألفت من رجال وصبية وبضعة جمال وبغال وحمير محمّلة بالمشتريات والمستلزمات الخاصة بحفليّ الزفاف؛ من أوانٍ للطبخ وسلال من الأرز، وحصائر من القصب، ورزم من الأغراض المتنوعة، وصندوقين من الخشب الأحمر مزينين بمفصّلات مذّهبة وأطواق مزخرفة.

حمل أكبر جمال القافلة على ذروة سنامه مهدين خشبيين صغيرين، مطليين بالألوان الأزرق والأحمر والأصفر؛ كان كل مهدٍ منهما يعود لإحدى العروسين، حيث يعتبر مهد الطفل من أهم مكونات الأثاث الذي تجهز به العروس في الشرق وأكثرها ضرورة، والويل والثبور للزوجة التي لا تشاهد وهي تهز طفلا ذكرا في المهد الذي جُّهزت به، بحيث تكنّى باسمه وتحظى بالتكريم بين النساء (11) مع تقدمنا شمالا، ازداد الوادي اضيقاقاً فكنا نستطيع تمييز الكهوف والمغارات والتجاويف العميقة في التلال الكلسية المحيطة، التي لطالما كانت ملاذاو ملجأ ومعتزلا للرسل والقديسين والنسّاك وقطّاع الطريق واللصوص والوحوش والحيوانات المفترسة.

أروني قرية الطيرة المحاطة بالحقول المفلوحة والبيارات. انتصبت حولها مجموعات من أشجار النخيل هنا وهناك، واكتست سفوح تلالها بأشجار البلوط والتين البري والخروب. تصبح ثمرة الخروب عند نضجها شبيهة بقرن فول ضخم ومعقوف بُني لمَّاع. وهي غنية جدا بالعناصر الغذائية، حتى إن أبناء الفقراء يقتاتون عليها كليا خلال موسمها ولا يطلبون أو يتغذون على أي طعام اخر، نظرا لإحتوائها على جميع العناصر الضرورية للحياه كالنشا والسكر والزيت... الخ بكميات ونسب ملائمة. وجدت أن ثمارها الطازجة منها تكون حلوة

المذاق لدرجة لا تناسبني على الإطلاق. لكن الأطفال يستمتعون بمذاقها كثيرا وتنمو أجسادهم بفضل تناولها ، ويأكلون لّبها وقشورها على حد سواء. تجف هذه الثمرة عندم تخزينها وتقل درجة حلاوتها ، لكنها تستعيد نضارتها عند نقعها بالعسل. يمتاز العرب جميعا بحبهم للطعام الحلو المذاق ، وهذا ينطبق أيضا على العديد من رجال يهوذا والجليل بمن فيهم يوحنا المعمدان أيضا: كان مأكله طوال الموسم خروبا وعسلا بريا (12).

وصلنا قبيل غروب الشمس بقليل إلى سفوح المرتفعات التي تشكل الحدود الجنوبية لخليج عكا ، حيث ينتصب الدير فوق قممها. تأخر الوقت وأخذ منا التعب كل مأخذ ، فلم يكن بمقدورنا الالتفاف لسلوك الطريق المعتادة من الجهة الأخرى. فحثثنا ركائبنا على تسلق الصخور الوعرة شديدة الانحدار ، وسلكنا طريقا غير ممهدة كثرت فيها الأشواك والأجمات والأدغال الصغيرة التي لا تصلح سوى لمشي الماعز والأرانب.

بات الرهبان الذين كانوا ضيوفنا خلال الطريق يتصرفون كمضيفينا ومرشدينا الآن ، لأنهم كانوا على الأراضي التابعة لديرهم. كما حذرونا من مغبّة التراخي في إمساك زمام دوابنا المنهكة خلال تسلقها للتلة الشديدة الانحدار ؛ فأدركت حينها فقط الصعوبة الكامنة في امتطاء فرس قزم ليس له عُرف. بعد حوالي العشر دقائق من الركوب الشاق ، وصلنا إلى بستان مفلوح على أرض منبسطة أمام الدير الضخم والحسن البناء. خرج الأخ تشارلز ، صديق أخي القديم ، لاستقبالنا والترحيب بنا ، وقام بتقبيل شقيقي والراهبين مرات عديدة.

كنا على ارتفاع يقارب الستمائة قدم فوق السهل ، نمتع ناظرينا بالمشهد الفائق الجمال من أمامنا. بدأت الشمس بالغروب ، وكان البحر العظيم (البحر الأبيض المتوسط حسب التسمية التوراتية-المترجم) مغمورا باللون القرمزي. خليج عكا والسهل المحاط بمرتفعات الجليل كانا على يميننا. وكنا نرى أطلال مرفأ وحصن قديمين على الشريط المحاذي للشاطئ في أسفل البقعة التي كنا نقف عليها- على يمينهما وعلى بعد الميل تقريبا ، كانت بلدة حيفا الصغيرة ، المكان الأكثر إثارة لي ، لأنني كنت على وشك تأسيس بيت فيها بمعية أخي ، في مقر قنصلية صاحبة الجلالة الملكة.

أمضينا أمسية لطيفة برفقة الرهبان الطيبين ، وكان اليوم جمعة ولكنهم لم يسمحوا لنا

بالصيام ، جلسنا نتسامر معهم خلال استمتاعنا بتناول السمك واللحوم والطيور التي تم تحضيرها وطهوها في مطبخهم الممتاز. قصدنا الديوان أو صالة الضيوف بعيد العشاء ، وتصفحت مجلد زوار الدير الذي احتوى على كتابات بالعديد من اللغات ، خطّ العديد من الشخصيات العظيمة والمرموقة كلمات تذكارية وشهادات تمتدح مناقب الرهبان ولطفهم وحسن وفادتهم التي يستقبلون فيها ضيوفهم.

احتوى المجلد على ثلاث أو أربعة كتابات تدل على التعصب وعدم التسامح والعبارات غير الملائمة ، التي استدعت سخرية وتهكم وامتعاض الحجاج الأقل تعصبا. أراني الأخ تشارلز صفحات تعرضت محتوياتها للتعليق وللشطب مراراً من قبل معلقين ساخطين. وأشار إلى أن هذا الأمر غالبا ما يكون محط اهتمام الإنجليز على وجه التحديد ، حيث يثير ما يقرأونه ضحكهم وسخطهم. يبدو أن هذه الصفحات ترجمت له خصيصا ليتمكن من قراءتها.

أمضينا الليلة شاكرين في غرف نظيفة ومريحة ومفروشة بأناقة ، على أسّرة فرنسية مجللة بستائر الحماية من البعوض. في وقت مبكر من صبيحة اليوم التالي ، تناهت إلى مسامعي ألحان الأرغن والترنيمات الصباحية للرهبان ، وأحضر أحد الخدم القهوة بالحليب إلى غرفتي عند السابعة ، وأبلغني بأن أخي قد نزل مبكرا إلى حيفا. اصطحبني الأخ تشارلز ورفاق رحلتنا إلى الكنيسة الصغيرة بقبتها متقنة البناء وأرضيتها الرخامية والأشكال الزخرفية المرسومة على المرمر.

تشغل المكاتب والمطابخ والصيدلية وغرفة العمليات الجراحية الدور الأرضي من الدير. كما خصصت مساحة كبيرة من الدير لإيواء الحجاج الفقراء والمحتاجين. وتألف الدور الأول منه من جناح من الغرف الفسيحة المؤثثة بأناقة ، والمخصصة للرحالة والمسافرين الذين يفترض بهم أن يدفعوا أجرة تساوي أجرة غرف الدرجة الأولى في الفنادق ، من دون أن تفرض الأجرة عليهم صراحة. يتم الوصول للطابق الثاني عبر بيت ضيق للسلالم ، نقش في أسفله ، باللغتين الفرنسية والإيطالية ، نص يحظر دخول الإناث. أخبرني الرهبان بأن هذا الطابق يضم مكتبة غنية بكتب باللغات الإنجليزية واللاتينية والإيطالية والفرنسية ، علاوة على قاعة كبرى للطعام والعديد من الحجيرات الصغيرة ، وبأن الشرفة المظللة فيه معتزل

هادئ للرهبان المعتكفين للتعبد.

في تلك الأثناء ، وصل قوّاسٌ أحضر لي جوادا ودعوة لقضاء النهار بصحبة السيد فن الذي نصب خيامه خارج حيفا ، فخرجت بصحبة كاترين في ثوبها الأرجواني وخمارها الأبيض ، والقوّاس يتقدم طريقنا ، وغادرنا مباني الدير وبدأنا ننزل تدريجيا من الجهة الشمالية الشرقية عبر ممر متعرج أشبه ما يكون بالسلالم الحجرية. كانت الأجزاء العلوية من التلة مغطاة بالورود البرية والأعشاب العطرية والشجيرات والأرضي شوكي والأشواك والبلوط ، بينما كانت المنحدرات السفلية منها تعج بشجيرات الزيتون والتين.

كانت بلدة حيفا الصغيرة على مرمى البصر ، وقد خفقت رايات الدول التي رفعت فوق قنصلياتها ترحيبا بمقدم السيد فن وشقيقي. فوجئت بمقدرتي على تمييز العديد منها ، كأعلام فرنسا والنمسا وبروسيا واليونان وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية ، وأضافت هذه الرايات جمالا إضافيا على المشهد. عبرنا راكبين بستاناً جميلاً من أشجار الزيتون على السهل عند سفح التلة ، واجتزنا العديد من حقول درس الحنطة ، وأراضي صخرية خلاء وأحواضاً من المزروعات اليانعة ، وعثرنا على خيام السيد فن في ظل شجرة بطم ضخمة بالقرب من شاطئ البحر بالقرب من الأسوار الغربية للمدينة. توافد الزّوار على المخيم طوال النهار ، ولم ينقطع الطلب على القهوة والغلايين طوال الوقت.

كانت الإطلالة الشمالية للخيمة في غاية الروعة. سأحاول أن أصورها لكم كما رأيتها تماما عصر ذلك اليوم المشمس. تخيلوا ساحة من الصخور البيضاء والشجيرات الشوكية القاتمة اللون ، ثم مجازاً حجرياً بين الأحراش يحّد بستانا ينحدر بلطف نحو الشاطئ ، ليختفي الشاطئ الرملي تماما وراء أشجار الفاكهة التي تنمو في البستان ، ويبدو البحر بزرقته المتألقه وكأنه يكاد يلامس السياج الذي شكلته شجيرات الصبار في الأسفل ، وفي الناحية اليسرى من اللوحة ، يلتقي البحر بالسماء ، أما في الناحية اليمنى ، فهناك سلسلة متموجة من التلال المغطاة حتى وسطها بالألوان القرمزية والبنفسجية والبرتقالية ، والتي تنتهي بجرف أو لسان بحري أجرد وأبيض اللون يطلق عليه اسم رأس الأبيض- أو ما أسماه بيلينوس الأكبر ALBUM PROMONTORIUM - حيث ينتصب في تضادٍ تام مع السماء بزرقتها

الغامقة والبحر الأكثر قتامة. الجهة المقابلة من الخليج على بعد تسعة أميال ، كانت محددة بخط مستوٍ من الرمال البيضاء ، التي تفصل البحر عن السهول الخضراء على سفوح التلال ؛ وعلى لسان بحري أكثر انخفاضا على يمين رأس الأبيض ، تلوح مدينة عكا الصغيرة والفخورة بنفسها بوضوح في الأفق لتكون مركز هذه اللوحة بأكملها. كانت السحب تتكئ بسكون على القمم الواضحة المعالم في ذرى التلال ، ويرتفع جبل حرمون من بعيد شاحبا وغارقاً في الظلال ، إلى أن تنخفض الشمس ليتخضب حينها باللون الذهبي والبنفسجي. ألقت أربع سفن مراسيها في الجهة اليمنى ، بينما كان مركب شراعي يدخل الخليج من جهة الشمال. وكانت بارجة حربية تمخر المياه بعيدا في عرض البحر. وتشكل شجرة النخيل الباسقة و شجرة بلوط وشجرة تين ذات غصون بيضاء في الجهة المقابلة لها ، إطارا طبيعيا لهذا المشهد.

كانت الطريق الزراعية التي تشق الأرض المقابلة تعج بالمشاة وأفواج الصبية الحفاة وهم يقودون حميرا محملة بأحجار مصقولة انتزعت من أطلال الحصن ، لإعادة استخدامها في حيفا ، حيث تُبنى العديد من البيوت الجديدة ، وينتظر الشروع في بناء عديد آخر منها. إضافة للجمال المحملة بالبطيخ وبالحبوب وهي تتمايل في مشيها ، وبعض سكان البلدة الذين كانوا يذرعون الطريق جيئة وذهابا وكأنهم يختلسون النظر إلى خيامنا. قدمت أعداد كبيرة من الماشية والأغنام في ساعات المساء وقد سيقت لتقضي ليلتها بأمان داخل البلدة ، إذ إنها لن تكون بمأمن لو تركت في الأرض العراء ، حتى لو كانت في حماية رعاة مسلحين.

حيفا بلدة تحيطها أسوار متوازية الأضلاع قابعة على مقربة من البحر على نجد يرتفع بسلاسة. ينتصب خلفها مباشرة نتوء صخري بارز من جبل الكرمل ، مُتوجٌ ببرج صغير تسلقت إليه بصحبة السيد فن لمشاهدة البلدة من هناك. تنتشر بيوتها عشوائيا ، وتمتاز بيوت القناصل والتجار برحابتها وبنيانها المكون من الحجر المصقول تتوسطها ساحات داخلية ، ولها شرفات خارجية فسيحة. تبنى بيوت الطبقة الأكثر فقرا من الطين والحجر غير المصقول ولا تحتوي غرفا علوية. تكون أسقف هذه البيوت مستوية تماما. كما تحد المدينة من جانبيها بساتين فاكهة غناء ، مزروعة بأشجار الرمان والتين تحديدا ، ويحد بستان من

أشجار النخيل الشاطئ الرملي على الطرف الشرقي من المدينة (13).

عدت للنوم في الدير ، وبعد قضاء اليوم التالي والذي صادف يوم الأحد مع السيد فن في الخيام ، جهزت نفسي لدخول حيفا للمرة الأولى في ضوء القمر.

الفصل الخامس

بالرغم من أن خيامنا كانت على مسافة قريبة جدا من البلدة ، إلا أن السيد فن أصر ضاحكا على أن لا يكون دخولي الأول إلى حيفا مشيا على الأقدام ، فامتطيت صهوة جوادي ، وقطعت الطريق الحرشي الذي يمر عبر البساتين وقد سار شقيقي وبعض أصدقائه العرب بجانبي ودخلنا البوابة الحجرية الحصينة للبلدة. فُتحت البوابات الخشبية الثقيلة المغطاة بالصفائح المعدنية على مصراعيها من أجلنا بواسطة الحراس وهم يغالبون النعاس ، وكانت مراتب نومهم موضوعة على مصاطب حجرية في غرفة العقد في مدخل البوابة. بادروا بالترحيب بنا قائلين: ادخلوا في أمان فقلنا لهم: الله يحفظكم ، تصبحون على خير فردوا علينا: تصبحون على ألف خير لكننا بالكاد سمعنا كلماتهم الترحيبية بسبب النباح الغاضب لقطعان الكلاب التي أيقظها صرير البوابة الضخمة من ورائنا.

في داخل البلدة ، وحيثما كانت هناك أرض فضاء ، تجمعت قطعان الماشية بأعداد كبيرة لكي تنام في ضوء القمر. أما الشوارع الضيقة والمتعرجة التي تحدها قنوات المياه الآسنة ، فكنا نصادف بين الحين والآخر بهائم بائسة المظهر كبقرة تعاني من السهاد أو حمار هائم.

مررنا بجوار كنيسة صغيرة لطائفة اللاتين يعلوها برج وتظللها شجرة فلفل ، بدت وكأنها شجرة صفصاف ومسجد بسيط تعلوه مئذنة وبجانبه شجرة نخيل على مقربة من الكنيسة ، ثم وصلنا ساحة مكشوفة رحيبة بالقرب من شاطئ البحر نام فيها عدد من الجمال وحُداتها ، وبعض الفلاحين حول الجمر الأحمر الناتج عن احتراق الحطب المشتعل.

ترجلت أمام بوابة منزل يطل على هذا المشهد ، وعبرت من تحت قنطرة واطئة قادتني إلى ساحة مكشوفة رصفت من دون إتقان ، تنيرها القناديل والفوانيس المنتشرة في الغرف المحيطة بها ، وقد أشرعت أبوابها لأن ساكنيها ، الذين هم جيراننا كانوا بانتظار استقبالنا والترحيب بنا.

ثم اعتليت درجا حجريا مكشوفا وشديد الميلان قادني إلى ساحة فسيحة أشبه ما تكون بالشرفة المؤدية إلى حجرتين رحيبتين ومربعتي الشكل ، تمتازان بتهوية جيدة وجدران

بيضاء وأرضيات من الحجر ، حيث عاش أخي فيهما لمدة عام أو يزيد ، كنا سنقيم إقامة مؤقتة في هذا البيت ، الذي انشغلت كاترين بمساعدة معلم تنجيد الأثاث ، من اليهود العرب ، في تجهيزه وإعداده قبيل قدومنا.

كان في نهاية الشرفة حجرة صغيرة تحتوي على كل المستلزمات الضرورية لإعداد الغلايين والقهوة والعصائر (الشربات). وتزينت جدرانها بالأراجيل والشيشة وأكياس التمباك والتبغ وفناجين القهوة والكاسات . وكان يوسف ، الخادم الفتى المسؤول عن القهوة وحمل الغلايين ، والراضي تماما عن مسؤوليته عن هذه الحجرة ، قد خرج منها لابساً أفضل ما عنده من ثياب ، لكي يقبل يديّ محاولا بذل ما في وسعه لكي يترك انطباعا طيبا عند سيدته الجديدة. كان يرتدي سروالا واسعا ونظيفا من القطن الأبيض ، وسترة حمراء اللون ، وشالاً ملفوفاً على خصره كحزام ، وطاقية قطنية بيضاء. وكانت كاترين سعيدة جدا بمسكنها في الطابق السفلي ، وأخبرتني بأنها ومن دون أنه تتوقع ، عثرت على أبناء عمومة لها يقيمون في حيفا ، فهنأتها متوقعة أن يكون مجرد وهم آخر من أوهامها العديدة.

جاء محمد ، سكرتير شقيقي ومترجمه المختص باللغات التركية والعربية ، وسائس الخيل المصري والعديد من العاملين معه في القنصلية ، وتجمعوا من حولي للترحيب بي والتماس عطفي وحمايتي ، وهم يفوهون بكلمات مشابهة تماما لنصوص وكلمات التوراه!!.

تقدمت مني امرأة مسلمة طاعنة بالسن ، ذات وجه تملأه تجاعيد الزمن ، وقالت بعد أن ألقت علي السلام بلهفة بالغة: هلأ بعد ما حصل لي الشرف بمعرفتك ، إحكي مشاني مع سيدي ، أخوكي ، مشان يوظف ابني عندكم ، بترجاكي تحكي معه ، هلأ ، كلمة واحدة مشان ابني ، أنا أرملة وهو ابني الوحيد

توزعت المراتب والوسائد التي غطيت بوجوه جديدة ، في انحاء الغرف كافة على ألواح من الخشب تدعمها منصات خشبية واطئة صنعت بقليل من الإتقان ، إضافة إلى بعض الأثاث الأوروبي ، وخزانة أنيقة للكتب ، فأعطت المكان شعورا حميميا مريحا. كان المركب قد وصل بسلام من الطنطورة في الليلة الفائتة حاملا متاعنا وحقائبنا.

في اليوم التالي ، الرابع والعشرين من أيلول / سبتمبر ، وصل رجلان من الناصرة للترحيب

بنا ، وقدموا لي حملا مسمّناً. وبعد ذلك بقليل وصلت مجموعة صغيرة من الرجال من شفا عمرو ، وبرفقتهم جمل محمل بالشمام ، كما أحضر لنا فلاح من إحدى القرى المجاورة كميات من الجبن المصنوع من حليب الماعز.

ولابد لي من التنويه هنا إلى أن السعر الذي يدفع لقاء هذه التقديمات ، يفوق السعر السائد في السوق بشكل كبير.

تناول صالح صيقلي ، جارنا العربي المسيحي ، الذي تبدو علامات الرصانة والحكمة واضحة عليه ، طعام الفطور معنا. وقد أخبرني بأن شقيقي كان الرجل الإنجليزي الوحيد الذي يقيم في مدينة حيفا على الإطلاق ، وبأنني كنت أول فتاة إنجليزية تمضي ليلة داخل أسوار البلدة. وأضاف بأن العرب يحملون أفكارا ومعتقدات غريبة حول النساء الإنجليزيات والمجتمع الإنجليزي ، وبأن أصدقاءه أظهروا قدرا كبيرا من الفضول بشأن هذا الموضوع ، وهم يأملون الآن أن تتاح لهم الفرصة لأن يحكموا بأنفسهم من خلال التجربة والاحتكاك الشخصي معنا.

لم يتقن صالح أياً من اللغات الأوروبية ، لكنه كان ذا ذكاء حاد ومقدرة ملحوظة على الاستيعاب السريع ، كما كان متيّما بالدراسة والمطالعة. وقد تكرم بالتطوع لتعليمي اللغة العربية ولأن يستمع لقراءتي بشكل يومي.

اتضح لي بعد أن سألت عن عدد سكان حيفا بأنهم كانوا موزعين في العام 1854 كما يلي:

المسلمون 1200 نسمة

الكاثوليك الشرقيون 400 نسمة

اللاتين 50 نسمة

الموارنة 30 نسمة

الأرثودكس الشرقيون 300 نسمة

اليهود 23 نسمة

ما يجعل عددهم الإجمالي 2012 نسمة

وفي العام 1860 ، قدر عدد السكان بما يقارب 2300 نسمة.

خرجنا بعد استئذان السيد فن الذي كان على وشك السفر إلى عكا ، بعد أن طويت خيامه بالكامل ، واتجهنا لزيارة القناصل المقيمين في البلده ، إذ إن العرف المعمول به في السلك الدبلوماسي في بلاد الشام يقضي بأن يقوم القنصل الجديد بالزيارة الأولى لزملائه القناصل. فاستقبلنا القنصل الفرنسي ، الذي خدم خلال شبابه في جيش نابليون الأول ، بحفاوة بالغة ، وعرفني على زوجته التي كانت سورية تتحدث الفرنسية بطلاقة. وكان القنصل النمساوي ينحدر من إحدى الجزر الدالماسية ، وكان بقية القناصل منحدرين إما من أصول يونانية أو من مواطني جزر بحر إيجة ، وقد استقبلونا بلطف ولباقة بالغتين. وكان الوكيل القنصلي للولايات المتحدة الأمريكية عربيا يتحدث إنجليزية ركيكة. أما سيدات هذه العائلات فقد كنّ من أصول سورية أو يونانية على الأغلب ، لكن معظمهن كن يتقن اللغة الإيطالية ، ورحّبن بي في مجتمعهن بمودة ولطف كبيرين. أما الأسرتان المتبقيتان وكانتا تنحدران من أصول فرنسية ، ويشتغل أربابها في التجارة ، فكانتا ما تبقى من الأسر التي تشكل الجالية الأوروبية في حيفا. بُنيت بيوت هذه العائلات بتصميم شرقي ، فكانت تضم ساحات مستديرة رصف بعضها بالرخام الأبيض والأسود ، وفرشت غرفها بالدواوين (المجالس) التركية والمرايا الفرنسية والمناضد والصور. ولا يجب أن أغفل هنا عن ذكر المقهى الصغير ، المسمى أوتيل فكتوريا ، الذي يملكه رجل من مالطا.

في ساعة مبكرة من يوم الأربعاء الموافق السادس والعشرين من أيلول/ سبتمبر جاءت مجموعة من النسوة اللاتي كن يرتدين ملاءات بيضاء ؛ وقد أحضرن لي عدة أرغفة من الخبز العربي التي طبع عليها رسم الصليب وعدة رموز دينية مقدسة ، وذلك احتفالا بعيد الصليب لدى الأرثودوكس الشرقيين.

وقدم أسقف عكا للأرثودكس الشرقيين لزيارتنا وكان يرتدي عباءة طويلة زرقاء فضفاضة ، تظهر ثوبا تحتيا من الحرير القرمزي وحزاما خمري اللون وحذاءً أسودَ مدبباً. لم ينزع قبعته الكنسية السوداء الخالية من الحواف التي غطت رأسه حتى جبهته.

بعد أن رحل الأسقف ومرافقوه ، نهض أخي على عجل فور استلامه لرسالة ما وغادر البيت

على الفور. أخذت أراقب الأنحاء من النافذة الأمامية ، وسرعان ما شاهدت علامات مؤكدة على وقوع اضطراب في البلدة. تجمعت مجموعات صغيرة من الرجال المسلحين في الأرض العراء ، وبدأت تتحرك بخطوات سريعة جيئة وذهابا. وخلال لحظات معدودة ، رأيت القناصل كافة يسيرون في موكب يتقدمه قواسيهم وقد تمنطقوا سيوفهم وحملوا عصياً طويلة فضية الرؤوس ، في طريقهم إلى قلعة الحاكم التي كانت في مرمى النظر. صعد أخي مسرعا للحظات لكي يبلغني بأن أهالي الطيرة وفلاحي القرى المجاورة قد احتشدوا للانقضاض على حيفا ، وبأن ثلاثمائة أو أربعمائة من الفلاحين كانوا حاليا خارج أسوار البلدة محاولين اقتحامها الآن. كنا تحت حصار فعلي. أغلقت بوابتا البلدة ووضعت حراسات ، وتم توزيع مفارز المتطوعين على النقاط كافة غير الحصينة في أسوار البلدة. جلست أراقب التطورات بمفردي وأتساءل عما يمكن أن يقع من أحداث. كان الرجال يجوبون الشوارع في مسيرات عسكرية محدثين الكثير من الضوضاء ، حاملين بنادقهم القديمة الصنع ، وهراوات وسيوفاً من الأشكال والأحجام كافة. حذا الصبية الصغار حذوهم بالمشي في طوابير عسكرية وهم يحملون العصي ويصرخون بحماسة شديدة ، بحثا عن اللهو أو تحت تأثير الخوف. وكنت أسمع صوت طلقات البنادق بين الحين والآخر آتيا من الجزء الخلفي للبلدة ، والصراخ المرتفع للنساء والأطفال المذعورين.

توافدت الصبايا والأمهات من المنازل المجاورة ومن الساحة بالأسفل إلى غرفتي باكيات مرتجفات ، وكنّ يتساءلن لماذا لم يبدُ على المدام الإنجليزي ، كما كنّ ينادينني ، أية علامة من علامات الخوف ، فحاولت أن أهدئ من روعهن قائلة: اطمئنوا ، الله كبير ، ومن دون تردد أجبن قائلات: الله كبير ، الحمد لله ، بس الطيراوية عاطلين ورفضن أن يسترخين أو يهدأن.

تبخترت ثلّة من الخيالة المدججين بالسلاح في الأنحاء ، وكأنهم قاموا بذلك لاستنهاض حمية الناس وحثهم على المشاركة بالحدث. وعاد القناصل من القلعة بعد أن عقدوا مجلسا للتداول بالأمر ، وقاموا بالتوقيع على عريضة احتجاج ضد الحكومة . وعلمت بأن أربعة من أخطر عناصر المجموعة المهاجمة قد سقطوا بالرصاص تحت سور البلدة الجنوبي ، وأن

بعض أبناء بلدتنا قد أصيبوا بجراح طفيفة. انسحب الطيارنة ، لكن التوقعات أشارت إلى أنهم سيعاودون الكرّة في جنح الظلام خلال الليل ، فتم اتخاذ الاستعدادات الكفيلة بمواجهة هذا الاحتمال ، نظرا لأن أسوار حيفا لم تكن حصينة بما يكفي ، وكان تسلقها واقتحامها أمرا بالغ السهولة.

أُرسل مبعوث إلى عكا بواسطة البحر لطلب النجدة. وفي غضون ذلك كان أخي ، ونزولا عند طلب حاكم البلدة ، قد قام بجلب البنادق والذخيرة اللازمة من سفينة إنجليزية راسية بالميناء. فتحولت غرفتنا إلى ترسانة حربية ، واكتظ بيت الدرج والشرفة بالحشود التي جاءت تطالب بالسلاح ، الذي وُزع عليهم بحرص وحذر شديدين. وقام كاتب حكومي بتسجيل أسماء المتطوعين الذين حصلوا على السلاح في قائمة أُعدت لهذا الغرض. ارتفعت حدة التوتر بشكل ملحوظ مع غروب الشمس ، وبدا وكأن أحدا لم يفكر أن ينام تلك الليلة. وأبقى القناصل أسوار البلدة تحت رقابة مشدده ، واستمر الرجال يذرعون شوارع البلدة في طوابير تحت ضوء القمر وهم يهزجون: سيوفنا قوية ، والله معنا وكان الصبية ، بعِصيّهم المرفوعة عاليا ، يرددون هذه الأهازيج بأعلى ما عندهم.

جاءت عدة نساء عربيات من جاراتي لمؤانستي عندما خرج أخي. أحضرت إحداهن طبقا لذيذا من اللوز المقشّر والمبروش والمخلوط بالشعيرية المحّمصة بالزبدة والسكر ، تؤكل وهي ساخنة. وكنّ يرتدين سراويل طويلة وسترات ضيقة ، كان البعض منها يحتوي على طبعات ملونة ، بينما كان البعض الآخر مصنوعا من الحرير الدمشقي المخطط. كان ثوب كاترين غريبا جدا بالنسبة لهن ، إذ لم يرين اللباس التقليدي لمدينة بيت لحم من قبل. وجلسن يدّخن ويتحدثن ويبكين ويضحكن بالتناوب. ثم أسرعن بالمغادرة بعد أن ارتدين خماراتهن ، فور وصول شقيقي عند منتصف الليل لإبلاغي بقدوم 50 جندي من سلاح المدفعية و30 من الباشي بوزوق من عكا (الجنود غير النظاميين أو المليشيا التابعة للجيش النظامي العثماني-المترجم) بسبب عريضة الاحتجاج التي رفعها قناصل الدول الأجنبية. وتم توزيعهم في دوريات راجلة وأخرى ثابتة في أماكن مناسبة للخفارة ، كما هرع أربعمائة فلاح من إحدى القرى الصديقة أيضا لعرض مساعدتهم ؛ إذ جاءت أعداد كبيرة منهم على

خيولهم حاملين رماحهم وبنادقهم. بدا المكان أشبه ما يكون بساحة الحرب ، ومع هذا القدر من الحماية خلدنا للنوم بسلام في تلك الليلة.

وصلت مجموعة من الخيالة من شفا عمرو في صبيحة اليوم التالي وترجلوا عن جيادهم عند منزلنا ، فقد جاءوا خصيصا كما قالوا ، لحماية القنصلية الإنجليزية.

كان الطيّارنة قد انسحبوا تماما في هذه الأثناء ، لكن بلدتنا الصغيرة كانت ما زالت مفعمة بالحماسة والإثارة. واستمرت حشود المتطوعين والفلاحين المدججين بالسلاح بالتجوال في أنحاء البلدة وهم يغنون ويهزجون ويطلقون الأعيرة النارية من حين لآخر. وبدا أنهم يشعرون بالإحباط لعدم تمكنهم من استخدام أسلحتهم بشكل نافع. كانت البلدة محروسة جدا بحيث زالت المخاوف من وقوع هجوم محتمل.

خرجت أنا وأخي قبيل غروب الشمس بقليل للتنزه في ساحة البرج التي كانت قد نصبت فيها المدفعية. خرجنا من البوابة الشرقية وعبرنا المقبرة الإسلامية إلى بيارات الفواكه وكروم الزيتون. كنا في طريق عودتنا للمنزل عندما لفتت انتباهنا صرخات وصيحات مرتفعة صادرة عن بعض الرعاة. كانت قطعان كبيرة من الماشية ، قيل إن بعضها كان مسروقا ، تقاد باتجاه البلده ، عندما شبّ الخلاف عليها. سرعان ما تجمهر الناس ، وتعالت الأصوات الناتجة عن جدل كلامي حاد انتهى بتبادل اللكمات. نُحيت إلى جانب الطريق وأخذت إلى مكان آمن على الجسر الذي بناه جنود إبراهيم باشا منذ سنوات عديدة. وكان من الطبيعي أن يساء فهم الاضطراب الناتج عن هذا الخلاف من قبل المتطوعين والمدافعين عن حيفا ، إذ خرجت أفواج من الفلاحين على صهوات خيولهم من بوابات البلدة ، رافعين رماحهم عاليا ، وتصاعد الغبار بفعل وقع حوافر خيولهم المسرعة ، ورفرفت كوفياتهم الطويلة المخططة التي اعتمروها على رؤوسهم وكأنها أعلام أو رايات. وتراكضت قطعان الأغنام والماعز مذعورة في جميع الاتجاهات ، ويبدو أنها لم تدرك في أي اتجاه كانت تعدو بفعل الخوف الشديد ، فتخبطت بالشجيرات والصخور والقبور وحتى في البحر. وكدت أقع أرضا بفعل تدافع البعض منها ، وهرع للمكان ما يربو على المائة رجل قبل أن يدرك الجميع بأنه كان مجرد إنذار خاطئ ، حينها فقط عادوا من حيث أتوا شاعرين بالأسى لسوء حظهم. أشار عليّ صالح الذي

كان برفقتنا ، بأن أنظر للأمر كمجرد فانتازيا بسيطة أُعدت خصيصا للترفيه عني.

بعد أن تناولنا وجبة المساء ، خرج أخي من المنزل. وواجهت بعض الصعوبة في درس اللغة العربية ، خرجت بعدها للشرفة لأجد اثنين من الخدم وقد غطّا في نوم عميق. أحسست بأنني أحلم عندما وقفت على الشرفة في ضوء القمر ، فقد كان سكون الليل لا يقطعه سوى صوت ارتطام الأمواج وارتدادها عن الشاطئ ، وثغاء الحمل المربوط وأصوات الأغاني القادمة من البعيد.

وصل باشا عكا في صبيحة اليوم التالي ، وقام بزيارة كل قنصل من القناصل الموجودين في البلدة ثم عقد اجتماعا في القلعة اقترح فيه أن يتم تجهيز قوة مسلحة للسير نحو الطيرة من أجل اعتقال ومعاقبة المتآمرين ، الذين خططوا للهجوم الأخير على حيفا ، لكن سرعان ما اتضح أن الطيارنة يمتلكون أصدقاء في المحكمة وأعضاء يحمونهم داخل المجلس ؛ إذ إن بعض الوجهاء المسلمين المتنفذين في حيفا لديهم مصالح شخصية في استمرارية رخاء ورفاهية الطيرة ، بالنظر إلى حجم أملاكهم الكبيرة فيها ، ونظرا لأن العديد من أبناء الطيرة مدينون لهم بمبالغ كبيرة. لذلك وبفعل تدخلهم والرشاوى التي دفعوها تُرك الحادث ليمر مرور الكرام دون اتخاذ إجراء يذكر ، بالرغم من مشاعر السخط والاستياء التي عبّر عنها القناصل وغيرهم من الشخصيات بكل وضوح.

تلقيت دعوة بعد بضعة أيام لحضور حفل زفاف لآل صيقلي ، وهي عائلة مسيحية عربية تتبع الطائفة الأرثودوكسية الشرقية. في حوالي الساعة الثامنة صباحا ، أُخذت إلى كنيستهم ، وهي مبنى تعلوه قبة ينفذ إليها الضوء من الأعلى ، وتعج من الداخل بصور بيزنطية ملونة ، إذ إن الأرثودكسية الشرقية وعلى الرغم من أنها تحظر استخدام الصور للمساعده في أداء العبادات ، إلا أنها تسمح باستخدام الصور شريطة أن لا تبدو محتوياتها من المخلوقات نابضة بالحياة. كانت قاعة الكنيسة غير المزودة بعدد كافٍ من الكراسي أو المقاعد ، قد امتلأت عن بكرة أبيها بالمدعوين لحفل الزفاف وهم يحملون في أيديهم شموعا منزلية الصنع ، وضعت إحداها في يدي. وقف الكاهن على منضدة القراءة في وسط الحشد ، وأمامه مباشرة ، وقفت العروس بعباءتها البيضاء التي غطت كامل جسدها ، بينما كان وجهها

مغطىً بالكامل بخمار متعدد الألوان. ووقف عريسها بجانبها ، وكان بالكاد قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، ببذلته الزرقاء ذات الحواشي المطرزة بخيوط ذهبية ، وزناره الأنيق الذي كان عبارة عن شال باللونين الأبيض والأحمر القاني. لم يكن قد رأى وجه عروسه سوى مرة واحدة قبل ستة أشهر عندما تقدم لخطبتها.

أقيم القداس باللغة العربية ، وتُليت الصلوات بترتيل سريع لكنه واضح ومتناغم. كانت أهم مقاطعه على ما يبدو تلك الخاصة بالعرس في قانا الجليل. بينما كان الكاهن منهمكا بقراءة هذا الجزء من الإنجيل ، كان الشاب قد أُعطي الخبز والنبيذ. فقام بدوره بإعطاء شيء منهما للفتاة ، التي حرصت خلال تناولهما على أن لا تكشف وجهها. وبعد ذلك مباشرة ، مدّت إحدى يديها المزينّة بالحناء لكي يضع خاتما مرصعا في إصبعها. وأحضر إشبين وإشبينة العروسين تاجين من القصدير المذهب ليوضعا على رأسي العروسين اللذين تشابكت أيديهما وأخذا وبمرافقة اشبينيهما ، يدوران في حلقات بين الحضور الذين أفسحوا الطريق من أمامهما ورشوهما بماء الورد والعطور ، مرددين الأغاني ومتمنين حياة سعيدة لهما. بعد أن أكمل العروسان سبع دورات بين الحضور ، ابتلت طرحتا العروس وأشبينتها تماماً ، واستسلم العريس والأشبين بإذعان تام لقوارير العطور التي سكبت على طربوشيهما. ومع تصاعد حدة الإثارة ، اشترك الحضور جميعا في رش العطور ، فتقدمت لكي أحظى بفرصتي ، وهكذا انتهت مراسم عقد القران.

في تلك الأثناء ، كانت زغاريد عالية ومتواصلة تصدر عن صديقات العروس اللاتي تجمعن في الشرفة العلوية لقاعه الكنيسة ؛ إذ اقتصر الوجود النسائي في قاعة الكنيسة على عدد محدود جدا من القريبات من الدرجة الأولى للعروسين. ثم احتشد الرجال في موكب يتوسطه العريس وخرجوا من الكنيسة (فارده فلسطينية- المترجم). حمل أحد الرجال غليونا تركيا أنيقا وكان يقدمه للعريس كلما توقف الموكب لكي يرقص الرجال أو ليغنوا أغنية من أغنيات الحب الجامح. وكان ماء الورد ينسكب على رأس العريس من نوافذ وشرفات البيوت التي يمر من تحتها. وتقتضي العادات والأعراف أن يلتزم العريس بقدر كبير من الهدوء والرصانة في خضم الضجيج والإثارة المحيطين به. وأخبرني صالح بأن العريس

يحتفظ بوقاره ورزانته طوال النهار ، بينما يحتفل أصدقاؤه ورجال البلده ويمرحون من حوله وهم يغنون أغاني وأهازيج الزفاف.

وبالتزامن مع ذلك ، كانت العروس وقريباتها وصديقاتها ، اللاتي ارتدين البراقع والعباءات التي تسترهّنَ تماماً ، يتجهن ببطء شديد إلى بيت العروس ، البيت الذي ترعرعت فيه ، إذ كان عليها أن تنتظر حتى مغيب الشمس من أجل أن تلتقي بعريسها. ذهبت بصحبتهن وكنا جميعا نحمل الشموع ، مع أنها كانت الساعة الثالثة ، أي حوالي التاسعة صباحا. وكنا نتوقف بين الفينة والأخرى خلال قيام إحدى المغنيات المحترفات بارتجال زغرودة (مهاهاة فلسطينية-المترجم) منفردة من الغناء المناسب للحدث. لتشترك النسوة كافة في المهاهاه وترديد الكلمات والزغاريد كجوقة موسيقية ، ثم نتابع السير من جديد. تضمنت إحدى وصلات المهاهاه والزغاريد إشارة إلى وجود بنت إنجليزية ضمن المدعوين للحفل ، وهو ما أعتبُر فألا حسناً. ورددت الجوقة كلمات الزغرودة التي تضمنت دعاء للبنت الإنجليزية بالسعادة وراحة البال. ارتقينا بعد ذلك درجا حجريا فسيحا ومظللا ، ثم عبرنا ممرا قادنا إلى قاعة كبيرة تملأها النوافذ ، وزفت العروس إلى ما يشبه العرش (لوج العروس-المترجم) المصنوع من الوسائد والمخدات المطرّزة وطُلب مني الجلوس إلى جانبها. نُزعت عباءة العروس ونقابها الأبيضان ، فبدت عليها علامات الشحوب والضعف الشديدين. لم يكن عمرها يزيد على الأربعة عشر عاما ، وكان وجهها بيضاويا وذات شفتين كبيريين وحاجبين منحنيين مرسومين بدقة. كانت عيناها مغمضتين إذ إن العرف يقضي بأن تغمض العروس عيناها منذ اللحظة التي تغادر فيها الكنيسة إلى اللحظة التي تلتقي بها بعريسها ليلا. جلست بجلال بوضعية السجود ، بحيث تركت جسدها يستند إلى كعبيها بينما وضعت راحتي يديها على ركبتيها وكأنها إحدى الآلهة الهندية. وكان غطاء رأسها مغمورا تقريبا بسلاسل من اللؤلؤ والعملات الذهبية الصغيرة والألماس الصناعي والورود. أما شعرها الطويل المجدول فقد تراخى على كتفيها وظهرها بتسع ضفائر مزينة بعملات وحليٍ ذهبية صغيرة. ارتدت سترة بنفسجية من المخمل مفتوحة بقدر كبير من المقدمة لتظهر صدرها الذي يعلوه قميص من الكريب المزين بأشكال مختلفة من عروق الذهب. أما قلادتها أو القبَّة المكونة من العملات

الذهبية فقد كانت في غاية الجمال. وتكفلت تنورتها الحريرية باللونين الأصفر والأبيض بستر سروالها الحريري الأصفر. وكانت يداها وذراعاها مزينة بحناء ذات لون بني وبرتقالي، ولكن ما سحرني أكثر من أي شيء آخر فقد كان لمعان وتألق بشرتها.

خلال الوقت الذي أمضيته في التمعن بالعروس، كانت النسوة الحاضرات قد غيّرن مظهرهن بالكامل. فقد نزعت الملاءات والبراقع وتلون المكان بألوان قوس قزح الآن- بتركيبات لونية متعددة. كانت بشرات وجوه العديد منهن بنفس نضارة بشرة وجه العروس تماما. وكنّ جميعهن تقريبا يمتلكن عيونا واسعة وجفوناً ورموشاً كحيلة. كانت أفواههن كبيرة بعض الشيء وتظهر أسنانا منتظمة وكبيرة ناصعة البياض، بنفس تألق ولمعان أسنان الحيوانات البرية. وكانت بشراتهن غامقة بشكل عام لكنها صافية ونضرة. وتقدمن واحدة تلو الأخرى لتقبيل يد العروس، التي لم تظهر أي تفاعل ولم ترد على أي من تحياتهن. ثم بدأ الرقص والغناء. تولت إحدى النساء ضبط الإيقاع بواسطة الطبلة، ووقفت راقصتان أو ثلاث في وسط الغرفة بنظرات مترفعة، ولكن لا تخلو من الشبق. بدأن بالتقدم ببطء للأمام، وكأنهن مترددات أو خجولات، نحو هدف مفترض، ثم تراجعن للوراء، لكي يتقدمن من جديد بخطى ورقص سريعين. شكّلت المتفرجات حلقة دائرية جلوسا على الأرض المفروشة بالحصائر في صفّين، وهن يصفقّن بأيديهن بإيقاع يتناغم مع صوت الطبلة، ويغنين أغاني مفعمة بالشغف والعواطف بمقام ثانوي على نوتة 2-4، وما إن تصاب إحدى الراقصات بالإعياء، حتى تنهض أخرى لتحل محلها، واندمجت أربع منهن في رقص عنيف ومتواصل حتى بدت عليهن سكرات الموت، فأفسحن المجال أخيرا لغيرهن من الراقصات. ارتدت الفتيات الأصغر سنا أثوابا من قماش قطني مطرزة بخيوط ذهبية تشبه العناقيد، بينما ارتدت الأخريات تنانير بيضاء من الموسلين الرقيق، فوق بناطيل حريرية زرقاء وحمراء، وسترات مخملية سوداء، وعندما كنّ يرقصن، كنّ يحملن في أيديهن مناديل مطرزة ويلوحن بها بحركات منتظمه. وعند منتصف النهار، وزعت أطباق من الحلوى والفاكهة والقشطة وغيرها من أطباق الطعام.

جاءت أم العريس وقريباتها لأخذ العروس بعد غروب الشمس، فانخرطت العروس في بكاء

ونحيب مريرين. كان هذا سلوكا متوقعا منها ، فسواء كانت ملتاعة أم لا ، ينبغي عليها أن تظهر إمارات الحزن عند فراق بيت أهلها ، ويجب عليها أن تبدو غير راغبة بالذهاب للقاء العريس. من الممكن أن تتطور هذه الممانعة ، حقيقية كانت أم مصطنعة ، إلى مرحلة يضطرون فيها لسحب العروس المنتحبة وجرها بلا شفقة رغما عنها. كنت شخصيا شاهدة على مواقف مثيرة للضحك من هذا القبيل. ثم رفعت العروس المغطاه بالعباءة ، والتي يفترض بها أن تكون مغلقة العينين حتى الآن ، إلا أنها كانت تفتحهما قليلا من آن لآخر ، على ظهر فرس ، وبالرغم من أن بيتها الجديد قد يكون على بعد خطوات معدودات فقط ، فعليها أن تقوم بجولة في البلدة أو القرية ، بحيث تسير فرسها ببطء برفقة عدد كبير من النساء والصبايا اللاتي يحملن القناديل ويزغردن ويغنين بهياج.

كثيرا ما كنت أعير فرسي لإحدى الفتيات الفقيرات لتفخر بامتطائها وهي محاطة بحملة المشاعل في طريقها لملاقاة عريسها ، وفي أغلب المرات وقبيل منتصف الليل ، كنت أقف على نافذتي لرؤية مثل هذه الفاردات.

قبيل خروج العروس من بيتها ، قامت مجموعة من الرجال والنساء وفي ضوء المشاعل ، بنقل جهاز العروس إلى بيتها الجديد. يجب أن يحتوي الجهاز على مهد خشبي أحمر وصندوق أحمر للملابس. وفي بعض الأحيان تُعرض مرآة صغيرة محاطة بإطار ذهبي بفخر بالغ. كما قد يحتوي جهاز العروس على وسائد ذات أغطية حريرية بألوان زاهية ، وصينية ملأى بالصابون المعطر ، ومرتبة أو اثنتين بالإضافة إلى اللحاف ، وذلك حسب المكانة الاجتماعية للعروس.

بعد الكثير من الاستفسار والإلحاح ، عرفت من السيدات العربيات السر الكامن وراء نضارة ونقاء وجه العروس ، إذ أعلمنني بأن الصبايا يهيأن للزواج بكثير من الحفاوة والأجواء الاحتفالية. ولهذا الغرض ، كانت هناك نسوة يحترفن أعمال تجميل وتزيين العرائس!!!

سيدة أرملة ، تدعى أنجلينا ، هي الفنانة في قطاع خدمات تجميل النساء في حيفا. وهي تستخدم المقص وملقط الشعر ببراعة وخفة لإزالة الشعر الزائد ، وتتعامل مع الرموش بمهارة فائقة وتعطيهما شكلا قوسيا بعد أن تخضبهما بصبغة سوداء. كما أنها تحضر لصقات

شمعية من صمغ سُكّري قوي وتستخدمها بدرجات متفاوته على أنحاء الجسم كافة ، بحيث تبقي اللصقة في المكان المقصود لدقيقة أو أكثر ، ثم تقوم بنزعها بسرعة شديدة ، ليخرج معها كل الشعر والزغب الزائد ، تاركة الجلد خاليا تماما من الشعر ، ليبدو بعد ذلك نضراً ولامعا بشكل غير اعتيادي ، وهو ما يقدرّه المشرقيون كثيرا. أما الوجه ، فهو يتطلب معالجة وعناية حذرة جدا عند استخدام هذه الطريقة في نزع الشعر ،(14) وإذا خضعت المرأة لهذه العملية ولو لمرة واحدة ، فسوف تبدو بشكل مريع ومرعب ما لم تكررها ثانية ، نظرا لأن الشعر لن ينمو بالنعومة والنضارة نفسها من جديد. وربما كان هذا هو السبب الذي يجعل من العجائز العربيات اللاتي يتوقفن عن استخدام طرق الزينة هذه ، يبدون في منتهى الشحوب والشبه بالساحرات. كما يسفر هذا العذاب أحيانا عن تحسس الجلد ، فيتم اللجوء حينئذ للسمسم المعطر أو زيت الزيتون أو الكريمات المرطبة المستخلصة من ماء الورد المعتق لتخفيف الحساسية.

تدعو العروس صديقاتها لمرافقتها للحمام العمومي (المعروف في بلاد الشام بحمام السوق-المترجم) في اليوم الذي يسبق يوم الزفاف ، وترسل لكل واحدة منهن كمية من الحناء (الحنّة) وقطعتين أو ثلاثاً من الصابون وشمعتين. عادة ما تتكفل أنجلينا بحمل الدعوة وإيصال هذه المواد التي يجب تسديد أثمانها دوما. وقد قبلت مثل هذه الدعوات بين الحين والآخر.

تنظم حفلات العزوبية للعروس وقد تستمر أحيانا لثلاثة أيام متتالية في الحمام العمومي. توزع الغلايين والشربات والقهوة وغيرها من المرطبات خلال هذه الحفلات التي تغني فيها المدعوات احتفالا بالعروس ، والتي تكون أنجلينا حاضرة برفقتها على الدوام. تفك ضفائر شعر العروس ، وُتعرى ببطء من ملابسها ، وبعد أن تغطي عانتها بقطعة من الحرير القرمزي ، ثم تلبس قبقابا عاليا وتطوف بها النساء المرافقات داخل قاعات وممرات الحمام التي ترتفع درجة الحرارة فيها تدريجيا ، بينما يتدفق الماء من النوافير على الأرضيات الرخامية. ثم تجلس العروس على مصطبة رخامية بالقرب من صنبور للماء الساخن ويفرك رأسها وجسدها بالصابون بواسطة نسالة من الكتان (ربما قصدت الليفة كما نعرفها-

المترجم)، ليسكب الماء الساخن فوق رأسها بعد ذلك، ويجفف جسدها بمناشف طويلة، ثم يسكب ماء أقل سخونة عليها من جديد إلى أن يتم اقتيادها أخيرا إلى صنبور الماء البارد.
تكون رفيقاتها في تلك الأثناء قد مررن بمراحل الحمام نفسها. وأخيرا وبعد ان يتسربلن بمناشف وملاءات من الموسلين أو الكتان أو الكريب، يجلسن سوية وهن يدخنّ إلى أن يشعرن بالراحة والاسترخاء.

تغطى حواف الجفون بالكحل بواسطة أداة صغيرة تشبه دبوساً فضياً تغطس في الماء، في حنجور أو حُقّ يحتوي على ذرور دقيق يسمى الكحل، يستخلص من حجر الإثمد الذي يطحن ويضاف إليه السُخام بحرص شديد، ثم يمرر رأس الدبوس المفعم بالكحل بلطف على طول الخط الفاصل بين جفني العين شبه المطبقين. أما الفقراء فهم يستخدمون السخام فقط ويضعونه على العين باستخدام قصب من خشب الأنبياء.(15)

وتلف الذراعان واليدان والقدمان بأشرطة أو أربطة تشبه أربطة الصندل، وتتقاطع مع بعضها البعض ثم تفرد فوقها معجونة من مسحوق الحناء المبللة بالماء، التي يتم رصّها فوق هذه الأربطة وتركها بهذه الحالة لبضع ساعات. عند رفعها، تكون أجزاء البشرة التي لم تغطيها الأربطه قد تخضبت بالحناء. فينتج عن ذلك اشكال ونقوش متنوعة. عندما تجرى هذه العملية بدراية وخبرة فنية كما هي الحال مع الحناء التي تقوم بها أنجلينا، فإن القدمين تبدوان من بعيد وكأنهما ترتديان صندلا، وتبدو اليدان وكأنهما قد ألبستا قفازين برتقاليين أو برونزيين.

أخيرا، وفي الصباح الباكر من يوم الزفاف، ترتدي العروس ثياب زفافها، ويسرح شعرها في ضفائر كالتي نطلق عليها اسم الضفائر الإغريقية. وتلصق قطع من الحلي الذهبية على جبينها وصدرها، ويراعى أن لا تحجب أي من النجوم أو النقوش التي عادة ما تكون قد وشمت على وجهها أو صدرها خلال طفولتها. من الشائع جدا وجود خط منَقّط أزرق اللون يحيط الشفاه، وكذلك الحال بالنسبة للبقعة الدائرية التي عادة ما توشم في مركز ذقن المرأة. كما يضاف أحمر الخدود لإضفاء اللون الوردي على الوجنتين إذا ما لزم الأمر.

تتعرض انجلينا لمشاكل جمّة مع الأكليروس (رجال الدين المسيحي-المترجم) في حيفا

بسبب ترويجها لمستحضرات التجميل هذه ، والتي وبطريقة أو بأخرى ، تساعدها على تدبر أمورها وتوفر لها دخلا كفيلا بأن تحيا حياة كريمة. فتنتقل من كنيسة إلى أخرى سعيا للغفران ، معلنة أنها أرثودوكسية أحيانا ، أو من رعايا طائفة اللاتين ، أو طائفة الروم الملكيين الكاثوليك في أحيان أخرى ، وكل ذلك يعتمد على سماحة ورحابة صدر الكاهن في الطائفة المعنية.

تتشبث النساء العربيات كثيراً بعادات البلاد القديمة ولا يتخلين عنها ، مع أخذ الجهود التي يبذلها رجال الكهنوت في هذا الاتجاه بعين الاعتبار.

عبثا تحاول الكنيسة الكاثوليكية الشرقية إدانة البدع المستحدثة وتهدد بفرض عقوبة الحرمان الكنسي على النساء اللواتي يقمن بوشم أبدانهن أو يستخدمن الكحل أو الحناء أو أحمر الشفاه. وتواصل النسوة استخدام مستحضرات الزينة والتجميل هذه ، لقناعتهن الراسخة بأنها تزيد من جمالهنّ ومن مقدرتهن على لفت الانتباه وجلب الأنظار ، كما لم يأت الحظر الديني المفروض على إقامة وتنظيم المواكب الصاخبة في حفلات الزواج والجنائز بأي نتيجة تذكر أيضا ، بسبب اقتناع الناس بنجاعتها. إن الاحترام الذي يبديه الناس لعاداتهم وتقاليدهم أكبر بكثير من إيمانهم ومن خوفهم من الكنيسة. واذا ما استمر الكهنة بالتلويح بالحرمان الكنسي كعقوبة لهذه الأفعال ، فسينتهي بهم الأمر بفقدان رعايا أبرشياتهم وطوائفهم ، وهذا ما يجبرهم على أن يكونوا متساهلين ، وهذا هو السبب الذي جعل المسيحية الشرقية بشقيها الكاثوليكي والأرثودكسي ، تمتزج بشكل غير معقول ، بممارسات وطقوس قديمة لدرجة لا يمكن فيها تتبع أصولها أو منابعها.

لا تقتصر الصعوبات التي يجب على الكهنة التعامل معها على هذه المعضلة في الخدمة الرعوية التي يؤدونها للنساء في طوائفهن فحسب.

ففي العام 1859 عرضت في أسواق حيفا كمية من القفازات النسائية السوداء التي جلبها بائع جوّال من بيروت ، وسرعان ما اعتبرتها النساء العربيات إضافة مهمة لإناقتهن ، وكن فخورات جدا باقتنائها كجزء مكمل لزينتهن ، وقمن بارتدائها وباستعراضها بزهو عند ذهابهن للكنيسة. فما كان من كاهن الطائفة الكاثوليكية إلا أن أدان هذا الفعل من على مذبح

الكنيسة، وأفتى بحرمة ارتداء قفازات اليدين أو أية إضافة كمالية باذخة وثمينة على اللباس التقليدي للنساء، كما حذرهن من مغبة إظهار أي جزء من الزينة أو الزخرفة التي تغطي أغطية رؤوسهن داخل حرم الكنيسة!

بعد بضعة أيام، خضت في محادثة شيقة للغاية مع الكاهن الذي أفتى بحرمة هذه المستلزمات، والذي أوضح لي الأسباب التي دعته إلى إصدار هذه الفتوى الغريبة ضد ارتداء كفوف اليدين. فقال إنه يرى ضرورة للتحقق، إذا أمكن، من غزو الذوق الغربي وتأثيره على النساء العربيات، لأنهن اذا ما اتبعن النمط الغربي في اللباس وفي الأزياء، والذي يتطلب تغييرات سريعة ومتكررة تطرأ على أنماطه وأنواعه باستمرار، فسيترتب عن ذلك ارتفاع كلفة جهاز العروس لدرجة لا يتمكن فيها الشبان صغار السن من الزواج، وسينخفض عدد الجيزات المبكرة، وهو الأمر المرغوب جدا في الشرق. إن أغلى مكونات الجهاز الأصلي للعروس العربية يدوم للعمر كله، وهي قطع تتوارثها الأجيال، بينما يكون من المحتم تغيير وتجديد الأزياء النسائية الغربية سنويا. كان حديث هذا الكاهن في غاية الصدق، فهو رجل عربي وزوج وأب لعائلة كبيرة من البنات. من الجلي أن تأثير الكهنة يكاد لا يذكر عندما يتعلق الأمر بشؤون الموضة والأزياء. في البلدات التي يحتك العرب فيها ويتعايشون بكثافة أكبر مع الأوروبيين، يلاحظ أنهم بدأوا تدريجيا بتبني بعض سلوكياتهم وتقليد عاداتهم في الوقت نفسه الذي صاروا يتخلون فيه تدريجيا أيضا عن عاداتهم وأنماط سلوكهم المحلية.

في الأول من تشرين الأول/ أكتوبر، جاء إعلان النصر في حرب القرم وأقيمت الاحتفالات من أجل ذلك في عكا. أطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة خمس مرات خلال النهار، وأنيرت البلدة في الليل، وأطلقت الألعاب والمفرقعات النارية من على التلال المحيطة بالخليج. وفي حيفا، استخدمت كميات كبيرة من الذخيرة التي تم الحصول عليها مؤخرا في الاحتفال، وقد أنيرت مآذن الجوامع ومباني القنصليات، واستعرنا نحن قناديل من الكنيس اليهودي لتزيين وإضاءة سارية العلم الإنجليزي!

كان المكان يضّج بالحركة في المساء. فخرجنا بصحبة صالح صيقلي ومحمد بيك، وهو وجيه مسلم وسيم واثنين أو ثلاثه من أصدقائه. كان يوسف يتقدمنا حاملا مشعلا من أجل

مسيرنا ، فكان النور المنبعث منه يسقط بين الحين والآخر على برك موحلة ، ومجارير قذرة لمياه المزاريب المنسابة في الشوارع ، وأكوام من الخضراوات المتعفنّة كنفايات ، بحيث لم يكن من الممكن الاستغناء عن نوره. شققنا طريقنا عبر أزقة البازار الضيق والسيء التصميم والبنيان ، ولكن الجيد التزويد والتموين ، والذي عادة ما يخلو من الناس مع مغيب الشمس. لكن دكاكينه كلها كانت مفتوحة في تلك الليلة. وكانت الغلايين والأحذية والنعال الحمراء والصفراء ، والشباشب المطرّزة وأجواخ مانشستر ، والحرير الدمشقي ، وأقمشة الكتان ذات اللون الأرجواني والشالات والأزيار والجرار والأباريق ، والقناديل والسُّرج وأواني الطبخ ، والفاكهة والحلوى وعينات من الحبوب ، قد عرضت في الأنوار الصادرة عن مئات المشاعل. كانت مجموعات من الرجال العرب في ملابسهم الخاصة بالأعياد يقفون أمام الدكاكين كافة ، اما في المقاهي ودارات القهوة ودكاكين الحلاقين ، فقد اجتذب الحكواتيون والمغنون حشودا من المستمعين الأوفياء. وكان وابل من حبات الحلوى يتطاير وينهمر من جهة إلى أخرى في السوق ، ليلتقطها الأولاد زاحفين على الأرض لجمعها.

أمضينا الليلة بصحبة محمد بيك وصالح وبضعة أصدقاء آخرين ، وسأل أحدهم عن طبيعة الروايات العاطفية والرومانسية التي يفضلها الشعب الإنجليزي. كنا قد فرغنا مؤخرا من قراءة جين إير ، فترجمها أخي لهم محاولا اختصارها وتكييفها لتتماشى مع الإدراك العربي. أبدى ضيوفنا المستمعين اهتماما كبيرا دعاهم لقضاء ساعة أو ساعتين لبضع ليال من أجل سماع الرواية حتى النهاية. أنا أذكر هذه الحادثة ، نظرا إلى أنه وبعد مرور عامين ، وخلال تجوالنا في المناطق الداخلية من فلسطين ، سمعنا هذه القصة ، وقد تعرضت لبعض التغييرات والتعديلات من رجل عربي رواها بشكل جميل دون أن يعرف شيئًا عن مصدرها. فتتبعنا مصدرها إلى أحد الضيوف الذين استقبلناهم في تلك الليلة. قد يصاب جامعي المرويات العربية بالارتباك في المستقبل لدى سماعهم للنسخة الشرقية من هذه الرواية العاطفية ، التي لا علاقة للشرق بها على الإطلاق ، وربما يتخيل بأنه اكتشف أصل الحبكة الروائية لقصة جين ويسلب منها جماليات العزلة المفترضة ليوركشاير ، على حساب السمعة التي نالتها الرواية في مجال تأثيرها الجميل وأصالتها. أما خرافات ايسوب ، التي ترجمناها

بالأسلوب الحر نفسه ، فقد أسعدت أصدقاءنا العرب كثيرا ، خصوصا مع استعمال الرسومات الإيضاحية. كما أصابتهم خرائطنا بالذهول ، وأثارت اهتمامهم وفضولهم ، واقتنعوا بها تمام الاقتناع عندما اكتشفوا أن غريبة مثلي ، يمكنها تحديد أسماء وأماكن معظم البلدات والقرى الواقعة على بعد أميال في المناطق المجاورة ، عند استعانتها بخريطة فلسطين.

كان ضيوفنا المسلمون خجلين في بادئ الأمر ، وكانوا بالكاد يغامرون بمخاطبتي مباشرة ، لأنهم غير معتادين على رؤية نساء عدا زوجاتهم وجواريهم وخادماتهم ، كما لم يسبق لهم أن شاهدوا امرأة مسيحية على الإطلاق. كنت قد نصحت بتفادي لقاء أي من ضيوف شقيقي المسلمين ، لسبب وحيد هو أنهم يعزلون أقاربهم من النساء ، لكننا لم نرغب بأن نتّبع المبدأ السائد لدى الشرقيين ، والقاضي بعدم الاختلاط بين الجنسين دون أن نكون مضطرين لذلك ، وقد حظيت بمعرفة الكثير من الأمور المثيرة للاهتمام بفعل اختلاطي بهم. وكانوا يتعاملون معي بقدر كبير من الاحترام وشهامة الفرسان.

أما المسيحيات المشرقيات ، اللواتي يحجبن أنفسهن عن الرجال المسلمين بالحيطة نفسها التي تتوخاها السيدات العربيات الأصيلات ، فقد أصبن بالذهول ، وأخبرنني بأن رؤية الرجل المسلم لإناث من خارج عائلته ، أمر يتنافى تماما مع العادات والتقاليد المرعية عند المسلمين ، لأن أحكام شريعتهم تحظر عليهم هذا. انتهزت الفرصة الأولى التي أتيحت للاستفسار عن هذا المفهوم ، وعندما اجتمع في بيتنا رجلان أو ثلاثة من أكثر أصدقائنا المسلمين علما وذكاء في إحدى الأمسيات ، قلت لهم بأن لدي سؤالاً مهماً أرغب بتوجيهه لهم. بدأت كلامي بتذكيرهم بأن لا العادات المرعية في بلادي ولا ضميري يمنعانني من لقاء إخواني من بني البشر. بل على العكس تماما ، فقد تعلمت أن أحب كل الناس إدراكا مني بأننا ننتمي جميعا إلى العائلة نفسها ، بأننا أبناء إله واحد خلقنا بإرادته جميعا. وتابعت كلامي قائلة: هل هناك قانون ، مقدس وملزم بالنسبة لكم ، يحظر عليكم محادثة أو الالتقاء بنساءٍ من خارج وسطكم العائلي ؟ إذا وجد مثل هذا القانون ، فلن أطلب منكم عصيان نصوصه ، بل سأساعدكم على احترامه وأحتجب عنكم

بدا عليهم الذهول من هول الصدمة ، ولكنهم شرحوا لي وأكدوا عدم وجود قانون من هذا

النوع بشكل قاطع ، وبأن سلطة العادات والتقاليد هي التي تجبر المرأة على البقاء حبيسة أجنحة الحريم في البيوت. قال محمد بيك إن نساءهم لسن مؤهلات تماما للخروج للمجتمع في الوقت الراهن ، ولن يعرفن كيفية التصرف أمام الغرباء. إذا منحناهم حريتهم ، مش رح يعرفوا يتصرفوا فيها ، روسهم مصنوعه من الخشب ، مش مثلك ، لما تحكي ، بننسى أنك مرّه ، وبنحس حالنا عم نسمع كلام واحد شيخ ، المعرفة والحكمة ضروريين مشان يعيش الواحد في هاي الدنيا ، نسواننا وبناتنا ما عندهم لا معرفة ولا حكمة. خليهم حكيمات ، بنعطيهم حريتهم ساعتها

برضا تام عن هذه النتيجة ، تابعت الالتقاء بهم ، ولم أشعر بالندم على ما قمت به مطلقا. أعتقد بأنني أعطيتهم تصورات وأفكار جديدة عن الإمكانيات والمقدرات الكامنة لدى النساء ، والتي يمكن تنميتها وتطويرها مع مرور الوقت.

دعاني ياسين آغا ، وهو احد أكثر الضيوف ترددا على منزلنا ، لزيارة عائلته ، فذهبت أنا وأخي. كان الآغا وأبناؤه وبعض الرجال المسلمين في استقبالنا في قاعة عَقْد فسيحة ، ثم طلب ابنه البكر مرافقتي إلى جناح الحريم ، وهو الجزء المخصص حصريا للنساء من المنزل. فاصطحبني عبر ساحة صعدنا منها سلالم قادتنا إلى غرفة واسعة وأنيقة كسيت أرضيتها بالرخام ، وكان فيها مجموعة من النساء بانتظار قدومي للترحيب بي. فقدمني إلى جدته وهي امرأة متقدمة بالسن تكاد تكون عمياء ، ووالدته قبل أن يعود أدراجه من حيث أتينا. كن يرتدين سترات وبناطيل طويلة من القماش العادي. ثم اصطحبنني إلى الشقة الداخلية للجناح ، حيث كانت زوجة أصغر سناً للآغا وقد تزينت بالمناديل المطرزة والمجوهرات والأزهار ، جالسة بصحبة عدد من الأطفال والجواري والخدم. وبدا أن الأخيرين يحتلون مكانة تقارب المكانة التي تحتلها سيدتهم ، إلا أن بعضهم كانوا قذرين وغير مرتبين ويرتدون ثيابا رثة. اضطرمت قطع الجمر في كانون وضع في مركز هذه الغرفة ، وكان طفل رضيع مريض بالحمّى قد وضع على مرتبة في أحد أركان الغرفة. كان هواء الغرفة جافا وحارا فواجهت صعوبة في التنفس ، خصوصا عندما تحّلقوا جميعهم من حولي. تفحصوا ثوبي بفضول شديد ، ولولا الممانعة التي أبديتها بلطف ولكن بحزم ، لجرّدوني من ثيابي ، فقد كن

تواقات لمعرفة الطريقة التي صُمِمَت وحيكت ملابسي فيها. وكّن يربّتن عليّ ، ويمسّدن شعري ، ويطلقن علي مختلف أسماء الحيوانات الأليفة. سألنني عما إذا كنت مخطوبة ، وما إذا كان أخي يمتلك حريما ، وما إذا كان جذابا ووسيما. وعندما نزعت قفازاتي الخفيفة ، شرع أحد الأطفال بالبكاء والعويل وهو يصرخ: شوفوا ، الغريبة عم تسلخ جلد إيديها ثم قدموا لي الليمونادة والحلوى ، وقامت عبدة سوداء بإعداد القهوة وهي جالسة على الأرض بالقرب من الكانون. دارت الأرجيلة والغلايين الطويلة بين الحضور. وكان للأرجيلة التي دخّنتها مبسما جميلا مرصعا بالمجوهرات ، أرسلها الآغا خصيصا من أجلي. أخبرتهم بأنني تعلمت التدخين في بلادهم ؛ فالنساء في إنجلترا لا يدخن. ثم أخذوني إلى غرفة ملأى باللحافات والفرشات التي غطي بعضها بوجوه من الحرير. سألنني إذا ما كان بمقدوري أن أعمل ، وفوجئن عندما أبلغتهن بأنني أخيط ثيابي كلها. واخبرنني بأن كل ثيابهن تقريبا تتم حياكتها عند الخياطين ، وبأن مراتبهن ولحافاتهن والأرائك الموجودة في مجالسهن يقوم المنجدون بعملها ، لذلك فمن النادر أن يقمن بأنفسهن بأي من أشغال الإبرة أو التطريز. عاد الابن الأكبر الذي كان بمثابة دليلي لمرافقتي بعد ذلك ، وقادني إلى غرفة صغيرة وفخمة كان في كل ركن من أركانها الأربعة ، سعفات نخيل بارتفاع 12 قدما على الأقل ، وكانت عناقيد التمر الممتلئة تتدلى من دعامات السقف.

اتجهت بعد ذلك لزيارة محمد بيك ، وقد اكتفى بزوجة واحدة فقط ، وهي فتاة شابة لطيفة المعشر ، كانت هي وطفلتها الرضيعة تحظيان بالرعاية الخاصة لأم محمد بيك ، وكانت واحدة من أكثر السيدات العربيات التي رأيت وقارا ورزانة.

كانت مريم ، الزوجة اليافعة ، ترتدي سترة قماشية غامقة وبنطالا قطنيا وردي اللون. كانت الأوشام تغطي وجهها. وأحيطت شفتاها الغليظتان بصف من النقاط الزرقاء ، ونقشت نجمة على جبهتها وهلال صغير على ذقنها. وكانت حواجبها محدّدة بدقة ، ورموشها طويلة وجميلة. بينما حملت على خاصرتها تحت زنارها ، علبة ذهبية على شكل هلال مزخرف بنقوش متنوعه وكتابة بالخط العربي وهو ما كانت تعتبره تعويذتها الفعّالة.

ارتدت ابنتها الصغيرة طاقية حريرية خضراء اللون ، مزينة بعملات ذهبية وخيوط من

اللؤلؤ ، وبخرزة زرقاء لإبعاد الشر الناتج عن عين الحسود. وكان رسغا قدميها محاطين بخلخالين من الفضة عُلقت عليهما أجراس صغيرة ، وأخذت تتبختر فيهما على الأرض المفروشة بالحصائر لكي تسمعنا صوت خشخشتهما. كانت ترتدي سترة ضيقة من الحرير الأخضر ، وبنطالاً تركياً طويلاً ، أحاطته بشال أحمرٍ صغير قام مقام الزنار.

أحببت هولاء الناس كثيرا ، وقمت بزيارتهم مرات عديدة. وذات زيارة ، بعد انقضاء عامين على زيارتي الأولى لبيتهم ، أخبرتني مريم بأنها تخشى أن زوجها يبحث عن زوجة جديدة. حيث علمت بذلك من بعض النسوة اللاتي سمعن هذه الإشاعة خلال وجودهن في الحمامات التركية. وقالت: صار لي مع البيك وإمه اربع سنين ، وكنت مبسوطه كثير طول هاي السنين ، بس رح أبطل سعيده إذا جاب عروس جديدة للبيت ، رح تسرق روحه مني ، إحكي معه يا أختي مشان ما يتزوج مره تانية ، رح يسمعلك ، لأنه كلامك دررٌ ولآلئ

تأكدت بعد ذلك من صحة كلامها ، إذ إن محمد كان يتفاوض على الزواج من امرأة من عشيرة من المتاولة ، وهو الترتيب الذي باء بالفشل بعد فترة قصيرة ، نظرا لأن عائلة البيك أو العشيرة التي ينتمي إليها دخلت في نزاع مع المتاوله ، ما نتج عنه عدم إمكانية اتمام الزواج. لم يكن محمد قد رأى السيدة على الإطلاق لذلك كان من السهل عليه نسيان الأمر برمته ، بينما فرحت مريم فرحا كبيرا بذلك.

أما جناح الحريم الثالث الذي قمت بزيارته فقد وجدت فيه أربع زوجات يعشن سوية برضا وسعادة تامة. وكن يحظين بمعاملة حسنة ودلال زائد ، وغالبا ما كان يسمح لهن بالذهاب إلى الحمامات التركية ، ولزيارة أجنحة الحريم في البيوت الأخرى ، مع توفير الحراسة المناسبة.

كان زوجهن ، الشيخ عبدالله ، يحتفظ دائما بالعدد الذي تتيحه الشريعة من الزوجات ، أي أربع زوجات ، فإذا ما توفت إحداهن ، يقوم على الفور بملء المكان الشاغر ، ومع أنه كان ما زال في ريعان الشباب ، إلا أنه كان قد تزوج سبع نساء. وقد تأكدت منهن بأنهن يحصلن على الحظوة والمكانة الخاصة بالتناوب ، وذلك لبضعة أيام أو لأسبوع كامل. تمنح الزوجة صاحبة الحظوة لقب حاملة المفاتيح وذلك لأنها وخلال فترة حكمها القصيرة والمؤقتة ،

ترتدي أفضل ثيابها- تكون سيدة قاعة الجلوس- والمرأة المفضلة عند سيد الحريم. بينما تتفرغ الأخريات للطبخ والواجبات المنزلية الأخرى. كان من الجلي أن هذه العائلة بالغة التنظيم ، ولم ألحظ وجود أية ضغائن بين الزوجات ، على الرغم من أن أصغرهن وأكثرهن جمالا لم ترزق أطفالا ، بينما أنجبت أكبرهن ، وهي سيدة من نابلس ، ثلاثة أولاد ، ورزقت كل من الزوجتين الثانية والثالثة والقادمات من صيدا ودمشق ، بولد وبنت لكل منهما.

يبحث الشيخ عن الزوجات عادة من بلدات عديدة ونائية. ما إن يتم الزواج ، حتي يكون من النادر ، إن لم يكن من المستحيل ، أن تتصل الزوجة بذويها من جديد ، لذلك ولعدم وجود أقارب لأي منهن في حيفا ، فمن الطبيعي أن يتعاطفن مع بعضهن البعض كغريبات في مكان غريب. لا توجد خلافات قديمة يمكن أن تندلع من جديد ولا مشاعر غيرة متبادلة يمكن تجددها. بل على العكس ، فهن يجدن أمورا مستجدة ذات اهتمام مشترك تساعدهن على التواصل. ربما كان هذا هو السبب الكامن وراء الانسجام الحاصل بين حريم عبدالله ، والذي لم أر له مثيلا في أي من البيوت التي زرتها (16).

الغرفة الرئيسية للبيت كانت طويلة وضيقة تنتشر المشربيات على ثلاثة من جدرانها. يعتبر الديوان (المجلس) المرتفع بعض الشيء في نهايتها ، مقعد الشرف ، حيث يجلس الشيخ دائما. وانتشرت مراتب رفيعة منجدة ووثيرة على الأرض بالقرب من جدران الغرفة.

مضى على معرفتي لهذه الأسرة ثلاث سنوات ، عندما كنت جالسة برفقة الزوجات الأربع وأطفالهن وعبيدهن ، لنفاجأ جميعا بقدوم الشيخ نفسه إلى جناح الحريم. نهض الجميع حين دخوله. جلس بقربي على المجلس. ولم تجرؤ أي من النساء على الجلوس قبل أن يأمرهن بذلك.

صرن يتسابقن على خدمته. وضعت إحداهن وسادة الظهر بحنان ، وناولته الأخرى كأس الشربات ، واستحوذت المحظية من بينهن على شرف إعداد وإشعال غليونه. كان خلال حديثه معهن مؤدبا وحنونا ، وداعب أطفاله بمحبة. كان يرتدي ملابسه المنزلية حيث ارتدى ثوبا طويلا يسمى القمباز ، مغزولاً من وبر الماعز الأبيض ومخططاً بنسيج حريري أبيض أيضا تعلوه سترة بليسية طويلة ذات لون فاتح ، هُدبت حوافها بالفراء وعمامة كبيرة بيضاء من

الموسلين، وخف أصفر مدبب من مقدمته من دون جوارب.

سألته عما إذا كان يقتني الكتب، فأمر أحد أبنائه بأن يحضر لي كافة الكتب الموجودة في المنزل. وسرعان ما جاء عبد يحمل دستة من المجلدات التي يعلوها الغبار تضم نسخا من القرآن محفوظة بعناية، وكتباً في الطب والسحر، ولكن كتابه المفضل أحضرته إحدى الزوجات. كان مجلدا ضخما غير متناسق الصفحات يضم بين ثناياه تفاسير مسهبة ووافية للأحلام والطوالع من الأنواع كافة. لقد كان في واقع الأمر قاموساً وافياً للعرافة وقراءة الطالع. فهرست محتوياته حسب الحروف الأبجدية، وخطت بحروف كبيرة بالحبر الأحمر، وكانت حواشي الشروحات مكتوبة بالحبر الأسود. أوراقه كانت مصقولة وثخينة وذات لون أصفر، بحيث اعتقدت للوهلة الأولى أنها كانت مصنوعة من جلد الحيوانات. أخذ الشيخ يقلب صفحات كتابه ثم بادرني بالقول: شو اللي شفتيه بمنامك آخر مره يا ستي؟ فأجبته فورا: كنت ماشيه جنب البحر عند نهر كيشون وكنت تعبانه كتير، بعدين وقف قدامي فرس أبيض عليه سرج كأنه كان يقلي اركبيني، ركبته وركضت فيه وحسيت حالي طايرة بالهوا، عبين ما صحيت من النوم صاحت النسوة قائلات: هذا حلم حلو!. وبدأ الشيخ بالبحث في قاموسه عن كلمات فرس أبيض وشاطئ البحر وبعد قليل من التأمل أكد لي بأن حلمي كان مناما جيدا جدا، وأنه وبالرغم من الأخطار الكبيرة التي قد تحدق بي، إلا أنني ساتمكن من النجاة منها بكل تأكيد. لم تكن أي من نسائه تتقن قراءة ولا حتى حرف واحد، وإذا ما كان لدى أي منهن ما يغريها على تعلم القراءة، فلا بد أن تكون رغبتهن في قراءة هذا الكتاب هي السبب، الذي كن يستمعن لكل سطر من سطوره بانتباه وتركيز شديدين.

أحضرت صينية من الحلوى والمكسرات والفاكهة وغيرها من الأطباق للغرفة. أكل الشيخ معي ثم غادر المكان؛ إذ لا يمكن لأي من النسوة أن تأكل شيئا بحضوره. لم يسبق لي أن شهدت مناسبة تأكل فيها سيدة عربية في حضور الرجال إلا لدى الأسر المتأثرة جدا بعادات المجتمع الأوروبي. تبرعت هولاء النسوة جميعا في عمل وتحضير المأكولات المحفوظة والمربيات والحلوى وفي طهي وإعداد أطباق اللحوم، ويبدو أنهن أمهات متفانيات للغاية. بدا الأطفال الصغار في غاية السعادة، بينما كان الأولاد الأكبر سنا يبدون شبابا أذكياء

وحسني الهندام والمظهر.

بالرغم من المرح العفوي الذي امتازت به تصرفات النساء ، إلا أنني أحسست بفقدان شيء ما. لقد كان تطور هولاء النسوة مقتصرا على الشطر المادي من شخصياتهن فقط ، كما كان تطورا متفاوتا ونسبيا ، وهو الأمر الذي يؤكد آراء الرجال المسلمين حول أن نساءهم بحالتهن الراهنة غير مؤهلات للانخراط في المجتمع. تعيش النسوة في بعض أجنحة الحريم حياة في غاية البؤس ، ولا يشغلهن شيء سوى التجسس على بعضهن البعض. يكون الرجال المقترنون بزوجتين مضطرين أحيانا لإعالة وفتح بيتين منفصلين درءاً للمشاكل. الغالبية العظمى من الرجال المسلمين لا يقترنون بأكثر من زوجة واحدة.

تنشب الخلافات بين الزوجات في العادة بسبب الغيرة المرتبطة بجنس المواليد. تنظر الأم التي لا تنجب سوى الإناث بعين الغيرة والحقد إلى الأم التي ترزق بمولود ذكر. أستطيع الآن فهم مدى القنوط واليأس الذي عاشتهما حنا عندما سخرت منها ضرتها فننه وتضرعها باكية لله عندما اعتقد عالي (إيلي ، كبير كهنة الهيكل-المترجم) خطأ بأنها كانت تحت تأثير السُّكر الشديد. كما أنني أستطيع سماع صوتها وهي تصرخ فرحا وسرورا بمقدم ابنها صموئيل ، بكلمات حمدٍ وامتنان أملتها عليها أقوى مشاعرها الغريزية.

توقعت الالتقاء بعائلات كبيرة جدا في البيوت التي تضم زوجتين أو أكثر ، ولكن وبشكل عام ، لم يكن الأمر كذلك. فعدد الأطفال في الأحياء المسيحية واليهودية يفوق عددهم في أحياء المسلمين بأضعاف. يتاح ليهود بلاد الشام اتخاذ زوجة ثانية إذا كانت الزوجة الأولى عاقرا.

في أوائل شهر أكتوبر ، ذات ظهيرة لطيفة ، خرجت مع أخي إلى إحدى بيارات الفاكهة الواقعة خارج حيفا. شققنا طريقنا بحذر واحدا تلو الآخر عبر مجاز ضيق جدا تحف به أشجار الكمثرى ، ومررنا بجوار عرزال صغير بُني من الطين والحجارة ، كان مسكنا لبستنجي البيارة وأسرته. وقد كانوا مصريين ، إذ يعتبر المصريون أكثر مهارة ودراية من العرب في أعمال البستنة والزراعة. نتيجة لعنايته بالأرض ، ازدهرت أشجار التين والرمان واللوز والخُّمان والزيتون والتمور والليمون والشادوك (ليمون الجنة) ، أو كما يسمى عند العرب- الليمون

الحلو ، والخيار والقثاء من مختلف الأنواع والأشكال. مع ذلك ونظرا لأن كل المنتجات والبضائع التي تباع في السوق تخضع للتسعيرة الإجبارية التي تفرضها الحكومة ، فإن روح المبادرة والمنافسة بين البستانيين باتت على وشك الأختفاء ، ولا يتم إطلاق أية مبادرات لتطوير وتحسين جودة الفواكه اللذيذه أو الخضروات الشهية التي تزخر بها البلاد ، وبالتالي ، صار الكم لا الكيف هو كل ما يشغل بال الفلاح العربي.

جلست امرأة عربية مسّنة على حصيرة بالية تحت شجرة زيتون في منتصف البيارة. اعتمرت غطاء رأسها الأبيض بحيث يظلل عينيها اللتين كانتا تعانيان من الالتهاب. امتلأ رداؤها القطني بالرقع القماشية ، وقد ألقت بعباءة ثقيلة ومخططة على قدميها. كانت تحدث نفسها بكلمات مبهمة وتحرك خرز مسبحة سوداء بأصابعها النحيلة والطويلة بسرعة. كان على مقربة منها ، سقيفة صغيرة بنيت من الحجارة والطين وغُطيت بحصائر عتيقة. لم تكن السقيفة أكبر بكثير من مهدٍ لطفل رضيع. كان من الجلي أنها مخصصة لحماية رأسها ووجهها خلال الليل ، نظرا لوجود فرشات النوم ولحاف ثقيل بالقرب منها. تدلت ملابس بالية من أغصان الشجرة فوق رأسها ، ليس بغرض التجفيف ، بل لأن الأغصان كانت بمثابة المشجب لملابسها ، بينما أدت الشجرة نفسها دور خزانة الثياب. كان هناك حوضان خلف جذع الشجرة ، وبقايا حطب متفحم بين حجرين ، وهو ما كان مطبخها ، ألقينا عليها التحية قائلين: السلام عليكم ولكنها ردت تحيتنا بكلمات حزينة قائلة: فش سلام في حياتي وتابعت التسبيح بمسبحتها دون أن ترفع رأسها ، وقالت بأن عيناً شريرة أصابتها ودمرت قوتها.

اجتذبنا صوت ساحر لخرير مياه متساقطة إلى حاووز حجري كبير ومربع الشكل ، جلس رجال عرب يدخنون ويتحدثون على درابزينه الواطئ. كانت المياه تندفع بقوة عبر القناة بعد أن تتساقط من جرار فخارية كبيرة ربطت بحبال مصنوعة من ألياف النخيل ، من على عجلة ضخمة (الساقية- المترجم). كانت العجلة دائمة الدوران بفعل حركة البغل الذي غطيت عيناه خلال دورانه المستمر حول العجلة ، بحيث تغطس الجرار في بئر لتمتلئ بالماء ثم ترتفع من جديد ، ولتفرغ الماء الذي حملته بداخلها مع الحركة الدائرية للساقية في القناة

وهكذا دواليك ، طالما استمر البغل بحركته الدائرية بسبب ضربه بالعصا التي يحملها صبي حافي القدمين. في أسفل جدار الخزان ، كانت هناك كوُّة تفتح لوقت محدد يوميا ، بحيث تتدفق المياه داخل الأقنية والأخاديد الصغيرة التي تمتد تحت شتلات الخضروات وأشجار الفواكه في البيارة.

بينما كنا نهمّ بمغادرة البيارة ، مر بالقرب منا حمار محمل بقشور الرمان ، وقد فوجئت عندما علمت بأن الصبغة اللامعة الصفراء التي تستخدم في دبغ الجلود تستخرج من هذه القشور.

كنا نسير نحو الرمال عبر المقبرة. غابت الشمس. وقد ابتعدنا عن المتنزهين الذين خرجوا لجولاتهم المسائية بالقرب من بوابة البلده ، والمدخنين الذين جلسوا للتدخين بجانب البئر والبيارة ، عندما شاهدنا على ضوء القمر ، رجلا أسودا شديد البأس يقترب منا ، كان يرتدي أسمالا من الخيش في وسطه ، ويحمل بيده عصا ، أو بالأحرى جذع شجرة هزيلة ، ما زالت تحتفظ بغصنين أو ثلاثة من أغصانها الشوكية. كان طويلا لكن عصاه كانت تفوقه طولاً ، ويمشي بخطىً غير ثابتة ، وسرعان ما عرفنا بأنه معتوه افريقي اشتكى عليه بعض الأوروبيين القاطنين في حيفا للحاكم ، لأنه يذرع الشوارع وهو عارٍ تماما ، فطُرد من البلده على إثر ذلك. تجاوزناه ولكنه تابع السير على مقربة منا وهو يتمتم ويصدر أصواتا غريبة. لم تكن مرافقته لنا أمرا يبعث على الارتياح. فاستدرنا بسرعة وواجهناه ، وقفلنا عائدين باتجاه البلده ، فغير اتجاهه معنا وسبقنا. كنا لا زلنا بين القبور ومع ازدياد الظلمة ، بدت المقبرة أكثر الأماكن التي يمكن تخيلها وحشة ، أرض جرداء ونائية تنتشر فيها قبور من مختلف الفترات الزمنية ، كان بعضها في آخر مراحل انهياره واضمحلاله ، بعد أن تهدمت حجارتها متخذة أشكالا غريبة ومتراكمة في أكوام أغرب ، بينما تغطت بعض القبور بأشجار البلوط القصيرة الغامقة اللون بشكل جزئي ، وتناثرت هنا وهناك بعض الأضرحة البيضاء الحديثة العهد ، والتي بدت وكأنها تضيء بفعل نور يصدر منها. كف الرجل الأسود عن اللحاق بنا بعد منطقة الموت هذه. عندما نظرت للوراء ورأيته يقف هناك بين القبور محركا جسمه وعصاه للأمام وللوراء ، لم يكن بمقدوري سوى أن أفكر بوصف الإنجيل للرجل الذي التقى المسيح على ضفاف بحر الجليل (بحيرة طبريا-المترجم) عندما استقبله رجل من المدينة كان فيه

شياطين منذ زمان طويل وكان لا يلبس ثوبا ولا يقيم في بيت بل في القبور(17)، لم أفترض بأن المعتوه الإفريقي سكنته الشياطين ، ولكنني رجحت إمكانية أن يكون مسكونا بروح انتقامية ، لذلك فقد شعرت بالفرح الشديد لأنني ابتعدت عنه ، وصرت بأمان تام داخل بوابات البلدة.

الفصل السادس

من حيفا إلى الناصرة

في يوم السبت الثالث عشر من تشرين الأول / أكتوبر تأهبنا للانطلاق في رحلة إلى الناصرة ، للقاء السيد فن فيها. انطلقنا في الساعة الثالثة عصرا بمعية صديقنا صالح صيقلي وأحد القواسين وسائس خيل مصري. غادرنا البلدة من بوابتها الشرقية وقطعنا المقبرة ودنونا من سلسلة جبال الكرمل ، محاولين تجنب سفوح التلال بسبب نمو أجمات الأشجار القصيرة والبلوط بكثرة فيها. سلكنا طريقا باتجاه الجنوب الشرقي ، فكانت المنحدرات المتدرجة عن يميننا ، وجرد يعج بالسبخات والبرك التي أينعت فيها الحشائش الخضراء الكثيفة والقصب الطويل ، الذي كان في أوج فترة إزهاره عن يسارنا.

قابلنا في طريقنا قوافل من الجمال المحملة بالحنطة المجلوبة من حوران لحساب تجار حيفا وعكا ، حيث كان حُداتها والفلاحون المرافقون لهم مدججين بأسلحتهم ، وبدوا على أهبة الاستعداد للدفاع والهجوم على حدٍ سواء.

مررنا أيضا بقافلة تبدو مسالمةً أكثر من سابقتها ، لأسرة تقطن القرية التالية ، تتقدمها فتاة صغيرة في السن ترتدي ثوبا عتيقا مفتوحا وقصيرا من الحرير القرمزي المخطط تستخدمه كعباءة ، وتحته ثوب طويل من الكتان الأبيض الخشن ، المحاط أسفل خصرها بشال استخدمته كحزام. وغطى وشاح ليلكي رأسها ووجهها ، فحجب كل معالم الوجه باستثناء عينيها الواسعتين ، وأسدل بارتخاء من الخلف على كتفيها. سارت حافية القدمين ، وحملت حذاءها الأصفر بيديها. كانت تتبعها امرأة تحمل رضيعا بين ذراعيها على ظهر حمار ضخم أبيض يقوده رجل يمشي خلفه مباشرة. تبادلنا التحيات معهم فردوا علينا: ان شالله يهديكو للطريق الصحيح! بعد حوالي الأربعين دقيقة وصلنا إلى عين السعادة ، والتي تغذي أحد روافد نهر المقطّع. تتدفق مياه العين عبر فتحة كهفية عميقة في الجرف الحاد لتشكل خزانا مائيا طبيعيا ضخما تنمو في جواره أنواع متعدده من السرخسيات. أخبرني صالح بأن الشعراء العرب يطلقون على الجدول تسمية ابنة التلال تولى صالح قيادة المجموعة في الأماكن التي كان يعرف مواضع الحجارة الثابتة التي يمكن السير عليها من قبل ، وخضنا في

المياه التي كانت بعمق قدمين في بعض المناطق ، ونحن نوجه خيولنا للمرور بين الصخور والحجارة الضخمة المحاطة بالأشجار الباسقة والنباتات المائية. أعيق تقدمنا بسبب عدد من الأغنام والماعز التي سيقت للسقاية من عين الماء.

رأينا بعد هذه البقعة فوق التلال الواقعة على يميننا ، قرية مسلمة جميلة تسمى كفر الشيخ. انتشرت معرشات صيفية صغيرة من أغصان الشجر والسعفات الطويلة من النخيل وعيدان القصب فوق الأسطح المستوية لبيوتها المبنية من الحجر الأبيض. معظم الفلاحين في هذه المنطقه يبنون مثل هذه الملاذات اللطيفة خلال أيام الصيف. تذكرت عيد المعرشات اليهودي عند رؤيتها.

انشغلت مجموعات من الحصادين في ذري الحنطة. كان أحد الرجال يقذف كومة من الحنطة أعلى ما يمكن في الهواء ، ولدى سقوطها ، تكون الريح قد أخذت معها كل التبن والقش الزائد عن الحاجة. استرحنا لبعض الوقت قريبا من البئر الحجرية الواقعة في منتصف بيارة الزيتون ، فشاهدنا بالقرب منه عددا من الفتيات الشديدات البنية وهن يتسامرن ويتضاحكن. وصلنا بعد دقائق قليلة إلى قرية صغيرة تسمى عين جور (ربما كان المقصود قرية الياجور الواقعة جنوب شرق حيفا-المترجم) ، أحاطتها أشجار النخيل والبساتين الغناء. انعطفنا عند هذه النقطة مبتعدين عن التلال وبدأنا السير في السهل الخصيب.

يحد نهر المقطع خط متعرج من النباتات الخضراء. عبرنا النهر عند بقعة تنساب مياهه فيها بين ضفاف خصيبة ترتفع لعلو خمسة عشر قدما تقريبا ، تحدها أشجار الدفلى ونباتات الترمس البري الطويلة الزرقاء ، وأعشاب العرن بزهورها ذهبية اللون. لم تكن مياه النهر غزيرة نظرا لعدم هطول الأمطار في الجليل منذ زمن طويل ، لكنني تخيلت أن القاع الموحلة للنهر التي بلغ عرضها عشرين قدم تقريبا في هذه المنطقة ، ستقوم بابتلاعنا جميعا.

رأيت هذا النهر في الأوقات التي تنساب المياه فيه بغزارة وسرعة ، بسبب الأمطار التي تصب فيه كسيول آتية من جبال الجليل والكرمل ، حيث يصبح حينئذ: نهر تجري عبره مياه يمكن السباحة بها ، نهر لا يمكن عبور مياهه وكان بمقدوري ان أتخيل جيش سيسرا (قائد

الجيش الكنعاني الذي حارب بني إسرائيل عند نهر المقطع - قيشون حسب العهد القديم- المترجم) وعرباته وخيوله وهي تتقدم بصعوبة على ضفة النهر ، وكيف أن نَهْرُ قِيشُونَ جَرَفَهُمْ. ذلك النَهْرُ القديم ، نَهْرُ قِيشُونَ سفر القضاه 5 ، 12. فعبرنا بسلام ، وتابعنا مسيرنا نحو الشرق لكي نعبر بعض التلال المستديرة المكللة بأشجار البلوط دائمة الخضرة ، والزعرور البري والليلك. رأيت أشجار هذه التلال خلال الربيع في أوج موسم إزهارها وتفتح براعمها ، عندما اكتست الأرض التي تظللها بأزهار الياقوتية وبخور مريم وشقائق النعمان والنرجس. انها واحدة من أكبر غابات البلوط في الجليل ، وتمتاز أشجارها بأوراقها الصغيرة الشوكية وثمارها الكبيرة والطويلة.

يتم اصطياد الفهود وقتلها في هذه المنطقة أحيانا ، سعيا وراء جلدها الذي يستخدم كغطاء لسروج الخيل ، وتنتشر فيها جحور الثعالب ، وتكثر فيها الضباع والقطط البرية وابن آوى والخنازير البرية أيضا. سكان المدن من العرب ليسوا مولعين بالصيد. من النادر الالتقاء بكلب من فصيلة النمرود حاليا إلا في أوساط المستوطنين الأوروبيين.

ترجلنا عن جيادنا في فرجة صغيرة في الغابة ، واسترحنا بالقرب من خيمة منعزلة لأحد الفلاحين ، وتناولنا بعض الفاكهة المنعشة ، لنتابع طريقنا من جديد بعد ذلك. تشتهر تلال هذه المنطقة برجع الصدى فيها ، ويطلق العرب على صدى الصوت اسم ابنة الصوت أطلق مرافقيّ الأعيرة النارية من بنادقهم وأصدروا صرخات قوية فتردد صدى طلقاتهم وغنائهم في أرجاء الغابة ، تنمو الأشجار في الطرف الشرقي من الغابة على مسافات متقاربة جدا من بعضها ، وتتدلى أغصانها إلى مستويات منخفضة جدا ، ما جعلني أمر على فرسي من بينها بحذر ، لكي لا يحدث معي ما حدث لأبشالوم. وجدنا أنفسنا على حافة منحدر مستوٍ وشاهق الارتفاع عند خروجنا من الغابة. وكان سهل مرج بني عامر تحتنا مباشرة ، وقد تغطت نصف مساحته تقريبا بظلال التلال التي كنا واقفين عليها ، بينما غرق نصفه الآخر والتلال المقابلة في أشعة الشمس. أُرشدت إلى موقع قرية نايين التي كانت على مسافة بعيدة منا جهة اليمين.

ثم شرعنا بالنزول عبر طريق ملتوية ، وصارت الأشجار تتباعد عن بعضها البعض أكثر

فأكثر، بحيث لم ينمُ على سفح التلة سوى أجمات صغيرة من الأغصان.

جرت جيادنا خببا عبر الجرود ثم هبطنا عبر ربوة دائرية منخفضة تنتصب عليها قرية بنيت من الغبار والرماد بكل ما تحمله الكلمة من معنى؛ إذ بدت زرائبها وأكواخها الحقيرة أشبه ما تكون بأكوام الغبار، أما من الداخل فقد كانت أفضل بقليل من مكبات النفايات! وكان في الخارج مخلوقات بائسة تزحف بأسمالها البالية وهي بالكاد تبدو كمخلوقات بشرية، ثم تنهض ببطء لتتخذ هيئات غريبة من الوقار والمهابة، لتحدق بنا بعيون حادة ونظرات ثابتة. شاهدنا مجموعة من العجائز منحنيات فوق فتحة مربّعة محفورة بالأرض. أخبرني صالح بأن هذا فرن القرية. اضطرمت النيران في قاع الحفرة. وكان وقود النار يتألف من الخثّ (النباتات المتفحمة-المترجم) وروث البهائم (18) المغطى بالحجارة ليوضع العجين الرقيق عليها وينضج خلال وقت قصير. تكون أرغفة الخبز هذه لدى خروجها من الفرن مقرمشة من الخارج وطرية نسبيا من الداخل، وتصبح بعد مرور يوم على خبزها قاسية كالجلد وصعبة الهضم. ذكرتني النسوة المنحنيات فوق ذلك الفرن البدائي، بثيابهن وطرحاتهن الداكنة الألوان، بمشهد التعويذة في ماكبث كان الأطفال المنتشرون في المكان مليحي الطلعة وإن كانت وجوههم قد لوحتها أشعة الشمس وتلطخت بالأوساخ والغبار. بعضهم ارتدى أسمالا بالية بجميع الألوان، ولكن غالبيتهم كانوا عراة تماما.

نظرنا خلفنا عبر المرج، اختفت الشمس وراء التلال الحرجية واشتعلت نيران الحراسة هنا وهناك فوق الأراضي المستوية من التلال وفي أراضي المرج، كمنارات لإرشاد رعاة الأغنام والفلاحين. التقينا بِثُلَّةٍ من العرب الجلفي المظهر في هذه الأثناء. كان قائدهم ابن ضابط في سلاح الفرسان طُرد من الخدمة في الجيش التركي للتو. وعرف عنه وعن أتباعه بأنهم رجال متهورون مشهورون بمغامراتهم الجريئة. ألقوا علينا التحية وقالوا لنا بأنهم جاءوا خصيصا للقائنا ومرافقتنا حتى الناصرة. كانت هذه أكذوبة تم ارتجالها في اللحظة ذاتها، فلم يكن أحد سوى السيد فن يعرف عن زيارتنا للناصرة، ومع ذلك، فقد استداروا ورافقونا. كان منظرهم رائعا للغاية. حيكت عباءاتهم الضخمة والثقيلة من وبر الجمال وكانت مخططة بخطوط بنية وبيضاء عريضة. اعتمروا فوق رؤوسهم كوفيات صفراء وحمراء- والكوفية عبارة

عن شال يوضع على الرأس كالقلنسوة المحاطة بحبل مزدوج من وبر الجمال (تقصد العقال- المترجم). وبلغ طول رماحهم المزينة في أعلاها بريش النعام اثني عشر أو ثلاثة عشر قدما.

توقفنا بالقرب من عين ماء تزينها السرخسيات وتحيط بها الحجارة التي نمت عليها الطحالب ، واسترحنا لبرهة من الوقت لكي نسقي خيولنا. عندما همّ صالح بالركوب لمتابعة الرحلة ، جفلت فرسه وأطلقت سيقانها للريح واختفت سريعا في غياهب الغسق. قلق صالح كثيرا لأنها كانت فرسه المفضلة ، ولأنها كانت مطيعة جدا لدرجة أنه لم يسبق وأن استخدم الرسن لربطها. قد كانت معتادة على إطاعة سيدها والاستجابة لندائه كالكلب المدرّب. تذكر صالح بأن مسقط رأس الفرس كان في قرية تبعد مسيرة ربع ساعة عن العين ، وهذا ما فسر هروبها المفاجئ. فامتطى حصانا لواحد من مرافقينا العرب وانطلق بها بعيدا. فنجح بالعثور على فرسه واقفة بهدوء وسكينة في باحة الدار التي ولدت فيها ، وقد أحاط بها ملاّكها السابقون الذين أصابتهم الدهشة من ظهورها المفاجئ. انضم لنا صالح من جديد فاجتزنا التلال المحيطة بالناصرة. وكان الرجال الذين تطوعوا لمرافقتنا يتقدمون عنا تارة ويتأخرون عنا تارة أخرى ، وهم يغنون ويهزجون. بدأنا نصعد رويدا رويدا ونُحِس بالنسيم المنعش للجبال ، وكان الظلام حالكا بحيث ما كنت قادرة سوى على تمييز الشخص الذي يتقدمني مباشرة ، والحصى البيضاء التي كانت تقعقع تحت حوافر حصاني ، وألواح الصخور الناعمة التي كان ينزلق ويتعثر عليها بين الفينة والأخرى.

سرت صامتة لحوالي الساعة فوق صهوة حصاني ، من دون أن أعرف وجهتنا على خطى مرشدنا الذي كنا نتبعه بثقة تامة. استيقظت من أحلام اليقظة التي غرقت بها عندما سمعت صوتا يقول: نحن ندخل بيارات الزيتون المحيطة بالناصرة فرأيت سلسلة من التلال ، الشبيهة بمدرج روماني على شكل حدوة الفرس ، وكان بمقدوري أن أميز البلدة من الأنوار الخافتة المنبعثة من نوافذ بيوتها المتناثرة في الوادي والمنتشرة على سفوح التلال. يترك العرب قناديلهم مضاءة في غرفهم طوال الليل لطرد الأرواح الشريرة. هبطنا بشكل مفاجئ بين صفوف من أشجار الكمثرى ، فاستقبلتنا أصوات العواء المرتفعة لقطعان من الكلاب ، مستنشقين رائحة خانقة وثقيلة للغبار والخضروات الفاسدة والمتعفنة في أرجاء المكان.

كانت جملة: ارفعي رأس حصانك عاليا لأن الأرض شديدة الانحدار هنا تهيئني بين الحين والآخر لعبور حافة صخرية حادة أو منحدر ترابي. وصلنا الوادي بأمان أخيرا، واختفى مرافقونا، واتجهنا إلى بيت صالح الرحب ونصف المهجور، والذي أقام فيه حتى وفاة والده قبل بضعة أشهر، حيث ما زال أخوه وشقيقاته الصغيرات يقيمون حتى الآن. قام رجال وأولاد بتنظيف وإعداد غرفتي نوم، وجلبوا بعض الحصائر والفرشات والوسائد ومخدات النوم من جناح آخر من البيت، وتصرفنا نحن على راحتنا. أخبرني صالح خلال العشاء بأن والده، وكان رب أسرة كبيرة، جمع خلال حياته مبالغ طائلة من النقود واحتفظ بها في مخبأ سري، يحتمل أن يكون حفرة تحت الأرض. كان من المتوقع أن يخبر ورثته ذات يوم بمخبأ هذا الكنز، ولكن ولسوء الحظ وافاه ملاك الموت على طريق عودته من طبريا. ولم يكن حوله سوى خدمه وبعض الغرباء الذين لم يكن بمقدوره إفشاء السر لهم، ولم يسعفه القدر ليرسل في طلب أولاده، فمات ومات سرّه معه. قام صالح، ابنه البكر، بالإشراف على عملية بحث دقيقة داخل وتحت المنزل ولكن لم يتم العثور على المال الدفين حتى هذه اللحظة.

من الشائع جدا، خصوصا في المناطق الداخلية من فلسطين، أن يتم إخفاء المجوهرات والذهب بهذه الطريقة، وتكتشف دفائن قديمة ذات قيمة مادية بالغة- وذات قيمة أهم من الناحية الفنية والتاريخية- في كثير من الأحيان.

إن قانون اكتشاف الكنوز في فلسطين- حسب اعتقادي- يمنح ثلث الكنز للمكتشف، والثلث الآخر لمالك الأرض التي عثر عليه فيها، بينما يذهب الثلث الأخير للحكومة.

هناك رجال يمضون معظم سني عمرهم تقريبا بحثا عن الكنوز المدفونة، ويصاب بعضهم بالجنون ويهجرون عائلاتهم بسبب ذلك، وعلى الرغم من كونهم فقراء يستجدون الناس بيتا بيتا وقرية قرية، إلا أنهم يعتقدون بأنهم أثرياء. وهناك صنف آخر يطلق عليهم اسم السحرة -مستحضرو الأرواح- وهم يعملون بطريقة أكثر منهجية ويقومون بالبحث عن الكنوز بطرق غريبة.

فهم يختارون أشخاصاً ذوي ملكات معينة، كالقدرة على رؤية الأشياء المدفونة تحت الأرض

أو في الأمكنة الأخرى ، ولكن هذه الملكات لا تظهر إلا عند استثارتها عن طريق جلسات تحضير الأرواح ، والتي لا يدرك كنهها سوى الباحث المحترف عن الكنوز. فيقوم بإعداد الوسيط كما ينبغي ، ثم يقوم باستدعاء أو استحضار المقدرة على الاستبصار لديه ، وامتثالا للأوامر التي يصدرها ، يتم وصف الأماكن الخفية للكنوز بدقة متناهية. عندما يستيقظ الوسيط ويستعيد وعيه وإدراكه الكاملين ، يكون عاجزاً عن أن يتذكر أياً مما باح به. تعتبر هذه الممارسات أشياء محظورة -حرام- وتتم ممارستها بسرية وعلى نطاق ضيق. كان الناس الذين سألتهم عن هذه الطقوس يتحدثون إلي بخوف وارتباك ، ويشرحونه لي بهمس وصوت خفيض.

لقد عرفت عائلة عربية كانت كل إناثها يزاولن أعمال العرافة. وكن جميعا متوترات وسريعات الانفعال ، كما كانت إحداهن تعاني من اختلالات عقلية طفيفة.(19)

استمر توافد الزوار على البيت لرؤيتنا حتى ساعة متأخرة ، حيث ذاع نبأ وصولنا وانتشر بسرعة في الحي المسيحي في المدينة. جاء جريس اليعقوب أولا بجثته الضخمة ولحيته الرمادية الكثة ، وعينيه اللتين تمتازان بلمعانهما من تحت عمامته الضخمة. انه الوكيل المقيم للسيد فن في الناصرة وهي الوظيفة التي يفتخر بها كثيرا بالقدر نفسه الذي يفتخر فيه بالكلمات القليلة التي يتقنها من اللغة الإنجليزية.

أرشدتني جليلة ، شقيقة صالح الصغرى ذات الوجه الجميل ، إلى الغرفة التي أُعدت لمبيتي. كانت في الحادية عشرة من عمرها تقريبا ، وكان وجهها من أجمل الوجوه التي رأيت في فلسطين. كان مستديرا تماما مع أنف مستقيم وشفاه صغيرة ومحددة ، ورموش طويلة سوداء وحواجب دقيقة وكأنها رسمت رسما. كانت حواف جفونها مخضبة بالكحل ، وهو ما أضفى قوة غامضة على عينيها الواسعتين بلونهما الرمادي ومسحة الحزن التي فيهما. خضبت أظافر أصابعها بقليل من الحناء ، بينما صبغت اظافر أصابع قدميها بصبغة عميقة. اعتمرت منديلا بنفسجيا من الموسلين غطى شعرها الخروبي الناعم ، تقاطعت نهايتيه تحت ذقنها ، ثم رفعتهما وعقدتهما من جديد فوق رأسها. وارتدت ثوباً أخضر زينت حوافه بقماش أصفر مزركش يظهر رقبتها ، والقلادة التي تدلت منها حليّ من الفضة وحجر المرجان.

(أعتقد بأن اللون الأخضر من الألوان المفضلة لدى المسيحيين العرب حاليا ، إذ كانوا ممنوعين وحتى زمن قريب من ارتدائه لأن المسلمين كانوا يعتبرونه لونا ذا قدسية خاصة.)

استيقظت ونهضت مبكرة من فراشي ، بعد أن استرعى انتباهي باب نصف مفتوح لم ألحظ وجوده في ضوء القنديل الخافت في الليلة السابقة ، فتحته فوجدت وراءه ثلاث درجات ضيقات جدا ، ارتفاع الواحدة منها يصل إلى ركبتي تقريبا. فتسلقتها وتلمست طريقي وأنا أعتلي ثلاث درجات أخرى أكثر حِدة من سابقاتها ، وجدت باباً خشبياً قديماً واطئ ، فتحته بشق الأنفس ليقودني إلى سطح مستو ليس له مدخل أخر. كان هذا السطح عاليا ويطل على مشهد ساحر للبلدة ، يتوسطه الجامع بمئذنته المحاطة بأشجار السرو الباسقة ولونها الداكن ، ومباني الدير الواضحة المعالم في الحي المسيحي. كان الضباب قد بدأ بالانقشاع عن الوادي تدريجيا وبالاتجاه نحو منحدرات التلال. وبدت البيوت المربعة والأسطح المستوية المبنية من الحجر الأبيض نظيفة ومتألقة. أما المدينة القديمة فقد بنيت على ربوة ، بينما زحفت الناصرة الجديدة غير المحاطة بالأسوار ، تدريجيا باتجاه الوادي الذي انتصبت في بطنه مبان وبيوت أحدث وأكبر.

انشغلت جليلة الصغيرة مع بعض الخادمات في تحضير الخبز وتقطيع اللحم في الباحة بالأسفل. فرأتني وهرعت من فورها لتحيتي وهي تقول: ان شالله نهارك أبيض ثم علمتني الرد المعتاد على هذه التحية وهو: ان شالله يكون نهارك زي الحليب

كان يوم أحد فذهبنا إلى كنيسة البشارة الكاثوليكية ؛ فعبرنا الصحن الواسع للكنيسة. خصص أحد جانبيه للرجال والأولاد الحاسري الرؤوس ، والجانب الآخر للنساء الراكعات على الأرضية الرخامية في صفوف متتالية. تغطت جباههن والأجزاء السفلى من وجوههن بمناديل من الموسلين والكتان. ورفعن رؤوسهن جميعا للحظة عندما مررنا بجانبهن ، وأومضت أعينهن الداكنة حين رمقننا بتلك النظرات الشبيهة بلمعان البرق ، من تحت جفون أعينهن المخضبة بالكحل ، ليحنين رؤوسهن من جديد ويتابعن صلواتهن.

كانت البطريركية المقدسية للاتين تحتفل بتعميد بضعة أطفال بأبهة غير مألوفة ، نظرا لتواجد شخصيات دينية مهمة جاءت في زيارة من روما ، وقام أحد الرهبان بعزف جميل على

الأورغن ، وكانت الترنيمات المصاحبة في غاية الروعة.

نزلنا لدى انتهاء الحفل لرؤية مغارة مريم في الطابق السفلي تحت المذبح المرتفع للكنيسة مباشرة. جلست على الدرج العريض المؤدي للمغارة بنات عربيات صغيرات من تلميذات المدرسة التابعة للدير. اتسمت تصرفاتهن بالعفوية وشقاوة الأطفال ، وعانت راهبات الرحمة ، وهن الراهبات المسؤولات عنهن ، الأمرين في ضبط سلوكهن والسيطرة عليهن. ارتدت الفتيات أزياءهن الشعبية ، أما الراهبات اللاتي يحظين بمكانة رفيعة ، فقد ارتدين أغطية رأس بيضاء مهدبة من الموسلين السادة ، تعلوها قلنسوات صغيرة سوداء ، وأثواب سوداء في غاية البساطة. بدت أشكالهن في غاية الطرافة ، لكنهن كن مرحات وقريبات من القلب. تتفانى هؤلاء الراهبات في القيام بمهامهم التبشيرية وفي تعليم البنات العربيات. بعض التلميذات كن يتحدثن القليل من اللغة الفرنسية ، لكن المشكلة التي تؤرق الراهبات كانت تكمن في تأمين المواظبة المستمرة للفتيات على الحضور للمدرسة ؛ إذ إنهن متسيبّات صغيرات بائسات.

إحدى الراهبات كانت طبيبة بارعة وجراحة ماهرة ، وهذا ما منحها تأثيرا كبيرا في أوساط السكان المحليين الذين توزع عليهم أدوية يتم استيرادها من فرنسا. ويمكن للحكيم - أو الطبيب- ذكرا كان أم أنثى ، أن يحظى بالقبول والاحترام في أي مكان تقريبا. ولا تعتبر طواقم التبشير المسيحي التي ترسلها روما مكتملة ما لم يكن بين أفرادها طبيب بارع.

أفسحت الفتيات ، بتوجيه من راهبات الرحمة ، الطريق من أجل مرورنا ، فتابعنا نزولنا إلى المذبح في مغارة السيدة العذراء. وهو مبني من المرمر الأبيض الصرف ، ومنقوش بمهارة وإتقان ولكن بتصميم فج من زخرفة الروكوكو. أحاطت به شجيرات الحبق من كل جانب وتألقت من حوله جذوات الشموع. وعلى مقربة من هذا الموضع ، انتصب جزء من عمود من الجرانيت تعتبره التقاليد الرهبانية -وهو ما تؤيده الكنيسة- ركناً من أركان الغرفة التي وقفت فيها مريم عندما ظهر لها الملاك جبرائيل. أما الحجرة نفسها فقد نقلت بفعل معجزة إلى منطقة دالمسيا ، ومن ثم إلى لوريتا حيث يؤمها آلاف الحجاج سنويا. ما زال مطبخ العذراء معروضا تحت كنيسة الناصرة. وتأتي النساء من وقت لآخر ليسجدن على الأرض

ويلطمن على أثدائهن ويتلون الصلاة المريمية (السلام عليك يا مريم) بسرعة وبالعربية ، ثم يقمن بتقبيل ثلاثة مواضع تحددها أشكال زخرفية على الأرض تحت المذبح. أوحت قطع قماش الملون التي غطيت بها جدران الكنيسة بأنها كانت سجاجيد حائطية مزخرفة ، ولم أدرك بأنها كانت غير حقيقية حتى تحسستها بيدي. يوجد في ساحة الدير أجزاء وشظايا من الحجر المنحوت لعمود قديم تستخدم في الجدران الأحدث عهدا (20). اتجهنا إلى مقر البعثة التبشيرية البروتستانتية فاستمعنا للصلوات التي اشترك في أدائها بالعربية ، أطفال وسيمو المظهر وبضعة رجال تبدو عليهم علامات الذكاء. راعي الأبرشية وأساتذتها كانوا المانا ولكنهم من أتباع الكنيسة الأنجليكانية.

ارتدى كافة السكان اللاتين من أهالي الناصرة أجمل ملابسهم في ذلك اليوم ، احتفالا وتكريما لزيارة بطريركهم للبلده. التقينا به وهو يتجول بمعية مجموعة صغيرة من الرهبان والكهنة ، كان رجلا لافتا للنظر بشكل استثنائي ، له لحية يبلغ طولها نصف ياردة على الأقل مقسومة من منتصفها. أما قبعته العريضة الحواف والبالغ قطرها قرابة ثلاثة أرباع الياردة فقد كانت مزخرفة بأزهار اصطناعية ملونة ، وأوراق نباتات خضراء ذات بريق معدني ، واحتشد الناس حوله وتزاحموا لتقبيل يديه والحصول على بركته.

يلبس رجال الناصرة ملابس أنيقة وزاهية الألوان تتألف من ثوب طويل مصنوع من خليط من القطن والحرير المقلمٍ بخطوط رفيعة جدا ، تجمع بين اللونين الأحمر والأرجواني أو الأصفر والبنفسجي ، أو الأخضر والأزرق. ويحيط بالثوب شال يستخدم كنطاق للخصر أو حزام جلدي عريض مخطط يحتوي جيوبا وجزادين. تستخدم الكوفية باللونين الأحمر والأصفر- عبارة عن شال ذي أهداب طويلة معقودة - كعمامة للرأس داخل المدن ، ولكنها عادة ما تستخدم كغطاء اعتيادي للرأس خلال السفر.

أما النساء ، وهن جميلات في العادة بالرغم من شحوبهن ، فيضعن كميات كبيرة من الكحل على جفونهن ، والكثير من الأوشام على أذرعهن ، والقليل منها على وجوههن. غطاء الرأس في غاية الغرابة ، ويتألف من طاقية ضيقة مصنوعة من القماش أو الكتان ، تحيط بها من المقدمة عصبة أسطوانية محشوة وسميكة قطرها إنش أو إنشان ، تغطي الجزء العلوي

من الجبهة وتثبت عبر ربطها بشريطين تحت الذقن مباشرة. تعلق بهذه الأسطوانة عملات فضية مرصوصة بجانب بعضها البعض قدر الإمكان ، مع ترك جزء بسيط غير مغطى من الجبين ، فتتدلى العملات فوق بعضها البعض على جانبي الوجه لتبدو من بعيد وكأنها أجزاء أمامية جانبية لهذا الغطاء. تضع النساء على جبهاتهن عملات معدنية بحجم الكراون أو نصف الكراون (عملة معدنية إنجليزية-المترجم) ، ويضع الأطفال عملات أصغر تكون بحجم الشلن الإنجليزي. تكون مناديل أو براقع النساء من الموسلين المتعدد الألوان أو باللون الأسود فقط ، وتطوى من عند الجبين وصولا لتغطي النصف السفلي من الوجه ، بحيث لا تُظهر سوى عيون المرأة عندما تكون خارج المنزل. عندما تكون داخل منزلها ، ترخي المرأة الجزء السفلي من برقعها تحت ذقنها ، وتبقي الجزء العلوي من جبينها مغطى في معظم الوقت ، لكن البنات الصغيرات في السن لا يتقيدن دائما بذلك. ترتدي النساء سراويل فضفاضة وقمصاناً بيضاء وأثواباً طويلة مفتوحة بالكامل من الأمام ، من قماش قطني مقلم أو من الحرير الدمشقي ، وتحاط بزّنار مشدود تحت الخاصرة.

ذهبت للناصرة مرات عديدة وزرت الكثير من نسائها المسيحيات داخل بيوتهن. اكتشفت بأنهن يقدرن الترتيب والنظافة ، ويفتخرن كثيرا ببلدتهن ، ومداومات على الدعاء والتضرع لِلسِت مريم- السيدة مريم العذراء. الإيمان والتبجيل الذي يحملنه للذخائر المقدسة يفوق التصور. في كل الغرف التي دخلتها ، رأيت أيقونات مقدسة وصوراً صغيرة وعلب صغيرة من الكريستال أو الزجاج تحتوي عظاما وقطعا قديمة ورثّة من القماش.

سألت طفلة صغيرة سبق لها أن زارت حيفا مرة واحدة في الماضي ، ما إذا كانت تفضل حيفا وبحرها الجميل على الناصرة ، فأجابتني على الفور: حيفا مش مقدسة ، بس بلدنا مقدسة ، عاشت فيها ستنا العذراء والمسيح ويوسف. لكن وبالرغم من الشهرة التي تحظى بها الناصرة بسبب قداستها ، إلا أنها أبعد ما تكون عن ذلك عندما يتعلق الأمر بالتشدد الأخلاقي. فالحال في الناصرة تختلف تمام الاختلاف عما عليه الحال في بيت لحم ، حيث يشتهر الآباء والأزواج بانضباطهم وتزمّتهم الشديدين ، وحيث تكون عقوبة الأفعال المرتبطة بتلويث الشرف ، الموت المحتم. لم تمتلك الناصرة سمعة طيبة في أيام السيد المسيح ، وهو الأمر

الذي لم يتطور منذ ذلك الحين كما يبدو!

اكتشفت بأن الشابات في مقتبل العمر بدأن بالاستغناء عن غطاء الرأس المثقل بالعملات، وصرن أكثر ميلاً لارتداء المنديل والطربوش الأحمر عوضا عن ذلك. أتوقع أن يقتصر استخدام هذه الحلي الغريبة والثقيلة على القرى والبلدات الأصغر في الجليل في وقت قريب جدا. لقد عُرضت علي بعض الخلاخل الفضية التي وُصفت بأنها دقّة قديمة، لكن الأساور الفضية والذهبية أو تلك المصنوعة من الزجاج، فهي تشهد إقبالا منقطع النظير. اشتريت واحدة منها مصاغة من فضة مجدولة وثقيلة ربطت بسلسلة من الفضة المشغولة، تنتهي بخاتم عريض رديء الصنع يعلوه فص من المجوهرات. وقد صمم الخاتم ليوضع في سبابة اليد التي ترتديها. أبلغتني إحدى صديقاتي الناصريات، بأن الفلاحين فقط هم من يقدمون على لبس شيء بهذا القدر من الهمجية والتخلف.

لا يعتمد التغيير الذي تشهده الأزياء النسائية في البلدة على التأثير الأوروبي أو الكهنوتي المباشر، بل وببساطة شديدة على الأزياء التي يرتديها المستوطنون والزوار القادمون من مدن وبلدات عربية أخرى، وتحديدا أولئك القادمين من حيفا. إن ما تعرضه البازارات من مجوهرات وطواقي وطرابيش نسائية مهدبة بالحرير مستوردة من استنابول أو مناديل الموسلين الملونة المجلوبة من الجزء الأوروبي من تركيا أو من سويسرا، يزيد من وتيرة هذا التغيير الاجتماعي الحاصل حاليا، فالعرض يخلق الطلب!. في يوم الاثنين الخامس عشر من أكتوبر/ تشرين الأول، قمت انا وأخي وصالح بزيارة لويس خليل، أحد الوجهاء الأثرياء من أبناء الناصرة، الذي فرغ مؤخرا من بناء منزله الفخم من الحجر المصقول. كان قد عاد للتو من رحلة إلى مرسيليا التي قصدها لشراء الأثاث للمنزل الجديد. زُينت الشرفات والقاعات والممرات بأحواض من الزهور والورود والريحان المحاطة بإطارات من الحجر العريض. الأرضيات كانت من الرخام الأبيض والأسود. وازدانت الجدران الداخلية لقاعات المنزل بتصاميم دائرية لأزهار متداخلة هندسيا في إطارات بارزة بعض الشيء. أما الأبواب والنوافذ وغيرها من الأركان الرئيسية في المنزل، فقد عَلتها أطباق مستديرة من السيراميك الأزرق الإنجليزي الصنع، والمستخدم عادة لتقديم أصناف الأجبان، حيث ثبتت بالجِصّ بالطريقة

ذاتها التي تثبت فيها اللوحات الفنية المرسومة على البلاط أو السيراميك. لفت صاحب البيت انتباهي إلى الاستخدام المبتكر لهذه الأطباق المخصصة لتقديم الأجبان. وأخبرني بأنه هو نفسه من قام بوضع تصاميم المنزل وديكوراته الداخلية! كان هذا الأثاث الأوروبي الحديث منسقا ومرّتباً بالدرجة نفسها من التفرد والرقي التي علقت بها أطباق السيراميك الأزرق. أما زوجته وبناته البسيطات للغاية فقد ولّدت بعض قطع الأثاث التي اشتراها من مرسيليا لديهن شعورا بالاستغراب والإثارة ، وبدا أن مشاعر الارتباك لديهن تتفوق على مشاعر الفرح بهذا الأثاث. احتوت غرفة الضيوف الشبيهة بالصالون الفرنسي ، بمراياها ومناضدها الرخامية ، على لوحات جدارية رسمها أحد أبناء الناصرة الذين تدربوا لدى الرهبان الفرنسيسكان ، حيث عمل معهم في اللوحات الجدارية للكنيسة. كان على الأبواب باقات من الورود التي رسمت بكثير من الجهد والتركيز ، لكن الأثر الذي تتركه هذه الرسومات ليس بالمستوى المطلوب.

أمسى مضيفنا أعظم الرجال في بلدته بعد رحلته لمرسيليا ، وبفضل ثروته ورحلته الشهيرة هذه صار الناس ينظرون إليه كنبيٍ حتى في بلده لكن ، وبالرغم من الفخامة النسبية لصالونه ، فإن غرف النساء وأماكن الطبخ ، كانت تفتقر للراحة والترتيب كالبيوت الأكثر فقرا في البلده. ارتدى لويس بذلة سوداء من قماش فاخر-بنطال تركي طويل وسترة ضيقة- شالاً ملفوفاً كحزام للوسط وحذاء لامعاً ، وطربوشاً قصيراً أحمر التف حول قاعدته منديل من الموسلين. كانت قلادة ذهبية بحجم وضخامة القلادة التي يضعها الولاه والحكام تتدلى فوق ملابسه ، وقد وضع العديد من الخواتم في أصابع يديه. إلا أن زوجته كانت ترتدي الملابس التقليدية لأهل الناصرة من دون أي إضافة أو تعديل ، كان من الواضح أنها ليست من هواة الحداثة.

جاء حاكم البلدة التركي للزيارة خلال وجودنا هناك ، وأسّر لشقيقي بأن أهل الناصرة متغطرسون وجسورون لدرجة تمنعه من اتخاذ أي إجراءات ضدهم.

امتطينا جيادنا وسرنا باتجاه الشمال للالتقاء بالسيد فن. انضم إلينا مضيفنا وتبعنا حشد ضخم من الناس كان من بينهم الحاكم على حصان وضع عليه رداء أرجواني مزين بعروق

من الصدف. التقينا بالمجموعة القنصلية بعد مشوار ممتع على صهوات الجياد. نصبت الخيام مع مغيب الشمس وخفق العلم الإنجليزي فوق المعسكر في بيارة زيتون قريبة من البلدة.

دعانا السيد فن في اليوم التالي لمرافقته إلى جبل طابور ، فانطلقنا عند الظهيرة. كان الجو حارا جدا. بهدوء وبصمت شبه تام ركبنا خيولنا نحو الشرق فوق تلال تزينها نباتات الزعتر البري ، وتظللها الشجيرات الشوكية ، عبر وديان خضراء بأكملها لكثرة نبات الشومر الذي أينع في جنباتها ، وأخرى وعرة لانتشار الصخور التي نبتت عليها طحالب رمادية اللون وصفراء بلون الكهرمان. كنا نمر من حين لآخر بين أجمة أشجار عارية من أوراقها ، تغطي كل غصن فيها حلزونات صغيرة بيضاء صالحة للأكل ، وللوهلة الأولى اعتقدت مخطئة بأنها براعم الأغصان. كانت الأزهار الوحيدة التي رأيتها عبارة عن أزهار الوردية وورود هندية صغيرة. صار جبل طابور بأكمله أمام ناظرينا بشكله المخروطي غير المنتظم والمعتم ، يعلو بقية التلال المحيطة به. في غضون ساعة دخلنا نجداً مكسواً بالأشجار. وتكفلت ظلال الأشجار البارده واللطيفة وزقزقة العصافير بتنبيهنا وإنعاشنا ، فتابعنا طريقنا في مجموعات من شخصين أو ثلاثة ونحن نتجاذب أطراف الحديث. وكان جبل طابور ، الذي كنت أتخيله يتراجع للوراء كلما مضينا قدما في طريقنا ، قد صار خارج مرمى نظرنا بالكامل الآن ، ولكن بعد أن قطعنا بعض التلال التي تعلو قممها الأشجار ، والقيعان الجافة لمجريين أو ثلاثة من مجاري السيول التي تخلفها الأمطار ، عدنا لنراه من جديد ، بكامل جماله وأبهته. أسرعنا الخطى فوق منحدر تكسوه الأشجار ثم نزولا باتجاه وادي خصيب ، إلى أن وصلنا سفح الجبل عند الساعة الثانية تقريبا. وصعدنا طريقاً تغطيه الظلال اللطيفة ارتفع بنا تدريجيا إلى أن بلغنا نصف المسافة إلى قمة الجبل ، فاضطرتنا الصخور والحواف الشديدة الانحدار والأبنية القديمة والأغصان المتدلية من الأشجار ، لأن نمعن النظر ونركز في الطريق من أمامنا ، ونحن نتبع خطى القائد بحذر وحرص شديدين. ازدهرت أشجار البلوط ، والقطلب والبطم وأشجار زيت التربنتين-التي تنتج ما يعرف باسم تربنتين فينيسيا ، وأشجار البطم العدسي ، التي تنتج اللبان وأشجار الخروب ، وأحاطت بها وتسلقتها نباتات متسلقة

ومعرشات ذات أوراق لماعة ، ولكن لم تخل نبتة أو شتلة من النباتات التي تحسستها بيدي تقريبا من أشواك بحدة الإبر المستدقة الرأس.

كنا نرى عند النظر من الجهة الشديدة الانحدار ، نسورا أطلقت أجنحتها للريح محلقة تحتنا تماما ، أو مرتفعة صوب السماء لكي تنقض بسرعة من جديد. حلقت نسور سوداء أو بنية فاتحة بأجنحتها اللامعة باتزان مذهل ، لدرجة بدت فيها ساكنة تماما خلال تحليقها اللولبي السريع للأسفل. كانت تحرك أجنحتها من جديد عندما تحلق مرتفعة صوب السماء ، وكنت أحس باضطراب الهواء كلما كانت تحلق على مقربة منا. كدت أقع عن صهوة حصاني وأنا أحاول متابعة تحليقها اللولبي وانطلاقها نحو السماء. فكانت ترتفع أكثر وأكثر بتحليق لولبي إلى ارتفاعات يستحيل فيها رؤيتها بالعين المجردة.

ترجلنا عن جيادنا عند الثالثة والربع على نجدٍ مستوٍ تحيطه كتل ضخمة من الحجارة الصقيلة وأساسات جدران منيعة. إحدى الجهات كان فيها قنطرة يطلق عليها اسم باب الهوا. ورأينا في الجهة المقابلة أطلال كنيسة ومذبحاً داخل محراب ، وكهفاً ذا جدران كلسية ، وخزان ماء محفوراً في الصخور ، وقطعتين أو ثلاث قطع من الأرض المفلوحة على يد ناسك روسي يدعى إيرينا القادم من بوخارست يعيش فوق الجبل منذ أربعة عشر عاما.

رسمت إيرينا في أحدى المرات التي أمضيت فيها نهارا طويلا هنا ، برفقة الكولونيل فريد والبول وعقيلته المصونة ، فسرد لي قصة حياته. كان والده من كبار ملاكي الأرض في القرم حيث ولد هو ، لكنه غادر القرم فيما بعد إلى بوخارست. في إحدى الليالي رأى إيرينا خلال نومه حلما فيه ملاك قال له: انهض واذهب للأرض التي سأريك إياها فأرّقه هذا كثيرا وظلت الكلمات تتردد في أذنيه طوال النهار. في الليلة التالية ، ظهر له الملاك بثياب براقة من جديد وكرر عليه الكلمات نفسها ، ثم أرشده وهو محلق بالهواء إلى جبل تعلو قمته مغارة صغيرة. في الليلة الثالثة قاده الملاك من جديد للجبل وأمره بأن يسكن المغارة. تأثر إيرينا كثيرا بهذه الأحلام أو الرؤى كما يسميها ، للدرجة التي دعته لأن يودع أسرته ويرتحل على مدى عشرين عاما في اليونان ومصر وسورية بحثا عن الجبل الذي رآه في حلمه. أخيرا ، اهتدى للمغارة على قمة جبل طابور واتخذها مسكنا له على الفور ؛ لاقتناعه بأنها عين

المكان الذي أرشده إليه الملاك. كان قد بلغ حينها الرابعة والثمانين من عمره وقال: اعتقدت بأنني سرعان ما ستوافيني منيتي، ولكن صحتي الآن أفضل من أي وقت مضى، وأنا على عتبة السنة المائة من عمري ذات ليلة شتائية بينما كان نائما داخل مغارته، شعر بوجود شيء ناعم ودافئ يجثو قريبا منه، ليكتشف بأنه كان نمرا أو فهدا فتيا، فمنحه طعاما وكسب صداقته بحيث صار يتبعه كظله وكأنه قطة منزلية. لردح طويل من الزمن، كان إيرينا وحيوانه المدلل أسود جبل طابور.

بعد أعوام من العزلة، وتماما مثلما حدث مع روبنسون كروزو، عثر إيرينا على جُمعة (Friday في الرواية الشهيرة لروبنسون كروز- المترجم)؛ رجل فلاح، هيئته تدل على متانة بنيته، يلتزم الصمت في معظم الأوقات، وهو في منتصف العمر تقريبا، تطوع لنظارة الحقل الصغير المزروع قمحا وحنطة، ولقطع وتجميع الحطب، ولجلب الماء من الحاووز الصخري. يطلق على نفسه لقب خادم الناسك، ويأمل بأن يرث صومعه إيرينا والأسمال التي حاكها من جلود الغنم، وعباءته الخشنة، علاوة على السُمعة التي اكتسبها إيرينا.

كهنة الناصرة، خصوصا اللاتين منهم، يكنّون مشاعر غيرة قوية تجاه التأثير الذي خلقه هذا الناسك، إذ إن مسيحيي الناصرة ينظرون اليه بوصفه رجلاً ذا قداسة متميزة، لذلك فهو يحظى بفضل ونعمة من الله وملائكته. العديد من الناس يؤمنون بمقدرته على اجتراح المعجزات، بالرغم من أنه لم يقر بذلك. وقد أبلغنا بأن اللاتين يكيدون له ويحاربونه بضراوة وشراسة -متهمين إياه بالعمل كجاسوس لروسيا- إلى الحد الذي صار يخشى فيه أن يتم إبعاده من البلاد. وهو يقوم من حين لآخر بعيادة المرضى في الناصرة والقرى المجاورة؛ فقد زارنا ذات مرة في حيفا. لم يتذوق طعم اللحم في حياته قط، إذ يتألف غذاؤه أساسا من الأرز والزيت، حيث يشتريها بكميات كافية مرة واحدة كل عام. يقوم بتربية بضعة أغنام لأجل حليبها فقط، ويزرع حديقة صغيرة من الأعشاب الطبية والخضروات؛ يقطف الفاكهة البرية ويجمع العسل من بيوت النحل التي في الصخور، أنظر مزامير داوود 31، 6. أعد لنا القهوة المتقنة الصنع التي يحتفظ بمخزون كبير منها على الدوام، لأجل تقديمها لضيوفه الذين عادة ما يكونون حجاجا مسيحيين أو رحالة. لم يبذل أي جهد في جعل مغارته مكانا

نظيفا أو مريحا. ويستخدم الفتحات العشوائية في جدار المغارة لحفظ الكتب القليلة التي يقتنيها ، وسراج صغير من الصلصال الأحمر. سريره كان مجرد حصير من القصب ، وكومة من القماش وجلود الماعز. يقيم رفيقه الفلاح في كهف قريب من المغارة كان يستخدمه فيما مضى كمطبخ أو ركن للطهو. وكان كل ما يمكن رؤيته هناك هو صحنين من البورسلان الرديء الصنع ، وزبديتين خشبيتين ، ومعالق وطنجرة معدنية لإعداد اليخنة.

سألت إيرينا عما إذا كان قد تزوج في حياته من قبل ، فأجابني بأن جبل طابور كان زوجته الوحيدة.

أكد لي هو وتابعه جمعة بأنهما كانا في غاية السعادة ، وهو ما بدا واضحا عليهما. يقسمان أوقات نهارهما بانتظام ، ويكدحان في عملهما ويقيمان الصلوات ويتناولان الطعام ثم يأويان للنوم بشكل روتيني ، ولا يبدو أنهما يرون أي ضرورة للإستحمام ويرتديان الملابس ذاتها ليل نهار. كان إيرينا متورد الوجنتين وتبدو عليه علامات القوة ، وعلى الرغم من أن لحيته كانت بيضاء بالكامل ، الا أن مظهره لا يعكس العمر الذي يعتقد أنه قد بلغه (21).

المشهد من على جبل طابور ثري جدا ، فالجبل يطُل على مرج بني عامر الذي قُسّم إلى قطع مربعة من الأرض المزروعة والحقول ، بحيث تبدو من مسافة بعيدة وكأنها قطع في لوحة من الفسيفساء الملونة بالبرتقالي والأصفر والرمادي والأخضر والبني والأرجواني. لا يمكن رؤية بيت أو خيمة أو قرية لكسر الرتابة المسيطرة على المشهد ، ولا حتى شجرة تلقي بظلالها ، بل كانت التلال التي تحيط بها مكسوة بالغابات الحرجية ومُنَقَّطَة بالبلدات والقرى والخرائب. بادرني السيد فن قائلا: تخيلي باراك مع عشرة آلاف رجل على هذا الجبل ، والرجال على العربات التي تجرها الخيل ، (900 عربة حديدية) جمعها سيسيرا ، وانظري إلى باراك وهو يطارد سيسرا إلى حروشة الأمم (الإشارة إلى الغابة التي تجمع فيها جيش سيسرا وفق آية وَتَبعَ بَارَاقُ الْمَرْكَبَاتِ وَالْجَيْشَ إِلَى حَرُوشَةِ الأُمَمِ. وَسَقَطَ كُلُّ جَيْشِ سِيسَرَا بِحَدِّ السَّيْفِ. لَمْ يَبْقَ وَلاَ وَاحِدٌ. الواردة في سفر القضاه 4/16-المترجم). ثم أراني المناطق المحيطة ، فأشار إلى سلسلة جبال الكرمل والبحر الأبيض المتوسط ناحية الغرب ، وجبال فقوعة وقرى جبل زرعين وعين دور وقرية نيين في الجنوب ، والتلال التي وراء نهر الأردن ،

والجبال المحيطة ببحيرة طبريا ناحية الشرق ، وجبل لبنان ، بعيدا في الشمال حيث علت قمته الثلوج. كنا قادرين على رؤية قرون حطين-عبارة عن تلة تعلوها قمتان. وهذا ما يسمى بجبل التطويبات ، والذي تشير المعتقدات الدينية أن السيد المسيح ألقى عظته الشهيرة من فوقه. امتطينا جيادنا بعد أن تفقدنا الخرائب وآبار الماء العميقة. كانت الشمس قد غربت عندما وصلنا إلى سفح الجبل. (في إحدى المرات ، نزلت من الجهة الأكثر انحدارا من جبل الطور بالاستعانة بعصا متينة وذراع قوية).

يذكر المحترم جاي أل بورتر ، أن ارتفاع جبل الطور يبلغ 1400 قدم فوق السهل ، بينما يرتفع السهل 500 قدم عن مستوى سطح البحر.

رحلة عودتنا للناصرة في ضوء القمر كانت ممتعة للغاية. أمضينا الأمسية في المخيم القنصلي ، وسرنا في ساعة متأخرة وفي أضواء القناديل باتجاه بيت صالح.

في صبيحة اليوم التالي جلست على النافذة وشرعت بالرسم ، بينما كان أخي مشغولا مع بعض الأفندية الأتراك والكَتَبة المسيحيين. كانوا جميعهم يضعون محابِرهم في أحزمتهم مع أكياس صغيرة وضعوا فيها أقلام القصب. جلسوا على الأرض وكل منهم يحمل ورقة واحدة في يده ، وكانوا يكتبون دون الاستعانة بمكتب أو طاولة. رؤوس أقلام القصب دقيقة جدا لدرجة أنها تنكسر بسرعة وسهولة عند الكتابة فيها على سطح صلب كالمكتب أو الطاولة.

حسب تعداد الدكتور روبنسون ، فإن عدد سكان الناصرة هو كما يلي:

المسلمون 680

الروم الأرثودوكس 1040 ويعتبرون أنفسهم في حماية روسيا

اللاتين 480

الروم الكاثوليك 520 ويتبعون للبابا وبالتالي يتمتعون بحماية فرنسا

الموارنة 400

يكون المجموع بالتالي 3120 نسمة ؛ ولكن اعتمادا على استفساراتي وتحرياتي ، تأكد لي بأن هذا العدد قليل جدا. فمن المعتقد بأن العدد الإجمالي يبلغ 4000 نسمة ، ويقال بأن أعداد

الأرثودوكس في ازدياد. لم يسبق أن التقيت بيهودي واحد لا في الناصرة ولا في بيت لحم! هناك طائفة بروتستانتية صغيرة تتذبذب أعدادها ازديادا ونقصانا باستمرار.

جاء الخواجه أسطفان ابن كاهن الروم الأرثودوكس في شفا عمرو خصيصا لدعوتنا نحن وصالح للعودة إلى حيفا ، عن طريق قريته ، لكي نمضي ليلة في بيتهم في شفا عمرو. أعددنا الترتيبات لذلك وركبنا خيولنا وانطلقنا عند منتصف النهار. مشينا بعض المسافة فوق تلال صخرية كانت أسراب النحل فيها مشغولة بالنباتات المزهرة التي حمتها أشواك طويلة- كانت جذوعها الصلبة وأوراقها وأشواكها وزهورها الشوكية أيضا تتألق بلون أرجواني ، كذلك الذي يلون ثمار البرقوق الناضجة ، ومن البعيد بدا السهل الذي نمت فيه كبحيرة هادئة زرقاء. عند الساعة الثانية تقريبا دخلنا بيارة محاطة بسور حجري واطئ ، تقع أسفل وادٍ وفير المياه انتشرت في أرجائه أشجار الليمون المثقلة بثمارها الخضراء ، والكثير من أشجار الرمان. ترجلنا عن خيولنا ومشينا عبر البيارة إلى أن وصلنا الينبوع الذي يقطعها ، والذي يحدِّه من الجانبين الزعرور البري والورد وأشجار الفاكهة. كانت ضفتاه شديدتي الانحدار وكثيرتي الأعشاب التي تفوح منها رائحة النعناع والبردقوش ، ونما الرشاد على طول حواف الينبوع. تحت شجرة تين وارفة الأغصان ، حيث شكّلت شتلات النفل بوريقاتها الصغيرة بساطا ناعما ، ألقينا سروجنا على شكل نصف دائرة وافترشنا الأرض. ووضع غداء متنوع الأصناف أمامنا. تناولناه بطريقة بدائية إذ لم نحمل معنا معالقَ أو شوكا للطعام ، الطعام المتاح لنا مجرد أرغفة خبز عربي رقيقة يبلغ قطرها حوالي الربع ياردة ولا يتجاوز سمكها ربع الإنش تقريبا. صنع صالح كوباً من ورقة نبات مائي غير ضار لمساعدتي على شرب الماء. نهض كل شخص من المجموعه فور انتهائه من طعامه واتجه نحو الينبوع لغسل يديه ، واخترنا شجرة وارفة جديدة نستظل بها ، وضفة معشوشبة بسطنا ديواننا البسيط عليها ، وجلسنا لنستريح ونحن نتجاذب أطراف الحديث ، بينما كان القواسون والخدم ينهون طعامهم.

لفت نظري في هذه البيارة شجرتا تين استثنائيتان ومميزتان للغاية ، كان جذعاهما يلتفان حول بعضهما البعض بكمال وانتظام وكأنهما نُحِتا نحتاً. سألت البستاني عن الكيفية التي

فعل فيها ذلك ، فقال: الله كريم ثم شرح لي كيف تزرع الأشتال الغضّة جنبا إلى جنب لكي تتشابك كالجدائل خلال نموها. وأخذني إلى شجرة يعتبرها أكثر كمالا من الأشجار الأخرى ، كان قطر جذعيها المتشابكين يزيد على نصف ياردة ، وقد ارتفعت حوالي ستة أقدام عن مستوى الأرض ، دون أن تنبت عليها أية أغصان تفسد محيطها المصقول ، كأنه عمود مستقيم من المرمر ، ولتنتشر أغصانها الملتوية والمنحنية في الاتجاهات كافة تكسوها الأوراق الخضراء-التي كانت من أكبر أوراق التين التي رأيت في حياتي. تقع هذه البيارة اللطيفة بالقرب من عين الماء التي تجمع عندها الفرسان الصليبيون قبل معركة حطين الرهيبة ، وحيث نصب الغازي صلاح الدين معسكره ، بعد أن محق أو كاد جيوش الصليبيين في تلك الجولة الفاصلة من النزاع. تقع صفورية في الجهة المقابلة تماما. وهي مكان فقير ولكنه جدير بالاهتمام. يمكن رؤية أطلال مبان يهودية ووثنية ومسيحية فيها ، وتشير المرويات المحلية إلى وجود البيت الذي ولدت فيه حنّة ، أم السيدة العذراء فيها.

اعتلينا صهوات جيادنا عند الثالثة والنصف ومشينا بمحاذاة مجرى الجدول الذي جرى بانسياب بين البيارات وبساتين الخيار وحقول القصب. بدا المشهد وكأن الحياة قد دبت للتو في الفرسان والخيل التي يركبونها.

تجولوا بخيولهم في حلقات وهم يستعرضون فنون الفروسية ، ويطلقون النار من طبنجاتهم من على صهوات جيادهم التي تعدو بأقصى سرعتها ؛ ورفرفرت عباءاتهم العربية الطويلة الفضفاضة والمصنوعة من وبر الماعز الأبيض في الهواء من ورائهم. جعلتني هذه العباءات المحلقة في الهواء أتخيل فرسان الهيكل القدماء وهم على صهوات خيولهم المجنّحة كما في الخرافات. عندما نال التعب من الخيول تجمع الفرسان وسرنا عبر غابة بلوط ونحن نتحدث عن الحروب الصليبية. اكتشفت بأن أصدقاءنا العرب على دراية تامة بأسماء أشخاص مثل بطرس الناسك وريتشارد قلب الأسد. كان مؤرخو الشرق وشعراؤه يطلقون على ريتشارد اسم الإنكتار

بلغنا بيارة زيتون على ربوة تشكل جزءاً من أرض شاسعة ينتصب في مركزها مرتفع مخروطي الشكل تعلوه بلدة شفا عمرو ، كان إلى الخلف منها قلعة شامخة ، مربعة وكبيرة وتبدو بحجم

البلدة ذاتها تقريبا. كانت سفوح التل ، باستثناء السفح الذي نزلناه ، مغطاة بالأشجار دائمة الخضرة ، وكانت الوديان وعلى مدى أميال من حولنا مكسوة بأشجار الزيتون والفواكه. عبرنا مقبرة زرعت بالأشجار ، ثم اجتزنا كوما من الغبار والقاذورات والنفايات- تجمع فوقه جمهرة من الناس لرؤيتنا- دخلنا القرية وترجلنا عند بيت اسطفان. قادني عبر درج حجري مكشوف ، ثم عبرنا شرفة طويلة مظللة ، إلى غرفة لطيفة ورحيبة تتوزع المشربيات على ثلاثة من جدرانها. كانت إحدى نهايات الغرفة قد فرشت بسجاجيد تركية ومراتب ضيقة ووسائد شّكلت جميعها ديواناً مريحاً للغاية. كسيت الجدران بالجص وزُينت بزخارف فجّة وتصاميم تبعث على الضحك لرموز وأشكال صبيانية.

كانت الغلايين والنراجيل مصفوفة داخل مشكاة في الجدار ، بينما وضع طقم أنيق من فناجين القهوة داخل محامل فضية مزركشة على منضدة قصيرة بقرب الباب. كان في أحد الأركان حوض عريض ومسطح من الرخام مع فتحة في وسطه لتصريف الماء. وكان بالقرب منه ثلاثة أباريق للماء.

هذه الحجرة هي غرفة الضيوف ، وهي معزولة عن بقية أرجاء المبنى.

قال لي اسطفان: البيت بيتك ، خذي راحتك ، أؤمريني أنا وعيلتي ، ورح نكون خدّامينك

تُركت لكي أستريح وأبدل ملابسي وأنضم إلى السادة المحترمين في الغرفة من جديد.

كان الضيوف يجيئون ويرحلون طوال المساء. كان الحاكم التركي بمظهره الوقور أول الواصلين ، رجل فارع الطول ذو وجه مسطح ذابل كأنه قناع من ورق البرشمان الذابل ، وقد بدا في الواقع أكثر شبها بمومياء صينية منه لرجل تركي. تصرف بأدب جم وكان مجاملا من طراز رفيع ، اشتكى لنا سرا من فقره المدقع وعدم كفاية الدخل الذي يجنيه من وظيفته. كان يرتدي بذلة بلون السعوط البني مطرزة بخيوط ذهبية ، ويتمنطق بسيف طويل يتدلى على جانبه.

جاء والد اسطفان ، كهل ذو مظهر جليل ووسيم وذو لحية بطريركية بيضاء ، جلس بجانبي. كان يرتدي ثوبا طويلا أرجوانيا من الكتان ، وعمامة من اللون نفسه. انه كبير كهنة الطائفة

الأرثودكسية في شفا عمرو والقرى المجاورة لها. لم يتحدث كثيرا لكن نظراته كانت معبره للغاية. كان افتخاره بأبنائه وأحفاده الصغار واضحا للغاية. بإشارة منه ، جاء أحفاده الصغار من الجهة الأخرى من الغرفة وتقدموا مني لتقبيل يدي. كانوا أولادا نظيفين وحسني الهندام وتبدو عليهم علامات الذكاء. كانت الغرفة تعج بالضيوف. فرشت المراتب في محيط الغرفة قريبا من جدرانها ، ولم يكن فيها متسع لشخص إضافي آخر ، ولكنها خلت من الحضور النسائي.

حل الظلام وأغلقت الأبواب عندما أُحضر شمعدان نحاسي طويل ووضع في منتصف الحجرة في النهاية المرتفعة منها. كان يشكل دعامة لسراج كبير فيه ثلاث ذبالات مغمورة بالزيت ، وقد تدلت منه ثلاث سلاسل طويلة- إحداها كانت لمقص لقص ذبالة السراج ، والثانية كانت لحمل دبوس سميك لتشذيبها ، بينما ربط بالسلسلة الأخيرة طفاية للسراج. في الناحية البعيدة من الغرفة انتصب فانوس زجاجي كبير مع إطار من القصدير فوق منضدة خشبية واطئة- تلألأت هذه الأنوار بألوان وتناغم غريبين. كان من ضمن الحاضرين يهودي هندي ذو بشرة داكنة جدا ، ولحية بيضاء ويرتدي عمامة غامقة اللون ، تقدم منا طالبا مؤاخاتنا ، نظرا لكونه من رعايا بريطانيا ويحمل جنسيتها ، التي كان فخورا جدا بحملها. وقد ارتحل من هندوستان لرؤية مدينة سليمان وللإطمئنان على أحوال اليهود في فلسطين. وبدت عليه علامات المعرفة وروح المغامرة.

إسحق شالوم ، يهودي حلبي مقيم في حيفا ، أحضر لي قليلا من معجون اللوز الأبيض الحلو المذاق واللذيد ، والمحشو بالفستق (المنّ والسلوى-المترجم) ، وهو صنف من الحلوى التي تشتهر بها حلب. كان حاخام ووجهاء الطائفة اليهودية في شفاعمرو من ضمن الحاضرين أيضا ، بالإضافة إلى بعض المسلمين والدروز والمسيحيين العرب. وكانت أقداح العرق تقدم بين حين وآخر في الجزء السفلي من الغرفة ، بينما تصدح مواويل المديح على شرف كبار الزوار. صالح ، الذي لم يكن مغنيا ، بل خطيبا مفوها ، قال: إبراهيم ترك عيلته وأهله وبيته وبلده ، وسكن بلاداً غريبة بين أناس أغراب ، وبعدين صار عظيم في الدنيا ، كبرت عيلته ، وانشهر أسمه. وهيك ان شالله ينعرف عيلة روجرز بهالبلاد ، ويعيش لولد الولد بهالديار وهو

مرفوع الرأس وسرعان ما بادر المغنون إلى التقاط كلمات الخطبة ليرتجلوا منها موالا زجليا على الفور ، كانت عجز أبياته تقول: إن شالله يعيش لولد الولد وهو مرفوع الراس

وجهت لي مجاملات رقيقة مع دعوات لأن أحيا بسعادة. ثم صار الغناء الذي تضمن ضروباً وأنواعاً متعددة ، جماعيا. سمعنا أغاني غرامية مصرية أداها بستاني من بلاد النيل بصوت يفيض شجنا وعذوبة ، ثم غنّى رجل بغدادي مواويل طريفة ، تبتدئ كلماتها بنبرة مرتعشة وعالية ، ثم تتراجع حدتها ونبرتها تدريجيا إلى أن تصبح نغما خفيضا شجيا. غنّى العرب العديد من الأغنيات الرائعه ذات الألحان العذبة ، لكن إحداها كانت في غاية العذوبة ، كان الجمع خلالها يردد كلمة يا بدويه وراء المغني. أعتقد بأن الأذن الإنجليزية ستطرب عند سماع هذه الأغنية.

طُلب من إسحق ، اليهودي الحلبي ، أن يرقص لأجلي. تم إبعاد الفانوس لكي لا يعيق حركته. فوقف في البداية على استحياء شديد ، بينما كان العرب المتحلقون على الأرض من حوله يغنون ويصفقون لضبط اللحن. ارتدى سروالا طويلا أبيض وسترة سوداء ، وصدرية مخططة بالأبيض والأصفر من الحرير ، وشالاً لّفه على خصره كحزام. وربط منديلاً أزرق حول طربوشه الأحمر. أنزل رأسه للأمام ورفع ذراعيه للأعلى. وحرك يديه وقدميه بتناغم مع الألحان ، وحرك جسده للأمام والوراء. وسرعان ما ارتفعت وتيرة الغناء وازدادت حدة التصفيق ، وصارت حركات الراقص أكثر تصميما ، ولكنها كانت متناغمة تماما مع الألحان التي تلهمها. أدى رقصته بأكملها داخل دائرة لا يزيد قطرها على ياردة واحدة ، وفي ختام رقصته استدار مسرعا وانسحب بخجل شديد ليختبئ خلف أصدقائه.

أُعد العشاء وانسحب العديد من الضيوف. أحضر الخدم منضدة مستديرة ارتفاعها حوالي خمسة إنشات ، وملأوها بالأطباق. وخلال هذه التحضيرات التمس أخي السماح له بدعوة رجل معين يدعى حبيب للمشاركة في العشاء. كان هذا الرجل فيما مضى أفضل أصدقاء اسطفان ، ولكن نشب سوء فهم بينهما نتج عنه حدوث قطيعة بين العائلتين المسيحيتين الأكثر نفوذا في شفاعمرو. أبدى اسطفان موافقته الفورية على استقبال حبيب ، الذي سرعان ما وصل والتأم شمل الصديقين الذين طالت قطيعتهما من جديد. استمرت صداقتهما بلا

انقطاع منذئذٍ. قبل الشروع بالأكل ، سكبت المياه على أيدي الحضور فوق الحوض الرخامي ، لأن المسيحيين العرب ، كما هي الحال عند المسلمين وكافة اليهود ، لا يأكلوا ما لم يغسلوا أيديهم إن هذا الأمر ضروري جدا ، نظرا لأنهم لا يستخدمون الشوك والسكاكين ، بل يغمّس كل واحد منهم طعامه بيديه بمعية الجالس إلى جواره.

أراد اسطفان في البداية أن يتولى خدمتنا خلال الطعام ، بدلا من مشاركتنا إياه ، إذ إن العادات العربية تقضي بأن يقوم المعزب (المضيف) بخدمة ضيفه. تغلبنا على تردده وجعلناه يتناول الطعام معنا. سكب الماء من جديد على أيدينا بعد ذلك- وقف خادم بالقرب منا حاملا صابونة معطرة محلية الصنع ومنشفة مطرزة- ثم احتسينا القهوة ودخنا الأرجيلة.

تم إحضار إنجيل عربي من منشورات جمعية الكتاب المقدس البريطانية الأجنبية -نسخة رومانية- وقرأ صالح بصوت جهوري الخطبة على الجبل. تاريخ الإنجيل معروف جيدا في أوساط المسيحيين الأرثودوكس ؛ فهو يرتل في كنائسهم على ألسنة العامة واستخدامه ليس محظورا على العلمانيين. مع ذلك ، فالغالبية العظمى من الناس لا تتقن القراءة. يمكن للقلة القليلة التي تستطيع القراءة الحصول بسهولة على نسخ منه ، ولكن من النادر أن تعثر على نسخة منه إلا لدى العائلات التي يكون أحد أفرادها كاهنا أو شغوفا بالقراءة ، كصديقنا صالح على سبيل المثال.

ينبغي أن يكون الكهنة الأرثودوكس رجالاً متزوجين على الدوام. كهنة القرى والبلدات الصغيرة يكونون في غاية الجهل في الغالب ، ونظرا لأنهم نادرا ما يحصلون على تدريب كنسي منهجي ؛ فإن تفسيرهم وشروحاتهم للدين والمعتقدات الكنسية تكون غريبة ومتناقضة. عموما فإن أساقفتهم ورجال الإكليروس الأعلى مقاما عندهم يكونون من الأجانب ، من اليونانيين والروس ، وهم لا يتعلمون اللغة العربية في العادة ، ولهذا فإن الأثر الذي يتركونه في قلوب رعيتهم في بلاد الشام يكون ضئيلا إن لم يكن معدوما أساسا. من الجهة الأخرى فإن رجال الدين والأكليروس اللاتين ، ليسوا مطلعين على الكتاب المقدس ، ويعارضون توزيعه وانتشاره على الدوام ، ولكنهم على دراية تامة بقواعد السلوك

القويم والشؤون والأمور المذهبية والفقهية.

تتنافس الكنيستان فيما بينهما على نشر قصص ومعتقدات حول القديسين والشهداء، وكلتاهما تشجع الحج للأماكن المقدسة واستخدام الذخائر المقدسة في العبادات.

فور الانتهاء من العشاء أخليت الغرفة تماما من الضيوف المدخنين والمغنين، الذين ارتدوا العمائم والطرابيش، ومن العبيد والخدم. ذهب أخي وصالح إلى بيت حبيب لقضاء الليلة هناك. وتركت بمفردي في غرفة الضيوف الفسيحة الأرجاء، حيث أمر اسطفان بإعداد سرير لي. فتحت واحدا من المصاريع الثقيلة لإحدى النوافذ لأرى أصدقائي وهم يغادرون عبر سفح التل، بالاستعانة بخمسة قناديل أنارت طريقهم. أغلقت الباب بمزلاج ثقيل صدئ يعمل بآلية لم أتمكن من فهمها، لأكتشف في هنيهات بأنني قد حبست نفسي، عندما اكتشفت أنني غير قادرة على فتحه. اضطررت للتسليم بقدري وأنا واثقة من أنني سأتحرر في صباح اليوم التالي بكل تأكيد. غفوت على وسادة ناعمة من الحرير القرمزي اللون تحت لحاف مطرز، ولم أستيقظ إلا عندما أحسست بأشعة الشمس التي سقطت على وجهي من شقوق مصراع النافذة العتيقة. نهضت وارتديت ملابسي عندما قرع اسطفان على الباب بعد أن تدبر طريقة ما لفتحه. بينما كان يتم تنظيف وتوضيب الغرفة ذهبت بمعيته لشرب القهوة في بيت حبيب. لدى عودتي إلى غرفتي كانت سيدات العائلة وجاراتهن والإناث من الخدم قد جئن لرؤيتي، لكنهن لم يدخلن قبل أن يتأكدن تماما من أنني بمفردي. تجمعن عند الباب على استحياء ووجب علي أن اقوم بدور المضيفة وأدعوهن للدخول. كن يرتدين الأزياء نفسها التي يرتدينها في الناصرة كما كن بالجاذبية نفسها، ولكن مظاهرهن كانت أكثر بساطة وتواضعا. زوجة اسطفان، امرأة فارعة الطول ذات عينين غامقتين، كانت تضع عملات معدنية عديدة وثقيلة على محيط وجهها، مع منديل أصفر يغطي جبهتها ورأسها مربوط فوق رقبتها من الخلف (القمطة الفلسطينية-المترجم)؛ كانت فتحة ثوبها القطني الأحمر والأصفر مهدبة بكشكش مزدوج ومزركش. ابنتها الكبرى، في العاشرة من عمرها واسمها وردة، كانت في غاية الجمال، وجه متناسق القسمات مع بشرة صافية سمراء وعيون بنية لامعة، وجفون كحيلة بغزارة، وقد خضبت يديها وقدميها بالحنة. سرحت

شعرها الأسود الكثيف فوق جبهتها وصولا إلى حاجبيها المقوسين. بينما ترك من الخلف لينمو طويلا ويجدَّل في ضفائر. ارتدت طاقية مهدبة بالأرباع الذهبية ، اذ لم يعتبرها أهل شفا عمرو اكسسوارا عفا عليه الزمن بعد. ثوبها المفتوح كان من قماش قطني أبيض مزين من الأمام بزركشة سوداء وزرقاء وحمراء. الأكمام كانت طويلة جدا وتستر الذراعين بالكامل ، لكن فتحاتها تتدلى عند رفعها نظرا لأنها مفتوحة حتى المرفقين.

جاء داوود الصغير ابن الحاكم لرؤيتي. كان يرتدي عباءة بلون أخضر زيتوني وعمامة خضراء من الموسلين. كانت قسمات وجهه متناسقة ولكنها شاحبة جدا. اتخذ وضعا جليلا ووقورا عندما بدأت برسمه ، لكنه لم يتمكن من كبح ابتساماته بين الحين والآخر. انضم إلينا صالح واسطفان وأبيه ، حيث ذهبنا جميعا بعد الغداء إلى القلعة. عندما اقتربنا منها أيقنت بأنها آيلة للخراب لا محالة ، على الرغم من أنها شيدت قبل مائة وخمسين عاما فقط. زينت بواباتها العريضة والأقواس التي علتها بنقوش تكعيبية خفيفة تحاكي نمط زخرفة قصر الحمراء. طابقان من المجازات المقنطرة وغرف العقد تحيط بساحة فسيحة الأرجاء. أُعد الطابق الأول كإسطبل يتسع لإيواء خمسمائة حصان. قادنا درج حجري متداع إلى الطوابق العلوية. النوافذ المزدوجة والمدببة الأقواس للكوات العميقة داخل الجدران الخارجية ، تطل على مناظر في غاية الجمال بجميع الاتجاهات.

النوافذ الغربية تشرف على سهل عكا والبحر ، ويمكن رؤية الكرمل وحيفا في الخلفية من بعيد. بينما تطل النوافذ الشمالية على لبنان وتشاهد مدينة عكا على يسار المشهد ، بينما يمكن رؤية قرية عبلين الصغيرة على اليمين ، التي ينتصب برجها الأبيض المرتفع بين أشجار الزيتون والبيارات. خفقت رايات ريتشارد الأول هناك ذات زمن. إطلالة النوافذ الجنوبية والشرقية تحدّها التلال والجبال التي ترتفع وراء بعضها البعض.

بينما توافد طالبو الحماية وتجمعوا حول شقيقي ، تجولت بين قاعات القلعة ونوافذها برفقة صالح الذي أدى دور الدليل السياحي. تسلقنا الجدران الحصينة وسرنا حول المبنى بأكمله تقريبا ، لكن الحجارة كانت تتهاوى وتترك حيثما سقطت ، وبالكاد تتم الأستفادة من المبنى لأي غرض كما يبدو.

عندما غادرنا القلعة ، دعاني الحاكم لمرافقته للالتقاء بزوجاته. نظرة خاطفة من شقيقي أخبرتني أن بإمكاني قبول الدعوة. لم يكن بمقدور أي من السادة مرافقتي بالطبع ، لذلك فقد قفلوا عائدين إلى المنزل مع اسطفان بينما اصطحبني الحاكم إلى بيته الكئيب المظهر. قادتنا بوابة يمكن لجمل محمّل عبورها بسهولة إلى ساحة غير ممهدة ووعرة كانت المدخل الوحيد إلى حجرة عقد مربعة الأبعاد ، ذات جدران عارية من الحجر ، وأربع نوافذ غير مظلله على علو شاهق. تناثرت بضع بلاطات من الحجر على الأرض الترابية هنا وهناك.

كان هذا مسكن الحاكم-غرفة الطعام ، المكتب وغرفة الأطفال والإسطبلات ، جميعا في مكان واحد! في أحد أركان الغرفة ، انكب بغل على كومة من العلف ، دكّة حجرية مجوفه للخارِج بعض الشيء ، كانت عبارة عن المِعلف ، ووقف بالانتظار على مقربة منه حمارٌ حليم. في الجهة المقابلة ، علا صهيل الحصان المربوط إلى الجدار ، وعلى كومة من علف الماشية ، تَمَدّد طفلان صغيران متّسخان يركلان ويبكيان بلوعة شديده. كان هناك ما يشبه الموقد أو ركن الطبخ في أحد أركان الغرفة ، إذ كان بمقدوري رؤية الوهج الأحمر للفحم المشتعل. في الجهة اليسرى ، مصطبة خشبية عريضة ترتفع حوالي قدمين عن الأرض ، مع درابزين خشبي منقوش على مستوى منخفض من حافتها. كانت المراتب واللحافات قد تكدست هنا ، أعتقد بأن هذا الركن كان مخدع سيد الحريم. قطعنا القاعة في خط مستقيم نحو منصة داخل كوة عريضة مقنطرة مواجهة تماما للبوابة التي عبرناها حين دخلنا البيت ، تقود إليها درجتان غير مستويتين من الحجر ، وقفت امرأتان بداخلها - عجوز وشابة في مقتبل العمر- لاستقبالي. أخذن يدي بأيديهن وأجلستاني على مقعد وثير بالوسائد على الأرض المغطاه بالحصير.

قدم الحاكم الفتاة الشابة لي كزوجته وأم داوود الصغير. ربما كانت في العشرين من عمرها ، طويلة وحلوة الشمائل ، عينان لامعتان زرقاوان وشعر أسود وبشرة متألقة سمراء. استخدمت كحل العيون والحناء بحرية ، ووشمت ذقنها وجبهتها. أعتقد بأنها استعدت لزيارتي لأنها كانت قد ارتدت ملابس الأعياد. سترة قماشية زرقاء مفتوحة بالكامل من المقدمة أظهرت صدرها المغطى بالأوشام وقميصا حريريا أبيضَ. كان سروالها من الحرير

الحلبي باللونين الأبيض والأصفر. طربوشها الأحمر القصير كان مزيناً بصفوف من الأرباع الذهبية واللؤلؤ والأزهار. وتدلت من الطربوش شرابة أرجوانية اللون ردّتها للوراء ، وكانت حلية مسطحة ومخرمة على شكل هلال بعرض يبلغ الخمسة إنشات قد ثُبتت على مقدمة الطربوش. (هل تماثل هذه الحلية العصابة المستديرة الشبيهة بالقمر التي ورد ذكرها في إشعيا 3 ، 18 ؟). كان شعرها الطويل مجدلا في ضفائر تشابكت فيها شرائط من الحرير الأسود ، لتجعله يبدو أكثر طولا. أخبرتني بأن شفا عمرو ليست مكانا مناسبا للعيش ، وبأنها غريبة تماما عن هذه المنطقة. فسألتها عن المنطقة التي أتت منها من فلسطين. فقالت: ولدت بالنبي داوود ، وهو المكان اللي بحبه إنها تشير إلى مجموعة من البيوت المحيطة بضريح النبي داوود على مسافة قريبة خارج أسوار بيت المقدس ، بالقرب من باب حارة اليهود. كانت تشعر بسعادة غامرة عندما يناديها الناس ب.أم داوود

قاطع الحاكم أحاديثها الإيضاحية بأن طلب منها إعداد الليموناده لأجلي. كان بالقرب من الدرجتين المؤديتين إلى المنصة قبقابان عاليان وكأنهما ركيزتان خشبيتان ، صنعا من خشب غامق مكسو بالصدف يعلوهما طوقان من الجلد الأزرق. ارتدت القبقاب في قدميها المنقوشتين بالحناء ؛ لأن الأرض كانت مبللة وقذرة ، حيث تجمعت برك صغيرة من المياه هنا وهناك. لحق بها زوجها ، ليساعدها في إنزال كاسات شرب زجاجية خضراء وضعت داخل فتحة في الجدار. بقيت المرأة الأخرى التي بدا عليها الهرم والهم بجانبي. عندما لم يعد بمقدور الزوجة الشابة أن تسمعنا قلت بصوت مرتفع: ما أجملها! فأيدتني فيما ذهبت إليه وبدت وكأنها أم فخورة وسعيدة بجمال ابنتها. لم أكن أدري بأن الزوجة الشابة كانت ضرتها ؛ اعتقدت مخطئة بأنها كانت ابنتها إلى أن قالت: أم داوود صغيرة ، ام داوود مبسوطة ، صبية وأم للولدين (كانت تشير إلى مهد معلق كأرجوحة في الحجر الرئيسي في العقد الذي يعلو رؤوسنا ، حيث كان الرضيع الصغير المُقَمّط يتأرجح بأمان وسكينة بداخله) وأضافت: بس أنا ما عنديش أولاد ، مات أولادي ؛ وانا ختيارة ؛ بطلت حلوه ؛ انا ولا شي ؛ بسواش اشي-لا أساوي شيئا ثم شرحت لي بأنها عاشت مع الحاكم طوال عشرين سنة قبل أن يتخذ من أم داوود زوجة جديدة له. قلت لها وأنا أشير إلى الأطفال الصغار الذين كانوا قد خرجوا حبوا

من مذود العلف: لمن هولاء الأطفال ؟ فأجابت: هدول ولاد البيت-أي أنهم أبناء الحاكم-من العبدة ، التي كانت تقف بقرب الفرن ، والتي كانت أمهم!

عادت أم داوود بالليموناده في هذه الأثناء. وأحضر الحاكم بنفسه فنجاناً صغيراً من القهوة المغلية مع العنبر. جاء الآن داوود الصغير وبدا عليه السرور لرؤيتي في بيتهم. قال: ارسمي لي وجه أمي في دفترك وارسمي وجه أخوي مشاني رفع الرضيع من أرجوحته ، كان عمره ستة أشهر تقريبا ، وكانت جفونه مغطاة بالكحل. فاستفسرت عن سبب تكحيل طفل صغير في مثل عمره. هيك بتقوى عينيه ورموشه بتطول أكثر أجابت المرأة الطاعنة بالسن.

استأذنت منهم وغادرت البيت لأجد القواس في انتظاري في الخارج لكي يرافقني للالتقاء بأخي في كنيسة الروم الأرثودوكس ، وهي مبنى حديث. كانت جدرانها مزينة بقطع من الحرير ولوحات مبهرجة. جرن المعمودية كان من المرمر ، أعتقد بأنه حُفر من تاج عمود بيزنطي قديم ؛ بعد أن تم تجويفه من الأعلى. في المدرسة الملاصقة للكنيسة كان عدد من الأولاد يرتلون المزامير بصوت عال رتيب ، مرددين ما يتلوه عليهم معلمهم. تبين لي أن سفر المزامير هو الكتاب الدراسي الرئيسي في المدارس المسيحية العربية ، كما هو القرآن في مدارس المسلمين. كثيرا ما شاهدت صبية يحملون هذه الكتب في أيديهم ، ويبدو عليهم أنهم يستطيعون القراءة بطلاقة ، بينما في واقع الأمر بالكاد يمكنهم تمييز حروف الكلمات فيها ، ولا يعدو الأمر عن كونهم يكررون كالببغاوات ، أجزاء كبيرة من هذه الكتب حفظا عن ظهر قلب.

اتجهنا بعد ذلك إلى الكنيس اليهودي حيث كان كبير الحاخامين في استقبالنا. أراني عدة نسخ من مخطوطات التوراه والرسل ، ملفوفة في أكياس حريرية زرقاء وضعت داخل مشكاة جدارية تغطيها ستارة مطرزة ، أو حجاب. انتصبت في وسط القاعة منصة دائرية مرتفعة من الخشب ، تعلوها كراسي الشرف. لم يكن بناؤها مكتملا فاعتقدت للوهلة الأولى بأنها بناء مؤقت ، لكني رأيت كراسي مركزية على منصات بالنمط نفسه من التصميم في كافة الكنس التي زرتها.

خرج الرجال بعد ذلك في جولة على صهوات الجياد فاعتذرت عن مرافقتهم وأنا أُمني النفس

برؤية النسوة مرة أخرى ؛ وبناء على طلبي قام الخواجة اسطفان بإرسال زوجته وأطفاله لي. أخذوني لأرى القسم السفلي من المنزل ؛ لم يكن مرتبا ولا مريحا. عادوا بصحبتي إلى غرفتي. رسمت بضع لوحات سريعة كانت كافية لتسليتهم. بمجرد أن دخل الحشد النسائي إلى غرفتي ، دخل ذلك الخادم العبد الذي كان يقف على باب غرفتي كحارس أو خفير ، وقام بجر نصفهن جرا إلى الخارج ، ثم انسحبن جميعا فور عودة الرجال من جولتهم.

أمضينا الأمسية في منزل حبيب. اجتمع حشد كبير للقائنا في غرفة الضيوف الواسعة الأرجاء في بيته ، واستخدمت كل مهارات الطهي التي تعرفها شفاعمرو لإعداد عشاء لنا. وتبع العشاء أغانٍ وخطب ترحيبية وقصص رواها الحكواتية. عدت إلى بيت اسطفان على نور العديد من القناديل ، حيث وصلت باب غرفتي بمعية أخي وجميع الضيوف تقريبا.

مع شروق شمس اليوم التالي امتطينا خيولنا وكنا على أهبة الاستعداد للانطلاق نحو حيفا. انضم اسطفان وحبيب ومجموعة كبيرة من الرجال إلينا. تولى سائس خيلنا المصري مهمة الاعتناء بغزال قدم كهدية لأخي. سرنا باتجاه الوادي ثم عبر طريق مستوية قادتنا إلى عين ماء. كان عدد من صبايا القرية قد تجمعن عليها ، وقف بعضهن على منصة حجرية تحيط بالعين ، وتجمعت الأخريات حول العين نفسها. على مسافة بعيدة رأينا مجموعة أخرى منهن يسرن واحدة تلو الأخرى عبر مجاز ضيق على سفح التل ، وقد وضعن جرارهن المملوءة بالماء على رؤوسهن بتوازن تام.

تركنا طريق عكا ودخلنا بيارة زيتون واسعة. كانت مجموعات من الرجال والنساء والأطفال بملابسهم الزاهية يعملون بين الأشجار أو يسيرون بخطى حثيثة على الطريق. كنت كثيرا ما أرى بيارات الزيتون وهي خالية من الناس وغارقة في صمت مطبق ، لذلك فوجئت بهذا المشهد. شرح لي صالح بأننا في بدايات موسم قطف الزيتون-التاسع عشر من تشرين الأول / اكتوبر- وأن كل هولاء الناس قد تم توظيفهم للمساعده في قطف الزيتون. كان الرجال يضربون الأشجار بعصي طويلة ، لتقوم النسوة والأطفال بجمع الزيتون المتساقط منها على الأرض (22) التقينا بمجموعة من الأشخاص الذين كانت أجسامهم غير متناسقة وقاماتهم طويلة بشكل غير طبيعي ، بحيث لم أتمكن من تمييزهم قبل أن يقال لي بأنهن

نساء درزيات. كن يضعن على رؤوسن قروناً إسطوانية بارتفاع قدم أو قدمين تتدلى منها طرحات سوداء أو بيضاء اللون ، تكاد تغطي جسم المرأة التي تلبسها بالكامل ، بحيث ينتج عن ذلك قوام غير متناسق البتة. (آمل أن أسترسل بالحديث عن هولاء الناس الغريبي الأطوار في مناسبة قادمة). وصلنا إلى جرد صخري نمت عليه أشجار البلوط القصيرة والأشواك ونباتات شوكية أخرى ، ثم بلغنا سهل عكا الخصيب الذي يمر من خلاله نهر المقطع بمساره المتعرج ولونه الأزرق وروافده العديدة.

شكّلت حقول القطن الممتده منظرا بديعاً ، فقد كانت في أوج إزهارها. ترتفع أجمتها حوالي قدمين للأعلى ، كان لون جذوعها ضاربا للحمرة ، بينما كان لون أوراقها يحاكي لون أوراق شجر القيقب في فصل الربيع ، بدت البراعم وكأنها صنعت من أجنحة الفراشات ، بيضاء ومُنقطة. عندما تتساقط هذه الأجنحة البيضاء ، يُماط اللثام عن بصيلة خضراء في كوب ثلاثي الأضلاع ؛ تنمو ليبلغ قطرها إنشاً تقريبا ويتغير لونها إلى اللون الكستنائي اللامع والأنيق ، خلال جفافها التدريجي ، تنقسم إلى ثلاثة أجزاء ، وحينها يندفع منها الزغب القطني الناعم. أحضر لي صالح غصنا من غصونها ، يضم عينات من أطوار النمو المميزة الثلاثة لهذه النبتة. أخبرني أخي بأن العرب لا يزرعون القطن طويل التيلة- ذو القيمة المرتفعة في إنجلترا- لما يتطلبه من حرص وعناية عند قطفه ؛ إذ ينبغي جمع البصيلات بمجرد نضجها ، ونظرا لأنها لا تنضج جميعا في وقت واحد ، فإن الحصاد يتأخر بالضرورة إلى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى ، بينما يسبب القطن القصير التيلة صعوبات أقل للمزارع ، نظرا لأن البصيلات لا تتضرر نتيجة تركها على الشجرة بعد نضجها ، ولا يبدأ الحصاد قبل أن تكون كل البصيلات قد أصبحت جاهزة للقطاف ، ويتمخض عن هذا الأمر انتهاء العملية برمتها في وقت أسرع. هذا النخب الثاني من القطن يناسب ويلبي احتياجات السكان المحليين بشكل جيد جدا ، لحشو مراتب وفرشات النوم التي يستخدمها العرب ، ولحافاتهم وبطانياتهم ، ولكنه لا يمتلك قيمة تجارية مرتفعة.

لو زُرع سهل عكا بطاقة ومهارة أكبر لأنتج محاصيل وفيرة. في ظل النظام الزراعي المعمول به حاليا تنتج الأرض في الشتاء قمحا وشعيرا وفولا وفاصولياء وعدسا وبازيلاء وتبغا ، وتنتج

في الصيف: القطن والسمسم والدُخن والعديد من أنواع القثائيات كالخيار والقرع والكوسا. وينمو الخشخاش والخبيزة والعديد من الأعشاب الأخرى المتنوعة ، بينما تصلح التلال المحيطة لكرمات العنب وبيادر الزيتون والبيارات. الكتان والهليون وأزهار الجنطيانا والسقامونيا (المحمودة-المترجم) وغيرها من النباتات ذات القيمة العالية في الصناعات الدوائية ، تنمو بشكل طبيعي في هذه الأنحاء ، كما تحتوي سبخات ومستنقعات الجرد على الصودا الكاوية ، ويصنع الصابون منها بواسطة خلط الرماد الناتج عنها مع زيت الزيتون أو السمسم. يسكن قرى هذه المنطقة مسلمون ومسيحيون ودروز وأعداد قليلة من اليهود. يدفعون ضرائب عينية باهظة للحكومة من محاصيلهم من القمح والشعير ، ويدفعون النقود أيضا ، ويتعين عليهم تقديم الجمال والخيول أو البغال كلما طلب الباشا منهم ذلك.

قطعنا جدولا كانت تحفه أعواد القصب الطويلة والقصيرة والعشب الطري. آلاف من الرخويات والحلزونات الصالحة للأكل كانت تلتصق بسيقان النباتات عديمة الفائدة. نمت النجيليات ذات الجذور الطويلة والقرصعنة وأشجار الطرفاء والصفصاف في الأرض الرملية ، وساعدت على الحد من انجرافها. مشينا فوق بعض الكثبان الرملية التي نمت عليها نباتات متفرقة ذات أوراق سميكة رطبة وملمس ناعم وزهر أصفر اللون. هنا افترقنا عن أصدقائنا الشفاعمريين الذين قفلوا عائدين باتجاه بيارات زيتونهم.

سرعان ما بلغنا شاطئ البحر. كانت سفينتان بريطانيتان تجاريتان تسيران بالطاقة البخارية تدخلان ميناء حيفا للتو. عبرت خيولنا نهر المقطع بحرص وحذر سيرا على الشريط الرملي المحيط بمصب النهر ، حيث تتدفق مياهه بعيدا داخل البحر. كان مستوى مياهه أعلى من ركبة الخيل ، وبين الحين والآخر كان الرذاذ المتطاير من الأمواج المتدافعة يغمرنا.

جرت جيادنا بسرعة بمحاذاة الماء ، بينما كانت أشجار النخيل وبيارات الفواكه على ميسرتنا ، والأمواج المتلاطمة على ميمنتنا. دخلنا البلدة في التاسعة إلا ربعا ، تماما في الوقت الذي وصل فيه قبطانان تجاريان بريطانان إلى دار القنصلية ، حيث كانت كاترين المسكينة ، أمنا المزعومة ، ترحب بنا بعيون انهمرت منها دموع الفرح ، وهي تقول: الحمدلله! رجعولي ولادي بالسلامة

الفصل السابع

الحياة في حيفا

في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من أكتوبر / تشرين الأول 1855 دخلت ميناء حيفا سفينة بخارية تركية قادمة من اسطنبول ، كان على متنها باشا جديد لعكا ، جاء بمعية حريمه وحاشيته المؤلفة من ثلاثين شخصا ، كان من بينهم طبيب أرمني. قدم وجهاء عكا لاستقباله ، وعاشت بلدتنا الصغيرة حالة استثنائية من الإثارة. ذهب أخي للترحيب بصاحب السعادة ، والذي قام بدوره بعد وقت قصير ، بزيارة دار القنصلية ترافقه حاشية مؤلفة من اثني عشر شخصا.

يكون من الممكن في بعض الأحيان إقناع الباشوات المعينين حديثا ، بالقيام بإجراءات مفيدة في إيالاتهم وسناجقهم ، ففي بدايات عهودهم ، تنساب المياه في النوافير المسدودة ، وتتم صيانة وإصلاح صهاريج الماء التالفة ، ويجري العمل على إدامة جريان الماء في القنوات ، ولكن هذا لا يستمر سوى لفترة قصيرة من الزمن. ألح القناصل على الباشا الجديد- الذي كان من المنتظر منه البدء بإجراء تغييرات جذرية- ، لكي يصدر أوامره لتنظيف شوارع حيفا التي تفيض بالمياه العادمة والقاذورات ، والتي كان البعض منها لا يفرق كثيرا عن قنوات المجاري المكشوفة ، وفي حالة كريهة وخطرة جدا. كما نصحوا بإزالة ورفع أكوام التراب القريبة من الشاطئ ، والتي تحولت إلى مكبات كبيرة تلقى فيها الخضار التالفة وكل أنواع القاذورات والنفايات. كانت الاستجابة للالتماس ممتازة ، فبوشر بالعمل فورا ، وشهدت حيفا حملة كنس وتنظيف واسعة ربما كانت الأولى من نوعها منذ نشوئها. تراكض الرجال والأولاد في كل مكان وهم يحملون سلال القمامة والنفايات. ودبت الحماسة في الباكوات والقناصل وهم يصدرون التوجيهات والأوامر ، وجرفت أكوام التراب وألقيت تدريجيا في البحر.

ابتهج الأوروبيون وأبناء الطبقات الراقية من العرب لفكرة العيش في بلدة نظيفة نسبيا ، لكن غالبية الأهالي رأت في حملة الإصلاحات هذه أمرا غير ضروري ، وتنبأوا متذمرين بأن الأذى سيلحق بحيفا إذا سُمح لمثل هذه البدع بالاستمرار.

جاء محمد بيك في ساعة متأخرة من مساء يوم الخميس إلى دار القنصلية ، وهو يندب حظه لفقدانه سلسة ذهبية تحمل الخاتم الخاص بطبعة توقيعه المميز. تمتلك طبعة الخاتم في الشرق أهمية تفوق أهمية الإمضاء أو التوقيع الشخصي. كان محمد بيك يخشى أن يقوم من يعثر على خاتمه باستخدامه لغايات غير مناسبة أو قانونية ، لهذا فقد قام يوسف أنطون ، سكرتير الحاكم بتحرير تصريح بفقدان الخاتم وقّعه البيك ، وشهد أخي على صحة محتوياته. أخبرنا محمد بيك بأنه فقد السلسلة في البازار بينما كان محاطا بحشد من الأولاد الذين كانوا يتلقون تعليماته بخصوص تنظيف الشوارع. كانت ليلة لطيفة ، وبين الجد والهزل ، تقدمت بعرض للبحث عن الكنز المفقود. فألزمني باقتراحي فخرجنا جميعا. كانت البلدة هادئة تماما ، كان البازار خاويا ولامعا ونظيفا كضوء القمر ، وبفضل الجهود التي بذلها جامعو القمامة ، لكن وعلى الرغم من كل هذا ، لم يواتيني الحظ في العثور على الخاتم.

فجأة خلال عودتنا للمنزل ، شقت سكون الليل صرخات عويل وبكاء لنساء يعلنّ نبأ وفاة شخص ما. بقي صدى عويلهن وصراخهن يتردد في أذنيّ طوال الليل.

في اليوم التالي ، في الصباح الباكر من السادس والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر ، نظرت من النافذة ورأيت نعشا موضوعا بالقرب من باب أحد البيوت المجاورة. كان عبارة عن لوح خشبيي مدهون ، حوالي سبعة أقدام طولا بقدمين عرضا ، يرتفع قليلا على أربع قوائم ، ومحاط بإفريز واطئ ، وله أربع قوائم متباعدة عن بعضها البعض ، ودعامتان خشبيتان متقاطعتان. كما ارتفعت أوتاد قوية في كل زاوية من زواياه ، وضعت سعفات غضة من أغصان النخيل المرنة أعلى النعش ، حيث ثُنيت كأنصاف أقواس ثم شبكت ببعضها البعض وثُبتت بواسطة سعفات مستقيمة على طول النعش. رسمت هذا النعش ، وصرت الآن قادرة على رؤية رجل محمول من داخل البيت ليسجى داخل النعش. كان وجهه مغطى بشالٍ. رفع أربعة رجال النعش عن الأرض ، ووضعوا نهايات الدعامتين على أكتافهم وحملوه واتجهوا نحو المسجد. بعد وقت قصير ، سار النعش ببطء ومر بالقرب من دار القنصلية في طريقه إلى المقبرة الإسلامية يتبعه حوالي أربعين رجلا صامتين تماما ، تبعتهن حوالي خمسين امرأة وطفلاً يبكون وينتحبون ويصرخون في لوعة وأسى.

تمكنت من رؤية جثمان الميت بصعوبة من بين سعفات النخيل. كان الرأس أكثر الأعضاء وضوحا وقد رُفع بعض الشيء. لم أستطع منع نفسي من التفكير بأنه لو قُدر لصوت ما أن يمتلك المقدرة على إحياء الموتى ، لطلب من أم وأرملة المتوفى أن يتوقفا عن النحيب ، ولأمر حملة النعش بأن يقفوا حيث هم ، ولقال للرجل الميت: إنهض ، ولوقف الميت في أبهى ملابسه تحت سعفات النخيل وبدأ بالكلام. أنظر إنجيل لوقا 7 ، 11-51.

استفسرت عن المتوفى ، فعرفت بأنه كان رجلا مسلما محترما ناهز عمره أربعة وعشرين عاما ، ترك وراءه زوجة وطفلين. كان قد توفي قبل منتصف الليل بقليل بعد ساعات قليلة من مرض ألم به ، لكنه كان مرضاً شديد الأعراض لدرجة أن الطبيب العربي أعلن أنها حالة كوليرا. كانت حيفا قد شهدت العديد من حالات الوفاة المفاجئة خلال أسابيع قليلة.

مرضت مرضا شديدا خلال ذلك النهار. وأُرسل من يستدعي الأخ جوزيف ، طبيب الدير للقدوم لرؤيتي. حضر الطبيب وأعطاني جرعات قوية من الأفيون الطبي. في اليوم التالي ازدادت حالتي سوءا وشعرت بوهن شديد. فأوصى بأن أتقيأ وأخضع لعملية فصد للدم ، فرفضت الاقتراحين بلا تردد واستغنيت عن خدماته. أوصى أخي بمغطس مياه ساخنة وكمادات من الخردل والخل ، فخلدت للنوم ، ولكني كنت أزداد ضعفا ووهنا. في الساعة الثالثة من صباح يوم الأحد التاسع والعشرين من تشرين الأول / اكتوبر ، أرسل أخي قواسه إلى عكا لجلب طبيب كملاذ أخير. كتب رسالة للباشا ، وبالرغم من حالتي البالغة السوء ، ضحكت على الرسالة عند سماعي لترجمتها الحرفية للغة الإنجليزية. كانت تتضمن التماسا بأن يسمح صاحب السعادة بإرسال طبيبه الأرمني الخاص ، للقدوم إلى حيفا لعلاج: البنت الأخت لنائب القنصل البريطاني التي تعرضت لجمال طفيف أو حُسنٌ إنه أسلوب الكتابة التركي الرفيع والكيّس للتلميح للمرض ، إذا كانت المريض امرأة!

وصل الطبيب خلال وقت قصير حاملا أوامر صارمة من الباشا بأن لا يفارقني حتى أستعيد عافيتي. كان يجيد الإيطالية بطلاقة بالإضافة للتركية واليونانية. كان رجلا مثابرا ومفعما بالحيوية وذا شخصية محببة ، ما جعلني أثق به على الفور. باشر بإعطائي جرعات صغيرة من زيت الخروع الممزوج بالسكر والماء واللبان العربي والمغنيسيا ، بنسب متساوية ، كما

استخدم كمادات منقوعة ببذر الكتان والخردل. قام بتحضير كميات من النشا الحلو وعصيدة تحتوي على بعض المغنيسيا ، وكان يجعلني أتناول كميات قليلة منها بين الحين والآخر ، مع احتساء كميات من ماء زهر الليمون. لم يغادر المنزل طيلة ثلاث أيام متتالية بلياليها ، وفي يوم الخميس ، وبفضل مهارته وعناية كاترين ، تعافيت تماما من حالة الجمال الطفيف التي ألمت بي ، التي كانت من النوع الفتاك ، وقيل بأنها الكوليرا.

نلنا تعاطفا كبيرا من جيراننا ، في الليلة الأولى التي غادرت فيها غرفتي ، قدمت فرقة من المغنين إلى شرفتنا لتغني خصيصا لأجلي ، حيث قاموا بغناء أغنيات تعبر عن الفرح والتمنيات بأن أقوم قريبا مشان أتمشى بالبيارات وأتنفس الهوا بسلامه وراحة بال

في الأول من تشرين الثاني / نوفمبر شاهدت أعدادا كبيرة من طيور السنونو تجثم على سطح البيوت وحبال سواري الرايات. قيل لي بأنها كانت تتجمع هناك منذ عدة أيام. قبل حلول المساء ، شاهدتها تتجمع في أسراب وتطير باتجاه الجنوب. بدت أسرابها وكأنها سحابة قاتمة تبحر سريعا في الأجواء.

صديقنا صالح صيقلي وأسرته نزحوا أيضا. رحلوا إلى الناصرة خوفا من الكوليرا وحاولوا إقناعنا بمرافقتهم.

أكثر الفترات إضرارا بالصحة في فلسطين هي تلك التي تعقب الأمطار التي تتساقط في بدايات فصل الخريف (23) ، والتي تعد فاتحة موسم الأمطار ، وتمتد إلى أن يبدأ المطر بالهطول بانتظام وبكميات وفيرة. وهذه الفترة لا تتجاوز عادة الأسبوعين أو الثلاثة أسابيع ، ولكن في السنوات التي تمتد فيها لفترات أطول ، كما حدث في العام الحالي أي العام 1855 ، فإن الأوبئة تنتشر.

في الثاني من تشرين الثاني /نوفمبر ، هبت رياح الصبا الشرقية بقوة ، وكانت حارة وجافة ولاذعة ، وكأنها صادرة من فرن ، فشوهت الكتب في مكتبتنا وتسببت في تشقق أثاثنا المصنوع من خشب الزيتون. أغلقنا مصاريع النوافذ الشرقية في الغرف كافة ، ولكننا لم نتمكن من الخلاص من هذه الرياح الحارقة.

كانت أربع سفن إنجليزية راسية في الميناء ، علاوة على العديد من السفن الشراعية اليونانية ، اشتكى ربابنة هذه السفن بطريقة لا تخلو من فظاظة من الأضرار التي سببتها الرياح الحارقة للهياكل الخشبية لسفنهم.

أحد الربابنة الإنجليز قال وهو يصعد إلى متن سفينته: آمل أن تمنحني شهادة صحية نظيفة يا سعادة القنصل ، فأجابه: نظيفة قدر المستطاع ، جاء الجواب ، ولكن لا بد أن أذكر فيها حدوث ست حالات وفاة خلال ستة ايام- وفيات مفاجئة ، إصابات بالكوليرا

توقف العمل في تنظيف الشوارع بعد هذا ، وكنت ألحظ مواكب الجنازات بشكل يومي تقريبا ، وهي تتجه عبر البوابة الشرقية نحو مقبرة المسلمين ، وأحيانا من الكنيستين الأرثودكسية أو اللاتينية بسير بطيء باتجاه مقابر المسيحيين عبر البوابة الغربية. عادة ما تحمل جثامين أموات المسلمين في النعوش المفتوحة ، وقد رفع رأس الميت قليلا ، لتتم مراسم الدفن حسب العادات المتبّعة. انتابتني القشعريرة في أرجاء جسدي في المرة الأولى التي شاهدت فيها مراسم الدفن بهذه الطريقة ، إذ كان الأمر شبيها بدفن إنسان على قيد الحياة.

أموات الطبقة الثرية من المسيحيين يدفنون عادة داخل توابيت. ويحمل التابوت عادة أربعة أو ستة رجال يتقدمهم الكهنة وهم يسيرون تحت الأقواس المرفوعة ، محاطين بحشود المشيعين الذي يرتلون الصلوات ، رافعين يافطات مطرزة وصليبا ضخما ، ويرافقهم أحيانا أولاد يرتدون الرداء الكهنوتي يؤرجحون المباخر التي يحملونها. على مسافة قصيرة ، تتبعهم مجموعة من النساء اللاتي يصرخن وينتحبن بلوعة وأسى ، على الرغم من أن الكهنة يبذلون جهودا كبيرة لمنع مشاركة النساء في مواكب الجنازات إلا أن كل جهودهم لم تجد نفعا.

لم تشهد الطائفة اليهودية حالة إصابة واحدة بالكوليرا.

كانت أعداد الوفيات أكبر في الحي المكتظ بالمسلمين ، ولكن لم يبد أن المسلمين كانوا خائفين كثيرا. ربما يعزى ذلك لإيمانهم المطلق بالقضاء والقدر ، هذا الإيمان الذي جعلهم يبدون هادئين وأكثر ميلا للاستسلام. في الجهة الأخرى ، في أوساط المسيحيين دب الذعر

المحبط للمعنويات وانتشر بسرعة كبيرة.

صعد معظم الأوربيين تقريبا إلى الدير ، حيث أنشأوا منطقة حجر صحي صارم. ارتحل كثيرون من العرب إلى الناصرة وشفا عمرو. بلغ عدد النازحين أكثر من ألف نسمة ، وبدا الحي المسيحي مهجورا تقريبا. كان من اللافت بقاء قبعة واحدة في البلده -أي أوروبي واحد- إشارة إلى شقيقي ، الذي واظب على عمله محاولا مساعدة الناس. كان ينتقل بين البيوت ليسدي النصائح ويوزع أدوية بسيطة ، ولأنه لم يكن مقتنعا بأن الوباء المنتشر هو داء الكوليرا ، فقد عاين جثتين أو ثلاثاً فورا بعد وفاتهم. أكدت حالة جثامينهم الاعتقاد السائد.

الكلمة المرادفة للكوليرا أو الوباء بالعربية هي الهوا الأصفر لون الرايات التي ترفع فوق السفن الموبوءة بالكوليرا يكون أصفر ، هل يمكن أن يكون اللون الأصفر قد أُختير بناء على هذا الاسم ؟ أخبرني العرب بأن أكثر حالات الكوليرا ضراوة تقع عندما تتغير منازل القمر ، وبأن الذين يصابون بالعدوى خلال ذلك ، لا فائدة ترجى من شفائهم إطلاقا. لم تخرج النساء من بيوتهن سوى للسير خلف الجنائز ، وازدادت حدة الأكتئاب والإحباط لدى الرجال. حتى خياطنا القصير ، سليمان الشفاعمري ، أكثر الناس مرحا وقدرة على إضحاك الآخرين ، أصابته مشاعر الخوف والفزع السائدة أخيرا. صارت خطواته السريعة والواثقة بطيئة وحذرة ، وخفت صوته حتى صار همسا. كنت معتادة على حضوره إلى دار القنصلية بين الحين والآخر ، ليريني السترات والبناطيل التي يقوم بحياكتها وتطريزها من أجل جهاز عروس مقبلة على الزواج ، أو كيس التبغ الذي حاكه وطرزه لأحد البكوات. كان واحدا من العديدين الذين فرضوا أنفسهم كأساتذة لي ، وفي الوقت الذي كانت شخصيته تنطوي على قدر عميق من الاحترام ومراعاة الآخرين ، إلا أنه كان سفيها بشكل مذهل. كانت شخصيته خير مثال لزير النساء الشرقي ، وكان مظهره يوحي بأنه قد خرج تواً من إحدى صفحات كتاب ألف ليلة وليلة- وسيم ورشيق في كل الحركات التي يقوم بها. كان دائما على أهبة الاستعداد ، دونما طلب ، ليؤدي خدمة ما- لإشعال غليون ، لتشذيب ذبالة سراج ، لبريّ قلم رصاص ، لترتيب وسائد ومساند الديوان ، لجلب كأس من الماء ، أو لإسداء النصح وإبداء الرأي. كان ينظر بعين ناقدة للأزياء التي يرتديها الجميع ، ويصدر تقييما لكل قطعة

من الملابس بنبرة مترددة ، وكأنه يوجه الحديث إلى نفسه في نصف كلامه ، بينما يوجه النصف الآخر لمن يرتدي تلك الملابس.

كان عدد الكلمات العربية التي أتعلمها منه خلال ساعة واحدة فقط أكبر مما يمكن أن أتعلمه من أي شخص آخر طوال يوم كامل. كان أميا لا يستطيع القراءة ولا الكتابة ، ولكنه كان يمتلك ذاكرة حادة. كان يحفظ عن ظهر قلب كل المفردات السهلة التي تعلمتها على يديه. وكان معتادا على أن يختبرني في كل زيارة يقوم بها في المفردات التي علمني إياها في مناسبات سابقة ، ولدى كل إجابة صحيحه أُعطيها كان يجول ببصره في أرجاء الغرفة ، متوقعا نظرة استحسان له وأخرى لتلميذته.

لقد أراني كل أنماط التطريز الدارجة في بلاد الشام. كان يبتكر تصاميم في غاية الروعة للمطرزات ، وعلى وجه الخصوص في الأشكال والنقوش المستوحاه من أوراق الشجر والنباتات. في البدء ، يقوم بشد قطعة القماش أو الحرير ، بواسطة خياطة ورق مقوى على ظهرها ، ثم يستخدم قطعة صلبة من الصابون المصنوع محليا بعد أن يحكّها ليتمكن من الرسم بها كالقلم ، ثم يرسم بضعة خطوط متناسقة ودوائر متقاطعة في أي فراغ متاح. يكمل التصميم ، ويشرع بالعمل عليه ، بخيوط مذهبة ، ومن المستحيل أن يصمم نمطين أو تصميمي تطريز متشابهين تماما. كان من الجلي أنه يستمتع كثيرا فيما يقوم به ، ولكن حتى هو تغير الآن- هجرته روح الشجاعة والثقة بالنفس. لم يعد يستمتع بالتطريز بإبرته ولا بخيوطه الذهبية. أخبرني بكلام مفعم بالحسرة بأن بعض أفضل المطرزات التي أبدعها صارت في المقبرة ، لأن الرجال والنساء ، سواء كانوا من المسلمين أو المسيحيين ، يكفنون عادة بملابس أعراسهم أو أفضل ملابسهم (كما وردت في النص الأصلي للكتاب ، مع أن من المعروف أن المسلمين يدفنون بأكفان لا بالملابس-المترجم). كان سليمان واحدا من العرب القلائل الذين كانوا يعتقدون بأن هذا الأمر يدعو للأسف.

عندما يدفن المتوفى وهو مكفن بأثواب باهظة الثمن ، يحرس القبر لمدة من الزمن لتفادي أن ينبش بهدف السرقة.

ذهب سليمان إلى شفا عمرو ، بلدته الأصلية ، لفترة من الوقت حيث نجا من الكوليرا.

امتطينا خيولنا واتجهنا للدير في أحد الأيام. كان مئتا شخص من أهالي حيفا قد اتخذوا منه ملاذا. الحدائق التي لطالما سادها الصمت والأجواء الرهبانية ، دبت فيها الحياة بعد ان انتشرت فيها مجموعات من العرب الذين يدخنون تحت الأشجار أو أولئك الذين يتنزهون في جنباتها. كل الغرف كانت مشغولة. جاء القنصل الفرنسي للترحيب بنا ، ولكنه تفادى الإتصال الجسدي المباشر ، وقادنا إلى قاعة الاستقبال حيث كان الفحم مشتعلا. جاءت زوجته وأطفاله لرؤيتنا ، ولكنهم بقوا على مسافة منا. أخبرونا بأنه في الوقت الذي كان فيه الناس يموتون بفعل الكوليرا في حيفا ، فإنهم تعبوا من الخوف والضجر في منفاهم الاختياري على جبل الكرمل.

تحسنت الحالة الصحية في حيفا إلى حد ما ، وشفيت حالات عديدة من حالات الكوليرا. كان العديد من الناس يتناولون الفحم المطحون كالبودرة ، المحروق مع الدقيق في مباخر مفتوحة ، كعلاج وقائي ، أعتقد بأنه كان علاجا فعالا. ملعقة منه أو أقل ، مذابة في فنجان قهوة سادة ، كانت تمثل الجرعة اليومية منه.

في الرابع عشر من شهر تشرين الثاني / نوفمبر خرجنا في رحلة للمناطق الداخلية من فلسطين برفقة الكولونيل والبول وحرمه المصون. كان قد التمس مساعدة أخي في العثور على مأوى شتوي للفوج الذي يتولى قيادته. وتفضل بدعوتي للذهاب بمعيتهم ، لذلك وبمرافقة جنود الباشي بوزوق المرافقين له ، وخطاب التوصية الموجه من الباشا إلى جميع حكام الباشليق أو السنجق التابع له ، ذهبنا إلى شفا عمرو ، الناصرة ، محيط بحيرة طبريا وعلى طول مجرى نهر الأردن ، صعودا إلى جبال لبنان الشرقية ، مستكشفين كل القلاع والحصون والأطلال القديمة ، من دون أن نختلط كثيرا بالسكان المحليين. كانت الحملة ذات طابع أثري ومعماري ، لذا فلن أسترسل بالحديث عنها. عدنا إلى حيفا في العاشر من كانون الأول / ديسمبر.

جاء السيد زيفو ، قنصل بروسيا للترحيب بنا. قال بأنه كان القبعة الوحيدة في البلدة وبأن احتجازه في البلده عائد لأسباب تتعلق بالوظيفة وليس برغبته المحضة ، نظرا لانتشار الكوليرا والتيفوس. كان الناس كافة يبتهلون ويصلون لنزول المطر. طوال الأيام الثلاثة التي

أعقبت عودتنا ، لم تشهد البلدة حالة وفاة واحدة ، وعاد بعض النازحين من الدير. كان القنصل الفرنسي من أول الواصلين. ابنته الصغرى ، الطفلة المدللة في أسرتها ، التي كانت لثغتها باللغتين العربية والفرنسية في غاية الجمال ، أصيبت للأسف بالكوليرا فورا ، وفارقت الحياة بعد إثنتي عشرة ساعة من المعاناة.

دب الهلع من جديد في الخامس عشر من الشهر ، لكن ظروف غريبة تكفلت بإعادة السكينة إلى نفوس العرب. ليلة الأحد السادس عشر من كانون الأول ، حلمت إحدى السيدات بأنها رأت أربعة عفاريت شريرة. حمل كل واحد بيده حجرا تعلوه كتابات ونقوش. سألتهم السيدة: شو بدكو ؟ ليش جيتوا تغلبوني ؟ فأجابوا جميعا وكأنهم يتكلمون بصوت واحد: جينا نرمي أربع حجار فقالت لهم: ارموا حجاركم بسرعه وامشوا بخير وسلامه رمي أحد الحجارة عليها ، بينما قذفت الحجارة الباقيه في اتجاهات مختلفة. روت منامها في اليوم التالي وبدت عليها علامات القلق الشديد. كان العفاريت في منامها حسب مفسري الأحلام ، عفاريت الهوا الأصفر غالبية الناس اقتنعت بأن حيفا ستشهد أربع وفيات أخرى فقط بسبب الكوليرا. في الثامن عشر من الشهر ، أصيب أربعة عشر شخصا بالعدوى ، مات من بينهم حالتان فقط ، كانت صاحبة المنام إحداهما. وقعت حالتا وفاه إضافيتان في اليوم التاسع عشر من الشهر ، وقد كانتا آخر الوفيات التي تم الإبلاغ عنها. اطمأن الناس وبدأوا بالعودة من عكا والجليل والكرمل. ولكن الأمطار التي تمناها الناس لم تهطل بعد. كانت المؤونة عزيزة جدا والحليب سيء الجودة والمذاق بسبب نقص المرعى.

التجأت عدة سفن من يافا إلى ميناء حيفا. كانت الرياح عاتية وغير مواتية لدرجة أن سفينتين تحطمتا خارج ميناء عكا ، وفقد زورقان داخل الخليج. استمرت الرياح الغربية بالهبوب بقوة ليوم أو يومين وملأت مصب نهر المقطع بالرمال ، بحيث صار بالإمكان قطعه مشيا على الأقدام. ثم هبت الرياح الشرقية فجأة وسحبت الحاجز الرملي بعيدا ، حتى بلغ عمق النهر اثني عشر قدما في المخاضة المعتادة لعبوره ، ليصبح اجتيازه صعبا من جديد.

هطل المطر عشية عيد ميلاد السيد المسيح ، ولكنه كان مطرا لم أر في حياتي مثيلا له على الإطلاق ، الا تلك الصور القديمة المعروفة عن طوفان نوح. تدفقت سيول سريعة من الماء

والوحل وقطعت البلدة من جميع الاتجاهات. تسربت الأمطار من النوافذ الرديئة الصنع ، واقتلعت الرياح العاتية مصاريع النوافذ والأبواب في بيتنا من مفصّلاتها. ولحسن الحظ ، كان البيت الذي كنا ننتظر الانتقال إليه جاهزا ، فتمكنا من الانتقال إليه في الفترات القصيرة التي كان المطر يتوقف خلالها. اضطررت للذهاب إليه على صهوة جوادي بالرغم من أنه لا يبعد كثيرا. كان معظم العرب يسيرون حفاة والمياه تغمرهم حتى رسغ القدم.

خلال فصل الشتاء ، كانت تمر ثلاثة أيام من المطر المتواصل تقريبا ، تليها ثلاثة تشرق فيها الشمس ، بالتناوب.

كان بيتنا الذي شيدت غرفه حول ساحة تحيطها الممرات ، ملاصقا للقنصلية الفرنسية. زوجة القنصل -وكانت سيدة من بلاد الشام- تكرمت بإطلاعي على معظم أسرار فنون التدبير المنزلي الشرقي.

التأثيث كان مهمة سهلة. في إحدى الغرف الكبيرة الفارغة ، جلس منجّد من يهود فلسطين وشرع بتفريغ المراتب والوسائد واللحافات. ثم وبمساعدة أداة صغيرة ، كان يفصل القطن الذي يكون صلبا ومتلاصقا ، ثم يمزقه وينفشه إلى أن يتحول إلى سحابة صوفية ناعمة. قام بسرعة بإعادة تعبئة الفرشات ، محافظا على تناسب أحجامها مع الأسرة المعدنية والمجالس المخصصة لها ، وبذكاء قام بحشو مجموعة من اللحافات ، كانت قدماه الحافيتان تقومان بالمقدار نفسه من العمل الذي تقوم به يداه. وتساعده على تثبيت القطع التي يعمل عليها. عندما كان يريد أن ينجد مجموعة من القطن ، كان يثبتها عادة بأصابع قدميه المرنه والطويلة ، التي يستخدمها كأوتاد عندما يقوم بلف وزيادة كمية القطن ، في واقع الأمر ، كان يستخدمهم في عمله بطرق متعددة.

في تلك الأثناء انشغل النجّار العربي في نشر ألواح خشبية وبوصلها ببعضها البعض ، لكي تكون جاهزة لأن تثبت على دكّاتٍ منخفضة حول الغرف. عند الانتهاء من هذه الدكّات ، توضع فوقها مراتب وفرشات يبلغ عرضها الياردة تقريبا ، ثم توضع فوقها الوسائد المغطاة بقماش الشينتز أو بأقمشة مانشستر. ثم تخاط حواشٍ عريضة بالحواف الخارجية للفرشة أو المرتبة ، بشكل يُخفي المنجور الخشبي الكائن تحتها تماما. هذا يلخص كل الغموض

المحيط بالمجالس التركية الفخمة. قامت امرأتان من اليهود العرب بمساعدتي في تركيب الناموسيات وستائر النوافذ.

تم تفصيل حصائر القصب لتغطية الأرضيات الأسمنتية والحجرية في عكا وفقا لقياسات أُخذت سلفا. قمت بفرش إحدى الغرف بنمط أقرب ما يكون للنمط الإنجليزي مع مراعاة الظروف المحيطة ، ولكن بقية المنزل كان مفروشا بالنمط شبه الشرقي. لم تحتو أي من الغرف على مدافئ جدارية. المطبخ احتوى على صف من مواقد الطهو الملائمة لطبخ الطعام وخبز العجين ، تشبه على ما يبدو الفرن ومواقد القدور الكبيرة التي ورد ذكرها في سفر اللاويين 11 ، 53.

كان في ركن من أركان الساحة بئر للماء ، وقد علق عليها جرس كان يرن كلما تحرك الدلو المخصص لرفع المياه. كان ساكنو البيت السابقون عرباً ، وقد تركوا شجرة الحناء لأجلي. إنها شبيهة إلى حد بعيد بشجرة الزيتون لكن أزهارها أكثر صفرة وأكثر نعومة ، ورائحتها نفّاذة أكثر. تجفف الأوراق الخضراء-وهي الأجزاء التي تنتج الصبغة- ثم تطحن إلى مسحوق ناعم ويتم حفظها بحرص.

كان توضيب غرفة المخزن (بيت المونة-المترجم) هو أولويتي التالية. وسرعان ما احتوت مؤونة لفصل الشتاء. كيس من المعكرونة ، سلة من الأرز المصري ، وشوالان من الطحين ، كنت قد أرسلت واحدا منهم ليطحن في مطحنة حجرية تدار بواسطة الدواب. بعد ذلك عملت على تنخيل الدقيق في البيت ، كان السميد ينحى جانبا من أجل الخبز الأبيض وما إلى ذلك ، ليخزن ما يتبقى ليستخدم في خبز الأرغفة العربية للخدم.

الجرار الفخارية الكبيرة والمصقولة من الداخل والخشنة من الخارج ، المصفوفة حول الغرفة ، كثيرا ما كانت تدعوني للتفكير بعلي بابا والأربعين حرامي. إحداها كانت ملأى بالسميد ، جرة أخرى كانت للطحين ، والأخرى للنخالة ، رابعة لزيت الزيتون ، وبضع جرار أخرى ملأت بالزيتون والجبن المصنوع من حليب الماعز وقد حُفظ بالزيت (ربما قصدت اللبنة المكعبلة-المترجم) ، وكمية من سمن الطهو. البرتقال والليمون زينوا الأرفف. التين المجفف (القطين- المترجم) كان معلقا في خيوط رفيعة ، وتدلت حبات الرمان المربوطة

واحدة تلو الأخرى في خيوط تدلت من العارضات الخشبية للسقف ، وكان شذى حزم الأعشاب المجففة من جبل الكرمل يفوح في المكان.

علمتني جارتي كيف أضيف مواد جديدة لغرفة المونة حسب الموسم ، وأن أصنع مربيات الفواكه ، أن أحضر رب البندورة ، وأن أحول القمح إلى نشاء عبر نقعه بالماء ثم تصفيته ومن ثم تجفيفه في الشمس- من أجل عمل أطباق الحلويات وللاستعمال في الغسيل أيضا. العرب لا يُنَّشون أو يكّوون ملابسهم ، لذلك فقد واجهتني في البداية بعض الصعوبات في الحصول على مساعدة في كيّ الملابس الكتانية كما ينبغي. ولكن شاباً عربياً ، عمل مع خياط أوروبي في الماضي ، وتعلم كيفية استخدام المكواه ، بالرغم من اعترافه بأن تنشية الملابس ما زالت سراً بالنسبة اليه ، تطوع لمساعدتي باذلا ما بوسعه. بعد ذلك ، تعلمت فتاة عربية شابة كانت تعمل في خدمتنا طريقة كي الملابس على يد عبد حبشي يعمل خادما لدى أحد جيراننا من الأوروبيين ، وأصبحت ماهرة جدا في ذلك.

يقتصر استخدام العرب للنشا على تحضير المهلبية ، وتزعجهم فكرة استخدامه في تقسية الملابس ، وذلك بسبب الاحترام الذي يكنونه للقمح بأي حالة كان. إذا وقعت كسرة خبز على الأرض ، فإن العربي يرفعها بيمناه ويقبلها ويضعها على جبهته ، ويضعها على حافة علية أو جدار بحيث تعثر عليها الطيور ، لأنهم يقولون: لا يجب أن ندوس نعمة الله علينا بأقدامنا لقد رايت هذه الممارسة باستمرار لدى طبقات المجتمع كافة ، السادة والخدم ، وحتى الأطفال الصغار ، المسلمين والمسيحيين.

كنت مشغولة جدا لدرجة لم أشعر فيها بوحدتي. خصصت ساعات الصباح للأعمال المنزلية ودروس اللغة العربية. تبادل الزيارات كان يشغلني بعد انتصاف النهار ، وإذا كان الطقس مناسبا ، كنت أستمتع بجولة على الخيل أو نزهة على الأقدام قبيل المغرب بصحبة أخي ، أو بالجلوس معه ومع أصدقائه في الأمسيات اللطيفة. عندما كنا نجلس لوحدنا في النهاية ، كنا نقارن الملاحظات التي أخذناها عما مر بنا خلال النهار من أحداث ومشاهدات. إقامته الطويلة في الشرق منحته المقدرة اللازمة لشرح التعقيدات والتناقضات التي كانت تواجهني في فهم العرب ، وفي توجيهي للطريقة المثلى للتعامل معهم. نهارات الشتاء تبدو متشابهة

جدا في إطارها العام ، ولكن تفاصيلها كانت مختلفة بشكل لطيف على الدوام.

إبراهيم صيقلي ، سكرتير أخي -والمعلم الذي كان يعطيني دروسا في الكتابة- شاب متقّد الذكاء ومفعم بالحيوية من طائفة الروم الأرثودوكس ، ذهب إلى عكا كالعديد من الناس لتجنب الإصابة بالكوليرا. كانت عكا قد اكتظت بالناس ، فانتشر وباء الجدري. التقط إبراهيم المسكين العدوى وتوفي فجأة في السادس عشر من كانون الثاني / يناير 1856. ألقت وفاته بظلال من الكآبة على حيفا ، لأنه كان محبوبا لدى المسيحيين والمسلمين على السواء.

في الصباح الباكر من السابع عشر من كانون الثاني /يناير ، جاء خليل صيقلي ، والد إبراهيم إلى بيتنا. كان رجلا طويلا قوي البنية ، يرتدي ثوبا طويلا مفتوحا من الأمام وعمامة كبيرة بيضاء. ملامحه كانت عادية ولحيته طويلة بيضاء. كان حزنه مهيبا ، وعبّر عن فجيعته بابنه برصانة وجلال. ذهب مع أخي ووجهاء وأعيان بلدتنا إلى عكا لمرافقة الموكب الجنائزي ، بعد أن وضعت الترتيبات اللازمة لأن يؤتى بالجثمان للدفن في حيفا. استقدمت كل خيول وحمير البلده لذلك الغرض وأغلقت الدكاكين كافة أبوابها تقريبا.

خرجت لكي أرى نحيب أرملة الفقيد ومرافقاتها. كنّ خارج البوابة الشرقية على مسافة قريبة من المقبرة. أحاط حوالي خمسين إلى ستين امرأة مبرقعة بقريبات الفقيد. مشيت بانقياد شبه تام مع الشابة كاترين صيقلي ، عبر الحشد إلى مساحة فارغة في الوسط. في مركز هذه المساحة ، كانت الأرملة ، فتاة شابة وجميلة ، تركع على الأرض. كان وجهها سافرا. وكان رأسها مغطى بطربوش أحمر قصير فقط. ارتخى شعرها المسترسل دون تضفير على سترتها الخضراء المطرزة بالخيوط الذهبية. كانت تحرك جسدها يمينا ويسارا وللأمام وللوراء ، قذفت برأسها للوراء ، رفعت ذراعيها للأعلى وكأنها تتضرع بلوعة وأسى ، وألقت بجسمها بعد ذلك للأمام فارتطم وجهها بالأرض ، ثم نهضت على قدميها بحركة مفاجئة ، ومع عينيها الداكنتين والشاخصتين للأعلى ، وذراعيها اللذين رفعتهما فوق رأسها ، شرعت بالصراخ والعويل ، وانضمت النسوة كافة اليها في البكاء والنحيب. ارتمت على الأرض وكأن التعب قد نال منها ، ليسود الصمت لدقيقة تقريبا. ثم نهضت بضع نساء من الحلقة الداخلية ،

ألقين ببراقعهن ، وشرعن بالرقص من حولها وهن يَنْدِبنَ ويزغردن ، وقامت النسوة الأخريات بترديد أغاني الرثاء من ورائهن. حافظت النوّاحات المحترفات على حدة الانفعال والهياج بالإتيان بحركات تظهر الأسى والحزن العميقين ، وكانت المؤديات المحترفات يرتجلن أغاني الرثاء المتناسبة مع ذلك. دام هذا المأتم لثلاث أو أربع ساعات ، بدأت أعداد النساء بعدها بالتناقص تدريجيا. شققت طريقي بينهن بصعوبة ، نظرا للهياج والهستيريا التي انتابت الحاضرات.

لفت نظري أن عابري السبيل من الرجال حافظوا على مسافة بعيدة عن هذا الحشد من النساء النائحات ، وغضوا البصر ولم يحاولوا ولم لمرة استراق النظر إلى الأرملة السافرة والحاسرة الرأس. وقف القواس الذي كان برفقتي على مسافة كافية بانتظاري. عندما تمكنت من الخروج من بين الحشد ، كان بمقدوري رؤية الموكب الجنائزي وهو يمر على الرمال. أُبلغت بأن جثمان إبراهيم كان قد ووري الثرى في مقبرة عكا ، بعد أن تقرر أنه من الخطورة بمكان أن يشيع الجثمان وصولا إلى حيفا. عندما شارف الموكب على الوصول للبلده ، صعدت إلى السطح الواطئ لأراه خلال عبوره. جاء أولا قوّاسو بعض القناصل ، حاملين عصيهم الطويلة ذات الرؤوس الفضية المجلّله برايات سوداء ، تليهم مجموعة كبيرة من الشبان بملابس مختلفة الألوان ، كانوا صامتين تماما ويسيرون في صفوف في كل صف منها أربعة شبانٍ. على مسافة قصيرة وراءهم ، ظهرت فرس إبراهيم ، دون أن يمتطيها أحد ، بقيادة رجلين يسيران ببطء وتؤدة ، كان على سرج الفرس بعض ملابس المرحوم إبراهيم التي يعرفها الناس جيدا.

سار إخوة إبراهيم الثلاثة في صف واحد ، وتبعهم أبناء إخوانه وأبناء عمومته ، وكان صديقنا صالح من بينهم ، وقد بدت عليهم جميعا امارات الحزن والوجوم. ثم تبعتهم الأم المكلومة. كانت تجلس متربِّعة على صهوة حصان ، يسندها رجلان. وضعت نقابا على وجهها ، ولكن انحناءة رأسها أظهرت مقدار فجيعتها- لقد فُجعت بابنها المفضل. أخي الذي لطالما كان يكنّ لها وللفقيد مشاعر الاحترام والتقدير ، كان يسير على صهوة حصانه إلى جانبها. وكان محمد بيك ، على صهوة فرس بيضاء في غاية الجمال ، محاطا بمجموعة من الرجال المسلمين ،

وراءهما مباشرة. جاءت جموع المتفجعين من أهالي عكا، يتقدمهم آل الجّمال بعد ذلك مشيا على الأقدام، وفي المؤخرة تماما، الأب، وقد بدا مفطور الفؤاد، وحيدا على صهوة جواده في طريقه إلى بيته المنكوب.

عندما اختفى الرجال كافة عن الأنظار، دخلت مجموعة النسوة بوابة البلدة وهن يَنُحنَ وينتحبن. وانسحب القواس الذي كان برفقتي على عجل، وقال لي الشاب اليوناني الذي كان يقف بجانبي: يمكنك البقاء هنا لرؤيتهن، ولكن لن يكون بقائي أنا مناسبا، الرجال لا يجب أن ينظروا إلى مواكب العزاء النسائية وغادر المكان.

جاءت أولا مجموعة من الراقصات، غير مبرقعات بالكامل، وكنّ يأتين بحركات بطيئة ورشيقة، وفي أيديهن مناديل وأوشحة يلوّحن بها، ثم يتوقفن بين الحين والآخر لتتخذ أجسادهن أوضاعا غريبة، فيثبتن في وضعية معينة كالأصنام لمدة ربع دقيقة أو تزيد، ثم يعاودن النواح والعويل الهستيري، وتشارك الحاضرات كافة في ترديد نواحهن. سارت الأرملة الشابة بمفردها وقد تبعتها امرأتان تحملان الأطفال الأيتام.كانت هذه المجموعة محاطة بالقريبات المباشرات لإبراهيم اللواتي مشين على مسافة قريبة منهن. رددت مجموعة من النساء والفتيات في نهاية الموكب أغاني المراثي التي غنتها قائدات الجنازة. وهكذا طُفن شوارع البلدة بسير بطيء، استمر النواح والعويل المرتفع في بيت صيقلي لسبعة أيام. لكن الصمت الحزين الذي التزمت به الأم كان بلا حدود. كان بيتها ملاصقا لدار القنصلية، وكنت معتادة على رؤيتها. لقد تغيرت تماما. خطواتها الواثقة والثابتة انقلبت فجأة إلى خطوات متعثرة، وانحنى رأسها كمدا ووهناً. صارت مقلّة في الحديث، فإذا تكلمت، كانت تتحدث عن فجيعتها ويأسها. كاترين الصغيرة، ابنة صديقنا صالح، وصفت حجم مصيبتها بكلمات مؤثرة قائلة: يا خوفي انو خالتي رح تموت، ما بتفكر بغير ابراهيم، وبدهاش تشوف حدا غير ابراهيم، دايما بتبوس اواعيه وطاقيته وفرده، وجهها مليان دموع على طول، وما في شي يصبرها، ما عم تاكل ولا بتنام طول الليل، وبتغفى شوية مرات بالنهار، الحزن والبكا هدّوا حيلها، وتعبت من ترتيب اواعيه طول النهار، ما في شي ولا في حدا بيقدر يسعدها من هون ورايح

تحققت مخاوف كاترين الصغيرة. في الثالث عشر من شباط /فبراير ، فارقت أم إبراهيم الحياة ، نادبة فراق ابنها المتوفى حتى الرمق الأخير. حضرت جنازتها في اليوم التالي. شاهدت الموكب الجنائزي وهو يتشكل في ساعة مبكرة من الصباح. الرجال الذين يحملون يافطات مطرزة بنقوش ورموز دينية ، قادوا الموكب. تلاهم كهنة الطائفة الأرثودوكسية. حمل أحدهم صليبا كبيرا من الخشب المطلي بالذهب. كان الجثمان موضوعا في تابوت غامق اللون ، رُسم عليه ثلاثة صلبان كبيرة باللون الأبيض. وحمل على أكتاف ستة رجال. جاء الزوج الأرمل وابناؤه الثلاثه في المقدمة. وتبعتهم النساء على مسافة بعيدة نسبيا. وغصت الشوارِع بأعداد غفيرة من الناس الذين اصطفوا على طول الطرق المؤدية للكنيسة ، وعند مرور الموكب الجنائزي من أمامهم ، كان العديد منهم ينضمون للموكب.

كانت الأجراس تقرع لدى دخولي للكنيسة. صعدت للشرفة المخصصة للنساء ، وكانت على علو شاهق في مواجهة المذبح. دُعوت إلى مقدمتها حيث أعدت كتلة من الخشب لجلوسي. أحاطت بي النساء المنقبات جميعا بملاءات بيضاء جلوسا على الأرض المغطاة بالحصائر. نظرت إلى الأسفل إلى صحن الكنيسة عبر مشربية خشبية مائلة بزاوية 20 درجة تقريبا بالنسبة للسقف ، وقد رُكبت بحيث لا يمكن للمرء رؤية ما يدور بالأسفل دون أن يستند منحنيا للأمام ووجهه ملتصق بفتحات المشربية. بهذه الوضعية ، كان بمقدوري مشاهدة ما يحدث بوضوح.

كان محيط مذبح الهيكل مكتظا بالناس. الرجال الأوروبيون ذوو الملابس الغامقة الألوان كان من السهل تمييزهم من بين العرب بملابسهم المتعددة الألوان. تجمعت النوّاحات الرئيسيات بملاءاتهن البيضاء في ركن واحد. وضع التابوت على منصة مرتفعة في الوسط. وترك فراغ بسيط في محيطه. وقف كاهن عند رأس التابوت محركا مبخرته بحركات بطيئة ، بينما كان كاهنان آخران يرتلان المزامير ويتلوان الصلاة بتمتمة ولحن رتيب. وردد المصلون من ورائهم بصوت مرتفع.

قام الشباب الأصغر سنا من ال صيقلي بتوزيع الشموع على جميع الحاضرين الذي ناهز عددهم الثلاثمائة شخص ، وكان المشهد بالغ الغرابة عندما أُشعلت جميع الشموع إضافة

للقناديل المحيطة بالتابوت. نور بعض الشموع كان خافتا بحيث بدت كالأشباح لوقوعها في أشعة الشمس ، غاب نور شموع أخرى خلف غيوم البخور ، بينما أنارت بقيتها الزوايا المعتمة التي تزايدت العتمة فيها بسبب احتشاد كل ذلك الجمهور الغفير.

جلس الزوج الأرمل ، خليل صيقلي وأبناؤه الثلاثة سوية في مكان بارز قريبا من الموهف (مكان الخدمة أو غرفة المقدسات-المترجم). استجابة لإيماءة كبير الكهنة ، أفسح الحشد ممرا يؤدي إلى مكان جلوسهم. بعد دقائق معدودة من الصمت المطبق ، نهض الأرمل ومشى باتجاه مركز الكنيسة في الممر الذي تشكل بين الجمع المحتشد. بسط راحتي يديه بصمت على التابوت ، ونزل بجبهته العريضة إلى أن لامست رأس التابوت ، تلا صلاة قصيرة ، وقبل أيقونة بيزنطية صغيرة للسيد المسيح كانت موضوعة هناك ، ثم قفل عائدا إلى كرسيه ، حانياً رأسه للأسفل. بعد برهة من الصمت ، حذا أبناؤه حذوه ، وتبعهم في ذلك أقرب الأقارب الذين قبّلوا الأيقونة أيضا. بعد أن رفع أصغر أفراد الأسرة من الأطفال لتقبيل الأيقونة ، تجمع بقية الحشد حول التابوت ، وأدوا الحركة ذاتها ولكن بعاطفة أقل وبسرعة أكبر.

عندما خلت الكنيسة إلا من النواحات الرئيسيات بعد رحيل معظم المصلين ، نزلت مع النساء للأسفل حيث قمن واحدة بعد الأخرى بتقبيل الأيقونة وهنّ يتمتن بصلاة قصيرة لراحة نفس الفقيدة. بدأت الجنازة بالتجمع من جديد خارج الكنيسة ، وخرجت من البوابة الغربية متجهة إلى مقبرة الروم الأرثوذكس ، وتبعتها النساء بنواحهن وعويلهن على مسافة قصيرة. ومن جديد ولعدة أيام أخرى ، خيم الحداد والحزن على بيت صيقلي.

لكن الزوج الأرمل لم يمانع السلوان. بعد مرور عام تقريبا ، أوفد رسلا للناصرة للبحث عن عروس له ، وعندما وضعت كافة الترتيبات كما يجب سافر إلى هناك من أجل إشهار الخطوبة. ولكن نشوء خلاف مالي في اللحظات الأخيرة أدى إلى فسخ العقد. تم البحث عن واختيار عروس أخرى فورا ، إذ إن خليل قال بأنه مصمم على أن لا يستسلم لليأس ولا لأن يكون موضع تسلية أهل حيفا. وفي النهاية أقيم حفل الخطوبه في التاريخ نفسه الذي حدد مسبقا مع الخطيبة الأولى ، وتم الزواج سريعا بعد ذلك.

كان العريس في السبعين تقريبا بينما كانت عروسه في السابعة عشرة من عمرها! قمت بزيارتها للترحيب بقدومها إلى حيفا. كانت آية في الجمال ، ولكنها فلاحة تماما. وجهها كان مشرقا ونضرا ، والأوشام تغطي جبينها وذقنها ، حاجبان أسودان ومحددان بشكل طبيعي ، ورموش طويلة لدرجة أنها لا تحتاج لوضع الكحل. هذه الصفة التي تمتاز بها بعض النساء ، يتم اختصارها بكلمة واحدة هي كحله كانت وضّاحة المحّيا ، ووصفتها النسوة قائلات: زوجة خليل آية في الجمال ، الورد مفتح على خدودها ، بيلزمهاش تشتري ورد من السوق ويطلق هذا الوصف على نساء شفاعمرو أيضا ، لأنهن يمتزن بإشراقتهن وعافيتهن ، ويندر أن يستخدمن أحمر الخدود. خليل كان مرتاحا ماديا. عاش أبناؤه الثلاثة وزوجاتهم وأطفالهم الصغار معه تحت السقف نفسه ، وغمرت السعادة بيته عندما رزق بولد في هذه السن المتقدمة.

إلياس صيقلي ، الابن الأكبر لخليل كان مولعا بالقراءة ، صاحب فكر ثاقب وعقل منطقي وذهن صاف ، كما كان محبوبا بشكل عام من المسيحيين والمسلمين على حد سواء. كان موظفا في القنصلية الفرنسية ، وكثيرا ما كان يزورنا إذ إنه كان تواقا لجمع المعلومات عن القوانين الدستورية الإنجليزية وتطور الحضارة بشكل عام. لا بد أن يروي لي قصة ظريفة أو حكاية مثيرة للتفكير كلما وجدني وحيدة في منزلنا ، وكانت حكاياه في معظمها أصلية ، فحرصت على تدوينها باهتمام. كثيرا ما كان يناقشني في قضية حكومة سورية (بمعناها الجغرافي -بلاد الشام- المترجم). قال بأنه لا توجد فرصة للشعب للنهوض من أوضاعه الراهنة ، طالما كان هذا الشعب محكوما من موظفين لا يتعاطفون معه ، ولا يحبون البلاد ولا غاية لهم ولا هدف سوى تنمية وزيادة ثرواتهم.

إن العرب في ظل النظام الضريبي غير السويّ المطبق حاليا ، لا يحاولون فلاحة الأراضي كما لو كان من الممكن أن يفعلوا لو وفرت الحكومة الدعم والحماية اللازمتين لهم. في العديد من مناطق البلاد ، لا يخاطر المرء بتطوير ممتلكاته من الأراضي ، فيمتنع عن زراعة أشجار زيتون جديدة ، ولا يبادر إلى توسيع بياراته وكرومه ، ولا يستخدام عمالاً جدداً ، خوفا من إثارة جشع حاكم المنطقة التي يقطن فيها ، فإذا عرف عن الرجل ثراؤه ، يتم ابتكار

الأعذار والأسباب الكفيلة بإفقاره وسلبه ممتلكاته ، يتم تزوير الديون ، وتلفيق الاتهامات الباطلة ، ويلقى به في غياهب السجن إلى حين سداد الديون المزعومة أو بعد دفع غرامة ضخمة. في واحدة من الحالات المشابهة ، قام الفلاحون الساخطون في إحدى القرى المسلمة بتقديم شكوى جماعية للباشا في حق حاكم قريتهم ، بعد أن تجاوز الحدود الاعتيادية المعقولة في سلب الأرزاق. فسارع الباشا ، ومن أجل امتصاص غضب الناس فقط ، بتعيين حاكم جديد. وأخضع الحاكم المعزول للمحاكمة ثم سجنه بعد ذلك لبضعة أيام ، ولم يمر زمن طويل قبل أن كان يدخل في اتفاق معه ليطلق سراحه بعدها ، بعد أن قبل الباشا رشوة جُلُها من الملكيات والعقارات التي كان الحاكم القديم قد استولى عليها ظلما وعدوانا!

سمعت العديد من القصص المماثلة ، كان أبطال البعض منها أشخاصاً أعرفهم جيدا ، لذلك فقد أتيحت لي الفرصة لسماع القصة من طرفيها. كل الأتراك الذين عرفتهم وتعاملت معهم تقريبا ، بدا أنهم يتفاخرون بالمكائد والدسائس الناجحة ، وكانوا وبشكل عام دهاة وأذكياء. مشاعر التعاطف مع العرب لديهم إما ضعيفة أو غير موجودة إطلاقا ، ولا يبدون كمحبين حقيقيين لوطنهم. يقيم في فلسطين أعداد قليلة جدا من الأتراك ، باستثناء الموظفين المدنيين والضباط والجنود. وينظر إليهم الناس في العادة كأجانب.

لا يبقى الباشاوات والحكام لفترات طويلة أو محددة في مكان واحد. حيثما حلّوا ، مع بعض الاستثناءات ، فإنهم يسحقون الفقراء ، ويأخذون منهم حمولات من القمح والحنطة ، لا يقيمون العدل ، ويقبلون الرشاوى إنهم يحابون المسلمين بشكل طبيعي ، ولكن المال هو همهم الأكبر. وهم لا يكتفون بإيذاء الناس الذين عُينوا من أجل حمايتهم ، بل ويسرقون الحكومة التي يفترض بهم أنهم يعملون في خدمتها. لو أن المناصب الحكومية منحت وبرواتب مجزية ، لرجال محترمين ونشطين ، ويمتلكون المؤهلات المناسبة ، عوضا عن بيعها للوسطاء ، لكان لسورية (بلاد الشام بالمعنى الجغرافي-المترجم) أمل ، ولعوقبت الجريمة بما تستحق ، ولحصل الأبرياء على الحماية حتى بوجود المحسوبية والرشوة.

تكوّن لدى إلياس شعور عميق بالوضع غير المؤات لأبناء وطنه. كانوا يعيشون في بلاد

يغزوها البدو ، ينعدم فيها الأمن اللازم للأملاك ، والحوافز والتشجيع الضروري للمزارعين ، في بلاد لا توجد فيها طرقات ، ولا يتوفر فيها سوى بضعة كتب حديثة ؛ وتشترى فيها المناصب الحكومية وتباع ؛ يعبث بقوانينها ، ويستخف بالعدالة فيها ، وتقيد فيها الأنشطة والمشروعات الصناعية والتجارية. لم أستطع منع نفسي من التعاطف معه ، خصوصا بعد أن تكون لدي فهم لا بأس به بمقدرات العقل العربي والخصوبة الهائلة في البلد. الأحوال كانت ستزدهر في ظروف أكثر ملاءمة وزراعة أفضل. أقر إلياس بأن الظلم والطغيان أحبطا الناس وأضعفا معنوياتهم إلى درجة تبعث على الحزن والأسى. كانت ملكاتهم ومواهبهم يساء استعمالها واستغلالها ، وكانت أفكارهم الإبداعية والخلاّقة موجّهة إلى حبك الدسائس والمكائد. وانقلبت مقدرتهم على الاحتمال ونكران الذات إلى لا مبالاه وعدم اكتراث واضحين ، محبتهم للشعر والمآثر عبث بها أساتذة يلقنونهم معتقدات وتعاليم متناقضة ، وأُعاقت خرافات غريبة وغير مألوفه تطور التفكير الإبداعي لديهم.

عندما يخالط حديث إلياس هذا القدر من الإحباط ، فإن بلاد الشام تكون قد خلت من رجل مثل فؤاد باشا قادر على بث روح الأمل بتطوير الأشياء للأفضل. كان إلياس دائم الاستعداد للإجابة عن أسئلتي الكثيرة والمتعددة بأناة وصبر ودقة. اعتدت على رؤيته بانتظام طوال سنوت ثلاث تقريبا. سافر إلى بيروت في عمل ما في آب / أغسطس 1858. كانت صحته متوعكة عندما غادر البيت ، وفي يوم الأربعاء الأول من أيلول / سبتمبر ، علمت حيفا بأنباء وفاته ودفنه في بيروت. كانت هذه مصيبة جديدة كبرى تنزل بآل صيقلي ، كان ينظر لإلياس بوصفه زعيما ومديرا للبيت. أثر الفاجعة على خليل ، الأب العجوز ، كان شديدا ، أما أرملته فقد خارت كل قواها. لقد أربكها مصابها الجلل وكادت تفقد رشدها من هول الصدمة- حتى إنها عجزت عن البكاء أو العويل. استدعوا النوّاحات وأتوا بهن ، النوّاحات اللواتي يجدن أصناف الرثاء والنحيب ، من أجل أن يأتين على عجل ، ويشرعن بالنياح لأجلنا ، لكي تنزل الدموع من عيوننا وحتى تبتل جفوننا بالماء ومجددا ، كانت هناك سبعة أيام من النواح في بيت آل صيقلي. أنظر أرميا 9-17 و18.

توجهت إلى بيت العزاء في اليوم الثالث. تناهت إلى مسامعي صرخات العويل ونحيب

الناس بمجرد دخولي للبيت. أنظر إنجيل متى 9، 32. أخذت إلى قاعة كبيرة مستطيلة. جلست النسوة على الأرض في صفوف متقابلة على جانبيها. تركت مساحة فارغة من مركز الغرفة حتى آخرها، حيث جلست الأرملة على انفراد مع طفلَيها الأصغرين وقد تمددا عند قدميها. كان شعرها أشعث ولم تضع غطاء للرأس. جفونها انتفخت بفعل البكاء المرير، وكان وجها مُصفّراً. بدت وكأنها قد هرمت فجأة. ثوبها كان ممزقا وغير مهندم. لم ترتح أو تغير ملابسها منذ أن سمعت بنبأ وفاة زوجها. قبلتني بانفعال، وقالت: إبكي عليّ، لأنه مات ثم وهي تشير لطفليها، قالت: إبكي عليهم، صاروا أيتام جلست بجانبها. أحد طفليها كان في الثالثة من عمره تقريبا، تسلل إلى حضني وقال بصوت خافت: أبوي مات ثم أغمض عينيه، وضغط بأصابعه الريانة الصغيرة عليهم وهو يقول: ابوي مات هيك - هلأ صار في العتمه

النحيب الذي توقف لوهلة لحظة دخولي تجدد بقوة. كانت المعزيات يرتدين أجمل أثوابهن-حرير ناعم أزرق مقلم بخطوط بيضاء. العديد من النسوة جئن من الناصرة وشفا عمرو وغيرها من القرى. كن قد كشفن عن رؤوسهن وفككن ضفائرهن وبدا عليهن الإرهاق الشديد. عيونهن احمرت من البكاء والسهاد. كان هواء الغرفة ثقيلا وعبقا، إذ لم تغادرها الأرملة والنسوة الأخريات طوال ثلاثة أيام بلياليهن دون راحة، وهن يستقبلن المعزين الذين جاؤوا لمواساتهن. الغرفة كانت ملأى على الدوام، فما إن تغادر مجموعة من النسوة، حتى تدخل مجموعة أخرى. بلغ عدد النساء الحاضرات ثلاثاً وسبعين امرأه خلال زيارتي، دون احتساب الأطفال الذين كانوا دائمي الدخول والخروج.

جلست ثلاثة صفوف من النسوة على الأرض المفروشة بالحصائر على الجهة اليمنى أمام العدد نفسه من الصفوف في الجهة المقابلة. كن جميعهن يصفقن أو يلطمن صدورهن بالتناغم مع اللحن الرتيب الذي كن يرددنه بغمغمات خفيضة.

في هذه الأثناء، انطلقت وصلة استثنائية من مرثيات الحداد التي دعيت للاشتراك بها، كنت ما زلت جالسة في آخر الغرفة بجوار الأرملة. غنت النساء الجالسات على يساري، بقيادة إحدى النواحات المحترفات، المقطع التالي بحماسة وعنفوان:

شُفناه، بين الفرسان

راكب ع فرسه ، فرسه اللي بيحبها

فأجابت النساء الجالسات في الجهة المقابلة من الغرفة ، بنبرة أكثر انخفاضا وحزنا ، وهن يلطمن على صدورهن بأسى:

ياحسرتي! ما راح نشوفو بعد اليوم

بين الفرسان

راكب ع فرسه ، فرسه اللي بيحبها

ثم تردد المجموعة الأولى:

شفناه بالبياره ، البياره الحلوة

مع اصحابه واولاده ، اولاده اللي بيحبهم

فتجيب المجموعة الثانية

يا حسرتي! ما راح نشوفو بعد اليوم

بالبياره ، البياره الحلوة

مع اصحابه واولاده ، اولاده اللي بيحبهم

وتغني جميع النسوة بهدوء ونعومة:

اولاده وخدامينو كانوا يحبوه

بيتو كان بيت السعاده!

الله يرحمو!

المجموعة الأولى بصوت جهوري مرتفع:

شفناه بيطعم الجوعان

وبيكسي العريان

فتجيب المجموعة الثانية ، بحنان وهدوء

يا حسرتي! ما ح نشوفو بعد اليوم

بيطعم الجوعان

وبيكسي العريان

المجموعة الأولى:

شفناه ، بيساعد الكبار وبيحن عليهم

و بينصح الصغار

المجموعة الثانية:

يا حسرتي! ما ح نشوفو بعد اليوم

بيساعد الكبار وبيحن عليهم

وبينصح الصغار

وتغني النسوة كافة بهدوء ونعومة:

ما كان يخلي الغريب نايم بالطريق

فتح بيتو لعبّارين الطريق

الله يرحمو!

نهضن على أقدامهن بعد هذه المرثاة ، وشرعن بالهتاف بأعلى ما يمكن ، وتعالت الزغاريد المتواصلة لثلاث أو أربع دقائق ، ركعت الأرملة وهي تهز جسدها للأمام وللوراء ، واشتركت بصوتها الواهن في الصراخ المحموم من حولها.

ارتاحت بعض النسوة على الأرض بعد أن أخذ منهن التعب كل مأخذ ، بينما غادرت أخريات ووصل فوج جديد من المعزيات القادمات من عكا ، وأخذن الأماكن الشاغرة. شرعت امرأة بالنقر البطيء على رق صغير ، واشتركت النساء كافة بالتصفيق المتناغم مع إيقاع الرق وهن يغنين: يا حسرتي عليه! يا حسرتي عليه! كان شجاع وكان حنون ، يا حسرتي عليه! ثم نهضت ثلاث نساء يحملن في أيديهن ثلاثة سيوف جردت من أغمادها ، ووقفن

على مسافة ياردتين أو ثلاث ياردات من بعضهن البعض. بدأن بأداء حركات راقصة بطيئة وحزينة ، وقد أخفضن سيوفهن وأحنين رؤوسهن للأمام. بقيت كل منهن داخل دائرة لا يزيد قطرها على الياردة. بدأ إيقاع الرق وحدة التصفيق والغناء بالارتفاع تدريجيا ، وتسارعت معه خطوات الراقصات. ألقين برؤوسهن للوراء ، وشخصن بأبصارهن للأعلى بنظرات ملؤها الرجاء ، وكأنهن كن ينظرن فيما وراء السماء. لوّحن بسيوفهن عاليا ، وعندما ازدادت خطواتهن وحركاتهن سرعة وانفعالا ، تلألأت أنصال سيوفهن لمعانا ، وتلألأت عيونهن اللامعة بلمعان أكبر. ومع انسحاب الراقصات الواحدة تلو الأخرى بعد أن أضناهن الإرهاق الناتج عن الرقص ، نهضت الأخريات للحلول محلهن. هكذا انقضت سبعة أيام بلياليها.

استمرت النواحات المحترفات بالقدوم يوميا للحفاظ على الدرجة نفسها من الانفعال والهياج ، وتتابعت الرقصات ومرثيات الحداد بلا انقطاع سوى من فواصل من النحيب والعويل الهستيري. بقيت حوالي ساعتين في القاعة ، وكنت أحيانا أراقب الأحداث في داخلها من نافذتي المطلة عليها. كنت قادرة على أن أرى التأثير الكبير الذي تملكه القائدة على الحاضرات كافة. لحن معين من صوتها الشجي الحزين كان كفيلا بجعل الحاضرات جميعا يذرفن دموعا غزيرة ، وفي إظهار عواطف هستيرية محمومة في بعض الحالات.

بعض الفتيات كن يتمتعن بحاسة مرهفة لمثل هذه المناسبات التي تجيش فيها العواطف ، وكان يحتفى بهن لمقدرتهن على النحيب والعويل الخارجين عن السيطرة. النساء اللاتي يكن في حداد حقيقي والمدّعيات الهاويات عادة ما يقعن فريسة للمرض بعد هذه المناسبات ، ولكن المؤديات المحترفات فلا يبدو أنهن يعانين من أية مشاكل ناتجة عن الإعياء أو الإرهاق ، ولا يفقدن رباطة جأشهن ولو لدقيقة واحدة.

المسكين خليل صيقلي لم يتمكن أبدا من تجاوز الصدمة التي سببتها هذه الوفاة. لقد تحولت إلى علامة فاصلة لتأريخ الأحداث التي تقع في المنطقة التي كان إلياس شهيرا ومحبوبا جدا في أرجائها. كان من المعتاد أن يقال: صارت هاي القصة قبل أو بعد وفاة إلياس وشاع قول بين الناس في حيفا مفاده أن يموت رجال بيت الصيقلي بين الغرباء عادة بعيدا عن الوطن لكني أعتقد أن هذه اللعنة توقفت الآن ، إذ إن خليل ، الرجل العجوز توفي

داخل منزله في كانون الثاني / يناير من العام 1860. لم أكن في حيفا آنئذ لكنني علمت بأن خليل كان مقيما في عكا ، حيث ألم به مرض شديد. في طريق عودته إلى حيفا وقد اشتد عليه المرض ، وقع عن حصانه الذي كان يسير به على الرمال ، فلحق به أذى وضرر شديدان نقل على إثرهما محمولا إلى بيته لتوافيه المنية بعد ثلاثة أيام. شارك أخي في جنازته ، وفي رسالة بعثها إلي وصف الجنازة بما يلي:

لم أشهد في هذه الأرجاء جنازة أمتها هذه الأعداد من الناس. امتلأت الكنيسة وساحاتها الخارجية عن بكرة أبيها بالحشود الغفيرة. سبعة كهنة- أربعة منهم جاءوا من أماكن بعيدة جدا خصيصا لهذه المناسبة- تلوا الصلوات والمزامير وأقيمت مراسم الدفن كالمعتاد. بعد تلاوة فصول من رسالة بولص ، وآيات من الإنجيل ودعوات الغفران ، خاطب كبير الكهنة الحشد قائلا: إخوتي وأبنائي ، عاش خليل صيقلي ردحا طويلا من الزمن على هذه المسكونة. انخرط في كثير من الأعمال وخالط وتعامل مع عدد كبير من الناس. من المحتمل أن يكون قد تسبب باساءة ما في بعض هذه الأعمال. يمكن أن يكون بعض الناس قد شعروا بالإهانة أو بالاستياء أو بالغبن بسبب أو من غير سبب. هذه هي ساعة العفو والمغفرة ، وأنا التمس منكم أيها الحاضرون جميعا وببركة الله أناشدكم جميعا بأن تعفوا عنه وتسامحوه ، وأن تصفحوا عن أخطائه كما تحبون أن يغفر لكم فأجاب الحاضرون بصوت واحد: الله يسامحه ويغفر له!

طقوس الصفح وطلب العفو عن الموتى عند دفنهم هي تقليد شائع بدرجات متفاوتة بين المسيحيين المشرقيين ، ولكنها لا تتم بتعبير بمثل الوضوح الذي تمت به في حالة خليل صيقلي. كان رجلا ذا تأثير كبير. كان مؤسس الكنيسة الأرثوذكسية في حيفا ، وتعود ملكية البيوت القليلة الراقية في حيفا إما له أو لأحد من أفراد أسرته.

شغلتني حكايات آل صيقلي عن سرد حكاياتي أنا. لذا سأعود لمتابعة حديثي عن انتقالنا السريع لبيتنا الجديد بسبب أمطار الشتاء في أعياد الميلاد 1855.

بعد ثلاثة أيام وليال من الأمطار المتواصلة ، كان الثلاثون من كانون أول / ديسمبر يوما مشمسا ، والطقس كان بديعا في فترة بعد الظهر وهو ما أغرانا للخروج للتنزه. عبرنا من البوابة الغربية ، وأخذتني الدهشة بفعل التغيرات المفاجئة التي ألّمت بالمظهر العام للبلاد. الأرض التي كان لونها غامقاً جدا وبدت في غاية الظمأ في الآونة الأخيرة ، وتصدعت بفعل حرارة الصيف ، اكتست الآن ببساط أخضر متألق من الأعشاب والوريقات الصغيرة. العديد من الألواح الصخرية الكبيرة التي غطاها التراب فيما مضى صارت ظاهرة للعيان الآن. الأضرحة والقبور في مقابر طائفتي الروم الأرثودكس واللاتين ، والأراضي المخصصة لذري الحنطة على المنحدرات ، والصخور الكثيرة المنتشرة حول وعلى سفوح التلال ، التي اغتسلت بفعل الأمطار الأخيرة ، كانت جميعها تبدو ناصعة البياض.

صعدنا التل الذي يعلو قمته البرج خلف حيفا مباشرة. كان الزعفران الأبيض والأصفر والبنفسجي ينبت حول جذور الأشجار ، محتميا بالصخور وفي وسط الأشواك العديمة الأوراق (24).

نظرنا نحو البلدة بالأسفل. كانت أسطح المنازل مغطاه بآلاف من الطيور ، كانت في معظمها من عصافير الدوري. الأسطح المستوية للبيوت شيدت من عارضات ضخمة من غصون وجذوع الأشجار ، تقاطعت مع ألواح وقوائم خشبية وأغصان مقطعة مغطاة بالطين والحجارة الصغيرة بعد أن دُحِلت ورُصَّت جيدا لكي تتماسك بشكل أفضل. استعدادا لأمطار الشتاء ، غُطيت أسطح البيوت مؤخرا بطبقة من الطين- المجلوب من أراضي التلال المحيطة-المخلوط جيدا بالتبن. كان من الطبيعي للتربة المروية حديثا ، والتي انتشرت فيها بصيلات النباتات والأعشاب وبذار الأزهار البرية ، أن تجتذب العصافير ، وبينما كنت أراقبها وهي تزقزق وتلتقط طعامها من الأرض ، أدركت المغزى الكامن في المزامير عند الإشارة إلى

بعيد الفجر بقليل صبيحة الثلاثين من كانون الثاني / يناير ، جاءت مجموعة من الصبية وهم يحملون حزما وضمما من النرجس الأصفر ، وهي من الأزهار المحببة لدى العرب. طلب الأولاد بقشيشا وهم يقولون: جبنالك هاي الوردات لأنها على اسم القنصل فعرفت حينها لماذا ينادينا العديد من العرب وخصوصا الأطفال منهم بالاسم نَرجُس بدلا من روجرز. خرجت عند العصر إلى التلال حيث نما النرجس والخزامى بوفرة. كانت الأغنام تتقافز من صخرة إلى صخرة مستمتعة بالمرعى الخصيب. نظرت إلى البلدة بالأسفل وكان مظهرها قد تغير تماماً. نبتت أعشاب خضراء يانعة على الأسطح المدحولة حديثا بالطين ، بحيث بدت أسطح البيوت وكأنها مسطحات خضراء ، وكانت خراف صغيرة ترعى على بعضها وأطفال يلعبون على بعضها الآخر.

من النادر أن تكون هذه الأسطح المكسوة بالأعشاب متينة بما يكفي لتفادي مياه الأمطار. كثيرا ما كنا نسمع جيراننا يشتكون ويتذمرون من مياه الأمطار التي تتسرب إلى غرف بيوتهم ، كنت أستيقظ من نومي في بعض الليالي نتيجة للدلف غير المتوقع لمياه الأمطار. تضاف طبقات من الطين الجديد بين فترة وأخرى وتدحل الأسطح من آن لآخر بصخرة ثقيلة (مدحلة يدوية-المترجم) تشبه مدحلة الجنائن المعروفة. عادة ما يتم إبقاء مدحلة مخصصة لهذا الغرض على سطح كل بيت أو مجموعة من البيوت.

عندما غادرت البيت في الحادي عشر من شباط / فبراير ، رأيت عمالا منهمكين بالعمل في السهوب الواقعة على سفوح تلال الكرمل. كانت أعمال الحراثة في قطع شاسعة من الأراضي قد بدأت. قُلبت التربة البنية الخصبة بواسطة محاريث فجة الصنع تجرها الثيران. كان الصبية قد وُظفوا لجمع الحجارة من قطع الأراضي التي كان الرجال يقيمون حولها جدرانا حجرية قصيرة (السنسلة الفلسطينية-المترجم). كان العمل جاريا على زراعة أحزمة من الصبار حول البيارات والبساتين ، ثم تبنى سلاسل من الحجارة بارتفاع ربع الياردة تقريبا تدفن بأكملها في التراب. على امتداد الشريط الذي يتشكل من هذه العملية ، تُزرع سويقات الصبار على بعد قدم تقريبا بين الواحدة والأخرى. تكون هذه السويقات خضراء وعريضة ،

كما تمتاز بأنها مسطحة ومتشابكة بشدة بحيث تبدو وكأنها أوراق دائرية ضخمة متصلة ببعضها البعض. في بعض الأماكن ، تسببت الأمطار في جرف التربة ، وكان بمقدوري رؤية الجذور وهي تنبثق من أطراف السويقات. يمتاز الصبار بنموه السريع ، ويمكن لشريط من الأرض المزروعة بالصبار أن ينتج سياجا يصعب اجتيازه خلال موسم زراعي واحد. تكون براعم الصبار صفراء اللون وهي التي تثمر في وقت لاحق الثمار المنعشة واللذيذة المسماه صبر أو التين الهندي يسميها العرب صبر-وهي كلمة ترادف المقدرة على الاحتمال patience ، وذلك بسبب العناية والصبر المطلوبين عند قطف وتقشير هذه الثمار ، المغطاة بالأشواك والزغب الشوكي ، وتكتسي الشجيرة الواحدة منها بالكامل بأشواك إبرية حادة. وبالرغم من هذا ، فإن الجمال تقتات عليها بحرية ومتعة. حتى في أشد فصول السنة جفافا ، فإن السويقات تكون غضة وملأى بالسوائل ، وعند ثقبها يتدفق السائل منها بغزارة. إنها الموطن الطبيعي للدودة القرمزية (يستخرج من هذه الحشرات صباغ الكارمين القرمزي اللون- المترجم) لكن للأسف ، فإن تنمية هذا المورد التجاري المهم مهملة تماما في فلسطين.

القلقاس المزهر والسوسن الأزرق والنرجس البري ، نبتت بكثرة في المقبرة وغطت جوانب الأضرحة فيها. كنت أعثر على شقائق النعمان وأزهار الحوذان والأذريون الطبي ونباتات اللبلاب وأعشاب بخور مريم ، والعديد من أصناف النباتات البرية الأخرى ، في الأراضي غير المحروثة من الجرود وعلى منحدرات التلال.

شجيرات الشوك التي كانت أغصانها جرداء وداكنة اللون خلال فصلي الصيف والخريف ، اكتست الآن بطبقة خضراء ورقيقة من الوريقات المسننة ، التي تحجب الأشواك ذات الرؤوس المستدقة تحتها بشكل كامل تقريبا. كانت تعلوها براعم صغيرة مستديرة الشكل ، تخرج منها عناقيد حريرية زرقاء متوجه ببودرة ذهبية اللون لدى فتحها. كؤوس زهيرات هذه الأشواك تكون دائرية الشكل وتنقسم إلى أرباع أربعة. يكون لونها أبيض تقريبا في الربع الأول ، ويتحول تدريجيا للون الزهري. يوجد قليل من الزغب الأخضر اللون على قمتها النامية ، ويتحول شكله ليتخذ شكل الصليب اليوناني. لدى بلوغ البذرة مرحلة النضج

التام ، يبلغ قطرها حوالي نصف إنش ويتحول لونها إلى الأحمر اللامع.

قيل لي بأن إكليل الشوك الذي وضع على رأس السيد المسيح صنع من هذه الأشواك. قد يكون الأمر كذلك. لم أر في حياتي نبتة تجمع بين الجمال والقسوة كهذه الأشواك بما يكفي لصنع تاج أو إكليل للرأس منها. يسمى هذا الشوك باسم **poterium spinosum**. مع حلول عيد الفصح ، يمكن رؤية هذه الأشواك بكامل زينتها وجمالها ؛ تكون الأوراق لامعة ومكتملة النمو ، وتصطبغ ثمارها باللون الأحمر القاني ، وكأنها قطرات من الدماء ، وتكون الأشواك مستدقة وأكثر حدة من أي وقت آخر. لا توجد نبتة أو شجيرة تنتشر على تلال الضفة الغربية للأردن وتلال الجليل أو تلال الكرمل بكثرة هذه الأشواك. وهي تستخدم بكثافة كوقود خصوصا في أفران خبز الأرغفة ، ومن الطبيعي أن تتناهى إلى مسامعك قرقعة أشواك كثيرة تحترق في نار متقدة وأنت في فلسطين.

بدت البيارات والبساتين في غاية الجمال. كانت أشجار اللوز في أوج فترة إزهار براعمها. كانت أشجار الليمون والبوملي مثقلة بثمارها. انقضى موسم الأمطار ؛ الأزهار ظهرت ، جاء وقت تغريد الطيور ، صوت السلحفاه مسموع في الأرض ومرة أخرى ، تغير مظهر بلدة حيفا تماما. تكفلت الأيام الأخيرة التي امتازت بشمسها الساطعة والدافئة ، بحرق وذبول كل الأعشاب التي تعلو سطوح المنازل ، بحيث لم تتبق بقعة خضراء واحدة. كان الأولاد والبنات يجمعون الحشيش الأصفر القصير ، والذي لم يكن متوفرا بكثرة ، إذ لم تحظ الأعشاب بفرصة لتنمو بالكامل أو لتطرح بذارها في الأرض ، ولم يكن حصاد عشب السطوح أكثر من لعبة يتسلى بها الأطفال ، الذي لا يملأ الحاصد كفه منه ولا المحزم حضنه 6-8 من المزمور 129 من سفر المزامير.

صبيحة التاسع عشر من شباط / فبراير ، جاء غلام بدوي حاملا معه زبدية كبيرة من الخشب مملوءة بالسمن ، وأبلغني بقدوم أربعة رجال من قبيلته لزيارتنا ، فدخلوا البيت خلال حديثي معه. كانت الفرحة تغمرهم بسبب وفرة الحليب الذي درّته عليهم قطعانهم من الأغنام خلال رعيها على منحدرات الكرمل. كانت بشرتهم غامقة جدا ،وكانوا يرتدون أثوابا قطنية طويلة ذات أكمام عريضة ، وعباءات فضفاضة من وبر الإبل. وبدت علامات الدهشة

الشديدة عليهم حين رأوا انعكاس أجسادهم بأكملها في المرآة. قام الرجل الذي بدا وكأنه زعيم المجموعة بدعوتي أنا والقنصل لزيارته في مضارب عشيرته الواقعة على مسيرة ساعة خارج حيفا. إجابةً عن سؤالي ، أخبرني بوجود العديد من النسوة اللاتي يحضرن السمن والزبدة المعدة للطهي في مضارب العشيرة. يخض اللبن داخل جلود الأغنام ثم يغلى على النار. وبعد استخراج الحليب ومصل اللبن بالكامل ، تدوم صلاحية السمنة المتبقية لفترات طويلة جدا. تزخر الأسواق في هذا الموسم بالمؤونة التي يجلبها الفلاحون والبدو على حد سواء ، وتقوم ربات البيوت في الربيع بإعادة ملء جرار السمن بمؤونة تكفيهم لفصلي الصيف والخريف. كان أحد هولاء البدو يحمل رمحا طوله اثنا عشر قدما. وضع على أعلاه حزمتين من ريش النعام الأسود يفصل بينهما مسافة قدم تقريبا. كانت الحزمة العلوية مهدبة بريش أبيض صغير. المسافة الفاصلة بين الحزمتين احتوت على ضفائر من القماش القرمزي اللون. كان الرمح ثقيلا لدرجة لم أتمكن فيها من حمله. وكان نصل الرمح معدنيا بينما كان الرمح نفسه من الخشب. اعتمر الرجال جميعا كوفيات كبيرة من الحرير المخطط بالأصفر والأحمر ، علَتها جميعا حبال عريضة (العقال-المترجم). كانوا يرتدون أحذية مدببة من الجلد الأحمر ، خلعوها جميعا عند الباب قبيل دخولهم. أحدهم كان يضع في إصبعه خاتما فضيا ضخما ، نقش عليه اسم ما بخط غير مقروء. قال لابس الخاتم: تحياتنا للقنصل ، الله يحميه من كل شر ثم نهض وغادر هو ومرافقوه.

كنت قد صرفت حامل زبدية السمن بعد أن نفحته بقشيشا ، عندما جاءت بنتان صغيرتان من آل صيقلي قائلات لي: مريم ، السلام عليكي يا مريم! درينا انك وحدانية لحالك لأنو القنصل برات حيفا ، ان شالله يرجعلك بالسلامه عن قريب دعوت جارتيّ الصغيرتين إلى نزع ملاءتيهما-العباءتان البيضاوان اللتان كن يتلفعن بهما- وأن يتناولن طعام الفطور برفقتي. كانتا ترتديان سراويل غامقة طويلة من القطن وسترتين من القماش الضيق مغلقتين حتى الرقبة. ارتدت كل منهما إشاربا- منديل من الموسلين الزاهي الألوان- غطى الرأس وجانبي الوجه ليعقد تحت الذقن ، ولترتد نهاياته صعودا لكي تعقدان من جديد في أعلى الرأس. كان شعرهما مضفرا بجدائل طويلة تدلت على كتفيهما. وكانت أظافر يديهما

وقدميهما مخضبة بالحناء الوردي اللون. خلعتا نعليهما الأصفرين على باب الغرفة قبل دخولهما. وأظهرتا اهتماما بالغا في معرفة مكنونات صندوق أشغالي اليدوية ، وفي مطالعة كتبي المصورة ، ووجهتا لي أسئلة عديدة بخصوص محتوياتها ، وكانتا تبديان ملاحظات طريفة بشأنها ، ولم يكنّ خلال ذلك يثرين قائمة مفرداتي من اللغة العربية دون أن يقصدن وحسب ، بل ساعدنني على معرفة الروح الكامنة في أفكار أهل المشرق. لقد استمتعتا للغاية عندما حدثتهما عن الأطفال الإنجليز ، وضحكتا من أعماق قلبيهما عندما أخبرتهما بأن إنجلترا لا يوجد فيها سوى القليل من الإبل ، التي أودعت في حديقة جميلة بداعي إشباع فضول الجمهور فحسب. كان من الصعب عليهما أن تتخيلا كيف يمكن لنا أن نعيش في بلاد لا يوجد فيها إبل وجمال لحمل الأشياء والبضائع. حاولت أن أشرح لهما استخدامات عربات الخيل والسكك الحديدية ؛ لكن نظراً لأنهن لم يرين عربة بعجلاتٍ من أي نوع كان في حياتهن ، فقد كان من الصعوبة بمكان إيضاح الفكرة لهن ، بالرغم من مساعدة الصور الإيضاحية. كانتا طفلتين في منتهى الذكاء وسرعة البديهة ، وبالرغم من أن أعمارهن لم تتجاوز ثمان وتسع سنوات ، إلا أنهما كانتا تستطيعان إعداد الخبز والعديد من أطباق الطعام البسيطة الأخرى. لقد فوجئتا عندما علمتا بأنني لم أتعلم كيفية الطبخ ، فالطبخ يعد الموضوع الأساسي في التعليم الذي تتلقاه الفتاة العربية.

وصل سائسنا المصري محمد وأنا مشغولة بضيفتي الصغيرتين المسليتين ، كان برفقته مهر صغير أبيض اللون ، ويحمل رسالة من شقيقي يطلب مني فيها التوجه إلى شفا عمرو على الفور-على مسيرة ثلاث ساعات- للالتقاء به هناك وللعودة معه إلى حيفا في اليوم التالي. قالت الطفلتان: كتير انبسطنا لأنك رح تشوفي القنصل اليوم ، بس زعلنا لأنه راح نفارقك ، الله معك تجهزت بسرعة ، وامتطيت المهرة البيضاء. كان عرفها وذيلها قد خضبا بالحناء البرتقالية اللون التي يقال بأنها تقي الخيل من الأمراض. وتدلت خرزة ياقوت زرقاء كبيرة من عنقها. سألت السائس عن السبب وراء وضعها. فقال: علشان تبعد عين الحسود ، المهره جميلة وبينخاف عليها تصيبها عين من صحاب العيون الحسودة اللي يمكن تؤذيه وتؤذي راكبها بنظرة واحدة وأضاف بأنه لا يملك الجرأه على المخاطرة بجعلي أمتطي دابة كهذه دون

اتخاذ هذا الإجراء الوقائي. سار العديد من أصدقائي، المسيحيين والمسلمين، بمعيتي ورافقوني حتى بوابة البلدة وبقي صدى عباراتهم: تروحي وترجعيلنا بالسلامة يتردد في أذني، وأنا أجتاز الرمال على صهوة مهرتي برفقة سائسنا الأمين محمد، وبحماية خرزة الياقوت الزرقاء على عنقها. سألته ما إذا كان من الممكن أن تؤثر شكوكي في فاعلية الخرزة. فأجاب بصدق: مش ح تقدري تأثري عليها، الحمدلله! كان الوقت ظهرا. سطعت الشمس ولكن أشعتها كانت معتدلة، وهبت الريح ولكن بهدوء، وترقرقت الأمواج حول حوافر المهرة وحمار محمد الصغير والمتين. عبرنا مجرى نهر المقطّع بحذر وبأمان عند المخاضة القريبة من البحر. كان النهر عميقا وخطرا في ذلك اليوم.

انعطفنا مبتعدين عن الشاطئ واتجهنا صوب الكثبان الرملية المتحركة، التي غطت رمالها الأشجار الطويلة حتى منتصفها، ونمت الأعشاب بوفرة في البقع التي كانت الأرض فيها أكثر صلابة، وتجمعت مياه الأمطار هنا وهناك في برك راكدة، تحيط بها أزهار السوسن الزرقاء والصفراء والأعشاب والقصب. عندما توغلنا أكثر داخل الجرد، بلغنا روضة جميلة ملأى بالأزهار والورود. كانت الأرض وعلى امتداد ميل في جميع الاتجاهات مغطاة ببساط من شقائق النعمان، بألوانها الحمراء والقرمزية والبيضاء والزرقاء والبنفسجية والوردية والليلكية، تخترقها بقع من نباتات النُفل والخبيزة وبخور مريم (صابونة الراعي) والحوذان الأصفر المنتشرة هنا وهناك. لم أر في حياتي مساحات من الورود البرية بمثل هذه الألوان النابضة بالحياة، وكان من الواضح عدم وجود أي إنسان للاستمتاع بها. لم نعد قادرين على رؤية الناس أو أي تجمعات مأهولة بالسكان. البناء الوحيد الذي كنا قادرين على رؤيته كان القبة التي تعلو عين شعيب، والتي هي عبارة عن معتزل روحي للوضوء وللصلاة محاط بأحواض صغيرة لسقاية الماشية. وهو يقع في منتصف المسافة بين حيفا وشفا عمرو. توقفت لوهلة للاستمتاع بالمنظر وبالصمت الذي يسود المكان. بدأت مهرتي بأكل أوراق الخبيزة المنتشرة بوفرة في الأرجاء. وصرخ محمد قائلا: يا ستي، الخبيزة كويسة للبقر، بس بتقتل الخيل عندما تابعنا مسيرنا سألت محمد عما إذا كان والداه أحياء في مصر. فأجابني قائلا: الله أعلم! تركت أمي من عشرين سنة، كانت أرملة، عليها السلام، وما سمعتش منها

أو عنها من أيامها. ما فيش فايده دلوقت ، مش ح توصلها الرسايل عشان هي فقيرة ومش معروفه في البلد ، لما يسافر الفقراء عن أهلهم بيروحوا وما بيرجعوا. مشان هيك بتبكي الأمهات وما بتغمضلهم عين لما الاولاد يتركوا البيوت ، الرسايل بتوصل للأغنيا والناس المعروفين بس

أصيب بدهشة شديدة عندما عرف بأن البيوت كافة في انجلترا تحمل أرقاما وأسماءً ، وبأن الخطابات المرسلة لأكثر الناس فقرا في البلاد تحظى بالعناية نفسها الممنوحة للخطابات المرسلة لأكثر الناس ثراء.

فقد محمد البصر في واحدة من عينيه. أخبرني حين أجاب عن استفساري عن السبب وراء ذلك ، بأن أمه عورت عينه عمدا بوضع كمادات من أوراق نبات سام عليها عندما كان صغيرا ، لكي تسبب له عاهة تمنع التحاقه بالجيش ؛ لأنه كان ابنها الوحيد. كانت هذه العادة شائعة جدا في مصر ، إلى أن اتخذ إبراهيم باشا إجراءات ناجعة للحد منها ، عبر تشكيل فوج عسكري مؤلف بأكمله من الرجال العور (الذين يبصرون بعين واحدة فقط) ، وصار كل من فقد احدى عينيه سواء بشكل عرضي أو متعمد ، ملزما بالالتحاق بهذا الفوج. وكغيره ، التحق محمد بهذا الفوج الذي أضحى أكبر الأفواج في الجيش المصري (25). كنا نمر بين حقول شاسعة ينمو فيها القمح والحنطة بوفرة وغزارة وعلى مراحة من الأرض زينتها الأعشاب. كنا نفاجأ بين الحين والآخر بسلحفاة تشق طريقها بين الحقول. تنتشر السلاحف بكثرة في جرود فلسطين. أخبرني محمد بأن المسيحيين المشرقيين يأكلونها خصوصا في موسم الصوم الكبير ، وبأن الفلاحين يصطادون ويحملون أعداداً كبيرة منها إلى أسواق المدن. حصلت على تأكيد لهذه المعلومة فيما بعد ، ولكنني لم أر طبقا مطهوا منها في أي مكان.

عندما بلغنا التلال بالكاد أمكنني التعرف على الوديان ومنحدرات التلال التي كنت قد عبرتها مرة في شهر تشرين الأول / أكتوبر ، ومرة أخرى في شهر تشرين الثاني / نوفمبر. الربيع غيّر وجمّل كل الأشياء. لم يعد بالإمكان رؤية الأراضي الجرداء ، إذ اكتست الأرجاء كافة ببساط أخضر من النباتات. كانت نبتة العناقية (نبات معترش-المترجم) مرئية في كل

مكان ، أما التجاويف التي تفصل بين الصخور والحجارة البيضاء ، فقد أينعت أزهاراً صغيرة. أشجار البلوط تكللت بالحوذانيات (نبات مزهر-المترجم) ، وتعربشت الأشجار نبتة متسلقه ذات أزهار ليلكية على شكل الأجراس الصغيرة ، وامتدت عروقها الرشيقة من شجرة إلى أخرى بنسق جميل. كانت مراعي التلال تعج بالقطعان والأودية وتزخر بحقول الذرة. شاهدنا آدميين في هذه البقعة ، كانوا الأوائل الذين صادفناهم في طريقنا. جلس عجوز طاعن بالسن حاملا عصا طويلة بيده تحت شجرة. ونهض عندما رآنا نتقدم نحوه. ارتدى فوق ثوبه معطفا قصيرا مصنوعاً من جلد الماعز ، وكوفية باليه. اقترب منا بعض الصغار خلال مسيرنا. كانت بشراتهم سمراء وقد لفحتها الشمس. كانوا عراة إلا من أثواب قطنية طويلة وقد تمنطقوا بأحزمة من الجلد. وحملوا بنادق عتيقة على أكتافهم ، واعتمرو كوفيات بالية ملونة بالأحمر والأصفر. كانوا رعاة مسؤولين عن قطعان الأغنام المنتشرة على التلال المحيطة. رفع الرجل العجوز راحة يده إلى جبهته بينما كنا نمر بالقرب منه قائلا: الله يهديكم جلس أحد الرعاة الصغار على صخرة وهو يعزف بشبابة قصيرة صنعت من القصب. وضع إحدى نهايتيها في فمه وكان يعزف نغمات موسيقية شجية وصافية. تمكنت من التقاط خمس نغمات منها. أشار محمد إلى بيت شعر أسود مصنوع من وبر الإبل والأغصان ينتصب تحت شجرة بطم. كان بيت الشعر المتنقل للرعاة بلا شك. التقينا عند هذه البقعة بخيالٍ أفريقي بشرته سوداء كالأبنوس. يرتدي ثوبا باللونين الأبيض والأزرق وقد انطلق بأقصى سرعته. توقف للسلام علينا وقال لمحمد: القنصل البريطاني قريب من هون ، اجا يقابل أخته ، بس انا اللي شفتها أول ، رح أرجع أبشره بوصولها بالسلامه لعنده فأجابه محمد: روح مع السلامه. ربنا يبارك بحامل البشارة وسرعان ما كنا وسط بيارات الزيتون المحيطة بشفا عمرو ، والتقيت بشقيقي بفرحة عارمة هناك. انضم إلينا صالح وحبيب واسطفان. قدما لي أغصاناً مزهرة من شجر اللوز للترحيب بي. عبرنا على صهوات خيولنا السفح الشديد الانحدار الذي انتصبت عليه البلدة وترجلنا عند بيت حبيب. رافقني إلى غرفة الضيوف في المنزل ، والتي كانت غرفة مربعة كبيرة ذات ثمانية شبابيك. وضعت فرشات على الأرض على جانبي الغرفة ، وغطيت ببسط تركية ، وعلتها وسائد بوجوه من الحرير والساتان وقد استندت إلى

الحائط. فرشت سجادة أنيقة في أحد جوانب الغرفة تتوسطها فرشة مربعة تتسع لشخص واحد عليها وسائد مغطاة بالحرير. قال بأنها قد أعدت خصيصا لأجلي. غطيت بقية الغرفة بالحصائر المصرية ، وانتصب سرير مغطى بناموسيات من الموسلين في أحد أركان الغرفة. خرجنا للجلوس على الشرفة الفسيحة المطلة على البحر والجرود واسترحنا هناك ونحن نتجاذب أطراف الحديث.

حدثتهم عن زيارة البدو. شرح أخي لي السبب الكامن وراء الفزع الذي ينتاب الفلاحين والقرويين وأهالي المدن لدى قدوم هؤلاء البدو الرحل مع قطعانهم ومواشيهم قائلاً: الأضرار التي يتسببون بها لا تقتصر على المراعي وحسب ، بل إنهم يشكلون خطرا على المحاصيل الزراعية. لن يحظى مالكو الأراضي والمزارعون في فلسطين بالأمان ما لم يوضع حد لتعديات هؤلاء المتطفلين. يأتي البدو من شرقي نهر الأردن سنويا بعد انقضاء أمطار الشتاء ، وفي موسم الحنطة والحبوب ، لذلك لا يخاطر الناس بزراعة أراضٍ أكثر من المساحات التي يقدرون على حمايتها. وهذا هو أحد أهم الأسباب الكامنة وراء وجود هذه المساحات الشاسعة من الأراضي غير المستغلة في البلاد ، ووراء هجرة الفلاحين من أكثر الأراضي خصوبة في فلسطين ، لتستولي عليها قبائل البدو الرحل ، الذين ينصبون بيوت الشعر الخاصة بهم في بقعة ملائمة فيها ، ويحرثون ويبذرون ويحصدون ، ثم يعاودون قطع نهر الأردن عائدين إلى ديارهم ، ولا يعودون من جديد قبل فصل الربيع التالي

وفقا لما جاء في الإصحاحين الثالث والسادس من سفر القضاة ، اعتاد هؤلاء البدو الرحل على ارتكاب أعمال النهب هذه في الفصل نفسه من كل سنة منذ ما يزيد على ثلاثة آلاف عام. وإذا زرع إسرائيل ، كان يصعد المديانيون والعمالقة وبنو المشرق (أي القادمين من شرق نهر الأردن) ، يصعدون عليهم ، وينزلون عليهم ويتلفون غلة الأرض إلى مجيئك إلى غزة ، ولا يتركون لإسرائيل قوت الحياة ، ولا غنما ولا بقرا ولا حميرا ، لأنهم كانوا يصعدون بمواشيهم وخيامهم ويجيئون كالجراد في الكثرة وليس لهم ولجمالهم عدد ، ودخلوا الأرض لكي يخربوها فذل إسرائيل جدا من قبل المديانيين. إنه أحد الأسباب الرئيسية في انتشار الفاقة والعوز في أرجاء البلاد في الوقت الحاضر.

دخلنا غرفة الضيوف عند الغروب. أضيء سراجان كبيران ووضعا على منصبين صغيرين في منتصف الغرفة. جاء الحاكم أبو داوود وابنه الصغير لتحيتي. وبعد وقت قصير وصل صالح آغا مرتديا عباءته ذات اللون الأحمر القاني، المطرّزة والمهدبة بخيوط ذهبية. ظللت بشرة وجهه الغامق كوفيته المصبوغة باللونين الليلكي والفضي، وقد وضع فوقها عقالا سميكا أبيض محبوكا من وبر الإبل. كحل جفون عينيه وبدا مظهره العام عدائيا. يعتبر صالح وأخوه الذائع الصيت، عقيل آغا، من أكثر الرجال قوة وهيبة في باشليق عكا. تعود أصولهم أصلا إلى المغرب، ويعملون حاليا في خدمة الحكومة التركية. يخضع لإمرتهم ثلاثمائة إلى أربعمائة خيال مسلح، يمكن اعتبارهم بمثابة الدوريات الراكبة المسؤولة عن استتباب الأمن في جرود وتلال الجليل؛ إذ إن مسؤوليتهم تقتضي إبقاء الطرقات بحالة آمنة لتنقل الناس وسفرهم. وقد أحرزوا نجاحا ملحوظا في القيام بذلك، فبفضل مساعيهم الدؤوبة صارت أعمال قطع الطرق وجرائم القتل شيئًا نادر الوقوع على الطرقات، ولكن من الطبيعي أن لا يتمكنوا من إبعاد كافة البدو الرحل خارج البلاد. يمتلك عقيل آغا نفوذا كبيرا على بعض القبائل، ولكنه يصطدم بالأكراد وغيرهم من القبائل المعادية فتشتعل الحرب حينئذ، ومن الطبيعي عندها أن تهب القبائل الحليفة والصديقه كافة لمساعدته. وبصرف النظر عن هذه الحروب، فمن المؤكد أن الحالة الأمنية في باشليق عكا كانت ستكون أسوأ بمراحل لولا توافر الخدمات الأمنية غير النظامية للآغا، ولكان السفر عبر البلاد محفوفا بمخاطر أكبر بكثير.

قوات عقيل آغا تتألف من عناصر مختلفة ومتنوعة، من رجال يائسين من شتى أنحاء البلاد، الأمر الذي يذكر المرء بالجنود الأربعمائة الذين جعل داوود من نفسه قائدا عليهم- (سفر صموئيل الأول 22، 2.) ويطلق على رجال عقيل آغا اسم الهواره، وفي واقع الأمر فإنهم عبارة عن أفراد قبيلة من القتلة الذين نالوا عفوا حكوميا، والذين فوضتهم الحكومة لكبح جماح وتأديب القبائل الأخرى.

أبلغني صالح آغا بأنه خدم في منطقة الدانوب لردح من الزمن خلال العام المنصرم، لكنه لم يرغب بالبقاء بعيدا كل هذه المسافة عن أطفاله. نصب مضاربه الآن في عبلين على

مسافة ثلاثة أميال من شفا عمرو. أرسل مرافقه العسكري لإحضار ابنه الأصغر من أجل أن أراه، على الرغم من أنها كانت ليلة حالكة السواد والوقت متأخراً جدا. جهز العشاء وأخذنا إلى غرفة أخرى. صب الماء على أيدينا لدى دخولنا، ثم جلسنا، وكنا سبعة أشخاص، على أرض مغطاة بالحصير حول صينية مستديرة (سِدر فلسطيني-المترجم) ترتفع حوالي ستة إنشات عن الأرض، تعج، بكل ما في الكلمة من معنىً، بأصناف متنوعة من الطعام. فرشت منشفة طويلة ورفيعة أمام الضيوف لتستدير حول صينية الطعام وهي تستقر على ركبنا، والتقى طرفاها المهدبان وتقاطعا حيث دعوت للجلوس في المكان المخصص لي. كان في السدر ستة أطباق مستديرة تحتوي على أكوام من الأرز المطهو بالسمن، وستة أخرى من القمح المطهو المخلوط باللحم المفروم والتوابل (ربما كانت الفريكة الفلسطينية-المترجم)، بعض الأطباق من اللحوم والدواجن وزبدية من اللبنة، وكميات وافره من القشطة المحلاة والأجبان والزيتون والسلطات. وضع رغيف من الخبز أمام كل شخص. ما إن جلس صالح آغا حتى شرع بالأكل بصمت وبنهم، بالطريقة البدوية المثلى، حيث كان يُكَور الأرز أو الفريكة الساخنة براحة يده، ويقذف بها ببراعة فائقة إلى جوف فمه. تولى تقطيع الدواجن بأصابعه وشرفني بتقطيع أشهى القطع وقدمها لي. سرعان ما اختفت محتويات الصحون على هذا المنوال، إذ حذا جميع الرجال حذو صالح آغا في تناول طعامهم، وعندما كانوا يشبعون واحدا تلو الآخر، كانوا ينهضون ويغسلون أيديهم. عدنا من جديد للغرفة الكبيرة، حيث كان العديد من الضيوف في انتظارنا. قدمت الأراجيل والقهوة. صدحت الأغاني تمجيدا للآغا ولنائب القنصل وغيرهم من الضيوف. تمحورت كلمات الأغاني التي تطلبت المشاركة الحثيثة من الحضور كافة حول وصف الجيوش والمطاردات. وزعت كؤوس العرق على المغنين، وامتنع البدو جميعا عن احتسائها. وصل نمر الصغير، ابن الآغا. كان في السابعة من عمره تقريبا. دخل الغرفة وثباً وسرعان ما كان في أحضان والده تحت عباءته الحمراء، وهو يغمره بالقبلات والمداعبات. أصابتني الدهشة من التغيير الذي طرأ على المظهر الجلف والقاسي لصالح آغا. فقد أظهر مشاعر فياضة وحناناً وعطفاً واضحين على ابنه الصغير- ولد قبيح المظهر، لكنه ذلك القبح الذي يكون في غاية الجاذبية في بعض

الأحيان. طلب منه المرافق العسكري للآغا أن يتناول العشاء بمعيته ، فأجاب بمكر: ليش انا جيت عشان آكل ولا عشان اشوف الست الإنجليزية ؟- أي السيدة. اقترب وجلس بجواري ؛ أمسك براحتي يدي ووضعهما بين يديه ، تحسس ثوبي وقال بأنه جميل وناعم. حاول التظاهر بأنه معتاد على أن يكون محورا للاهتمام الدائم والمعاملة اللطيفة في كافة تصرفاته.

اقترح أحدهم تنظيم جولات مصارعة ، وعلى الفور ، بادر نمر إلى تحدي إلياس ، ابن اسطفان ، ولد ضئيل الحجم وغاية في الجمال ، في السابعة من عمره أيضا ، حيث قام بخلع معطفه المطرز الصغير ذي اللون البني بتأنٍ ، بينما كان نمر ينزع عباءته الواسعة المصنوعة من وبر الإبل. ارتدا كلاهما ثوبا أرجوانيا من القماش ذا أكمام متدلية وعريضة كأكمام جنود الهوزار ، وقميصين قطنيين أبيضين وبنطالين أحمرين ، وقام الأثنان بخلع حذاءيهما. أظهر نمر الصغير شيئًا من العجرفة ونفاد الصبر. بينما بادر الياس الصغير وبجدية تامة ، بهجوم مباغت على نمر فألقاه أرضا على الفور. تعالى تصفيق الرجال وصراخهم. استمر النزال لما يقارب نصف الساعة. انتصر إلياس في كافة الجولات تقريبا. هرع نمر في النهاية وقد اكتست ملامحه بعلامات الذل راكضا نحو أبيه ، وغطى نفسه في طيات عباءته الحمراء. بينما حافظ إلياس على هدوئه ولم تبد عليه علامات الزهو بانتصاره ، وجلس هادئًا بجواري.

اتضح لي بأن رياضة المصارعة شائعة جدا في مضارب البدو. كان ابنا صالح آغا الكبار ، وقد بلغا من العمر ستة عشر وخمسة عشر عاماً على التوالي ، حاضرين. أظهرت تصرفاتهما قدرا كبيرا من الإذعان والاحترام لوالدهما ، فلم يجلسا أو يتناولا القهوة أو يشاركا في التدخين خلال حضوره دون أخذ الإذن منه ، ولكن ومنذ أن أثبت الابن البكر رجولته في ميادين الحرب ، بعد أن قتل بيديه أحد أعداء قبيلته ، بات يحظى بامتيازات وشرف الرجولة وبالمساواة التامة مع أبيه.

أخليت الغرفة من ضيوفها الكثر في ساعة مبكرة ، ثم جاءت زوجة حبيب- مضيفي- برفقة أربع نساء لزيارتي. تطوعت إحداهن للنوم برفقتي في غرفة النوم لاعتقادها بأنني خائفة. العرب جبناء جدا خلال الليل ، وينامون سوية ويضيئون القناديل لطرد الأرواح الشريرة إذا

ناموا في أمكنة مسقوفة. أصابتهم الدهشة حين علموا بأنني لا أخاف من النوم بمفردي في الظلام.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي ، جاءت زوجة حبيب إلى غرفتي وتفحصت ملابسي بفضول. كانت الغرفة ستمتلئ سريعا بالنسوة اللواتي جئن للمساعدة أو لتفحص علبة زينتي ، لولا أنني أعلنت بحزم رغبتي بارتداء ملابسي قبل استقبال الزائرات ، لذلك لم يتبق بالغرفة سوى مضيفتي ، التي رافقتني فيما بعد إلى غرفتها في الطابق الأرضي. كانت غرفة رحيبة ولكنها واطئة جدا. طويت الفرشات واللحف والشراشف والسجاجيد فوق بعضها البعض على دكة حجرية مرتفعة في أحد جوانب الغرفة ، بينما اصطفت أواني الطهو والأطباق والصحون والأباريق والمؤونة في جانب آخر منها. في نهاية الغرفة ، بمواجهة الباب ، فرشت سجادة دعيت للجلوس عليها لتناول طعام الفطور. كانت امرأة تقوم بتحضير اللحم من أجل الطبخ في أحد أركان الغرفة ، بينما انهمكت إحدى البنات بتحميص القهوة على كانون الفحم الكبير الذي وضع بالقرب من باب الغرفة. كان من الواضح أن هذه الغرفة تستخدم كردهة وغرفة نوم ومطبخ في آن واحد. الجزء المتبقي من الطابق الأرضي كان مخصصا لغرفة تخزين الفحم واصطبلات الخيل.

والدة مضيفي كانت مشغولة بالإشراف على خبز الأرغفة التي كانت قد عجنتها في صبيحة ذلك اليوم ، لذلك توجهت إلى الفُرن الكائن في نهاية الشارع لرؤيتها. تكدست حزم من الحطب وأغصان الأشجار والأشواك على مدخله من الخارج. اختلست النظر إلى داخل المبنى الحجري المنخفض. كانت أشبه بالفرن (التنور الفلسطيني). كانت الأرغفة المسطحة قد وضعت على صفائح حديدية كبيرة ، تنضج بفعل النيران المتوهجة والمضطرمة الناتجة عن احتراق الحطب والأخشاب أسفلها. تجمعت العديد من النسوة اللاتي كانت براقعهن تغطي وجوههن ، باستثناء عيونهن المظللة بالكحل بانتظار خبز أرغفتهن. كن يضعن العجين فوق صوانٍ وأطباق صنعت من قصب وقش مجدول (سَبَتْ فلسطيني-المترجم). جاء ولد صغير تبدو عليه علامات الفقر ، حاملا عجنة صغيرة بالكاد ينتج عنها رغيف واحد ووقف بانتظار دوره بترقب.

خرجت سحلية شفافة بيضاء اللون مسرعة من بين الحجارة المحيطة بالباب ، فتقدمت للأمام لتفحصها. علا صراخ النسوة المتجمعات تعبيرا عن الخوف والاشمئزاز. أجبن عن سؤالي قائلات: يا ستي ، سحلية شريرة ، بتزحف على أرغفة الخبز وغيره وبيطلع نفسه المسموم عليها ، وكل واحد بياكل وراها يا بيموت يا بيصيبو البرص أو الجرب محمد ، سائسنا المصري الذي وصل في تلك الأثناء وهو يقود المهرة البيضاء قال: الله يحمينا ، اللي بتقولو الحريم صحيح

سارعت لركوب المهرة. قام صالح آغا بالإعداد لرحلة لقنص الغزلان في ذلك اليوم ودعانا لمرافقته فيها. تولى القواس وسائسو الخيل ورجال الآغا مهمة الإمساك والإشراف على كلاب الصيد المدربة جيدا. قابلنا بقية المجموعة بالقرب من عين الماء. ثلاثة منهم كانوا راجلين يقتادون كلابا مدربة على صيد الخنازير البرية. سرعان ما تركونا وتوغلوا في غابات تلال الكرمل سعيا وراء الخنازير البرية. نمر الصغير كان مع الملازم يمتطيان صهوة حصان كستنائي اللون يقولون بأن نسبه يعود إلى زمن النبي سليمان. كانت حمايته من عين الحسود تتمثل في صدفة بيضاء تسمى وَدَعْ ربطت بحبل تدلى حول عنقه (ودع البحر: محارة ، صدفة أحجامها متفاوتة-المترجم).

انضم إلينا حبيب واسطفان وصديقنا وابن بلدتنا صالح صيقلي ، الذي قال لي: راح تشوفي اليوم يا ستي الفرق الكبير بين قوة نظر اهل المدينة وولاد الخيم واللي بيعيشوا بالخلا شاهدت مثالا حيا على ما قاله على الفور ، عندما شخص صالح آغا ببصره في الأفق وتمكن هو ورجاله من رؤية خيل تجري بأقصى سرعتها في الأفق. قبل أن نتمكن نحن الحضر من تبين ما إذا كان هناك خيال على صهوة الحصان أم لا ، تمكن صالح آغا من وصف ملابسه وحتى ملامحه وصفاته الجسدية ، علما بأنه كان غريبا بالنسبة إليه. تحققنا من صحة كلامه عندما بات الخيال في مرمى بصرنا جميعا. هنأت صالح آغا على امتلاك هذه المقدرة وأخبرته كم أذهلني ذلك. فقال: انتي كمان عندك قوة نظر عجيبه ، انا شفت الكتابة الي في دفترك - إشارة منه إلى كراستي التي أحملها وأستخدمها على الدوام-الخط والأشكال اللي فيه تعبت عيوني لأنها كتير صغيرة وقريبة من بعض لم يكن الآغا يتقن الكتابة ولا القراءة بلغته الأم

حتى. علق صالح صيقلي قائلا: الله قسم نِعَمُه على الناس ، الحمد لله! وعلق أحد البدو: عيون المِدن اللي يعيشون في المدن متعوده تناظر من شارع لشارع ومن حيط لحيط ، حِّنا العربان بنشوف لآخر الأرض ، لما اقعد بين حيطان بحس روحي انعميت ، أو مثل اللي غطى عيونه بحجاب ، الواحد ما يقدر يشوف زين جّوا المدن.

سرنا على صهوات خيولنا بصمت على سفوح التلال فوق أجمات قصيرة وأشواك مزهرة. عانى سائسو الخيل الأمرين وهم يحاولون كبح جماح كلاب الصيد ، التي كانت تحاول الإفلات من قبضاتهم بضراوة. عبرنا أحد الوديان المروية جيدا التي نمت نباتات الخبيزة فيه لارتفاع قدم أو قدمين ، وقد علتها أزهار ليلكية وزهرية ورمادية فضية مع أوراق كبيرة وسميكة. كان الرجال والأولاد منشغلين في قطفها وتعبئتها في أكياسهم. يقبل العرب على هذه النبتة بكثرة بسبب استخداماتها الاستطبابية والعلاجية. يستخدمون أوراقها في كمادات لتسكين الالتهابات. كما يتم تحضير غسول (لوسيون) طبي منها أيضا. خبيزة هي التسمية التي يطلقها العرب على هذه النبته ، أما الأقراص الدائرية الصغيرة التي تحمل البذار فيها ، التي يطلق عليها الأطفال الإنجليز اسم الأجبان فالعرب يسمونها خبز ، إذ إن أرغفة الخبز العربي تكون مسطحة ودائرية على الدوام.

بينما كان اسطفان منهمكا في سرد هذه المعلومات على مسامعي ، لمحت خمسة غزلان تتقافز وراء بعضها البعض خلف أجمة أشواك وتختفي وراء أشجار العرعر. لفتنا انتباه الصيادين المنتشرين في الأرجاء إلى مكانها. فهرعوا مسرعين دون أن يعيروا أي اهتمام للصخور والأشواك ، التي كانوا يدوسون عليها. أطلق سراح الكلاب التي ركضت في أثر الغزلان فورا. استرحت على سرجي وصالح صيقلي بجانبي ونحن نراقب مشهد الغزلان المتراكضة وقد اعتراها الفزع ، والكلاب وهي تعدو وتتسابق للوصول إلى الغنيمة ، والخيالة بمهارات الركوب والمراوغة. باءت مطاردة الغزلان بالفشل ، ولكن الرجال نجحوا في صيد أربعة أرانب برية شهية. ثم بدأت مطاردة جديدة في اتجاه آخر حيث شوهد قطيع من الأيائل. تبعت الرجال في المؤخرة بمعية الملازم ونمر ، وتابعنا المطاردة لبعض الوقت من بعيد. ثم عبرنا السهل عبر حقول المزروعات وبساتين الورود البرية. توقفنا عند عين شعيب

حسب الاتفاق المسبق على التجمع عندها لدى انتهاء رحلة القنص. وجدنا رجال الآغا منهمكين في تحضير طعام العشاء بالقرب من العين. حفروا حفرتين عريضتين على عمق قليل في الأرض وأشعلوا فيهما النار بواسطة الحطب والأشواك. كان خروف كامل يشوى في إحداها بينما كانت طنجرة كبيرة من الأرز قد وضعت فوق الحفرة الأخرى.

التئم شمل المجموعة بأكملها خلال وقت قصير. جلست الكلاب اللاهثة على العشب وترجل الفرسان عن صهوات خيولهم التي ربطت وهي تصدر صهيلا مرتفعا بصعوبة بالغة. ربط بعضها بحبال بأوتاد غرزت في الأرض. يحمل الخيالة وسائسو الخيل هذه الأوتاد عادة خلال ترحالهم في الأراضي التي تخلو من الأشجار أو الصخور الملائمة لربط الخيول. مع ذلك لم يمتلك جميع الرجال الدرجة نفسها من الحنكة وبعد النظر. بدأ البحث عن الحجارة الكبيرة لربط الأرسنة بها وإن لم تكن بطريقة محكمة تماما. فتمخض عن ذلك فرار حصانين وابتعادهما بسرعة. لم أتمكن من منع نفسي من الاستمتاع بمشهد مطاردة الخيول الفارة عبر سبخات الماء والأراضي المزروعة بكثافة. استمتعت بهذا المشهد أكثر مما استمتعت بمنظر مطاردة الغزلان الصغيرة البائسة التي كان فرارها مبعث سعادة أكبر لي من صيدها. ألقي القبض على الحصانين في نهاية المطاف ، سوية ، على ضفاف جدول صغير. عندما تجمعنا من جديد جلسنا في ظل قبة العين محاطين بمساحات شاسعة من الأزهار البرية. جهز طعام العشاء. وحمل رجلان الخروف على صينية معدنية كبيرة (سدر) ، بينما حمل اثنان آخران جبلا من الأرز الأصفر مع السمنة. جاء أولاد يحملون زبديات من القشطة المحلاه والحليب الطازج وأطباقاً من اللبنة. وضعت هذه المأكولات على بساط طبيعي من النفل والخبيزة والأعشاب. غسلنا أيدينا بمساعدة الخدم الذين كانوا يسكبون الماء عليها من جرار فخارية. وفرشت العباءات البدوية الفضفاضة والأقمشة التي توضع تحت سروج الخيول على الأرض من أجلنا ، وتحلقنا جميعا حول الطعام الساخن والفاتح للشهية.

تمتم الرجال العرب جميعا بالبسمله خلال استعدادهم للأكل. تولى صالح مهمة تشريح الخروف ببراعة بسكين الصيد التي كان يحملها. قام خادم بتمرير أرغفة رقيقة مستوية وكبيرة من الخبز الطري (الخبز الشراك أو المشروح الفلسطيني-المترجم) على كل واحد منا. حشي

الخروف بالأرز واللحم المفروم واللوز والزبيب والجوز والتوابل والبهارات. سكب صالح آغا كمية منها على رغيفي المسطح الذي استخدمته كطبق ، ووضع قطعة من اللحم في راحة يدي بعد أن فصل عنها العظم باستخدام شبرية الصيد القصيرة التي يحملها. يطهو العرب اللحم جيدا حتى يصبح طريا جدا ما يسهل تقطيعه إلى أجزاء صغيرة.

حفر الرجال حفرا عميقه في التل الهرمي من الأرز-ملتزمين بالأجزاء القريبة من كل واحد منهم فقط ، وتقيدوا ما أمكنهم بالأكل من حفراتهم ، دون إزعاج الرجل الجالس بجانبه بالاقتراب من حفرته ، إلا عندما كان يقوم من باب المجاملة أو حسن الضيافة بوضع قطعة من اللحم فيها بين الحين والآخر. أضيف أرنب بري مشوي للوليمة وسرعان ما تم تقطيعه وتوزيعه. تم الإتيان على القشطة بنهم وشراهة بغمس لُقم الخبز المحدبة فيها وملؤها بها ورفعها للفم كالملعقة ، لتختفي الملعقة ومحتوياتها سوية في جوف الفم. يندر أن يتجاذب العرب أطراف الحديث على مائدة الطعام. بدأوا بالنهوض واحدا تلو الآخر لدى انتهائهم من الطعام مرددين الحمدلله في طريقهم للعين لغسل أيديهم وأفواههم وهم يلهجون بآيات الشكر لله.

استرحنا بعد ذلك لبرهة من الزمن ، ودارت القهوة والغلايين على الحضور. انتهزت الفرصة لكي أرسم الآغا وابنه الصغير ومرافقه خليل في كراسة الرسم التي أحملها. بدت علامات القلق على خليل حين رأى ما رسمت وتوسل إلي لكي لا أعرض رسمه في مناطق معينة ، فقد وضعت جائزة مادية لمن يأتي برأسه ، وهناك رجال يبحثون عنه سعيا لقتله. في تلك الأثناء ، كان الخدم وبعض الحاضرين قد أفرغوا السدور والصواني الكبيرة من محتوياتها ما مكنني من رؤية الكتابات العربية المنقوشة عليها- والتي كانت عبارة عن آيات قرآنية وأدعية وعبارات دينية. ثم غطى معظم الرجال وجوههم وغطّوا في نوم عميق ، فتجولت في الأرجاء لجمع عينات من كافة الأزهار التي تمكنت من العثور عليها ، وقد ساعدني نمر الصغير بطيب خاطر في ذلك. علاوة على أزهار الحوذان والشقار ، صادفت أزهارا غير مألوفة بالنسبة إلي. إحداها كان لونها زهريا ، تشبه إلى حد ما زهرة بخور مريم (صابونة الراعي- المترجم) ، مع أوراق مدببة ونضرة نبتت زوجيا على الجذع. الضغط يتكفل بتغيير لون

الزهرة من اللون الزهري إلى الأزرق دائما. ستشكل هذه الزهرة إضافة مرغوبة في حدائقنا في إنجلترا، حيث لم يسبق لي رؤيتها في أي منها. رسمت القبة التي تعلو عين الماء، وعندما استيقظ النائمون قالوا: ماشاء الله، البنت الإنجليزية بترتاحش (لا ترتاح)-الله يعطيها العافية ودعنا الآغا ورجاله وأصدقاءنا الشفاعمريين ويممنا على صهوات خيولنا برفقة صالح والخدم المرافقين لنا صوب حيفا، حاملين غزالا وزوجاً من الأرانب البرية. شاهدنا عدة قطعان من الخيول والإبل ترعى بحماية رجال الآغا في الأجزاء غير المزروعة من أراضي السهول والجرود. وصادفنا في طريقنا العديد من السلاحف التي كانت تتوقف وكأنها تنتظر وقوع هجوم مباغت. ثم تجول ببصرها من حولها للحظات وتعيد رؤوسها إلى قوقعاتها الصلبة. رفرفرت مئات من العصافير الصغيرة بين الأعشاب الطويلة عندما مررنا بالقرب منها، وكانت أسراب من البط والأوز البري تحلق فوق السهول متجهة إلى السبخات المنتشرة في الجوار بين الحين والآخر، وصفقت النوارس بأجنحتها فوق رؤوسنا. عبرنا التلال الرملية المتحركة وسارت خيولنا خببا على طول شاطئ البحر باتجاه نهر المقطع، حيث وقف الرجال على ضفافه وهم يلقون شباكهم الكبيرة العائمة في المياه، بمساعدة صبية على متن قارب صغير في منتصف النهر. أسماك نهر المقطع صغيرة نسبيا ولكنها تمتاز بوفرتها ولذة مذاقها.

كانت سبع سفن قد ألقت مراسيها في ميناء حيفا- سفن يونانية وفرنسية وتركية. غربت الشمس أو كادت عند عبورنا واحدا تلو الآخر للسان الرملي. أسرعنا الخطى على حافة الماء تاركين حوافر خيولنا تلامس أطراف الأمواج المتتابعة، دبّ الرعب والفزع في قلوب مئات من السلاطعين الصغيرة التي كانت بيضاء بلون الرمال. برزت عيونها السوداء المثبتة على عظام متحركة بوضع عمودي من مآقيها المستديرة. وأخذت تتراكض هنا وهناك برشاقة للابتعاد عن طريقنا. تحركت أجسادها بسرعة وبالنسق نفسه على الرمال المبتلة إلى أن كانت تختفي هي وظلالها تحت الموجة التالية. لطالما التقطت وتفحصت هذه السلاطعين الصغيرة والمثيرة للفضول. تكون ألوانها فاتحة على الدوام، بيضاء أو بلون الرمل-ويتراوح طولها من بوصة إلى ثلاث. أعتقد بأنها تنتمي لفصيلة السلاطعين الطائرة تحفر جحورا في

الرمال قريبا من البحر وتتصرف بجبن بالغ إذا تعرضت للمضايقة. مع ذلك فهي تستاء من المضايقات في بعض الأحيان. شاهدت ريشه ، كلب الصيد الذي نملكه يسلي نفسه بمطاردتها ويناوشها كما يناوش القط الفأر ، أو وهو يقوم بنقب جحورها. عندما كانت تتاح لها الفرصة ، كانت تتشبث بأنفه أو شفتيه ، بحيث يواجه صعوبة التخلص منها ، ولكنني لم أشهده يؤذي أو يسحق أياً منها إطلاقا. يستخدم الصيادون هذه السلاطعين كطعم لسناراتهم وينصبون شراكا لها تشبه جحورها الرملية إلى حد كبير.

التقينا بالعديد من الأصدقاء الذين كانوا يحيونا خلال عبورنا بوابة حيفا ، إذ كانت ساعة الغروب التي يعود الناس فيها للبلدة بعد الانتهاء من جولاتهم المسائية. كان المتظلم موجودا يحيط به جنوده وهو يمشي الهوينا حاملا بيده مسبحته الفضية والمرجانية ، بينما سار حامل غليونه إلى جواره. كان هناك مجموعة صغيرة من اليهود أيضا ارتدى بعضهم قبعات عريضة الحواف ومعاطف طويلة من الغاباردين ، واعتمر قسم آخر منهم شالات سوداء لُفت كعمائم فوق رؤوسهم وصداري حريرية مخططة بالفراء. على مسافة من هولاء ، سارت مجموعات من النسوة اللاتي لا يمكن تمييزهن متسربلات بملاءات بيضاء من قمة الرأس حتى أخمص القدم. فبدون كأعمدة متحركة بسبب الخطوات القصيرة التي كن يخطونها. كُنَّ بالكاد يرفعن أقدامهن عن الأرض وكأنهن يتزحلقن عوضا عن أن يمشين. حتى إن علامات الرزانة والجلال غير الاعتيادية بدت على الأطفال الذين كانوا بمعيتهن.

ثور قصير وقوي ونعجة سمينة بذيل طويل وعريض وأغنام ذات شعر أسود لامع ، كلها اقتيدت أمام الرعاة العائدين من المراعي الخصيبة ولكن غير الآمنة للبحث عن مأوى لقضاء الليلة داخل أسوار البلدة. كان المسيحيون يعبرون البوابة المقابلة للبلدة في الوقت ذاته ؛ إذ إنهم يفضلون التنزه على التلال والجرود الغربية- ربما بسبب وقوع مقابرهم غرب البلدة ، بينما يفضل المسلمون الجهة الشرقية ، حيث مثوى موتاهم.

تردد صوت الآذان بوضوح في أرجاء البلده من شرفة المئذنة التي يتوّجها الهلال ، في الوقت ذاته الذي قرع فيه ناقوس صلاة المساء من على البرج الصغير الذي يعلو كنيسة اللاتين. توقف بعض الناس عن متابعة أعمالهم ، أو وقفوا بسكون في الطرقات ليرسموا

إشارة الصليب على صدورهم ، وليتلوا الصلاة المريمية (السلام عليك يا مريم...) باللغة العربية ، بينما كان بقيتهم يشهدون: أن لا إله الا الله ، محمدا رسول الله

يحرص شقيقي في أيام الأحاد على تلاوة الصلاة باللغة العربية في صالون الضيوف في دار القنصلية في الساعة التاسعه صباحا. عندما يصدف تواجد سفن بريطانية في الميناء ، تقام الصلاة في الساعة الحادية عشرة ، بمن يمكنه الحضور من ربابنة وبحارة هذه السفن ، كما يحضر أحيانا الرحالة والمسافرون الذين يتصادف وجودهم في الجوار. صالح صيقلي كان من المواظبين على حضور الصلاة بالعربية التي لم يستبعد أحد من حضورها مطلقا. عادة ما كنا نتجمع في السادسة أو السابعة. كان الناس يأتون من دون تردد نظرا لأنهم لا يتعرضون لأية ضغوطات من أجل الحضور ، ولم يكونوا يدعون للقيام بذلك أصلا. حب المعرفة دعا العديدين للقيام بزيارة أو أكثر. العرب ، وخصوصا المسيحيين العرب ، لم يكونوا قادرين على فهم الكيفية التي يمكن أن يكون لنا فيها دين من دون كاهن أو قسيس ؛ وكيف نؤدي شعائرنا الدينية من دون مذبح ، وكيف نقيم الصلوات من دون كنيسة ، وكيف يمكننا إدراك وجود الخالق دون أداء طقوس سر التناول. كانوا يجلسون بهدوء وتركيز بالغين عند الاستماع للمقاطع التي تتلى من العهدين القديم والجديد. بعد انتهاء الصلاه ، وبناء على طلب الحاضرين ، عادة ما كان صالح صيقلي يتلو أجزاء منتقاه من الإنجيل تتعلق بأحداث تاريخية أو عظات كاملة. كانت سيدات من طائفتي الأرثودوكس واللاتين يحضرن أحيانا ، ويجلسن من دون براقعهن عندما يقتصر الحضور على المسيحيين ، ولكنهن ينسحبن فور الإعلان عن دخول زائر مسلم. كان الزوار المسلمون دائما ما يعبرون عن سرورهم البالغ لحضور خدمة القداس لما تمتاز به من بساطة وخشوع ، عرفت أنهم إضافة للقرآن ، يعترفون بالكتب التالية ككتب مقدسة وموحى بها من عند الله: التوراه -التناخ أو الأسفار الخمسة الأولى منها ؛ الزبور- أو كتاب المزامير ، الأنبياء ، والإنجيل وهو العهد الجديد. يحظى أتباع أي من هذه الكتب بالتسامح الديني (لدى المسلمين-المترجم).

كان صالح بيك عبدالهادي ، قائمقام (الحاكم) حيفا ، وهو عربي ، يتردد علينا من حين لآخر.

قال بأنه لو وجد في البلاد مدرسة إنجليزية لأرسل أبناءه اليها بلا تردد. أبدى العديد من الجيران رغبتهم في إرسال بناتهم الصغيرات لقضاء بضع ساعات برفقتي يوميا ، لكن لم يكن بمقدوري تحمل هذا العبء ، مع ذلك ، كنت أشجع الأطفال على القدوم لمنزلنا ، كلما كنت أملك الوقت الكافي -كان الشرط الوحيد المفروض على قدومهم هو مستوى نظافتهم وترتيبهم.

لا يلعب الأطفال المسلمون مع أقرانهم من المسيحيين في العادة ، حتى إن الأطفال المسيحيين منقسمون كذلك. أطفال طائفة الروم الأرثوذكس يلعبون في الشوارع بمعزل عن الأطفال التابعين لطائفة اللاتين ، ولا يتحدون سوى لمضايقة واستفزاز أطفال اليهود المساكين.

بنت صغيرة ذات مظهر لطيف ، في السادسة من عمرها تقريبا ، أبوها كان واحدا من الشخصيات الأوروبية المرموقه والمحترمة جدا ، وأمها كانت عربية ، فاجأتني للغاية عندما قالت باللغة العربية لأحد العمال اليهود في أحد الأيام ، ومن دون أن يبدر منه ما يدعو لاستفزازها ، وبحركة ازدراء لا يمكن إغفالها: إمشي يا يهودي ، روح أُصلب حالك! البنت التي كانت رقيقة وعطوفة بطبعها ، ارتجفت عندما أدركت مقدار القسوة والظلم الكامنين في كلماتها. طلبت الصفح من اليهودي بناء على طلب مني ، ثم وبرغبة صادقة منها ، قامت بتقبيل يديه وهو تحت وقع الدهشة ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.

رغبة مني ، وبالقدر الممكن ، في مراقبة روح الكراهية والتعصب والاضطهاد هذه ، شجعت أطفال حيفا على الالتقاء سوية في غرفتي. كنت أعد لهم ضروبا من التسلية ، ألعب معهم ، أقص عليهم حكايات عن إنجلترا ، أريهم صورا ، متجنبة الحديث عن معتقداتهم الدينية. عبر جعلهم يستمتعون بقضاء أوقات سعيدة سوية ، كنت آمل أن يتعلموا حب بعضهم البعض بشكل عفوي.

كنت أترك الأطفال يسلّون أنفسهم بأنفسهم في بعض الأحيان ، وأنزوي أنا في آخر الغرفة ، قادرة على رؤية وسماع كل ما يدور فيها ، دون أي تدخل في تصرفاتهم العفوية. في مرات كهذه ، سمعت بنات يبلغن السابعة أو الثامنة من العمر وحتى أصغر سنا ، يناقشن القيمة

المقارنه للأزياء والمجوهرات التي تملكها سيدات المجتمع في حيفا. فتقول إحدى الفتيات: الست عفيفة عندها أكبر قطع لولو وزمرد ، وفلانه عندها اكتر صيغة في البلد و إم إيليا عندها أحلى فساتين وجاكيتات مطرزة كان بمقدورهن الحديث عن عدد الأرباع الذهبية الموجودة في المناديل التي تضعها السيدات النصراويات المقيمات في حيفا على رؤوسهن.

في يوم الأحد الرابع والعشرين من شباط / فبراير ، طلب أحد المسلمين ، وكان على قدر كبير من النفوذ والذكاء ، الإذن لحضور قداس الصباح. رحبنا به ، وخلال القداس ، حاملا كتاب الصلوات بيده ، كان يتابع كل كلمة بانتباه وتركيز كاملين ، مظهرا إشارات لا تخطئها العين من الاهتمام الاستثنائي. حتى إنه كّف عن التسبيح بمسبحته المصنوعة من الكهرمان الأصفر خلال حضوره للقداس. مع ذلك ، وفور انتهاء القداس ، شوهدت خرزات المسبحة في يده من جديد ، وهي تنزلق بسرعه بين أظافره المقصوصة والمقّلمة جيداً. لا يكون الرجل المسلم مرتاحا ومسترخيا ، ما لم يحمل غليونه في يد وسبحته في اليد الأخرى.

بعد مغادرة المسيحيين ، قلت له: هل تخبرني سعادتكم بفائدة المسبحة ؟ هل هي مجرد لعبة ، أم أنها أداة للمساعدة في استذكار الصلوات وذكر الله وحمده ؟

دون أن يبدو عليه أي تردد ، شرح استخدامات المسبحة قائلا: أسماء الله الحسنى عديدة ، بس لازم الرجل يحفظ ويعيد تسع وتسعين اسم منها. هاي المسابح فيها تسع وتسعين أو ثلاث وثلاثين خرزة ، بنتذكر فيها هاي الأسماء ، هيك.... هكذا - وقام في هذه اللحظة بأخذ المسبحة من يدي ، وصار يردد وهو يمرر الخرزات بين يديه ببطء ووقار: الله الخالق ، الله الحافظ ، الله المنّان ، الله البارئ ، الله الباقي ، الله البصير ، الله الرحيم ، الله القوي ، الله مالك الملك-وهكذا دواليك ، إلى أن تدور خرزات المسبح ثلاث مرات في يده ، إذ إنها تألفت من ثلاث وثلاثين خرزة بيضاوية كبيرة من الكهرمان الغامق. عندما رأى شدة اهتمامي وسروري ، تكبد عناء تعليمي هذه الأسماء.

قلت له: طيب بعد ما ساعدتني حضرتك مشان افهم هالكلمات الجميله اللي بتنحكى عند استخدام المسبحه ، رح ازعل كتير اذا سمعتها بتنقرأ بسرعه من دون تفكير بمعانيها فأجابني: معاكي حق يا أختي ، عبادة الله لازم تكون بخشوع لكنني لمست مدى الصعوبة

التي سيواجهها في ترديد الأسماء بروية وتمهل ، مقابل السهولة الكامنة في ترديدها بسرعة. بعد لحظة من الصمت تابع قائلا: وحده من هاي الأسماء لازم تلبق لكل انسان صالح ما بيرتكب الذنوب ، وبتأثر على حياته كمان عند احتساب تاريخ ميلاد المرء بالمقارنة مع اسمه بشكل دقيق ، يماط اللثام عن الصفة المرتبطة فيه. قام الرجل باحتساب اسمي وميلادي على سبيل المثال ، وصار منذ ذلك الحين لا يناديني الا باسم: الشفيعة مريم سألت معلمي المسلم الذي يتولى تعليمي اللغة العربية عن السياق الذي تستخدم به كلمة شفيع. ففسرها بكونها تعني الرحمة والخير والاستعداد للصفح والغفران. صديق مسلم آخر قال لي في وقت لاحق بأنها تعني التماس الرحمة المقرونة بالعدل. اعترف ضيفنا لي بأنه لا يهتم بالصوم ولا بالمظهر الخارجي ولا بالشعائر. إنه يؤمن بأن قيامنا بواجباتنا تجاه الأشخاص الآخرين وحمد الله على نعمه تفي بالغرض. واستطرد قائلا: اذا ما صُمت وتوضيت وصليت ثلاث مرات في اليوم (ربما قصد الصلوات المفروضة خلال النهار- الظهر والعصر والمغرب فقط- المترجم) ، ما حدا رح يرد عليّ جّوا المجلس وراح أخسر كل عزي وجاهي أكد لي بأن هناك العديد من الرجال الذين يشاطرونه الأفكار نفسها التي يحملها بشأن هذا الموضوع ، لكنهم يفضلون الاحتفاظ بقناعاتهم هذه لأنفسهم.

نادرا ما يتطرق أخي للدين الإسلامي عند الحديث مع المسلمين ، وقد نبهني إلى توخي الحذر عند القيام بذلك ، وعليه فلم أقم بطرق الموضوع مباشرة أو مواربة على الإطلاق ، الا عندما أجد نفسي برفقة رجل من ذوي الذكاء المتوقد وحسن الظن بالأمور ، كنت حينها فقط أتطرق للموضوع بحذر بالغ وكباحثة عن المعرفة بدلا من لعب دور الأستاذة أو المُبَشِّره!!!

كنت أحصل على إجابات مهذبة ، وإن لم تكن مقنعة على الدوام ، وقد جمعت معلومات مثيرة للاهتمام في هذا المجال. كنت راضية عن حقيقة بأنني لم أتسبب في الإساءة للذين كنت أوجه أسئلتي لهم ، لأنهم كانوا هم من يرغب بلقائي ومحادثتي ، ولربما يعزى ذلك إلى حداثة عهدهم بمثل هذه الجلسات.

تجمع جميع الأوروبيين المتواجدين في حيفا في عصر ذلك اليوم ، وساروا في موكب باتجاه

كنيسة اللاتين لحضور تعميد جولس، الابن الذي رزق به مؤخرا قنصل فرنسا في البلدة. تولى القواسون قيادة الموكب. حملت الممرضة حلوة، وهي امرأة مسّنة من الناصرة، بين يديها وسادة زرقاء من الحرير وضع عليها الطفل الرضيع. والد الطفل، السيد أومان، سار برفقتي. أخبرني بأن طرقات البلدة وأزقتها الضيقة لم تشهد هذا الجمع من الأوروبيين من قبل. تألف الموكب من القناصل وربابنة السفن الراسية في الميناء، ورهبانا من جبل الكرمل، وتجارا حيفاويين وسيدتين يونانيتين طاعنتين بالسن تعتمران شالات مخرمة سوداء فوق طربوشيهما الأحمرين القصيرين. كانت الأم بالعماد يونانية المولد، لكنها ارتدت ملابس عربية ولفت جسدها بملاءة بيضاء. دخلنا الكنيسة الصغيرة المربعة الشكل. على مقربة من المذبح المرتفع ذي الزخرفة الفجّة، سجد عدد من الرجال العرب الحاسري الرأس، وكان آخرون يلطمون على صدورهم. خلفهم كانت مجموعة من النساء والبنات اللواتي يرتدين الملايات البيضاء راكعات بخشوع، وهن يحملن مسابح من الصدف في أيديهن المخضبة بالحناء. ألقين بمناديلهن وأغطية رؤوسهن الزاهية الألوان على أكتافهن، ما كشف اللثام عن ورود وحليٍ وعيون داكنة الألوان، يحيط بها الكحل الكثيف. تفادى الرجال العرب النظر إلى النساء، لكن الأخيرات بدا وكأنهن يسعين لجذب انتباه الرجال الأروبيين الأقل التزاما بالأعراف والتقاليد، ولم تَخِب آمَالهنّ. وُضع الزيت المقدس والملح والمستلزمات الأخرى الضرورية لإجراء العماد على قماش أبيض مطرز فوق مائدة قريبة من جرن المعمودية. أقام الكاهن صلاة العماد باللاتينية، لكن بطل الحفل الصغير نجح في مقاطعته وتشتيت انتباهه بصراخه المرتفع. رفض الطفل بعناد وإصرار تذوق طعم الملح أو مسح جبينه بالماء أو صدره بالزيت. تنفس جميع الحضور الصعداء، خصيصا الكاهن، عند الانتهاء من طقوس المعمودية، وعندما استرخى المسيحي حديث الولادة كما يسمونه، بهدوء في أحضان ممرضته. عدنا إلى دار القنصلية الفرنسية. تجمع عدد كبير من الناس في الصالون الذي اكتست أرضيته بالمرمر، وبدأت الأم السعيدة (وهي سيدة عربية) بتلقي التهاني والتبريكات من جاراتها، فقد كان جولس ابنها الوحيد. كان يوما احتفاليا تماما في حيفا، خصوصا في أوساط طائفة اللاتين. وُزعت أطباق من البرتقال المغلي بالسكر

والتوابل ، مربى الليمون المقطع المغموس بالعسل ، وأطباق من مختلف أنواع الحلويات الشرقية كالمهلبية والنوجا ، والبونبون والليكير الفرنسي.

استأذنت من الضيوف وخرجت برفقة أخي للتنزه عند البوابة الغربية لحيفا. ألقت الشمس الآفلة للغروب بأشعتها على المروج الخضراء والمنحدرات والأشجار والصخور البيضاء المنتشرة على جبل الكرمل. نبتت ورود زهرية اللون بكثرة بين مفاصل الصخور في الجرود. كانت تتخذ شكل الصليب اليوناني ، بينما كانت أوراقها تشبه شكل القلب. جلسنا على الأرض المكسوة بالطحالب في ظلال وارفة لشجرة خروب باسقة الأغصان نسترجع أحداث النهار ، ونمتع أبصارنا بالمناظر المحيطة بنا ، وبالسكون السائد على المكان ، حيث كانت البلدة قد غابت عن ناظرينا. كنا في وسط بيارات من أشجار التين والزيتون والخروب. واكتست الأرض ببساط من الزهور البرية ؛ وعبقت التلال بشذى الأعشاب العطرية ، وأحواض الورود من خلفنا ، والبحر اللامتناهي وقد صبغته الشمس الآفلة للمغيب بأشعتها الحمراء ، من أمامنا.

قطعت خلوتنا لدى اقتراب قوّاسنا منا ليبلغنا بوصول مبعوث خاص من بيت المقدس ، سرعان ما وصل بنفسه إلى موقعنا. كان افريقيا طويلا تبدو عليه علامات القوة والبأس ، ذا بشرة غامقة جدا وعظام ناتئة ، ارتدى ثوبا قطنيا غير مدبوغ وتمنطق بحزام جلدي. واعتمر عمامة كبيرة غطت رأسه ووجهه. كانت قدماه العريضتان حافيتين. قطع المسافة من بيت المقدس في ثلاثة أيام حاملا رسائل في غاية الأهمية من السيد فن ، قنصل صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا. أخرج كيسه من صدره وقبل يدي أخي بينما كان يقوم بتسليمه إياه ، ثم وقف ليستريح متكئاً على عصاه الطويلة.

علمت بأن الخطابات حملت تعليمات لأخي بالسفر إلى نابلس فورا لإعداد تقرير عن الأوضاع الراهنة هناك ، وللتحقق من السبب أو الأسباب الحقيقية وراء الاضطرابات التي تدور في البلدة والمقاطعات الجبلية المحيطة بها. بعثت السيدة فن برسالة تنصحني وتدعوني فيها لمرافقة أخي حتى نابلس ، بحيث ألتقي هناك بمرافق يصطحبني إلى بيت المقدس لقضاء عيد الفصح في المدينة. كانت الشائعات تصل حيفا يوميا في الآونة الأخيرة حول الصدامات

والمناوشات وحتى المعارك المسلحة التي كانت تدور بين أنصار محمد بيك عبد الهادي ، حاكم نابلس المعين حديثا ، وأتباع سلفه في المنصب. لذلك فقد كان التجوال في جبل نابلس أمرا غير مأمون العواقب ، علاوة على أن هطول الأمطار في اليومين القادمين كان متوقعا ومحتوما. مع ذلك ، وافقت على السفر واشترطت أن يتصرف أخي وكأنه يسافر بمفرده ، سواء من حيث اختيار مسار الرحلة ومحطات التوقف فيها ، أو من حيث تحديد المسافة المقطوعة يوميا. بعد أن تم الاتفاق ، أثبت لي اقتناعه بمدى جديتي عندما قال: إذن ، سوف ننطلق عند الفجر غدا ، لأن هذا ما كنت سأقوم به لو كنت أسافر بمفردي

كان هذا بمثابة تغيير مفاجئ في خططنا. بقيت إلى ما بعد منتصف الليل وأنا أملأ حقائب وصناديق السفر وأهيء الترتيبات الكفيلة بتأمين سلامة المنزل وأثاثه لفترة غير محددة ، وأضع المصائد الكفيلة بالحد من دخول الفئران والجرذان والقمل وتكوّن الزوان في الحبوب.

كان أخي في تلك الأثناء منهمكا في مداولات ومشاورات مع وكيله وصالح بيك ، قائمقام حيفا الذي طلب مقابلتي. ذهبت إليه فبادرني قائلا: انتي ست شجاعة يا أختي ، راح تسافري برحله كثير صعبة وخطيره ، بس ما في شي تخافي منه لأنك ما عندك أعداء. راح توصلي عرابة قريتي بعد يوم أو يومين ، وراح تكوني مرتاحة فيها ونسواني وبناتي اللي خليتهم هناك رح يستقبلوكي. أنا كنت رتبت لجيتهم لهون ، وبعثت وراهم كتير ، بس هم خايفات يسافروا لهون مشان القتال. اذا وصلتي عرابة بالسلامة وشافوكي ، يمكن قلوبهم تقوى ، الله يحميكي ويرعاكي ، وان شالله تكوني مرتاحة ومبسوطة بعرابة ، وترافقك السلامه وين ما كنتي

الفصل التاسع

بعد ساعات قليلة من النوم العميق والمريح ، نهضت من نومي قبل شروق شمس يوم الخامس والعشرين من شباط /فبراير. فرغت كاثرين التي ألحت على السفر معنا ، من تحضير بُقجَتِها وهي مغتبطة جدا لفكرة قضاء عيد الفصح في بيت المقدس ، فقد كانت في غاية الورع والتقوى. غطت عينيها بالكحل ابتهاجا بالسفر. أطلعتها على الصعوبات التي قد تواجهنا خلال الرحلة. فأكدت لي بأنها ليست خائفة على الإطلاق لأنها قصدت دير السيده العذراء على جبل الكرمل ، وأحضرت من الدير تميمة فعالة وضعتها في قلادة معلقة في رقبتها ، كانت على قناعة تامه بأن هذه التميمة ستقيها شر كافة المخاطر التي قد تحيق بها. احتوت هذه التميمة على رسم غير متقن للسيدة العذراء والسيد المسيح عند ولادته طبعت على قماش كتاني مساحتها إنش أو إنشان مربعان ، ويقال بأن هذا القماش مأخوذ من الثوب الذي تركته السيدة العذراء على جبل الكرمل بعد أن ظهرت في رؤيا لأحد الرهبان في زمن غابر. لا بد أن هذا الثوب كان كبيرا للغاية ليكفي لتوزيع هذا العدد الهائل واللانهائي من الرقيّ والتمائم التي تباع بالآلاف للحجيج القادمين من شتى أنحاء أوروبا. جميع مسيحي حيفا يلبسون من هذه التمائم ، وبعض الأروبيين يحذون حذوهم أيضا ، فبالكاد أعرف حالتين أو ثلاثاً من الناس الذين يمثلون الاستثناء في عدم ارتدائها. تكون بعض هذه التمائم محفوظة داخل مدلاة من الكريستال أو كزينة للخرز ، وبعضها الآخر يكون محاطا بأهداب من الحرير أو بحواف مطرزة. خلال أحد الأيام التي كنت مريضة فيها ، وضعت كاترين المسكينة إحداها حول عنقي خلال نومي ، والآن وخلال التحضير للرحلة أخذت تحاول إقناعي بالاستفادة من مزاياها.

امتلأت ساحة المنزل بالمودعين الذين قدموا ليتمنوا لنا رحلة سعيدة وليقولوا لنا: الله معكم وللتعبير عن استيائهم لرحيلنا. الانطباع العام لديهم كان يتلخص بأننا نقدم على مغامرة محفوفة بالمخاطر. الفلسطينيون من سكان المدن ، خصوصا المسيحيين منهم ، مخلوعو الفؤاد ، وكونهم ميالين بطبعهم لاتخاذ قراراتهم بكثير من التروي والأناه ، فقد

فوجئوا بسرعة اتخاذنا لقراراتنا. اودعنا كل ممتلكاتنا القيمة لدى دار القنصلية الفرنسية ، ووزعنا المؤونة القابلة للتلف ، وبعيد الفجر بقليل امتطينا صهوات خيولنا وكنا على أهبة الاستعداد للانطلاق. قاد القافلة كل من الدليل المسلح الذي زودنا به القائمقام وقواسّنا الحاج درويش. وسرت أنا وأخي والسكرتير العربي للقنصل الفرنسي ، الذي التمس الانضمام لنا وراءهم مباشرة. سار البغالة خلفنا مع المتاع والمقصف المحمول وسائس خيلنا المصري محمد ، وكاترين الملتفة بعباءة واسعة من وبر الإبل على صهوة حصانها ، ثم المبعوث الإفريقي الطويل ماشيا على قدميه. نصحناه بأن يرتاح ليوم أو اثنين في حيفا لكنه قال بأنه لا يشعر بالتعب ، وبأن ركوب الدواب سيرهقه أكثر من السفر مشيا على الأقدام لعدم اعتياده على السفر راكبا.

عندما ودعنا أصدقاءنا على بوابة البلده وتجاوزنا المقبرة الإسلامية ، اختفت كاترين. لدى استفساري ، بلغني أن الشجاعة خانتها بالرغم من التميمة التي حملتها ، وبأنها عادت أدراجها بعد ان قالت للسائس بأنها تعتقد بأن المطر سيتساقط ؛ لذا فمن الأفضل لها أن تعود للبيت! تعهد وكيلنا الذي رافقنا لمسافة قصيرة خارج البلده لتلقي تعليماتنا الأخيرة ، بأن يعتني بها ويوفر لها الحماية اللازمة طيلة فترة غيابنا.

غطت سحب داكنة التلال المحيطة بنا وتساقط المطر غزيرا قبل أن نجتاز البيارات المحيطة بحيفا. وضعنا عباءاتنا فوق رؤسنا وتابعنا المسير غير عابئين بالأمطار. عندما بلغنا عين سعاده تفرقت السحب فجأة في شتى الاتجاهات ، تاركة فجوة فسيحة من السماء الزرقاء فوق رؤوسنا مباشرة ، لكن تساقط الأمطار لم ينقطع فوق الجبال والبحر ، ستائر قاتمة ثقيلة بدا وكأنها تتدلى من السماء وتتمايل بفعل هبوب الريح. تزايدت قوة وكمية تدفق المياه في العين المحاطة بالصخور والقصب عن المعدل الذي رأيته فيها في شهر كانون الأول / ديسمبر المنصرم. عبرناها بحرص وأمان. اقتلعت سيول الشتاء أشجارا عديدة من جذورها. الكتل الكبيرة من الصخور التي كانت حتى وقت قريب منغرزة بثبات في الأرض ، تداعت مفاصلها الآن وتمايلت على حواف التلال وكأنها آيلة للسقوط علينا. أنعشت الأمطار العشب والأشجار والأزهار فتألقت في ضوء الشمس وملأت الجو بروائح لطيفة.

تركنا طريق الناصرة واتجهنا صوب الجنوب الشرقي بمحاذاة مسار إحد الفروع الجافة تقريبا لنهر المقطع. دخلنا وادي الملح. كانت الأزهار البرية تحف بالطريق الذي يمر عبره، وغمرتني سعادة غريبة حين رأيت أزهاراً من فصيلة النجميات ذات البتلات الحمراء. انتصف النهار فشعرنا بالجوع وطلبنا من قائد القافلة أن يتوقف عند أقرب عين ماء لنحظى بقسط من الراحة ونتناول شيئًا من الطعام. صادفنا بعض الجمال وهي ترعى على الخبيزة والدخن، وقد وسمت أجسادها بعلامات أنبأتنا بأن ملكيتها لا تعود للفلاحين. قال أخي: هذه الجمال تعني أن البدو موجودون بالجوار. سنبحث عنهم ونتناول غداء اليوم بمعيتهم، إذ لا بد أن يكونوا قد نصبوا مضاربهم بالقرب من إحدى عيون الماء العذب

عندما استدرنا حول الربوة التالية شاهدنا عددا من بيوت شعر المربعة الشكل بين الصخور والأشجار على الجهة المقابلة من الوادي. قطعنا الأرض الصخرية والوعرة لبطن الوادي، وصعدنا سفح التلة الوعر فوق الصخور وشجيرات الشوك. هرع العديد من البدو بعباءاتهم الفضفاضة المخططة بالأبيض والبني وكوفياتهم المهّدبة الصفراء لملاقاتنا، وليرافقونا مرحبين بنا في مضاربهم، فترجلنا عن خيولنا عند وصولنا إليها. كان عدد بيوت الشعر خمسة عشر بيتا. رافقونا إلى خيمة الشيخ التي صنعت كغيرها من بيوت الشعر من الصوف الخشن (السدو-المترجم) باللونين الأسود والأبيض من شعر الماعز (26) التي تسندها جذوع من الأشجار وأعمدة من القصب القوي المجلوب من ضفاف نهر الأردن. قسم حاجز من الأغصان المتشابكة بيت الشعر إلى قسمين. كان القسم الأصغر يضم بعض الأطفال والخراف، وسارعت بضع نساء بإخلاء القسم الآخر لكي يعد لاستقبالنا. قام ولد بدوي نصف عار ذو بشرة سمراء بكنس الأرض بأغصان مورقة من الشجر. وتقدمت امرأة عجوز ترتدي ملابس رثة بذراعين ذابلتين اصطفت عليهما الأساور الفضية، بفرش بساط تمت حياكته من صوف بالغ الخشونة من صنع البدو بكل تأكيد. دعينا للجلوس على البساط وجلس الشيخ وعدد من رجاله وهم يدخنون غلايينهم الطويلة في الجهة المقابلة لنا على الأرض في نصف حلقة على الأرض، خارج الجزء المفتوح من الخيمة، فأحاطوا بنا تماما. تراوح عدد البدو في هذه المضارب بين ستين إلى سبعين، وكانوا يتولون رعاية قطعان كبيرة من

الأغنام والماعز ، وكما توقعنا ، كانت مضاربهم قد نصبت على مقربة من إحدى عيون الماء عبر الشيخ عن رغبته بذبح جدي من أجل غدائنا فاعتذرنا لأننا كنا في عجلة من أمرنا ، ومع ذلك فقد زودونا بالخبز ، أخبرني أخي أن الأعراف البدوية تقضي بأن نأكل من خبزهم ، وتابع قائلا: اذهبي للعثور على النساء ، ستحظين بفرصة طيبة لرؤية طريقة إعداد الخبز عند البدو اتجهت نحو الجهة الأخرى من المضارب ، مهتدية بلهيب النار المشتعلة بين الأشجار. كانت امرأتان توزعان وتحركان الجمرات المضطرمة على الأرض بمهارة بالغة ، بيدين عاريتين وكأن النار لا تملك القوة اللازمة لإيذائهما. انشغلت امرأة أخرى بِرَقّ العجين. تراكضت النساء والصبايا الأخريات وتجمعن حولي لعناقي وملاطفتي والدهشة تسيطر عليهن. أخذن يتحسسن وجهي ويمسّدن شعري بأيديهن ، وكن متعجبات جدا من قفازات اليدين المخرمة التي ارتديتها على وجه الخصوص ، حيث صرت أرتديهما وأنزعهما لتسليتهن. قالت إحدى العجائز: لوين رايحة يا بنيتي ؟ فأجبتها: رايحه عالقدس يمه فقالت وكأنها تشرح للأخريات: هدول حجاج ، الله يحميهم! جميع النساء كنّ سمراوات. كانت وجوههن وأذرعتهن وأعناقهن موشومة ومخضبة بالحناء البرتقالية والحمراء اللون. شفاههن المكتنزه ولكن ذات الانحناءات الجميلة ، كانت زرقاء تماما ، نظراً لثقبها بمهارة بصبغة النيلة في نقاط متقاربة من بعضها البعض ، لكنها لم تترك أثرا حسنا. اكتحلت أهدابهن بالسناج الأسود. ولباسهن كان عبارة عن قطعة واحدة ، هي أثواب واسعة من القماش القطني الخام المفتوحة عند أعلى الصدر ، لون بعضها كان أسود بينما كانت الأثواب الأخرى باللونين الأزرق والبني (ربما كانت الإشارة للمِدرقة البدوية التي ترتديها النساء في بادية وبعض أرياف فلسطين-المترجم). كن يعتمرن شالات صوفية سوداء مهدبة زاهية الألوان وضعنها ببساطة وأناقه على رؤوسهن. العديد منهن كن يضعن اساور وخواتم وأطواقاً رديئة الصنع. لم ترتدي أي منهن نعالا في قدميها. كان الأطفال ذوو البشرة الغامقة المصفرة ، عراة بالكامل تقريبا لكنهم كانوا يضعون على رؤوسهم طواقي مخرمة بيضاء أو طرابيش حمراء تدلت منها أصداف وخرز وتمائم (الحُجب الفلسطينية-المترجم) لوقاية لابسها من الشر والأذى. تقدمت أم في مقتبل العمر ، تبدو أكثر فطنة من صويحباتها ، وحيتني بلطف. كانت خلافا

للأخريات تضع شالا أرجوانيا على رأسها ، وكان على أطراف ثوبها عند الأكمام والصدر والعنق أشكال متنوعة طرزت بغرزة مزدوجة من خيوط رفيعة كتلك التي نراها في أشغال الإبرة والتطريز في الأزياء القديمة. قدمت لي رضيعها الصغير المُقمَّطْ بفخر. الغريب أن بشرته كانت فاتحة اللون ، بل كانت ذات بياض يشبه البياض الذي يصيب بشرة الإنسان قبل الموت. وقد بلغني أن هذا الأمر طبيعي بين حديثي الولادة من البدو. حملت الجسد المُقمَّطْ والمُتَيَبس الأشبه بالمومياء بين ذراعيّ. كان غطاؤه (الكوفليه-المترجم) من قطن نيلي رديء الجودة وقد لُفت حوله بتناسق وثبتت بأشرطة جلدية ذات لون أرجواني كتلك التي سبق وأن رأيتها مربوطة على أسنة رماح البدو. بدا واضحا ان الأم تمتلك ذوقا رفيعا في فنون التزيين ، وكان تفوقها على قريناتها باديا في كافة تصرفاتها. في تلك الأثناء ، كانت عملية الخبز قيد التحضير. تضرم النار في غصون الأشجار في الهواء الطلق في موقد صغير دائري الشكل ، يتكون من حصى كروية ملساء متساوية الأحجام تُرص بجانب بعضها البعض. عندما ترتفع حرارة هذا الموقد بقدرٍ كافٍ ، يتم إبعاد الجمر بحرص وعناية ، وتلقى العجينة المعجونة جيداً بعد تسطيحها براحتي الأيدي ، على الحجارة الساخنة وتغطى بسرعة بالرماد المُتَّقِدْ. بهذه الطريقة تم إنضاج العديد من أرغفة الخبز الكبيرة بسرعة. عدت إلى بيت الشعر. كانت محتويات مقصفنا المتنقل من المؤونة قد أفرغت ، وهو ما أثار فرح الرجال الذين كانوا في غاية السعادة لرؤية السكاكين والشوك والملاعق. جُلبت زبادي خشبية مملوءه بالقشطة والحليب ، وتم تقديم أرغفة الخبز المسطّحة وهي لم تزل ساخنة. كان سمكها يقارب النصف إنش تقريبا وقد انطبعت عليها أشكال الحصى الساخنة التي خبزت عليها في الفرن البدائي. أرجح الظن أن هذا الخبز يشبه ذاك الذي صنعته ساره في غابر الأزمان للضيوف الغرباء ، تلبية لطلب إبراهيم ، إذ قال لها: أَسْرِعِي بِثَلاَثِ كَيْلاَتٍ دَقِيقًا سَمِيذًا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ (سفر التكوين 18:5 - المترجم).

تجمعت النسوة على مقربة منا لمراقبتنا ونحن نقطّع الدجاج المشوي البارد الذي حملناه معنا. لم يرين في حياتهن أناساً يأكلون باستخدام السكاكين والشوك من قبل. لا بد أنهنّ رأينّ في ذلك تصرفا في غاية الهمجية. كنّ يضحكن على استحياء ويغطين وجوههن بأهداب

نقاباتهن وأغطية رؤوسهن عندما يلحظن أحدا ينظر إليهنّ ، ثم اختفين فجأة بشكل جماعي ، بما بدا إذعانا لإشارة خفية من جهة ما. رسمت وجه قاسم الذي كان أكثر الرجال وسامة وجلالا. عندما رأى الرسم في دفتري توردت وجنتاه خجلا كالفتيات. أبدى اهتماما ملحوظا بخط سيرنا وتواصل معنا بشكل رائع. لم يوجه الرجال الآخرون أية أسئلة لنا ، وبدا أنهم لم يكونوا على استعداد للإجابة عن أية اسئلة وجهناها لهم ، اللهم باستثناء تلك الإجابة المعتادة: الله أعلم!

امتطينا صهوات خيولنا بعيد احتساء الفنجان الأخير من القهوة ، وتابعنا مسيرنا عند الساعة الثانية تقريبا ، عبر تلال يغطيها الزعتر البري وأودية تنتشر فيها حقول القمح التي زرعها البدو ، ولكنها كانت عطشى للمطر. صعدنا تلال الكرمل المطلة على مرج بني عامر وكنا أحيانا نلمح البحر الأبيض المتوسط على يمين طريقنا. قطعنا مسافة طويلة دون أن نصادف بلدة أو قرية أو مضربا للبدو ، ولا حتى أي إشارة تدل على طريقٍ أو مسارٍ للسفر ، بحيث كنت أُحس بأنني ارتحل في ديار غير مأهولة بالناس ، إلا عندما كنا نرى رتلا من الإبل المحملة بالفحم ، أو قافلة من الحمير المحملة بأحمال كبيرة من الأشواك وأغصان الشجيرات القصيرة ، بحيث تبدو من بعيد كسياج من الشجيرات المتحركة. كان من الواضح بأنها تنقل الوقود من المناطق الكثيفة الأشجار إلى البلدات والقرى في السهول الجرداء. كنا نعبر جزء من الأراضي الفلسطينية التي من النادر ، إن لم يكن من المستحيل ، أن يكون قد مر بها الغرباء من قبل ، حيث تتبدى خصوصية السفر والارتحال في بلاد المشرق بصورة أوضح مما عليه في الطرقات والدروب الأكثر استعمالا. اتضح لنا بأن الدليل الذي تلقى تعليمات بأن يوصلنا حتى عرابة كان يسلك دروبا ملتوية وغير مطروقة ، من أجل أن يتفادى المرور بالقرب من قرىً معينة ستكون حياته فيها معرضة للخطر ، بسبب المكافأه التي وضعها أعداؤه لمن يأتي به مقتولا في تلك المنطقة. كان قد سار بنا عبر السهول الخصيبة غربي سلسلة الكرمل.

انهمر المطر بغزارة. ألقى بعباءة عربية كبيرة عليّ وهو يقول: ان شالله يحميكي الله يا ستي ويبارك هالحقول ببادرة التذكير اللطيفة هذه ما عدت أشعر بالأسف لمنظر المطر

المتساقط ، بل تابعت مسيري وأنا سعيدة من أجل أزهار الربيع اللطيفة والحقول الشاسعة من القمح والحنطة.

لم نر أي مبانٍ من أي نوع كان طوال ساعتين أو ثلاث ، ولا حتى أطلال خان قديم في وادٍ أو برج مراقبة على ذرى التلال المحيطة. بلغنا أخيرا بلدة صغيرة مسورة بالجدران ، تقوم على هضبة دائرية ذات ارتفاع منخفض ، انتشرت على سفحها الشرقي شواهد قبور بيضاء. كانت بيارات الزيتون وبساتين الفواكه والأرض المحروثة تحيط بها من كل جانب. بعد ربع ساعة وصلنا إلى قرية صغيرة تلاصقت بيوتها بجانب بعضها البعض ، سعيا وراء المزيد من الأمن كما يبدو ، وكانت قطعان المواشي ترعى بالجوار بحراسة رعاة مدججين بالأسلحة. توقف المطر وسطعت الشمس الغاربة لبضع دقائق بأشعتها الحمراء على حقل متماوج من القمح ثم غابت. تمنينا على الدليل أن يتوقف في القرية التالية. سرنا جنوبا وبعد عشرين دقيقة تقريبا بلغنا قرية تسمى خبيزه نسبة إلى النبات البري المسمى بالاسم ذاته ، والذي ينمو بكثرة في الأنحاء. كانت القرية محاطة بسور من الطين. كانت بيوتها واطئة جدا لدرجة لم يكن بمقدوري أن أقف منتصبة في أي واحد منها. بعض هذه البيوت لم يعد عن كونه مخروطاً طينياً أجوف ، بينما كانت بيوت أخرى مربعة الشكل ومسقوفة بأغصان الأشجار. بعضها الآخر كان يشبه الجحور التي ترتفع قليلا فوق مستوى الأرض ، وكانت جميعها في غاية القذارة. الشوارع أو الممرات الضيقة بين البيوت كانت طينية موحلة وانتشرت فيها برك المياه الراكدة. تابعنا سكانها ذوي المظهر البائس بنظراتهم عبر فتحات بيوتهم الأكثر بؤسا ، وانطلق نباح مرتفع لمجموعات من الكلاب من جميع الاتجاهات بينما كنا نعبر القرية. لم نعثر على مكان مناسب لأخذ قسط من الراحة فسارعنا الخطى وسرعان ما وصلنا إلى ميحاف ، وهي قرية مكتظة وبالحالة نفسها من السوء الذي ميّز قرية خبيزة.

أكد الدليل لنا بأننا سنبلغ ملاذا آمنا في كفر قرع ، قرية مسلمة تبعد ثلاثة أميال إلى الجنوب. لا يسكن المسيحيون أياً من قرى هذه المنطقة. قررنا مواصلة المسير بالرغم من أن الليل كان قد أرخى سدوله. كان بمقدورنا رؤية نيران المراقبة المتوهجة على التلال المحيطة هنا وهناك ، بدأ المطر يتساقط بينما كنا نجتاز السهل بالسرعة التي أتاحتها لنا الظلمة

الحالكة. أرسلنا قوّاسنا قبلنا ليعلم شيخ كفر قرع بوصولنا. عندما بلغنا القرية وجدنا الشيخ بانتظارنا على مدخلها بمعية رجل يحمل سراجا ، حيث بادرنا الشيخ قائلا: أهلا وسهلا ، خذوا راحتكم ، احنا في خدمتكم ، وكل اللي عنّا تحت أمركم

وجدنا كفر قرع قرية أكبر وبحالة أفضل بكثير من سابقاتها. كان فيها بيت حجري واحد ، وهو البيت الذي أُخذنا للمبيت فيه. ترجلنا بسرور أمام بابه المفتوح فشاهدنا اللهب والدخان المنبعثين من الحطب المشتعل في الداخل. اتضح لي أن البيت يتألف من غرفة واحدة فسيحة تبلغ مساحتها حوالي الثمانية عشر قدما مربعا. السقف المُكوّن من عارضات ثقيلة وأغصان من الأشجار ، والذي تحول لونه للأسود بفعل الدخان ، كانت تسنده قنطرتان واسعتان. كانت الجدران مبنية من حجر غير مصقول خلا من الملاط أو الجص. عند الباب مباشرة ، وقف حمار إلى جانب نير مخصص للثيران. سرعان ما استوعبت أن ما يزيد على ثلث مساحة الغرفة كان مخصصا للمواشي ، كانت أرضيتها على مستوى الطريق ، وهي أرض ترابية ومغطاة جزئيا بالعلف. فارتقينا درجتين حجريتين توصلان إلى دِكَّة (مصطبة- المترجم) بارتفاع اثنين وعشرين إنشا تقريبا ، فرشت عليها أسمال من بسط وسجاجيد عتيقة باليه ، جلس عليها ثلاثة رجال وقوري المظهر ، أحدهم كان أعمى ، وهم يدخنون الغلايين. نهض الرجال لتحيتنا ثم تابعوا تدخين غلايينهم بصمت. كانوا يعتمرون عمامات كبيرة بيضاء وأثواب غامقة اللون. لحاهم كانت كثة وقد اشتعل فيها الشيب. كانوا حفاة ، بعد أن تركوا نعالهم الحمراء على عتبة الدرجتين المؤديتين للدكة. أنزل الشيخ بعض الحصر والوسائد من مِطْواة (علية لترتيب الفراش-المترجم) في الجدار وفرشهم على الأرض من أجل جلوسنا. في تلك الأثناء أُدخل بغلنا وأنزلت حمولته وفُكت سروج حصانينا ، وأُدخلا للجزء السفلي من الغرفة! استأذننا الشيخ في السماح بإبقاء الثور في الداخل ، متوقعا أن تكون ليلة شديدة المطر. وافق أخي مشترطا أن لا يتم إيواء حيوانات أخرى وأن يتم تدبير مأوى آخر لخيول خدمنا ومرافقينا. كانت النار المشتعلة في الأغصان والأشواك تضطرم في مركز الغرفة تقريبا. حوض العلف ، بطول ثلاثة أقدام وعرض قدم واحد ، كان عبارة عن تجويف داخل الحجر العريض الذي يشكل حافة الدكة. قام سائس خيلنا ،

محمود ، بملء هذه الأحواض بالشعير وهنئت دوابنا بوجبتها المسائية.

خلال تحضير عشائنا ، أخذني الشيخ بناء على طلبي لرؤية زوجاته. مشينا في الظلمة الحالكة في الخارج ، مهتدين بالسراج الصغير الذي كان يحمله بيده ، والذي أنار لنا الطرقات الموحلة ، بينما انعكس نوره على العديد من برك المياه الساكنة. توقف مرافقي أمام بيت مبني عشوائيا من الطين والحجارة ، ودون أن ينبس ببنت شفة ، تركني وحيدة على عتبة الباب المفتوح على مصراعيه. رأيت عبر الباب نسوة يقفن على دكة مرتفعة أمام حطب تشتعل فيه نار كبيرة ترتفع ألسنتها لثلاثة أقدام تقريبا وهن يثرثرن بصوت مرتفع أجش. بدا واضحا أنهن كن يسلين مجموعة أخرى من النسوة اللواتي كن يجلسن حول النار ويستمعن لهن بتركيز وصمت. أضاء لهيب النار المتقدة عيونهن الواسعة وأسنانهن اللامعة وأرباع النقود الفضية المتدلية من المناديل التي كن يضعنها على رؤوسهن. وقفت أتأملهن لدقيقة قبل أن يلفت وجودي انتباههن. لم يكن في الغرفة من مخرج للدخان سوى كوة تعلو الباب ، لذلك فقد كان من الصعوبة بمكان تمييز شكل الغرفة للوهلة الأولى. كانت جدران الغرفة تعج بنتوءات وتجاويف وعليّات انتشرت عشوائيا ، وامتلأت بفرشات النوم والجرار والأدوات المنزلية. كانت الجدران من الطين والصلصال وقد اسودت بفعل الدخان.

عندما أشعرتهن بوجودي ، أطلقت بعض الصبايا صرخات خوف وذهول ، متخيلات أنني شبح أو روح شريرة ، لكن النساء الأكبر سنا أسكتوهن ورحبن بقدومي بحفاوة وهدوء ، دون أن يبدو عليهن أنهن فوجئن ، علما بأنني عرفت لاحقا بأنني كنت أول سيدة افرنجيه تزور كفر قرع على الإطلاق.

ساعدتني النساء المتجمعات في الجزء الأسفل من الغرفة للصعود إلى الدكة ، التي كان سقفها منخفضا لدرجة لم يكن بمقدوري أن أقف منتصبة فيها بالكامل. جلست مع النسوة حول النار ، ونزعت قبعتي وعباءتي ، وتولت إحدى النساء مهمة تجفيفها. بدت عليهن علامات الصدمة الشديدة حين علمن بأنني ألبس قبعتي عند خروجي من المنزل فقط ، ففي الشرق ، لا يمكن للمرأة أن تكون حاسرة الرأس إطلاقا ، إلا في حالات الحزن الشديد كالنواح على الميت. كانت النسوة سمراوات وهزيلات وغير نظيفات ، ولكن تصرفاتهن وأخلاقهن

كانت على قدر كبير من الجلال والرفعة. كانت الفتيات اليافعات وسيمات وقويات البنيان، ولكن أفواههن وأحناكهن كانت كبيرة بقدر غير متناسب. كن جميعا يضعن أغطية للرأس تدلت منها عملات الفضة مثل نساء الناصرة، أضفن إليها اما ثلاث أو سبع سلاسل فضية تدلت في نهايتي المنديل من الجهتين بالطريقة نفسها التي يتدلى فيها الشريطان الجانبيان للقلنسوة المعروفة (في الغرب-المترجم). ارتدين أثوابا قطنية مصبوغة بلون غامق، سميكة وخشنة، مفتوحة من المقدمة تشبه بليسية فضفاضة، وتحتها قمصان بيضاء وسراويل قطنية غامقة وقد تمنطقن بأحزمة على خصورهن. كانت أذرعهن ووجوهن موشومة بنقط ونجوم وقد خضبن جفونهن بصبغة غامقة اللون، وكحلن أهدابهن بكحل أسود. وضعت العديد منهن أساور فضية. أما الأطفال السمر نصف العراة بثيابهم الرثة، فقد بدا عليهم الذكاء ودقة الملاحظة ورشاقة الحركة، التي لم تخلُ من الشقاوة المعتادة للأطفال. سرعان ما اقتنعت الصبايا بأنني لست شبحا وبدأن بإظهار مشاعرهن الفياضة وهن يداعبنني، وقد سيطر عليهن الفضول. تناولت إحداهن غصنا مشتعلا من النار وحملته قريبا من وجهي لكي تتمكن والأخريات من رؤيتي بوضوح. تعرضن للتوبيخ من إحدى العجائز التي بدا أنها ذات سطوة عليهن، حيث نهرتهن قائلة: اخرسن يا مجنونات، لو كان للغريبة مية لسان ما كانت رح تقدر تجاوب أسئلتكم كلها، بعدين مش شايفين إنها المسكينة تعبانه؟ اتركوها ترتاح ثم أعددن القهوة لي وبينما كنت أحتسيها دخل الغرفة صبي راكض قائلا: وين الست؟ الزلمه الفرنجي ما رح ياكل عبين ما تيجي نهضت ولحقت به للشارع حيث وجدت الشيخ حاملا سراجه بانتظاري.

عدت للبيت. كان أخي قد طلب إخماد وإخراج الحطب المضطرم بالنيران إذ إن الدخان المنبعث منها كان خانقا. وضع سراجاً فخارياً صغيراً في مشكاة داخل جدار الغرفة، ووضع قنديلاً على علية بالقرب من باب الغرفة. وضع عشاءنا الذي تألف من دجاج مشوي وخبز ساخن وقشطة حلوة على أرضية الدكة. في الوقت نفسه، تم تقديم سلطانية خشبية كبيرة من الفاصولياء المطبوخة بزيت الزيتون وصحنٌ من اللبنة والخبز لخدمنا ومرافقينا، الذين جلسوا بالقرب من الخيول في الجزء السفلي من الغرفة.

جاء عدد من الفلاحين لرؤيتنا بعد أن فرغنا من عشائنا. دخنوا غلايينهم واحتسوا قهوتهم بصمت تام تقريبا باستثناء العجوز الأعمى الذي بادر بتوجيه العديد من الأسئلة لنا. طلب مني وكأنه يحظى ببعض المميزات بسبب فقدان البصر ، بأن أضع يدي في راحتي يديه وأصف له شكلي لكي يتمكن من تكوين صورة لي في مخيلته. سألني: انتي صغيرة ولا كبيرة ؟ صوتك ناعم زيّ صوت ولد صغير بس حكيك موزون.

غادرنا ضيوفنا الصامتين واحدا تلو الآخر. كان آخرهم العجوز الضرير اللطيف الذي خرج بمساعدة الشيخ وهو يتمنى لنا ليلة هادئة. وعدنا الشيخ بإرسال فرشات ووسائد للنوم عليها. ولم تأت أي من النسوة لزيارتنا.

بينما كنا نتساءل عن جودة الفراش الذي سنقضي عليه ليلتنا ، ولدهشتي وفرحي العظيمين ، ظهر المنجد اليهودي العربي الذي عمل مسبقا في تنجيد أثاث بيتنا في حيفا ، حاملا معه فرشة جديدة وأنيقة ولحافا ووسادة ذات وجه حريري أحمر. كان منجدا متجولا لكن حيفا كانت مقره الرئيسي ، تعاقد مؤخرا على تنجيد عدد من اللحافات والفرشات من أجل زفاف قريب في قرية كفر قرع. وما إن سمع بوصولي حتى أصر على إحضار واحدة من الفرشات الجديدة لأجلي. فرشها في زاوية الدكة. ثم أحضر فرشتين واحدة لأخي وأخرى لسكرتير القنصل الفرنسي ، وبذل ما بوسعه من أجل أن نحظى بنوم هانىء.

أخذ مني التعب والإنهاك كل مأخذ بحيث استلقيت على الفور على الفرشة غير المغطاة بالشراشف ملقية رأسي على الوسادة الحريرية. غطيت وجهي بمنديل محاولة تناسي المكان الذي أتواجد فيه ، ساكنة دون حراك ، من دون ذكر لسعات الأعداد الهائلة من البعوض. كنت معتادة على التعايش مع هذه المخلوقات النشيطة والمزعجة على الدوام ، لكن الأعداد التي كان علي أن أتعامل معها في مرات سابقة ، تكاد لا تذكر عند مقارنتها ببعوض كفر قرع.

نهضت مذعورة من نومي المتقطع عندما أحسست بقطة ضخمة تمشي قريبا من رأسي. رفعت رأسي ونظرت حولي. كان الليل قد انتصف. كان القنديل ما زال مشتعلا ، وعلى نوره الخافت كان بمقدوري تمييز أفراد المجموعة من حولي. أول من وقع عليه بصري كان المبعوث الإفريقي الطويل. كان في الجهة المقابلة للدكة منتصب القامة ومستندا بظهره إلى

الجدار. كانت ذراعاه متاشبكتين ، وكانت عيناه تحدقان على اتساعهما. عمامته البيضاء وعيناه اللامعتان جعلت من رأسه أكثر الأجسام وضوحا في الغرفة. أخي كان ينام بعمق على فرشة على مقربة مني ، ووراءه نام السكرتير العربي تحت لحاف ثقيل مصدرا شخيرا مرتفعا. مرافقنا المسلح وقوّاسنا كانا نائمين وقد التفا بعباءتيهما على حافة الدكة ، مستخدمين سروج الخيل كوسائد لرأسيهما. البغّال مستغرق في نوم عميق على المتاع ، وسائسنا ، محمد نائم على كومة من القش بالقرب من الخيول المربوطة. كان هواء الغرفة حارا وثقيلا وعابقا برائحة دخان الغلايين. خلت الغرفة من النوافذ باستثناء الكوات الخمس الصغيرة التي كانت تعلو بابها الموصد. كان الجدار يحتوي على مطواتين ، طويت فيهما الفرشات والوسائد والأباريق الفخارية. وفي فتحة جدارية أخرى في الجزء السفلي من الغرفة ، نضدت سروج وأطقم خيل مجموعتنا الصغيرة. كان باب مخزن الحبوب في الجدار الحجري القريب من مكان نومي. وكنت قادرة على سماع خرخشات الفئران في الداخل وهي تقضم وتخمش بأظافرها ، بحيث تعود القطة الرمادية مرة تلو الأخرى إلى المكان نفسه فوق مخدتي. جلست وأفاق حصاني من نومه وأصدر صهيلا وهز جسمه-ماشيا بالقدر الذي يتيحه له الوثاق المربوط به ، مقلقا راحة الآخرين وخصوصا الحمار.

استيقظ سائس الخيل وشذب ذبالة القنديل وحدث حصانه المفضل ببعض الكلمات الباعثة على الاطمئنان ، ثم عاد للف جسمه بأكمله بعباءة وبر الإبل التي كان يلبسها مستلقيا على كومة القش. وخلال دقائق عاد الجميع للنوم وساد الصمت المطبق من جديد. ولكن النوم جافاني. أذهلني الغموض الذي ميز مظهر الرجل الأسود ، فعجزت عن الإشاحة ببصري عنه لوقت ليس بالقصير ، حيث لم يحرك ساكنا ولم يرمش له جفن. ما كنت قادرة على تحديد ما اذا كان نائما أم مستيقظا ، بالرغم من أنني استمررت بتصويب نظري إليه إلى أن كدت أُنوم مغناطيسيا. ألقيت برأسي على الوسادة والأفكار تتراكض في مخيلتي. وفجأة خطر على بالي أن السيد المسيح لا بد أن يكون قد ولد في بيت شبيه بهذا ، وبأن مهده كان مذوداً للعلف كالذي أراه أمامي. كان الوقت شتاء عندما غادر يوسف النجار ، سليل عائلة داوود ، الناصرة في الجليل إلى بيت لحم ، امتثالا لأوامر الإمبراطور أغسطس قيصر الذي أمر

بإجراء تعداد للسكان ، لكي يسجل اسمه واسم زوجته مريم فيها.

تخيلت لهفة يوسف وهو يبحث عن مأوى ومكان ملائم لراحة مريم الحبلى وقد أضناها السفر. كانت كافة غرف الفنادق قد أخذت ومن شدة الزحام لم تتبق أي غرفة في الخان المخصص لعابري السبيل-المكان المخصص لتفريغ الأحمال كانت الأرضية المرتفعة مزدحمة بالغرباء الذين جاوءا مثلهم من أجل التعداد. ولم يكن أمام يوسف ومريم بد من تفادي البرد سوى في الجزء السفلي من الغرفة. يمكنني رؤيتهم في مخيلتي ، مختفين خلف الماشية ومستدفئين بلهيب النار المتقدة في الحطب والأشواك على الأرضية المرتفعة بالقرب منهما. وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد ، فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المذود كان المذود بالقرب منها على الأرجح ، محفورا داخل الحافة الصخرية للدكة ومملوءاً بعلف الشتاء. رفعت رأسي ونظرت إلى واحد من المذاود وشعرت كيف يمكن ان يكون استخدامها كمهد لطفل حديث الولادة أمرا طبيعيا. حجم المذود وشكله وقاعه المفروش بالعلف الناعم ، قربه من النار الدافئة المضطرمه على الدكة دائما خلال الشتاء ، تدفعك للتفكير بالأم الشرقية على الفور. غفوت وأنا غارقة في تخيلي للمشهد بأكمله- الوليد المُقَمط بالقماش ، وهو مضطجعٍ في المذود ، ويوسف ومريم ينظران إليه بفرح والرعاة والغرباء يمجدون الله ويسبحونه وهم يهنئونهما.

عندما استيقظت في الصباح الباكر ، كانت الشمس تصب أشعتها عبر الباب المفتوح على مصراعيه. جلس نائب القنصل على فرشته منهمكا في حلاقة ذقنه بصعوبة-مستعينا بمرافقه الخاص. وكان السكرتير (سكرتير القنصل الفرنسي-المترجم) من ورائه يعدل شرابة طربوشه الأحمر. كانت الخيول والبهائم الأخرى قد اقتيدت للخارج ، بينما وقف جمع من الناس على الباب ينظرون إلينا في الداخل. التزمت الصمت والهدوء تحت لحافي إلى أن خرج أخي وجميع الرجال من الغرفة ، ثم جاءت بعض النسوة لسكب المياه على يديّ. أغلقن الباب بناء على طلبي بينما تسلل ضوء النهار من الكوّات الخمس التي تعلو الباب ، والتي دخلت منها أيضا حمامات ذات ريش فضي. حلقن بالغرفة واحدة بعد الأخرى بالقرب من دعامات السقف ثم عاودن الخروج من جديد بالترتيب نفسه. أبدت النسوة اهتماما غير اعتيادي

بمحتويات حقيبة الزينة التي أحملها، وطلبن أن يقمن بتجربتها وهو الأمر الذي رفضته بإصرار. لم يكن قد سمعن في حياتهن بشيء كفرشاة الأسنان؛ مع أن أسنانهن- والتي ذكرتني بأسنان حيوانات البراري، خصوصا بفصيلة السنوريات- كانت منتظمة وناصعة البياض، وتبدو عليها علامات الصحة كما لم أر من قبل. ربما كان السبب وراء ذلك هو مواظبتهم على غسل أفواههم ومضمضتها على الفور بعد كل وجبة (27). معظم الشرقيين تقريبا يتبعون هذه العادة الحميدة، لكنها فريضة دينية إجبارية عند المسلمين خصوصا، حيث يقومون بها وهم يتضرعون ويدعون الله من أجل الطهارة (تقصد الوضوء-المترجم).

اضطرتني الظروف للنوم بملابسي. حاولت ترتيب هندامي قدر المستطاع وأعدت ارتداء ملابس الركوب، بينما جمعت النسوة الفرشات واللحف وحملتها للخارج. ثم أُخذت للبيت الذي زرته في الليلة الفائتة. ارتدت مضيفتي بليسيه من الحرير المخطط بالأحمر والأرجواني، أو ثوباً مفتوحاً بدلا من الثوب القطني الذي رأيتها فيه مسبقا. استقبلتني بحرارة وحفاوة ولم تسمح للمتطفلين بمقاطعتنا، بينما كنت أحتسي حليبا طازجا وقهوة مع الخبز وأدون ملاحظاتي حول الأفكار التي راودتني في الليلة الماضية. انتشرت شائعات مفادها أن دفتر الملاحظات الذي أحمله معي يحتوي طلاسم وإرشادات للبحث عن الكنوز. كان الدفتر مزودا بقفل ومفتاح خاصين به، ولم يكن دفتر بمثل هذا المظهر قد شوهد في الأنحاء من قبل.

في تلك الأثناء، كان أخي يتناول طعام الفطور بمعية الشيخ في مكان آخر، ويجمع معلومات قيمة ويخطط لمسار الرحلة اليومي. التقينا بعدئذ في الغرفة الفسيحة- التي وضعت مخططا مزودا بالأبعاد لها. تم تنظيفها، وفرشت الدكة بحصير من القصب وضعت عليه الوسائد، وسجادتين مُهدَبَتيْن تماثل مساحة الواحدة منها مساحة السجادة التي توضع أمام مدافئ الجدار. جلسنا جميعا وشرعنا بمراجعة خرائطنا- خريطة روبنسون وخريطة أخرى فرنسية. احتوتا معلومات متناقضة للغاية فيما يتعلق بتلك المنطقة ولم تكونا ذات فائدة كبيرة (28).

كانت خيولنا ومرافقونا على أهبة الاستعداد في الثامنة صباحا. امتطينا صهوات خيولنا

وانطلقنا ببطء. كنا محاطين ومتبوعين بعدد كبير من القرويين. كان الشيخ منخرطا في نقاش مهم مع أخي. مشى العجوز الضرير بجانبي واضعا يده على عنق حصاني ، الذي قاده المنجد اليهودي المتجول بحرص وحذر عبر الطرقات الوعرة وغير الممهدة. توقفنا عندما بلغنا الأرض المخصصة لذري الحبوب خارج القرية ، حيث قمنا بوداع أصدقائنا من كفر قرع. قام العجوز الضرير بتقبيل يدي بفمه ثم بوضعها على جبهته وهو يقول: الله يحميكي يا بنيتي ويبعد عنك الأذى! كانت الأمنيات والدعوات برحلة آمنة لنا ما زالت تتردد في آذاننا عندما انطلقنا مسرعين عبر سهل زراعي واسع ، قاطعين قاعاً حجرياً لنهر جاف ، من ثم صعودا نحو سلسلة من التلال المكسوة بأشجار البلوط الدائم الخضرة والمغطاة بالأزهار البرية. يممنا صوب الشرق ، مطلين على السهول والوديان. كان الرجل الأسود ما زال برفقتنا. قيل لي بأنه كان مدمنا عريقا على الأفيون ، وبأنه ينام واقفا أو جالسا وعيناه مفتوحتان على الدوام.

بعد ما يقارب نصف الساعة ، بلغنا قرية صغيرة مزدحمة ومبنية من الحجارة والطين على أطراف غابة. صرفنا الدليل عند هذه المرحلة بالنظر لعدم تمكننا من الاعتماد عليه. كان لديه أعداء في المنطقة ما دعاه للتجوال بحذر وخوف. ترجلنا وفرشت سجادة لنا على منحدر ظليل ومكسو بالأعشاب ، يعلو أرض ذري الحنطة مباشرة ، وجلسنا نحتسي القهوة وندخن الغلايين بمعية الشيخ. جلس كبار السن ووجهاء القرية ملتفين بعباءاتهم المحبوكة من وبر الإبل وعمائهم البيضاء في نصف دائرة على الأرض في مواجهتنا مباشرة. كانوا مدججين بالسلاح. بعد تبادل التحيات والمجاملات المعتادة ، سألونا بلهفة عن الأخبار ، قائلين: من وين جيتو يا سيدي ؟ شو الأخبار اللي حاملينها ؟ كانوا جميعا مفعمين بالحيوية والنشاط ، صريحين ويسألون كثيرا. إنهم مختلفون من هذه الناحية عن البدو الذين التقيناهم في وادي الملح وعن فلاحي كفر قرع.

سألت أخي كيف يمكن تفسير هذا التناقض الصارخ ، فقال: هذا الوادي عبارة عن بقعة نائية وخصبة وغير محمية من الأرض. ويقع على تخوم جبل نابلس ، وهي منطقة تشكل على الدوام مسرحا ، كما هي الحال في الوقت الراهن ، للحرب الأهلية. يضطر السكان والحال

كهذه ، أن يبقوا على أهبة الاستعداد الدائم والجاهزية التامة للمواجهة والتعامل مع أي طارئ. وربما كان هذا السبب في مظهرهم المفعم بالحيوية والذكاء ؛ وهو أمر طبيعي لدى كافة الناس المعتادين على التعايش مع الشدائد والأخطار ، والدائمي الاستعداد لمواجهتها وتذليلها. تبودلت الأخبار بصخب وحماسة. وقف الشبان والأولاد في مجموعات صغيرة في الجوار ، بينما كان الكبار يدخنون ويتحدثون بالتناوب.

خلف القرية ، انتصبت بيوت شعر سوداء وبالية بين الأشجار. إنها خرابيش جماعة من النّور المتجولين الذين يزاولون أعمال السمكرة والحدادة ، تماما كما يعيش إخوانهم في الأماكن النائية في إنجلترا ، يقومون بأعمال السلب في المزارع ؛ ويقتحمون المنازل في بعض الأحيان. خرج هولاء النور من خرابيشهم لإلقاء نظرة علينا. كانت بشراتهم غامقة جدا. ملامح الرجال كانت عابسة ومتجهمة ، وكانوا يرتدون أسمالا من الخيش ويتمنطقون بأحزمة جلدية. ويعتمرون شالات سوداء تعلوها عقالات حيكت من وبر الأبل ، تشابه الكوفية التي يرتديها البدو. بدت على النسوة والبنات ملامح الجرأة والجسارة والإقدام ، لكنهن كن حسنات المحيا. كانت ملامحهن حادة جدا. دَنَوْن مني وأخذن يتفحصنني بفضول وأبدين دهشتهن حين علمن بأنني أسافر من دون محظياتي. لاحظت بأنهن لم يذكرن لفظ الجلالة في كلمات التحية التي استخدمنها للسلام علي ، على الرغم من أنها الكلمة الأولى التي تصدر عن المرأة العربية في العادة. كن يرتدين أثوابا طويلة وثقيلة وغامقة من دون زنانير على الخاصرة- محبوكة من الصوف- تشبه إلى حد ما الأثواب التي تعطى للسيدات اللواتي يستحممن في المنتجعات الإنجليزية. لم يرتدين أي ملبوسات أخرى اللّهم إلا المناديل التي وضعنها على رؤوسهن ، حيث استرسل الشعر الأسود غير المضفر من تحتها. غطت الأساور الفضية أذرعهن الملآىء بالأوشام ، ووضعن خواتم ضخمة صوفية الطراز في أصابع أيديهن السمراء ، لحماية لابساتها من الشر.

كان الأطفال عراة ، أو شبه عراة. حاولوا جذب انتباهي بالقيام بحركات بهلوانية ، بالمشي على رؤوسهم ، وبتعليق أنفسهم بأغصان الأشجار العالية بأقدامهم ذات المرونة العالية.

يقوم هولاء النّور ، علاوة على أعمال السمكرة ، بأعمال عجيبة وغريبة في مجال الشعوذة

والاحتيال ، الحركات البدنية والسحر. عندما يرتادون البلدات والقرى الكبيرة ، يقبل عليهم السكان باندفاع لقراءة الطالع وتفسير الأحلام وفك السحر ، ولتقديم العروض المسلية في البيوت أو في الأماكن العامة كالأسواق.

كثيرا ما كنت أرى مجموعات من هذا الجنس الغامض من البشر في حيفا ، وشهدت عروضهم المذهلة في ضروب السحر ، أو بكلمة أدق ، خفة اليد والشعوذة ، وباللعب بالنار في الهواء الطلق. من ضمن عروض أخرى كثيرة ، كانوا يستدعون صبيا من جمهور المتفرجين. ثم وكما يبدو عليه الأمر ، يقومون بتقطيعه إلى ستة أجزاء! وبعد مضي لحظات عصيبة من التشويق والإثارة التي تسيطر على الحضور ، يلم شمل الأجزاء المتفرقة من الجسد ويقفز الصبي ويولي الأدبار. العرب بشكل عام ، وخصوصا أبناء الطبقات السفلى في المجتمع ، يؤمنون إيمانا يصل حد اليقين بالمقدرات الخارقة للنوَّر. السكان يكرهون النّور ويخشونهم ، في الوقت نفسه الذي يتعاملون معهم فيه بقدر كبير من التسامح. يتحدث النور اللغة العربية إضافة إلى لغة خاصة للتخاطب فيما بينهم. كان المرحوم العلاّمة الدكتور دف قد أخبرنا بأن لغة الغجر في الهند ، والتي أعد قائمة بمفرداتها ، تشبه في بعض المناحي لغة النور ، وبأن العديد من الكلمات في اللغتين متطابقة. هولاء الناس مؤذون للغاية ، ومن الضروروي مراقبة الدواجن والخراف والأغنام ، ووضع البيارات وكروم العنب وبساتين القثاء تحت مراقبة شديدة ، عند مرورهم في الأنحاء.

زودنا شيخ القرية بدليل ليقودنا إلى عرّابة ، وامتطينا خيولنا لاستئناف المسير. لم يكن بمقدور النوّريات أن يفهمن كيف يمكنني امتطاء صهوة جوادي وساقاي على جهة واحدة منه. قلن لي: الجبال حوالين عرابة وعرة يا ستي ، رح توقعي عن حصانك اذا ركبتيه هيك.

قطعنا مسافة قصيرة باتجاه الجنوب ، كنا خلالها نرى البحر الأبيض عن يميننا من حين لآخر. ثم انعطفنا فجأة نحو الشرق ، وتابعنا المسير لمسافة ميلين دون توقف تقريبا عبر مسار ضيق تحت ظلال الأشجار. كانت أشجار البلوط دائمة الخضرة بأوراقها اللامعة ، وأشجار الزعرور البري هي الأكثر انتشارا. نمت شجيرات بخور مريم والختشار (ضرب من السرخسيات-المترجم) ، والنجميات ، والحزازيات والأشنات بين مفاصل الصخور وفي

الظلال المحيطة بها ، وانتشرت في أزهار الحوذان وشقائق النعمان والهندباء والأقحوان هنا وهناك ، في الفجوات التي تسللت إليها أشعة الشمس بين أشجار الغابة. كانت بعض أغصان الأشجار مغطاة بالعنبية. هدأنا من سرعتنا لاكتشاف الأطلال الخربه لبلدة قديمة ، لم يبق أي ذكر لها في أي مرجع. تناثرت أحجار مصقولة لأساسات جدران وشظايا من العظم ، وغير ذلك من آثار أعمال فنية من صنع الإنسان ، على امتداد ما يقارب النصف ميل على سفح التل. لم نر أي منحوتات أو منقوشات. لم يتوفر لدى الدليل أية معلومات حول المكان. قال بأنها تسمى الخربة وأعطانا الراعي الذي كان يجلس على حافة حاووز أرضي الإجابة غير المقنعة نفسها. انحدرنا نحو سهل فسيح نمت في أرجائه الأشواك ، التي نمت بينها أزهار ليلك الوادي ، وكانت الأولى التي أراها في فلسطين ، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الأزهار من فصيلة السحلبيات. كانت سحلبيات البعوض والنحل قد أينعت بشكل جميل. أدى مرورنا إلى إفزاع المئات من العصافير الصغيرة التي حلقت من أعشاشها التي بنتها بين وعلى أغصان الأجمة المنخفضة ، وعلت زقزقاتها وتغريداتها. قمنا بجمع شتلات الزعتر البري وأكلناه بسرور مع الخبز الذي أحضرناه من حيفا ، إذ ساعد نسيم الصباح العليل على فتح شهيتنا. تقافزت السحالي فوق الصخور البيضاء ، وكانت الأرانب تقطع الطريق من أمامنا بين الحين والآخر.

خلال تقدمنا ، كان أخي يطلعني بالتفصيل على المصاعب التي تواجه حكومة سنجق جبل نابلس ، والذي كنا على وشك الدخول إلى أراضيه ، فقال: بلدة نابلس ، عاصمة السنجق ، تضم حوالي اثني عشر ألفا من السكان. يبلغ عدد السكان المسيحيين فيها ثلاثمائة نسمة فقط ، واليهود يبلغون خمسين شخصا فقط ، بينما يبلغ عدد أفراد الطائفة السامرية مئتين تقريبا. بقية السكان مسلمون يمتازون بعنفهم وتعصبهم.

تقطن الجبال المحيطة بنابلس أربع مجموعات على عداء ونزاع دائمين فيما بينها. هذه المجموعات هي أولا ؛ عائلة عبدالهادي ومعقلهم عرّابه ، ثم ثانيا ؛ عائلة جرار ، الذين يملكون قلعة في صانور. كلا القبيلتين تنحدران من أصول فلاحية ، ولديهم أعداد كبيرة من الموالين والأتباع في كل قرية من قرى السنجق تقريبا. ثالثا ، عشيرة طوقان والتي تحظى

بنفوذ كبير بين أوساط القبائل المرتبطة بها بصلة القرابة في الأراضي الواقعة في الصحراء شرقي نهر الأردن. رابعا ؛ عائلة الريان ، ذوو الأصول البدوية والبأس الشديد ، وتقع تجمعاتهم غربي نابلس. يتم اختيار حاكم نابلس من واحدة من هذه العائلات الكبيرة المتنافسة ، بحيث يعين حسب الأصول من قبل باشا بيت المقدس.

عندما يعزل الحاكم من منصبه ، لارتكابه مخالفة ما ، أو لعجزه عن إشباع جشع الأفندية وغيرهم من أتباع الباشا ، يهرع أحد أفراد الفصائل الأخرى المتحاربة على الفور إلى مقر الباشا. وبعد دفع المبالغ الطائلة وتقديم الهدايا ، يحوز على رضى العاملين في سكرتارية الباشا وكبار المستشارين في المقر ، وبفضل وساطتهم وتأثيرهم ينجح في الحصول على منصب الحاكم. بمجرد أن يستلم مقاليد منصبه ، يبذل ما بوسعه من جهد ، سواء بالطرق المشروعة أو غير المشروعة لاسترداد المبالغ الطائلة التي سبق ودفعها كرشىً بالإضافة إلى فوائدها. يقوم بفرض ضرائب على الفقراء وغير المتمتعين بالحماية ، ويستغل الحصانة التي يتمتع بها لسلب كل من لا يجرؤ أو من لا يستطيع مقاومة سلطاته. وهو يمتلك السلطات اللازمة لتعيين شيوخ جميع القرى الواقعة في السنجق. ويسمح لأولئك الذين كانوا شيوخا للقرى في عهد سلفه بالاستمرار في مناصبهم طالما أغدقوا عليه منحا وأعطيات كافية ومناسبة عند توليه لزمام منصبه. في حال فشلهم في ذلك ، تمنح مناصبهم لأولئك الذين يقدمون أعطيات ومنح أكبر

استمرت هذه الأوضاع طوال سنوات عديدة ، وشهد العام 1851 سقوط خمسمائة قتيل وأعداد كبيرة من الجرحى ، بسبب القتال الذي نشب بين هذه الفصائل المتصارعة. وتمخض عن هذه الأحداث صدور مرسوم يحظر تعيين أي شخص من أبناء هذه العائلات في مناصب حكومية حساسة في سنجق جبل نابلس. لكن ، يستطرد شقيقي ، لم يتم التقيد بنصوص هذا المرسوم ، فقد تمكنت عائلة عبدالهادي من إعادة علاقتها مع الحكومة ، محمود بيك عبدالهادي هو حاكم نابلس الحالي ، بينما يشغل ابن عمه ، صالح بيك عبدالهادي منصب قائمقام حيفا ، أما محمد بيك ، شقيق صالح بيك ، فهو من يتولى الحكم في عرابة ، المعقل المنيع للعائلة. كنتيجة للثورة الناشبة حاليا بين الناس ضد محمود بيك ،

قائمقام نابلس وحاكمها ، قدم كامل باشا وأقام معسكره في نابلس برفقة عدد كبير من رجال سلاح الفرسان ، لكنه يواجه مصاعب جمّة. فهو محاط بمجموعة من المستشارين المتآمرين والمولعين بالدسائس ، الذين لا يترددون في قبول الرشوة إطلاقا ، والذين يرتبط كل منهم بعهد مع إحدى الفصائل المتناحرة. تقتصر مهمتي في الوقت الراهن على المراقبة بإمعان وموافاة السيد فن (القنصل في القدس) بتقارير عن كل الأحداث الجارية ، وأن أتحرى إذا كان ذلك ممكنا ، عن حقيقة الأوضاع الراهنة ، دون التدخل أو المشاركة بأي شكل كان بالأحداث الدائرة. وقد يكون بمقدورك مساعدتي في أداء هذه المهمة ، بأن تقومي وبصمت بمراقبة ومتابعة الأحوال في البلدات ، إذ من المرجح أن ننفصل عن بعضنا البعض في عرابة وصانور. الحقيقة المتمثلة بكونك مرافقتي في هذه الرحلة ، قد تساعد الناس وتقنعهم على استقبالنا في قلاعهم وتحصيناتهم عن طيب خاطر من دون أن تساورهم أية شكوك.

لدى إطلاعي على هذا القدر من المعلومات ، تنامت لدي مشاعر الاهتمام بحملتنا. كنا ما زلنا نقطع الأرض السهلية ، لكن حقول القمح والشعير والأراضي المحروثة كانت قد حلت محل الأشواك والأجمات. كانت الشمس تسطع فوق رؤوسنا بينما انهمر المطر على سفوح التلال التي كنا نتجه إليها ، حيث أينعت بيارات الزيتون وأشجار الفاكهة. عندما شارفنا على الوصول إليها ، داهمتنا حبات المطر الكبيرة ، وسرعان ما انهمر المطر مدرارا. عبرناها مسرعين ، ثم هبطنا إلى وادٍ ضيق ، ينتهي في البعيد بربوة صخرية انعكست عليها أشعة الشمس ، كنا قادرين على رؤية بلدة عرابة على تلك الربوة ، بأسوارها وأبراجها المنيعة. بعد عملية تسلق شاقة على ألواح الصخور الملساء والحجارة غير الثابتة في أماكنها ، والتي كانت أشبه ما تكون بدرجٍ عشوائي شديد الانحدار ، بلغنا عرابة. كان النهار قد انتصف ، وكانت الأمطار تنهمر بغزارة لدى عبورنا للبوابات الحديدية الضخمة والمحروسة جيدا للبلدة. تعد عرابة واحدة من أفضل البلدات المسوّرة في فلسطين ، لكنها تكاد تكون مجهولة للرحالة لبعدها عن مسار الطريق المعتادة للسفر. حتى إن ذكرها لم يرد في كتاب موراي اليدوي ، إلاّ أنها تظهر في خارطته.

بدت جميع بيوت عرابة وكأنها قلاع وحصون صغيرة ، تنتشر المتاريس على سطوحها

المستوية المزودة بالمصاطب. اتجهنا إلى بيت محمد بيك عبدالهادي ، حاكم البلدة مباشرة. بيته كان كغيره من بيوت المسلمين مقسما إلى جناحين مستقلين ؛ واحد للرجال ويسمى الديوان ، بينما تشغل النساء الجناح الآخر الذي يطلق عليه اسم الحريم الطابق الأرضي كان يضم الخيول والجنود ، حيث تم إيواء مرافقينا وخدمنا. ارتقينا درجا حجريا غير مسقوف ، ثم عبرنا ساحة فسيحة ، ودخلنا الديوان ، والذي كان عبارة عن غرفة عقد مزودة بنوافذ عريضة تعلوها الأقواس في ثلاثة من جدرانها ، تُطل على الوادي وبوابة البلدة. المقاعد العميقة والواطئة الملحقة بالنوافذ كانت مغطاة بالبسط والوسائد. دخول هذه الغرفة محظور تماما على النساء ، وقد بلغني في وقت لاحق بأنني كنت المرأة الوحيدة التي اجتازت عتبته على الإطلاق. تبين لنا بأن الحاكم نفسه لم يكن موجودا ، لكننا لقينا استقبالا حارا من أقاربه الذين قالوا لنا وهم يقبلون أيادينا: البيت بيتكم ، وإحنا خدامينكم بدت الدهشة والذهول عليهم حين عرفوا بأننا نسافر عبر البلاد ، بالرغم من حجم التوتر السائد فيها. قالوا بأن المناوشات أصبحت حدثا يوميا في الجوار ، وبأن عدد الضحايا الذين سقطوا في الأيام القليلة الماضية كان يربو على المائة وخمسين قتيلا. الماشية تتعرض للسلب وتنهب أحمال الإبل بشكل مستمر. كان اليوم الماضي قد شهد وقوع معركة على مقربة من عرابة ، سقط فيها العديد من القتلى. حدثنا عنها أولاد الحاكم وأبناء أشقائه إذ إنهم شاركوا في القتال فيها. شرح لنا غلام في السادسة عشرة من عمره كيف ألقى بنفسه على الأرض وتظاهر بالموت لكي ينجو بجلده. أرانا رمحه المخضب بالدماء ، ومسدساته التي كان يحملها بفخر بالغ. كانت المسدسات إنجليزية الصنع.

طلب من الأبناء الأصغر سنا ذوي الأعمار التي تتراوح بين العاشرة والحادية عشرة ، أن يوصلوني إلى جناح الحريم. قادوني عبر أسطح مستوية وساحات مفتوحة وقاعات ومجازات مسقوفة إلى أن بلغنا قسم النساء. أُخذت إلى غرفة عقد فسيحة الأرجاء ، ذات جدران بيضاء وأرضية حجرية ، يدخل النور إليها عبر الباب المفتوح فقط ، لعدم استخدام الزجاج لتغطية النوافذ بل المصاريع الخشبية ، والتي كانت مغلقة حين دخولي لمنع دخول المطر إليها. ركض مرافقاي الصغيران ، سليم وسعيد وهما يصرخان بفرح: بنت إنجليزية! بنت إنجليزية!

تعوا شوفوها! دخلت ، وفي غضون لحظات كنت محاطة بجمهرة صغيرة من النسوة في ملابس زاهية الألوان. تباينت ألوان بشراتهن بشكل كبير ، من الفتيات العبدات الحبشيات بملابسهن القرمزية والفضية إلى العربيات السمراوات بملابسهن البنفسجية والذهبية.

انقضضن علي وكأنهن عثرن على دمية جديدة يلهون بها ، قمن بتقبيلي واحدة تلو الأخرى ، وربتن على خدودي. لم يسبق لهن أن رأين إنساناً أوروبياً أبدا ، وأخبرنني بأن بلدتهن لم تستقبل بنتاً إفرنجية من قبل على الإطلاق. قلن لي: يا هلا فيكي ، يا اختنا الجاي من الديار البعيدة ؛ البيت بيتك ، واحنا خدامينك. ثم سألنني مع من وكيف ومن أين أتيت. كن يرتدين بناطيل طويلة من الحرير الملون وسترات قصيرة ضيقة من القماش أو المخمل ، مطرزة بخيوط من الذهب ، وقد تدلت من أغطية رؤوسهن الأزهار والمجوهرات. ارتدت الخادمات أثوابا قطنية ، بينما ارتدت العبدات أثوابا حمراء اللون. رغبن برؤية ملابسي الطويله والغامقة الخاصة بركوب الخيل. أخبرتهن برغبتي بتغيير ملابسي لأنها كانت مبلله للغاية.

خرج الصبيان ليطلبوا احضار حقيبة ملابسي إلى جناح الحريم ، حيث أحضرها اثنان من العبيد بعد ذلك. ما إن فتحنها ، حتى هرع الجميع ، النساء والخدم والأطفال ، لتفقدها ، حيث فرغت من محتوياتها خلال دقيقة أو دقيقتين في الواقع. كانت عباءاتي وملابس الصباح والمساء وقمصان النوم والياقات تمرر من يد إلى يد ، ولما لم يكن أي منهم يعرف طريقة ارتدائها ، فقد كانوا يلبسونها بوضعيات غريبة جدا. إحدى البنات أخذت ياقة صغيرة وقامت بتثبيتها على جبهتها اعتقادا منها بأنها غطاء للرأس. ضحكت كثيرا لكنني اضطررت لوضع حد للعبهن ، طالبة منهن إعادة كل شيء إلى صندوق الثياب ، فقمن بذلك على الفور. كنت قد أدركت من قبل بأن النسوة العربيات يتصرفن كالأطفال في إذعانهن للأوامر الصادرة لهن بأدب ولكن بحزم.

ارتديت ملابسي بعد ذلك في الغرفة ذاتها ، بعد أن أبلغنني بعدم وجود غرفة أخرى مخصصة لهذا الغرض. أعتقد بأنهن أردن أن يشاهدن كل ملابسي والكيفية التي أرتديها فيها ، نظرا للتباين الكبير بين ملابسهن وملابسنا. أخبرنني بأنني أضع الكثير من الملابس

في آن واحد. كن يرتدين أثوابا طويلة من القطن أو الكتان (الثوب الفلسطيني-المترجم) تصل للرقبة ومفتوحة من الأمام ولها أكمام طويلة وواسعة ، وسراويل طويلة جدا مزمومة من عند الخصر وتحت الركبة ، ولكن ثنياتها تصل إلى الأرض ، وسترات قصيرة ومفتوحة مع شال ملفوف على الخصر كنطاق أو حزام. تلطفن بإرسال ملابسي المبتلة لكي تجفف عند الموقد ، وأعددن مكانا وثيرا من الوسائد على الأرض لجلوسي. حضرت إحدى السيدات شربات من الرمان وقدمتها لي. وقامت أخرى بتقديم القهوة بفنجان دون مقبض من الخزف الصيني ، موضوع داخل فنجان آخر مزين بزخارف فضية (الفناجين المعروفة لتقديم القهوة السادة في بلاد الشام-المترجم) بحجم فنجان البيض.

جلست الست حبيبة إلى جانبي وهي تدخن الأرجيلة ، وإجابة عن سؤالي ، أخبرتني بأنها الزوجة الأولى لمحمد بيك ، حاكم عرابة ، وأشارت إلى امرأتين آخريين كنّ زوجاته أيضا. ثم بناء على طلبي ، عرفتني على الزوجات الثلاث لصالح بيك ، حاكم حيفا. أصابهن الذهول الشديد حين علمن بأنني أعرف زوجهن ، صالح بيك ، جيدا ، وبأنني أحمل رسائل منه. لم يكن بمقدورهن استيعاب الأمر ، إذ لم يسبق لهن أن سمعن بامرأة تقابل رجلا من خارج أسرتها. ويمكن أن لا ترى المرأة المسلمة حتى زوجها المستقبلي إلا في يوم الزفاف. سألتني إحدى الزوجات والشك يساورها عما إذا كان صالح بيك قد اتخذ حريما في حيفا. فأكدت لهن وطمأنتهن بأنه لم يقم بذلك. أظهرن فضولا كبيرا لمعرفة المزيد عن الشعب الإنجليزي. سألتني ورده قائلة: هل أخوكي وسيم وقوي ؟ بيستاهل الناس تتفرج عليه ؟ كل الناس ببلادكم بيض وشقر ؟ وسألت أخرى: ليش بتسافري لحالك بدون نسوان ؟

شرعت بأخذ ملاحظاتي حول الغرفة خلال إجابتي على تساؤلاتهن. كانت غرفة طويلة وواطئة ، واختفت أرضيتها تحت حصر أنيقه. وضعت فرشة رفيعة (طُرّاحة فلسطينية-المترجم) في الجهة المقابلة للباب ، وقد غطيت بسجادة ناعمة كالسجاد المستخدم على الأدراج. ووضعت الوسائد والمخدات داخل أغطية من الحرير الشرقي ، كمساند تتكئ على الجدار ، بحيث تشكل جميعها أريكة أرضية ، أجلسوني في وسطها وتحلقن على الأرض من حولي. مقابلنا ، وفي جميع أنحاء الغرفة ، انتشرت أريكة مشابهة جلست عليها النسوة

والصبايا وهن يدخن الأرجيلة. كان في الجهة اليسرى من نهاية الغرفة صندوقان خشبيان كبيران باللون الأحمر ، وقد زينا بأقفال ومفصلات نحاسية ذات تصميم غاية في الروعة. وكان خلف الصندوقين ، مشكاة عريضة وعميقة يعلوها قوس تكدست فيها فرشات النوم واللحافات (مطواة). عُلقت مرآتان بإطار ذهبي من اسطنبول على جانبي المشكاة. في الجهة اليمنى من نهاية الغرفة ، جلست العبدات والخادمات على بساط صغير للاهتمام ببعض الرضع والأطفال الصغار ، الذين كانوا يبكون ويتعاركون. كن منهمكات في ثرثرة متواصلة بصوت خفيض يقطعه من آن لآخر صراخهن وزعيقهن المفاجئ. كانت أرضية الغرفة ترتفع حوالي الست بوصات عن مستوى الساحة الخارجية ، ما عدا المكان القريب من باب الغرفة من الداخل ، والذي تضع فيه النسوة أحذيتهن وقباقيبهن العالية لدى الدخول للغرفة.

جلست وردة وحبيبة بجانبي وهن يمسدن شعري ويربتن على وجنتيّ بحنان. استغربن عدم وضعي لغطاء لرأسي أو لحلي في شعري. جلست حلوه أصغر زوجات صالح بيك قائمقام حيفا ، بقرب الباب بقسمات باسمة. كانت في السادسة عشرة من عمرها فقط ، جميلة ومتألقة ومرحة لدرجة دعتني فيها إلى فتح كراسة الرسم لرسم اسكتش لها. أصيبت النسوة بدهشة بالغة حين رأين ما كنت أقوم به ، إذ إنهن لم يشاهدن أحدا يرسم وجها أو أي شيء آخر من قبل ، رسم الكائنات عمل يتنافى وتعليمات الشريعة الإسلامية بالطبع. صرخن جميعهن: سبحانك يا ربي ، هذا وجه حلوة! هاي عيونها بتبحلق فينا ، وهاي عقدها الذهب ع ركبتها! والأرجيله بيدها! كثير شلبي ، ثم جاءت حلوة على استحياء لترى رسمها ، وسألتني إذا كنت قد رسمتها لأنها الأجمل. فقلت لها بأنني على استعداد لرسم كل من يجلس بالقرب من الباب ، حيث كانت أشعة الشمس تتدفق بغزارة. فجلست الأخريات في المكان ذاته على التوالي ، ورسمت وجهين آخرين ، لكن حلوه كانت الأجمل بلا منازع. كان صوتها عذبا وهو أمر غير اعتيادي بين النساء العربيات ، وكانت تصرفاتها تتسم بالعفوية والصدق. ترتدي بنطالا من الحرير الأصفر تزينه من جانبيه زركشة من الحرير الأسود. كان النعلان الأصفران اللذان ترتديهما معقوفين للأعلى من المقدمة. لم تكن ترتدي جوارب. وكانت سترتها المخملية السوداء مطرزة بخيوط ذهبية جميلة ، وتمنطقت بشال أرجواني وأحمر

وأخضر كحزام ثبتته بوضعية منخفضة بعض الشيء. وضعت ياقة عريضة من العملات الذهبية على جيدها (كردان-المترجم) واعتمرت طربوشا قصيرا أحمر أمالته بتيه ودلال على جانب من رأسها المستدير بأناقة ، وقد تدلت منه شرابة طويلة تحيطها كريات ذهبية مخرمة. شعرها المنسدل على كتفيها كان مضفرا بتسع جدائل تخللتها أشرطة حريرية عقدت بها حلي من المجوهرات وحبات اللؤلؤ الصغيرة. وقد وضعت حول طربوشها سلاسل من اللؤلؤ والأرباع الذهبية والألماس والزمرد وأكاليل صغيرة من أزهار حمراء وصفراء وبنفسجية من أشجار الورد التي تنتشر في براري فلسطين. كانت عيناها سوداوين وواسعتين وقد غطت الجفون والرموش كحلة كثيفة. انتشرت نقط باللون الأزرق على ذقنها وصدرها ووشمت نجمة زرقاء على جبينها. كانت زينة النساء الأخريات مشابهة بشكل أو بآخر لزينتها ، وعبرن عن رغبتهن بمساعدتي لأن أكتحل وأضع وشوما كالأوشام التي يضعنها.

دونت في كراستي أسماء النساء كافة وأطفالهن وخدمهن باللغة العربية ، ووصفاً لملابسهن بالإنجليزية. اكتشفت بأن حلوة كانت من مواليد كفر قرع وزودتني بأسماء جميع القرى المجاورة لها. شرحت لهن طريقة استخدام خارطتي وكيف يمكنني بالنظر إليها معرفة كيفية الوصول إلى صانور والقرى المحيطة بها. فتعالت صرخاتهن: سبحان الله! إذ لم يتوقعن إطلاقا تخيل امرأة قادرة على القراءة والكتابة. يعرفن بأن الرجال قادرون على ذلك ، كما يذهب أبناؤهن للكّتاب التابع للمسجد ، حيث يقوم درويش متعلم بتلقينهم ترتيل القرآن وكتابة بعض الكلمات. لكنهن يعتقدن بأن الأولاد يمتلكون مقدرة خاصة تمكنهم من الدراسة وتساعدهم على فهم الكلام المكتوب. حتى سليم وسعيد ، أدلائي الصغار عبروا عن دهشتهم قائلين: ماشالله ، الغريبة بتعرف تكتب كلامنا

في حوالي الثالثه عصرا (التوقيت الزوالي المعروف-المترجم) ، التي تقابل التاسعة في التوقيت الغروبي ، أحضرت العبدات اللاتي كدن يختفين تحت ملاءاتهن البيضاء طعام الغداء. حملت الأولى منضدة خشبية واطئة (طبلية-المترجم) مكسوة بالعاج والصدف ، ووضعتها على الأرض مقابلي على مسافة قصيرة مني. ثم وضعت سدرا مستديرا معدنيا ثقيلا نقشت عليه آيات من القرآن الكريم. ثم ناولنني منشفة كبيرة مطرزة بخيوط ذهبية. بعد كل

هذه التحضيرات غمرتني السعادة حين رأيت الطعام ، إذ كنت أتضور جوعا. وسرعان ما امتلأ السدر بالأصناف التالية من الطعام: صحن معدني صغير من البيض المقلي ، زبدية خشبية من اللبنة ، زبدية قشطة حلوة من حليب الماعز ، طبق من النشا المحلى (مهلبية-المترجم) تعلوه حلوى من السكر على شكل أوراق الورد ، طبق كبير من الأرز المفلفل بالسمن ، انتشرت فوقه قطع صغيرة من اللحم المفروم ، وطبق من الجوز والفاكهة المجففة واللوز المنقوع بالسكر وقشر الليمون.

وقفت عبدة ترتدي سروالا قصيرا أحمر من القماش ، وسترة أرجوانية ، وقد وضعت عقدا فضيا على عنقها وأساور فضية في يديها ، وهي تحمل كوزا فضيا مملوءاً بالماء ، على أهبة الإستعداد لتلبية طلبي كلما رغبت بشرب الماء. لم يكن من الممكن رؤية سكين أو ملعقة ، ولم أجد صحنا خاصا بي لتناول طعامي. غسلت يدي ودعيت لتناول الطعام من الأطباق باستخدام قطع من رغيف الخبز الكبير والمسطح ، الشبيه بالجلد. وسرعان ما فهموا بأنني لست معتادة على هذه الطريقة في تناول الطعام ، فقاموا بإحضار معلقة طبخ كبيرة (كافكيره بالفلسطيني-المترجم) ضحك عليها الصغار ملء أفواههم. طلبت من النساء أن يشاركنني الطعام ولكنهن امتنعن. سمحن لسليم وسعيد بذلك ، واللذين سرعان ما عملاً لقما من أرغفتهما تناولا فيها البيض وقاما بغمسها باللبن ، اما الأرز واللحم فقد أكلوهما بأيديهما ولكن بطريقة بارعة. وقفت النساء من حولي للتأكد بأنني أحظى بكل طلباتي (المعزب في العادات والتقاليد الفلسطينية لا يشارك في طعام الضيف-المترجم).

عندما فرغت من الأكل ، أبعد السدر إلى وسط الغرفة ، ووضع أمامي حوض معدني ضخم يعلوه غطاء مخرم ، ووضعت أعلاه قطعة صابون محلية الصنع ، نقش عليها علامة معروفة في فلسطين باسم خاتم سليمان (يبدو أن فلسطين عرفت العلامات التجارية بمفهومها الحديث منذ منتصف القرن التاسع عشر-المترجم) وبينما كنت أستعملها ، كان الماء يسكب فوق يدي من كوز فضي يشبه ركوة القهوة القديمة ، له فوهة طويلة ورفيعة ومعقوفة. انسكب الماء بشكل متواصل على يداي وكان ينساب عبر غطاء الحوض. ثم قُدمت لي المنشفة المطرزة من جديد وقد بللت أطرافها من أجل تنظيف فمي.

جلست زوجات الحاكم الثلاث وزوجات صالح بيك الثلاث أيضا مع أطفالهن بعد ذلك على الأرض حول السدر ، وهم يغمسون الطعام جميعا من الأطباق نفسها ، وسرعان ما نفدت مكونات الوجبة البسيطة. تم إحضار طبقين إضافيين من الأرز. كانت كل واحدة منهن تنهض بمجرد انتهائها من الأكل ، يسكب الماء على يديها وتغسل فمها. وتلا ذلك تقديم قهوة قوية تخلو من السكر أو الحليب (القهوة السادة-المترجم). ثم تجمع الخدم والعبيد حول السدر وأكلوا بسرعة وشراهة عجيبتين اختفت معها آثار الطعام من السدر بشكل مذهل.

قدمت الغلايين الطويلة المصنوعة أنابيبها من خشب التوت ، والتي تنتهي بجرة صلصالية حمراء اللون ، والمزودة بمبسم من الأبنوس على السيدات المتقدمات بالسن ، بينما قدمت أرجيلتان أو ثلاث للنساء الأخريات اللاتي تناوبن على تدخينها. بعد أن دخنت حلوة لبضع دقائق ميلّت رأسها بأناة ، وضعت إحدى يديها على صدرها ، رفعت أنبوب الأرجيلة اللدن حتى لامس جبهتها ، ثم ناولته للسيدة التي تليها والتي صادف أن كانت ضرتها ، الزوجة الثانية لزوجها صالح بيك. وهكذا انتقلت الأرجيلة من سيدة إلى أخرى ، بمن فيهن الخادمات ، وهن يرددن جملة هنية ان شالله . تتم مراعاة هذه المجاملات بين المسلمين بشكل صارم حتى مع أقرب المقربين من أفراد الأسرة. بدا لي أن الكيفية التي يتبادلن فيها التحيات والمجاملات في تعاملهن اليومي تهدف للحفاظ على السكينة والسلام النسبيين بين الحريم.

أعدت أرجيلة فائقة الجمال خصيصا لاستخدامي بلغ طولها حوالي نصف ياردة. كانت القارورة الزجاجية الملحقة بها صافية كالكريستال وقد قطعت بمهارة وإتقان. امتلأت بالماء الذي كانت تطفو فيه أوراق الورد. كان في أعلى الأنبوب المنبثق من القارورة الزجاجية صحن فضي مُثلم بمهارة ، انتصب فوقه الحُقّ المحتوي على التمباك العجمي وقطع الفحم المحترق. غطي الخرطوم اللدن القابل للثني والشبيه بالأفعى ، بقماش من المخمل الأحمر الموشّى بخيوط من ذهب ، وبلغ طوله حوالي الأربع ياردات. المبسم كان من الكهرمان الأصفر المزخرف بلون الياقوت الأحمر والفيروزي الأزرق (التريكواز). يمخر الدخان عباب

الماء في القارورة ، محدثا فقاعات من الهواء تتولى تحريك أوراق الورد الأحمر ليعاود الصعود من جديد للأعلى عبر الأنبوب الطويل. وبهذه الطريقة كانت دخان التمباك المُعَطّر يخضع للتبريد وللتنقية قبل وصوله إلى شفتي.

لاحظت أن النسوة كنّ يتهامسن بصوت خفيض ، وبعد قليل جاءت حلوة وجلست بقربي وسألتني: انتي متزوجه ؟ فقلت لها: لا ، فسألن جميعا على الفور: طيب ليش تركتي إمك وأبوكي ؟ مش مناح معك ؟ أخبرتهن بمدى طيبة والديّ وكيف أن أمي علمتني الحديث والكتابة والقراءة بلغتنا الأم ولغات الشعوب الأخرى. حاولت مساعدتهن على فهم طريقة الآباء الإنجليز في تعليم أولادهم.

قالت وردة: كان أحسنلك لو تزوجتي وقعدتي بالبيت بدل ما تسافري بهالديار ، الأحوال خطيرة هاي الأيام ، والنسوان لازم يضلوا في بيوتهم

فأضافت الست سارة: اللي حكته سارة مضبوط ، ليش ما تزوجتي ؟

فأجبتهن: ياستي ؛ فش زلام من بلادي بهالديار ، كيف بدي أتزوج ؟

فردت الست سارة: انتي بترطني بحكينا مثل الغُرب ، بس حكيك حلو ، ابن عرب يمكن يتجوزك ، ليش ما تتزوجي واحد من ولاد العرب ؟

فأجبت وقد أصابني الذهول: إمي مش هون لتلاقيلي عريس ، كيف بدي أتجوز ؟ ، اعتقدت خاطئة بأن هذه الإجابة ستتكفل بوضع حد لتساؤلاتهن ، ولكن الست سارة ردت قائلة: أنا مستعده أكون إمك وأجيبلك عريس ، أخوي قاضي ، قاضي كبير في نابلس ، بيدور على عروس ، متجوز ثلاث نسوان بس ، ورح يحبك ويدللك لأنك بيظا

أجبتها ضاحكة: مشكورة يَّمَا ، وشو لازم أعمل تأحظر حالي أو وينتا أجهز حالي ؟

فكرت الست سارة لبعض الوقت ثم قالت: كم جمل عند أبوكي ؟

فأجبت: أبوي ماعندوش جمال ، ببلادنا فش غير ثلاث أو أربع جمال عايشه في بستان حلو مشان الناس يتفرجوا عليهم ، وفي حراس بيديروا بالهم عليهم ، وفي عنا جمال على شكل ألعاب بصناديق من الزجاج وهنا ضحكن جميعا بصخب وقلن: إشي حلو كثير!

تابعت الست سارة أسئلتها قائلة: زتونات أبوكي كبار وبيدرن ؟ أجبت: أبوي ما في عنده زتون وكانت مفاجأتهن أكبر هذه المرة ، وقالت سارة: ابوكي عنده ذهب ، بعطيكي ذهب وألماظ وصندوق إحمر مليان أواعي ومناشف وشوية مخدات حرير وسرير إحمر من الخشب للولاد الزغار ، وصابون كتير. أخوي غني كثير ، وراح يكون المهر اللي راح يعطيه لأبوك جمال وليرات ذهب.

اتضح لي بأنهن اعتقدن بأني جادة فيما أقول ، شرعن بالتصفيق وارتجلت إحدى النسوة أغنية من أغاني الفرح تقول كلماتها:

هيه يا مريم يا بنت الديار البعيده

عيشي معنا بتبسطينا

بندللك أكثر من كل النسوان اللي بدار أخوي

وتكوني أميرته وتفرحيه كتير

لأنو وجهك مثل القمر

وكلامك درر ولولو

هيه يا ست مريم يا بنت الديار البعيده

عيشي معنا بتبسطينا!

ثم نهضت النساء كافة ووقفن في حلقة وشكّلْن سلسلة ، بحيث وضعت كل واحدة منهن يدها في حزام المرأة التي تقف بجانبها (وضعية الدبكة النسائية الفلسطينية-المترجم). تحركن ببطء وتؤدة في البداية بخطوات رتيبة ولحن هادئ كن يغنينه ، بينما كانت الخادمات والأطفال الجالسون على الأرض يضبطون الإيقاع بالتصفيق بأيديهم. وشرعوا يغنون:

يالله نرقص يالله نغني

قاعد يطلع علينا من الشباك

راح يرش علينا ليرات فظة

راح يرش علينا ليرات ذهب

يالله نرقص يالله نغني

أسرع أسرع وأعلى أعلى

تامنو يسمع زغاريتنا

تامنو يسمع دبكة رجلينا

يالله نرقص يالله نغني

أسرع أسرع وأعلى أعلى

راح يرش علينا ليرات فظة

راح يرش علينا ليرات ذهب

رددن هذه الأغنية مرات عديدة وتابعن الدبكة وهن يسرعن الخطى إلى أن بلغت الحماسة ذروتها ، لكن الراقصات حافظن على الإيقاع باستمرار ، وجلسن في النهاية وقد هدّهن التعب. أخبرتهن خلال استراحتهن كيف أمضي وقتي في حيفا ، وحاولت إعطاءهن فكرة عن بيتي في لندن ، وكيف يمكن للمرء أن يعيش هناك من دون أن يملك جمالا أو بيارات زيتون. سألنني ما إذا كان أهل إنجلترا يعرفون الرقص ، وكانت صدمتهن كبيرة عندما علمن بأن الرجال والنساء يرقصون سوية في إنجلترا.

جاء سليم الصغير عند الغروب وأبلغني بأن أخي يرغب بالتحدث معي ، فأخذني إليه. كان جالسا في غرفة العقد برفقة العديد من الأفندية والسادة المسلمين ، الذين سألوني ما إذا كنت قد خفت خلال سفري عبر البلاد خلال تقاتل الناس واعتداءهم على بعضهم البعض. فقلت: لست خائفة يا أصحاب السعادة ؛ لأنني اكتشفت أن الأهالي كافة في هذه الديار يعاملون الغريب بلطف وكياسة فردوا قائلين: انشالله يهديكي للصراط المستقيم.

أحضر العشاء للديوان من أجل الرجال ، فقفلت عائدة إلى جناح الحريم ، حيث كانت الغرفة مضاءة بقناديل من الفخار الأحمر ، وضع كل واحد منها داخل مشكاة في الجدار ،

بينما انتصب سراج كبير على منضدة واطئة في وسط الغرفة. كانت النساء تتساءل كيف امتلكت الجرأة للذهاب إلى القسم المخصص للرجال في البيت. فأوضحت لهن أن العادات في إنجلترا تقتضي جلوس الرجال والنساء سويا على الدوام، وبأننا نمشي ونمتطي الجياد ونتجول ونحن سافرات الوجوه، وقد سبب لهن هذا صدمة كبيرة. وتابعت قائلة: بتحكمنا سلطانة اسمها نصرة (الملكة فكتوريا-إيضاح من المؤلفة)، وهي ست محبوبة ومحترمة كتير عند الناس تبعونها اللي يصيروا يصيحوا عاشت السلطانه لما تمشي في الطريق أو لما يشوفوها بينهم، وهي بتنبسط كتير وبتتطلع عليهم وبتنحني وبترد عليهم السلام، الفقرا والأغنيا......كُلهم. وفي أيام بتسمح فيها للزعما والمتعلمين يبوسوا ايدها فصرخن: ياسلام شو حلو. ثم قالت سارة: سلطانتكم بنت (غير متزوجة-المترجم)؟ فأجبت: لأ، متزوجه، بس زوجها الأمير بيتدخلش بشغل الحكومة. بدا وكأن نوراً غريباً شع فوق رؤوسهن وتبين لي أنني ومن دون أن أقصد، أعطيتهن انطباعا مفاده أن النساء الإنجليزيات يقدن ويسيطرن على زمام الأمور في مناحي الحياة كافة وبأنهن يتفوقن على الرجال. لم أنجح بتغيير هذا الفهم الخاطئ تماما إذ إنهن قلن لي: سلطانتكو بتقدرش تخلي الصولجان بيدها غير لولاها أقوى وأفصح من الزلام. سألتني إحدى النساء: أخوكي بيعرف يكتب؟ حاولت إعطاءهن انطباعا أفضل عن رجال بلادي، لكني أشك في نجاحي بذلك، إذ إنهن ما فتئن يعتقدن بأن النساء كنّ سيداتهن.

أُحضر العشاء لي وقدم بالمراسم نفسها التي اتبعت في تقديم الغداء، عدا أنه احتوى على صحن مليء بلفافات من ورق العنب المحشوة بالأرز واللحم المفروم، والمغطاة بالسمن (ورق دوالي-المترجم) وكان مذاقها شهيا جدا. أكلت أسمى، وهي بنت آية في الجمال تبلغ الثامنة من عمرها تقريبا، وكانت أكبر بنات صالح بيك، بمعيتي هي وسليم، بينما وقفت النسوة حولنا. شرحت لهن كيف أن الإنجليز يجلسون على كراسي حول مائدة مرتفعة، ويأكلون من أطباق خاصة بكل منهم باستخدام الشوك والسكاكين والملاعق، وكيف أن الرجال والنساء يأكلون سوية. فصرخن قائلات: شي حلو كتير. إذ إنهن لم يسمعن مطلقا عن امرأة تأكل في حضرة رجل، حتى لو كان أباها أو زوجها.

تحدثن عن الحرب بعد انتهاء العشاء. أخبرنني عن مدى خوفهن على أكبر أبناءهن ، الذين وإن كانوا في الخامسة والسادسة عشرة من العمر فقط ، إلا أنهم يشاركون بشكل دائم في المعارك التي تدور على الجبال. وعادة ما يصاب هولاء الفتية بجروح طفيفة ، وتتوقع أمهاتهن سماع أنباء مقتلهم يوميا. ثم غنين أغنية للحاكم محمد بيك الذي كان غائبا عن عرابة. وشرعن ينشدن:

انشالله بيموتوا العدوين قدامو

الله يقوي ايد اميرنا

الله يقويه في ساحة الحرب

انشالله بيموتوا عدوينو قدامو

مشان يسرح الرعيان بغنمهن براحة البال

وتحمل جمالنا حمالها بسلام

انشالله يموتو عدوينا قدام أميرنا

أميرنا وعزوتنا

انشالله يرجعلنا سالم غانم

مبسوط ومنصور

ويرُجوا الناس اللي بالجبال من خوفهم منو (29).

ثم رقصت العبدات ، كل بمفردها على مسافة قصيرة من الأخريات. رفعن أيديهن في الهواء فوق رؤوسهن ، وكن يحركنها ببطء وتناغم ، وهُنّ يَمِلْنَ بأجسادهن تدريجيا للأمام ، ثم يرفعن رؤوسهن بشكل مفاجئ وتنتصب قاماتهن بشكل كامل ، وأيديهن ما زالت تتحرك في الهواء. كانت أطرافهن لدنة ومطواعة جدا ، وأعتقد بأنهن كن يستمتعن كثيرا بالرقص ، لكنه لم يكن رقصا جميلا ولا مفعماً بالحياة. غنّين لصبية بدوية حسناء ، تلمع أسنانها في فمها(30) لمعانا. غنيت أغاني إنجليزية بناء على طلبهن ، وأريتهن بعض الحركات والوضعيات الخاصة بالرقص الغربي. وقد أعجبن جدا برقصة الفالس الإسباني التي أديتها

ببطء مع شريك افتراضي. وكن يصفقن بأيديهن ويضبطن الإيقاع بأقدامهن خلال رقصي.

تعبت كثيرا بعد هذه الرقصة، واستأذنت الست سارة بالسماح لي بالنوم. فقالت: تعي بره عالمصطبه، وقف المطر والنجوم بتلمع، تعي نتمشى بره يا بنيتي! عبين ما يرتبوا الغرفة. خرجنا للمشي على المصطبة الخاصة بجناح الحريم مع حلوه. كانت نيران أبراج المراقبة تشتعل على التلال المحيطة بنا. كنا نرى الناس في الطرقات من تحتنا، عبر النظر من الكوات المستديرة (الطاقات-المترجم) الموجودة في حاجز الشرفة، وخدمهم يسيرون أمامهم حاملين القناديل لينيروا لهم الدرب، بينما تلألأت النجوم في السماء ذات اللون البنفسجي الغامق من فوقنا.

أُخذت عبر الساحة إلى غرفة مربعة، حيث تعرفت على الزوجة الرابعة لحاكم عرابة، آخر زوجاته وأصغرهن سنا. لم أكن قد سمعت حتى بوجودها من قبل إطلاقا. كانت محاطة بعدد من محظياتها وخادماتها وهي جالسة على فرشة، وقد استندت إلى وسائد ومخدات، وغطت ساقيها بلحاف مطرز. كان غطاء رأسها مزينا بمجوهرات وورود وأزهار، بينما عجّت سترتها المخملية ذات اللون البنفسجي بأشكال ونقوش مطرزة. توردت وجنتاها بأحمر الخدود وحُددت حواجبها، بينما غطى الكحل رموشها وخضبت يداها بالحناء. رفعت جسما صغيرا مقمّطا من تحت أغطية ثقيلة، وناولتني إياه. كان وليدها البكر، البالغ من العمر سبعة أيام فقط، والذي لم يكن والده قد رآه بعد. كانت الأم تمني النفس وتجهز نفسها لتفرحِ بوضع ابنها بين يدي والده في تلك الليلة، ولكنه لم يعد لعرابة في تلك الليلة. عادة ما يمر أسبوع قبل أن يسمح للأب المسلم برؤية الأم أو الابن حديث الولادة، ويخصص اليوم الثامن عادة للاحتفال وتلقي التهاني، حيث يتم استئجار خدمات المغنيات المحترفات خصيصا لتلك الغاية.

أعدوا لي القهوة وقدموا لي أرجيلة، لكنني لم أمكث طويلا مع الأم المسلمة ووليدها الصغير؛ لأن جو الغرفة كان ثقيلا وحارا جدا لدرجة واجهت فيها صعوبات في التنفس. كان بجوار الباب كانون (منقل) كبير مليء بالفحم المشتعل، وكان الجو وكل ما في الغرفة عابقا برائحة مسك قوية، لدرجة أنها اختلطت بنكهة القهوة ورائحة الأرجيلة. غمرتني السعادة

حين تنشقت الهواء المنعش على الشرفة من جديد.

عند عودتنا إلى الغرفة الكبيرة وجدت أنها نُظفت ورُتبت بأناقة. كدست خمس فرشات نوم في إحدى زواياها واحدة فوق الأخرى، ووضع فوقها مخدة ذات وجه من الحرير الأحمر ولحاف حريري مطرز ومخطط بالكتان، لتكون سريرا لنومي. فرحت في قرارة نفسي لاعتقادي بأنني سأحظى بالغرفة بمفردي. لكنني تبينت الأمر على حقيقته بعد وقت قصير، عندما فُرشت سبع فرشات أخرى على الأرض، كل واحدة بمفردها مع وسادة ولحاف. (إذا أراد المسلم تكريم ضيفه أو ضيفته، يضع له أو لها عدة فرشات فوق بعضها البعض لكي ينام أو تنام عليها، وتتم مراعاة هذا العُرف المتمثل باحترام الضيف بحرص بالغ. خمس فرشات تعد رقما كبيرا، لكن سبق وأن عرفت بأن أخي حصل على سبع فرشات عندما أمضى الليلة عند أحد مضيفيه).

اكتشفت بأن كل النسوة والأطفال والخدم والعبدات سينامون بمعيتي في الغرفة نفسها! أخرجت أرجوحتا نوم يبلغ طول الواحدة منها حوالي الياردة تقريبا من مشكاة في الجدار، وربطت بحبال تدلت من حلقات حديدية مثبتة بالسقف. كان شكل الأرجوحات مستطيلا، وقد صنعت من سعفات نخل قوية تمت تغطيتها بقماش من الكانافا، ثم حُمل طفلان مقمّطان ووضعا بداخلهما وهما يبكيان. ثم ربطت حبال مجدولة من ألياف النخيل بالزوايا الأربع لكل من الأرجوحتين؛ لتتلاقى هذه الحبال وتُعقد سوية على ارتفاع ياردة تقريبا، ثم ربطت بحبال متينة تتدلى من السقف، بحيث شكلت الحبال المربوطة بالزوايا الأربع للأرجوحة ما يشبه هيكلا لخيمة، من أجل اسناد قطعة الموسلين المخصصة كناموسية.

عندما شرعت بتبديل ملابسي، راقبتني النساء بفضول بالغ، وعندما ارتديت ثوب النوم، أصابهن الذهول وتعالى صراخهن: لوين رايحه؟ شو بدك تساوي؟ وليش ثوبك لونه إبيظ؟

لم يقمن بتبديل ملابسهن قبل النوم، وكنّ جاهزات للنوم بملابسهن الزاهية الألوان في غضون دقائق، لكنهن تابعن الوقوف من حولي إلى أن قلت: تصبحن على خير! وعندها بادرن جميعا إلى تقبيلي وهن يتمنين لي نوما هنيئا. انحنيت بعدها ودون أن أُكلمهن، انزلقت داخل فراشي وأدرت وجهي نحو الحائط، وأنا استرجع الأحداث الغريبة التي مررت

بها في ذلك اليوم. حاولت اتخاذ وضعية النوم وانا أستمع لهن وهن يتهامسن بصوت خفيض.

كنت قد أَرِّحت رأسي على الوسادة الحريرية الناعمة بما لا يزيد على الخمس دقائق ، عندما أحسست بيد تربت على جبيني وصوت يناديني بلطف: حبيبتي! لكنني امتنعت عن الرد على الفور لأنني لم أرغب بالنهوض بلا داعٍ. انتظرت لبرهة من الزمن ، ثم لمستني اليد ذاتها على وجهي من جديد. أحسست بقبلة تنطبع على جبيني وسمعت صوت يقول: مِريم ، إحكي معانا! مِريم ، حاكينا يا حبيبتي. ما عاد بمقدوري الاستمرار بالمقاومة ، فاستدرت ورأيت حلوة ، الزوجة الأكثر جمالا من بين زوجات صالح بيك ، منحنية فوقي. قلت: شو في حبيبتي ؟ بإيش بقدر أساعدك ؟ فأجابت: شو اللي عملتيه من شوي لما قرفصتي عركابك وغطيتي وجهك بإيديكي ؟ جلست وقلت بصدق تام: حكيت مع ربنا يا حلوة! شو قُلتيلو ؟ سألت حلوة. فأجبت: بِدي أنام ، الله بينامش أبدا. دعيت أنو يحميني وإنو يساعدني مشان أنام ، وأنا بفكر انو بينامش أبدا مشان لما أصحى من النوم أتذكر انو موجود. أنا ضعيفة ، بس الله جبار وقوي ، دعيت مشان يقويني بقوته.

في أثناء ذلك ، كانت النسوة كافة قد تحلقن على الفراش من حولي ، ووقفت العبدات على مقربة منّا. أخبرتهن بأن عدم إتقاني للغتهن يعيقني من أن أشرح لهنّ كل ما فكرت أو نطقت به ، ولكن نظرا إلى أنني حفظت الصلاة الربّانية بالعربية عن ظهر قلب ، فقد قمت بتلاوتها عليهّن جملة جملة ببطء. عندما بدأت تلاوتي قائلة: أبانا الذي في السماوات ، بادرتني حلوة على الفور قائلة: انتي حكيتي انو أبوكي في لندن. فأجبتها: عندي والدين اثنين يا حلوة ، أب في لندن ، بيعرفش إني هون هلأ وبيقدرش يعرف إلا إذا كتبتلو رساله ، وأب في السما بيكون معي على طول- وهو موجود معانا هلأ بيشوفنا وبيسمعنا ، وهو أبوكم كمان. بيعلمنا نعرف الخير من الشر اذا سمعناه وأطعنا أوامره. ساد صمت عميق للحظات ، كان الذهول والانبهار باديين عليهن وكأنهن شعرّن بأنهن في حضرة قوة غريبة. ثم قالت حلوة: شو قلتي كمان ؟ فأكملت تلاوة الصلاة الربانية ، وعندما بلغت مقطع: أعطنا خبزنا كفاف يومنا ، قلن جميعا: بتقدريش تخبزي خبزك لحالك ؟ أما الجزء الخاص بآية : واغفر لنا ذنوبنا وأخطاءنا

كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا والمخطئين بحقنا وهو مقطع بالغ الدلالة باللغة العربية ، فقد قالت إحدى النساء الطاعنات بالسن عندما سمعت هذا الجزء ، وكانت تبدو على ملامحها علامات القسوة والحزم: وإنتي لازم تقري هالحكي كل يوم ؟ وكأنها اعتقدت بأنه قد يكون من الصعب التقيد بذلك في بعض الأيام. ثم سألنني: انتي مسلمة ؟ فأجبت: بيحكوليش مسلمة ، بس مع هيك أنا أختكم ، خلقني نفس الإله الواحد الأحد ، اله كافة البشر ، أبوي وأبوكم. سألنني ما إذا كنت أعرف القرآن وفوجئن عندما أخبرتهن بأنني قد قرأته. أعطينني مسبحة وسألن: بتعرفي إشو هاي ؟ فتلوت على مسامعهن بعض أسماء الله الحسنى بروية وتؤدة ، فصرخن جميعهن: ماشالله- البنت الإنجليزية مؤمنة عن حق وحقيق ، وقالت العبدة الحبشية التي تبدو عليها علامات الرقة والحس المرهف: هاي أكيد ملاك

يردد المسلمون ، الرجال منهم والنساء ، اسم الله على شفاههم بلا انقطاع ، ومع ذلك فلا يبدو عليهم أنهم يُحسِّون بقوته أو يدركون كيفية التواصل الروحي معه. تمتاز تحياتهم اليومية التي يلقونها ، والأمنيات التي يتبادلونها فيما بينهم ، بكونها كلمات رقيقة ومؤثرة تنطوي على أدعية وعبارات شكر وثناء ، تتنوع وتتغير المشاعر الجياشة التي تتضمنها الأحاسيس الشرقية الرقيقة لتتناسب مع المناسبات كافة. لكن في اعتقادي فإن تحياتهم في المحصلة النهائية لا تعدو عن كونها جملٌ تستخدم للتعبير عن التهذيب وإظهار الاحترام واللطف والنوايا الحسنة أو المحبة كما قد يقتضي الموقف. وكما آلت اليه حال الجملة الإنجليزية القديمة: كان الله برفقتك أو الله معك God be with you
بأن فقدت معناها الكامل ، وتحولت إلى كلمة دارجة وشائعة الاستعمال هي good bye. دعوات المسلمين التي يتفوهون بها قبل وبعد الطعام أو خلال وضوئهم ، وعلى الرغم من الجمالية الكامنة فيها ، إلا أنها تحولت إلى مجرد عبارات يتفوه بها الشخص لتهنئة نفسه ، دون الإشارة إلى أية قوة عظمى غير مرئيه. وتحولت الصلوات اليومية التي يلتزم الرجال بأدائها بدقة ، والتي تتركها النساء بشكل عام ، إلى مجرد طقوس شعائرية ، بالرغم من سمو وعظمة الكلمات التي تردد خلالها.

إذا كنت مصيبة في اجتهادي هذا ، فهذا يفسر السبب وراء دهشة النسوة وصدمتهن عندما أجبت عن سؤال حلوة بصدق وببساطة بأنني: كنت أناجي الله لقد فوجئن بهذا الجواب وتولد لديهن انطباع مفاده أنني أؤمن بأن كلماتي ستسمع حقا. بينما لو أجبت عن السؤال باستخدام اللغة الدارجة قائلة: أنا أتلو صلواتي أو إنني أتعَبَّد لما تولد لديهن ردة الفعل ذاتها ، حتى لو تساءلن عما إذا كانت الصلاة قد فرضت على امرأة افرنجية في المقام الأول. أشارت واحدة منهن معلقة بالقول بأنه ما من شعب ، ما عدا المسلمين ، يصّلي للإله الواحد الحق.

بعد أن تحدثت معهن لبعض الوقت ، باذلة ما بوسعي للإجابة عن أسئلتهن الطفولية ، التي تمتاز بعفويتها وذكائها ، قلت تصبحن على خير من جديد ، فقمن بتقبيلي وتمسيد وسادتي. ولكن وعلى الرغم من الإنهاك الجسدي الذي كنت أعاني منه ، إلا أن عقلي كان في ذروة حيويته ونشاطه لدرجة جافاني فيها النوم لبعض الوقت. نظرت إلى النسوة وهن غافيات تحت لحافات زاهية الألوان ، على الوسادات الحريرية أسفل رؤوسهن. ألقى السراج المنتصب في وسط الغرفة بنوره على العملات الذهبية والمجوهرات المعقودة بأغطية رؤوسهن. وبين الفينة والأخرى ، كان أحد الرضَّع يشرع بالبكاء ، فتنهض الأم أو عبدتها لإسكاته ، بحيث يتم إرضاعه دون أن يرفع من الأرجوحة الشبكية ، إذ تنتصب الأم واقفة بينما تقوم العبدة بإمالة الأرجوحة باتجاهها لبضع دقائق ، ليسود الصمت بعدئذ. كانت الغرفة دافئة ومُحكمة الإغلاق ، ما أدى إلى تورد وجنات بعض النسوة النائمات ، أخيرا ، استغرقت في النوم أنا أيضا.

عندما استيقظت في الصباح كانت الفرشات كلها قد اختفت ، وكانت حلوة والست سارة واقفتين بجانبي وكأنهما تنتظران أن أستيقظ من النوم. تجمع بعض الأولاد عند الباب وكادوا يسدونه ، بينما كانت أشعة الشمس تتسلل إلى الغرفة من خلاله. كانت العبدات والخادمات يثرثرن بينما كنّ يطوين الفرشات ويكدسنها داخل المِطواة في الجدار ، وكان الصبية الصغار يتشاجرون ، ووحدهم الأولاد كانوا من التزم الصمت فقط. جلست فتاة سوداء على الأرض تدق حبوب البن المحمصة حديثا داخل هاون من الرخام ، وانتشر عبق

البن في الغرفة. أعتقد بأن الهاون (جُرن الهاون-المترجم) كان مصنوعا من تاج أحد الأعمدة القديمة ، إذ كان منحوتا بشكل جميل وكأنه حجر روماني. بينما انهمكت فتاة أخرى بتحضير نوع من أنواع العصيدة من الخبز والحليب والسكر والزيت من أجل الأطفال.

عندما أدركت حلوة بأنني استيقظت طلبت من الأولاد أن يخلوا مدخل الغرفة ، ودخلت مجموعة من النسوة يرتدين ملاءات بيضاء ، وكن ينتظرن في الساحة الخارجية. كن من الجارات اللاتي قدمن لتهنئة الأم الشابة التي رأيتها في الليلة الماضية ، وقد دعين للدخول لكي: يسمعوا البنت الإنجليزية وهي بتحاكي الله.

تفحصوا ملابسي بفضول ، وحظيت بمساعدة تفوق احتياجاتي بينما كنت أضع زينتي. بعد أن ارتديت ملابسي قالت حلوة: هلأ بعد ما لبستي يا حبيبتي يا مريم ، معلش تحكي مع ربنا مشان يسمعوكي الجارات ؟

فركعت على الأرض وتلوت: الله ، الله الواحد الحق ، الخالق والأب ، من يبحثون عنه سيجدونه حتما ثم وبكلمات بسيطة قليلة صليت لأن يزرع ذكره في قلوبنا على الدوام ، بأن نحس بوجوده ، وبأن يكتب شريعته في قلوبنا ، وأن يهدينا لأن نسعى بصدق إلى فهم وإطاعة إرادته ، وأن يهدينا لأن نحبه أكثر وأكثر بقلب مخلص وخاشع ، وأن نحيا بوئام مع جميع الناس.

بعد برهة من الصمت قلت: بدكوش تقولوا آمين بعد هاي الصلاة ؟ ترددن إلى أن قالت حلوه بحماسة: آمين آمين ورددت النساء من ورائها.

قالت سارة: إحكي كمان يا بنيتي ، إحكي عن الخبز فأعدت تلاوة الصلاة الربانية من جديد شارحة كلماتها-حسب فهمي لها- جملة تلو جملة تلبية لطلبهن. وجهّن إلي أسئلة مليئة بالفضول والإيحاءات ، ودعون الله أن أبقى معهن على الدوام ، لكن وبينما كنت أحتسي القهوة والخبز الساخن والقشطة ؛ أحضر أحد الأولاد قصاصة من أخي يبلغني فيها بأنه سيكون جاهزا للانطلاق خلال نصف ساعة ، وبأن علي موافاته في الديوان بالسرعة الممكنة ، فأحضرت سارة عباءتي وقبعتي التي تم تجفيفها وكيّها على نحو أنيق. واستأذنت من صديقاتي الحريم ذوات المشاعر الجياشة بأسىً ، وقلن لي: مع السلامة ، وارجعيلنا مرة

تانية يا حبيبتنا يا مريم

الفصل العاشر

رافقني كل الأولاد للديوان ، حيث جلس أخي محاطا بأفندية وشباب عائلة عبد الهادي. استغنى عن خدمات الدليل الذي أوصلنا إلى عرابة وقرر السفر من دونه. سنكون بأمان أكثر إذا سافرنا بمفردنا ، إذ إن سلامتنا ستكون مهددة بالتأكيد لو ضمت قافلتنا شخصا تورط أو شارك في المناوشات التي دارت مؤخرا أو شخصا محسوبا على أي من الأطراف المتصارعة.

كان المطر غزيرا جدا عندما انطلقنا ، لكن الشمس كانت تسطع بين الحين والآخر وهي تلاحق أقواس القزح الزاهية بين الغيوم. ذكرتني المرتفعات المتموجة التي كنا نقطعها بتلال سسيكس ، بينما لاحت وراءها الأراضي الصخرية الجرداء والمنحدرات الوعرة. وفي الأفق البعيد من جهة اليمين ، كنا نرى البحر الأبيض المتوسط ، يتلألأ بين التلال ذات اللون الأزرق الرمادي. وكنا نمر أحيانا بالقرب من أحواض من الورد والأعشاب كتلك التي تنمو في إنجلترا ، وكانت أشجار الورد في أي بقعة نمت ، تظلل ورود القرنفل والورد الصيني الزهري وورود أذن الفأر. عبرنا سهلاً فسيحاً ومزروعاً بعناية والتقينا باثنين من الفرسان اللذين ألقيا علينا السلام وسألانا: شو الأخبار ؟و من وين جايين ؟

استمر تساقط الأمطار بغزارة خلال اجتيازنا لنتوء جبلي شديد الانحدار يشرف على قلعة صانور ، التي تنتصب أعلى تلة مخروطية الشكل توحي للناظر باستحالة الوصول إليها. كان الدرب النازل من الطرف الجنوبي من النتوء الجبلي بالغ الوعورة ومحفوفا بمخاطر جمة على سلامة الجياد ، فترجلنا ومرافقونا العرب عن صهواتها وأجبرناها على المضي قدما. واصلنا مسيرنا بحرص وحذر نمشي تارة ونقفز تارة ، وننزلق تارة أخرى فوق الحجارة المتزعزعة وألواح الصخور الملساء ، لكي نعبر بعدئذ جدولاً ضحلاً بالرغم من قوة تياره خلال ارتطامه بأقدامنا. توقفنا لدقيقة أو اثنتين في وادٍ ضيق ولجأنا إلى عرزال واطئ ومهجور مبني من أغصان الأشجار والحجارة. ثم وبصعوبة ارتقينا التل ووصلنا إلى صانور. لن يرضى السكان بتسهيل الوصول إلى بلدتهم في ظل اندلاع الحرب الأهلية التي تجتاح البلاد.

تبين لنا أن بوابات البلدة مغلقة ، وبعد أخذ ورد مع الخفر الموكلين بحراستها ، سمحوا لنا

بالدخول. انتصف النهار، وقد أخذ مني التعب كل مأخذ، وعانيت من الدوار والبلل. قادونا إلى غرفة عقد كبيرة اسودت جدرانها بالدخان في الطابق الأرضي من القلعة. نهض حوالي الخمسين رجلا لفوا عباءاتهم على أجسادهم وغادروا القاعة فور دخولنا إليها. فردت سجادة لأجلنا داخل علية عميقة مزودة بنافذة، فقمت بتفريغ الماء من حواف قبعتي ونزعت عباءتي بسعادة، واحتسيت فنجانا من القهوة الساخنة. وفي غضون ذلك تم الانتهاء من تحضير مكان آخر لراحتنا. قام إبراهيم جرار وأخوه، زعماء البلدة، بمرافقتنا عبر ساحة القلعة ثم صعدنا درجا حجريا شديد الانحدار إلى ساحة علوية مكشوفة. وبينما كنا نخطو عتبة غرفة العقد الكائنة في أعلى نقطة في القلعة، رحبوا بنا قائلين: أهلا وسهلا وخذوا راحتكم، حيث كانت الحصر والسجاجيد قد فرشت للتو على أرضية الغرفة. كانت نافذة الغرفة تشرف على سهل صغير وخصب تحيطه التلال من جميع الجهات تقريبا، إلا أن اجتيازه كان يسيرا من الجهة الشمالية الغربية عبر مجاز ضيق، وهو ما يدعو أهالي صانور لإبقاء أفقه المظلم تحت ناظريهم على الدوام عندما تدور رحى المعارك.

أحضروا لنا غداء مكونا من الخبز والبيض المقلي والجبنة المصنوعه من حليب الماعز والزيتون على طاولة خشبية مستديرة ترتفع بضع إنشات عن الأرض (طّبليّة-المترجم)، ثم سكب الخدم الماء على أيدينا. عندما رفع الطعام ودارت فناجين القهوة والغلايين على الحضور، دخل أخي في محادثة جادة مع الأخوين جرار بحضور ثلاثة أو أربعة من الرجال، الذين التزموا الصمت بينما كانوا يدخنون ويتابعون الحديث الدائر. نأيت بنفسي عنهم واتخذت ركنا على سجادة مكسوة بالوسائد وجلست أراقبهم. لم أر طوال إقامتي في المشرق، رجالا لهم طول القامة والبنية المتناسقة أو الوسامة التي لدى الأخوين جرّار. كانا قد أرخيا عباءاتهما الوسيعة والكبيرة المخططة باللونين البني والأبيض على أكتافهما، بينما ألقت كوفياتهم الحريرية الملونة باللونين الأصفر والأحمر بظلالها على طلعتهما المشرقة وقسمات وجوههما وملامحهما المعبرة بشكل استثنائي. خاطبني أخي بالإنجليزية قائلا: إذا أتيحت لك الفرصة، فابذلي جهدك في رسم صورة لمضيفنا إبراهيم، إنه أكثر الرجال شهرة في المنطقة، سواء من حيث الشجاعة أو الإقدام أو القوة، كما أن أسرته اشتهرت عبر

الأجيال بالقوة والحيوية والوسامة التي يمتاز بها أبناؤها ، ثم استطرد قائلا: لكن لا تتركي فرصة له أو لأي من الحضور لرؤيتك وأنت ترسمينه ، إذ إن إيمانه بالخرافات يضاهي وسامته

كان الرجال منهمكين جدا في الحوار أو الإستماع أو بالتدخين إلى الحد الذي مكنني من إنهاء الرسم دون لفت الانتباه.

أخذني إبراهيم جرّار إلى جناح الحريم الكائن في مركز القلعة في القسم الأكثر أمانا وتحصينا ، وكان مؤلفا من ثلاث غرف تطل على ساحة مربعة. عرفني على زوجاته الثلاث وطلب منهن معاملتي كأخت لهن ، ثم غادر وتركني بصحبتهن ، لكي يصطحب أخي بجولة في البلدة. رحبت بي النسوة وأخذن يُحدقّنَ بي والدهشة بادية عليهنّ ، وقد كنّ أكثر بساطة وصراحة وبراءة من أي من النساء العربيات (تقصد الفلسطينيات-المترجم) اللواتي عرفتهنّ. كنّ صغيرات في السن ، جميلات وجريئات وقد توردت وجناتهن باللون الأحمر ، كما كنّ ضحوكات ويتمتعن بمرح يجعلهن يتصرفن كأطفال سعداء. تعود أصولهن إلى طبقة الفلاحين ، وقد كانت أثوابهن الطويلة المفتوحة من الحرير الناعم المخطط بالألوان القرمزي والأبيض. أحاطت بوجوههن سلاسل من العملات الفضية ، وعلا جباههن صف من العملات الذهبية الصغيرة المزمومة كالعصابة لربط شعرهن الأسود الكثيف ، الذي كان قد تم تقصيره من المقدمة وتسريحه بحيث انسدل وصولا إلى حواجبهنّ ، فاختفت جبهات رؤوسهن بالكامل تحته. عيونهنّ كانت واسعة وصافية ، وكانت أجفانهن كحيلة بينما عجّت ذقونهن وصدورهن بأوشام على شكل نجوم نقطية. هُنّ وأطفالهن وغرفتهن ذات الجدران البيضاء والأرضية المغطاة بالحصائر ، كانوا جميعا يبدون بمظهر مشرق ، نظيف ولطيف.

تبين لي بأن أبناء عائلة جرّار لا يتخذون زوجات سوى من الصبايا الفاتنات ، واللاتي يتمتعن بصحة جيدة وأجسام قوية ، سعيا وراء إدامة مظاهر الصحة والجمال والقوة التي يباهون ويتفاخرون بها في الأسرة للأبد. لم أسمع بأحد من أفراد عائلة جرّار يمكنه القراءة أو الكتابة ، أو حتى التوقيع باسمه ، في المقابل ، فإن العديد من رجال عائلة عبدالهادي هم رجال متعلمون ويقدرون قيمة التعليم من الكتب عاليا ، كما تبدو النسوة في عرّابة أكثر ثقافة ومعرفة ، ويختلفن كثيرا عن النسوة الريفيات البسيطات في صانور. رسمت وجه إحدى

الزوجات وأنا أحاول فتح حديث معهن ، لكنني عجزت عن دفعهن للكلام ، عندما كنت أتحدث إليهن ، كنّ يحدقن بي باستغراب ويتبادلن الضحكات الخجولة مع بعضهن البعض أو يتمتن بكلمات تنم عن الامتنان أو الدعاء.

في الوقت الذي استرحت فيه وشرعت بتدخين الأرجيلة التي أعدوها لأجلي ، أُستدعيت للانضمام على الفور لأخي. وعلمت بأن الشاب الذي أوكلت إليه مهمة مراقبة المدخل الجنوبي الغربي لصانور ، أبلغ للتو عن اقتراب ثُلة من سلاح الفرسان التركي تخرج من الوادي الضيق متجهة إلى السهل أسفل البلدة. أخبرنا إبراهيم جرّار بأنه على علم بأن كامل باشا قام بإرسالهم لتفتيش البلدة للتأكد من عدم اختباء أحد من البدو بداخلها ، بغية مساعدة أهالي صانور في حال وقوعهم تحت الحصار. وأضاف بحزم قائلا: حلفت لهم بشرفي انو فش حدا من البدو جوا السور ، كل اهل البلد فلاحين. بس ولا حدا منهم رح يفوت عالبلد وهو عايش ، اذا حاول العسكر يفوتها بالغصب مشان يفتشوها

تحدث أخي مع إبراهيم بتعقل ومنطق ، أعلن إبراهيم بأنه على استعداد لاستقبال قائد الحملة التي تتقدم باتجاه البلدة بأمان ، وبأنه سيكرم وفادته واستقباله ، شريطة أن يكون بمفرده ؛ لكن في حال أصر على المضي قُدما مع جنوده ، فسوف تُغلق بوابات البلدة في وجهه. تراكض الناس في طرقات البلدة ، ما أكد بأن الاستعدادات للدفاع عن البلدة تجري على قدم وساق. قال لي أخي: أنا واثق تمام الثقة من عدم وجود بدوٍ داخل البلدة ، هل لديك الشجاعة اللازمة لمرافقتي والخروج بمفردنا إلى السهل خارج البلدة ، والتحدث مع الضابط المسؤول عن سرية الفرسان من أجل تجنب وقوع معركة غير متكافئة وليست ذات جدوى ، إذا كان ذلك ممكنا ؟ ، لم أتردد للحظة واحدة ، فامتطينا صهوات جوادينا وبأسرع ما يمكن نزلنا التلة من دون مرافقين ، ووقف الناس على الأسوار الحصينة للبلدة وعلى أسطح بيوتها وعلى بواباتها المحروسة جيدا يراقبوننا ويوجهوننا ، متمنين لنا العودة بأمان. كنا قد اجتزنا نصف المسافة تقريبا ، عندما التقينا بالفرسان ، توقفنا بشكل مفاجئ بعد أن صرنا على مسافة تسمح بالحديث ، فصرنا في مواجهتهم تماما. كان الرتل على وشك أن ينقسم لكي يحيطوننا من الجهتين ، فقام أخي برفع يده بحزم ، وصرخ متظاهرا بأنه شخص

ذو سلطة وصلاحيات: توقفوا! فوقفوا في أماكنهم على الفور. ثم نادى على العقيد قائلا بأنه يرغب بالحديث إليه ، ومحتفظا برباطة جاشه وتظاهره بأنه شخص صاحب نفوذ قال: يا حضرة العقيد ، انتا رايح ع صانور باسم صاحب السعادة كامل باشا. لكن الجواب على الرسالة اللي انتا حاملها هو: لا ، روح لحالك بهدوء وسلام وراح تاخذ الجواب من البلدة ، لكن إذا سمحت لجنودك بالاقتراب خطوة واحدة من البلدة فسوف تتحمل مسؤولية النتائج.

ومن دون تردد انصاع العقيد للأوامر ، تاركا سريته في السهل الفسيح ، مصدرا تعليماته لهم بانتظاره حتى يعود. سارت جيادنا خببا للأمام والوراء بينما كان الجنود الأتراك يحيطون بنا على صهوات جيادهم ويقومون بحركات فروسية تنم على البطولة والإقدام لتسليتنا. وقام رجل أسود بدا كأنه المرافق الخاص للعقيد التركي بأداء حركات مذهلة برأسه المعمم.

تألفت السرية من سبعين فارسا ، كان من المؤكد بأنهم سيلاقون حتفهم فيما لو اشتبكوا مع رجال صانور وسيموتون هباء. بعد برهة من الزمن ، عاد العقيد وعلامات الرضا بادية على وجهه ، فانضم لرجاله ثانية. في الوقت نفسه ، جاء خدمنا ومرافقونا حاملين متاعنا وحقائبنا ، فواصلنا مسيرنا نحو نابلس التي كانت على بعد خمسة عشر ميلا جنوبي صانور ونحن نتبع جنود العقيد. سرنا لبعض الوقت برفقة العقيد الذي أخبرنا بأن كامل باشا مصمم على تدمير صانور ، وبأنه وضع مكافأة مالية قيمتها ثلاثون ألف قرش لمن يحضر رأس إبراهيم جرّار. حين بلغنا مدخل الوادي الضيق استأذن منا مرافقنا العسكري ، واختفى هو وجنوده عن ناظرينا واحدا تلو الآخر فوق الصخور وشجيرات الأشواك ، وهم يلكزون خيولهم بطرف الركاب المعلق بأسرجتها بلا مبالاة واضحة.

لم تستغرق كل هذه الأحداث ، منذ أن أبلغ الشاب الموكل بالمراقبة عن رؤيته للجنود وهم يخرجون من فتحة الوادي الضيق إلى أن افترقنا عنهم أكثر من نصف ساعة ، على الرغم من أنها بدت وكأنها وقت طويل للغاية.

أوضح لي أخي بأنه لم يمتلك أية صلاحيات للتدخل فيما حدث ، وبأن تصرفه كان بصفته الشخصية لا الرسمية ، انطلاقا من مبادئه الإنسانية وإدراكا منه لحراجة وصعوبة موقفنا ،

وأن هذه المشاعر هي ما دفعه للتصرف. كان من الغريب أننا وفي غضون ساعات قليلة، حللنا ضيوفا مكرمين على زعيمي أكبر الفصائل المتنازعة في المنطقة، الأمر الذي أتاح لنا جمع معلومات على قدر كبير من الأهمية.

تقلبت بنا الطريق بين التلال والأودية، تارة صحوا وتارة مطرا، إلى أن بلغنا كروم الزيتون المحيطة بنابلس مع غروب الشمس تقريبا. على الرغم من أنني كنت أشعر بالبرد وأعاني من البلل والتعب الشديد، إلا أنني استعدت قواي وغمرتني السعادة حين صار الوادي الجميل الواقع بين جبلي عيبال وجرزيم وبيوت بلدة نابلس المتينة في مرمى النظر، بينما كنت ألمح البحر والشمس تختفي فيه في الأفق البعيد. فوجئت برؤية كميات من نبات الدبق الطفيلي على أشجار الزيتون. وفتحت لنا البوابات العظيمة التي كانت على وشك أن يتم إغلاقها، وعبرنا فوق صهوات جيادنا مجازات معتمة وشوارع ضيقة إلى أن وصلنا منزل عودة عزام، وكيل القنصل البريطاني. وحللنا في بيته معزّزين مكرمين، فمضيفنا، الذي يتقن قليلا من الإنجليزية، كان معتادا على استقبال وإيواء الضيوف الأروبيين، وكان منزله أشبه ما يكون بالفندق، سارعت زوجته وابنة أخيه بتخصيص أفضل غرف المنزل لمبيتي. ذاع خبر وصولنا بسرعة وتدفق الزوار على الديوان الفسيح طوال المساء، فقد كان أخي شخصا معروفا في نابلس. جاء الكاهن عمران، من الطائفة السامرية وأبدى امتنانه الصادق لعطف الشعب الإنجليزي والحكومة الإنجليزية.

أرسل كامل باشا، الذي سبق وأن استقبلني في الخليل، واحدا من الأفندية وعدداً من موظفي الحكومة الأتراك ليبلغنا تحياته، كنت أعرف الأفندي تمام المعرفة، كان أول مسيحي يحظى برتبة ولقب أفندي في مجلس بيت المقدس. قلت له: أخبرني عطوفتك، هل صحيح بأن صاحب السعادة كامل باشا عرض مكافأة قدرها ثلاثون ألف قرش لمن يحضر رأس إبراهيم جرّار، زعيم صانور؟ فأجاب: هذا صحيح يا سيدتي الجزيلة الاحترام، فتابعت قائلة: هل تتكرم عطوفتك بإيصال سلامي للباشا وإبلاغه بأن رأس إبراهيم جرّار في حوزتي؟ فتح الضيوف الحاضرين عيونهم بوجوم حتى إن أخي أخذته المفاجأة. قال الأفندي: هل تذرين التراب في عيوننا؟، هل تضحك السيدة على ذقن الباشا؟ فقلت من جديد: ليعلم

صاحب السعادة بأن في حوزتي رأساً يسعى للحصول عليه. وكنت أتحدث بنبرة جادة دون تقديم المزيد من الإيضاحات. فسادت الدهشة والحيرة بين الحاضرين.

نهضت من فراشي في صباح اليوم التالي بعد نوم هانئ ، واستدعيت للديوان حيث كان الأفندي بانتظاري. أرسله كامل باشا للسلام علي وفوضه الصلاحيات اللازمه لاستلام رأس زعيم الثوار مني. قلت: أين بقجة القروش عطوفتك ؟ فرد قائلا: القروش ليست معي ، يا سيدتي! فأجبته: لا يمكنني تسليمك الرأس إذن. غادر المكان عندها ثم رجع بعد حين بصحبة خادم الباشا الذي كان يحمل سدرا كبيرا من الكنافة الساخنة ، وهي حلوى مصنوعة من الشعيرية المخبوزة بالسمن والسكر واللوز والجوز والتوابل (من الغريب أنها لم تذكر الجبنه!-المترجم) ، وقد أحضرت لي بناء على أوامر الباشا. وصل عدد من الضيوف الذين تزايد فضولهم فقدموا للوقوف على المسألة ولتناول الطبق المفضل لديهم.

وضع الأفندي السدر أمامي بلطف ، وبعد أن غسل الحاضرين أيديهم ، اشتركوا جميعا في التهام الكنافة. سألوني ان كنت سأخبرهم عن مكان وجود الرأس ، فقلت: إنه في صندوق متاعي بالغرفة المقابلة لنا فقال الأفندي: هل ترينا إياه ، يا سيدتي الرقيقة ؟ رمقني شقيقي بنظرة تأمرني بأن أفعل ، فأحضرت الرسم ، وصرخ الرجال جميعهم عند رؤيته: إبراهيم! هذا إبراهيم جرّار! ، هذا إبراهيم زعيم صانور! ، سبحان لله وبدا أن أكثر ضيوفنا جدية وأرفعهم مقاما قد أعجبتهم الدعابة جدا. ذهبوا ليشرحوا الأحجية لكامل باشا ، الذي بادر بعدئذ لزيارتنا لرؤيتي والاطلاع على الرسم ، وطلب مني أن أسمح له بأخذه ، فأجبته قائلة: بكل سرور يا صاحب السعادة ، شريطة أن توافق على اعتباره الرأس الحقيقي والوحيد لإبراهيم جرّار ، فرفض سعادته طلبي ضاحكا ، فاحتفظت بالرسم ، الذي بدا واضحا بأن الباشا لم يكن قادرا على تركه ، فقد تفحصه بحذر متأملا به فيما كان يقلبه بين يديه ، لكنني لم أتزحزح عن شروطي ، ومع ذلك فقد أعطيته رسما آخر اختاره هو من بين رسوماتي ، ثم غادرنا هو ومرافقوه والفرحة بادية عليهم.

وجدنا نابلس وماجاورها في حالة واضحة من عدم الاستقرار ، كان من الصعوبة بمكان إخراج الرسائل من المنطقة ؛ اذ كان سعاة البريد عرضة لكمائن قطاع الطرق بشكل

مستمر ، ولهذا قام أخي الذي كان قد تلقى تعليمات بإرسال تقاريره إلى قنصل صاحبة الجلالة الملكة يوما بعد يوم ، باستئجار خدمات مراسلين خاصين للقيام بهذه المهمة. وقد هوجم هولاء المراسلون وتعرضوا لضرب مبرح عدة مرات عندما كانوا يحاولون حماية البرقيات والرسائل التي ائتمنوا عليها.

هكذا تكون الأوضاع السائدة في زمن الحرب الأهلية في سورية (المقصود بلاد الشام- المترجم) ، نظرا لأن المسؤولين المولعين بالدسائس والمؤامرات وقادة التيارات المتنافسة لا يحبون أن تحاط الحكومة المركزية علما بتصرفاتهم وسلوكياتهم ، ويسعون لتضليل قناصل الدول الأوروبية على الدوام. كان أخي يمضي ساعات طوالاً برفقة كامل باشا في معسكره بشكل يومي ، كما كان يرافقه أيضا في زياراته للقرى المحيطة.

كان من النادر أن أُترك بمفردي أثناء نشاطاته تلك ، فقد كنت أستقبل الزوار من المسلمين والمسيحيين والسَّمرة على مدار الساعة ، وأكثر ما أثار فضولي كان أبناء الطائفة السامرية. كان الكاهن عمران ، وهو رجل مرح وذكي وواسع الاطلاع ، يتراوح عمره بين الأربعين والخمسين ، يستمع لقراءتي للغة العربية صبيحة كل يوم. وقد زودني بمعلومات مثيرة عن طائفته الصغيرة التي لا يتجاوز عدد أفرادها المائة وستة وتسعين شخصا (31) قال لي بأنهم يواجهون صعوبات جمّة بترتيب زيجات ملائمة بين أبناء الطائفة في بعض الأحيان ، نظرا لأنهم لا يتزوجون من الغرباء ، وتتم استشارة الكاهن بهذا الشأن على الدوام ، ونظرا إلى أن الوحيدين المخولين شرعا بإتمام إجراءات الزواج كانا هو ووالده المسنّ سلامه فقط ، فلم يكن بمقدور أحد من الطائفة أن يحتفل بزفاف دون الحصول على موافقة أحدهما. وقال لي: في الوقت الحاضر ، يزيد عدد الرجال الراغبين والجاهزين للزواج عن عدد الفتيات اللواتي يمكن الاقتران بهنّ ، جميع بنات طائفتنا صغيرات في السن وهذا الأمر يسبب لي قلقا بالغا.

واسترسل بإعطائي حالة على سبيل المثال ، فيعقوب الشلبي التي قد يذكر بعض القراء زيارته لإنجلترا ، كان قد خطب زورا بينما كانت ما زالت طفلة صغيرة ، عندما كبرت زورا وبلغت السن الملائمة للزواج ، خلال وجود يعقوب في إنجلترا ، لم يسمح لها عمران بانتظار رجوعه ، بل قام بتزويجها من رجل يدعى حبيب ، أرمل وأب لطفلة صغيرة اسمها أنيثا ،

كانت تبلغ من العمر سبع سنوات فقط ، وكانت ستعطى ليعقوب بدلا من زورا التي صارت الآن زوجة أبيها. واضاف قائلا: سببت لي هذه الزيجة قدرا كبيرا من التوتر والمشاكل.

رجل آخر ، يبلغ الثلاثين من العمر ، لم يوفق في العثور على فتاة مناسبة للزواج ، فاضطر للزواج من أرملة في الخمسين من عمرها ، وهو يحاول الآن إقناع الكاهن عمران بالسماح له بتطليقها لكي يتمكن من خطبة ابنة الكاهن التي تبلغ الحادية عشرة من عمرها. وأضاف: تُخطب معظم بناتنا قبل أن يتعلمن الكلام وهن أطفال ، وتتزوج الواحدة منهن عندما تبلغ الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها.

اصطحبني الكاهن عمران ذات يوم إلى حارة السّمره ، وكانت عبارة عن كتلة غير منتظمة من البيوت ذات الطابقين ، في أكثر المناطق ازدحاما في البلدة. عبرنا مجازات ذات جدران بيضاء ثم ارتقينا درجا حجريا ملتويا وغير مسقوف وشديد الارتفاع ، قادنا إلى ساحة مكشوفة نمت فيها شجرة ليمون كبيرة ذات أوراق غضة ولامعة بالقرب من قنطرة المدخل ، فاجتزناها بعد أن خلعنا نعالنا ، فعلمت بأنني داخل الكنيس. وهو عبارة عن غرفة عقد بسيطة وخالية من الزينة في حالة مهلهلة. قدمني عمران بتقديم إلى والده الطاعن في السن ، الكاهن الأكبر سلامة ، الذي تبادل الرسائل مع البارون دي ساسي في عام 1808 فاستقبلني بحفاوة بالغة ، بعد محادثة قصيرة حول يعقوب الشلبي ، قال لي: أنا رجل طاعن في السن ، لكني سأموت مرتاح البال شاكرا الله لأنه أتاح لي أن أحيا لأرى طائفتي تحت حماية الحكومة الإنجليزية في إشارة منه إلى التعليمات التي كان لورد كلاريندون قد أصدرها لقناصل بريطانيا المقيمين في فلسطين ، معبرا فيها عن الاهتمام الذي توليه حكومة صاحبة الجلالة الملكة بالطائفة السامرية ، وطالبا منهم تقديم الحماية اللازمة ، إذا ما استدعى الأمر ، بالشكل المناسب للرعايا الأتراك. كما كانت تعليمات مماثلة قد صدرت أيضا لصاحب السعادة اللورد ستراتفورد دي ريدكليف لأن يستخدم علاقاته الحسنة بالباب العالي لمصلحة الطائفة السامرية. فرشت حصيرة على الأرضية الحجرية جلست عليها وأنا أصغي للكلمات التي كان الكاهن الكهل يتمتم بها ببطء. كان يلبس عباءة فضفاضة من القماش الأزرق المخطط باللون القرمزي ، فوق قمباز من الساتان المخطط بالأصفر والأحمر ، وكسا

البياض عمامته الكبيره ولحيته الكثة.

لفت انتباهي إلى حجاب الهيكل الذي كان عبارة عن ستارة مربعة من القماش الدمشقي الأبيض زُينت بتثبيت قطع من القماش الأحمر والأرجواني والأخضر فوقها ، وشكلت جميعها نمطا زخرفيا جميلا. قال إن عمرها يبلغ ستمائة أو سبعمائة عام ، لكنها كانت من أعمال القرن السادس عشر كما أعتقد ، بعد أن رسمت تصميم الحجاب بحرص قام الكاهن عمران بتنحيته جانبا ، فظهرت مشكاة عميقة تحفظ فيها مخطوطات التوراة. ثم نهض والده وسحب بيديه المرتعشتين النسخة المعروفة للتوراة أو الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (أسفار موسى-المترجم) التي يقال إنها كتبت على يد يوشع بن فنحاص بن اليعازر ، الذي كان ابن آرون. كانت محفوظة داخل حافظة أسطوانية مطلية بالفضة تنفتح على مفصّلتين وقد طُرِّز غطاؤها المكون من الساتان الأحمر بكتابات عبرية بخيوط من الذهب. جلس سلامه لبعض الوقت وقد حملها بين يديه بناء على طلبي ، بحيث أتمكن من رسمه وهو يحملها. عندما أعاد هذه اللفافة الثمينة إلى موضعها ، أراني العديد من النسخ الأحدث عهدا من التوراة التي كتب بعضها باللغة السامرية ، وبعضها الآخر بالعربية ، بالإضافة إلى نسخة مطبوعة من مزامير داوود ، وشروحات وتفاسير للتوراه من فترات زمنية مختلفة ، وتاريخ الطائفة منذ الخروج حتى عصر النبي محمد ، بالإضافة إلى مخطوط غريب يسمى سفر يشوع تبتدئ أحداثه بذكر قصة رحلات مجموعة من الجواسيس الذين أرسلهم موسى إلى الأرض الموعودة ، وتنتهي أحداثه بسرد قصص عجائبية عن حياة الإسكندر ، وبدا أن هذا السفر يعد من الكتب المفضلة لديهم ، وهو مكتوب بالعربية ، مع أن الأسماء الصحيحة وبعض الكلمات الواردة فيه كتبت باللغة السامرية ، ويقال بأن الكتاب ذو أصول سريانية وليست سامرية ، اشتريت نسخة من هذا السفر اللافت للنظر من إنجلترا.

أم الكنيس عدد من الجيران لرؤيتي ولدعوتي لبيوتهم ، تحلق أطفالهم الصغار الدمثي الأخلاق من حولي. استأذنت من الكاهن العجوز سلامة وهو يمنحني بركته ، وذهبت مع الكاهن عمران لزيارة حبيب وزوجته زورا التي كانت فيما مضى خطيبة يعقوب الشلبي. أُدخلت إلى غرفة واسعة ، ومنخفضة ولكنها ذات تهوية جيده ، تضم في جنباتها ديوانا

مرتفعا مغطى بالسجاد والوسائد ، وتكفلت الحصائر والسجاجيد التي فرشت على الأرض الحجرية بإضفاء أجواء مريحة على المكان ، حجبت جدران الغرفة البيضاء بسبب صندوق ذي مفصلات نحاسية حمراء ومهد أحمر للأطفال ، وخزانات مزخرفة في زواياها ، وأرفف خشبية مطلية اصطفت عليها كاسات خضراء للشرب.

قام حبيب الذي تعرفت عليه مسبقا بالترحيب بي بحفاوة واحترام ، وتقدمت ابنته الجميلة واليتيمة الأم انيتا للسلام علي ، لكن بدا أن زوجته الشابة زورا لم ترغب بالظهور ، أخبرني الكاهن عمران بأنها تتعمد عدم الظهور. خرج حبيب إلى ساحة المنزل ، ولدى عودته كانت زوجته تتبعه بممانعة واضحة ، وقد بدا عليها الإحراج والحزن ، بحيث ردت علي السلام بتجهم وجفاء. كانت شابة جميلة المحيا تضع زينة عروس وترتدي سروالا وسترة ضيقة. كان صدرها مكشوفا بعض الشيء وموشوما باللون الأزرق الفاتح ، وكانت قلادتها الذهبية كبيرة جدا وقد تدلى منها عدد من العملات ، زينت غطاء رأسها بورود حمراء وصفراء ولفت حوله عصابة من الكريب ، وخضبت يديها وقدميها العاريتين بنقوش أنيقة وبالغة الدقة من الحِناء ، بحيث بدت وكأنها ترتدي قفازات ناعمة في يديها وصندلاً في قدميها ، جلبت لي الليمونادة بينما أعدت أنيتا الأرجيلة من أجلي.

جاء العديد من النسوة ، كان من بينهم والدة يعقوب الشلبي التي باغتتني قائلة: قديش لازم أستنى مشان أشوف ابني يعقوب ؟ليش طّول الغيبة عن أهله ودياره ؟ وليش تركتيه في انجلترا يا ستي ؟ غير اموت بدون ما أشوفه مره تانية. فأجبتها: اطمئني ، غير يرجعلك ابنك ويفرحك. بدا الضيق على زورا عند ذكر اسمه وغادرت الغرفة ، وابتسم حبيب وسألني إذا كنت اعتقد بأن يعقوب سيعود في وقت قصير للمطالبة بابنته الصغيرة. كان من الجلي أن الطفلة تدرك الطريقة التي تم فيها ترتيب الأمور ، لكنها لم تبدي أدنى اشارة للاهتمام ولم تعبر عن أية مشاعر. وقامت النسوة والصبايا الأخريات الحاضرات بطرح شتى أنواع الأسئلة عن يعقوب ، وفرحن جدا عندما حدثتهن عن الاستقبال الذي حظي به عند وصوله إلى إنجلترا ، بينما حافظت أنيتا الصغيرة على صمتها المتحفظ والوقور ، وهو ما يعد حسب العرف والعادات السامرية سلوكا لائقا ومحمودا.

لم تدخل زورا الغرفة من جديد ، لكنني رأيتها مشغولة في طبخ الطعام مع أمها ، لدى اجتيازي للساحة في طريقي لبيت أحد الجيران ، كان واضحا أنها كانت تبكي ، وما إن رأتني حتى هرعت للاختباء في غرفة المخزن ، وحدثني عمران قائلا: ليست راضية عن الترتيبات الجديدة بعد ، لكن عريسها رجل طيب ومقتدر ، وسوف تكون سعيدة عما قريب.

قمت بزيارة ثلاثة بيوت أخرى تتشابه جميعها مع بيت حبيب ، لكن بيته كان أكثرها راحة. وبشكل عام تأثرت جدا بمظهر المجتمع السامري ، فالرجال كانوا عموما يمتازون بالوسامة وطول القامة واللياقة البدنية والذكاء ، لكن القليلين منهم فقط أجادوا القراءة والكتابة. النسوة كن بسيطات والأطفال كانوا جذابين وأذكياء للغاية ، ومفعمين بالحيوية والنشاط في الوقت ذاته. قيل لي بأن السمرة يعمرون طويلا وينجون من الأوبئة التي تفتك بنابلس بين الحين والآخر ، وربما كان السبب وراء ذلك هو بساطة الحياة التي يعيشونها ، والإهتمام البالغ الذي يولونه لطهارتهم ونظافة أبدانهم ، وهم يتحرون ويتقيدون بشريعة موسى بإيمان وإخلاص. يحجون في مواكب تصعد إلى قمة جبل جرزيم ثلاث مرات في العام ، مرددين مقاطع من التوراة خلال صعودهم الجبل. كما أنهم يقولون للرحالة والمسافرين على الدوام: لقد تعبّد آباؤنا على هذا الجبل. ، وهو الجبل الذي صار يسمى الآن جبل الطور.

كما أنهم لا يؤمنون بأي جزء من الكتاب المقدس ، باستثناء أسفار موسى الخمسة ، ويعتقدوا بأن الأجزاء التالية كانت محض تزوير ، وبأن الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك إن هو إلا افتراء بيّن جاء به أعداؤهم اليهود ، بينما يرى اليهود في المقابل بأن السبب وراء إنكار السمره لهذا الإصحاح من الكتاب المقدس يعود بالأساس إلى كونه الإصحاح الذي يظهر تاريخهم الحقيقي ويشهد بإدانتهم.

يقول السّمرة بأنهم أحفاد منّشيه وأفرايم ، ويقال بأن كاهنهم ينحدر مباشرة من نسل سبط لاوي ، وهو الذي يؤم عباداتهم وصلواتهم على مر القرون وتعاقب الأجيال ، وبينما كان الكاهن عمران يشرح هذا لي ، قال: واحسرتاه ، ليس لي ابن! لم أنجب ولدا أعلمه اللغة المقدسة ، لا ابن لي ليساعدني في إقامة الصلوات ، لا ابن لي ليرث كهانتي ، أدعو الله أن لا أكون الرجل الأخير في سلالتي ، وأن لا يترك طائفتي من دون كاهن.

قبل ردح من الزمن ، كانت الطائفة السامرية قد حاقت بها فاجعة كبيرة ، لدى وفاة الرجل الأخير المنحدر من نسل عائلة هارون ، الذي كان الوريث الأخير لكهنتهم العظام ، وآخر من كان بمقدوره تقديم القرابين بالنيابة عنهم. صاروا مجبرين الآن على أن تقتصر عباداتهم وشعائرهم على ما يسمح للكاهن عمران وأبيه بتأديته من عبادات ؛ بالنظر لانحدارهم من سبط لاوي ، الذين ورد في التوراه أن الرب كلّم موسى عنهم قائلا: قدم سبط لاوي وأوقفهم قدام هارون الكاهن وليخدموه فيحفظون شعائره وشعائر كل الجماعة قدام خيمة الاجتماع ، ويخدمون خدمة المسكن ، فيحرسون كل أمتعة خيمة الاجتماع (سفر العدد 3:5). كما ذُكر أيضا أن الرب كلم موسى قائلا: وهأنذا قد أعطيتك حراسة رفائعي ، مع جميع أقداس بني إسرائيل لك أعطيتها ، حق المسحة ولبنيك فريضة دهرية ثم كلم الرب هارون وقال له: أنت وبنوك وبيت أبيك معك تحملون ذنب المقدس ، وأنت وبنوك معك تحملون ذنب كهنوتكم ، وأيضا إخوتك سبط لاوي ، سبط أبيك ، قربهم معك فيقترنوا بك ويؤازروك ، وأنت وبنوك قدام خيمة الشهادة فيحفظون حراستك وحراسة الخيمة كلها. ولكن إلى أمتعة القدس وإلى المذبح لا يقتربون ، لئلا يموتوا هم وأنتم جميعا(سفر العدد ، الإصحاح الثامن عشر).

تأملت هذه النصوص ، وتفكرت بعقلية السمرة واقتناعهم الذي لا يخامره الشك بصحة نسب كهنتهم ، وإيمانهم المطلق بقدسية التوراه وسماويتها ، وما يترتب على ذلك من ثقة واقتناع بالشعائر والعبادات ، فصار بمقدوري أن أتصور حجم الأسى الذي انتابهم عندما واروا آخر الرجال الممسوحين المنحدرين من نسل هارون الثرى ، وكيف أصبحوا بلا كاهن أعظم يؤدي الصلاة والشعائر من أجلهم. ما عاد بمقدورهم إحياء أرفع شعائرهم الدينية مقاما بموت المنحدرين من نسل هارون ، إذ لا يمكنهم تقديم الذبائح الآن وما من أحدٍ لديه الصلاحيات الدينية اللازمة للتكفير عن ذنوبهم

خلال أيام الخبز العويص (عيد الفصح اليهودي-المترجم) ، يعيش السمرة في الخيام أعلى الجبل قريبا من أطلال معبدهم القديم. في اليوم الخامس عشر من الشهر الأول تجتمع الطائفة كلها برجالها ونسائها وأطفالها باستثناء غير الطاهرين منهم لأداء الصلوات ، ويقف

الكاهن على أكمة صغيرة ويرتل بصوت شعائري مؤثر مقاطع ملأى بالأحداث من سفر الخروج.

توقد النار في خندق طوله عشرة أقدام وعرضه قدمان يكون العمال قد حفروه في وقت سابق ، ويثبت فوقه مرجلان مملوءان بالماء ، ثم تحفر فجوة مستديرة على شكل بئر لتستخدم كفرن ، وتحضر خراف تكفي لإطعام الحشد المتجمع ، وهي سبعة خراف في الوقت الحاضر ، عند مغيب الشمس ، يقوم سبعة رجال في ملابس بيضاء بتثبيت الخراف السبعة ، وبعد ان يتمتوا بكلمة معينة تكون قد حددت خلال صلاة ذلك اليوم ، تنحر الخراف جميعا في اللحظة نفسها ، ويقوم كل فرد من أفراد الطائفة بغمس يده في دماء الضحايا المحتضرة ثم يلطخ جبهته بالدماء التي غطت يده. تسكب المياه المغلية من المرجلين على صوف الخراف بعد ذلك ، فينسلخ الصوف عن أجساد الخراف بسهولة ، ثم ينزع معلاقها بدقة بالغة ، وتفحص أجساد الخراف للتأكد من خلوها من الأمراض والعيوب ، ومن ثم تقطع الأكتاف اليمنى وأفخاذ الضحايا ويلقى بها في كومة من الفضلات لكي يتم حرقها مع الصوف ، لتوضع الخراف السبعة بعد ذلك داخل الفرن المضطرم النيران ويتم تثبيت تعريشة في أعلى الفرن تغطى بالطين والأعشاب ، من أجل حفظ الحرارة داخل الفرن ، ويغادروا المكان بعد مرور بضع ساعات من مغيب الشمس ، ويقوم السمّرة وقد تمنطق كل واحد منهم وحمل عصا بيده بأكل الطعام الذي تم طهوه كما ذكر آنفا بعجالة ونهم ، وتجمع بقايا اللحم والصوف والعظام بعد ذلك ليتم حرقها في كومة الحطب بحيث لا يتبقى منها شيء. شهد أخي طقوس عيد الفصح السامري مرتين فيما مضى ، وهو الذي زودني بهذه المعلومات.

أما عيد المظلات (عيد المعرّشات اليهودي- المترجم) ، فيتم الاحتفال به على هذا الجبل أيضا ، وهو يقام في الأيام الأولى من فصل الخريف ، عندما يكون العيش داخل الخيام لطيفا ومنعشا ، يأخذ الناس أغصان الشجر الكبيرة دائمة الخضرة مثل شجر البلوط والقطلب ، ويشيدون منها معرشات وسقائف صغيرة يغطونها بأغصان الصفصاف وعسف النخل المجدول ، وأغصان الليمون والأترج المكسوة بأوراقها الخضراء الغضة وعناقيدها الخضراء

المتدلية منها ، وتستمر إقامتهم هناك لسبعة أيام يقضونها في فرح وفي حمد الله والثناء عليه.

كان السامريون يجبرون في بعض الأحيان ، رغما عنهم ، على إقامة شعائرهم واحتفالاتهم الدينية في أماكن أخرى وبسرية تامة ، وذلك بسبب العقلية المتعصبة والميالة للاضطهاد التي يمتاز بها مسلمو نابلس. لكن الكاهن عمران أخبرني: طالما تحدث الإنجليز لمصلحتنا الآن فلن يكون لدينا ما نخشاه من الآن فصاعدا ، وعلى الرغم من الحرب الأهلية ، فسوف يذبح خروف الفصح على الجبل حيث تعّبد آباؤنا ، وقد اقترب موعد العيد يا سيدتي ، ابقي في ضيافتنا حتى عيد الفصح وسنبني لك خيمة لطيفة على الجبل ، لكي تحضري أنت والقنصل احتفالاتنا بالعيد ، ولكي تأكلوا من خبزنا غير المختمر.

جاءت معظم النساء السامريات للسلام علي في غرفتي في الفندق ، جاءت شقيقة يعقوب الشلبي ، وهي فتاة ناعمة على قدر كبير من الشبه بأخيها ، عدة مرات لزيارتي ، واكتسبت زورا سلوكا اجتماعيا أكثر وضوحا ، كان من الواضح لي من خلال تصرفاتها والكلمات القليلة التي تفوهت بها ، بأنها كنت حانقة على نفسها وغاضبة من خطيبها الغائب ، وأكثر غضبا على عدم السماح لها بأن تنتظر رجوعه ، كما كان سخطها على الشعب الإنجليزي باديا ، وكأنها تعتقد بأنهم قاموا بإغواء يعقوب للابتعاد عنها ، لذلك لم يكن من المستغرب بأن هذا الزواج سبب الكثير من المشاكل للكاهن عمران. لا تستر النسوة وجوههن عن الرجال من أبناء طائفتهن ، لكنهن يلتزمن بالبرقع خلال سيرهن في الشوارع وفي حضور الغرباء.

كن يرتدين ملابس بسيطة إجمالا تتكون من سراويل وسترات من قماش مانشستر ، ومناديل من الموسلين الملون لتغطية الرأس إضافة إلى البراقع ، عندما يخرجن من بيوتهن ، يضعن ملاءات كبيرة بيضاء من القطن ، وعلى الرغم من أن ملابسهن قد تبدو بالية أو مملوءة بالرقع ، إلا أنها نظيفة ، لم أر الكثير من المجوهرات اللهم ما تضعه النساء المتزوجات حديثا على أغطية رؤوسهن ، إلا أن جميعهن تقريبا يرتدين أساور زجاجية ، وبعض الفتيات الصغيرات يضعن خلاخيل تتدلى منها أجراس صغيرة ، كما تضع الفتيات بعض العملات المعدنية الصغيرة في مقدمة الطرابيش التي يعتمرنها.

يتصرف السّمرة جميعا وكأنهم أفراد أسرة واحدة ، وينظر أبناء الطائفة إلى الكاهن أو وريث الوظيفة الكهنوتية كأب ومرشد روحي لهم ، ويكون بدوره ملما إلماما تاما بطبيعة وتاريخ كل فرد من أبناء الطائفة ، وهو يشغل منصب الملك والقاضي والطبيب والمعلم والمستشار والصديق لجميع أفراد الطائفة. وقد فوجئت بأن السمرة لا يظهرون أية عواطف أو مشاعر دينية ، على الرغم من التبجيل الكبير الذي يكّنونه لتعاليمهم ونظامهم اللاهوتي وكل ما يتصل به ، وخصوصا موقع الهيكل العتيق على جبل جرزيم ، حيث تعّبد آباؤهم من قبلهم ، وهم يولون أهمية قصوى للطقوس والشعائر الدينية خصوصا ما يتعلق منها بشرائع الطهارة المرتبطة بالزواج والطعام ونظافة البدن ، كما يلتزمون التزاما صارما بتعاليم يوم السبت بالمعنى المادي للكلمة ، لكن من دون أدنى قدر من التقوى أو المشاعر الروحية ، كما أن صلواتهم تمتاز بضوضائها وخلوها من الخشوع.

ولا يتحاشى السمرة التعامل الودي أو التجاري مع الغرباء ، مع أنهم لا يتزاوجون منهم ، وترتبط الطائفة البروستانتية الصغيرة العدد من النابلسيين الأصليين بعلاقات وطيده مع السّمرة ، وهذا ما ينطبق على سكان نابلس الأصليين من الأرثودوكس ، وكذا العديد من المسلمين النابلسيين الذين يقيمون علاقات حسنة معهم ، لكن جيرانهم اليهود لا يحبونهم على الإطلاق ، ويتهمونهم بالإلحاد والهرطقة وعبادة الأصنام أيضا ، ويتفادون الاختلاط بهم قدر الإمكان قائلين بأنهم يعبدون الحمام! وهذه فرية راسخة منذ القِدم ضدهم. وفي المقابل فإن السّمرة يرون بأن اليهود هجروا شريعة موسى وتخلوا عن الحياة المتطهرة وعباداتها الصحيحة واتبعوا تعاليم التلمود ، ويؤرخون انفصالهم عن اليهود بعهد عالي الكاهن ، الذي ينظرون إليه كمغتصب ؛ إذ إنه لم يكن من الأسرة الكهنوتية المنحدرة من نسل اليعازار ، بل كان منحدرا من نسل ايثامار الابن الرابع لهارون.

تعرض السّمرة لاضطهاد عظيم في العام 1842 عندما رفضوا اعتناق الديانة الإسلامية ، ما دفع العلماء المسلمين بالتهديد بإبادة جماعية للطائفة برّمتها ، على أساس أنهم قوم ليس لهم ديانة ، وبأنهم لا يؤمنون بأي من الكتب السماوية المنزله والتي هي: 1- شريعة موسى 2- العهد الجديد (الإنجيل) 3- مزامير داوود 4- كتاب الرسل5- القرآن الكريم ، فالمسلمون

عموما متسامحون مع أي من الطوائف والملل التي تعترف بأي من هذه الكتب الخمسة ، ولمعرفة السّمرة بهذه الحقيقة ، فقد حاولوا إثبات إيمانهم بكتاب التناخ (الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم-المترجم) ، لكن المسلمين لم يصدقوا ادعاءهم هذا ، نظرا إلى أنهم لم يكونوا ملّمين باللغة والأحرف المقدسة التي كتب بها هذا الكتاب ، فلجأوا إلى الحاخام الأكبر لليهود في بيت المقدس-وهو الممثل الشرعي المعترف به أمام السلطات للطائفة اليهودية- الذي أصدر إقرارا يشهد فيه بأن: الطائفة السامرية هي فرع من بني إسرائيل الذين يؤمنون بصحة التوراة- أي كتاب التناخ ، وضعت هذه الوثيقة وما رافقها من هدايا ، نهاية لحملة الاضطهاد التي واجهها السمرة بشكل مؤقت. وأنا أذكر هذه الأحداث فقط من أجل إيضاح النظرة التي يحملها المتنورون وعلية القوم من اليهود للسّمرة.

ربما كان أولئك الذين قد عرفوا يعقوب الشلبي في إنجلترا يودون سماع بعض من أخباره. يعتبر يعقوب السامري الوحيد الذي ارتحل لهذه المسافة البعيدة غربا. وقد عاد إلى قومه في خريف 1856 ليتأقلم بسرعة ومن جديد مع الحياة البسيطة والصاخبة للسّمرة ، وأشار على الكاهن عمران ببناء مدرسة وإلزام جميع أطفال الطائفة ، البنين والبنات ، بالمواظبة عليها بشكل منتظم ، بحيث يتعلم كل أبناء الجيل الجديد القراءة والكتابة باللغة العربية ، إضافة إلى أصول الحساب ، فقد كان يعقوب نادما جدا لأنه لا يتقن القراءة ولا الكتابة ولا الحساب ، ولأن الأوان قد فات لكي يبدأ بتلقي العلم من جديد نظرا لكبر سنه. وقد علمت بأن المدرسة قد تأسست وهي تسمى مدرسة الشلبي تخليدا لذكرى زيارة يعقوب لإنجلترا ، حيث عرف الأهمية القصوى للتعلم بواسطة الكتب.

لم يتزوج من أنيتا الصغيرة بعد كل ما حدث ، فهي لم تكن كبيرة بما يكفي لتكون زوجة له عند عودته ، لذلك تم ترتيب زيجة أخرى نتيجة لذلك ، كما سترون في المثال الطريف على أسلوب كتابة الخطابات في الشرق والذي سأورده تاليا ، كان هذا ردا على استفسار بشأن يعقوب ، وهي ترجمة دقيقة وصحيحة للخطاب الذي أرسله الكاهن عمران إلى إي. تي. روجرز المحترم ، نائب قنصل صاحبة الجلالة الملكة ، حيفا:

جناب صاحب الكمالات ذا المكانة الشريفة والمقام الرفيع ، حضرة الأخ الجدير بالإطراء

والثناء الخواجه روجرز ، الألمعي الجهبذ ، أطال الله أيامه ، آمين.

بعد رفع الدعوات القلبية الخالصة لعصمتكم ، أود إبلاغكم بأنني تشرفت باستلام كتابكم الكريم المؤرخ في السابع عشر من حزيران / يونيو بالتقويم الغربي الذي حمله الينا داوود طنوس (32) ، فسعدنا وسررنا بمطالعة أخباركم الطيبة ، وحمدنا الله الذي أكرمنا بأن تذكرتمونا. كما طالعت ملاحظتكم الرقيقة في حاشية كتابكم الآنف الذكر ، وعلمت بأنك تسألني عما إذا كان يعقوب الشلبي قد تزوج أم لا ، لقد تزوج يا سيدي منذ العام الماضي من عروس في غاية الجمال والرقة ، اسم زوجته شمسة ، وفي يوم الخميس الفائت ، الأول من تموز / يوليو حسب التقويم الغربي ، أنجبت شمسة مولودا ذكرا يشبه القمر أسمياه أمين ، أدعو الله أن يرزقك بما رزقهم. أنقل إليك هذه الأنباء السارة وهي كل ما لزم إبلاغ جنابكم به ، ملتمسا تكرمك بإبلاغي إذا ما كان هناك ما يمكنني القيام به لخدمتك ، أطال الله أيامك ، يا سيدي ، مقدم هذا الكتاب (امضاء وخاتم) عمران الكاهن ، كتبت في نابلس في التاسع من تموز ، السنة الغربية 1858.

كما رزق يعقوب بطفل آخر وقد سمعته يتحدث بزهو ومحبة وعطف عن أطفاله الصغار ، وعن زوجته الشابة شمسة ، وعن المدرسة الجديدة المزدهرة للطائفة السامرية. ذات يوم ، بعد مِضي بضعة أيام على وصولي إلى نابلس ، وكنت أجلس في ديوان الفندق برفقة مجموعة صغيرة من السّمرة ، وكهنة طائفة الروم الأرثودكس وبعض البروتستانت العرب ، وإذ بامرأة عربية فقيرة تشق طريقها للغرفة عنوة ، بالرغم من محاولات القّواس والخدم لثنيها عن ذلك. كانت تصرخ قائلة: بعّدوا من طريقي ، بدي أحكي مع الست الإنجليزية ، أخت القنصل ، فقلت: خلوها تحكي

كان جسدها ملفوفا بأكمله تقريبا بملاءة بالية ملونة باللونين الأبيض والأزرق مصنوعة محليا ، كانت مسّنة جدا وعبرت الغرفة بخطوات مترنحة باتجاهي ، ثم أزاحت نقابها الثقيل عن وجهها جزئيا وقبّلت رأسي ويديّ بسرعة وعنف وهي تتضرع إلي لكي أتدخل لصالح ابنها ، الذي كان قد سُجن بتهمة إهانة وضرب القوّاس الخاص بنا في السوق.

قالت لي: أنا أرملة ، وابني وحداني ، سندي في هاي الدنيا ، تدخلي مشانه كرمالي ، تدخلي

من أجله ، كرمال إمكو انتي وأخوكي ، مشان يطلعوه من السجن.

سجدت على الأرض محاولة تقبيل قدمي وجثت على ركبتي بتضرع ورجاء ، ساعدتها على النهوض وأنا أقول لها روحي انتي هلأ في أمان الله ، وأنا رح أحكي مع القنصل مشان ابنك ، فمضت في سبيلها وهي فرحة وصرخت بصوت عال: رح يفتحوا بواب السجن ، ابني المشكلجي راح يطلع برّه ، مشان الإنجليز وعدوني

تحريت عن السجين ، وكرمال الوعد الذي أعطيته ، تقدم أخي بطلب لإطلاق سراحه ، حيث خرج حرا طليقا قبل غروب شمس ذلك اليوم.

جاء في المساء بصحبة والدته لشكري ، لأنه علم بأنني تدخلت من أجل إطلاق سراحه ، كان من الواضح أنه قد تعرض للجلد بالسياط ، بدا عليه الخنوع وكان في غاية السعادة للإفراج غير المتوقع عنه. عندما تُقفل بوابات السجن التركي لا يمكن فتحها بسهولة من جديد إلا بمفتاح ذهبي ، وهذا الرجل كان يعلم جيدا عدم مقدرة ذويه وجماعته على دفع رشوة كبيرة بسبب فقرهم المدقع!

قال لي: كرمال اللي عملتيه يا ستي ، رح أدور دايما على إشي أردلك فيه معروفك ، ومشانك مستعد أخدم الشعب الإنجليزي كله فأجبته قائلة: دير بالك على إمك وعيش محترم مع كل الرجال

تركانا وألسنتهما تلهج بالدعاء لنا ، بعد عدة أسابيع من تلك الحادثة ، عندما تعرضت الطائفة البروتستانتينية في نابلس لهجمات ضارية من المسلمين ، أثبت هذا الرجل أنه كان خير عون لهم ، إذ إن النظرة السائده تجاه البروتستانت هي أنهم من المشمولين بالحماية البريطانية ، كما ينظر للاتين كرعايا فرنسيين وللأرثودوكس كرعايا روس.

كنت قد دخلت في نقاش شيّق مع المدير العربي التابع للمدرسة التابعة للطائفة البروتستانتية في نابلس ، والذي ينحدر أصلا من الناصرة ويبلغ الثلاثين من عمره تقريبا ، وهو عم يوسف ، الصبي الذي يعمل لدينا في صب القهوة والعناية بالغلايين ، الذي تحدثت عنه في فصل سابق من هذا الكتاب ، كان المدير من خريجي المدرسة الأسقفية في القدس ،

حيث تعلم الحديث بالإنجليزية بطلاقة وتمكن ، كانت لكنته الأجنبية وكلماته الغريبة والمفردات التي يستخدمها بطريقة شرقية ، مبعث تسلية لي ، وكان هو سعيدا لحصوله على فرصة للتحدث بالإنجليزية ، كما كان تواقاً لمعرفة المزيد عن قواعد وطرق الحياة في إنجلترا ، خصوصا العادات والتقاليد المرعية في الخطوبة والزواج والطلاق والتسويات المالية التي تتم حين وقوع الطلاق ، زودته بمعلومات كافية عن كل هذه المواضيع بالقدر الذي أمكنني ، وقام هو في المقابل ، بإخباري بالكيفية التي تزوج فيها ، وسوف أسردها هنا ، مستخدمة الكلمات التي استخدمها هو ، حيثما أمكن ذلك ، والتي قمت بتدوينها في يوم الأحد الثاني من آذار/ مارس ، وهو اليوم الذي روى لي حكايته فيه:

سوف أريك كيف تتم الزيجات في هذه الديار ، من المحتمل أن لا تكون العادات الإنجليزية المتبعة لديكم جيدة بما يكفي في هذا الشأن ، وربما كانت عاداتنا كذلك ، من الأفضل أن نأخذ نحن شيئا من عاداتكم وتأخذوا أنتم شيئا من تعاليمنا. ذهبت قبل أربع سنوات إلى بلدتي ، إلى الناصرة من أجل الخطوبة ، الجميع كانوا على علم بأنني ذاهب للبحث عن فتاة أرتبط بها ، كنت يتيم الأب والأم ، فاتجهت إلى بيت عمتي ، شقيقة والدي وقلت لها: عمتي! دّوري لي على عروس ، مشان أتزوجها بسرعة ، فقالت لي: ريح بالك يابنيي ، بعرف بنت منيحة الك ، راح احكي فيها وحينها شعرت بحزن في قلبي ، إذ لم يكن من المسموح لي أن أراها ، فقلت لعمتي: يا عمتي ، كيف بدي أتزوج بدون ما أشوفها ؟ بلكي عينيها ما كانوا حلوين ، بلكي أخلاقها ما كانت كويسه ، لازم أشوفها ، خبيني مشان أقدر أشوفها كانت عمتي خائفة جدا ، لكنها كانت تحبني ، فقالت لي: قوي قلبك ، رح أتحايل عليها كرمالك

فخرجت عمتي وبحثت عن البنت التي ترغب بأن أقترن بها ، وهي ابنة جيراننا ، وعندما عثرت عليها قالت لها: انا بدور عليكي يا بنيتي ، تعالي معي لبيتنا ساعديني بالشغل ، بدي أورجيكي إشي ، ووقفت أنا حيث كان من المفترض أن تمر هي وكانت قد نزعت البرقع عن وجهها ولم تكن تعرف بأمر اختبائي ، ومضى وقت قصير وهي تعمل وتتحدث مع خالتي ، كانت جميلة وحلوة الشمائل ، في الحادية عشرة من عمرها ، وكان حديثها يفيض طلاوة وعذوبة ، فخرج قلبي من بين أضلعي شوقا إليها ، وبعد وقت قليل ، اقتربت من المكان

الذي كنت أختبىء فيه ، ورأت أنني كنت أرمقها بنظرات قوية ، فاحمر وجهها وهرعت راكضة إلى أمها ، وتبعتها عمتي أيضا. وشرعت البنت بالصراخ قائلة: ضحكوا علي يا إمي ، ضحكوا علي فهدأت أمها من روعها وقالت لها: اطمني يا بنيتي ، ما دام شافك هلأ ، أكيد رِح يتمنى تكوني مرته ، راح ياخذك! لكن البنت كانت مغتاظة وغاضبة جدا وقالت مرة أخرى: مش منيح انهم ضحكوا عليّ

جاءت عمتي وحدثتني عن غضبها وحزنها وقالت لي: بلاش تجيب سيرة عن هالقصة مرة تانية ، وبلكي بنلاقي بنت تانيه ، لكن قلبي كان متيما بهذه البنت ، ولم أعد قادرا على التفكير بسواها ، فذهبت إلى كاهن الروم الأرثودوكس وأخبرته بالحكاية كلها ، فذهب الكاهن إلى والد البنت ، لكنه قال: مش موافق ، عندي بنتين أكبر منها ، مش لازم ينتركوا ، لازم يتزوجوا قبل البنت الصغيرة فقلت للكاهن حينئذ: حاكيه مشاني كمان مرة ، بلكي آخذ البنت الصغيرة فوضع الأب صكا (عقدا) مكتوبا ختمته بخاتمي ووافقت بموجبه أن أعطيه الكثير من الحرير والقطن والصابون كمهر لابنته- بكميات أكبر مما كنت سأقدمه له فيما لو اقترنت بأي من شقيقتيها الكبيرتين ، وذلك لمعرفته بأن قلبي قد هام في حبها. ورأيتها مرة ثانية لمدة لم تتعد الدقيقة الواحدة ، خلال حفل عقد القران ، وجهزت لي عمتي غرفة في بيتها بعد ذلك ، وجاء الكثير من الرجال وشاركونا الطعام في وليمة ضخمة ، وذهبت العديد من النسوة ليأكلن مع البنت من الوليمة المقامة في بيت والدها ، وقمن بالرقص أمامها وغنوا أغاني فرح ومسرة ، وعرف جميع الناس بأننا مخطوبان ولكن لم يكن بمقدوري رؤيتها من جديد.

ثم سافرت إلى نابلس ، وبعد مضي عام ذهب أربعة رجال على خيولهم لأجلي إلى الناصرة وأحضروها حيث تزوجنا بعد ذلك مباشرة ، وقام بتعريفي على زوجته وطفلها الرضيع ، كانت ذات طّلة مشرقة وبشوشة وعيون بنية غامقة صافية ، أخبرتني بأن الناصرة بلدة أكثر ملاءمة لسكن المسيحيين من نابلس.

تأسست الطائفة البروتستانتية في نابلس على يد الدكتور باون ، مطران سيراليون الراحل ، حيث أسس معملا للنسيج ، ووفر فرصا لعمل السكان ، وكان يدفع لهم نظير عملهم ويقوم

بتعليمهم الحرف المفيدة ، بالإضافة إلى التعليم الديني الذي كان يمنحهم إياه ، وقد كان شخصية محبوبة لدى مختلف الطبقات والطوائف ، ما ساعد على قيام الكثيرين من الروم الكاثوليك بالتحول للبروتستانتية.

منذ رحيل الدكتور باون ، كان حجم الطائفة يتذبذب بشكل مستمر ، بحيث يصل العدد إلى مستويات منخفضة في بعض الأحيان ، عندما حضرت صلاتهم في قاعة المدرسة ، كان الحاضرون عبارة عن عشرين رجلا وثلاثين طفلا. وجلست مجموعة من النسوة في في القاعة المجاورة لمراقبة الصلوات والاستماع إليها عبر نافذة مقّوسة ، وكنّ يرتدين النقاب جميعا. وقد أقيمت الصلاة بشكل رائع بقيادة ميخائيل قعوار ، وهو مدرس من سكان البلاد الأصليين ، وتولى طفل في الثانية عشرة من عمره تلاوة الإنجيل بصوت رخيم ولكن رتيب ، وكان الحاضرون يرددون من ورائه بحماسة.

كان المطران جوبات قد أرسل السيد أم. زيللر ، وهو ألماني ، مؤخرا لتولي مسؤولية الطائفة ، حيث انكبّ على دراسة اللغة العربية وآدابها لمساعدته في أداء واجباته التبشيرية ، وكان يتكرم بترك مكتبه بين الحين والآخر لمصاحبتي لاستكشاف نابلس وما جاورها.

خرجنا ذات صباح وسلكنا الأزقة الحجرية الضيقة والمتعرجة التي تعلوها القناطر ، وصولا إلى بوابة البلدة ، ثم ارتقينا الطريق الصاعد المحيط بالبلدة من جهاتها كافة تقريبا ، فوصلنا الهضبة التي تلي المقبرة حيث رأينا نابلس بأكملها ، بمساجدها ومآذنها وقباب بيوتها غير المنتظمة ، وأسقفها وأساطيحها ، وأزقتها المعتمة والأعمدة التي تحف بها ، وبيارات الحمضيات من برتقال وليمون في الأراضي المحيطة ، ثم صعدنا عبر طريق حجري شديد الانحدار لرؤية عين ماء قديمة تتدفق مياهها إلى حاووز حجري قريب ، فوجدنا مجموعة من النسوة المبرقعات بالكامل يغسلن ثيابهن الرثّة ، وبعض الرجال الذين يعملون في بناء الجدار الحجري المتهدم لمجرى المياه ، مستخدمين أدوات بناء غير ملائمة ، وتاركين بنادقهم تتدلى بلا اكتراث على أكتافهم.

مشينا مع مجرى القناة التي تجر المياه من العين إلى الأراضي المحيطة بالبلدة ، تغطت حجارة القناه بالطحالب ، ونبتت بين شقوقها حشائش ذات وريقات لامعه ونضرة ، وعلى

مسافات قصيرة متساوية ، انتشرت فتحات كنا من خلالها قادرين على رؤية المياه الصافية المنسابة التي تحف بها كزبرة البئر وغيرها من النباتات ، إضافة إلى أزهار بيضاء وليليكة اللون. ثم بلغنا بركة أو حاووز ماء قديماً وكبيراً ومربعاً ، مملوءاً بالماء في حالة جيدة ، يقع على مقربة من البيت الجديد للحاكم ، وكان من أفخم البيوت التي رأيت في فلسطين ، حيث شُيد من حجر جيري فاخر ، وزُخرف بالرخام والأعمدة والقناطر ، وكان الحاكم ، محمود بيك عبد الهادي بنفسه قد وضع التصميم الهندسي للبيت.

دخلنا البلدة من جديد وتوقفنا أمام بوابة المسجد ، التي كانت فيما مضى بوابة لكنيسة عتيقة كما كان واضحا من طرازه المعماري ، فالأعمدة والتيجان المحفورة بعناية والمنحوتة بإتقان ، والحليات المعمارية الغائرة والمسننة ذات الخطوط المتعرجه في القناطر ذات الأقواس المدببة ، كانت جميعها على النمط المعماري النورماني الصقلي ، وبينما كنا نتفحص تفاصيل البناء ، بدرت عن الحراس الذين يتولون حماية المسجد إشارات ، كانت تتسم بالشدة أحيانا ، تفيد بأننا نقترب كثيرا من الحرم المخصص للعبادة داخل المسجد ، وبأننا قد أطلنا البقاء هناك ، فانسحبنا واتجهنا نحو بازار البلدة. تزخر دكاكين السوق ببضائع متنوعة وينتشر فيها الباعة والزبائن ، كما رأينا أزقة ضيقة متخصصة ببيع التبغ ، بينما خصصت أزقة ومجازات أخرى لبيع العطور الشذية المحضّرة من الليمون الأخضر والبرتقال والأترج وليمون الجنة ، كان من الصعب اجتياز البازارات المخصصة لبيع الخضروات والمأكولات الجاهزة ، إذ كان الجنود الأتراك القادمون من معسكر الباشا لتناول وجبة منتصف النهار يملأون المكان ، وكان بعضهم يحمل في يده أطباقاً معدنية كبيرة تحتوي على خليط من الخضراوات المقّطّعة ، أو زبادي فخارية عميقة تحتوي على عصيدة البازيلاء ، التي تزينها قطع من الليمون التي تطفو على سطحها ، فيما كان جنود آخرون يشقون طريقهم مسرعين بين الحشود وهم يحملون زبادي مملوؤة بالشوربة الحارة والبخار يتصاعد منها ، وهو ما ساعد على فتح الطريق من أمامهم بشكل فعّال. كان انعدام مشاعر الود بين الجنود وسكان البلدة واضحا للعيان ، إذ تعالت صرخات الغضب من حولنا ، وفي العديد من الحالات شهدنا معارك يقع فيها تبادل للكمات قبل إتمام صفقة بيع أو شراء. اتجهنا

بعدئذ عبر البازار الطويل والضيق المخصص لبيع الفواكه المجففة والزيتون والأرز والسمن والجبن إلى مدخل مسجد ذي مكانة رفيعة ، كانت جدرانه الخارجية مزدانة بآثار وزخرفات من الفن المسيحي السائد في القرن الثاني عشر ، وبعد أن توقفنا أمامه للحظات ، تابعنا مسيرنا عبر مجاز كادت الجمال المارة فيه أن تغلقه ، إلى أن وصلنا إلى بازار رئيسي ، وهو أفضل أروقة التسوق في فلسطين ، فهو يمتاز بأنه أعرض وأكثر اتساعا من البازار السفلي ، وهو أطول منه بخمس أو ست مرات ، وتعرض فيه البضائع الأوروبية مثل الأقمشة المستوردة من مانشستر ، والملاعق والسكاكين والشوك المستوردة من شيفيليد ، والخرز والمجوهرات والحلي والزينة الفرنسية والمرايا الصغيرة وقوارير الكريستال البوهيمي المستخدمة للأراجيل ، والمناديل المستوردة من سويسرا كتقليد لمناديل إسطنبول ، وأطقم المائدة وأطقم فناجين القهوة من الصيني والقاشاني ، لكن أكثر الدكاكين فخامة كانت تلك المتخصصة في بيع الحرير الحلبي والدمشقي ، والسترات والطرابيش المطرزة المستوردة من إسطنبول ، إلى جانب الغلايين التركية ومسابح الكهرمان وأساور الخليل ، وجلس أصحاب المحلات القرفصاء على الدكك السفلية للحواجز الخشبية لدكانينهم وهم يرتدون عماماتهم في وسط بضائعهم الزاهية ، ليدخنوا ويثرثروا ويمسّدوا لحاهم ، ويسبحوا بمسابحهم من الصباح الباكر حتى مغيب الشمس.

قادتنا فتحة في وسط هذا البازار إلى خان فسيح ذي تنسيق جيد ، لكنه متهالك لدرجة لم يعد فيها صالحا للاستعمال ، وهو يتكون من ساحة مربعة مكشوفة محاطة بمبانٍ مؤلفة من طابقين ، الطابق الأرضي منها كان معدا لإيواء الجمال وغيرها من البهائم المستخدمة في التنقل وحمل الأثقال ، لكن الغرف العلوية بالكاد كانت صالحة لتكون مأوى مناسبا ، بالنظر إلى خرابها والدمار الذي أصابها ، ارتقينا درجا حجريا حيث بلغنا بشق الأنفس السطح المستوي المشرف على مشهد بديع للبلدة.

عندما عدنا للبازار ، فوجئنا بمن ينادينا من الخلف بأسمائنا ، وعندما التفتنا رأينا مضيفي عودة عزام في دكانه الصغير المخصص لبيع أقلام الحبر وأقلام الرصاص وورق الكتابة وغيرها من السلع المجلوبة من بيرمنجهام ، وأخبرنا بأن المارة العرب كانوا يتعجبون من

سيري سافرة بحرية تامة في الأماكن العامة ، قائلا: نسواننا بيدخلوش البازار أبدا ، هيك عمله بتعيبهم وبتجيب لهم العار

تشتهر نابلس بإنتاج القطن وزيت الزيتون والصابون ، ويصنع فيها الصابون بكميات كبيرة ، ويباع في أرجاء فلسطين كافة ويكون لون الصابون النابلسي رماديا مائلا للأبيض ، وينتج رغوة جيدة ، وزيت نابلس مشهور بنقائه وصفائه ، كما تنتشر كروم العنب وبيارات التين في الأراضي المحيطة بنابلس ، علاوة على كل أصناف الفاكهة التي تنمو تحت أشعة الشمس ، والارتباط العاطفي للأهالي ببلدتهم جليٌ للغاية ، فهم يكنون لها الكثير من مشاعر الفخر ، ويبدو أنهم يؤمنون بأن ما من مكان يضاهيها في المعمورة بأسرها.

لدى عودتي إلى الفندق ، وجدت رجلا غريبا معمما جالسا بانتظار نائب القنصل ، قدم نفسه لي باسم الشيخ موسى ، وكان يلبس رداء فضفاضا ذا لون أخضر زيتوني ، أُحيطت حواشيه بالفرو الأسود ، فوق ثوب تحتي من الساتان المخطط بخطوط رمادية وأرجوانية ، يعلوه بليسيه من القماش الأحمر القاني. أبلغني بأنه سمع بأنني أستطيع أن أرسم وجوه الناس على الورق ، وأنني أستطيع رسمه إذا ما كنت راغبة بذلك ، شريطة أن أخبر القنصل في بيت المقدس بأنه لم يشترك في المشاكل التي وقعت مؤخرا ، فأجبته قائلة: رح أفرح إذا رسمتك ، بس كيف أحكي شي مش عارفته ، وكيف بقدر أعرف انك ما كنت مشترك بالمشاكل الأخيرة ؟ فأجاب: ما في مشكله ، ارسميني وخلي الخواجه فن يشوف وجهي ، وراح أعجبه ، ثم قبع جالسا لما يقرب الساعة حاملا مسبحته في يد ، وغليونه في يده الأخرى بصبر ومقدرة على الاحتمال ، ثم مضى في حال سبيله.

بعد مضي وقت قصير ، جاء الحاكم محمود بيك عبدالهادي برفقة أخي ، وقد وجه لي محمود بيك ، الذي كنت قد التقيت به عدة مرات من قبل ، كثيرا من الأسئلة حول زيارتي لأقاربه في عرابة ، وأريته الوجوه والمناظر التي رسمتها هناك. ثم دعاني لزيارة بيته الجديد قائلا بأن زوجاته عّبرن عن رغبتهن برؤيتي ، لكنه سرعان ما استطرد: إذا رسمتي وجوههن لازم توعديني انك مش راح تورجيها لأي واحد في هاي البلد ، بتقدري تورجيهم لصحابك وللملكة بانجلترا ، بس عيب انها وجوه نسواني تنكشف على زلام هاي البلاد وافقت وقطعت العهد

الذي طلبه ، فقال: ماشي الحال ، طالما أخذت وعدا انجليزيا ، تعالي عند المغرب ورح نستقبلك بالترحيب وأردف قائلا: مين حبيبتي أكتر؟ عرابة ولا صانور ؟ قلت: انبسطت كتير بعرابة ، ومشتاقة كتير لصاحباتي اللي فيها فقال لي: الحمدلله انها عرابة عجبتك.

ثم رحل بعيد ذلك ، وعند مغيب الشمس اصطحبني أخي إلى منزله ، حيث مشينا خلف قواسين اثنين وآخرين من حملة القناديل ، ولدى وصولنا ، أُخذنا إلى ساحة مكشوفة فسيحة الأرجاء ذات أرضية رخامية ، فخرج الحاكم للترحيب بنا ، وقام باصطحابي للديوان أو قاعة الاستقبال التي اجتمع عدد من السادة المسلمين فيها ، فنهضوا من على المقاعد المرتفعة للديوان ، التي انتشرت على ثلاثة من جدران الغرفة ، ولبثوا واقفين في أماكنهم إلى أن جلست أنا وأخي على المقاعد المخصصة لنا في صدر الديوان ، ووضع الحاكم وسادة مطّرزة لأجلي وجلس بجانبي ، ثم خاطب الرجال الواقفين قائلا: اتفضلوا وهي كلمة تحمل الكثير من الدلالات ترادف الكلمة الإيطالية favorisca والتي تعني في هذا المقام- خذوا مقاعدكم.

كانت الغرفة واسعة جدا ، ذات جدران بيضاء اكتست بزخرفة ذات إطارات جصّية من الأرابيسك الأزرق ، وكانت زخرفة وتصميم مشربياتها المقنطرة وبوابتها الضخمة على الطراز العربي ، ارتفعت أرضية الغرفة بضعة إنشات في أحد أركانها ، وغطيت بسجاجيد فاخرة ، وانتصب في وسطها شمعدان طويل مشعّب يسند سراجا مضيئًا بالزيت ، بينما وقفت مجموعة من الخدم بالانتظار في الجزء المنخفض من الغرفة ، كانوا عبارة عن الخدم وحملة القناديل المرافقين للضيوف ، وقام عبيد أحباش يرتدون ملابس ذات الوان زاهية بتقديم القهوة المفعمه بنكهة العنبر على الضيوف ، بينما قام خدم آخرون بحمل صوان فضية ملأى بالحلويات ، وأُحضرت لي أرجيلة غالية الثمن ، كان مبسمها مزينا بالألماس والياقوت.

كنت قد أملت أن أزور جناح الحريم وحسب ، وأخذتني الدهشة حين تم اقتيادي للجلوس في وسط هذه المجموعة ، ولم أجرؤ على المغامرة بسؤال محمود بيك وسط كل هذا العدد من الرجال عن زوجاته ، إذ لم يكن ذلك سلوكا لائقا ، كما أن أخي لم يكن ليبادر بالإشارة إلى سبب زيارتي مهما كانت الظروف ، وانتظرت بفارغ الصبر آملة مجيء مبعوث لمناداتي.

دار في تلك الأثناء نقاش ممتع حول التمدن وأسلوب العيش في البلدات والقرى وبيوت الشعر ، وأرانا مضيفنا المخططات الهندسية الخاصة بإكمال بناء بيته ، وطلب نصحيتي حول الديكورات الداخلية وغير ذلك من التفاصيل ، بدا جليا أنه يمتلك موهبة طبيعية في حسن الاختيار والذوق الرفيع فيما يتعلق بالإنشاءات المعمارية ، كما كان خبيرا في الحكم على جودة مواد البناء ، فقد أخبرني أن بمقدوره معرفة ما إذا كان الحجر سيعمر طويلا أم لا من خلال تذوقه ، وكثيرا ما كنت أرى العرب يتذوقون الحجارة المقصوصة حديثا برؤوس ألسنتهم ، وأعتقد أنهم بفعلهم هذا يتأكدوا من جودته. توجد محاجر ذات إنتاج عالي الجودة في فلسطين ، لكن الحجر المفضل لدى البناءين في العادة يكون من الحجارة المجلوبة من الخرائب وأطلال المباني القديمة ، التي صمدت في وجه اختبارات القرون المتعاقبة.

مرت أكثر من ساعة من دون أن أُستدعى لجناح الحريم ، فقلت لمحمود بلطف: جيت الليلة لأنك طلبت مني أجي ، فأجاب: كثير شرفتينا بزيارتك يا ستي ، وفرحت كتير بشوفتك ، واستفدت من كلامك ونصايحك ، هاد الليوان اللي ما دخلته حرمه من قبل ، على حسابك.

جاء مبعوث خاص من الباشا للبحث عن أخي ، فاستأذنا من محمود بيك ، الذي رافقنا حتى البوابة الخارجية مبديا آيات التبجيل ومرددا كلمات المديح والإطراء ، من دون أن يبذل أدنى جهد لإقناعي بالبقاء لرؤية حريمه ، أعتقد بأنه كان خائفا من قيامي بكشف أسرار بيته السجن ، أو لربما كان يرى بأن من الخطورة بمكان السماح برسم وجه أي من زوجاته ، كانت قد سرت إشاعات مفادها بأنه قد تزوج من فتاة آية في الجمال مؤخرا ، وبأن بيته يضم في جنباته جواري فاتنات وصغيرات في السن أُحضرن من إسطنبول. لكن حقيقة الأمر باعتقادي هي أنني أجبت عن أسئلته المتعددة حول الأيام التي أمضيتها في عرابة ، وجعلته يرى ، وبرعونة مني ، الرسم الذي أخذته لحلوة ، زوجة ابن عمه الجميلة صالح ، فصرت أتوخى الحذر في المناسبات المماثلة بعد هذه الحادثة. وقد كان هذا الحاكم ، محمود بيك ، رجلا كبيرا في السن ذا لحية رمادية كثة ، وكان مفعما بالنشاط والحيوية والجرأة ، وبدت عليه علامات الذكاء وبعد النظر والدهاء والفطنة ، لكنه بدا عنيدا ومستبدا كذلك ، كما كان زعيما لواحدة من أكثر الفصائل إثارة للمشاكل.

في صباح اليوم التالي حضر الشيخ موسى من أجل أن أضع الرتوش النهائية على صورته ، وحدثني قائلا: مجانين وأغبياء اللي بيفكروا انه روحهم بتطلع اذا حدا رسم صورتهم عالورق بالقلم ، بس عمل تماثيل وأصنام من الخشب أو نحت التصاوير عالحجار بيصيرش وأضاف ، هاي البلاد الجنون فيها فنون والجهل ضارب أطنابه فيها ، بس لازم نضل ساكتين ، لأنو اذا حكينا اللي في قلوبنا للمهابيل بيقولوا: (انتو المهابيل مش احنا ، احنا عقّال-انتو المهابيل اللي بتشكوا بعقولنا)· مشان هيك بيضل العقّال ساكتين وبيحكوش اللي بقلوبهم ، وبيدور المهابيل يتباهوا بهبلهم وجنانهم بهالدنيا ، هيك الله بدّو·

كان الطقس بعد الظهيرة مشمسا ومعتدلا ، وخصص أخي جزءاً من وقته لمرافقتي في جولة على الجياد ، برفقة أم زيلر وبعض العرب البروتستانت ، فخرجنا من البوابة الشرقية للبلدة ونزلنا إلى وادي نابلس متجهين نحو الجنوب الشرقي ، فكان جبل عيبال على يسارنا ، وجبل جرزيم ، الذي كنا نسير على مقربة منه ، على يميننا ، بدا عيبال مقفرا ووعرا ، لكن الأشجار والأعشاب انتشرت هنا وهناك فوق جرزيم ، وأشار عودة عزام إلى شجرة زيتون على مبعدة منا في أعلى الجبل قائلا: شجرة الزيتون العتيقة هديك ، هي أكبر شجرة زيتون في البلد كلها ، يا دوب أربع رجال طوال شابكين ايديهم مع بعض يقدروا يحوطوا جذعها كله

عبرنا العديد من الجداول المتعرجة وقنوات المياه التي حفرها الإنسان ، المنسابة لري البيارات وحقول المزروعات المنتشرة في الوادي ، وبعد مسير نصف ساعة تقريبا ، توقفنا وترجلنا بالقرب من عمود متهدم من الجرانيت طُمر نصفه بالتراب عند سفح جبل جرزيم ، كان على مقربة منه حفرة مملوءة بالقمامة والنفايات والتراب ، وقد أحاطت بها حجارة كبيرة مصقولة- كانت بئر يعقوب هنا فيما مضى ، هكذا لفت اخي انتباهي للبئر ثم أردف قائلا: جئنا اليوم إلى هنا لكي نريك عين الماء هذه ، إذ يجمع اليهود والسّمرة والمسيحيون والمسلمون جميعا على ربط اسم أبو الأباء يعقوب بهذه البقعة ، وتثير البئر اهتمام المسيحيين خصوصا إذ يستحضرون لقاء السيد المسيح بالمرأة السّامرية ، إذ كان المسيح متعباً بسبب رحلته من بيت المقدس ؛ فجلس ليستريح على حجر بقرب البئر ساعة الظهيرة ، بينما مضى تلاميذه للمدينة عبر الوادي ليبتاعوا طعاما ، وها نحن ذا ، جالسون

تحت ظلال جبل جرزيم ، حيث تكلمت المرأة مع السيد المسيح قائلة: ياسيدي ، أباءنا سجدوا فوق هذه الجبل ، وأنت تقول بأن في بيت المقدس الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه ، وبالقرب من هذا البئر ، نطق يسوع إجابته الشهيرة: الله روح ، والذين يسجدون له ، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا

كان خط الأفق يحدد التلال المحيطة عند التقائها بالسماء الصافية الزرقة ، وأُرشدت إلى القرية الكبيرة المسمّاة طلوزة ، والتي يفترض أنها تيرصة الحسنه العتيقة ، والواقعة في منتصف المسافة نحو قمة جبل جرزيم ، وكان من الصعوبة بمكان تمييز بيوتها عن كتل الصخور الهائلة والحجارة الضخمة المنتشرة على المنحدرات الوعرة ، وكانت كروم العنب وبيارات الزيتون تحيط بالقرية من كل جانب وتكاد تحدد معالمها وامتدادها أيضا.

كانت البساتين والبيارات المزروعة بالأشجار النضرة والنباتات اليانعه تغطي المنحدرات السفلية للجبال ، بينما انتشرت أشجار البلوط الدائمة الخضرة هنا وهناك ، واكتسى السهل والوادي بسنابل القمح والحنطة والبقول والعدس ، ونمت أزهار برية زاهية بين مفاصل الجدران الحجرية الواطئة التي بنيت لتحديد حدود الأراضي ، كنا في اليوم الخامس من آذار/ مارس وكان بمقدورنا القول: بقي شهران من الزمن لكي يحين وقت الحصاد ، ولا بد من أن الزمن كان الأيام الأولى من فصل الربيع حين رأى السيد المسيح هذه الأرض وقال لتلامذته: أشخصوا بأبصاركم وانظروا إلى الحقول ، كانت كلماته ذات دلالة مجازية ، لكن هذه الحقول بعينها هي التي استخدمها في استعارته المجازية.

ولما كان بعد البئر لا يزيد على نصف ساعة سيرا على الأقدام عن البلدة ، فلا بد أنها كانت إحدى البقاع المفضلة لبني إسرائيل (بني يعقوب-المترجم)، منذ ان منحهم إياها أبوهم يعقوب بعد أن شرب منها بنفسه وأبناؤه ومواشيه.

وعندما قالت المرأة السامرية للسيد المسيح: هذه البئر عميقة يا سيدي كانت تنطق بالحق ، فقد كانت عبارة عن حفرة أسطوانية داخل صخور صلبة ، وعندما أُخذت مقاساتها قبل بضع سنوات ، تبين أن عمقها يبلغ خمسة وسبعين قدما ، ومع ذلك ، فلم يتم الوصول إلى قرارها بسبب تراكم الطين والأوحال في القاع. تدلى يعقوب الشلبي داخل هذه البئر عندما كان

فتى يافعا ، وقد سمعته يروي قصة نزوله للبئر في العديد من المناسبات ، وقد نشرت مقتطفات من تجربته هذه في كتابه المعنون: ملاحظات حول السّمرة المعاصرين ، مع أمثلة توضيحية من حياة يعقوب الشلبي ، نقلها عنه وقام بترجمتها السيد إي تي روجرز- شقيقي. وسأورد الحكاية التي توثّق الظروف المحيطة بنزوله ، إذ لا أعتقد بأن أياً من الذين على قيد الحياة الآن قد سبق ونزل في أعماق هذه البئر باستثناء يعقوب الشلبي ، الذي كان في الثانية عشرة من عمره في ذلك الوقت.

في العام 1841 ، قدم إلى نابلس رجل اسكتلندي يدعى الدكتور ويلسون ، وأجرى تحريات مكثفة حول بئر يعقوب ، وعندما تمكن من تحديد مكان البئر استأجر عشرة من الرجال الأشداء وأنا من أجل الذهاب بمعيته إلى هناك ، وقام بشراء أربعة حبال متينة تستخدم لعقل الجمال لدى مرورنا بالبازار ، ولم أكن قادرا على إدراك السر الكامن وراء كل هذه التحضيرات ، ولكني سرعان ما علمت السبب لدى وصولنا إلى فتحة البئر ، إذ اتضح ان أحد المبشرين الأسكتلنديين (33) كان قد أسقط كتابه المقدس داخل البئر ، وبأن الدكتور ويلسون توّاق جدا لاستعادته الآن ، وسرعان ما شرع الرجال بإزالة الحجارة والصخور الضخمة التي كانت تسد فتحة البئر ، وتم اختياري أنا ، كوني أخفهم وزنا ، لأن يتم إنزالي من أجل البحث عن الكتاب.

كنت خائفا جدا في البداية ، ومع ذلك فقد وافقت بفعل بعض كلمات التشجيع والمكافأت المالية ، وبالوعد الذي قطعه الدكتور ويلسون بأن يأخذني إلى إنجلترا ، فربطوا الحبل بعدئذ حول خاصرتي ، وتدليت متأرجحا للأسفل ، من دون وسيلة أثبت بها نفسي- حتى أحسست بالغثيان وبالدوار بفعل قذارة الهواء العابقة في البئر ، وكانت الحبال الأربعة المعدة للجمال قد ربطت ببعضها البعض ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم أكن قد بلغت قاع البئر بعد ، فما كان من الرجال بالأعلى إلا أن ربطوا أقمشة العمامتين التي كان اثنان من السّمرة المرافقين لنا يعتمرانها على رأسيهما ، بالحبال الأربعة المتصلة ، فتمكنت بفضل ذلك من النزول بسلام إلى قاع البئر الذي كان موحلا ، لكنه خلا من المياه التي يندر وجودها في هذا الوقت من العام ، إذ امتاز فصل الربيع الحالي بالجفاف ، وكان الدكتور ويلسون قد أعطاني

شمعتين بيضاوتين وعلبة صغيرة من عيدان الثقاب من أجل إيقاد الشمعتين ، كان هذا أول عهد نابلس بأعواد الثقاب التي التي كانت تسمى بعيدان الشيطان ، لقد اعترتني دهشة شديدة لدى رؤية الدكتور ويلسون يستخدم عودا منها في الهواء الطلق في الأعلى ، لكن هنا الآن في غياهب الجب في الأسفل ، وعندما قدحت نهاية أحد العيدان بالسطح الخشن لأحد جوانب علبة الثقاب ، ذُهلت بالفرقعة والاشتعال ، وحدثتني نفسي بأن لا أستخدم أي عود منها ، وأن احتفظ بعلبة الثقاب في جيبي ، موقنا بأن هذه العلبة لوحدها ستشكل تعويضا عادلا عن العناء الذي كابدته بالنزول إلى قرار الجب. تلقيت أوامر بأن أحرك الحجارة من الجهة الشرقية ، وأن أضعها في جهة الغرب ، وأن أعيدها إلى أمكنتها الأصلية بعد ذلك ، ومن ثم أحرك حجارة الجهة الغربية وأنقلها للجهة الشرقية ، خلال قيامي بذلك ، عثرت على كتاب قذر صغير ، بمقاسات تبلغ أربعة انشات في ستة إنشات وبسمك ثلاثة أرباع الإنش ، وكان الدكتور ويلسون قد صرخ مرارا من فوهة البئر: هل عثرت عليه ؟ وكان الجواب عينه يتكرر في كل مرة: لا ، لكنني الآن لم أعد أعرف بماذا أجيب ، وطفقت أحدث نفسي: ربما لا يكون هذا هو الكتاب المنشود الذي أنفق في سبيل العثور عليه الكثير من المال والجهد ، ومن المحتمل أن يكون كذلك ، لو كان كتاب سحر يستعان به للعثور على الكنوز الدفينة عندما أيقن الدكتور أنني قد عثرت على شيء ما ، طلب رفعي للأعلى ورحب بي وبكنزي الذي انتابتني مشاعر بالعار لتسليمي إياه ، إلأ أن سعادته كانت غامرة ، وربت على كتفي ، ودفع بسخاء لجميع الرجال بمن فيهم أنا.

ثم قام بلف الكتاب المقدس في منديل ووضعه بحرص في الجيب الداخلي لسترته ، ومن الدارج الاعتقاد الآن بأنه كان كتاب سحر وعرافة ، كما خطر بمخيلتي وأنا في قاع الجب.

وبعد إمضاء بعض الوقت قريبا من البئر ، امتطينا خيولنا وعبرنا الحقول باتجاه وسط الفتحة المؤدية للوادي ، حيث ترجلنا قريبا من قطعة أرض مربعة الشكل شمال البئر ، تحيط بها جدران حجرية مرتفعة وقد غطيت بالجص الأبيض اللون ، ودخلنا واحدا تلو الآخر عبر فتحة ضيقة ، ثم وقفنا داخل الأسوار حيث انتصب ضريح فج البنيان في الوسط ، بارتفاع ثلاثة أقدام وطول ستة أقدام تقريبا ، حيث ينتهي سطحه بنتوء مدبب غير متقن

البنيان ، وعند رأس الضريح وأسفله ، ارتفعت بلاطة حجرية عن الأرض بارتفاع الضريح نفسه تقريبا. احتوت الجدران على العديد من الكّوات المخصصة للقناديل الصغيرة التي يتم إشعالها في مناسبات معينة ، ومن قبل المؤمنين في مناسبات أخرى ، وتكاد الجدران تكون مغطاة بكتابات باللغة العبرية والسامرية والعربية ، حتى إن بعض هذه الكتابات المحفورة بعمق في الجدران ، تبدو وكأن عمرها ينوف على المئتي عام ، كما ترك الرحالة الأوروبيون المعاصرون أسماءهم هنا أيضا.

هذا ما يفترض به أن يكون قبر يوسف ، وتفيد الروايات التاريخية بأنه ، بينما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة على فراش الموت ، أخذ من أبنائه عهدا بأن يحملوه لكي يوارى الثرى في الأرض التي أعطيت لإبراهيم وذريته إلى أبد الآبدين ، فقاموا بتنحيطه لدى وفاته ووضعوه في نعش في مصر ، كما ذكر أيضا بأن: رفات يوسف التي أخرجها بنو إسرائيل من مصر ، دفنوها في شكيم (الأسم القديم لنابلس- المترجم) في قطعة أرض كان يعقوب قد اشتراها من أبناء حمور ، والد شكيم ، مقابل مائة من الفضة ، وبذا أصبحت إرثا لأبناء يوسف ، وقد تسلقت دوالي العنب على الحائط الشمالي ، فقطفت بعضا من أوراقها الطرية ، بينما نمت أزهار القرنفل البري الأبيض والأحمر حول الضريح.

ثم سرنا بخيولنا صوب نابلس عبر الوادي ، كانت الغيوم تتجمع فوق البحر باتجاه الغرب ، وقد انعكس عليها اللون الذهبي لأشعة الشمس الآفلة للغروب ، وانتصب برج صغير على جبل جرزيم لتحديد موقع الاحتفال بعيد الفصح والمكان الذي تُنحر فيه خراف العيد ، وعندما عبرنا البلدة شاهدنا مجموعة من الصبية المسلمين يلعبون الهوكي ، أو لعبة شبيهة بها ، على ملعب مستو وفسيح أقيم على قطعة أرض بالقرب من البوابة الشرقية للبلدة. عند توقفنا لرؤية اللاعبين المهرة ، تعالت الصرخات والأصوات وصيحات القتال من داخل أسوار البلدة ، فسارعنا للدخول للبلدة ، فتبين لنا بأن حالة من الهياج قد انتابت المسلمين القاطنين في أحد أحياء البلدة ، فاستفسرنا عن السبب وراء ذلك ، فأفادنا رجل مسلم بأن أخباراً تواردت عن قيام سكان القرى المحيطة بحمل السلاح والاستعداد للانقضاض على نابلس. وتبين لنا لاحقا بأن هذه الرواية قد تم اختلاقها لتضليلنا ، وأن السبب الحقيقي وراء

الاضطرابات هو خبر مفاده أن مسيحيا من المحتمل أن يكون قد قتل أو جرح أو أهان أحد المسلمين.

ومن حسن الطالع فقد تم نفي هذه الأنباء قبل ارتكاب أية فظائع أو حماقات ، لكن الصرخات المرتفعة والغاضبة للرجال وحتى النساء الذين ملأوا الشوارع ، أقنعتني وللمرة الأولى بالوضع الخطير الذي قد يجد المسيحيون أنفسهم فيه إذا ما ثارت الثائرة الطائفية والحمية الدينية لدى أبناء الطبقة الدنيا من المسلمين. شققنا طريقنا دون أية مصاعب بين الحشود الغفيرة ، دون أن يراودنا أدنى شك بأن موضوع النقاش كان ارتكاب مذبحة شاملة للمسيحيين. لم ندرك حقيقة الموقف قبل وصولنا للفندق بعد أن نزع فتيل الأزمة ، عندما تبين أن مسيحيا وليس مسلما ، هو الذي أصيب بجروح في واقع الأمر. وكان من الجلي أن المشاعر المستفزة ، والغضب الجامح ، الحقيقية منها والمفتعلة ، كان من الممكن أن تؤدي إلى حمام دم في أية لحظة ، ومع ذلك فلم تنتابنا لا أنا ولا شقيقي أية مشاعر خوف ، فقد كنت أشعر أننا بأمان تام دون أن أعرف السبب وراء مثل ذلك الشعور. وأمضينا المساء بصحبة مجموعة من السادة المسلمين ، وكان من الواضح ، وإن لم يتم الاعتراف بذلك صراحة ، بأنهم كانوا يبذلون ما بوسعهم لإزالة أية انطباعات سلبية يحتمل أن تكون قد تكونت لدي عند مشاهدتي للاضطرابات التي اندلعت في ساعة الغروب.

في صبيحة اليوم التالي السادس من آذار/مارس قمنا بزيارة ميخائيل قعوار ، الواعظ البروتستانتي من أبناء البلاد الأصليين ، وكان من ضمن الحضور أخوه الذي يشغل منصب وكيل القنصل البروسي ووالدهم سمعان قعوار ، بالإضافة إلى مجموعة من أصدقائهم. استقبلونا في غرفة عقد صغيرة ولكنها أنيقة ، كانت تضم ديوانا واطئا تعلوه السجاجيد والأرائك التي توزعت على ثلاثة من جدرانها ، بينما احتوى طبق كبير ولكن غير عميق ، وضع على منصب واطئ في وسط الغرفة على الأرض المغطاة بالحصائر ، على أكثر من مئتي زهرة من أزهار البنفسج اليانعة والمقطوفة حديثا ، التي فاحت رائحتها الزكية في الغرفة. عبرت عن إعجابي بهذه الأزهار لسمعان ، فقال لي: رح اجيبلك ورده أحلى وأروع منها فغاب لبعض الوقت ثم عاد بصحبة حفيدته الصغيرة زهرة ، والتي يعني اسمها وردة ، حيث حملها

بحنان بين ذراعيه ، كانت طفلة جميلة جدا في الرابعة من عمرها تقريبا ، ولكنها جدية وهادئة كامرأة بالغة ، كانت تضع أساور زجاجية بلون الياقوت على معصميها يبدو انها ارتدتها قبل عدة أشهر ، بحيث صارت الآن صغيرة جدا على أن تمر عبر يديها الممتلئتين الصغيرتين.

وعادة ما يكون من الضرورة كسر هذه الأساور الزجاجية بحذر لأجل نزعها عن أيدي الأطفال الصغار ، إذ إنها حلقات بسيطة بألوان متعددة لا تكون في العادة مزودة بإبزيم خاص بها.

سألت زهره عن المكان الذي تنبت فيه أزهار البنفسج فقالت: فوق الأرض تحت أشجار الليمون مشان الستات ، وبتيجي هلأ بس ، مش موجوده على طول

فقلت: ايش بتساوي الستات بالبنفسج ؟ فأجابت: بيحطوها على نقاباتهم وبنبسطوا مشان ريحتها الزاكيه ، وبادرني أحد الضيوف قائلا: البنت ما بتعرف انه هاي الوردات بتتنشف في الشمس وبتنغلى زي الشاي مشان يشربوها الناس اللي عندهم حمى

وبينما كنا نهم بمغادرة المنزل ، قال لنا أحد الرجال: تعالوا إلى البستان حيث يزهر البنفسج فتبعناه ودخلنا إلى بستان فسيح كانت أشجار البرتقال والأترج والليمون والسفرجل تلقي بظلالها الوارفة على الأرض ، بينما أزهرت براعم أشجار التفاح واللوز ، وكانت أرض البستان مغطاة بالكامل بالأوراق الخضراء لأزهار البنفسج الشبيهة بشكل القلب ، والمتوجة بأزهارها الزرقاء ، وكنت أرى مثل أزهار البنفسج هذه في براري بلادنا تنمو مع بعضها البعض في شتلات لطيفة أو وقد نمت أسفل الأشجار العتيقة ، لكنني لم أر أزهار بنفسج بالكثرة والكثافة التي رأيتها فيهما في هذا البستان النابلسي ، إذ لم يكن بمقدورنا أن نخطو خطوة واحدة دون أن ندوس على الأوراق الطرية واليانعة تحت أقدامنا ، ثم أُخذنا إلى وسط البستان حيث أقيمت بركة ماء كبيرة أُحيطت بدرابزين منخفض ، وقد كان في الجهة الجنوبية منها غرفة عقد بنيت من الحجر ، مع بوابة ذات قنطرة عريضة على مسافة قريبة جدا من البركة ، حيث فرشت السجاجيد ووضعت الوسائد لأجلنا هناك ، ثم دارت الغلايين وفناجين القهوة والشربات وأُحضرت لنا الفاكهة والورود.

هذه هي التسلية الشرقية المثالية في فترة العصاري ؛ أرجيلة مهدئة للأعصاب على دكّة تحت

قنطرة ظليلة ، على مقربة من نافورة ماء أو جدول تنساب فيه المياه الرقراقة في وسط بيارة فواكه تكتسي أرضها بأزهار البنفسج خلال فصل الربيع ، بينما تكتسي بأزهار دائمة البياض خلال فصلي الصيف والخريف ، وتشكل ضروب المسرات والملذات هذه الموضوعات الأساسية في العديد من أغاني وقصائد العرب الحديثة.

قطعنا البلدة من أقصاها إلى أقصاها قبيل مغيب الشمس ، واتجهنا إلى منزل داوود طنوس ، وهو الشخصية البارزة بين أبناء الطائفة البروتستانتية في نابلس ، حيث دعينا لطعام العشاء ، فارتقينا درجا حجريا مكشوفا ومتعرجا إلى ساحة ذات أرضية غير مستوية ، تطل عليها العديد من الغرف بالإضافة إلى مطبخ كانت خادمات وسيدة المنزل منشغلات بالعمل فيه ، تفوح منه رائحة التوابل الشرقية اللذيذة ، كن واقفات في الباب المشرع على مصراعيه وهن يخفين وجوههن بأيديهن وينظرن بخجل إلينا بينما كنا نهم بالدخول إلى غرفة الضيوف ، وكانت جرار الماء الفخارية الكبيرة التي كُسرت ووضعت رأسا على عقب على جانبي درجات المدخل ، قد زُرعت فيها الأزهار وورود القرنفل التي كانت في أوج إزهارها وتفتحها. كانت مساحة الغرفة كبيرة وإن لم يكن فرشها وأثاثها باذخا ، إذ كانت قد فرشت بديوان مرتفع على ثلاثة جوانب منها ، وغطيت أرائكه بقماش مصنوع في مانشستر ، بينما كان سرير تعلوه ناموسية في الجانب الرابع من الغرفة ، وقد اجتمع فيها خمسة عشر رجلا من الأصدقاء النوابلسة للقائنا ، كان من بينهم السيد أم زيللر ، لكن لم يكن في الغرفة أية سيدة.

وبينما كنا جالسين في الديوان ، حدثني أحد الرجال قائلا بإنجليزية ركيكة: لقد أضحت صداقتك بأخيك القنصل مضرب المثل في هذه المدينة فقلت: وكيف ذلك ؟ فشرح لي قائلا : سمعت ضوضاء ناتجة عن أناس يتجادلون ويصرخون بالقرب من بيتي اليوم ، فنهضت واتجهت إلى باب بيتي وكان رجل يدعى يوسف مارا بالقرب من بابي فسألته: ماذا كان السبب وراء تلك الجلبة ؟ فقال: مجرد سيدتين تتقاتلان ، لكنهما تصالحتا الآن وأقسمت كل منهما للأخرى أن تستمر صداقتهما بمستوى صداقة القنصل الإنجليزي بشقيقته! فقلت: هل أفهم من ذلك أن الصداقة القوية بين الأخت وأخيها هي أمر شاذ في هذه البلاد ؟

فأجاب ضيف آخر ، تبدو عليه علامات الذكاء والحصافة ، وبعد أن ترجمت كلماتي له بالعربية: لقد أصيب الناس في هذه البلد بدهشة طبيعية عندما رأوا كيف ترتحلين وتسافرين مع القنصل ، وكيف تشاركينه مغامراته وتتعرضين للأخطار التي قد يتعرض لها هو ، وبأنك مرافقة حقيقية وفعلية له ، فهذا شيء غير مفهوم في هذه الأنحاء ، حيث تتباين مستويات التعليم بشكل كبير بين الرجال والنساء ، وحيث يندر أن يرى الإخوة والأخوات بعضهم بعد بلوغهم سن الحلم ، إلا عندما يتوفى الأب ، حيث يتولى الأخ البكر مسؤولية أمه الأرملة وإخوانه وأخواته ، لكن الأخوات يتزوجن في سن مبكرة ، وبالتالي تسقط ولايته عنهن ، تتحدث نسائنا فيما بينهن بدهشة بالغة عن قيامك بهجر موطنك وبلادك للسفر مع القنصل ، بينما ما زال أبواك على قيد الحياة ، وهو ما جعلهن يستنتجن بأنك ترتبطين بصداقة وطيدة مع أخيك

ثم تحدث رجل ثالث فقال: كلامك صحيح ، ولكن ليكن معلوما أيضا لدى أختنا الإنجليزية بأن نساءنا وبناتنا يفرحن كثيرا عندما يكون لديهن الكثير من الإخوة ، كما أنهن يشعرن بالفخر والسعادة البالغة حين يسمعن صديقاتهن يقلن لهن: نيالك ، يا أخت السبعة ، ان شالله يتزوجوا عن قريب ، وتعيشي لتشوفي ولاد ولادهم كما يقال أيضا بأن المرأة في بعض الأحيان تعتبر أن حياة أخيها أكثر أهمية وقيمة من حياتها هي ، أو حياة زوجها أو حتى ابنها.

عندما كان ابراهيم باشا ، ابن محمد علي ، حاكما لفلسطين ، أرسل جنوده إلى البلدات والقرى كافة لتجميع الرجال من أجل بناء جيش جرار ، ثم جاءت امرأة من صفورية إلى عكا سعيا للقاء إبراهيم باشا ، فدخلت عليه وانحنت أمامه وقالت: يا سيدي ، انظر بعين العطف إلى خادمتك واسمع رجائي ، قبل زمن قصير كان في بيتي ثلاثة رجال ؛ زوجي وأخي وابني البكر ، لكن الآن ، انظر ، تم اقتيادهم جميعا لأداء الخدمة العسكرية في جيشك ، وتركت أنا وصغاري من دون رجل يرعانا ويحمينا ، أتوسل إليك ان تمنح الحرية لواحد من هؤلاء الرجال لكي يبقى معنا في بيتنا.

فرّق قلب إبراهيم لها وخاطبها: يا امرأة ، هل تطلبين زوجك أم ابنك أم شقيقك ؟

فقالت له: اعطني أخي يا سيدي ، فقال لها: كيف يكون ذلك يا امرأة ، هل تفضلين أخا على

زوج أو ابن ؟

فأجابته المرأة التي كانت مشهورة بفصاحتها وسرعة بديهتها ، وجاء جوابها على شكل أبيات زجل ارتجلتها في الحال:

اذا كانت ارادة الله انو زوجي يموت في جيشك ،

فبعدني مرة ، والله يمكن يكتبي لي زوج جديد ،

واذا مات ابني البكر في الحرب ،

بيضل عندي اولادي الصغار اللي آخرتهم يكبروا ان الله راد ويصيروا متلو

بس اذا انقتل اخوي الوحيد يا سيدي ،

بيكونش الي دوا لأن ابوي مات وأمي ختيارة

ومنين بدي ساعتها أجيب أخ جديد ؟

فَسُر ابراهيم كثيرا بكلام المرأة وقل لها: يا امرأة ، أخوكي محظوظ بك ، لأنه سينال حريته بفضل كلماتك ، وسيحصل زوجك وابنك على حريتهما أيضا. وعندها لم تعد المرأة قادرة على الكلام بسبب فرحتها وسرورها ، قال لها إبراهيم: اذهبي في أمان الله ، ولكن أياك أن تخبري أحدا بأنك تحدثت معي في هذا اليوم

ثم نهضت وعادت إلى قريتها ، واثقة بوعد الباشا ، وبعد ثلاثة أيام عاد لها زوجها وابنها وأخوها قائلين لها: لقد سُرحنا من الخدمة العسكرية ، بأمر من الباشا ، لكن الأمر غامض بالنسبة لنا ، وأصيب الجيران بدهشة كبيرة ، لكن المرأة حافظت على صمتها ولم تنتشر هذه الحكاية إلا بعد أن خرج إبراهيم باشا من عكا بعد سقوط الحكم المصري في بلاد الشام في العام 1840.

ورويت العديد من الحكايات المماثلة بينما كان العشاء قيد التحضير ، أُدخل سدر (صينية) كبير ووضع على طبلية ترتفع حوالي ستة إنشات عن الأرض المغطاه بالحصائر ، في مركز الغرفة ، قام قوّاسنا والخدم ومرافقو الضيوف الآخرين بأداء دور النوادل ، وكانوا يذرعون الساحة جيئة وذهابا بين باب المطبخ وسِدر الطعام الذي سرعان ما امتلأ بأكوام من الأرز

الأصفر الذي تصاعد منه البخار ، ومن سيقان الطيور وقطع اللحم التي كانت تعلوه ، ووضعت زبدية خشبية كبيرة تحتوي على أرز مخلوط باللحم المفروم والزبيب والصنوبر والسمنة في مركز السدر ، وقد أحاطت بها أطباق ملأى بالخضراوات.

بعد أن سكب الماء على أيدينا تجمعنا حول السدر وأخذنا أماكننا بالطريقة المعمول بها في الشرق جلوسا على الأرض ، وفُردت منشفة من القماش الدمشقي بطول حوالي عشرة ياردات وعرض نصف الياردة تقريبا ، حول السدر أمام الضيوف ، بحيث استخدمها كل منهم لتغطية ركبتيه ، وتلاقت نهاياتها المهدبتان والمطرزتان بمكان جلوسي بين مضيفنا داوود طنّوس وشقيقي ، ثم وُزعت أرغفة الخبز الدائرية المستوية وتناولنا الطعام بأسلوب بدائي ، إذ خلت المائدة من الأشواك أو الملاعق أو السكاكين ، وسرعان ما تكونت فجوات عميقة في كوم الأرز ، وارتفعت الأطباق الفارغة تدريجيا وحلّت محلها أطباق أخرى تحتوي على المهلبية والقشدة والحلوى المعمولة من المشمش والمربيات.

غادرنا المائدة بعد ذلك واحدا تلو الآخر ، وقمنا بغسل أيدينا حسب العادات المرعية بانتظام ، وعندما خلدنا للراحة في الديوان ، دارت الغلايين وفناجين القهوة وأنيرت القناديل ، وأخرجت المنضدة إلى الساحة الخارجية ، وبعد أن أضيفت زبديتان أو ثلاث من الأرز للأطباق التي تبقت وراءنا ، تجمع المرافقان وخدم البيت حول المائدة وتناولوا وجبتهم المسائية مستنيرين بأنوار القنديل ، في مشهد شبيه بلوحة من لوحات رامبرانت.

اتجهت للغرفة المجاورة لبضع دقائق للقاء سيدات المنزل والجارات اللواتي كنّ بمعيتهن ، فاستقبلنني بحفاوة بالغة وقليل من الخجل ، وبادرتني إحداهن قائلة: ان شالله يكون أكلنا عجبك ، ما في عنا شي من قيمتك ، احنا ناس على الله ومش قدرتنا نقوم بواجبك فقلت: انبسطت كثير بشغل ايديكم ، بس كنت رح أنبسط اكثر لو أكلتوا معانا يا خواتي ، بدا أنهّن سعدن بالفكرة وتوردت وجنات بعضهن خجلا وضحكن ملء أفواههن ، ثم قالت إحدى السيدات الكبيرات بالسن بنبرة جادة: مش من عاداتنا ناكل مع الرجال يا بنيتي ، هاي عيبة بحقنا ، وصاحت صبية يافعة: يا ستي ، رح نغصُّ بالخبز واللحم لو أكلنا بين الرجال ، ثم استأذنت من هولاء النسوة وقفلت عائدة إلى الديوان ، وانفض جمع المدعوين في حوالي

الساعة الثامنة ، إذ لا تمتد دعوات العشاء عند المشرقيين لوقت متأخر.

قدم لنا داوود طنّوس باقة من أجمل الأزهار وورود القرنفل ، وسرنا عائدين لبيتنا عبر الطرقات الضيقة بمعية حاملي القناديل ومجموعة من الأصدقاء.

و في تلك الأثناء كانت التحضيرات جارية من أجل سفري لبيت المقدس ، وكان القنصل ، السيد فن قد أرسل مترجم اللغة العبرية الخاص به ، وكبير القوّاسين العاملين في خدمته خصيصا لمرافقتي في الرحلة ، لكي يتمكن شقيقي من اللحاق بكامل باشا دون أن يقلق علي ، فقد كان من المتوقع أن يقوم الباشا بجولة تفقدية على جميع القرى المنتفضة وقد يحاصر بعض منها ، وفي تلك الحالة سيضطر للتغيب عن نابلس لعدة أيام ، وفي ظل هذه المعطيات ، لم يكن لدي خيار آخر وشرعت على الفور بالاستعداد للسفر في صبيحة اليوم التالي.

و استمر الأصدقاء والضيوف بالتوافد إلى بيتنا لوداعي حتى ساعة متأخرة ، متمنين لي رحلة آمنة وخالية من الصعاب ، وكان المسلمون أكثرهم دهشة من أنني أجرؤ على السفر في مثل هذه الرحلة البعيدة من دون شقيقي ، وكانوا يقولون لي: عسى أن يهديكي الله سواء السبيل على هذه الأرض.

الفصل الحادي عشر

نهضت من فراشي مبكرة في صبيحة اليوم التالي ، والذي كان يوم الجمعة الموافق السابع من آذار/ مارس ، انتابتني مشاعر ضيق وغم غير اعتيادية ، فقد كنت كمن عليه أداء عمل شاق أو التصدي لمشكلة عصية في ذلك اليوم ، وما إن ألقيت بصري على الحقائب المعدّة للسفر وملابس الركوب الخاصة بي بالقرب من سريري ، حتى استرجعت على الفور خطط سفري إلى بيت المقدس- وهي رحلة تستغرق حوالي ثلاث عشرة ساعة ، يتم قطعها على مرحلتين في العادة ، لكنني كنت قد عقدت العزم على إكمالها من دون توقف ، لعدم وجود محطات مناسبة للراحة على الطريق ، ولا أية قرية تصلح لأن أبحث فيها على مأوى مناسب لقضاء الليلة فيها ما لم يكن أخي برفقتي ، اللهم إلا عند اضطراري لذلك في حالات الضرورة القصوى.

وما إن نهضت حتى زالت مخاوفي ومشاعر الضيق التي كانت قد انتابتني عند استيقاظي ، ثم جاء محمد ، سائس خيلنا الوفي ، وقرع الباب طالبا الإذن بأخذ حقائبي ، وبادرني بالقول: ريحي بالك يا ستي ، ان شالله يكون نهارك أبيض ، أما قوّاس عوده عزام ، والذي كان واقفا بقرب الباب فقد قال: إذا كان النهار اسود لستّي ، فراح يكون بالتأكيد أسود لكثير من الناس

تناولت الفطور في ساعة مبكرة ، ولكن الخيل والرجال لم يجهزوا قبل الثامنة والنصف ، ومن ثم وبعد أن استأذنت مضيفتي الحلوة الشمائل ، امتطيت صهوة حصاني وعبرت طرقات نابلس بمعية بعض الأصدقاء ، الذين قرروا مرافقتي لمسافة قصيرة قبل شروعي برحلتي ، وكان الكاهن عمران ، السامري ، يسير بجانبي واضعا يده على رقبة حصاني وهو يقول: عيد الفصح بُكره ، بس انتي مش رح تيجي معنا عالجبل ، وهاد راح يزعلنا ، لأننا فرحنا بس عرفنا انك رح تضلي معانا ، وشوفي هلأ كيف راحت فرحتنا لأنك مسافره

فأخبرته كم يعزّ عليّ فراق نابلس بهذه السرعة ، وقام هو بتلاوة صلاة لأجلي ومضى في سبيله.

كان بمعيتنا رجل مسيحي من طائفة الروم الكاثوليك ، ويبدو أنه كان يستمع لحواري مع

الكاهن عمران ، فبادرني قائلا: لازم تفرحي يا ستّي لأنك رح تعيّدي الفصح بالقدس ، ورح تصلي في كنيسة قيامة السيد المسيح ، هاد أحسنلك من انك تعيّدي عالجبل مع السمره ، اللي بيحطوا الدم عجبينهم وما بيآمنوا بسيدنا يسوع وستّنا العدرا ذكرني كلامه هذا بالكلمات التي قالها السيد المسيح للمرأة السامرية: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة ، لا في هذا الجبل ولا في أورشليم ، تسجدون للأب الله روح ، والذين يسجدون له ، فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا .

انهمر المطر طوال الليل ، ولمعت بيوت نابلس الحجرية ، والسلاسل المبنية من الحجارة البيضاء المحيطة ببيارات الفاكهة على سفوح التلال ، والبلاطات الصخرية الملساء المنتشرة بالجرود ، كالمرايا تحت أشعة الشمس ، أما العشب والأزهار البرية وأشجار الفواكه وحقول القمح والحنطة الرحيبة ، فكانت لم تزل مبتلة بفعل الأمطار التي هطلت مؤخرا ، وقد زهت بلونها الأخضر في الظلال التي كانت تشكلها السُّحُب التي عبرت السماء سريعا.

سلكنا الدرب العلوي فوق قمة جرزيم والذي يمتاز بوعورته وطبيعته الصخرية ، وباكتسائه بنباتات أذن الفأر والخبيزة والبقوليات التي أضفت عليه تألقا وإشراقا إضافيا ، كنا نلتقي خلال مسيرنا بأعداد من الجند ومجموعات كبيرة من الفرسان ، إذ شهدت حركة المرور عبر الطرق المؤدية إلى نابلس ازديادا ملحوظا في تلك الفترة ، بسبب تواجد كامل باشا وجنوده في البلدة ، وكانت الطريق السفلية الواقعة في وسط السهل تقريبا ، والتي تمر بالقرب من بئر يعقوب ، تّعجُّ بمجموعات من الفلاحين وقوافل من الجمال والحمير المحملة بالحطب ، والنسوة اللاتي كن يحملن آنية ملأى بالقشطة أو الحليب. قيل لي بأن من غير المعتاد أن يكون مشهد السهل مفعما بمثل هذه الحيوية في مثل هذا الوقت من السنة ، إذ عادة ما يكون اكثر أكتظاظا بالناس أثناء موسم الحصاد.

مررنا بقريتين صغيرتين كان سكانها الشبيهون بالخارجين عن القانون يخرجون من بيوتهم لمشاهدتنا خلال مرورنا ، وأطفالهم يصيحون كجوقة من المغنين ، وكلابهم تنبح بضراوة وشراسة. وبعد الساعة ونصف الساعة ، وصلنا إلى حوارة ، والتي تعتبر القرية الثالثة الواقعة على الطريق من نابلس ، وهي قرية كبيرة تبدو عليها علامات المنعة والقوة ، على الرغم من

أنها لم تكن مسوّرة ، وتبدو منازلها وكأنها قلاع صغيرة ، بينما كانت أشجار الزيتون والبيارات المحيطة بها في أوج تألقها وإزهارها.

تلتقي الطريقان العلوية والسفلية بالقرب من هذه البقعة ، حيث توقفنا هناك لتوديع أخي وأصدقائنا النابلسيين الذين قفلوا عائدين للبلدة عبر الطريق السفلية التي تقطع السهل ، بينما تابعت طريقنا أنا وموكبي الصغير المؤلف من ثلاثة أفراد.

كبير قوّاسي السيد فن كان رجلا مسلما حاذقا ومفعما بالحيوية ، هو الذي تولى قيادة الركب ، وكان يرتدي سترة قماشية قرمزية طرزت أهدابها بخيوط ذهبية ، اضافة إلى سروال قطني أبيض وطربوش أحمر ، وكان يتمنطق بسيف وطبنجة ويمتطي صهوة جواد أسود أصيل ، كان فخورا به للغاية.

أما محمد ، سائس خيلنا المصري الوفي ، الذي كان مسؤولا عن المتاع والحقائب ، فقد كان يرتدي قفطانا قماشيا مزودا بقلنسوة من مصنوعات حلب ، وقد زُين بخيوط سوداء عريضة طُرزت بأناقة ، وكان يمتطي حماره الصغير الذي لا يعرف الكلل.

اما ثالثنا فقد كان سيمون روزنتال المترجم اليهودي في القنصلية البريطانية في بيت المقدس ، المولود في بوخارست لوالدين يهوديين ، إلا أنه اعتنق المسيحية فيما بعد ، وهو يقيم في بيت المقدس منذ ثلاثين سنة تقريبا ، ويتحدث الإنجليزية بطلاقة متناهية ، وإن كان يطعّمها بمصطلحات شرقية ، وفي واقع الأمر ، فإن كل جملة يفوه بها تقريبا تبدو وكأنها مأخوذة من الكتاب المقدس ، كان كهلا ذا بنية قوية وذا وجه ضارب للحمرة ، وشعر رمادي كثيف وعينين تُشعان بريقا. ملابسه كانت أوروبية وضعت فوقها عباءة فضفاضة بيضاء مصنوعة من صوف الماعز ، كما اعتمر قبعة عريضة الحواف مغطاة بالقماش ومحاطة بشريط من الموسلين الأبيض ، الذي تدلت نهايتاه من مؤخرة القبعة وكأنها طرحة قماشية ، بينما تمنطق بمسدسين على خاصرتيه ، كان هو من أوكلت إليه مهمة حمايتي رسميا ، مع أن محمد ، سائس خيلنا ، كان ميالا للاعتقاد بأنه الحارس الفعلي لي ، بحيث كان يحاول البقاء قريبا مني بالقدر الذي تتيحه له حمولة حماره ووعورة الطريق ، كان أحيانا ينحشر بيني وبين صخرة ناتئة ، أو يتقدم فجأة للأمام بحيث يكون تحت حوافر فرسي مباشرة ، أو

يتبعني على مسافة قريبة يكون معها في مرمى رفسات الفرس الذي أمتطيه ، كان متيقظا وجاهزا على الدوام ، فكان إذا رآني أنظر إلى زهرة ما ، يسارع إلى قطفها وجلبها لي ، على الرغم من أنني أخفقت في تعليمه على قطف سويقات يزيد طولها على الأنش ، ونادرا ما كان يقطف الزهرة المطلوبة٠

بينما كنت ألتفت للوراء بين الفينة والأخرى لأرمق شقيقي وصحبه وهم يبتعدون باتجاه وادي نابلس الأخضر ، بادرني سيمون الذي كان بجانبي قائلا: ارجو منك يا آنسة روجرز أن تكفي عن النظر للوراء ، فقيامك بذلك يعني أنك خائفة من المضي قدما برحلتنا ، وهذا يجعلني أحس بأنك لا تثقين بي ، أرجو منك أن تنظري للأمام فقط٠ ولكي أطمئنه ، لم أعاود الالتفات للوراء مجددا ، وعلى الرغم من أنني كنت أحس بالضيق ، إلا أنني حاولت جاهدة أن أخفي مشاعر الضيق تلك٠

أمضينا ما يقرب الساعتين في عبور تلال وسهول مرتفعة تعج بالبساتين وتنتشر فيها القرى بكثرة ، حيث كان المزارعون منهمكين في فلاحة بيارات الزيتون والبساتين والحقول الخضراء ، وكانت النسوة وهنّ يعتمرن أغطية رؤوسهن ويضعن مناديلهن القطنية والكتانية البيضاء التي تكاد تخفي وجوههن ، منشغلات بإزالة الزوان والأزهار البرية البيضاء والأعشاب الضارة من حقول الذرة ، كان البعض منهنّ يحملن أطفالهن الرضع على أكتافهن ، بينما كانت الفتيات تكدح في جمع الحصى والحجارة الصغيرة من المساحات غير المحروثة من الأرض ، كان بعض الرجال قد جلسوا على الأرض في حلقات ليدخنوا ويثرثروا ، وانهمك البعض الآخر في حفر ونكشّ الأرض في البساتين والبيارات ، وفي وضع حجارة كبيرة في محيط جذوع أشجار الزيتون العتيقة ، كانوا يرفعون رؤوسهم ويتوقفون عن العمل للحظات ليرمقونا بنظرات ملؤها الفضول ، وقد تمكن سيمون من استراق السمع إلى أحاديث بعض المارة ، الذين كانوا يتساءلون عن هويتي ، فما كان من أحدهم إلا أن أجاب عن تساؤلاتهم بثقة ومن دون تردد قائلا: هاي فرنجيه من حريم كامل باشا ، رايحه عالقدس خوف من الحرب اللي رح تصير عن قريب حوالين نابلس

بعد الظهر بقليل استرحنا لمدة نصف ساعة تقريبا على مقربة من بئر على سفح تلة شديدة

الانحدار ، تكونت وجبتي من لحم طيور مطهية وخبز ونبيذ ، وقد وضع الطعام لأجلي على صخرة مستوية ملساء ، ثم تابعنا مسيرنا من جديد عند الساعة الواحدة ، وحاولنا هبوط التلة عبر واحد من أكثر الطرق الحجرية وعورة في البلاد ، فانزلق السرج الرديء الصنع من على صهوة حصان سيمون ، ولكنه ولحسن حظه تمكن من إنقاذ نفسه بالتشبث برقبة وعرف الحصان ، ومن القفز بعد ذلك على الأرض ، ثم طلب من القوّاس أن يسلك بنا طريقاً أخرى بالرغم من أنها قد تكون أطول ، وقال لي: أنا خائف عليك ، إذ إنني لن أتمكن من النظر إلى وجه شقيقك من جديد لو أصابك مكروه ما ، فأبديت موافقتي ، وإن كنت مكرهة ، على أن نسلك الطريق الأطول والأسهل.

تغيرت المناظر من حولنا جذريا ، كنا قد تركنا وراءنا السهول الجميلة لجبال افرايم (التسمية التوراتية لجبل في وسط فلسطين-المترجم) والبيارات المحروثه وسفوح التلال المُدّرجه ، وباستثناء شجرة بلوط واحدة انتصبت في نتوء جبلي بارز ومرتفع على مقربة من أطلال حصن عتيق ، فلم نصادف أية أشجار طوال أميال عدة ، لكن الشجيرات الوردية الجميله ذات الأوراق اليانعة والورود المزهرة ، كانت تنمو بوفرة حيثما تواجدت التربة على التلال والربى الصخرية. ثم هبطنا وادياً مقفراً وضيقاً ، كانت المنحدرات الصخرية على جانبيه شديدة الميلان والانحدار ، وقد اخترقتها التجاويف وخددتها مجاري القنوات المائية ، وكان في بطن الوادي تشكيلات صخرية ضخمة وذات جمال أخاذ ، تسربت مياه الأمطار إلى داخلها ، واصطبغت بالألوان الأحمر والرمادي والبرتقالي والأرجواني ، وتخللتها ظلال سوداء وبيضاء ، أما حواف الصخور التي كانت فوق رؤوسنا ، فقد علتها مزروعات هزيلة من الحنطة والقمح والعدس ، ثم بدأت أشجار التين والزيتون بالظهور مجددا بمجموعات صغيرة ، وكان رعاة ذوو مظهر بائس وتسليح جيد يسوقون قطعان الماشية من الماعز والأبقار بحثا عن المرعى ، قيل لي بأننا كنا نجتاز منطقة اشتهرت منذ قديم الزمان بسكانها الذين يمتازون بخروجهم عن القانون وبجسارتهم المعروفة ، جذب خرير المياه المتساقطة انتباهي ، وهي تنساب برشاقة على جانب المنحدر الصخري ، بين السرخسيات والطحالب والحشائش والأزهار البرية الصغيرة بألوانها الزرقاء والصفراء ، وكان المطاف ينتهي بها في

أحواض صخرية طبيعية يعلو بعضها بعضا ، وقد سُمي مسقط الماء هذا باسم عين الحرامية ؛ وهي تسمية مستحقة بالنظر لحوادث العنف التي يشهدها المكان ، الذي يتعرض فيه المسافرون المارون عبر هذا الوادي القفر للسلب والنهب من قبل قطاع الطرق.

عند الثالثة عصرا كنا قد قطعنا نصف المسافة لبيت المقدس ، عند بلوغنا مدخل وادي التين ، وقد استحق هذا الوادي اسمه عن جدارة أيضا ، فهو عبارة عن بستان عريض وممتد من الأشجار ، لكن الوقت في تلك الأيام من فصل الربيع كان ما زال مبكرا على أن تكتسي أشجار التين بما يكفي من الجمال ، وعلى الرغم من أن ثمار التين الصغيرة قد ظهرت على بعض هذه الأشجار ، كما ظهرت أوراق صغيرة غضة على البعض الآخر منها ، إلا أنها كانت بمجملها أشجارا عارية من الورق أو الثمر ، وهو الأمر الذي جعلني أشعر بوجودي داخل غابة من الأشجار الحجرية الخالية غير المورقه ، لأن جذوع هذه الأشجار وأغصانها العارية كانت ببياض الأحجار والصخور نفسها التي نمت بينها ، يمتاز هذا الوادي بجماله الأخاذ خلال فصل الصيف ، بفعل الظلال الساحرة التي تلقيها الأوراق المخضرة للأشجار الكبيرة ، والثمار اليانعة المتواجدة بوفرة ، التي تروي ظمأ الرحالة العطاش ، والهواء العابق بأريج فواح يشبه رائحة الريحان. قادتنا الطريق بعد ذلك إلى نجدٍ واسع نبتت فيه أزهار الخطمى وأزهار الشقّار وغيرها من الأزهار اليانعة بين الأشواك ، وانتشرت الأراضي الزراعية المحروثة هنا وهناك ، وكنا قادرين على رؤية القرى المنعزلة المنتشرة على السفوح والنجود الصخرية للتلال ، وقد أحاطت بها البيارات وكروم العنب من كل صوب.

كانت الطريق مواتية للخيل وخفت حدة الشمس من فوقنا ، فالتمست من القوّاس أن يحث الخطى صوب وجهتنا ، وحذيت حذوه بدوري بعد أن أخذت فرسي تجري خببا بين حقول الذرة والأشواك المحيطة بأزهار الربيع ، لكنني سرعان ما أدركت أن سيمون لم يكن قادرا على مجاراتنا ، فانتظرته ، وعندما انضم إلينا لاهثا بادرني قائلا: أنا في غاية الأسف ، ولكني غير قادر على الركض ، فتابعنا مسيرنا بسرعة أقل ولم نبلغ قرية بيتين قبل السادسة مساء.

حل المساء سريعا فلم نتوقف لتفحص الأطلال الكثيرة المنتشرة على الهضبة ، لكننا ترجلنا

في الوادي المحاذي لأطلال حوض ماء قديم ، بُني من صخور كبيرة قُطعت وصُقلت بمهارة ، كان قاع الحوض مغطى بطبقة من الأعشاب الطرية اليانعة ، التي اخترقها جدول من المياه المتدفقة من عيون الماء المنبعثة من الصخرة التي تعلوه تماما. ويجمع العلماء المختصون بطبوغرافيا الكتاب المقدس ، القدماء والمعاصرون منهم ، بأن هذه آثار بيت إيل التي ورد ذكرها في الكتاب المقدس ، وقد شرب نبي الله إبراهيم من عيون الماء هذه على الأرجح ، ومن المحتمل أن تكون الخادمات اللواتي خدمن زوجته سارة قد تجولن هنا يوميا عندما كنّ يأتين لملء جرارهن بالماء ، استرحنا هناك لنصف ساعة تقريبا ، احتسينا القهوة خلالها.

كانت الشمس قد مالت للغروب عندما تابعنا مسيرنا ، كنا نبعد أكثر من ثلاث ساعات عن بيت المقدس ، كانت النجوم تتلألأ بلمعانها في السماء الحالكة السواد فوق رؤوسنا ، ولكنها كانت تختفي في الأفق بفعل هالة متولدة عن أنوار بعيدة خافتة ، انخفضت درجات الحرارة بشكل مفاجئ عند الغروب ، فوضعنا قبعاتنا وارتدينا عباءاتنا ، ولفّ القواس جسده بعباءة بنية اللون حيكت من وبر الجمال ، فصار من الصعوبة بمكان تمييزه وهو على صهوة حصانه الأسود ، الذي كان أمامي مباشرة ، عابرا الوديان والمنحدرات الشديدة الميلان ، وفي كل مرة كنا فيها نرتقي أحد التلال أو عندما نعبر هضبة مرتفعة ، كان بمقدوري رؤية طيف طربوشه فوق مستوى الأفق. ولم أستطع تمييز أي من الأشياء المحيطة بي باستثناء الصخور البيضاء الكبيرة المنتشرة بين الشجيرات والأشواك ، وبرك صغيرة من الماء كنت أراها بين الحين والأخر وقد انعكست صورة النجوم على صفحتها الهادئة ، بحيث تبدو كأنها مياه عميقة جدا ، لكن قائدي كان يتابع سيره فيها دونما تردد ، واكتشفت خلال لحاقي به بأن المياه تكاد تلامس حوافر حصاني ، وبأنها لا تعدو عن كونها تجمعات للأمطار التي هطلت مؤخرا. كنت ألمح أحيانا شجرة وحيدة واقفة في الظلمة في مواجهة جرف أبيض أو على أطراف قرية تقبع على ذروة أحد التلال. لم أكن قادرة على تخمين المسافات بشكل صحيح ، وكنت في العديد من المرات أجفل عند رؤيتي لأجسام سوداء ، أتخيل أنها في غاية الضخامة وعلى مسافة بعيدة منا ، لأكتشف بعد هنيهات بأنها ذات أحجام ضئيلة ، وبأنها

قريبة جدا مني لدرجة أنني كنت أستطيع لمسها بالسوط الذي أحمله.

سرنا في رتل منفرد ، وكنت خلف القوّاس مباشرة ، وكانت محاولاتي غير المجدية في إبقائه امام ناظري قد منيت جميعها بالفشل عندما قلت لسيمون ، سر أمامي إذا تفضلت ، وأنا سأقوم باقتفاء خطواتك ، إذ يمكنني رؤية عباءتك وحصانك الأبيضين في هذا الظلام الحالك ، وقد تعبت من كثرة التركيز على القوّاس ، فتجاوزني وسار لبضع دقائق أمامي إلى أن توقف فجأة في منتصف منحدر شديد الميلان واستدار إلي قائلا: أنا قلق عليك ، لا يمكنني أن أتركك تمتطين جوادك دون أن أراك ، لم تكن وصايا نبي الله يعقوب لبنيه عندما أخذوا أخاهم بنيامين بأكثر من الوصايا التي تلقيتها للاهتمام بك ، فكيف سيمكنني أن أتركك تسيرين في هذه الطرقات المحفوفة بالأخطار من دون أن أراك ؟ أستميحك عذرا بأن أكون خلفك ، وحاولي أنت أن تبقي خلف القوّاس على أقرب مسافة ممكنة ، ولا تتركي لحصانك فرصة للعدو ، إذ تكثر الحجارة غير الثابتة والصخور الملساء في هذه الطرقات ، دعيه يسير بهدوء فخضعت لتوسلاته ، وعدت للسير خلف مرشدي غير المرئي ، وتركت لحصاني مهمة اتباع الطريق الصحيح ، وتابعت رحلتي بصمت وكأنني كنت في حلم.

انقطعت تأملاتي فجأة ، عندما رجع حصاني للوراء بسبب الوقوف المفاجئ لحصان القوّاس الذي استدار نحونا وتوقف وصرخ قائلا: ما في درب

و شرح لنا بأنه أحس بأنه قد ترك الطريق الصحيح منذ ما يقارب النصف ساعة ، وبأنه اكتشف فجأة بأننا كنا ندنو من شفا منحدر شديد الميلان ، وكاد حصانه يلقي به من فوق الجرف ، فأمطره محمد بوابل من السباب والشتائم اللاذعة وهو يتحدث إليه باستخفاف باد ، بينما تأهب سيمون وظهرت عليه علامات الانزعاج والقلق.

كنا نقف على هضبة مرتفعة ، وكان لدينا ما يدعونا للامتنان لأننا لم نوغل في مسيرنا نحو الممر الضيق الذي كنا سنعبره لو تابعنا النزول من على الهضبة ، سألت القواس عما إذا كان لديه أية وسيلة تمكنه من معرفة المكان الذي نحن فيه ، فأجاب بأنه يعتقد بأننا لا بد أن نكون في مكان ما بين قرية الرام- الرامة القديمة- وقرية تل الفول ، التي يعتقد العديد من علماء آثار الكتاب المقدس بأنها قرية قبية (34) واقترح بأن نترجل للبحث عن أية إشارات

تمكنه من العودة إلى الطريق الصحيح ، فربط حصانه إلى شجرة ، وحذا كل من محمد وسيمون حذوه ، لكنني بقيت على صهوة جوادي ، وناولني محمد أرجيلة صغيرة وجلست هناك أدخن بهدوء ، بينما اتجه الرجال الثلاثة كل في اتجاه ليروا إذا ما كانوا سيتمكنون من تمييز صخرة أو شجرة أو ينبوع أو عين ماء أو خربة تكفي لتعطينا إشارة للعودة للطريق الصحيح ، طلبت منهم ان لا يبتعدوا عن ناظري ، وأن يحافظوا على مسافة فيما بينهم تمكنهم من سماع بعضهم البعض.

وحظيت أنا بقسط من الراحة وقد انتابتني مشاعر غريبة في ذلك المكان المظلم والمقفر.

ولربما كنت سأعاني على الأرجح من الخوف بشكل أكبر ، لو لم تتكفل غرابة المكان ووحشته بإثارة انتباهي بشكل تام وكامل ، لدرجة أثارت في أعماقي ذلك الحب الدفين والمتأصل لروح المغامرة. وكان سكون الليل ينقطع بين الفينة والأخرى حين ينطلق العواء وأصوات الزمجرة التي يصدرها أبناء آوى ونباح وصيحات الكلاب البرية والضباع.

كنت أسمع الرجال ينادون بعضهم البعض من حين لأخر ، والدواب المربوطة وهي تصهل وتتململ وتحرك أجسادها ، وكأنها تستجيب لصيحات مالكيها ، لكن حصاني تسمر في مكانه من دون أن يأتي بأية حركة ، وانهمكت أنا بالتدخين والتفكير ، وبتأمل سماء الليل حيث النجوم التي لا تعد ولا تحصى ، والتي لمعت بأشعتها قريبا من الأفق الغارق في الظلام الدامس. وغرقت أنا في سيل من الأفكار والصور الحيّة التي كانت تعبر مخيلتي ، وكان مزاجي عاليا جدا بسبب الخطر المحيط والمحدق من كل جانب ، و من المشاعر والأحاسيس التي تتنازع بعضها إلى دلالات ومغازي الأشياء ، عوضا عن الأشياء بحد ذاتها(35).

وفي غضون نصف ساعة أو أقل ، بالرغم من أنها بدت أطول من ذلك بكثير بالنسبة لي ، انطلقت صرخات الفرح: الحمدلله ، الحمدلله ، وتردد صداها في جنبات المكان ، وسرعان ما كان سيمون ، الذي لم يبتعد كثيرا عني ، إلى جانبي ، ثم تبعه بقية الرجال ، بعد أن كانوا قد عثروا على الطريق الصحيح والسبيل إلى بلوغه ، فتابعنا مسيرنا من جديد بقيادة القوّاس.

وجب علينا أن ننزل منحدرا وعرا وشديد الميلان ، تعثر فيه جوادي ، ذو الحوافر الثابتة

عادة ، من على صخرة مائلة ملساء وبعض الحجارة الرخوة ، فشارفت على السقوط من فوق رأس الجواد ، ولم يحل دون ذلك سوى جودة صنع سرج الصيد الذي استخدمه ، ولكنني ارتجفت من أعلى رأسي حتى أخمص قدمي ، واضطررت للوقوف لبضع دقائق ، وأحضرت لي أرجيلة صغيرة ، ففي الشرق ، يعتبرون الأراجيل دواء ناجعا لكل داء. وكان الظلام الدامس يلف الوادي الواقع أسفل منا ، بحيث تعذر علي تمييز الرجال من بعضهم البعض حين أحاطوا بي ، وسرعان ما استجمعت قواي واستعدت رباطة جأشي ، فمضينا قدما وتابعنا مسيرنا فقطعنا جدولا صغيرا ، ثم ارتقينا سدا شديد الانحدار ، وعبرنا واديا صخريا قبل أن نبلغ الطريق الصحيح.

طلبت من القّواس أن يربط منديلا أبيض حول رأسه بحيث يكون مرشدا لي ، وبينما كنا نصعد أحد التلال وأنا منهمكة في ملاحقة المنديل الأبيض ، لمعت هالة من النور القوي فجأة بالقرب من المنديل ، وترافق ذلك مع صوت طقطقة ، فتبين لي بأن قائد قافلتنا كان يحاول إشعال أرجيلته الصغيرة بطريقة لم يسبق لي أن رأيت مثيلا لها من قبل ، مع أنني علمت بأنها شائعة جدا.

فالتمباك العجمي الرطب الذي يستخدم في الأراجيل والشيش ، لا يمكن إشعاله إلا بواسطة قطعة من الفحم المشتعل ، يحتاط عشاق تدخين التمباك خلال سفرهم دائما بحمل قداحة يدوية وقطع جديدة من الفحم ، وسلة صغيرة من الأسلاك المعدنية ذات قطر يبلغ الإنشين تقريبا ، تُعلق بثلاث سلاسل يتم تزيينها بالخرز وشراشيب من الحرير ، وعندما يرغب المدخن بتدخين غليونه أو أرجيلته الصغيره ، يوقد قليلا من القش الذي يوضع بمعية قطعة الفحم داخل السلة الصغيرة ، ثم يقوم بالتلويح سريعا بالسلة مرات عديده ، ما يؤدي إلى اضطرام النار في قطعة الفحم ، بحيث تكون جاهزة لوضعها فوق التمباك العجمي الرطب الموجود أصلا داخل فتحة الغليون ، وهذا ما يفسر غموض هالة النور التي رأيتها حول رأس دليلنا.

وما أن بلغنا مرتفعات تل الفول حتى رأيت قرية النبي صموئيل التي أذكرها جيدا باتجاه الغرب ، وسلسلة جبال مؤاب الممتدة في الأفق باتجاه الشرق البعيد ، أما شمالا ، فلاحت

من أمامنا مباشرة التلال المحيطة ببيت المقدس. وبعد ذلك مباشرة ، كنا قادرين على تمييز المنارات والمآذن والقباب المعتمة للمساجد المنتشرة في المدينة المقدسة وعلى جبل الزيتون ، حيث أوقدت النار في أعلى البرج الصغير الذي كان يسمى قلعة جراهام .

شارفت الساعة على الحادية عشرة والنصف عندما وقفنا بالقرب من الأسوار المنيعة لبيت المقدس ، كانت البوابات مغلقة وغرق المكان بصمت يشبه صمت المقابر ، فقرع القواس بقوة على بوابة يافا ، فاستيقظ الحرس في الداخل وصرخ أحدهم: مين ؟ فأخبرناه بمن نكون ، فرد علينا أحد الحرس قائلا: خلينا البوابة مفتوحة حتى الساعة العاشرة ، والمفاتيح هلأ مع الحاكم وكان الحاكم يسكن في الجهة الأخرى من المدينة ، فقاموا بإرسال ساعٍ خاص لأخذ موافقته على فتح البوابة لأجلنا ، كما تم إرسال ساع أخر للقنصلية لإعلامهم بسلامة وصولنا. وفي غضون ذلك ، كنا نرتجف من برد منتصف الليل وقد أنهكنا التعب والجوع ، وكان علينا أن ننتظر لمدة عشرين دقيقة أخرى قبل أن تفتح البوابة من أجلنا ، فدخلت بيت المقدس والسعادة تغمرني لإحساسي بأنني صرت بأمان فيها.

أسرعت الخطى عبر ساحة القلعة ، عابرة الزقاق الضيق على صهوة جوادي الذي كان يهرول على الأرضية غير المستوية للزقاق ، إلى أن توقف أمام بوابة القنصلية ، حيث وجدت أصدقاءنا الطيبين السيد والسيدة فن واقفين للترحيب بنا ، ليرافقاني من دون أن أنزع قبعتي أو ردائي إلى الغرفة التي يستقبلان فيها الضيوف ، حيث كان المنتدى الأدبي الخاص ب.جمعية آداب بيت المقدس منعقدا ، وكانت ديكورات الغرفة إنجليزية الطابع بشكل عام ، وتألقت بأنوار القناديل المضاءة فيها ، والزهور المتشرة بترتيب في أرجائها ، وكانت تعج بالضيوف الإنجليز الذين كانوا في معظمهم من الرحالة والمستكشفين القادمين حديثا للبلاد ، فلم أتعرف على العديدين منهم.

كانت قطع كبيرة من الحطب تشتعل وتطقطق في مدفأة الغرفة ، ومنحني الجو العام مشاعر متابينة بفعل مشهد الغرفة وأعضاء المنتدى الذين أحاطوا بي فور دخولي ، لدرجة أن سعادتي بذلك دفعتني لنسيان التعب والإرهاق. وبعد أن انفض المنتدى وغادر الضيوف ، أمضينا ما يقرب الساعة في أحاديث لطيفة بالقرب من المدفأة ، ثم وللمرة الأولى غرقت في

نوم عميق ، بعد أن عثرت على الأمان والطمأنينة بين أسوار بيت المقدس ، وكان شعورا رائعا فعلا لدى استيقاظي في صبيحة اليوم التالي لأجد أطفال القنصل وقد تحلقوا حولي وهم يلقون علي تحيات الصباح بالطريقة الإنجليزية ، بأصواتهم المألوفة والنابضة بالسعادة والفرح.

بدت بيت المقدس في أيام الربيع الأولى مختلفة تماما عما بدت عليه بالنسبة لي خلال فصل الصيف القائظ ، حين رأيتها ، وبكل ما تحمله الكلمة من معنى ؛ مدينة بنيت من الحجر على أرض من الفولاذ ، تحت سماء من النحاس ، تخلو جميع الأماكن غير الظليلة فيها من الناس عند انتصاف النهار ، وينزح القادرون على ذلك إلى بيارات الزيتون لنصب خيامهم والإقامة على التلال وفي الأودية المحيطة ببيت المقدس. لقد تغير كل ذلك الآن ، فاكتست الأراضي الخلاء القليلة المنتشرة داخل المدينة بلون الأعشاب الأخضر ، أو أنها باتت تعج بسنابل القمح والحنطة ، وكان محيط المسجد الأقصى قد تحول إلى مرج أخضر تنتشر فيه الأزهار اليانعة ، أما أسوار المدينة فقد ازدانت بأوراق النبات والنباتات المزهرة ، وأعشاب القراصية وأنواع عديدة أخرى من النباتات والأعشاب ، كعشبة الزوفا وأعشاب البنج الأسود بأزهارها الفاقعة الصفار ، كما نمت جميعها أيضا على جدران برج هيبيكوس ، وفي الخندق الجاف المحيط بالأسوار ، وعلى جدران معظم الأبنية العتيقة في المدينة ، في الوقت الذي انبثقت فيه الأعشاب من بين مفاصل حجارة القباب والشقوق المنتشرة على أسطح العديد من المنازل.

كانت الشوارع تشهد زحاما وضوضاء نظرا إلى بدء توافد الحجاج المسيحيين من طائفة اللاتين لبيت المقدس للاحتفال بعيد الفصح في كنيسة القيامة. وكان بالإمكان رؤية الرحالة الإنجليز والأمريكان في الشوارع الرئيسية للمدينة ، وهم يرسمون لوحاتهم في ظروف صعبة نظرا لإحاطة جموع الفضوليين من المارة بهم ، أو وهم ينخرطون في مفاوضات شاقة مع الباعة المعمّمين في البازارات. وامتد التغيير ليشمل الأرجاء المحيطة بالمدينة من خارجها أيضا ، إذ انتشرت المساحات الخضراء على امتداد البصر أينما استوت الأرض على التلال المجاورة ، وزهت السهول والمقابر والأودية بالأزهار وأينعت أزهار الزينة وورود الحدائق ،

وخصوصا الخزامى والبروق وأنواعاً مختلفة من فصيلة الهليون والثوميات ، والزهرة المعروفة باسم نجمة بيت لحم ، وفي مساء كل يوم وعند مغيب الشمس ، كانت أفواج كبيرة من الناس من شتى بقاع العالم تعبر بوابات المدينة عائدة أدراجها بعد الاستمتاع بنزهة الغروب خارج أسوارها.

خرجت أيضا في نزهات قصيرة في الأنحاء المجاورة للمدينة ، وعاودت زيارة العديد من الأماكن الرئيسية في بيت المقدس بصحبة بعض الرحالة الإنجليز ، وهكذا مضت أيامي حتى الثامن عشر من آذار/ مارس ، حيث كانت عودة شقيقي في فجر ذلك اليوم مبعث سرور وفرح لي ، بعد أن وصل بمعية الباشا والقوات العسكرية التي رافقته ، وقد شهد ذلك اليوم هبوب رياح شهيلي (سيريكو) لافحة وقوية ، مهددة بإحراق وإتلاف المحاصيل الزراعية ، ثم خرجنا مع مجموعة كبيرة من الأصدقاء قبيل الغروب لرؤية المشتل اليهودي ، كانت أوراق غضة قد نمت على أشجار الزيتون المطعمة حديثا ، وكانت أشجار الدراق والمشمش وغيرها من الفواكه قد أزهرت ، بينما كانت حقول القمح والحنطة وأحواض الخضراوات ظمأى بانتظار هطول الأمطار المتأخرة ، وكان المزارعون والفلاحون يبتهلون بالدعاء والصلوات من أجل هطولها منذ عدة أيام ، وقد لفتوا انتباهنا إلى سرب صغير من السحب الداكنة اللون التي كانت تتقدم صوبنا ببطء من جهة الغرب ، وصاح أحدهم قائلا: رجانا في هاي الغيوم وذكرتنا بضع قطرات من المطر الذي تساقط علينا في طريق عودتنا بكلمات ذلك المزارع.

أما في الليل فقد هبت الرياح الغربية بضراوة غير مألوفة ، لدرجة هزت فيها البيت من أساساته وأرقت كل النيام فيه ، وقال الخدم العرب الذين أفاقوا من نومهم وتراكضوا من غرفة إلى أخرى للتأكد من إحكام اغلاق مصاريع النوافذ: هادا فال طيب ، هاي الريح بتجيب المطر ورح تتملا الخزانات بالمي وتكبر الذره ، الحمدلله!

تساقطت كميات كبيرة من الأمطار والبرد في صباح اليوم التالي التاسع عشر من آذار/ مارس ، واستمرت بالهطول من دون توقف طوال النهار والليل ، ثم تزايدت حدة العاصفة وضراوتها يوم الخميس ، وكان حجم حبات البرد عموما بحجم المحارة ، حتى أن حجم بعضها بلغ ثلاثة أو أربعة أضعاف ذلك ، وعندما انتصف النهار ، تساقط ثلج خفيف ولكنه

كان يذوب فور ملامسته الأرض.

في يوم الجمعة العظيمة الحادي والعشرين من اذار / مارس ، كان أول ما سمعت لدى استيقاظي من النوم هو أصوات الأطفال الصاخبة والمرحة ، وهم يقرعون باب غرفتي ويصرخون فاض نهر قدرون ، نهر قدرون الصغير ، أنت تعرفينه ، إنه يفيض ، انهضي بسرعة ، هل ترين ، هذه بعض مياهه

وتبين لي بأن الفلاحين قد دخلوا المدينة مع شروق الشمس في مسيرة أفراح وبهجة لينقلوا الأنباء السارة ، جالبين معهم قرباً وجراراً ملأى بالماء ، وكان حاملو هذه الأنباء السارة جديرين بالحصول على بقشيش كما تقتضي العادات والتقاليد القديمة ، لذلك فقد جنى هؤلاء الفلاحين غلّة وفيرة في ذلك الصباح في بيت المقدس.

واستمرت العاصفة ولم تتوقف ولا للحظة واحدة حتى صباح يوم السبت ، وقد لحق الضرر بمعظم الأدوار العلوية من بيوت المدينة بفعل ذلك ، وأكد لي المحيطون بي بأن أحدا من الأحياء القاطنين في بيت المقدس لم يشهد في حياته هطول الأمطار بشكل متواصل لثلاثة أيام متواصلة ، إذ عادة ما تمتاز أمطار فصل الربيع بقصرها وبسرعة ظهور الشمس فور توقفها ، لكن هذا الهطول غير المتوقع للأمطار كان موضع ترحيب كبير ، نظرا لقلة الأمطار التي كانت قد هطلت خلال فصل الشتاء في هذه السنة ، بحيث لم تكف لملء البرك ، ولم تكن كافية أيضا لتجري الينابيع عبر الأودية التي تشق التلال

سطعت الشمس بقوة فوق الأرض المبللة بماء المطر في ظهيرة يوم السبت ، وخرج المئات من الناس لرؤية المياه في نهر قدرون الصغير ، وخرجت برفقة شقيقي على صهوات جيادنا عبر بوابة يافا ، ومشينا مع مسار وادي نبع أم الدرج فوصلنا إلى عين روجيل التي يطلق عليها العرب تسمية بير أيوب ، وتفاجأنا حين اكتشفنا أن ماء النبع لم تفض كالعادة وحسب ، بل إنها كانت قوية لدرجة أنها اندفعت للأعلى ، بحيث غمرت الحوض القديم الذي يبلغ عمقه 125 قدما الذي تجمع حوله عدد كبير من الناس.

افترشت جماعات من المسلمين الأرض تحت أشجار الزيتون على مقربة من النبع ،كانوا يدخنون الأرجيلة ويحتسون القهوة ، ويلهون بمسابحهم والسعادة بادية بوضوح على

وجوههم ، وكان بعض الصبية يجولون في الأنحاء لبيع الحلوى والكعك على أطباق من القصب ، كما انتشر العديد من بائعي القهوة والغلايين ، وكان الجو يدعو المرء للاعتقاد بأن عين روجيل تعيش أجواء العيد في ذلك اليوم ، كما أحضر الناس كل أنواع القرب المصنوعة من الجلد والجرار بمختلف الأشكال والأحجام ، وغيرها من الآنية لملئها بماء النبع ، وجلست النسوة بملاءاتهن البيضاء على الصخور التي جففتها أشعة الشمس بمعزل عن الرجال ، وكنّ يستمتعن بتدخين الغلايين وتناول الحلوى ، وكان أطفالهن الصغار معلقين على أراجيح علقت على أغصان الأشجار ، واصطحب العديد من الأوروبيين القاطنين في بيت المقدس صغارهم وقدموا للتنزه في المكان ، بينما كان القادمون الجدد من الرحالة الإنجليز يرقبون المشهد بسرور وفضول باديين.

سألني أخي ، هل تودين اللحاق بمسار نهر قدرون لنرى إلى أين يصل ؟ ، فوافقت بلا تردد ، فغادرنا الحشود الصاخبة وباشرنا بالنزول إلى الوادي تحت أشجار الزيتون المبتلة بالرذاذ المنبعث من المياه ، التي تنساب بتناغم بين السلاسل الحجرية الواطئة لبيارات الخضار والفواكه ، وسرنا على السفوح المنحدرة للتلال ، لكي نعاود المسير إلى جانب النهر أو بالقرب منه كلما عثرنا على درب يتيح لنا ذلك ، و تكللت الصخور المتناثرة والمنتشرة في الأرجاء بنباتات متسلقة خضراء ، كما نمت الحزازيات والسرخسيات وانبثقت من بين مفاصل وأخاديد الكتل الصخرية ، وكانت مراقبة النهر المتكون حديثا ، وهو يلتوي ويتعرج ، أمرا يبعث على السرور ، خصوصا إذا تذكرنا بأنه لم ينبثق من منبعه ويتشكل إلا في صبيحة اليوم السابق ، حيث انسابت المياه في مجراه وشقت طريقها عبر الوادي ، داعية الينابيع الصغيرة كافة القادمة من التلال لتصب في مجرى النهر ، وعلى بعد ما يقرب الميل عن عين روجيل ، يمر النهر فوق مجموعة من البلاطات الحجرية الحمراء ، التي تكفل الزمن مع مرور المياه من فوقها بجعلها ملساء وناعمة للغاية ، لتتساقط مياهه برفق من أعلى نتوء صخري إلى حوض مفروش بالحصى الصغيرة ، وبالطاقة التي تكتسبها المياه من سقوطها هذا ، تندفع بقوة عبر قناة يبلغ عرضها حوالي خمسة أقدام ، تم حفرها لتعبر ما بين بيارات الزيتون ، يبلغ عمق المياه لدى احتجازها بهذه الطريقة ما يقارب القدم ، لكنها ما تلبث أن

تنتشر فوق السطح الصخري الواسع فور تحررها من هذا المجرى الصناعي ، بحيث بالكاد تسببت ببلل حوافر خيولنا ، وفي بعض الأحيان لا يجري النهر أبعد من بستان الزيتون هذا ، وفي أحيان أخرى ، عندما تنهمر أمطار الشتاء بغزارة ، يستمر جريان النهر عبر وادي الراهب وصولا إلى دير مار سابا ، أما في الأزمنة السحيقة فقد كان البحر الميت هو وجهته الأخيرة بعد مروره بوادي النار.

تبعنا مجرى النهر لمدة ساعة تقريبا ، احتفظ خلالها بوتيرة وسرعة الجريان نفسها ، لكننا اضطررنا لوقف المطارده بسبب ميلان الشمس للغروب فعدنا أدراجنا ، وسبقنا أصدقاءنا الذين كانوا ما زالوا يمضون وقتهم عند منبع النهر.

قال لنا قوّاس مسلم من العاملين في القنصلية: هاي نعمة مباركة ، مين اللي شاف نهر قدرون يفيض في شهر آذار ؟ بالعادة بيصير هيك في الشتاء ، ومرات بكير في الربيع ، بس مين سمع انو ميته تجري بهاد الوقت ؟ وأضاف: وكل ما ننبسط ونحمد الله على نعمه ، بيكون في زلام قلوبهم قاسيه من حب المصاري بيزعلوا لما يشوفوا هاي الأنهار ، لأنهم بيشتروا كل محاصيل القمح وبيدعوا يكون الحصاد قليل وما ينزل المطر ، الله يخرب بيوتهم ، عشان بدهم تزيد مصاريهم على حساب جوع الفقراء وحاجتهم

نبهتنا الشمس الآفلة إلى المغيب إلى ضرورة أن نحث الخطى باتجاه المدينة قبل إغلاق بواباتها ، فامتطينا جيادنا وقفلنا راجعين للديار بصحبة مجموعة كبيرة وسعيدة من الأصدقاء.

كان الجو صبيحة أحد الفصح صافيا ، وبدا أهل بيت المقدس وقد دبت فيهم الحيوية على غير العادة ، وارتدوا أكثر ملابسهم أناقة ، وكان العرب من أبناء طائفة اللاتين يحيون بعضهم عند اللقاء قائلين: المسيح قام! ، حقا قام

تراوح الطقس بين صحو وماطر خلال أسبوع الفصح ، وكنا بين الحين والآخر نرى أقواس قزح الزاهية الألوان فوق التلال ، وجاء السيد ميشوليم ليبلغنا بأنه اضطر وأسرته لإخلاء بيت الحجر الصغير في أرطاس بفعل الأمطار ، فقد انبثقت عين ماء غزيرة بشكل مفاجئ في غرفة الطعام في منزلهم ، وعين ماء أخرى في الإسطبلات ، وتدفقت سيول المياه في

الوادي ، جارفة معها قطعاً كبيرة من الصخور والحجارة التي تساقطت على بساتين الخضروات والفواكه ، مسببة تلفيات بالغة في المحاصيل ، أما برك سليمان ، التي كانت حتى أيام قليلة مضت ، مرتعا آمنا ومفضلا للعب أطفال ميشوليم ، فقد امتلأت عن بكرة أبيها في أقل من أربع ساعات ، وكان الصغار يجمعون نبات الرشاد من الزوايا في قعر البرك قبيل تدفق الينابيع بوقت قصير.

استيقظت صبيحة الحادي والثلاثين من آذار/ مارس على دوي المدافع التي نصبت على برج هيبيكوس ، وسمعت بأن الأنباء أفادت بولادة ولي عهد للعرش الإمبراطوري الفرنسي.

وجاء السيد باريبه ، القنصل الفرنسي بنفسه ليبلغنا بالحدث السعيد ، وسارع السيد فن على الفور بالإعداد ووضع الترتيبات لحفلة ساهرة ، احتفاء بالحدث في اليوم ذاته ، وساعدت أنا في تزيين غرف الضيوف بأكاليل من الأزهار وما يقرب المئة من الشموع التي وضعت على النوافذ الأمامية ، والتي خلقت انطباعا في غاية الجمال والغرابة في آن واحد ، عند إضاءتها عند مغيب الشمس ، إذ إن مبنى قنصلية صاحبة الجلالة كان مجاورا للكنيسة البروتستانتية ، وبخلاف جميع المباني السكنية في بيت المقدس ، كان ذا واجهة إنجليزية الطراز والتصميم ، وانتشرت العديد من المشاعل المضيئة على السطح ، فانعكس نورها المتماوج على مجموعة القوّاسين والخدم الأحباش ، الذين كانوا يشعلونها ويذكون نيرانها ، وأطلقت الألعاب النارية في الساحة باعثة الفرح والحبور في مئات من المتفرجين ، بينما تجمع حشد كبير من المدعوين داخل القنصلية ، وحضرت مجموعة من الرحالة الإنجليز والعديد من الأوربيين المقيمين في المدينة ، وسمح خلال الأمسية بدخول بعض العازفين الموسيقيين العرب ، لعزف وغناء بعض المقطوعات للترفيه عن حضور الحفل ، كما تم ارتجال بعض الأغاني الزجلية والمواويل على شرف الأمير الجديد.

و في تلك الأثناء أرسلت الدعوات لجميع أعضاء السلك الدبلوماسي لحضور حفل عشاء رسمي ، احتفاء بولادة الأمير في دار القنصلية الفرنسية في اليوم التالي الأول من نيسان/ ابريل.

ذهبت بمعية السيد والسيدة فن وشقيقي ، حيث كان في استقبالنا القنصل السيد باريبه

والسيدة ليسبيس ، شقيقة القنصل العام الفرنسي في سورية آنذاك ، ثم وصل الباشا وجميع القناصل بملابسهم الرسمية ، لكن دون مجيء المزيد من السيدات.

ونظرا لكونه حفلاً يمتاز بالعدد الكبير من العزاب فسوف أقدم وصفا تفصيليا لمجرياته ، بعد أن احتسينا القهوة ، قام صاحب السعادة كامل باشا باصطحاب السيدة فن إلى المائدة الأنيقة في غرفة الطعام ، وأجلسها على يساره ، وفي الوقت نفسه ، أُدخلت أنا وجلست على يمين صاحب السعادة ، بينما جلست السيدة ليسبيس على الكرسي المقابل تماما للباشا ، وبجانبها كل من القنصل الإنجليزي وبطريرك اللاتين ، ومن ثم جلس كل من القنصل الإسباني العام والقناصل الأوروبيين الآخرين والأباتي راتيسبون وآخرين من كبار رجال الإكليروس الفرنسي ، ثم كونت فونتينوي ، السيد جيلبرت ، وسكرتير الباشا ، بحيث كان مجموع الحاضرين ثمانية عشر شخصا.

اشتمل العشاء على أطباق من المطبخ التركي والفرنسي واليوناني والإيطالي ، دار الحوار بين الحضور باللغة الفرنسية ، مع استخدام طفيف لبعض المفردات الاسبانية والتركية والإيطالية والألمانية ، لكن الإنجليزية لم تستخدم خلال المحادثة.

ثم بادر القنصل الإنجليزي باقتراح النخب الأول ، وكان موجها للسلطان عبد المجيد ، فرد عليه السيد بارييه وتبعه بطريرك اللاتين بتعليق لطيف.

نهض الباشا بعدئذ ، وبلغة تركية منمقة اقترح نخبا لابن امبراطور فرنسا وولي عهده ، وتولى السيد جي ترجمة كلمة الباشا ، ثم توالت العديد من الأنخاب التي رفعها الحاضرون بعد ذلك ، كان التحالف الذي يربط تركيا وفرنسا وإنجلترا محور كلمة الباشا ، الأمر الذي دعى الحضور للتفاعل معها بحرارة.

ولم يطل المقام بالسادة على مائدة الطعام ، فتوجهنا بعدئذ مباشرة للديوان ، حيث تم تقديم السجائر والأراجيل ، وعندما رأيت السيدة ليسبيس تشعل سيجارة لم أتردد في تدخين الأرجيلة ، ونوه الباشا بلطف لزيارتي لنابلس ، واستفسر عن تفاصيل زيارتي لبيت المقدس ، ودارت القهوة ووزعت السكاكر الفرنسية ، واستمر الحفل لساعة أو تزيد ، ثم بدأ الحضور بالانصراف تباعا.

في الخامس من نيسان / إبريل عدت للقنصلية بعد أن أمضيت النهار في المسجد الأقصى بصحبة عدد كبير من السياح والرحالة الأنجليز ، لأفاجأ بسماع أخبار مؤكدة وصلت للتو ، مفادها أن المحترم اس. لايد ، من التابعية البريطانية قد تسبب عن غير عمد بمقتل رجل مسلم أصم وأبكم ، عندما كان يهم بمغادرة نابلس. وبأن المسلمين بدأوا بالانتقام من السكان المسيحيين ، وصبوا جام غضبهم على الطائفة البروتستانتية على وجه الخصوص ، وقد تعرض بيت عوده عزام ، الذي سبق وأن نزلنا فيه للهجوم ، مثلما حدث مع العديد من البيوت الأخرى ، كما تعرض الحي المسيحي برمته للنهب.

عقد اجتماع ضم الباشا وبعض القناصل على الفور ، وتطوع أخي للذهاب إلى نابلس للاطلاع على الأوضاع هناك ، ولمعرفة أفضل السبل المتاحة للإتيان بالسيد ليد إلى بيت المقدس بأمان ، فسافر قبل بزوغ الشمس في صباح اليوم التالي ، بصحبة سائس الخيل والقواس الخاص به فقط ، بعد أن حاول الباشا وبعض القناصل إرسال ثلة من الجنود معه ، بل وطلبوا مني مساعدتهم في جهودهم تلك ، ولكنني أحسست بشعور فطري ، كما شعر أخي بأنه سيكون بأمان أكثر إذا سافر بمفرده عوضا من أن يسافر مصحوبا بقوات معادية ولكن غير كافية ، وعم الشعور بالقلق على سلامته الجميع ، نظرا لأنها كانت مغامرة غير مأمونة العواقب.

وصل إلى نابلس قبل أن تهدأ الأحداث ، وبدا أن الناس قد فوجئوا وهدأت ثورتهم للثقة التي أبداها بهم ، واكتشف بأن محمد بيك عبد الهادي تولى حماية السيد ليد من ثورة الجموع الغاضبة ، حيث آواه في بيته الجديد والفخم ، والذي كان محاصرا فعليا من قبل جموع الناس وتعرض لأضرار جسيمة ؛ لأن الحاكم رفض تسليم الجاني لهم ، أما السيد لايد ، ولدى رؤيته حجم الأضرار التي وقعت ، فقد كتب وصيته وبضع رسائل ، وتوسل للحاكم أن يسمح له بالخروج للغوغاء أملا بأن يتكفل مقتله بإخماد ثورتهم وغضبهم ، قائلا: إذا لم يتمكنوا من قتلي ، فسوف يتسبب ذلك بمعاناة لأناس آخرين ومع ذلك فقد تمسك الحاكم بإصرار على عدم التراجع عن حمايته ، وأبقاه كسجين لديه وهو يقول له: هدئ من روعك ، أنا وعائلتي وخدمي وكل القاطنين في بيتي سنضحي بأرواحنا في سبيل الحفاظ على حياتك ،

أما الجماهير الغاضبة والمحبطة فقد كانت تطلق التهديدات حول المنزل ، كما قاموا برمي الحجارة وإطلاق الرصاص في بعض الأحيان ، ثم غادروا المكان وذهبوا لتفريغ غضبهم على السكان المسالمين في الحي المسيحي.

النص التالي ، المأخوذ من تقرير كتبه أخي وأرسله للسيد فن ، يوضح القسوة التي أبداها المتعصبون:

ثم اتجهت إلى منزل السيد إم. زيلر ، فاكتشفت بأن محتويات الغرف السفلية من المنزل قد نهبت عن بكرة أبيها ، وانتشر حطام أواني الخزف الصيني وأوراق الكتب والخرائط والأوراق من مختلف الأنواع بعد أن مزقت جميعها ، أما في الطابق العلوي ، فقد تعرضت الصناديق والمكاتب وخزائن الأدراج... الخ للتكسير والتخريب ، وفي واقع الأمر ، لم يترك الغوغاء فعلا يمكن أن يؤذي السكان المسيحيين إلا وقاموا به ، ولحسن الحظ ، كان معظم أبناء الطائفة البروتستناتية ، وهم ما زالوا فعليا ، خارج البلدة مع المطران ، ولولا ذلك لكانوا قد قتلوا جميعا (الإشارة هنا للمطران جوبات الذي كان يقوم بجولة على رعيته بعد أن مر بنابلس قبل أيام قليلة من اندلاع الأحداث).

قُتل سمعان قعوار ، والد القنصل البروسي ، وأصيب حنّا الخادم الذي يعمل لدى السيد ام. زيلر بجروح بليغة وخطيرة ، كما تعرض جيه. طنوس وزوجته وعدد آخر لجراح خطيرة ، بالإضافة إلى إحدى عشرة امرأة أصبن بأضرار نفسية بالغة نتجت عن الرعب الشديد الذي تعرضن له...إلخ

وفي اليوم العاشر من نيسان / ابريل ، اتجهت للنافذة لدى سماعي صوت حوافر الخيل ، حيث شاهدت السيد لايد محاطا بثلة من الفرسان غير النظاميين الأتراك ، ثم ترجل على باب القنصلية كسجين مخفور ، فذهبنا جميعا لاستقباله والسلام عليه ، وقصّ علينا روايته للأحداث ، وهو في قمة الحزن والإحباط ، وحدثني قائلا: لقد عرض السيد روجر نفسه بسببي لأخطار أكبر بكثير مما تساويه حياتي.

وعاد شقيقي في يوم الأحد الثالث عشر من الشهر ، خمدت الثورة ، ولكن المسيحيين فقدوا ثقتهم بجيرانهم المسلمين ، وجاء معظم أبناء الطائفة البروتستناتية إلى بيت المقدس ،

وذهب الباقون إلى الناصرة ، وجلب أخي معه مجوهرات وقلادات من العملات الذهبية واللؤلؤ من مقتنيات السيدات المسيحيات النابلسيات ووضعهم في عهدتي ، وكانت مالكاتها قد توسّلن إليه لكي يأخذها بسبب خوفهن من حمل مقتنياتهن النفيسة معهن خلال هروبهن ، أما الذين بقوا في بيوتهم فقد شعروا بأن بيوتهم لا يمكن أن تحتوي على مخابئ آمنه في ظل عدم الاستقرار الذي تشهده البلدة.

من المؤكد بأن الحاكم محمد بيك عبد الهادي ، قد بذل ما بوسعه لحماية المسيحيين خلال هذه الأحداث.

لم تدفع التعويضات البالغة خمسة وخمسين ألف قرش ، والتي قررها الباب العالي للمسيحيين الذين تضرروا إلا بعد سنتين من الأحداث.

واستمرت محاكمة السيد لايد في بيت المقدس لمدة طويلة من الزمن ، وحكم عليه في النهاية بدفع مبلغ مالي معين ، باعتباره دّية الدم الواجبة الدفع لورثة القتيل ، وكان شخصا معروفا ومحبوبا في نابلس ، وهو أصم وأبكم ويعاني من بعض الاختلالات العقلية ، وكان العرب يُجلونه بفعل إيمانهم الشديد بالخرافات ، في الوقت نفسه الذي كان فيه مثار سخريتهم وتسليتهم ، كما كان شحاّذا محترفا ولحوحا ، ويبدو أنه أوقف حصان السيد لايد عندما التقى به عند بوابة نابلس ، وطلب منه بالإشارات والإيماءات صدقة أو أعطية ، فرفض السيد لايد إعطاءه شيئًا محاولا متابعة طريقه ، فتشبث القتيل بعقب المسدس المحشوّ الذي كان السيد لايد يضعه في جراب سرج الحصان ، والذي كان لسوء الحظ ، مذخرا وجاهزا للإطلاق ، فحاول السيد لايد لمعرفته بالخطر الناتج عن ذلك ، أن يبعد يده عن المسدس ، فانطلقت الرصاصة خلال ذلك ، وقتل الرجل على الفور. وسرعان ما تجمع الناس حول السيد لايد ، فلاذ بالفرار إلى بيت الحاكم وسلم نفسه كسجين. (لم يعمر السيد لايد طويلا بعد هذه الحادثة ، إذ تعرض للوثة عقلية شديدة جعلته يعتقد بأنه منقذ العالم ، ولكنه شفي من هذه الهلوسات خلال زيارة قام بها لإنجلترا في 1958 ، عاد بعدها لممارسة أنشطته التبشيرية في الشرق وهو يتمتع بصحة جيده ، ليموت مأسوفا عليه من قبل الكثيرين بعد فترة وجيزة).

في الخامس عشر من نيسان /ابريل امتلأت المدينة بحشود كبيرة ، وتضاعف عدد الناس فيها بفعل تدفق الحجاج الروس واليونانيين والأرمن ، الذين قدموا لقضاء الأسبوع المقدس- حسب الطقس القديم في بيت المقدس (أسبوع الآلآم الذي يلي الصوم الأكبر ويسبق عيد الفصح -المترجم) ، ولزيارة المقدسات التي يوقرونها ، ولحضور صلاة الفصح في كنيسة القيامة ، وكانت أعداد هولاء المؤمنين تتزايد يوميا ، وكانوا في معظمهم حجاجاً فقراء ومعوزين قاموا بتوفير مبالغ زهيدة من أموالهم لأداء فريضة الحج ، بحيث يعودون إلى ديارهم عادة وهم مفلسون بالكامل ، ولكن سعداء لقيامهم بتحقيق الهدف الأسمى لحياتهم الكادحة ، ومع ذلك فهناك بعض الحجيج من ذوي المكانة الرفيعة ، سواء من حيث المكانة الاجتماعية أو الوظيفة الرسمية أو الثراء يأتون بمواكب مهيبة.

في الرابع والعشرين من نيسان / إبريل استيقظت من نومي في الساعة الثالثة فجرا على دوي المدافع التي أطلقت من القلعة ، حيث كانت تومض للحظة كل بضع دقائق لتنير غرفتي ، ثم ساد الظلام والصمت فاستغرقت في نومي حتى الساعة السابعة ، عندما أفقت على أزيز صلية جديدة من الرصاص فنهضت من فراشي ، وكان الناس مشغولين نظرا إلى أن كامل باشا كان قد أصدر بيانا أمر فيه: أن يعبر جميع سكان بيت المقدس عن فرحهم وسرورهم ، وأن يحمدوا الله وأن ينيروا منازلهم ، وذلك احتفاء بإعلان السلام بين روسيا وتركيا ، ولا شك بأن باعة الصفيح وموزعي القناديل والسرج الجديدة والمستعملة وصانعي الفوانيس ، قد جنوا أرباحا وفيرة في ذلك اليوم ، وانشغل الجميع باختراع وسائل جديدة للإضاءة ، وشهدت البازارات طلبا كبيرا ومتزايدا على القصدير وقصاصات الورق الملون المستخدم لتظليل القناديل والشموع.

عند الظهيرة ، جاءت مجموعة صغيرة وسعيدة من البنات الإنجليزيات الصغيرات للقنصلية ، وقمنا بعمل أعداد كبيرة من الورود الورقية التي علقناها على أغصان وفروع الأشجار التي جلبها لنا الحاج علي ، سائس الخيل المصري ، إذ أحضر لنا حمولة حمار من الأغصان ، لكنه لم يبذل أي جهد في اختيارها ، ويبدو أنه اعتقد بأن الحشائش التي تنمو مع الجزر أكثر جمالا من أغصان الزيتون أو أكاليل الغار ، فقام بجمع وإحضار كميات كبيرة منها ، ومع

ذلك فقد شكّلت أكاليل زينة خضراء زاهية ، وأعطت تأثيرا أخاذا عند وضعها بجانب أزهارنا ، ولم يتمكن أحد من معرفة ماهيتها. استقبلنا العديد من الزوار الذين استمتعوا كثيرا برؤيتنا ونحن ننسق حديقتنا ، وجاء القنصل العام الأسباني والقنصل الفرنسي وبعض الرحالة الإنجليز ، أما سكرتير الباشا الذي جاء عدة مرات لرؤية تحضيراتنا فقد قال بأنه سيبلغ كامل باشا كيف امتثلنا لأوامره الصادرة في ذلك اليوم بحرص وعناية.

مالت الشمس للمغيب ، وأضيئت أنوار المدينة تدريجيا ، وأنيرت المآذن وبعض القباب بحلقات مضيئة ، أما دير اللاتين وبيت المطران جوبات فقد كانا يسبحان بأنوار المشاعل والقناديل ، وانهمر فيض من النور عبر نوافذ القنصلية ، وطافت الشوارع جموع من النسوة اللواتي ارتدين الملاءات البيضاء ، والرجال والصبية الذين يحملون المشاعل والقناديل الملونة ، وبعد ساعة من مغيب الشمس اندلع قتال زائف بإشراف القائد الأعلى للجنود ، فصعدنا إلى سطح القنصلية بصحبة عدد كبير من الناس لمشاهدة التمرين القتالي ، كان الجنود النظاميون قد احتلوا برج هيكيبوس ، بينما كان سلاح المدفعية والجنود غير النظاميين يحكمون الحصار من حوله ، وكانت المدينة تهتز بفعل إطلاق المدافع والقذائف وأصوات البنادق اليدوية ، وأشعلت نيران كبيرة ووضعت سلال ملئت بالقطران والقار في أماكن جلية للعيان ، للإيحاء بأن النيران قد اشتعلت في بعض المباني ، وبفعل الإضاءة التي انبعثت من هذه النيران ، كنا قادرين على رؤية الرجال وهم يتسلقون الجدران ، بينما تساقطت عليهم كتل كبيرة تحاكي الصخور لإعاقة تقدمهم ، ثم سُحبت المدافع وأعمدة تحطيم واقتحام البوابات واندفع الجنود وهم يتراكضون عبر ساحة القلعة ، وكنا نسمع صراخهم وصيحاتهم خلال ذلك ، وفي النهاية سقط البرج في أيدي القوات المهاجمة وتم إعلان النصر ، وانطلق صوت الأبواق والطبول والنايات وغيرها من الأدوات الموسيقية إيذانا بالنصر ، وقد أدير التمرين برمته ببراعة وإتقان ، وأعطتنا الأحداث فكرة واضحة عن المرات العديدة التي حوصرت فيها بيت المقدس على مر العصور ، وتشير المراجع الدينية وغيرها من كتب التاريخ إلى أن المدينة تعرضت للحصار أربعاً وثلاثين مرة على الأقل على مر التاريخ.

تجمع حشد كبير في القنصلية البريطانية بعد ذلك ، وكان الباشا ومرافقوه من ضمن الحضور ، بالإضافة إلى قائد القوات التركية والعديد من القناصل والرحالة الإنجليز ، الذين كان اللورد ابركرومبي من بينهم ، وكان قد وصل المدينة منذ بضع ساعات فقط ، بعد أن قطع الصحراء هو والمجموعة التي كانت بمعيته قادمين من القاهرة ، وبعد أن تم احتجازهم في محطة الحجر الصحي في الخليل لبضعة أيام ، وكانوا قد وصلوا مشارف بيت المقدس في منتصف النهار تقريبا ، عندما انتبهوا إلى إطلاق الرصاص وطلقات المدافع وهّموا بالعودة باتجاه الساحل الفلسطيني طلبا للسلامة ، معتقدين خطأ بأن المدينة تشهد حالة من العصيان والتمرد ، لكنهم تابعوا طريقهم بحماسة للمشاركة في الاحتفالات عندما علموا بالسبب الفعلي وراء إطلاق النيران.

في يوم السبت السادس والعشرين من نيسان/ابريل ، أو السبت العظيم وهو يوم السبت الذي يسبق عيد الفصح حسب التقويم الأرثوذوكسي (الشرقي) زرت كنيسة القيامة ، لحضور ما يقال بأنه معجزة إضرام النار المقدسة فوق قبر السيد المسيح ، وبعد أن عبرنا بضعة أزقة ملتوية ومتعرجة وخالية من النوافذ ، ذات أرضية حجرية غير مستوية وتكاد تخلو من المارة تقريبا ، دخلنا البازار المزدحم بالناس والمؤدي للكنيسة ، حيث عمت الفوضى والصخب ، وكان الباعة والمشترون يتوقفون لبرهة لمشاهدة الجماهير التي تعبر البازار مسرعة لحضور مراسم العيد ، اجتزنا قنطرة لنجد أنفسنا بعدها أمام الواجهة الجميلة مع بوابتها المزدوجة وأفاريزها ، وكانت الساعة قد شارفت على الحادية عشرة والنصف تقريبا ، وامتلأت الساحة المربعة بالجنود الأتراك ، كما اكتظت الشرفات وأسطح البيوت المحيطة بالنساء اللاتي كنّ يرتدين ملاءات بيضاء جلوسا ووقوفا تحت أشعة الشمس ، بحيث شكّلن لوحة بديعة ، وكانت جموع المصلين الأرثوذكس والأرمن تتقاطر عبر بوابة الكنيسة ، حيث التقيت هناك بالسيد ليزلي ، المستشار بالقنصلية الفرنسية ، والذي قادني بصعوبة إلى داخل الكنيسة وعبر صحنها الذي كان الحجيج يتراكضون ويتقافزون فيه في جميع الاتجاهات ، مطلقين صرخات غريبة ومرددين ترانيم ذات وتيرة واحدة ، وكان ضجيجهم مذهلا ، وتمكنت بمساعدة السيد ليزلي من اعتلاء منصة مرتفعة قادتني إلى سلالم مترنحة ومتمايلة أوصلتني

إلى الشرفة الخاصة باللاتين في الناحية الجنوبية من صحن الكنيسة.

خصص جزء من الشرفة للغرباء ، وسررت جدا لجلوسي بأمان هناك ، كانت الشرفة أشبه ما تكون بالفرندات الفسيحة الخاصة في مسارح الأوبرا ، وضع في مقدمتها درابزين ثقيل ولكن غير آمن ، كان على مقربة منه مقاعد شغلتها بارونة هولندية وابنتها وأحد الرهبان والأباتي راتسبون الذائع الصيت ، إضافة إلى سيدة أمريكية وأخرى سكوتلندية ، وكنت أعرفهم جميعا من مناسبات سابقة ، وجلست مجموعة من السيدات العربيات اللاتي كن يدخنّ أراجيلهن على الأرضية المغطاة بالحصائر في مؤخرة الشرفة ، وقد سعدت حين عرفت من بينهن السيدة التي استضافتني خلال زيارتي لمدينة الرملة ، وبعد أن ألقيت عليها السلام ، تقدمت للأمام وجلست على المقعد المخصص لي ، وألقيت نظرة على المشهد البالغ الغرابة بالأسفل ، فرأيت الضريح المنحوت والمزخرف من الرخام ، والذي ينتصب فوق ما يعتقد بأنه قبر السيد المسيح ، وكانت قمة الضريح على مستوى الشرفة التي كنا نجلس فيها ، وكان رجال ذوو مظهر بدائي ، بملابس رثة وغير مهندمة ، وطرابيش وأغطية رأس مهلهلة ، وقد أرخى بعضهم جدائل شعرهم الطويل ، بينما كان البعض الآخر منهم حليقي الرؤوس تماما ، يقومون بالجري السريع حول الضريح ، وكانوا يثبون ويتسلقون أكتاف بعضهم البعض ويلوحون بأيديهم بالهواء ؛ وهم يؤدون رقصة جامحة تتناسب مع الرقصات التي تؤدى في الأعياد والاحتفالات لدى الهنود ، وكان هذا الأداء المسعور يتوقف للحظات في بعض الأحيان ، لينطلق من جديد بإيقاع مختلف.

وأخذت أعداد الراقصين والمؤدين تتزايد باستمرار ، وكانوا يقفون في مجموعات على شكل حلقات صغيرة وهم يهزون برؤوسهم ويلوحون بأيديهم ، بالتناغم مع لحن رتيب يعلو شيئًا شيئًا مع مرور الدقائق ومع تسارع حركة الرؤوس والأيدي ، واستمروا بأدائهم هذا إلى أن بدوا وكأن الإثارة المصاحبة قد أصابتهم بالجنون ، وبدأوا بضرب أنفسهم وضرب زملائهم على نحو مخيف ، ومن ثم انفضت الحلقات التي كانوا يقفون فيها وركضوا حول الضريح مرة تلو الأخرى بسرعة جامحة ، دون أن يكترثوا لكونهم يدوسون على بعضهم البعض ، وكان ثمة كهنة منتشرين في أرجاء صحن الكنيسة لم يترددوا في الانجراف مع نوبات الجنون التي

تجتاح الجمهور ، ومن أجل أن يظهروا للناس مدى ورعهم وقداستهم ، كانت تصرفاتهم تفتقر للحد الأدنى من الرزانة ، فتسقط قبعة الكاهن منهم ، ويحمل هو بنفسه ويطاف به مرة تلو الأخرى حول الضريح. ويعتقد الحجيج اعتقادا راسخا بأن النار المقدسة لن تشتعل على الضريح ما لم تحط به جموع المؤمنين بهذه الطريقة.

وفي تلك الأثناء كنت أستمتع بمحادثة شيقة مع البارونة التي كانت قد أمضت ستة أشهر مسافرة في مجرى نهر النيل ، وقالت لي: أنا أرملة ولم أنجب أبناء ذكورا ، لذلك فابنتي وأنا وحيدتان في هذا العالم ، ونحن نطوف العالم سوية بمفردنا ، وقد قمنا بزيارة جميع البلاد والشعوب في أوروبا ثم جلب الأباتي راتيسبون انتباهنا إلى تغيير طرأ على المشهد في صحن الكنيسة ، حيث أخلي المكان من جموع الغوغاء من أجل أن يفسحوا الطريق لدخول الموكب الرسمي ، المكون من القساوسة والأساقفة في ملابسهم وحللهم الباذخة ، رافعين أعلاما ويافطات من الحرير المطرز بخيوط الذهب ، ومرنمين بخشوع وعواطف جياشة ابتهالات وصلوات رقيقة خلال طوافهم البطيء الذي تكرر ثلاث مرات حول الضريح ، واصطفت ثلة من الجنود الأتراك في المحيط الداخلي والخارجي لصحن الكنيسة من أجل تشكيل مجاز لمرورهم ، وكانت حركاتهم التي اتسمت بالهدوء والرزانة جديرة بالثناء والاحترام ، وفي واقع الأمر فقد كانوا يؤدونها بنمط آلي نوعا ما ، لكن الحجاج النافدي الصبر اندفعوا للأمام من جديد وتدفقوا بهياج وفوضى بين الجموع ، واختل موكب القساوسة الذين سرعان ما اختفوا جميعا ، وقام الجنود بالانسحاب من المكان ، وعاودت الجموع رقصها المسعور مرة تلو الأخرى حول الضريح بحيوية متجددة ، وكان المصلون العرب يهتفون بين الحين والآخر:

المسيح ، ابن الله ، مات من أجلنا

المسيح ، ابن الله ، قام من أجلنا

هذا هو قبر فادينا المسيح

حمى الله السلطان

المسيح ، ابن مريم ، مات من أجلنا

المسيح ، ابن مريم ، قام من أجلنا

هذا هو قبر فادينا المسيح

حمى الله السلطان

واكتظت الشرفات وحتى الكوّات التي كانت في الأعمدة الدائرية ، عن بكرة أبيها بالمتفرجين ، وكان كامل باشا ومرافقوه يجلسون في مقصورة بالشرفة الخاصة بطائفة اللاتين تعلونا مباشرة ، وكان القنصل الفرنسي وشقيقي وبعض الرحالة الإنجليز من بين الحضور ، واستمر المشهد الآنف الذكر لما يقارب الساعتين ، لاحظت بعدها حدوث فجوة في الحشد المتجمهر مقابل كوة بيضاوية الشكل تطل من الأجزاء الداخلية للضريح ، تقدم كاهن يرتدي أردية حريرية صفراء نحوها ، فاستقبل بالترحيب من الحشد الذي أخذ يطلق صراخا عاليا ، ثم توقف أمامها وأدخل رأسه وكتفيه وإحدى ذراعيه داخل الفتحة بحيث سدها تماما ، وقد استمر بهذه الوضعية المتعبة لمدة طويلة من الزمن ، وترك نفسه عرضة لتدافع الناس الذين أحاطوا به من كل جانب ، ودار صراع عنيف بهدف الحصول على موقع يتيح رؤية الكاهن بوضوح ، إذ إنه كان الأسقف المسؤول عن توزيع النار المقدسة ، وقد منح لقب كاهن النار المقدسة بمناسبة هذا الحدث ، بعد أن دفع مبالغ طائلة من الأموال ليحظى بشرف استلام الشعلة المقدسة من أسقف النار المقدسة الذي كان متواجدا داخل الضريح ، وهو شبه عار تقريبا ، وكان جميع الحاضرين في المكان يحملون إما مشعلا أو شمعة بانتظار إيقادها.

وساد ترقب مشوب بالحذر ، صمت مثير تماما كالإثارة المصاحبة للضوضاء ، وتبع ذلك صرخة مروعة ومدوية هزت مبنى الكنسية من أساساته ، فقد أعلن صوت من داخل الضريح بأن النار المعجزة قد تم إيقادها ، وفي هذه اللحظة أخرج الكاهن رأسه من داخل الكوّة وهو يحمل نارا كبيرة وسط صيحات الحمد والثناء من جموع الحاضرين.

وأشعلت أكثر من مائة شمعة وفانوس خلال أقل من دقيقة ، وانتشرت الأنوار بسرعة في

أرجاء صحن الكنيسة ، ونظرنا إلى الأسفل ، إلى الفوانيس والشموع التي حملتها الأيدي العارية وهي تتمايل بخشوع ورتابة ، وكان من الصعب رؤية الرجال أنفسهم تحت غيوم الدخان ولهيب الشموع والفوانيس ، وفي اللحظة ذاتها ، تحركت الحشود بطريقة تثير الريبة ، واتضح بأن الأرثودوكس والأرمن قد اشتبكوا في عراك عنيف فيما بينهم ، محاولين إخماد نار شموع بعضهما البعض ، فقد كانت كل طائفة تشعر بالغيرة من الطائفة الأخرى ، إذ إن النار المقدسة المجلوبة من السماء لم يتم توزيعها بعدالة وإنصاف ، وشاع بأن كاهن النار المقدسة قام بتسليمها لإحدى الطائفتين قبل الأخرى ، عوضا عن أن يسلمها لكلا الطائفتين في اللحظة نفسها ، وفقا للتفاهم المرعي والمتفق عليه ، هذه الذريعة ، سواء أكانت حقيقية أم مفتعلة ، كانت السبب للقتال الدائر ، وارتفعت الأيدي كافة في أوضاع دفاعية وهجومية ، وتساقطت الشموع من دون اكتراث أو اهتمام ، وارتفعت الهراوات والكرابيج والعصي ، وتم استدعاء الجنود الأتراك الذين بدا أنهم يزيدون من حدة الاضطراب والفوضى ، وبعد حوالي عشر دقائق من القتال العنيف ، تمكن الأرمن من دفع الأرثودوكس نحو كنيستهم الواقعة في الجهة الشرقية من صحن الكنيسة ، وأغلقت البوابات النحاسية الضخمة عليهم ، وساد السلام والصمت النسبي المكان لما يقارب الخمس دقائق.

نزل الباشا وحاشيته من الشرفة التي كنا نجلس تحتها ، وكان يشق طريقه للخروج من المكان عندما اندفع الأرثودكس وبحركة مفاجئة خارج كنيستهم ، وقبل أن يتمكن سعادته من المرور ، اندلع قتال آخر ، كان أكثر ضراوة وعنفا من الذي سبقه.

وتساقطت العصي والهراوات التي جلبت للأرثودكس من النوافذ العالية المطلّة على سطح ديرهم المجاور لكنيسة القيامة ، بينما كان الأرمن مزودين بما يكفي من هذه الأسلحة ، التي كان البعض منها مزودا بمسامير ثبتت عليها مسبقا ، ما يدعو للاعتقاد بأن القتال كان متعمدا ومخططا له في المقام الأول.

انطلقت صرخات مدوية وضربات عنيفة في جنبات الكنيسة من دون انقطاع ، وتعرض الباشا نفسه للإصابة بحيث فقد بعضا من أوسمته خلال الشجار ، وألقي بقائد الفرسان أرضا ، وتعرض العديد من الوجهاء وذوو المقامات الرفيعة لهجمات الجماهير الغاضبة ،

وألقيت قطع كبيرة من الخشب باتجاه المقصورات العلوية وهو ما زاد من حدة الفوضى والهياج ، حيث كان معظم الحضور يصرخون ويبكون من الخوف ، وفتح باب مقصورتنا على نحو مفاجئ واندفعت عبره مجموعة من النساء المتلفعات بملاءات بيضاء بحثا عن ملاذ آمن ، ثم أغلق الباب مجددا.

كنا نحن الجالسين في مقدمة المقصورة معرضين لخطر السقوط للمنطقة السفلية ، نظرا لأن الدرابزين الخشبي كان يتحرك ويميل للأمام بزاوية 45 درجة تقريبا ، وواجهت صعوبات جمة خلال محاولتي منع النساء العربيات من دفعي للأمام ، وكنّ مصابات بالهلع والذعر وقد انتابتهن نوبات عويل ونحيب مرير ، كما كانت البارونة الهولندية تمر بحالة خوف شديد ليس على نفسها بل على ابنتها الوحيدة ، التي كانت على الرغم من ذلك متماسكة ومتمالكة لرباطة جأشها وهدوئها وهي تحاول طمأنة المحيطين بها ومدهم بالشجاعة ، أما الراهب والأباتي راتيسبون فقد بدا عليهما الشحوب والذعر الشديد ، حيث قال لي الأخير: ما يثيرني ليس الخوف يا آنستي ، بل الغضب ، وكان الجنود يبذلون ما بوسعهم لإخلاء الكنيسة ، وكان من المتوقع أن يتلقوا أوامر بإطلاق النار على جموع الجماهير الغاضبة ، التي لم تكتفي بمهاجمة بعضها البعض ، فبدأت بالهجوم على محتويات المبنى نفسه ، فتعرضت صور القديسين والشهداء للإتلاف والتمزيق بعصي ذات رؤوس مسننة كانوا يحملونها في ملابسهم ، أما الفازات الخشبية المذهبة التي زينت غطاء الضريح الشبيه بالقفص ، فقد تم استهدافها عمدا بحيث سقط معظمها ، أما الكاهنان اللذان كانا يحاولان بشجاعة تسلق الجزء العلوي من الضريح ، في محاولة يائسة لإنقاذ الفوانيس المصنوعة من الفضة والكريستال وغيرها من الحلي النفيسة ، التي كانت موضوعة هناك ، فقد تعرضا لضرب مثير للشفقة خلال محاولتهما تلك ، وما إن كانت الحلي والتحف تنزع من أماكنها حتى كانت تستخدم كمقذوفات ترمى باتجاه المقصورات والشرفات العلوية ، وحدث أن تساقطت قطع كبيرة منها على مقربة منا نحن المتواجدين في مقدمة الشرفة ، ولكننا ولحسن الحظ نجونا من الإصابة ، وسيطر الرعب على السيدة الأسكتلندية لدرجة جعلتها تغيب عن الوعي ، ثم وبناء على إلحاحي ، تراجعت السيدات العربيات للوراء قدر الإمكان ؛

لإفساح المجال لمساعدتها في استعادة وعيها ، ولتمكيننا من الابتعاد لبوصات قليلة عن الدرابزين في مقدمة المقصورة ، وتصاعدت حدة العنف أكثر فأكثر ، ورأينا الناس وهي تصاب بجراح بليغة والدماء وهي تسيل من الرؤوس الحليقة والوجوه التي منيت بجراح شديدة الخطورة ، وأناساً يلقى بهم أرضا لتدوس عليهم أقدام الحشود المتراكضة ، وتعالت اللعنات والصرخات والصلوات اليائسة ، بينما استمر هذا القتال الضاري لما يقارب ربع الساعة ، ثم بدأ العنف بالانحسار تدريجيا ، وتمكن الجنود الأتراك من إجبار زعيم المتقاتلين على الخروج ، ولكن بعد أن نالوا نصيبهم من اللكم والركل.

عندما تم إخلاء المكان بشكل جزئي ، رأينا أرضية صحن الكنيسة وقد انتشرت عليها شظايا الزجاج المكسور والسلاسل الفضية المقطوعة ، وقطع المنحوتات والفوانيس المحطمة والمشاعل والطرابيش ، كما التمعت جنبات صحن الكنيسة بالزيت المسكوب من مئات القناديل التي سقطت على الأرض لتحطمها أقدام الجموع المتقاتلة ، وكنا نأمل أن لا يكون أصدقاؤنا قد تعرضوا للاذى ، لكننا سررنا جدا حين رأيناهم يجتازون صحن الكنيسة بصحبة الرحالة الإنجليز الذين كانوا من ضمن الحضور ، والذين كانت وجوههم جميعا شاحبة وتكسوها علامات القلق ، إذ إنهم فهموا أكثر منا نحن ، حجم الأخطار والأهوال التي كانت تتهددنا ، فقد كانوا في غاية الخوف من أن تشب النار في المنجور والأعمال الخشبية التي يضمها مبنى الكنيسة ، حيث يصبح الهرب من الشرفات والمقصورات مستحيلا ساعتئذ ، ثم اقتربوا للاطمئنان على سلامتنا وطلبوا منا الانتظار إلى حين وصولهم إلينا ، ووقف القنصل الفرنسي وقائد سلاح الفرسان أسفل شرفتنا تماما ، وكان التعب والإرهاق الشديدان باديين عليهما عندما تحدث إلينا القنصل الفرنسي قائلا: أتوسل اليكن يا سيداتي بأن لا تتحركن من أماكنكن

مرّ بعض الوقت قبل أن يتقرر بأن الوضع قد صار ملائما للسماح لنا بمغادرة مخبئنا بعد أن انتقل القتال الدائر للساحة الخارجية والشوارع المحيطة بالكنيسة ، وأخيرا جاءنا القنصل الفرنسي بصحبة أخي والعديد من الأصدقاء واصطحبونا بعيدا عن المقصورة ، واتضح لي بأن الزيت المسكوب على الأرضية الرخامية كان عمقه يبلغ ربع بوصة تقريبا ، بينما استمر

الجنود الأتراك بإبقاء المبنى تحت سيطرتهم ، وقد امتاز سلوكهم خلال الأحداث بالاعتدال وضبط النفس ، ومن الواضح أنهم بذلوا ما في وسعهم لتفادي حدوث حمام دم. كانوا قد تمكنوا من إخلاء الساحة الخارجية تماما عند قيامنا باجتيازها ، وقد اصطفوا في محيطها وهم يحملون حرابهم ، لكن الشوارع اكتظت بجموع من الناس المثيرين للشغب ، بحيث تمكن القواسون بصعوبة من تأمين الطريق وشقها لعبورنا ، وعند بلوغنا بأمان لمبنى القنصلية ، عاد شقيقي للكنيسة للاطلاع على حجم وطبيعة الأضرار ، وبادر ، وبدون مقاومة ، بأخذ هراوة غليظة من يد أحد الأرمن ، كان طولها يبلغ الخمسة أقدام وقطرها حوالي ثلاثة إنشات ، كما قام بتفحص عدد كبير من الناس المسلحين بالخناجر والأدوات الحادة.

قام الباشا بعقد اجتماع على الفور تقرر فيه أن تقام صلوات الأرمن والأرثودوكس في أوقات مختلفة في المستقبل ، من أجل تفادي وقوع مثل هذه المواجهات الخطرة والباعثة على المرارة ، وقد تأكد وقوع عدد قليل من الوفيات ، لكن الجراح التي أصيب بها البعض كانت بالغة الخطورة.

دخلت في حوارات مع عدد كبير من المتعلمين من أبناء الطائفة الأرثودكسية من الكهنة والعلمانيين على حد سواء ، حول طبيعة هذا الاحتفال ، واكتشفت أنهم جميعا ومن دون استثناء يشعرون بالخزي بسببه ، واعترف البعض منهم بمنتهى الصراحة بأنها شعوذة ، بينما اعتبرها البعض الآخر ضرباً من ضروب الاحتيال الديني ، لكنهم اتفقوا جميعا على عدم جدوى تشويش المعتقدات الإيمانية لدى جموع الناس ، الذين كانوا يؤمنون إيمانا متجذرا بأن الله نفسه ينزل للأرض ، ليقوم بحضوره الإلهي بإيقاد النار التي تعلو القبر في يوم السبت المقدس من كل عام. قال لي رجل دين أرثودكسي ، وهو رجل فاضل وصادق ، وفي حديث منفرد: لو كان من الممكن ، ولو أنه من المستبعد ، تحطيم الاقتناع السائد بصحة وواقعية هذه المعجزة الواسعة الانتشار والذائعة الصيت ، فسوف نتسبب بأذى يفوق حجم الفائدة المرجوة من ذلك ، إذ إننا سنكون قد قمنا بضعضعة إيمان الآلاف من المؤمنين الذين سيشككون بكل الحقائق بما فيها وجود الله ، وسوف يهجرون الكنيسة ليتركوا دون أية

كان بمقدوري أن أتعاطف معه من أعماق قلبي نظرا لصعوبة موقفه ، لكنني شعرت أكثر من أي وقت مضى بحجم وفداحة الخطأ القائل بمحاولة تعزيز وإثبات ما يسمى بالحقيقة بما هو معروف بأنه خطأ.

للأسف فإن المنطق الذي يستخدمه ذلك الكاهن الودود ، والمقيّد في آن ، هو منطق متداول ومعروف ، تم إثقال الديانات بطقوس وشكليات كثيرة ومتعددة ، لدرجة أن هذه الطقوس والشكليات اختلطت في أذهان عموم الناس مع الجوهر الحقيقي للدين والروحانية الكامنة فيه.

خشية الرجال من تشويشهم ، مخافة أن يختلط الحق بالباطل في آن واحد ، كأنهم يؤمنون بأن الديانة ببساطتها ونقائها ، عاجزة عن الصمود بمفردها.

متى سيتمكن الحق من الانتصار ومن أن يكون موضع ثقة ؟ متى سيقتنع الناس بأن الحق أقوى وأكثر أمنا من الأباطيل والحيل ، وبأن الأخطار دائما ما ترافق تعليم وتعزيز الباطل ، ولكن لا خطورة في الاعتراف بالخطأ ؟

(ستعرفون الحق ، والحق يحرركم يوحنا)8:3

{ ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون} القرآن الجزء الثاني ، ترجمة سيلز. (الآية 42 من سورة البقرة- المترجم)

الجوهر الفعلي للحق هو بساطته ووضوحه ميلتون

الحق أقوى وأعظم من الأشياء كافة ، فهو يحيا وينتصر دائما وأبدا ، وهو القوة والملكوت والسلطان على مر العصور ، تبارك الإله الحق زوروبابل

حاول البعض الدفاع عن إقامة هذا الاحتفال كونه عادة قديمة ومتوارثة ، لكن وكما قال سيبريان:

العرف القائم على الباطل ليس إلا أخطاء تراكمت على مر الزمان

هناك ، لسوء الحظ ، دافع قوي أخر للاستمرار بهذه الخزعبلات ، إذ ينفق الحجاج أموالا

طائلة سنويا في فلسطين التي يتقاطر عليها الحجاج من جميع أصقاع روسيا واليونان وتركيا ، ما يدعو أهالي بيت المقدس وبيت لحم والناصرة لاعتبار عيد الفصح كموسم الحصاد بالنسبة لهم.

الكهنة وأصحاب الحوانيت وصانعو الذخائر المقدسة وأرباب البيوت ومالكو الجمال والخيول ودواب حمل الأثقال من الأنواع كافة سيتأثرون بهذا بشكل أو بآخر إذا توقف موسم الحج السنوي ، ونظرا إلى أن النار المقدسة هي محور الاهتمام والسبب الجاذب الرئيسي ، فإن الإغواء الكامن وراء تشجيع الخزعبلات يكون كبيرا جدا.

هل يمكن اعتبار هذه الاحتفالية الغريبة تقليدا لطقوس عبادة النار القديمة ؟ هناك موقعان أو ثلاثة مواقع مقدسة لدى المسلمين يقال بأن النار تشتعل في داخلها بطريقة إعجازية في أيام معينة ، كما قيل لي بأن مسيحي بلاد الشام يؤمنون منذ القرن التاسع بأن أحد ملائكة الرب قد عُين خصيصا لإشعال القناديل التي تعلو قبر السيد المسيح عشية عيد الفصح من كل عام.

الفصل الثاني عشر

قبيل حوالي الساعة من مغيب شمس يوم السبت العظيم ، ركبنا خيولنا وخرجنا من المدينة ، ونحن سعداء باستنشاق الهواء النقي ، بعد الإنهاك والإثارة اللذين مررنا بهما صبيحة ذلك اليوم ، فعبرنا بوابة يافا وأخذنا جولة حول بيت المقدس ، على مقربة من أسوارها ، شاهدت خلالها العديد من الفلاحات الفقيرات الصغيرات في السن وهن يخرجن من بيارات الزيتون الواقعة قبالة بوابة دمشق ، وقد ارتدين نقابات ممزقة من القطن الأبيض ، وأثوابا من الكتان المحبوك منزليا ، وكنّ جميعهن حفاة الأقدام ، لكن السعادة كانت بادية عليهن ، وهنّ يحملن في أيديهن السمر أغصانا وورودا ، كانت واحدة منهن تحمل غصنا من الزعرور البري المكلل بوريقات خضراء غضّة تتوسطها براعم بيضاء صغيرة ، كانت هذه أول بوادر شهر أيار التي رأيتها حتى ذلك الحين ، وبسعادة غامرة أوقفت جوادي وسألتها عما إذا كانت تقبل أن تعطيني جزءاً منه ، فنظرت إلي بوجهها الصبوح ، وحين رأت البرعم الصغير المعقود على صدر ثوبي ، بادرتني قائلة: يا ستي ، إذا بتعطيني الورده اللي على صدرك ، بعطيكي الزعرور ، وبالفعل ، أتممنا عملية التبادل.

في الثاني من أيار/ مايو ، بلغتنا أنباء عن نشوب مناوشات خطيرة بين الأطراف المتنازعة في منطقة جنين ، كانت قرية خبيزة ذات البيوت الطينية ، التي مررنا بها في طريقنا إلى كفر قرع ، مسرحا للقتال الذي اشترك فيه العديد من الناس الذين تعرفنا عليهم فيها.

سافر شقيقي في الخامس من أيار إلى حيفا عن طريق نابلس وجنين ، وبقيت لوحدي من جديد مع أصدقائي الطيبين في دار القنصلية ، حيث استمتعت بأوقات الفراغ ، وحظيت بفرص وفيرة لممارسة هواية الرسم والقراءة ، ومراقبة كل ما كان يدور من حولي.

لم يهطل المطر مجددا وازدادت حدة الشمس يوميا ، واستمر الرحالة الإنجليز بالقدوم كل بضعة أيام ، ودائما ما كنت أحظى بمتعة مرافقتهم وإرشادهم في جولاتهم في مدينة بيت المقدس ، وفي طلعاتهم الاستكشافية للمناطق المجاورة لها.

نمت الورود بوفرة في هذه الأيام ، وحل موسم عمل ماء الورد وحفظ الورد بالتسكير ،

وكانت القرويات يحضرن أحمالا من الورد للمدينة في كل صباح ، وكان من الممكن رؤية هولاء النسوة وهنّ يتوقفن في طريقهن عند جدول ماء لإفراغ سلالهنّ في المياه المترقرقة ، ما يملأ قاع الجدول بالورود ، ربما كنّ يقمن بذلك ، كما يقلن من أجل غسل ورودهنّ فحسب ، لكي تبدو أكثر نضارة أو لتبدو وكأنها قد اغتسلت بقطر الندى ، لكنني أرجح أنهن كن يقمن بذلك لكي يجعلن الورد يزن أكثر من وزنه الفعلي ، كونه يباع في السوق حسب الوزن.

يوم الأربعاء السابع من أيار هبت على المدينةرياح شهيلي (سيريكو) لافحة وقوية ، وخرجت في وقت مبكرة من ظهيرة ذلك اليوم بصحبة إسكندر فن وابن عمه أل. واتجهنا إلى وادي النار (وادي هينوم- وادي جهنم- المترجم) ، حيث كان الهواء عابقا بشذى الزعرور البري المكلل بالبراعم ذات اللون الزهري والأبيض ، وكانت أشجار الزيتون قد أزهرت ، وزهت أشجار التين بأوراقها الخضراء الغضة ، اجتزنا حقل الدماء ثم بلغنا عين روجيل ، خلا القاع الصخري للنهر من المياه ، ومع ذلك فلم تكن المياه قد ذهبت سدى ، فقد امتلأت خزانات المياه وارتوت الأرض الظمأى ، وتعمقنا نزولا إلى بطن الوادي فقطعنا قاعه الجاف وترجلنا عن خيولنا ، وشرعنا بالصعود حتى منتصف المسافة الموصلة إلى أعلى التل ، حيث بلغنا نتوءاً صخرياً طبيعياً في مقدمة جرف شديد الانحدار ، كان أل مصرا على أنه كان كهفا ، مع أنني لم أر إشارة تدل على وجود كهف في المكان ، وكان هذا النتوء البارز يعج بالأشواك الطويلة ، بحيث بات من المتعذر العثور على موطئ قدم فيه ، فكسرنا الأشواك وعثرنا على الباب الذي تخفيه خلفها ، ارتفع الجزء العلوي من الباب قليلا عن مستوى الجرف الصخري المائل باتجاهه ، بحيث يشكل ما يشبه المدخل الخالي من الدرجات لقبو تحت أرضي ، وبمساعدة الحاج علي والعصا التي كان يحملها ، وبالتشبث بالجذور والأعشاب ، تدبرنا أمرنا ونجحنا بالانزلاق إلى داخل الباب الذي أخذت قياساته وهي أربعة أقدام في سبعة ، وبعد مرور حوالي الدقيقتين ، اعتادت أعيننا على الظلمة المباغتة في الداخل ، وصار بمقدورنا تمييز الأشياء المحيطة بنا جزئيا ، على الجهة اليسرى في الجزء الداخلي من الكهف انتصبت قاعدة تمثال ضخمة وجرداء بالكامل ، ثم مضينا متجهين للأسفل انزلاقا وتزلجا بحذر

شديد ، واحدا تلو الآخر ، متوغلين أكثر فأكثر في الظلمة الحالكة السواد ، إلى أن وصلنا إلى عمود ذي قطر يبلغ اثني عشر قدما ، يسند سقفا بدا لي بأنه يرتفع حوالي عشرين قدم فوقنا ، وكانت قاعدة هذا العمود منخفضة جدا عن مستوى الباب ، وكون العمود قائما في الجهة المقابلة للباب تقريبا ، فقد التقط أحد جوانبه قليلا من الضوء المنعكس ، حيث نمت السرخسيات هناك بوفرة ، بينما خلت الجوانب الأخرى إلا من طحالب قليلة وباهتة وفطريات قصيرة ذات أشكال غريبة ، رفعت بعض السرخسيات لأتفحص الحجر الذي نحت منه العمود ، فتبين لي بأنه كان ذا بياض ناصع وبدأ بالتفتت بسهولة بفعل لمستي.

في تلك الأثناء ، كان اسكندر وأل. يستكشفان التجاويف الأكثر بعدا داخل المغارة ، وأعطتني صورة أجسادهم البعيدة التي بدت كأشباح من بعيد ، تصورا عن عمق ومساحة المغارة ، واستمرت أرضية المغارة التي كانت ذات طبيعة طفالية بالانحدار ، حيث رأينا ثلاثة أعمدة أخرى بالغة الضخامة ، كان ارتفاع أبعدها يبلغ ثلاثين قدما تقريبا باعتقادي ، نبهني مرشديني بأن لا ألحق بهم عندما بلغوا بركة كبيرة وضحلة من المياه ، تكونت بفعل تسرب مياه الأمطار عبر المدخل المنحدر ، وشكّلت قناة طبيعية أوصلتها إلى قعر المغارة ، جالبة معها تربة خصبة من الأرض المستوية التي تعلوها ، وكان خرير المياه ينساب بهدوء من بين الجدران وعبر سقف المغارة ، وكانت الخفافيش التي انزعجت لقدومنا تتخبط وهي تطير عكس اتجاهنا بين الحين والآخر ، وانتابتنا قشعريرة قوية بسبب الرطوبة والبرودة السائده داخل المغارة ، والتي تجعل جوها أشبه بأجواء الموت ، ثم عدنا لنصعد من جديد ، وساعدنا الحاج علي في بلوغ الأرض المستوية بسلام ، حيث كنا توّاقين لاستنشاق الهواء النقي في الخارج ، فاسترحنا لدقيقة أو دقيقتين بينما اعتادت أعيننا على ضوء النهار ثانية ، وحظينا بفرصة لنتشمس في أشعة الشمس الدافئة.

مشينا فوق أرض صخرية وعرة نبتت فيها الأشواك الكثيفة إلى أن وصلنا إلى تجويف كبير داخل جرف صخري منحدر ذي لون أبيض ، كان شبيها بالغرفة المفتوحة بالكامل من إحدى جهاتها ، بارتفاع يبلغ الإحدى عشرة قدما وعمق يناهز العشر أقدام ، وعرض يبلغ أربع أقدام ، ومن مظهرها العام ، يمكن القول بأنها كانت تجويفا طبيعيا تعرض لتعديلات

وتحسينات فنية من صنع الإنسان ، ففي أجزاء منها ، بدا وكأن السقف قد غطي في زمن ما بطبقة خشنة من الإسمنت ، أما جدرانها البيضاء فقد كانت رطبة للغاية ، وقد ازدانت بحزازيات من أجود ما رأيت في حياتي ، والعديد من النباتات العاشقة للظل والتي انتشرت وأينعت بكثافة ، وشقت النباتات المتسلقة طريقها من كل صدع وشق في الجدران ، ولا بد بأن هذه المغارة قد آوت في زمن ما سكاناً من بني البشر ، ولربما يكون قد أقام بها ملوك وكهنة ورسل في وقت ما من الزمن الغابر.

قام اسكندر بتسلق التل ونادانا قائلا: عثرت على مكان بالغ الجمال هنا في الأعلى ، تعالوا وانظروا فتبعناه بصعوبة لنجده متمددا على بطنه وهو يمعن النظر في فتحة معتمة بارتفاع القدم تقريبا ، وبعرض ست أقدام على مستوى سطح الأرض ، والتي قال بأنها تشبه جحراً كبيراً لثعلب ، وكان من الصعب علي أن أدخل هذه الفتحة ، لكنني توقفت للنظر بداخلها ، وكان بمقدوري رؤية الأضرحة القديمة التي كانت بداخلها ، والتي استطعت تمييز أربعة منها ، نحتت باعتقادي من صخرة صلبة تم تزيينها بقوالب جميلة وكتل صخرية ناتئة ، ويبدو أن المكان يستحق المزيد من الفحص والاستكشاف المعمّق ، إذ من المرجح أن يختفي المدخل بشكل كامل سريعا بفعل الحجارة والطمي المتساقط من الأعلى ، بالإضافة إلى النباتات التي تنمو بكثافة في الجوار ، ولا يوجد ما يربط هذا المكان بأي من الموروثات المتداولة ، وربما كان هذا هو السبب وراء ندرة ذكر هذا المكان من قبل الرحالة والمستكشفين.

امتطينا صهوات جيادنا وعدنا أدراجنا للبيت ، ونحن نشخص بأبصارنا صوب القطاع الجنوبي الشرقي من المدينة المقدسة ، كانت أشعة الشمس تغمر الأسطح في الجزء السفلي منها ، في الوقت ذاته الذي خضبت في حقول الحنطة بلون يشبه الزمردي الأخضر. وعلى ميمنة الطريق ، وفوق عين روجيل ، بدت لنا أطلال سلوام ، وكان بمقدورنا رؤية نصب أبشالوم (36) وعندما انعطفنا حول سفح جبل صهيون ، جمع الحاج علي أغصاناً جميلة من شجر الرمان المغطاة بالبراعم اليانعة ، والتي كانت أول ما رأيت من الرمان في تلك السنة. تذكرنا بأن رمضان ، الشهر الذي يمتنع فيه أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) عن الطعام

والشراب ، يصومون خلاله نهارا ويفطرون ليلا ، قد بدأ في يوم الأحد الفائت ، فأسرعنا الخطى لكي يتمكن الحاجي علي من تحضير وجبة المساء (الإفطار الرمضاني-المترجم) لتكون جاهزة للأكل عندما يحين موعد إطلاق مدفع المغرب-القذيفة التي تطلق عند مغيب الشمس- والتي يبعث صوت انطلاقها الفرح لدى الجياع والعطشى (الصائمون-المترجم) من المسلمين. لم يتناول المسكين الحاج علي طعاما ولم يدخن غليونه منذ الفجر ، فهذا الصيام الذي يمتد لثلاثين يوما يحظى بمراعاة واحترام زائدين من قبل الناس من شتى الشرائح والطبقات الاجتماعية(37).

في يوم الخميس الثامن والعشرين من أيار / مايو ، تلقيت دعوة لزيارة المدارس الجديدة للبنات اليهوديات من قبل السير موسيز مونتيفوري ، كان صباح ذلك اليوم وضّاحا وجميلا ، اجتزنا ثكنات الجنود وعبرنا الشارع المؤدي إلى دير الأرمن ، كانت الشمس في كبد السماء في وضع عمودي تقريبا ، وعكست الأرضية المرصوفة بالحجارة المصقولة للشارع حرارة ووهج الشمس ، وبالكاد ألقت الجدران المرتفعة للبيوت على جانبي الطريق ظلالا تحتها. المشربيات الصغيرة المنتشرة هنا وهناك ، والأزهار اليانعة التي أينعت على التعريشات الخشبية أو تلك التي تدلت من الأسطح ، هي التي ألقت بظلال ناعمة على الأرض المحيطة بها فقط ، وكان الهواء ساكنا ، فقد كان وقت الظهيرة وخلت الشوارع العريضة المقفرة والمكشوفة والصامتة من المارة ، وحتى الكلاب كانت نائمة وكأنها استسلمت للحرارة والوهج ، وانعطفنا يسارا واجتزنا قوسا حجريا كان في ما مضى بوابة لمسجد عتيق ، والتففنا خلف دير الأرمن فوجدنا أنفسنا في حارة اليهود ، وسرعان ما كنا نقرع باب دارة المدرسة ، الذي علته حروف عبرية نقشت في الجزء العلوي منه.

قمت بتفحص النوافذ خلال انتظارنا للدخول ، اثنتان كانتا عبارة عن فتحتين مربعتين مكشوفتين ، والثالثة كانت مشربية تبرز بعيدا عن الحائط ، كنا قادرين على رؤية أزهار يانعة صغيرة عبر فتحاتها الخشبية المزخرفة ، وكانت النافذة الرابعة مشربية خشبية مربعة كبيرة مسنودة بكتف حجرية ومحمية بشرفة حديدية ، تجمع عدد من البنات اللاتي تبدو السعادة عليهن للنظر إلينا من خلالها ، كانت إحدى هولاء المخلوقات الجميلات ذات

عيون غامقة وقد اعتمرت طربوشا أحمر صغيرا وضعته على رأسها ، وقد غرزت وردة في شعرها الأسود ، وارتدت الأخريات مناديل من الموسلين الناعم بألوان متعددة وقد ربطت بأناقة على رؤوسهن.

ولجنا البوابة وعبرنا ساحة صغيرة ، وصعدنا درجا مكشوفا ينتصب على شرفة تحولت جدرانها الواطئة والعريضة إلى حديقة ، وانتشرت قواوير الورود التي كانت جزءاً من البناء ، على مسافات متساوية من بعضها البعض على الجزء العلوي من الجدار ، بحيث شكّلت في مجموعها متراسا مليئا بالورود يولد شعورا جميلا ، وقد شذبت النبتات لتكون ذات شكل وطول متناسق ، وخلقت الورود والقرنفل وغيرها من الأزهار أثرا مغايرا ومعاكسا لشجيرات الآسيّة والياسمين بأوراقها الخضراء الغامقة اللون والجدران البيضاء المحيطة بها.

استقبلتنا سيدة يهودية من اسبانيا بأدب جم في تلك الساحة ، واصطحبتنا إلى غرفة يغمرها النور وتبعث البهجة بالنفس ، تضم في جنباتها مجموعة من الفتيات تراوحت أعمارهن بين سن السابعة والرابعة عشرة تقريبا ، أحصيت إحدى وثلاثين طفلة ، لكن عددهن الكامل في الأيام الاعتيادية يبلغ خمساً وثلاثين فتاة ، وخلقت الصفوف الثمانية للمقاعد الدراسية المزدوجة هوية أوروبية للغرفة ، أما كرسي المعلمة الشبيه بالمنبر فقد أوحى بسيادة السلطة والنظام داخل الصف الدراسي.

انخرطت جميع البنات تقريبا بأعمال التطريز ، وقامت مرشدتنا بفخر وسعادة بالغين بعرض مجموعة لا بأس بها من الملبوسات ، التي كانت نتاج مجهود الصف طوال أسبوع ، وكانت القطع القماشية البسيطة مشغولة بأناقة بالغة عند الأخذ بعين الاعتبار أن معظم العاملات الصغيرات لم يعرفن حرفة الحياكة والتطريز قبل ستة أو سبعة أشهر. لم تكن المعلمة قادرة على إخبارنا ما الذي يحل بالقطع التي يتم إنتاجها ، كونها تقوم بتسليمها في نهاية كل أسبوع ، وبدت الفتيات منهمكات وسعيدات في عملهن ، وكان بعضّهن في غاية الجمال ، وقامت فتاة ذات طول فارع ومظهر جليل في الرابعة عشرة من عمرها تقريبا بأداء دور المراقب ، وكانت تجيب عن أسئلتنا باللغة العربية بأدب ورباطة جأش بالغين ، وكانت تتحرك بين تلميذاتها بكياسة ووقار طبيعيين ، جميع البنات كن من السكان الأصليين

لفلسطين ، وكنّ يتحدثن العربية ويرتدين أزياء فلسطينية ، إذ كانت رؤوسهن جميعا وبلا استثناء ، مغطاة إما بمناديل من الموسلين أو بطرابيش حمراء صغيرة.

فتحت نوافذ هذه الغرفة على مصاريعها ، وكانت تطل على جهة المشرق وتشرف على جبل الزيتون بأكمله ، وعلى سلسلة جبال مؤاب التي يغطيها الضباب والسديم في الأفق البعيد ، وهّب نسيم الظهيرة بشكل مفاجئ ، وساعد على تبريد أجواء الغرفة الحارة بعض الشيء.

و بعد أن أمضينا بعض الوقت مستمتعين بالمشهد ، اقتدنا إلى غرفة مجاورة بنفس مساحة وشدة ضوء ودرجة تهوية الغرفة التي غادرناها ، ووجدنا فيها ثلاثين طفلة تشرف عليهن معلمتان ، كانت إحدى الفتيات الصغيرات تتلقى درسا في اللغة العبرية ، وتتهجأ كلمة من حرفين بحرص وانتباه شديدين ، وطفلة أخرى في السابعة أو الثامنة من عمرها تقرأ بتردد بسيط نصا عن تاريخ الكتاب المقدس ، بينما جلست بقية التلميذات باسترخاء وارتياح ، ولكن بنظام وترتيب على حصير على الأرض أو على مقاعد نافذية مغطاة بالسجاد ، حيث مّيزت بينهن الوجوه السعيدة التي رأيتها على النافذة من الشارع في الأسفل ، فنظرن إلي بوجوه باسمة ولسان حالهن يقول: لقد عرفناك ، لقد رأيناك تنتظرين عند الباب

انكببن جميعهن على أعمال الحياكة والتطريز ، ولم أتمالك نفسي من متابعة دقة ورهافةأيديهن وهي تعمل ، وإذا كانت هذه الميزة كما يقال دليلا على نُبل وكرامة المحتد فلا بد أن تكون هذه البنات من إسرائيل منحدرات من سلالة ملكية ، كانت بعض الأيدي الصغيرة قد خضبت بالحناء التي صبغت أظافر الأصابع الصغيرة كلها ؛ فبدت كالأصداف الرقيقة ذات اللون الوردي التي نجدها على الشواطئ الإنجليزية.

كانت البنات جميعهن نظيفات وذوات هندام مرتب بلا استثناء ، وكن يرتدين أزياء متنوعة وجميلة أصابتنا بدهشة مشوبة بالارتياح ، تتناقض مع ما تحفظه ذاكرتنا من صور للزي المدرسي القبيح المفروض في بعض المدارس الحكومية في الوطن والخارج ، وبينما كنا نهم بالرحيل ، تمالكت واحدة من المخلوقات الصغيرة الخجولة جرأتها وقدمت لي الوردة الصغيرة المعقودة في شعرها ، ثم أخذت ترمقني بمكر من تحت أناملها الصغيرة التي غطت بها عينيها.

كانت هاتان الغرفتان قد خصصتا للبنات اللاتي ينحدر آباؤهن من طائفة اليهود السفراديم (اليهود الشرقيين-المترجم)، والتي تتكون من اليهود الإسبان والبرتغاليين المستقرين في بيت المقدس.

عدنا مجددا عبر السلالم للساحة الصغيرة، فقطعناها وصعدنا من جديد عبر سلالم أخرى؛ لنجد أنفسنا في في المدرسة المخصصة لبنات طائفة اليهود الإشكناز (اليهود الغربيون-المترجم) والتي تتكون من اليهود الألمان والروس والبولنديين، وجدنا هنا خمس عشرة طفلة كن جميعهن تحت السابعة من العمر، وكن أكثر لطفا وإن أقل جمالا من زميلاتهن في الغرفتين الأخريين، وكن جالسات باسترخاء وارتياح فوق مقاعدهن الدراسية، وقد تدلت أقدامهن على الكراسي الملحقة بالمقاعد، وكان من اللطف والذكاء أن يسمح لهن بهذه الحرية في هذا الجو الحار والشديد القيظ، لم تبد على الوجوه الصغيرة المحيطة بنا أية علامة من علامات الإعياء أو أية إشارة من إشارات التذمر بفعل الانضباط، كانت هناك أذهنة نشطة وأجساد مسترخية في جو منعش!

يمتاز يهود بيت المقدس بحرصهم على أن لا يختلط أطفالهم مع أقرانهم من المسيحيين والمسلمين، ولا يسمحون لهم بالابتعاد كثيرا عن منازلهم أو باللعب في الشوارع والطرقات، خوفا من أن يكتسبوا أو يتأثروا بالعادات السيئة أو أن يجبروا أو يتم أغواؤهم لإعتناق المسيحية، وهو الأمر الذي كان ينجم عنه حبس هولاء الصغار طوال اليوم تقريبا داخل الغرف الضيقة ذات التهوية السيئة في بيوت حارة اليهود، إلى أن تأسست هذه المدرسة، حيث يتجمعن هنا يوميا في الصباح الباكر، ليعدن إلى بيوتهن عند مغيب الشمس، بعد أن يحصلن على ساعات كافية للاستراحة والأنشطة الترفيهية والوجبات الغذائية، وقد طرأ تقدم ملحوظ على مظهرهن، فقد تحسنت صحتهن وصارت حياتهن أكثر سعادة.

كانت طفلة في الخامسة من عمرها، ذات وجنتين متوردتين وعينين زرقاوين وشعر أبيض بالكامل تقرأ بصوت مرتفع نصا من كتاب باللغة العبرية، وبدا جليا بأنه يسيطر على انتباهها تماما، فاستفسرت عما إذا كانت تحفظ ما كان يخرج من فمها من كلمات عن ظهر قلب،

فأكد لي مرافقي بأنني كنت أستمع إلى قراءة أصيلة وغير زائفة.

نزلنا الدرج واتجهنا إلى غرفة الصف الألماني الآخر ، حيث تراوحت أعمار معظم الفتيات بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة بينما كانت البقية أصغر سنا ، وسمعنا فتاتين من البنات الأكبر سنا تقرآن عدة صفحات عن حياة النبي موسى ، من كتاب مؤلف خصيصا للنساء والأطفال ، وهو عبارة عن ملخص للتاريخ التوراتي للنبي موسى ، بلغة طريفة وجافة تتألف من خليط من اللغتين العبرية والألمانية ، وكان مطبوعا بالأحرف العبرية وموشىً بزخرفة طبعت بقوالب خشبية على طريقة ألبرخت دورر.

احتشد في هاتين الغرفتين الصفيتين خمس وخمسون تلميذة بالإجمال.

ثم قادتنا المسؤولة عن المدرسة ، والتي رافقتنا في جولتنا بين الصفوف ، إلى الغرفة الخاصة بها ، وعرضت علينا بعض القمصان التي كانت قد حبكتها حسب الطلب بمساعدة التلميذات الأكبر سنا ، كانت مدروزة يدويا وبعناية فائقة ، وبدا عليها السرور عندما نالت أعمالها إطراءنا وإعجابنا ، نظرا لأن حياكة القمصان كانت نجاحا جديدا للمدرسة ، بسبب اعتياد يهود المشرق على ارتداء ملبوسات تحتية أكثر بساطة من قمصان كهذه.

أستأذنا منها بالرحيل وقفلت راجعة إلى دار القنصلية وأنا في غاية الإرهاق ، وذهب أصدقائي لزيارة مدارس روتشيلد وزودوني بتقرير إيجابي جدا عن أوضاعها في وقت لاحق.

تحريت عن هذه المدارس عند زيارتي لبيت المقدس في العام 1859 ، وخصوصا عن المدرسة التي أسسها السير أم مونتيفوري ، وكنت أعتزم زيارتها ثانية ، وفوجئت وحزنت كثيرا عندما تناهى إلى علمي بأنها لم تعد قائمة ، وفشلت في معرفة تفسير مقنع لذلك أو للتوصل إلى السبب الكامن وراء إغلاقها. في اعتقادي فإن السبب الرئيسي وراء ذلك كان لا مبالاة المشرقيين وعدم اكتراثهم بتعليم البنات.

قام السيد والسيدة فن ، في الثالث عشر من أيار/ مايو ، ونيابة عن جمعية بيت المقدس الزراعية بشراء قطعة جميلة من أراضي وادي أرطاس ، حيث أتيح لي أن أكون شاهدة على إبرام وإتمام الصفقة ، إذ تجمع عشرة من أكثر من رأيت من العرب شراسة وجلافة في مكتب

القنصلية ، مع زعيمهم الذي كان رجلا طويلا وضخما يسمى بالشيخ صاف (ربما كان صافي-المترجم) ، والذي تقول الروايات المحلية إن أسرته اشتهرت طوال قرون بطول وقوة رجالها(38).

تقدمت السيدة فن ووقفت في وسط مجموعة الرجال وقالت: يا شيخ ، هل توافق على البيع ؟ فأجابها الشيخ صاف: موافق عالبيع يا ستي ، انتي بدك تشتري ؟ فأجابت السيد فن: راح أشتري يا شيخ ، وبعد ذلك ، تمت تلاوة عقد الشراء ، الذي كان قد كتب مسبقا ، وتم التوقيع عليه وختمه ، ومن ثم قبض الشيخ مبلغ 150 ليرة ذهبية إنجليزية عدا ونقدا استلمها بقدر كبير من الرزانة والوقار واللامبالاة الواضحة ، لكن رجاله كانوا يجولون بأبصارهم بعيون تشبه عيون الصقور ، وبعد ذلك ، نثرت حوالي المائة قطعة معدنية من العملة الأقل قيمة على أرض المكتب ، وذلك جريا على العادات المرعية ، حيث قام جميع الحاضرين بالانقضاض لجمعها بلهفة وحماسة ، وتسمى طريقة البيع هذه ، والتي تتم مقابل ثمن يتألف من مبلغ معلوم وآخر غير معلوم ، البيع لقاء ثمن غير معلوم ، فإذا لم يتم اتخاذ هذا الإجراء الاحترازي لدى إبرام الصفقات مع القبائل العربية ، فقد يضطر المشتري ملزما حسب العرف السائد ، بإعادة العقار المباع إلى مالكه الأصلي الذي اشتراه منه في أي وقت ، لقاء استرداد المبلغ الذي دفعه عند الشراء.

دعي الشيخ صاف واثنان من كبار مرافقيه لاحتساء القهوة في غرفة الاستقبال ، حيث أقسموا أغلظ الإيمان وقطعوا وعودا كثيرة للفاضلة السيدة فن على أنهم سيتولون حماية الأرض ويفدونها بأرواحهم وكأنها ما زالت ملكا لهم ، ثم غادروا والرضا عن الصفقة باد بوضوح عليهم.

توجه السيد والسيدة فن إلى أرطاس في الخامس عشر من الشهر لقضاء بضعة أيام فيها لتغيير الجو وللإشراف على ترتيبات تسييج وحراثة الأرض المشتراة حديثا ، ووجهت لي دعوة لإمضاء يوم بصحبتهم برفقة الرحالة الإنجليزي السيد دبليو. واسكندر فن ، وانطلقنا من القنصلية لدى شروق الشمس وقطعنا بخيولنا سهل ريفايين في طريقنا إلى قبر راشيل ، ثم صعدنا التلال المحاذية لبيت لحم ، وكان مرشدنا قواس مخضرم وخبير ، بينما امتطى

ديبهو ، خادمنا الحبشي بغلا وسار خلفنا ، وبلغنا الوادي الجميل بعد حوالي الساعتين ، فبدا لي أكثر جمالا من أي وقت مضى بجداوله الرقراقة وأشجارة الريانة بالفواكه ، وشجيرات الورد الموشاة بالزهر والورود.

وجدنا أصدقاءنا بانتظارنا ، جالسين على المدخل الفسيح لمغارة جافة على صخرة كلسية تقع فوق أرض البستان الجديد تماما ، ثم اتجهنا جميعا إلى عرزال السيد ميشوليم ، حيث أرتني زوجته غربالا كبيرا مملوءا بالورد اللطيف ، الذي كان قد قطف قبل شروق الشمس ، وتناولنا طعام الفطور في الغرفة العابقة بشذى الورود ، وأخذنا قسطا سريعا من الراحة في الديوان الذي فرش فوق الصخور ، تحت شجرة تين عملاقة وفرت لنا أوراقها الكبيرة ملاذا مريحا من الشمس.

ثمة من اقترح الخروج في نزهة ، فامتطينا خيولنا وتولى السيد فن قيادة الركب باتجاه الجنوب الغربي فوق ربوة شديدة الانحدار بدت وكأنها لم تطأها سوى حوافر الماعز البري والأرانب ، لدرجة أننا عندما شرعنا بالنزول عنها وجدنا أنفسنا مضطرين للترجل عن خيولنا التي قدناها واحدا تلو الآخر ، تزلجا وانزلاقا ، فوق صخور ملساء وحجارة غير ثابتة ، إلى أن بلغنا أرضاً منبسطة ومستوية شكلت حوضا طبيعيا للورود والأزهار البرية ، توقفنا عندها انتظارا لأعضاء مجموعتنا الذي فضّلوا سلوك طريق أكثر سهولة عبر الالتفاف حول سفح التلة ، والذين بدا أنهم سبقونا فتذكرنا ان آموس ، النبي والراعي الذي روي عنه أنه قال: هل تجري الخيل فوق الصخر ؟ ، سكن غير بعيد من هذه المنطقة ، ولا بد أنه كان يرى الخيل عادة وهي تكبو عندما كانت تعبر ربى كالربوة التي كنا عليها ، ثم عاودنا امتطاء خيولنا جميعا من جديد ، واتجهنا صوب واد ضيق تكثر فيه نباتات الزعتر البري والميرمية بألوانها الزرقاء والصفراء والحمراء والبيضاء ، حيث نمت بوفرة بين مفاصل الصخور الرمادية اللون ، نصف المغطاة بالطحالب والحزازيات البرتقالية اللون ، وكان الهواء دافئا وعبقا بالشذى.

كان في مدخل الوادي ربوة مستديرة مكللة بأجمة من الأشجار القصيرة التي انتصبت في ظلالها خيمة بيضاء ، أما سفوحها الشمالية والغربية فقد كانت خضراء بفعل حقول القمح التي انتشرت فوقها ، وقد خلقت هذه الأرض المفلوحة تضادا غريبا مع التلال المحيطة بها ،

والتي خلت من أي أثر للإنسان ، وقد غمرت مشاعر الدهشة التي انتابتنا السيد ميشوليم بالفرح والسرور ، فأخذ يشرح لنا كيف قام باستصلاح الأرض وبنثر البذار فيها ، بحيث نجح في عمل بستان على ذروة التل ، كانت تربة الأرض ذات خصوبة عالية لكنها انتشرت كطبقة رقيقة على سطح الصخور(39).

و أحاطت تلال أكثر ارتفاعا بالمكان ووفرت له غطاء طبيعيا ، وتابعنا الصعود التدريجي إلى أن بلغنا أعلى قمة في سلسة التلال ، مطلة على مناطق شاسعة من شتى الاتجاهات.

تمكنت من تمييز البحر الميت على الفور حين نظرت باتجاه الشرق ، حيث كان بهدوئه وزرقته ، وخلفه مباشرة يمتد خط الأفق فوق مرتفعات مؤاب الطويلة ، بينما كانت بقية المشهد بالنسبة لي أنا والسيد دبليو لا تعدو عن كونها متاهة من التلال ذات الألوان الأبيض والرمادي والبني والأودية الظليلة ، التي بدت كرقعة الشطرنج بفعل عبور السحب والغيوم من فوقها ، وخلت من أية طرق أو معالم رئيسية.

شرع السيد فن بتسمية الأماكن والتضاريس المحيطة بنا ، وسرعان ما تمكنت من تمييزها ، كنا نقف باتجاه الشرق ، وبدأ بالحديث قائلا: ذلك الوادي المعتم على يميننا الذي يتألف من سلسة الصخور الواقعة على هذا الجانب من البحر الميت هي برية عين جدي حيث سكن داوود في حصون منيعة في الفترة التي أمضاها في المنفى ، وتلك القمة التي تبدو كفوهة بركان خامد ، التي ترتفع فوق ذرى التلال المجاورة هي قمة جبل الفرنج ، ويطلق عليه العرب اسم جبل الفريديس ، أي جبل الفردوس الأصغر ، وعلى مسافة قصيرة على يمينه ، فوق تلك الهضبة المستوية والمستديرة ، تقع أطلال تقواع حيث حرس عاموس قطعان الماشية والأغنام ، وجمع التين البري في أيام حكم عزيا ملك يهوذا ، قبل سنتين من وقوع الزلزال ، سنذهب هناك ذات يوم ونبحث عن امرأة حكيمة ، ثم تابع وهو يستدير صوب الشمال الشرقي قائلا: هل ترون ذلك المنخفض في تلك السلسلة الطويلة ؟ أنعموا النظر قليلا إلى الميسرة ، وسوف ترون السطح الرمادي لدير بيت لحم ، وانطلاقا منه يمكنكم تمييز المباني المحيطة والمجاورة له ، على مسافة أبعد شمالا ، يمكنكم رؤية جبل الزيتون ، والآن تمر تلك السحابة الداكنة فوق بيت المقدس حيث يمكنكم أن تروا بوضوح

تام المئذنتين الطويلتين بلونيهما الأبيض والرمادي في أفق المدينة

انتشرت الأطلال والخرائب على العديد من التلال ، وخصوصا تلك الواقعة جنوبا وشرقا ، وكانت تحفل بآثار تشير إلى أنها كانت أراضي مزروعة ومفلوحة فيما مضى ، لكنها باتت مهجورة الآن ، كانت الجدران الحجرية للشرفات العتيقة قد تهدمت وانجرفت التربة من تحتها ، وفي الأماكن التي كانت الكرمة وأشجار التين تنمو فيها فيما مضى ، نمت الأشواك والأعشاب البرية ، وعم الصمت والكآبة في المكان.

كنا نشرف على مساحة شاسعة من الأراضي التي كانت ليهوذا (بن يعقوب-أحد أبناء يعقوب الاثني عشر-الأسباط-المترجم). راجع إرميا 7-34 : وأبطل من مدن يهوذا ومن شوارع أورشليم صوت الطرب وصوت الفرح ، صوت العريس وصوت العروس ، لأن الأرض تصير خرابا وكانت قافلة من الجمال وثلّة من الفرسان تحث الخطى في البعيد بحيث كنا نلمحهم بين الفينة والأخرى ، وانتشرت بيوت الشعر هنا وهناك بينما كانت قطعان الماشية ترعى في السهوب ، وباستثناء ذلك ، لم يكن ثمة شيء آخر يضفي الحياة على المكان.

وعصفت الرياح التي كان هبوبها يزداد تدريجيا ، بحيث واجهنا صعوبة في الوقوف في وجهها ، وابتعدت السحابة التي غطت بيت المقدس منذ وقت قصير ، ولولا أننا كنا نعرف عما نبحث وأين نبحث ، لما استطعنا تمييز الربوة التي تجثم عليها المدينة عن الربى المحيطة بها. وتذكرنا كلمات كارلايل: العين تبصر الأشياء التي تمتلك المقدرة على رؤيتها ، ونزلنا إلى الوادي بحثا عن ملاذ ، لكن أنفسنا راودتنا على ارتقاء الربوة المقابلة ، بعد أن رأينا بيوت شعر سوداء تنتشر بين الأشجار القصيرة ، فتوجهنا نحو المضارب وترجلنا عن خيولنا ، وسرعان ما تحلقت حولنا مجموعة من العرب المتجهمي الوجوه ، كانوا قد زرعوا قطعة صغيرة من الأرض بالحنطة والبقوليات ، ونمت بضعة أشجاز زيتون برية في سفح التل ، وكان أطفالهم نصف العراة يلعبون مع الماعز وهم يتقافزون من صخرة إلى صخرة ويتزحلقون على الأرض ، وكان الصبية الأكبر سنا منهمكين في جمع الحطب للنار ، وكانت النسوة تشرف على مرجل مليء بالأرز معلق فوق نيران الحطب في الهواء الطلق ، بطريقة شبيهة بطرق الطهو عند الغجر ، وتجمعن حولي أنا والسيدة فن وهن يتفحصننا بفضول ،

وخصوصا القفازات والأحذية التي كنا نرتديها ، بدت عليهن علامات الشحوب والوهن وربما كان ذلك ناتجا عن الصيام نظرا لكونهم من المسلمين المتزمتين ، الذين تعود أصولهم إلى بيت لحم. سألناهم عن المدة التي سيمكثون فيها في هذه البقعة ، فأجابونا قائلين: سنبقى هنا إلى حين انقضاء شهر رمضان(40)

كان من الممكن رؤية وميض مدفع المغرب الذي ينطلق من قلعة القدس ، ولهذا السبب قاموا باختيار هذه البقعة لنصب خيامهم ومضاربهم ، وعلاوة على ذلك فقد وجدت المياه في مكان قريب ومرعى ملائم لمواشيهم ، وأشجار بلوط قصيرة وشجيرات أخرى كانوا يحتطبون منها من أجل نيرانهم ، وانتشرت نباتات القريضة في المكان ، وقد غطتها براعم رقيقة ومتفتحة ذات ألوان بيضاء وزهرية وليليكية تتساقط عند قطف الأزهار وتطير مع النسيم كالفراشات.

امتطينا جيادنا وسلكنا دربا آخر باتجاه أرطاس ، واجتزنا ودياناً ضيقة وقطعنا نتوءات جبلية كثرت فيها شجيرات الخطمى الطويلة ، إلى أن بلغنا ربوة تقوم عليها آثار وأطلال كثيرة ومثيرة للاهتمام ، فنزلنا عن خيولنا وشققنا طريقنا مشيا فوق الصخور والحجارة والأشواك ، وأجمة الشجيرات القصيرة التي نمت على الشرفات العتيقة ، وعند وصولنا النجد المرتفع في أعلى الربوة ، أرشدنا السيد فن ، والذي كان قد سبر أغوار الموقع فيما مضى ، إلى أساسات مبنى في غاية الضخامة كان مقسما إلى مقصورات ، وقد انهارت جدرانه في معظم أجزائها ، إلا أن ارتفاعها بلغ أربع أقدام في أجزاء أخرى ، وكانت قد شيدت من حجارة كبيرة صقلت ببراعة ولم ترص فوق بعضها البعض باستخدام الملاط ، بل ملئت الفراغات فيما بينها بحصى صغيرة ، بينما كانت الأرض مرصوفة ببقايا بلاطات مساحة الواحدة منها تبلغ ثلاثة أرباع البوصة ، كانت فيما مضى تغطي أجزاء الأرضية كافة كما يبدو.

من الطابع العام ونمط بناء المبنى ، رأى السيد فن أن هذا البنيان يجسد مثالا جيدا على المهارات الحرفية التي امتلكها اليهود في الأزمان الغابرة والقديمة قدم المباني الأخرى في البلاد ، ولا بد أن المبنى كان يحتل مساحة شاسعة ، وكانت أجزاؤه متصلة على ما يبدو بالمبنى الرئيسي الذي يقوم في المركز ، ويطلق العرب على هذه الخرائب اسم دير البنات ،

لكنهم لا يملكون ما يروونه عنه ، وتخلو السجلات والمراجع التاريخيه لأي إشارة تفيد بإقامة دير مسيحي في هذه البقعة في أي من الحقبات التاريخية ، كما يخلو الموقع ذاته من أي معلم أو إشارة على الفن المعماري المسيحي.

الحجارة المشطوفة والمصقولة والمتناثرة في أرجاء الهضبة الهضبة والمتراكمة في أكوام في الوادي في الأسفل وكأنها قذفت للأسفل بفعل زلزال ، تشبه تماما تلك الحجارة المستخدمة في تشييد برك سليمان وغيرها من المواقع القديمة ، وعلق السيد فن باحتمالية أن يكون هذا الموقع واحدا من الأماكن التي تحدث فيها سليمان حين قال: قمت بأشياء عظيمة ، بنيت منازلي أما الاسم المتداول تراثيا دار البنات فربما كان يفيد بأن هذا المبنى قد ارتبط بحريم سليمان ، الذي يروى أنه ضم في ثناياه سبعمائة زوجة وثلاثمائة خليلة ومحظية

يمكنني أن اتخيل الجدران المهدمة الآن عندما كانت ترتفع عاليا وتحيط بالقاعات ذات الأجواء الباردة والأروقة التي تحف بها الأعمدة والشرفات والساحات والنوافير وحدائق الليمون والورد ، عندما كانت سفوح التلال مغطاة بكروم العنب والوادي المروي جيدا بالأسفل وقد نبتت فيه أنواع الفاكهة الطازجة كافة والتوابل المعطرة ، وكنت أستطيع أن أتخيل عذراوات لا تعد ولا تحصى وسكان جبال يمتازون بالرشاقة وخفة الحركة من لبنان ، وبنات مقدسيات جليلات ومعتدات بأنفسهن ، وبنات خجولات وحلوات الشمائل من سهوب شارون ، وأجمل الجميلات العذارى في شونيم ، أمام الفتيات السمراوات الإفريقيات اليافعات المرتديات الكسوة الظليلة للشمس الساطعة والمتألقات بصبغات شعورهن التي كان يطلب منهن وضعها(41).

محروسا بـرجال إسرائيل الشجعان ومحاطا بالمحظيات والجواري اللواتي كنّ يحظين هنا بالرفاهية والامتيازات ، وقد تزينّ بالحلي الذهبية والفضية وبالأحجار الكريمة ، يرفلن بثياب من الكتان الفاخر والحرير المطرّز ، وقد دُهنت أجسادهّن بالزيت وتعطرت بالعطور والروائح الزكية ، وقد استخدمن الطرق والفنون كافة ليزدن جمالهن جمالا ، كان بمقدوري سماعهن وهن يغنين أناشيد الفرح لدى انقضاء موسم الشتاء وتفتح الأزهار في الحقول ، أستطيع أن أراهنّ في الصباح الباكر وقد يممن صوب كروم العنب أو على الأدراج التي

حفرت في الصخر على سفوح التلال ، في طريقهن إلى بساتين الجوز لرؤية غلال الوادي ، ليرين ما إذا كانت الكرمة قد نضجت ، وما إذا كانت براعم الرمان قد أزهرت ، وإلى يومنا هذا ، يمكن سماع أغنياتهن الجميلة والملأى بالشجن في كل حفل من حفلات الأعراس التي تقام في أنحاء البلاد ، التي يردد رجع الصدى كلماتها بلغة تشبه إلى حد بعيد اللغة التي كنّ يستخدمنها حينئذ ، وآمل أن تتاح لي الفرصة في المستقبل للحديث بإسهاب أكثر عن الحياة والزمن اللذين عاش فيهما سليمان ونشيد الإنشاد الذي قام بتأليفه.

أمضينا وقتا طويلا بين الأطلال ، وجمعت عددا لا بأس به من بلاطات القيشاني المتناثرة في الأرجاء ، ثم انطلقنا نحو الوادي ، وكنا نعثر على آثار لأدراج حجرية هنا وهناك ، جسدت نتاجا مشتركا للطبيعة والفن ، وعند سفح التلة ، نبتت أشجار الرمان وشجيرات القطلب ، وخلال مشينا شاهدت في أعلى كومة لا يمكن بلوغ قمتها من الصخور والحجارة المتراكمة ، نباتات العسلة الدائمة الخضرة ، وأصر السيد دبليو على جمعها لأجلنا ، فقفز فوق المجرى الجاف والعميق لسيول الشتاء ، وتسلق عبر الأكوام الحجارة والشجيرات ، وسرعان ما عاد مزهوا بنجاحه في إحضار إكليل كبير ولامع من العسلة الزهرية اللون بارتفاع يبلغ خمس أقدام على الأقل ، وأغصان كبيرة لدرجة أجفلت كل الخيول خلال اقترابه منا ، فتابعنا مسيرنا محملين بالورود ، وكانت رائحة نبات العسلة لطيفة جدا ، وكانت براعمها كبيرة وذات لون أصفر مائل للشحوب موشح باللونين الزهري والأبيض.

وتابعنا طريقنا مسرعين إلى أرطاس ، وجلسنا بعد الغداء لبعض الوقت تحت شجرة التين ، وتوافد الفلاحون من القرية العتيقة الرابضة على التلة وراءنا لمشاهدتنا ، وانتهزنا نحن الفرصة لرسم بعض منهم في دفاتر رسمنا ، ثم عاودنا المسير وحظينا برحلة ممتعة جدا في طريق عودتنا لبيت المقدس ، وكان قد مضى على غروب الشمس وقت طويل حين وصلنا بوابات المدينة ، لكننا وجدنا حامل مفاتيح البوابة وقد تأخر خصيصا لفتح البوابة لنا.

و هكذا انقضى فصل الربيع بوتيرة لطيفة ، ويوما بعد يوم ، كان اهتمامي وانتباهي ينصبان على مشاهد وأحداث تجسد بوضوح الذاكرة الثرية للأزمان القديمة ، وتلقي بمزيد من الضوء على تاريخ العبرانيين وقصة الكتاب المقدس ، وقد حظيت بفرصة لأرى وأغوص في أعماق

الروحانية التي تحيط بحياة الإنسان في جميع مراحل تطورها ، عثرت على المأوى في خيام البدو الرُحل الخارجين على القانون ، وتآخيت مع النسوة البدويات ، أمضيت وقتا مع قبائل بدوية مسالمة تعيش في ظل نظام أبوي بطريركي بسيط في مضاربها المستقرة ، محاطة بمواشيها وقطعان أغنامها ، ونزلت ضيفة على بيوت الفلاحين في قراهم البائسة والموحلة ، المحاطة بالبساتين والبيارات وحقول القمح والمراعي ، وعاشرت سكان المدن والبلدات ، الرجال ذوي المكانة المرموقة ومشرعي القوانين وحكام هذه البلاد ، وفي أثناء ذلك ، حظيت في كثير من الأحيان بفرصة للدخول إلى مجتمع النخبة والصفوة من أبناء الأمم الأوروبية المتمدنة ، وتمكنت من إيجاد نقطة التقاء وتعاطف مع الجميع ، وكنت أحس بصدق بأن: لمسة تلقائية واحدة تكفي لجعل العالم أسرة واحدة

كانت رغبتي بمشاركة المتعة التي عشتها مع أصدقائي في إنجلترا ومساعدتهم قدر الإمكان على رؤية صورة مطابقة لكل ما رأيت ، هي ما دفعني لأن أتفحص كل شيء بحرص وعناية ، وكنت أتمتع بقوة ونشاط غير اعتياديين في مواجهة الإعياء والإرهاق ، واكتسبت عادة الملاحظة المستمرة والدقيقة ، فكانت أقلام الكتابة والرسم التي أحملها دائمة الحركة والاستعمال ، وكثيرا ما نبهتني أصوات صديقة وودودة قائلة: أنت تكدحين في عملك ، ولا تأخذين قسطا كافيا من الراحة أو: ما لم تخففي من حجم الجهد الذي تبذلينه فسوف تعانين من الإعياء إن آجلا أم عاجلا ، ففي هذه البلاد وفي هذا الوقت من السنة من الضرورة بمكان أن تأخذي قيلولة أو استراحة ولو قصيرة خلال النهار

تجاهلت النصيحة ، وأخيرا جاءت ليالي السهاد وتلتها نهارات متعبة وفقدان للشهية ، وخارت قواي وتلاشى نشاطي غير الاعتيادي بشكل مفاجئ ، وأذكر أنه في إحدى الليالي الشديدة الحرارة بعد أن أضناني الأرق ، نهضت من فراشي وجلست على واحدة من النوافذ الشرقية للقنصلية الواقعة على جبل صهيون ، وانتظرت شروق الشمس من فوق جبل الزيتون ، ومضى وقت طويل قبل أن يطرأ أي تبدل على اللون الرمادي للسماء أو أي من الألوان الداكنة للأرض المحيطة ، وكان كل شيء ساكناً سكينة الموت ، بينما كانت جهة الشرق موشّاة بمسحة ذهبية شاحبة ، وبدت جبال مؤاب معتمة وباهتة في النور السديمي ،

ثم أشرقت الشمس تدريجيا باتجاه السماء التي اصطبغت فجأة بالألوان البرتقالي والأزرق والوردي ، أما سعفات أشجار النخيل الطويلة التي كانت قبل برهة غارقة في السواد والسكون ، فقد دبت الحياة فيها بنعومة ، وارتجفت الأعشاب الناعمة الصفراء التي تعلو أسطح البيوت وشرفاتها ، وتحركت وكأنها تصحو لتوّها من النوم ، ورفرفرت العصافير وهي تغادر أعشاشها مغردة ومزقزقة في جوقة جماعية ، لكن الشمس لم تبزغ فوق جبل الزيتون إلا بعد مضي وقت ليس بالقصير ، كان ذلك في السادس والعشرين من أيار / مايو ، وخارت قواي بعد ذلك اليوم تدريجيا ، وما عدت مدركة لمرور الزمن ، أخرج ببطء شديد للتنزه أحيانا في بيارة زيتون لكي أستريح في ظل الأشجار وأنا أراقب الأطفال وهم يلعبون ، أو أتأمل ظلال الأجنحة العريضة للطيور ، أو الحشرات المنهمكة وهي تدخل وتخرج من شقوقها بين الصخور وتحت الأزهار ، لكنني مررت بأيام عجزت فيها عن النهوض من فراشي ،وكنت أشعر أحيانا بدنو أجلي ، ودخلت في حالة إعياء شديد ليومين أو ثلاثة ، كان خلالها المرحوم الدكتور مكجوان متفانيا في تطبيبي ، ولن أنسى ما حييت اللطف الذي غمرتني به ممرضاتي اللواتي كن تحت الإشراف المباشر للسيدة فن.

في الثامن عشر من حزيران / يونيو وقفت أم عيسى ، وهي إحدى النسوة العاملات في خدمتنا ، بجانب سريري وقالت لي بالعربية: انبسطي وافرحي ، لأنك راح تطيبي بسرعه هلأ ، القنصل وصل ، الحمدلله وبدأت باسترداد عافيتي منذ ذلك الحين ، ففي اليوم التالي خرجت بصحبة شقيقي على صهوات خيولنا إلى البرج الصغير الذي يملكه السيد جراهام على جبل الزيتون ، حيث أقمت لبضعة أسابيع ، وهو مبنى مصمم على الطراز العربي الأصيل ، المطبخ والإسطبلات تشغل الطابق الأرضي منه ، بينما الطابق العلوي عبارة عن حجرة عقد ذات نافذة وسيعة في نهاية فجوة عميقة تستخدم كغرفة جلوس ، بضع درجات حجرية تؤدي للسطح المستوي الذي يشكل شرفة جميلة ، يحميها جدار ذو ارتفاع منخفض ، كما هي الحال في كل هذه الأسطح المستوية التي شُيدت على الطريقة التي شيدت بها المباني القديمة امتثالا للشريعة: إذا بنيت بيتا جديدا فاعمل حائطا لسطحك لئلا تجلب دما على بيتك اذا سقط عنه ساقط سفر التثنية 22 ، 8. وكانت هذه الشرفة تتيح لنا

إطلالة بانورامية على بيت المقدس ، فمن الموقع المشرف على سفح جبل الزيتون الذي يعج بالأشجار والصخور ، كنا نرى وادي يهوشافاط- (التسمية الفلسطينية للوادي هي وادي ستنا مريم- المترجم) الذي كان يفصلنا عن المدينة.

كان أخي والسيد جراهام يذهبان للمدينة صبيحة كل يوم ، بينما أجلس أنا على النافذة وانا أمشط الأراضي المحيطة باستخدام التلسكوب ذي النوعية الجيدة ، لرؤية المصلين في منطقة الحرم القدسي ، أو للتأمل بالتلال المحيطة ببيت المقدس إلى أن ألفت كل منها وعرفتها وكأنها واحد من أصدقائي.

كان موسم إزهار أشجار التين والزيتون في الأراضي المحيطة ، وكانت أشجار الرمان قد اكتست بالبراعم والأوراق تماما ، وبدأت ثمارها بالنضوج ، بينما حل موسم حصاد القمح والحنطة المزروعة على أسطح البيوت وشرفاتها ، وانبثقت الأشواك بين القش المتبقي من موسم الحصاد ، واعتاد أصدقائي في القنصلية على المجيء لقضاء فترات الظهيرة بمعيتي ، أما أخي فكان يصل على الدوام في الوقت المحدد للخروج بنزهة قصيرة على الأقدام يوميا ، تكفلت هذه الحياة الهادئة بإعادة القوة لجسدي ، وصار بمقدوري أن أستخدم قلمي من جديد بفرح وبيد ثابتة ، ومع أخذي لساعات منتظمة من الراحة ، أدركت أن بمقدوري أن أعمل بينما أستمتع بكل المشاهد والأصوات المحيطة بي من دون الخوف من التأثيرات السلبية.

لاحظت يوم السبت تجمع عدد كبير من النسوة على سفح الربوة المقابلة لنا ، والواقعة أسفل باب الأسباط ، حيث كنّ يتحّلقن في مجموعات صغيرة في ظلال أشجار الزيتون ، وكنّ جميعهن يرتدين ملاءات بيضاء ، مع أن عددا منهنّ قمن بنزع مناديلهن أو البراقع التي تستر وجوههّن ، لاعتقادهن بأنهن بمنأى عن عيون الغرباء ، لكنني كنت قادرة على تمييز قسمات وجوههن بالأستعانة بالمنظار المقرب.

رُبطت الحبال بأغصان الأشجار ، وبدأ الأطفال بالتأرجح بمرح وسعادة بالغين ، وحذت النسوة حذوهم ، وبدا أنهن كن يستمتعن كثيرا بالحركة المنتظمة للأراجيح ، ومع حلول الظهيرة بلغ عدد النسوة المتجمعات ما يناهز المئة ، بالإضافة إلى أطفال صاخبين ودائمي

الحركة بحيث لم يكن بمقدوري إحصاؤهم ، وقد كان هؤلاء الأطفال برعاية خدم أحباش.

جاء العديد من الرجال ذوي البشرة السوداء ، الذين يحملون طعاما قاموا بتسليمه للخادمات ثم غادروا المكان فورا ، وسرعان ما وضعت صوانٍ دائرية في ظلال الأشجار ، وقد ملئت بالمأكولات الخفيفة والحلويات ، وسكبت المياه من الجرار فوق أيدي النسوة اللواتي تحلقن بعد ذلك جلوسا على الأرض حول الصواني الملأى بأطباق الطعام ، ولم يلتزمن بالصمت خلال تناول الطعام كما يفعل الرجال ، كنّ يثرثرن خلال أكلهن ، وكنت قادرة على رؤيتهن وهن يضحكن ويتسامرن بفرح وسرور ، ثم غسلن أيديهن من جديد ، واحتسين القهوة ودخنَّ الأرجيلة ، بينما كان الخدم يتناولون غداءهم ، وبقين جميعا هناك وقد استلقى البعض ، بينما كان البعض الآخر يتبادلون الأحاديث تحت الأشجار حتى ساعة قبل غروب الشمس عندما تلفعن جيدا بملاءاتهن وقلّن عائدات للمدينة ، ويعد هذا المظهر مألوفا خلال الصيف كونه أحد ضروب الترفيه عن النفس.

هبت الريح بقوة في ظهيرة يوم الرابع من تموز /يوليو ، وكانت عاتية لدرجة اضطررت معها لإحكام إغلاق مصاريع النوافذ كلها ، وبالرغم من ذلك لم تتوقف الستائر عن التأرجح ولا الأوراق عن الطيران في أرجاء الغرف ، ومع ذلك فقد كانت الحرارة مرتفعة جدا.

في وقت مبكر من ظهيرة يوم السبت الخامس من تموز /يوليو ، ذهبت بصحبة شقيقي إلى القرية القابعة على قمة جبل الزيتون ، واتجهنا نحو البيت المحاذي لمسجدها ، فدخلنا ساحته وصعدنا درجا حجريا شديد الميلان ثم بلغنا شرفة فسيحة ، ذات مقاعد حجرية مرتفعة على جانبي رواق يؤدي إلى غرفة كبيرة ولكنها ذات مستوى منخفض قليلا ، وسرعان ما جلبت السجاجيد والوسائد لتوضع على المقاعد المرتفعة ، ورحب بنا الرجل المسلم حلو الشمائل ، ابن الأفندي ذو المكانة المرموقة في بيت المقدس ، الذي كان يقيم في ذلك البيت للنقاهة وتغيير الهواء ، ودعانا لأخذ راحتنا والتصرف على حريتنا.

بعد بضع دقائق ، انضم إلينا صاحب المنزل وهو شيخ معمم ذو لحية يكسوها الشيب ، وبعد تناول الشربات والقهوة والأرجيلة ، فتح لنا الباب الواقع أسفل المنارة ؛ فصعدنا السلالم الملتوية إلى أعلى المئذنه ووقفنا على شرفتها بصمت وسعادة لجمال المشهد

المحيط الذي فرض نفسه علينا ، عدنا إلى ما وراء التلال المقفرة الواقعة باتجاه الشرق ، كنا نرى جزءاً كبيرا من البحر الميت ومرتفعات مؤاب الواقعة خلفه ، بامتدادها بعيدا شمالا وجنوبا ، بينما سطعت الشمس بأشعتها الساحرة ملقية بهالة من البهاء على الأشياء كافة ، وفي مقدمة المشهد ، كانت قبة أعلى القمة المستديرة لأحد التلال التي تغطيها أشجار التين والزيتون ، وتسمى هذه القبة بقبة الشهود ، أما في الأراضي الواقعة خلف هذه النقطة ، فلم يكن هناك من أثر للحياة ولا شيء سوى القفار ، لكن عند النظر شرقا ، فقد كنا نرى بيت المقدس وهي تمتد في الأفق وكأنها خريطة مرسومة تحتنا ، وكانت آثار مهارات الإنسان وحرفته بادية بجلاء على كل ربوة من الربى المحيطة بها تقريبا.

انضم إلينا في ذلك المكان ، مستشار السفارة الفرنسية والسيد جيلبرت ، الذي أخبرنا بأن كامل باشا قد قدم إلى القلعة لزيارتنا ، وقد قرر اللحاق بنا عندما عرف بمكان وجودنا ، فنزلنا عن الشرفة لملاقاته.

سألني مضيفي بصوت خفيض إذا ما كنت أرغب بزيارة حريمه ، كونهم قد عبّرن عن رغبتهن برؤيتي ، فذهبت لزيارتهن بعد أن استأذنت شقيقي ، فقادني الرجل الطاعن بالسن عبر ساحة ثم صعدنا إلى سطح ذي شرفة ، حيث وجدنا امرأة كبيرة بالسن ، كانت زوجته الأولى في أيام شبابه ، بانتظاري ، فعاد هو أدراجه بينما رحبت هي بي قائلة: أهلين يا بنيتي ، احنا سمعنا عنك ، وكنا مشتاقين لشوفتك وللحكي معك ، ثم قادتني عبر حديقة صغيرة على سطح المنزل ، فهرعت امرأتان جميلتان يبدو من ملامحهما بأنهما كانتا من أصول مصرية ، للترحيب بي ، كنّ مستغربات من جرأتي للبقاء بمفردي في القلعة أعلى التل ، وقلن: نحنا بنسترجيش نعيش هناك ، الله حط الشجاعة بقلوب بنات الإنجليز ، فسألتهن عن عدد البنات الإنجليزيات اللاتي عرفنهن ، فقلن: بنعرفك وبنعرف الست الثانية ، البنت اللي عاشت مدة طويلة في القلعة مع أبوها ، وفهمت بأنهن كنّ يقصدن كريمة السيد باركلي مؤلف كتاب مدينة الملك العظيم ، وقد استفسرن مني عن أحوالها بلطف واشتياق ملحوظ.

فجأة خلال محادثتنا ، هرولت الزوجتان الشابتان واتجهتا للجهة الأخرى من الحديقة ، وانحنتا للاختباء في ظل الحائط ، ثم تابعتا طريقهما بحذر وانتباه عائدات إلى غرفهما ،

فسألت: ما الذي أزعجكما ؟ ، فلفتت الزوجة العجوز ، والتي لم تبرح المكان انتباهي إلى نافذه ، أو بشكل أدقّ فتحة صغيرة مربعّة ، في جدار منزل على مقربة منا ، كان يطل منها رجل وقد بدا عليه الذهول لرؤية غريبة في المكان ، وقد قام برفع الأطفال الذين كانوا معه لرؤيتي عبر النافذة ، ثم قالت السيدة العجوز: مش مهم ، خلينا نقطف شوية ورد قبل ما ننزل ، فقد كان في الحديقة أزهار من الداليا والخطمي والخلنج والبكورية الإفريقية ، والورد والريحان والآسية ، والتي كانت قد أينعت وتفتحت براعمها ، فجمعت باقة من الأزهار الثلاث الأخيرة التي ذكرتها ، فقالت لي السيدة العجوز: ليش تركتي كل الورد وقطفتي هذول بس ؟ فقلت: هاي هي الورود اللي بحب ريحتها وجمالها أكثر من أي نوع تاني من الورد ، فقالت: زي ما انتي بتفضلي نوع ورد عن نوع تاني ، الله بيحب مخلوق من مخلوقاته أكثر من مخلوق تاني ، وانتي مخلوقة الله بيحبها وبيحفظها من كل الشرور

كانت تضع على خاصرتها صندوقا ذهبيا بطول ستة إنشات وعرض أربعة إنشات تقريبا ، معلقا بسلسلة مزدوجة ، وقد نقشت عليه آيات من القرآن ، وقالت لي بأنه يحتوي على تعويذة (حجاب-المترجم) ضد العين الشريرة وضد السحر ، فقلت لها بأنني لم أحمل تعويذة في حياتي ، فجاوبتني قائلة: بتلزمكيش حجُب ، ماحدش بيقدر يأذيكي

نزلنا إلى غرفة النساء ، وكانت الزوجتان الأصغر سنا بانتظارنا عند الباب المفتوح على مصراعيه ، وكانتا قد أعدتا القهوة وبعض الحلوى لأجلي ، وكانت الغرفة فسيحة ومنخفضة وتخلو من النوافذ ، ولكن كانت هناك فتحات صغيرة في أعلى الجدار بالقرب من السقف. رأيت العديد من الأطفال الصغار الذين بدا أنهم مهملون جدا ، وكان الذباب يزعجهم بشكل فظيع وهو يتجمع عند أطراف أجفانهم القذرة ، وحول شفاههم المكسوة ببقايا الحلوى والسكر.

بدأت الشمس بالأفول ، ونادى المؤذن لصلاة المغرب من أعلى المئذنة القريبة ؛ فعدت للانضمام لشقيقي من جديد ، فانسحبنا للسماح لأصدقائنا المسلمين بالاستمتاع بوجبة الإفطار ، وعدت عدة مرات بعد ذلك للمئذنة لرسم بعض الاسكتشات وللقاء السيدات.

صبيحة يوم الأحد السادس من تموز/ يوليو جلست بمفردي على المقعد المحاذي للنافذة

في منزلي على جبل الزيتون ، وأخذت أراقب جنازة امرأة مسلمة ، خرجت الجنازة من بوابة الأسباط وقد حُمل النعش المفتوح على أكتاف الجنود والرجال ، كان الجثمان مغطى بشرشف مسجىً بشكل مستوٍ بينما ارتفع الرأس قليلا عن مستوى الجسد ، وقد غُطي الوجه بمنديل ، وكان القبر المفتوح على مقربة من الطريق ، وقد تحلق عدد من الرجال من حوله ، وكانت بعض النسوة تراقب من على السفح القريب وهن يَنتحبن بصوت مرتفع ، ويحركن أجسادهن للأمام وللوراء ، ويرفعن أذرعهن للسماء وكأنهن يتضرعنّ بالدعاء ، أُسند النعش الرديء الصنع إلى صخرة ، وكان الجثمان قد سُجي بداخله بوضعية غريبة ، ونزل رجلان إلى داخل القبر واختفيا تماما ، ثم حمل الجثمان من داخل النعش وسحب الشرشف عنها ، فظهر تحته جسد شبيه بالمومياوات المصرية ، ثم تمت مناولته من غير رفق ولا أناة للرجلين الموجودين داخل القبر ، ثم قام ثمانية رجال برفع الشرشف فوق فتحة القبر ، وبعد دقيقة أو دقيقتين ، سُحب الشرشف وظهر الرجلان اللذان توليا مواراة الجسد الثرى فوق الأرض ، وتم إغلاق القبر بسرعة فائقة ، واختفى المشيعون وعاد الصمت ليلف المكان في غضون وقت قصير.

كان الحر في ذلك اليوم شديدا جدا وكنت وحيدة تماما ، إذ إنهم أقنعوني بعدم الذهاب للمدينة للصلاة في الكنيسة في ذلك الأحد ، عند الساعة الثالثة تقريبا ، رأيت مجموعة كبيرة من الجنود الأتراك غير النظاميين تخرج من بوابة الأسباط ، وكانوا يسيرون في رتل منفرد متجهين نحو الوادي ليعاودوا الصعود من جديد عبر جبل الزيتون باتجاه القرية الواقعة بالأعلى ، وكانوا جميعا يحملون البنادق ، بينما حمل عدد كبير منهم الرماح ، ولم يرتدوا زيا عسكريا موحدا ، لكنهم وبلا استثناء تقريبا ارتدوا كوفيات مهدبة من الحرير الأصفر أو الأحمر ، أحصيت اثنين وخمسين منهم في المفرزة الأولى التي تبعها مجموعات صغيرة أخرى سلكت طريق الوادي ثم اختفت خلف حديقة الجثمانية.

عاد أخي قبيل الغروب بقليل ، وعندما سألته عن الجنود أجابني قائلا: كانوا متجهين إلى أبو ديس ، وهي قرية تقع على الجهة الأخرى من التل ، وقد تسلح سكانها حاليا لمواجهة قرية الطور ، القرية الواقعة فوقنا بالضبط ، وقد كانت الأيام الثلاثة الماضية قد شهدت وقوع عدة

مواجهات أسفرت عن سقوط بعض القتلى من كلا الطرفين ، وقد عقد الباشا العزم على وضع حد لهذا الاقتتال ، وقد أخبرني سعادته قبل قليل بأنه يعتزم إقامة مخيمه في هذه المنطقة ، وسوف ينصب خيمته بالقرب من برجنا هذا ، وقد قام بذلك بالفعل ، وبعد بضعة أيام كان من الممكن رؤية خيامه ذات اللون الأخضر الغامق وقد انتصبت تحت أشجار الزيتون.

في يوم الثلاثاء التاسع من تموز/ يوليو ، عاد أخي والسيد جراهام مبكرين من المدينة وقالا لي: ارتدي ملابس لا يمكن للوحل أن يفسدها ولا للصخور أن تتلفها ، لكي نأخذك لإستكشاف قبور الأنبياء

جهزت نفسي كما طلب مني ، وأخذت شموعا للإضاءة معي ، واتجهنا على صهوات جيادنا نحو قمة التل عبر الطور ، تلك القرية الصغيرة المليئة بالغبار ، ثم عبرنا حقول الخيار الفسيحة الواقعة خلفها ، ودخلنا بستاناً جميلاً مزروعاً بالتوت ، وكانت زمرة من الأولاد نصف العراة قد تسلقت الأشجار لجمع ثمار التوت ، حيث كانوا يصرخون بسعادة ومرح ، بينما وقفت نسوة يرتدين أثوابا قرمزية من الكتان وأغطية رأس قطنية بيضاء تحت الأشجار ، وهنّ يحملن صواني وسلالاً كبيرة مصنوعة من القصب ، كانت سرعان ما تمتلئ ، ترجلنا تحت الأشجار ، وتقدمت مني سيدة بدا أنها تمتلك سلطة على الأخريات وقدمت لي بعض التوت ، لم أتذوق في حياتي توتاً بجودة ولذة تلك الثمار ، ثم أُخذت إلى فتحة بئر ، جافة تماما وتكاد تكون مملوءة بالنفايات والرمال ، لأفاجأ باننا سننزل عبرها لندخل من فتحة جانبية ، ونحن نحبو على أيدينا وأقدامنا عبر طريق ملتو ومنحدر ، إلى أن بلغنا غرفة مستديرة استطعنا ان ننتصب فيها على أقدامنا ، كان قطرها يبلغ أربعا وعشرين قدما تقريبا ، وكانت ترتفع حوالي عشر أقدام في مركزها ، وكان قليل من الضوء يتسلل إليها عبر فتحة تم ثقبها عبر الصخرة الواقعة في الأعلى ، فقمنا بإشعال شموعنا هناك ، ونبهني السيد جراهام إلى ثلاث فتحات تقود إلى ثلاثة اتجاهات مختلفة ، وقام هو بدخول الفتحة الوسطى ، زحفا على الأرض ، فحبوت خلفه بسهولة أكثر ، وكان الممر ينحدر تدريجيا إلى أن بلغنا دهليزا يتشعب بشكل منحن في اتجاهين بحيث يشكل جزءاً من دائرة أكبر تقع الغرفة التي غادرناها للتو في المركز منها ، كان ارتفاع هذا الدهليز يبلغ عشر أقدام وعرضه

ست أقدام تقريبا ، كما كان محدبا ومكسوا بالملاط ، وكانت الأرض الصخرية قد مُهدت ، واحتوت الجدران على عدد كبير من الفتحات والكوّات لكنها كانت خالية من آثار أو بقايا أية أكفان أو نعوش ، ثم كانت هذه الردهة التي تشكل ربع الدائرة ، تتشعب بدورها إلى مجازات ودهاليز أخرى ، فدخلنا عبر واحد منها ، فبلغنا ردهة جديدة من الطراز نفسه الا أنها كانت اكبر ، وكانت تشكل جزءاً من دائرة ممتدة أكثر ، وطلب منا السيد جراهام أن لا نغامر بالدخول إلى الدهاليز التي لم يسبق له استكشافها ، لسهولة أن يتوه المرء فيها ، ولكون المكان أشبه بالمتاهة للزوار الذين يدخلون من دون دليل. يقال بأن طول ربع الدائرة الخارجية يبلغ 115 قدما ، وعلى بعد يبلغ ستين قدما عن الغرفة الدائرية التي تعد بمثابة المركز ، وقد حفرت الدهاليز التي تقود إلى ربعي الدائرة وتوحدهما في الصخر بشكل غير منتظم ، وتبدو بعض الدهاليز الضيقة وكأنها شقوق وصدوع طبيعية ، وكانت الأرض التي مشينا أو زحفنا عليها صلبة وجافة ومستوية ولم تكن رملية أو مغبرة.

كان الجو باردا وثقيلا في آن واحد ، وقفلنا عائدين إلى فتحة البئر وغمرتنا سعادة بالغة حين رأينا أشعة الشمس تتسلل بين الأوراق الخضراء لأشجار التوت ، وحين تنفسنا الهواء الندي والمشبع بروائح الأشجار من جديد(42).

تنقسم سلسلة جبل الزيتون بفعل منخفضات طفيفة في ثلاث أماكن ، ويعد البرج الصغير الذي يؤوينا والواقع على الربوة الشمالية أكثر المعالم وضوحا ، أما البقعة المركزية والأكثر ارتفاعا فتحتلها قرية الطور ، وتخلو التلة الجنوبية من المباني لكن أشجار الزيتون تنتشر بأعداد أكبر من تلك المزروعة في بقية هذه التلال. امتطينا صهوات جيادنا واتجهنا صوب الجنوب ، حيث توقفنا تحت الأشجار عند حافة التلة ، وعندما نظرنا باتجاه بيت المقدس شاهدنا مفرزة كبيرة من جنود الباشي بوزوق وهم يصعدون التلة ويدخلون بوابات المدينة ، كانت الشمس تميل للمغيب ، وبعد ذلك بدقائق سمعنا أغانيَ وأهازيج نصر وفرح ، وظهرت ثلة من القرويين المسلحين ناهز عددهم المئة ، وساروا بطابور غير منتظم عبر الطريق الصخري المتعرج الواقع تحتنا مباشرة ، والقريب من قرية سلوان ، وقال أخي: هذا هو الجيش الصغير التي أرسلته سلوان للمشاركة بالقتال الدائر هنا

في طريق عودتنا إلى الطور ، أخذنا بمنظر ولد وسيم من زبناء الفلاحين كان يغني بشجن وهو يركب حمارا أسود صغير الحجم ، كان يقفز في مشيه وكأنه كان يشارك راكبه الفرح ، كف الولد عن الغناء فتسمّر الحمار فورا في مكانه ، وكأنه كان اتفاقا مسبقا بينهما ، وعلمنا بأنهما كانا يريدان التوقف بجانب بئر ماء فتوقفت هناك أيضا بانتظار أن يشرب حصاني من حوض الماء القريب ، كان رجل طاعن بالسن قد ملأه للتو من قربة مصنوعة من جلد الماعز ، وأخبرنا الولد باندلاع قتال عنيف فوق التل في ذلك اليوم ، وأضاف قائلا: أزهقت خمسة أرواح ، إلا أننا عرفنا لاحقا بأن ضحيتين من تلك الأرواح الخمسة لم تكن سوى خيول. توقفنا في القرية للتحدث إلى شيخ الجامع العجوز ، الذي قال لي: تصبحين على خير وبارك الله بك يا ابنتي ، فأجبته قائلة: تصبح على ألف خير يا أبتي ، وكان القمر في كامل تألقه لدى وصولنا للبرج.

توجهت إلى المدينة في الثامن عشر من تموز / يوليو لقضاء بضعة أيام في بيت المرحوم المحترم جيه نيكلسون ، بحيث أتمكن من وداع أصدقائي القاطنين في بيت المقدس ، ومن القيام باستعدادات السفر إلى حيفا ، وعندما صار كل شيء جاهزا ، نصبت خيمتي في الطالبية ، حيث قام السيد فن بالتخييم من جديد ، وكان السيد جراهام على وشك السفر إلى إنجلترا ؛ وهو ما أثار حزن اليهود المتنصّرين وحتى اليهود الأكثر التزاما بديانتهم في بيت المقدس ، والذين كان دائم التعاطف معهم ، وقد أجمعت السيدة فن هي والقساوسة العاملون بمعيتها ، والسيد ميشوليم وأفراد أسرته على تقديرهم لعطفه عبر دعوة وجهاء اليهود المتنصّرين المقيمين في بيت المقدس لقضاء يوم الخميس الرابع والعشرين من تموز / يوليو في أرطاس للالتقاء به وبأصدقائه الذين كنا من ضمنهم.

بعد هذا الزمن ، صار قرائي يعرفون تفاصيل الطريق إلى أرطاس الخلابة ، طرأت تغييرات طفيفة على المشهد بسبب حصاد حقول الذرة ، ولبدء نبات الدخن الأخضر بالنمو في الجرود المحيطة.

وصلنا للوادي في ساعة مبكرة ، وعجز البيت الحجري الصغير عن استيعاب نصف المدعوين ؛ فقامت السيدة ميشوليم باصطحابنا إلى غرفة ضيوف تم تجهيزها خصيصا

للمناسبة ، وقد كانت هذه الغرفة نتاجا مشتركا لإبداعات الطبيعة والفن ، فكانت ثلاثة من جدرانها عبارة عن نوع من الصخور الوعرة التي تشبه الأسنة الصخرية على شاطىء البحر ، بينما بني الحيط الرابع من الحجارة الصقيلة وتم تزويده ببوابة عريضة ، نظرا لأن الغرفة كانت تستخدم فيما مضى إسطبلا للأبقار والخيول والجمال ، أبعادها كانت ثلاثين قدما في خمسين قدما ، ونمت في مركزها شجرتا تين كبيرتان ، بحيث شّكلت أغصانها وأوراقها سقفا مناسبا ، وفرشت السجاجيد والوسائد والأرائك على الأرض ، حيث وضعت فوقها أغصان وأوراق الليمون الحلو والأترج ، ونمت ورود برية صفراء اللون على حواف الصخور البنية والصفراء اللون ، وانتصبت زهرة خطمى بتيه ودلال في إحدى الزوايا ، وقد غطتها براعمها الزهرية اللون ، وامتدت نباتات متسلقة قادمة من أعلى الغرفة بحيث زينت الجدران الخشنة ، ووضعت طاولة في منتصف الغرفة وتم تقديم طعام الإفطار.

كان عدد اليهود المتحولين للمسيحية الحاضرين في المكان ثلاثة وعشرين شخصا بالإضافة للسيد جراهام وصحبه ، والسيد والسيدة فن ، والمحترم جيه نيكلسون ، الذي وقف بعد الفطور في ظل صخرة وألقى كلمة في الحضور حملت الكثير من معاني الرقة والعواطف الصادقة ، ثم نهض المحترم هيفتر ، أحد اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ، وتحدث لإخوته وعندما سمعوه يتحدث العبرية ، غاصوا في صمتهم أكثر وأكثر. وتولى السيد نيكلسون ترجمة بعض مما قاله لنا بالإنجليزية ، ثم شرع الحاضرون بتلاوة المزمور الثالث باللغة العبرية ، بشكل جماعي تارة وبتلاوة منفردة تارة أخرى ، على وقع لحن شرقي في غاية القدم ، رددت أصداءه التلال والصخور المجاورة ، الصخور والتلال التي مشى عليها داوود نفسه ذات يوم ، وشاركتنا الغناء عصافير الدوري البرية ذات اللون الذهبي التي كانت تقف فوق الأغصان.

بعدئذ ، تفرق الجمع إلى جماعات صغيرة ، البعض ذهب للتنزه بين أشجار الكرمة ، حيث كانت كروم العنب مثقلة بالقطوف ، بينما ذهب آخرون للتأمل في الربيع من حولنا ، واسترحنا نحن بالقرب من جدول الماء ، مستمتعين بخرير المياه التي انسابت في مجراها على مقربة من غرفة الضيوف.

أقنعت ولدا من أبناء الفلاحين بأن أقوم برسم صورته ، فجلس على صخرة أمامي ، نصف جسده كان في الظل والنصف الآخر كان في أشعة الشمس ، كان يعتمر كوفية صفراء وحمراء اللون كعمامة على رأسه ، وقميصاً كتانياً أبيض ويتمنطق بحزام جلدي أحمر ، ووضع في إصبعه خاتما فضيا ضخما في داخله فص صغير أزرق ، كتعويذة ضد عيون الحساد والأرواح الشريرة.

جاء بعض الشيوخ العرب من الخليل إلى أرطاس لقضاء بعض المصالح الخاصة بأعمالهم ، وفوجئوا برؤية هذا العدد الكبير من الغرباء فيها.

عندما استطالت ظلال الأشياء والأشخاص ، تجمع الضيوف وفرشت المائدة بلحوم الطيور وبأصناف عديدة من المأكولات الإيطالية والشرقية ، وكان الطبق الرئيسي خروفا محشيا بالأرز والزبيب والمكسرات والصنوبر والتوابل ، وقد شوي بالكامل في حفرة بالأرض بهدف تسريع نضجه ، وقدم البستان ما لذ وطاب من الخضروات والذرة الهندية التي سلقت بكميات كبيرة ، وكانت التحلية التي كانت محط انتباه الجميع هي هرم من الدراق الناضج الذي كان أول الجنى في البستان.

ألقيت العديد من الكلمات المعبرة والمشوقة ، وتحدث السيد جراهام بعد أن تطرق إلى الجمال الذي يميز الوادي ، والخصوبة الطبيعية التي تتمتع بها البلاد بأسرها ، فقال: على الرغم من وجود العديد من الأراضي البور والتلال المقفرة إلا أنها ليست أرضاً قاحلة ، كل ما تحتاجه هو الفلاحة ، دعونا نفكر بالطريقة نفسها التي فكر فيها كالب بن يوفنا ويوشع بن نون اللذان أحضرا تقريرا مبشرا عن الأرض ، فما كان من جميع الحضور إلا أن أجابوا صائحين: انها أرض طيبة! إنها أرض طيبة!

بعد ذلك بقليل ركبنا خيولنا عائدين إلى المنزل ، وكان القمر قد توسط السماء حين وصلنا للطالبية.

الفصل الثالث عشر

من بيت المقدس إلى حيفا

كان كل شيء جاهزا في يوم الجمعة الخامس والعشرين من تموز / يوليو لعودتنا إلى حيفا عن طريق يافا ، وقد رتب الخواجة عودة عزام من نابلس أموره للسفر بصحبتنا ، حيث انطلقنا في رحلتنا قبيل ساعة من شروق الشمس.

حثثنا الخطى عبر الأودية وفوق التلال التي صرت أعرفها جيدا الآن ، ووصلنا قرية العناب ، التي عرفت بأسم ابو غوش ، عند الساعة التاسعة ، على مقربة من القرية ، كانت هناك قطعة أرض دائرية منبسطة ، مرتفعة بعض الشيء ومحاطة بحجارة كبيرة وبعض الشجيرات ، وتنتصب في مركزها شجرة توت عملاقة ، كان وجهاء القرية يجتمعون في ظلالها بشكل شبه يومي ، فهذه الشجرة تعد منتداهم وبورصتهم ومجلسهم ومكان تسليتهم ، يجلسون في ظلالها للتدخين وللإستراحة ، ويلعبون الداما والعديد من الألعاب الأخرى ، ويجرون كافة أنواع الصفقات والتبادلات التجارية فيه ، كما أن الرحالة الأجانب يجدون في هذه البقعة مكانا مثاليا لنصب خيامهم ، فترجلنا عن خيولنا هناك ، وساعدني أخي على عبور الحجارة المحيطة بهذا النجد ، تدلى من أغصان الشجرة قنديلان أو ثلاثة قناديل أنارت المكان لمجموعة صغيرة من الرجال المسلمين الذين كانوا يجلسون في حلقة تحتها ، فنهضوا وقوفا حين رأونا وسلّموا علينا بوجوم ، وعلى الفور ، فردت حصيرة كبيرة من القصب ، كانت ملفوفة بجانب جذع الشجرة ، ووضعت على الأرض لأجلنا.

أبلغ الحاكم ، الحاج مصطفى أبو غوش ، بوصولنا فبعث لنا بتحياته وكميات من الشمام والعنب والقهوة وبعض الشموع ، التي غرزناها في الأرض لحاجتنا للإنارة ، وأدى الشرشف الأبيض الذي فردناه فوق الحصيرة دور مائدة العشاء ، و أخذ الرجال المسلمون يراقبوننا بصمت مطبق ، بينما كنا نتجاذب أطراف الحديث خلال تناولنا لعشائنا من الدجاج المشوي البارد.

تلألأت النجوم بشكل رائع ، وهبّ نسيم خفيف حرك أوراق الشجرة من فوقنا ، وفي أثناء ذلك ، كان العمل جاريا على نصب خيمتنا ، وغادر الرجال المسلمون إلى قريتهم وخلدنا

نحن للراحة.

تابعنا مسيرنا عند الخامسة صباحا من فجر اليوم التالي ، وتناولنا طعام الغداء في بيارة فواكه في قرية القباب ، التي حملت أشجار الصبار فيها ثمارا وفيرة وذات مذاق رائع ، ووصلنا الرملة عند الحادية عشرة ، أمضينا ساعات النهار الشديدة القيظ في البيت الذي نزلنا فيه في شهر آب / أغسطس الفائت ، وقد بُنيت فيه غرفة ضيوف ، أو ديوان جديد ، وكانت جدرانه البيضاء قد أضيفت اليها إطارات خشبية مزخرفة (أرابيسك) باللون الأزرق ، تدلت منها صور غريبة تحوي نماذج من فن الخط العربي ، حيث كتبت حكايات تاريخية طويلة بحروف عربية منمقة ، رُسمت بحيث تعطي أشكال حيوانات حقيقية وأخرى تخيلية ، كان من بينها أسد رسم بعناية فائقة ، وتبدو هذه الرسومات من مسافة قريبة وكأنها مجرد خطوط غريبة من الحبر ، إلا أن كل خط منها كان عبارة عن حرف يشكل جزءاً من كلمة ، ويمتاز العرب بإعجابهم الكبير بهذه الرسومات غير الفنية والباعثة على الضجر ، والتي تستهلك الكثير من الوقت في كتابتها ، وفي الغالب فإن القصائد الشعرية العربية المعاصرة التي يتم نشرها تشترك بالروح نفسها من هذا العبث الفني ، إذ إن الغاية الرئيسية منها على ما يبدو هي إنتاج مقاطع كتابية تتضمن كلمات ومفردات تُخط بطريقة معقدة في أنماط متماثلة ، بدقة وحرص شديدين ، ولكن من دون أي ذائقة شعرية.!!

لم تُدون القصائد الشعرية المحلية للبلاد ، فهي جزء من اللغة المحكية يوميا بين السكان ، فجميعهم- وعلى وجه الخصوص البدو والفلاحون ، شعراء بالسليقة.

يمكن رؤية أحاسيسهم الفنية الطبيعية ، وتذوقهم الرفيع للجمال في الأزياء والملابس التي يرتدونها ، التي تمتاز بتناسق وتناغم ألوانها ، ولا تُطرز الا بأنماط وأشكال غاية في الجمال والأناقة ، إنهم يظهرون مهارتهم وذوقهم الرفيع في الحرف والمصنوعات اليدوية البسيطة التي ينتجونها ، كالقناديل والجرار وأطباق الطعام ومواقد الطهي وغيرها من الأدوات المعدة للاستخدام المنزلي ، التي يصنعونها من الفخار ويعرضونها للشمس إلى أن تجف وتقسو تماما.

كانت نوافذ الغرفة الجديدة ذات إطلالة خلابة ، في المركز منها كان البرج الطويل ذو الطابع

المعماري العربي الذي تشتهر الرملة به ، والذي يعود تاريخ بنائه إلى أوائل القرن الرابع عشر ، والذي تحف به بيارات الفواكه من الجانبين ، بينما تظهر القباب البيضاء للبيوت المحيطة به من بين الأشجار الخضراء ، وكانت مجموعة من الإبل المنهكة قد بركت لتستريح في الأرض الخلاء المقابلة للنافذة ، بينما خلد حُداتها للنوم في ظل الجدران الحجرية للبيارة وأشجار الصبار فيها ، وكان من الممكن رؤية بيارات الزيتون وأشجار النخيل المحيطة بالرملة ، وسهل يهوذا المترامي الأطراف من خلفها ، وأحاطت بهذا المشهد سلسلة من التلال الزرقاء والرمادية اللون ، التي جعلتها أشعة الشمس المتساقطة عليها تبدو أبعد مما هي عليه في الواقع. قمت برسم هذا المشهد بينما كانت مضيفتي الحلوة الشمائل تراقب قلمي الرصاص ، فما كان منها إلا أن قالت لي: الله يسلم إيديكي يا بنتي! امتطينا صهوات جيادنا من جديد عند الساعة الخامسة تقريبا ، وسارعنا الخطى عبر السهل الرملي فوصلنا بيارات يافا بعيد الغروب بساعة تقريبا ، وكان النسيم فيها عليلا ودافئا وعابقا بالشذى ، ما أثار ذكرياتنا وشجوننا لأجواء المشاتل الزراعية المدارة بعناية في إنجلترا ، اتجهنا مباشرة إلى دير اللاتين الواقع على شاطىء البحر ، لنكتشف بأن الجناح المخصص عادة لبطريرك بيت المقدس قد جُهز لاستقبالنا بناء على أوامر البطريرك نفسه ، أمضى راهب إسباني الأمسية معنا على الشرفة المضاءة بأشعة النجوم البعيدة ، والمطلة على البحر الأبيض المتوسط.

في صباح اليوم التالي ، وكان يوم أحد ، تناولنا طعام الفطور بصحبة الدكتور خياط ، القنصل الإنجليزي ، ثم رافقناه إلى دار القنصلية ، حيث أقيمت شعائر صلاة الأحد بإشراف السيدة كروسيه ، وأمضيت بقية النهار هناك مع عائلته ، أسست السيدة كورسيه مدرسة نهارية للبنات العربيات ، وأخبرتني بأنها أيقنت بأن العمل فيها كان شاقا ومضنيا ومحبطا ، وأن ذلك لا يعزى لعجز أو قصور في مقدرة الفتيات على التعلم ، بل بسبب الأفكار والتصورات التي يختزننها في عقلهن الباطن من دون وعي ، وربما وبدرجة أكبر ، بسبب المقاومة التي تلقاها الدروس التي يتلقينها في المدرسة لدى عودتهن لبيوتهن ، أمضينا وقتا طويلا مستمتعين بنسيم المساء العليل بين الورود والأزهار على الشرفة ، وراقبنا غروب الشمس من هناك.

انشغل أخي في القنصلية في اليوم التالي ، وتمكن بوصفه حكما من تسوية نزاع طويل وحسّاس بين شخص اكتسب الجنسية البريطانية وشخص آخر يحظى بالحماية البريطانية ، وقد أبدى العرب رضاهم وقبولهم بالحكم الذي أصدره وعبروا عن ذلك قائلين: حكم بيناتهم بالعدل والحق ، لا مات الديب من الجوع ، ولا فنيت الغنم ، وأبدى طرفا النزاع قبولهما ووموافقتهما على حكمه.

في الساعة الرابعة باشرنا المسير عبر الشاطىء باتجاه حيفا ، سرنا بمعية عدد كبير من الأصحاب الذين رافقونا حتى بوابة البلده ثم أستأذنونا بالرجوع قائلين: سافروا بالسلامة ، ان شالله الله يهديكم. كانت الطريق الرملية بعد تلك النقطة ، وطوال مسافة تبلغ حوالي الربع ميل تقريبا ، تعج بالناس الذين جلسوا على كراسي واطئة جدا ، أو الذين كانوا يستلقون على البسط والحصائر. لم أعرف في حياتي مكانا يمكنك أن ترى فيه ذلك العدد من الرجال الأنيقين بعماماتهم وطرابيشهم ، المتجمعين للتدخين والتسلية والثرثرة واللعب بسبحاتهم ، مثل المنطقة الواقعة خارج بوابة مدينة يافا قبيل الغروب بقليل ، يقام سوق في المكان نفسه في الساعات الأولى من صبيحة كل يوم ، ويتجمع فيه عدد مماثل من الجمهور ، وإن كان جمهورا أكثر صخبا وتنوعا وانشغالا.

ما لبثنا ان بلغنا الشاطىء المليء بالأصداف ، كان البحر يندفع باتجاهنا عن ميسرتنا ، بحيث تميط أمواجه المزبده ، اللثام عن الهياكل شبه المدفونة لعديد المراكب والقوارب التي تحطمت في زمن مضى على الشاطئ ، في الوقت نفسه الذي تلقي به بكميات هائلة من أعشاب البحر والشعب الإسفنجية تحت حوافر خيولنا ، حلقت العصافير الصغيرة مسرعة فوق الشاطئ ، وصفقت النوارس بأجنحتها العريضة البيضاء فوق رؤوسنا ، أما الجروف التي كانت على ميمنتنا فقد كانت على ارتفاع منخفض ، وقد غطتها الأشواك والشجيرات الصغيرة هنا وهناك ، كان بمقدورنا في بعض الأحيان رؤية المناطق الداخلية من البلاد ، سهل شارون محاطا بتلال يهوذا (الضفة الغربية) البعيدة ، وقد كان الشريط الساحلي فسيحا ومغطى في معظمه بالأصداف المتكسرة.

كنا نقترب من نهر يسمى نهر العوجا ، ورأينا بعض الفلاحين الذين كانوا يتقدمون علينا وهم

يستعدون لعبور النهر ، نزعوا ملابسهم ، وقام أحد الرجال بربط ملابسه على شكل بقجة ولوح بها ثم رماها نحو الضفة الأخرى ، أم البقية الذين لم يمتلكوا روح المغامرة التي امتلكها صديقهم ، فقد ثبتوا ملابسهم على ظهور بغالهم المحملة بالأغراض ، ثم قفزوا إلى النهر وهم يقودون بغالهم المترددة بحذر ، فقد نزلوا في الماء حتى خواصرهم. بلغوا وجهتهم بأمان وعاودوا ارتداء ملابسهم في الوقت نفسه الذي وصلنا فيه إلى النهر ، حيث كان جريانه سريعا ، وكان عمقه في أفضل أماكنه يبلغ ثلاث أقدام على الأقل ، كانت فرسي مرتفعة جدا مقارنة بالخيول العربية ، وقد كنت بمنأى عن البلل وأنا أقطع النهر على صهوتها ، بالرغم من أننا تعرضنا جميعا للبلل عند محاولتنا الخروج من مجرى النهر للضفة الأخرى منه. كانت سماء الغروب صافية وخالية من السحب ، وقد تدرجت ألوانها من الأحمر القاني الذي امتزج بصبغة برتقالية تلاشت أكثرها شحوبا في حزام رقيق من اللون الأخضر ، الذي كان قد مازج زرقة السماء التي كنا تحتها.

ركضت مجموعة من من السلاطعين من جحورها باتجاه البحر ، بينما كان جامعو المحار مشغولين بالبحث عن وجبة عشائهم ، بدأت الجروف على ميمنتنا بالارتفاع وبازدياد شدة انحدارها تدريجيا الآن ، كانت تتألف من كتل مختلطة من الرمال والأصداف ، وكان الشاطىء في بعض النقاط ضيقا وصخريا ، وازداد الشفق احمرارا ، وبدأت غشاوة ضبابية تنبعث تدريجيا من الأرض ، فلم يعد بمقدورنا أن نرى شيئا سوى الأجزاء العلوية من الأشياء التي تتحرك أمامنا ، والتقينا بقافلة طويلة من الجمال تتسكع بكسل في مشيها بينما تبعتها مجموعة من البدو ، الذين كانت أشكالهم تمتاز بالغرابة والغموض ، وقد اختفت ملامحهم بفعل الضباب ، وبدا قواسينا الذين كانوا يسبقوننا وكأنهم ينزلقون من دون أقدام ، ثم أسرعنا الخطى باتجاه الحرم والذي بلغناه بعد أن سلكنا طريقنا عبر فجوة متعرجة بين الجروف ، كانت فيما مضى مجرى مياه قديماً ثم تحولت إلى طريق في الزمن الحديث ، انتصب في مركزها جدار صخري قسمها بشكل طبيعي إلى طريق باتجاهين.

ترجل السائس وتولى قيادة الطريق ، مستكشفا جنبات الطريق المتعرج وهو يحمل قنديلا كبيرا في يده ، وما ان وصلنا قمة الجروف حتى تخلصنا من الضباب ، كنا نستطيع رؤية

طيف قرية حرم سيدنا علي بن عليم (قرية الحرم ، قرية فلسطينية تم تطهيرها كليا في حرب 1948 ، تقع على بعد 16 كم شمال يافا-المترجم) بنيت بيوتها من الحجارة المتينة حول مسجد عتيق ، وتعد هذه القرية محجا مفضلا للدراويش والمتدينين من المسلمين ، اقتدنا عبر العديد من الساحات والمجازات ، ثم ارتقينا درجا حجريا غير مغطى يفضي إلى شرفة فسيحة جلس فيها مجموعة من الرجال المسلمين حول تل صغير من الأرز ، كانوا يأكلون منه بنهم ولكن بصمت ، على أضواء النجوم والقناديل.

رحب بنا شيخ القرية ودعانا لدخول الغرفة الواسعة الأرجاء المخصصة لاستقبال الضيوف والمطلة على الشرفة ، أضيئت قناديل فخارية حمراء ذات طراز عتيق ووضعت في كوّات في سائر أنحاء الغرفة ، واستطعنا في ضوئها أن نلحظ أن السقف كان عبارة عن قبة تمت زخرفتها بخطوط ناتئة ، بينما غطيت الجدران بالجص المزحرف ، لكن أسطحها جميعها كانت قد اسودت بفعل الدخان المنبعث من الحطب الدائم الاشتعال في مركز الغرفة خلال فصل الشتاء.

خلت هذه الغرفة إلا من بعض الحصائر من القصب ، التي وضعت بالقرب من جدرانها الأربعة ، وكنا قد رتبنا لإحضار بعض من أثاث خيامنا ، وبعد أن تناولنا طعام العشاء وأخذنا بعض الملاحظات وتبادلنا بعض الأحاديث مع الشيخ خلال تناول القهوة وتدخين الأرجيلة ، خرجنا للشرفة المضاءة بأنوار النجوم لبرهة من الوقت ، حيث غرق رفاقنا المسافرون معنا والخدم في سبات عميق ، متدثرين بعباءاتهم وبلحف مطرزة. استرحنا بضع ساعات في غرفة الضيوف الضخمة ، وعندما ارتفع صوت المؤذن بآذان الفجر من المئذنة القريبة وهو يقول: الصلاة خير من النوم أجبنا النداء واتجهنا نحو الشرفة.

كان الفجر قد بدأ بالبزوغ ، عند الساعة الثالثة تقريبا ، وذكرتنا الأصوات الصاخبة المنبعثة من الساحة بالأسفل بتوقيت الصياح الأول للديك(43) ، لم يكن القمر قد ارتفع منذ زمن طويل في منزله الأخير ، لكنه كان ساطعا وفي غاية النقاء.

بعد أن تناولنا طعام الفطور ، في حوالي الساعة الرابعة تقريبا ، امتطينا صهوات جيادنا وتابعنا رحلتنا صوب الشمال بمحاذاة الشاطئ ، محافظين على مسافة قصيرة من البحر ،

الذي احتجب عنا خلف الكثبان الرملية المتحركة ، كنا نجتاز أرضا سهلية رملية متموجة وقاحلة وغير مأهولة بالسكان تفتقر للأشجار ومياه الري ، كما تخلو من أية إشارات إلى وجود دروب أو مسالك محددة لعبورها ، نمت فيها أعشاب القبأ ونباتات من فصيلة النجيليات وأعشاب القّرصعّنه ، علاوة على أنواع مختلفة من الأشواك تكلّلت جميعها ببراعم وأزهار ذات ألوان وردية وزرقاء وصفراء ، وكان يتعين على مرشدنا أن يجول ببصره في المكان بحذر وحرص شديدين ، مخافة فقدان الاتجاه الصحيح ، نظرا لخلو المنطقة من أية إشارة إلى وجود درب مطروق في أي مكان فيها ، لكننا كنا نرى بين الفينة والأخرى دلائل تشير إلى أننا لم نكن المسافرين الوحيدين الذين مرّوا بهذه الطريق ، لانتشار الهياكل العظمية وعظام الجمال والخيول التي ابيضت مع مرور الزمن وطمر جزء منها تحت الرمال.

أنارت الشمس ، التي لم نكن قادرين على رؤيتها حتى تلك اللحظة ، الأفق من جهة الشرق ، وأظهرت الظلال المعتمة للتلال البعيدة ، فوقفنا نترقب شروقها ، وكان نصفها قد بدأ بالظهور ، وتدريجيا ارتفعت بالسماء بشكل كامل واستقرت في الأفق ، وبعد توقف قصير بدت وكأنها تقفز إلى كبد السماء ، وفي تلك اللحظة بالذات نطقنا جميعا باسم إدوين أرنولد مستذكرين أغنيته اللطيفة زواج الراين وموسلي ، ورددنا الكلمات التي نستذكرها جيدا بمتعة وسرور بينما كنا نتابع طريقنا ، كانت السماء شديدة الزرقة وكان القمر ما زال يسطع عاليا فوقنا.

بعيد شروق الشمس قابلنا العديد من قوافل الجمال المحملة بالشمام ، فقد كان موسم الشمام ، وكنا كلما تقدمنا في طريقنا ، نلاحظ بأن الأرض تصبح أكثر خصوبة وتماسكا ، إذ تكفلت الجذور الليفية الطويلة لأعشاب النجيل بحفظ التربة وزيادة تماسك أجزائها ، بحيث شكلت أرضا خصبة لنمو أنواع متعددة من الشجيرات ، التي كانت بمجموعها ذات طبيعة شوكية بلا استثناء ، وأضفت أشجار البلوط الدائمة الخضرة وشجيرات الأشواك القليلة بعض الحياة على المكان الشبيه بالصحراء ، كنا نقترب من نهر متعرج كان مجراه ضيقا ومحاطا بنباتات قصب مزهرة ، كانت تبدو من بعيد وكأنها أشجار نخيل صغيرة ، حفّت بها شجيرات الدفلى والترمس وأعشاب سيدي يحيى ، وقد أزهرت جميعها ، فقطعنا هذا النهر الصغير ،

والذي يطلق عليه اسم نهر الفالق ، ولفتت انتباهنا أطلال وخرائب متناثرة على ميسرتنا تعود لبلدة قديمة وقلعة بدت لنا وكأنها تعود للعصر الروماني ، وشرعنا بعدئذ باجتياز دغل من الشجيرات البرية ، التي كانت في معظمها من البلوط الأخضر وأشجار القطلب والزعرور شجيرات السذابية ، وكنا بين الفينة والأخرى ، ومن على الأجزاء المرتفعة من الأرض ، نرى مساحات شاسعة من البحر ، والذي كانت أشعة الشمس قد بدأت بالتساقط عليه ، فكانت خطوط الضوء تقطع سطحه الصقيل الأملس ، عابرة الفتحات الكثيرة بين مفاصل الصخور والجروف على الشاطئ.

وصلنا إلى المنطقة التي تشتهر بزراعة الشمام فيها ، وكنا أمام مشهد مفعم بالحياة للحياة العربية ، وانتشرت حقول الشمام بأنواعه المختلفة على مرمى بصرنا ، وصولا إلى حواف الجروف الصخرية المشرفة على البحر على طول الشاطئ ، بينما انتشرت مجموعات من الفلاحين في ثيابهم وعماماتهم البيضاء ؛ وقد انهمكوا في قطف الشمام وتعداده وتكديسه في أكوام هرمية الشكل ، كما تواجدت في المكان مئات من الجمال أيضا ، التي شرع بعضها بالمسير وقد حُمل بكميات كبيرة من الشمام ، بينما بركت الجمال الأخرى وهي تنتظر انتهاء الفلاحين من تحميلها بحمولتها المقررة من الشمام ، وكنا نمر بالعديد من القرى ذات البيوت الطينية خلال مسيرنا ، ونرى الخيام البيضاء وقد انتصبت بين البيارات والبساتين ، والتي قيل لي بأنها خيام الموظفين الذين جاءوا لجباية الضرائب والمكوس المستحقة على حصاد الشمام.

ترجلنا عن صهوات جيادنا في خضم هذه الحركة الدوؤبة من حولنا ، في مكان قريب من قرية أم خالد العامرة ، كانت الساعة حوالي السابعة والنصف ، فاسترحنا لبرهة من الزمن تحت شجرة منزوية ، وفي الغرب من موقعنا ، كان بمقدورنا رؤية جزء كبير من البحر الأبيض المتوسط الذي غمرته أشعة الشمس بالكامل في تلك الأثناء ، خلف بيارات الشمام التي لم تكن ذات مظهر جميل بأي شكل ، فقد كانت الأوراق الكبيرة لنبتة الشمام تتمدد بشكل مستو على الأرض ، التي بدت وكأنها قد تغطت ببلاطات خضراء وصفراء كبيرة تصلح لأن تكون لعبة للعمالقة ، ولم تكن هناك شجرة أو سياج واحد لكسر رتابة المشهد ، لكن

العمال المنشغلين بالفلاحة تكفّلوا بإضفاء الحياة على المشهد ، وكانت قطع الأرض قد حُددت بخطوط محروثة نمت فيها الأشواك والشجيرات الشوكية الصغيرة ، فقمت برسم هذا المشهد إعجابا مني ببساطتة وغرابته. وكنا نعتزم شراء بعض الشمام لكن ناظر العمال قال لنا بأن في مقدورنا أن نأخذ ما نشاء إلا أنه لا يمكنه بيع الشمام بكميات تقل عن المائة شمامة في الصفقة الواحدة ، ثم نهضنا بعد أن حظينا بقسط منعش من الراحة ، وامتطينا صهوات جيادنا وواصلنا طريقنا عبر أميال وأميال من بيارات الشمام ، أما الأراضي التي لم تكن قد فُلحت والأراضي البور فقد نما فيها الحنظل البري بكميات كبيرة ، كان قطر الثمرة الواحدة من هذه النبتة يبلغ ثلاثة إنشات في المعدل ، وهي ثمرة قاسية وصلبة كالحجارة وذات قشرة ناعمة ملونة بالألوان الأخضر والأبيض والأصفر ، وكأنها قطعة رخام جيدة الصنع ، فملأنا جيوب سروج خيلنا منها. يتعامل العرب مع هذا النبتة بوصفها عشبة ضارة وحسب. نمت نباتات العنصل بكثرة في الأرجاء أيضا ، لكنها كانت قد تلفت بسبب الحراثة.

اتجهنا نزولا صوب البحر وعثرنا على ملاذ ظليل تحت الجروف المنخفضة ، حيث كانت أكوام من الشمام تنتظر أن يتم تحميلها على متن القوارب العربية ، وكانت الجمال تغدو وتعود سريعا عبر الطريق المتعرج القادم من الجروف صوب البحر.

سقينا جيادنا من عين ماء تسمى أبو زابور لم تكن مياهها تمتلك القوة الكافية لبلوغ البحر لكنها كونت بركة ضحلة على مقربة منها.

بعد ذلك بقليل شاهدنا الأطلال الجميلة لقيسارية وترجلنا هناك عند الساعة العاشرة والنصف ، وأخذنا قسطا من الراحة في ظلال بوابة حجرية كبيرة ، ورفعت السروج عن صهوات الجياد ، ورتبنا أمورنا لقضاء سحابة النهار هناك إلى حين انقضاء فترة الظهيرة ، وسرعان ما غرق جميع أفراد قافلتنا تقريبا في نوم عميق ، فحاولت أن أحذو حذوهم ولكن من دون جدوى ، فعدلت عن ذلك وتسلقت أحد الجروف وأخذت أتأمل بالجوار.

خلت المنطقة من أي إنسان ونمت الأشواك والشجيرات الشوكية بين الأعمدة الملقاة على الأرض والحجارة المتساقطة من المبنى الأثري. تمتاز مواقع الكنائس المسيحية العتيقة بوجود أربع دعامات ضخمة تنتصب باستقامة وبثبات ، بالرغم من انهيار وسقوط الجدران

التي وجدت أصلا لإسنادها منذ زمن طويل ، كان حاجز الأمواج من أهم الآثار الباقية في قيسارية ، ويمتد بعيدا داخل البحر لتتلاطم عليه الأمواج برغوتها ورذاذها ، أما الحجارة المصقولة الضخمة والأعمدة الجرانيتية فقد وقعت على الأرض بنمط فوضوي معقد ، لكنها بدت وكأنها التصقت لتساند بعضها البعض في عزلتها وخرابها ، نزلت من جديد باتجاه الرمال ، وبدأت أرسم هذه الأطلال اللافتة للنظر بعناية ودقة ، حجرا حجرا ، اثناء جلوسي في مواجهتها تماما في ظل قناة قصيرة شقت الجرف من فوقي باتجاه مائل صوب البحر ، والتي أعتقد بأنها كانت جزءاً من نظام قديم للصرف الصحي ، جمعت بعض أزهار خشخاش البحر الطويلة ذات اللون الأصفر الشاحب التي نمت قريبا من الماء ، والتقطت بعض الأصداف المتناثرة هناك.

بعد أن تناولنا بعض المرطبات امتطينا صهوات جيادنا عند الساعة الثالثة والنصف وتابعنا طريقنا عبر الرمال ، وكنا نرى أجزاء من أساسات الأسوار الخارجية لقيسارية عبر شقوق الجروف التي كنا نمر بالقرب منها ، كانت المدينة محاطة بثلاثة أسوار في الأصل ، يبعد كل منها مسافة لا بأس بها عن الأخرى. كان الشاطئ يعج بقطع متناثرة من الرخام ، وكانت تلال من الحجارة تستند إلى الصخور مزدانة بالطحالب والأعشاب البحرية تنتصب هناك بثبات ، وإن كانت تتلقى لطمات أمواج البحر بشكل مستمر.

حثثنا الخطى إلى أن بلغنا نهر الزرقاء- نهر التماسيح ، وقد سمعت من الكثير من الناس بأنه يمكن العثور على تماسيح صغيرة في هذا النهر حتى الآن ، وتقول الروايات المحلية بأن مجموعة من المصريين سكنت على ضفاف النهر ذات زمن ، وجلبت معها تماسيح من النيل ، نهرهم المحبوب ، وبأنهم نجحوا في توطين هذه التماسيح في المنطقة.

هناك خرافة يتداولها العرب في هذه المنطقة حتى اليوم تعطي رواية أخرى للكيفية التي استقدمت فيها التماسيح إلى هذا النهر:

في زمن ما ، سكن عجوز وابناه على ضفة النهر ، وكانت قطعانهم ترعى على الكلأ والعشب الذي ينمو في السهل.

مات الرجل العجوز وترك لولديه كنزه المدفون وقطعان الماشية التي كان يمتلكها.

كان الابن الأصغر كادحا مجتهدا في عمله وحصيفا في رأيه ، فازدادت ثروته كثيرا.

أما الابن الأكبر فقد كان متبطلا وفاجرا ومسرفا ، فأمسى فقيرا وصار ينظر بعين الحقد والحسد إلى قطعان الماشية الكثيرة التي امتلكها أخوه ، وأخذ يفكر في قرارة نفسه بطريقة لقتل هذه القطعان وإبادتها ، فسافر إلى مصر ومنها جلب تماسيح صغيرة أطلقها في النهر ، آملا أن تتولى هذه التماسيح التهام ماشية وقطعان أخيه عند ورودها للماء أو خلال رعيها على ضفاف النهر.

بعد مضي زمن قصير ، نزل الابن الأكبر للاستحمام في النهر ، وقد نسي الخطر المحدق الذي جلبه للنهر ، فانقضت عليه التماسيح بسرعة وافترسته بسرعة.

هذه هي مشيئة الله ، وهكذا يقع الأشرار في الأفخاخ التي ينصبونها لجيرانهم

في الجهة الجنوبية للنهر ينتصب مبنى منعزل من الحجر ، بات خربة في الوقت الحاضر ، فافترضنا بأنه كان بمثابة مخفر حراسة متقدم لقيسارية وربما كان يحدد موقع المدينة التي أسماها المؤرخون القدماء بمدينة التماسيح.

اكتشفنا أن قطع النهر كان عملية محفوفة بالمصاعب بسبب عمق وعرض مجرى النهر ، إضافة إلى سرعة التيار فيه ، وخلت المنطقة من أي شخص من الممكن أن يرشدنا إلى أسهل نقطة لعبوره ، قد تشكل بضع ساعات أحيانا فرقا كبيرا في طبيعة مصب النهر ، إذ تتولى الرياح أحيانا تغيير منسوب المياه ومواقعها في مجرى النهر. قام قواسنا بتجربة عدة أماكن قبل أن يتمكن من العثور على بقعة توفر ممرا آمنا لنا ، فقمنا باجتيازها بحذر واحدا تلو الآخر بطابور أحادي إلى أن بلغنا بر الأمان على ضفة النهر الأخرى ، ونحن نعاني من البلل والبرد الشديدين.

سرعان ما وصلنا خليجا في غاية الجمال ، إلا أنه كان صخريا وخطرا على المراكب الصغيرة التي تتعرض للتحطم على شاطئه في كثير من الأحيان ، في هذا الموقع ، كان الكولونيل أف. والبول قد هاجم قبل زمن ليس بالبعيد مجموعة من العرب ، الذين كانوا وبدون أدنى شفقة يقومون بنهب بحارة تعرض مركبهم للغرق ، محاولين الاستيلاء على المركب بحمولته ،

وقد أخذ الكولونيل والبول بعض المهاجمين الذين قبض عليهم كأسرى بمعيته إلى يافا ، وقد شاهدنا ما يقرب من الخمسين سلة من الأرز على الشاطئ ، من البقايا التي خلفها المركب الذي حاول الكولونيل حمايته.

في العام 1858 ، تعرض مركب عربي صغير للغرق على هذا الشاطئ بفعل عاصفة هوجاء ، وكانت حمولته تتألف من كميات من الأرز والبرتقال ، كما كان على متنه عائلة يهودية مكونة من أب وأم وعدة أطفال ، وقد ارتطم المركب بالصخور على الشاطىء وانقسم إلى نصفين ، نجا رجل أو اثنان من ملاحيه ، بينما مات جميع الركاب إما غرقا أو بفعل الارتطام بالصخور على الشاطىء ، باستثناء رضيع يبلغ من العمر سنة واحدة ، حملته موجة عالية قوية بأمان إلى الشاطئ ، حيث تجمع بعض الناس لمراقبة ما حلّ بالمركب المنكوب ، فقاموا بالتقاط الطفل الصغير وقد أصابتهم الدهشة ، وصدف أن كانت مجموعة من البدو تمر في الجوار في تلك الساعة ، فتطوعوا لتولي مسؤولية الطفل الصغير وتبنيه لكي يربوه كابن من أبنائهم ، قائلين: لن نعرضه لأي أذى ، فقد نجا بمشيئة الله وحده ، فوافق الناس الذين التقطوه على السماح للبدو بأخذه ، فحمل الطفل العبراني الصغير إلى مكان مجهول بالنسبة لي ، وكان بعض الفلاحين الذين كانوا متجهين إلى حيفا قد شهدوا هذه الواقعة وسردوا لي أحداثها الغريبة ، كما أخبروني بأن الطفل كان جميلا وقوي البنية وبصحة جيدة ، وبأنهم كانوا على استعداد لأخذه بأنفسهم لو لم يسبقهم البدو للقيام بذلك. من المؤكد بأن هذا الرضيع قد حظي بحضانة أم بدوية ، وسوف يتعلم أن يحيا حياة الترحال والتنقل في ربوع أرض أجداده ، من دون أن يكون لديه أية فكرة عن أصله وفصله ، وكان سيكون من المثير لو خضعت مسيرته في الحياة للفحص والمراقبة ، لمعرفة المدى الذي سيتمكن فيه من الاحتفاظ بسماته القومية ، البدنية منها والنفسية ، وحجم التأثير الذي سيتركه على العائلة الصغيرة التي سيكوّنها بكل تأكيد عند زواجه وهو في ريعان الشباب ، وكنت سأود الالتقاء به حين يبلغ سن الرجولة ، لو أتيح لي أن أتأكد من هويته.

عادة ما يسمي البدو أبناءهم وفقا للظروف التي تتزامن مع ولادتهم ، أو تيمنا بحدث أو حادثة ترافقت مع ولادة أطفالهم ، لكن توجد أسباب عديدة للاعتقاد بأن هذا الطفل العبراني

الصغير ، مثل النبي موسى ، قد سُمي تبعا للمصيبة الغريبة التي ألّمت به ، فقد يطلق عليه مثلا ابن البحر ، أو من البحر ، وهي ما تعد أسماء بدوية اعتيادية ومناسبة لحالته. قد يكون من الصعب ، ولكن ليس من المستحيل اقتفاء أثره الآن ، وقد كان أول ما تبادر إلى ذهني عند سماعي لقصته ضرورة استرجاعه وإعادته للعيش بين بني جلدته اليهود ، لكن لم يكن ذلك ضمن طاقتي ولا صلاحياتي.

علمت بأن والديه كانا من يهود الجزائر الذين قدموا للاستيطان في فلسطين ، وكان المركب المنكوب قد حملهم من مصر إلى مثواهم الأخير على شواطئ الأرض ، التي لطالما غلبهم الحنين لرؤيتها ، والتي لم يتمكن سوى أصغر أبنائهم من بلوغها بسلام ، وربما كان الوحيد من بين أفراد العائلة الذي لم يتلق دروسا في حبها أو في الإيمان بأنها الأرض التي وعد الله بها جدّه الأكبر إبراهيم وذريته من بعده إلى أبد الآبدين!!!!!

يوما ما ، ربما يصبح أبناء وأحفاد هذا الطفل العبراني الصغير محط جدل ولغزا عرقيا محيرا لعلماء الأعراق البشرية الذين يجوبون العالم.

كانت رمال الشاطئ التي تلي الخليج ناعمة ومنتشرة على مرمى البصر ، كان بمقدوري أن أرى أمامي مباشرة ، الجزر الصخرية التي نذكرها جيدا ، وقرية الطنطورة التي اضطررنا للرسو فيها في أيلول / سبتمبر لأن الرياح كانت معاكسة ، عندما شارفنا على بلوغ هذا المكان ، انعطفنا مبتعدين عن الشاطىء واتجهنا نحو المناطق الداخلية صوب قرية صغيرة للمسلمين تسمى كفر لام. بلغناها عبر منطقة ينتصب فيها مبنى حجري أنيق البناء ، وسرنا بين محاجر عتيقة وفوق بلاطات صخرية ناعمة كبيرة صقيلة كالمرمر ، جلنا بأنظارنا داخل الفجوات الجدارية المقوّسة ، وتفحصنا الكهوف الكبيرة المعتمة التي حفرها الإنسان ، حيث كان الحجارون في العصور السحيقة يتناولون طعامهم ويخلدون للنوم فيها على الأغلب ، من الجلي بأن أحدا لم يعمل في هذه المحاجر طوال قرون ، وربما منذ العهد الذي بنيت فيه مدينتا دور (الطنطورة- المترجم) وعتليت ، كما نبتت أشجار كبيرة في التربة التي تساقطت من الأعلى أو التي جرفتها الرياح للأماكن المغطاة في الأجزاء المنخفضة ، وفي أعماق هذه المحاجر.

جاء شيخ كفرلام وجميع وجهائها للقائنا ، فقد كانوا يتوقعون وصولنا ، وكنا معروفين جيدا

في الأنحاء ، سرنا بين حقول مزدهرة بالذرة الهندية والدُخن والسمسم والتبغ وترجلنا عن صهوات جيادنا على مشارف القرية ، التي تتألف من بيوت واطئة بنيت من الطين والحجارة ، وجدت خيمتي التي كانت قد سبقتني للمكان ، وقد انتصبت في وسط جبال صغيرة من القمح والشعير بالقرب من أرض خصصت لدراسة الحنطة ، كانت الثيران منهمكة بدوس الذرة ، وفردت السجاجيد والوسائد لأجل جلوسنا على أرض مرتفعة قليلة في الأرض الخلاء ، وسرعان ما جلبت القهوة والغلايين. جلس شيخ القرية وإمام مسجدها وكبار السن فيها مقابلنا في نصف دائرة ، بينما أحاط بهم الشبان الأصغر سنا وقوفا أو مستلقين على أكوام القمح المنتشرة بالجوار.

كنا على مسافة تقارب الميل عن الشاطئ ، جالسين قبالة البحر والشمس الآفلة للغروب ، وكنا نرى الشريط الساحلي الطويل ، وكانت الجزر الصخرية وأطلال الطنطورة ، أو قرية دور القديمة ظاهرة للعيان باتجاه الجنوب ، بينما انتصب برج عتليت الطويل بعيدا جهة الشمال.

في اللحظة التي اختفت الشمس فيها في البحر ، نهض إمام القرية ووقف في وسط أرض ممهدة ومخصصة لدراسة الحنطة على مقربة منا ، وولى وجهه بخشوع وجلال صوب الجنوب ، وأقام أذان المغرب بصوت جهوري مرتفع ، لم يكن في القرية مئذنة أو جامع لأداء الصلاة ، وسرعان ما نهض الرجال المسنون الذين كانوا يتحلقون حولنا ووقفوا في صفّين متوازيين وراء الإمام في الأرض المخصصة لدراسة الحنطة ، حيث بدا الإمام كقائد فعلي للمجموعة الصغيرة من الرجال ، الذين كانوا يرددون كلماته ويقومون بالحركات نفسها التي يقوم بها من ركوع وسجود ورفع للأيدي باتجاه السماء بوتيرة واحدة ومتزامنة ، وانضم إليهم العمال الذين كانوا في الحقول القريبة ، وإضافة إلى خدمنا المسلمين ، لكن الشبان الأصغر سنا الذين كانوا يتحدثون معنا ترددوا في الانضمام للصلاة في البداية ، فنظروا إلى بعضهم البعض وكأنهم كانوا غير عازمين على القيام بشيء ، ثم نظروا إلينا وكأنهم كانوا يشعرون بالخجل ، وحاولنا نحن بدورنا وقد حافظنا على هدوئنا ولم نأت بأية إيماءة أو تلميح ، أن نوضح لهم بأننا لا نتوقع ولا نرغب منهم أن يهملوا الفرائض الملقاة على عاتقهم بسببنا ،

فجأة ، نهضوا جميعا واصطفوا صفا واحدا على حافة الأرض المخصصة لدراسة الحنطة ، واختلطت أصواتهم الجهورية بأصوات آبائهم الذين كانوا يرددون: لا إله إلا الله ، محمد رسول الله

لم تتقدم أي امرأة للصلاة ، لكنني رأيت مجموعة من النسوة يقفن على مسافة وهن يراقبن المصلين ، استغرقت الصلاة حوالي الربع ساعة تقريبا ، لم أر في حياتي خشوعا وتركيزا كاللذين رأيتهما في هذه الصلاة ، حتى في الصلوات التي شهدتها داخل الحرم القدسي في بيت المقدس.

بعد الصلاة مباشرة ، أُحضر لنا العشاء ، ومن ضمنه زبدية خشبية- ليست بالعميقة ولكن قطرها كان يبلغ الياردة تقريبا- وقد ملئت بالأرز المطهو بالسمن المنبعث منه البخار ، ووضعت على الأرض قريبا من مكان جلوسنا ، كما أحضرت أطباق معدنية احتوت على اللحوم والبيض والخضار والزبدة ، وتحلق من حولها شيخ القرية وإمامها وكبار السن فيها ، وشرعوا يأكلون طعامهم بصمت وبسرعة وهم يغمسون اللُقَم التي يقطعونها من أرغفة الخبز اللدنة في أطباق البيض أو الزبدة ، ويقطعون كتل اللحم بأصابعهم ، ويدخلون أيديهم في كوم الأرز ويخرجونها وقد ملئت بكرات صنعت ببراعة من الأرز ، عندما شبعوا غادروا المائدة واحدا تلو الآخر لغسل أيديهم وإشعال غلايينهم ، وبادر الرجال الأصغر سنا والصبية بأخذ أماكنهم على الفور ، وعندما فرغوا جميعا من طعامهم تجمع الخدم للأكل من الأطباق نفسها التي ملئت مرارا خلال المأدبة ، وكانت مجموعات من الرجال تتناول طعامها بصمت بينما كنا نأكل بتمهل باستخدام شوكنا وسكاكيننا ، ولم ترفع بقايا الطعام إلى أن فرغ جميع رجال وصبية القرية من طعامهم ، أما النسوة فقد تناولن طعامهن في مكان آخر.

أكلنا تينا أخضر لذيذا ، كان أول ما أكلت من التين في ذلك الموسم ، تبين لنا أن أصناف الفاكهة والخضروات كافة التي تنمو في سهول الطنطورة تمتاز بجودة أفضل من جودة تلك التي تنمو في جبال الضفة الغربية. بعد أن جلست في الهواء الطلق حتى الساعة التاسعة تقريبا ، خلدت للراحة في خيمتي ، بينما كان رفاق سفري ، بمن فيهم شقيقي ، قد لفوا أجسادهم بعباءاتهم وناموا على تلال القمح. نهضت من نومي في الخامسة فجرا ، وجلست

على باب خيمتي لأشاهد شروق الشمس من فوق مرتفعات الكرمل.

بعد أن شربنا قهوة وحليبا ، تابعنا مسيرنا عبر الحقول المزروعة والمفلوحة بإتقان ، وبيارات الخضروات والفواكه والمحاجر المهجورة شمال كفر لام ، وسرعان ما كنا على شاطئ البحر على الطريق نفسها التي سلكناها في شهر أيلول. تأملنا أطلال وخرائب عتليت من جديد بنظرات ملؤها الإعجاب ، وعبرنا الممر الضيق باتجاه الجرود والسهول التي كان الطريق يقطعها فيما مضى ، وكان من الممكن رؤية أجزاء كثيرة منه ، وكانت هذه السهول أكثر جمالا واخضرارا مما مضى ، أما نبع الماء المسمى عين الدستري فقد حفّت بها أشجار الدفلى بأزهارها الوردية اللون. عند الساعة الثامنة تقريبا ، توقفنا بالقرب من عين ماء في منتصف المسافة بين عتليت وقمة جبل الكرمل. كان في أعلى عين الماء بناء حجري مربع ذو حوض عريض يحيط بها من الجوانب كافة ، فترجلنا بالقرب منها وتناولنا فطورنا الذي كان مؤلفا من السمك والخبز الذي أخذناه من الفلاحين ، ركبنا خيولنا بعدها وأسرعنا الخطى نحو حيفا ؛ فوصلناها عند الساعة العاشرة تقريبا ، في الثلاثين من تموز/ يوليو ، حيث منحنا الترحيب الذي حظينا به من أهلها شعورا لا يوصف بالسعادة.

كان صديقنا محمد بيك عبدالهادي من أوائل الذين قاموا بزيارتنا ، وسرعان ما لحق به الحاكم السابق ، صالح بك عبدالهادي ، وأخبرني أن حريمه اللواتي قمت بزيارتهن في عرابة قد انتقلن للإقامة في حيفا ، وبأنهن مشتاقات لرؤيتي. ازداد عدد الأوروبيين في البلدة ، وعندما قدم السينيور فيجيتي ، نائب القنصل الهولندي بزيارتنا ، أخبرنا بأنه قد اشترى آلة بيانو ، وكان أول بيانو يدخل حيفا على الإطلاق ، ولم يكن في البلدة أي إنسان باستثنائي ، يعرف كيفية العزف عليه.

دعا جميع الأوروبيين إلى أمسية موسيقية بعيد بضعة أيام من وصولنا ، من أجل تدشين الآلة الجديدة ، وكنت قد قمت بتجربة البيانو مسبقا ، وأبديت موافقتي على العزف في تلك الليلة ، نظرا لعدم وجود من يمكنه ذلك.

عمّت أهالي حيفا في تلك الليلة مشاعر قوية ، واكتظت الساحة الخلاء المواجهة للمنزل بجمهور المستمعين ، الذين كان من بينهم زكريا أغا ، الحاكم التركي الجديد للبلدة ، ومحمد

بيك وجميع الوجهاء المسلمين في حيفا ، ثم قاموا صبيحة اليوم التالي بزيارة السيد فيجيتي ، طالبين منه دعوتي للالتقاء بهم في بيته لكي يتمكنوا من سماعي ورؤيتي وأنا أعزف على آلة البيانو ، ثم جاءوا إلى شقيقي وطلبوا منه أن يقنعني بالذهاب ، وهكذا تم ترتيب أمسية موسيقية ، وذهبنا. وجدنا الحاكم بصحبة حوالي عشرين رجلا من وجهاء المسلمين وهم يرتدون حللهم المطرزة القشيبة ، وقد التئم شملهم في غرفة الإستقبال داخل القنصلية الهولندية ، حيث كان في استقبالنا السيد فيجيتي ووالداه الطاعنان بالسن ، فيما اكتظت غرفة الانتظار بالخدم وحاملي المشاعل والفوانيس.

قام جميع الحاضرين تقريبا بتجربة البيانو بالدور ، وقالوا: ليس بمقدورنا أن نجعله ينطق بنفس اللغة التي تجعلينه ينطق بها يا سِتنّا فقمت بإعطائهم بعض النوتات الموسيقية قائلة: هل يمكنكم العزف عليه مثلي بالاستعانة بهذه النوتات ؟ ، وكان من المثير سماع صرخات دهشتهم ورؤية علامات التعجب على وجوههم وهم يراقبون أصابعي ، خصوصا عندما لاحظوا بأنني كنت أنظر إلى نوتات الكراس الموضوع أمامي بين الحين والآخر. ليسوا معتادين سوى على رؤية آلات موسيقية صغيرة ومحمولة فقط ، وكانت مقدرتي على التحكم بآلة بهذه الضخامة محط استغرابهم الشديد ، وقالوا: حتى العاملون في حصد المزروعات في مواسم الحصاد لا يمكنهم العمل بهذه المثابرة أو تحريك أصابعهم بهذه السرعة ، وقد بدا أنهم كانوا مأخوذين بالسرعة التي كنت ألمس بها مفاتيح البيانو بشكل أكثر مما أثرت بهم المعزوفات الموسيقية بحد ذاتها ، إلى أن قمت بعزف نشيدهم الوطني عبد المجيد ، حيث وقفوا جميعا ، فتقدم رجل جهوري الصوت يبدو وكأنه سيمز ريف حيفا ، وشرع بالإنشاد ، واشترك بقية الحاضرين في الإنشاد على شكل كورس ، وكان أحد البكاوات الموجودين قد أظهر شغفا وطربا ملحوظا بالموسيقى التي عزفت خلال الحفلة ، فقلت له بأنني على استعداد لتعليم العزف لزوجته إذا ما اشترى لها بيانو خاص بها ، فرد علي قائلا: خيتي ، نسواننا ما بيقدروا يتعلموا ، روسهم خشب ، تعليم الحمير أسهل من تعليمهم!!!

اعتاد كل القاطنين في حيفا ، وإن بدرجات متفاوتة على موسيقى البيانو ، الذي كان السبب الرئيسي في تنظيم وإقامة العديد من الأمسيات الموسيقية الممتعة ، وشكّل هذا الحدث

فجرا لمرحلة جديدة في تاريخ الجالية الأوروبية الصغيرة في حيفا ، وساعد على انتشار ثقافة الموسيقى والغناء بقوة.

انشغلت في غضون تلك الأيام بإعادة ترتيب منزلنا بعد غيابي الطويل عنه ، كانت كاترين ، خادمتي القديمة ، قد عادت إلى بيت لحم ، فقمت بتدريب فتاة شابة من حيفا لتحل محلها.

لم تتسنَّ لي الفرصة ولا الوقت لزيارة حريم صالح بيك حتى يوم الحادي عشر من آب / اغسطس الذي صادف أول أيام البيرم (العيد-المترجم)، حيث يرتدي جميع المسلمين ملابس الأعياد ، فذهبت للبيت بصحبة قوّاس انتظرني في الفناء الداخلي للمنزل ، بينما صعدت أنا عبر درج متعرج ومكشوف إلى ساحة صغيرة تؤدي إلى حجرة فسيحة وكبيرة ولكنها معتمة ، وفي لحظات كنت محاطة بصديقاتي اللواتي أذكرهن جيدا من عرابة ، وتقدم الأطفال مني بخجل ، وقادتني حلوة إلى فراش وثير على الأرض وهي تقول: اشتقنالك يا ضو عيوننا ، خلينا نشوفك دايما ، انتي مش زيّنا ، انتي بتقدري تروحي وتيجي كل ما إجا عبالك ، بس إحنا بنقدرش نيجيلك ، اول ما وصلنا لهون ولقينا حالنا بديرة غريبة وسمعنا انك لسة ما وصلتيش ، غط على قلوبنا من الزعل

كان البيت الذي يسكنونه داخل القلعة ، ولم يكن يمتلك وسائل الراحة ولا جودة البناء التي امتاز بها بيتهم الذي رأيته في عرابة ، صُفت فرشات بالقرب من جدران الغرفة الرئيسية في جناح الحريم حيث استُقبلت ، وكانت الأرض مغطاة بالحصائر ، والسقف كان عقدا حجرياً ، وأغلقت النوافذ المطلة على الأماكن العامة في الخارج ، بحيث لم يكن ضوء النهار يدخل للغرفة سوى من باب الغرفة ونافذتها التي تطل على الفناء شبه المسقوف والخاص بالجزء الداخلي من المنزل ، ورتبت فرشات النوم والوسائد واللحف المطرزة فوق بعضها البعض داخل مطواة يعلوها قوس في أحد جدران الغرفة ، تغطيها ستارة رقيقة من الموسلين. وكان في إحدى زوايا الغرفة صندوقان أحمران ومهد أحمر اللون أيضا ، بينما كان منقل الفحم المزود بجميع التجهيزات الضرورية لصنع القهوة وإعداد الأراجيل قد وضع قريبا من باب الغرفة ، وعُلقت على جدران الغرفة البيضاء اللون عباءة مطرزة وكبيرة من وبر الإبل ، بالإضافة إلى سيف ومسدس ورمح. وقُدمت لي قهوة مزجت بالعنبر بالإضافة إلى

شربات حضرت من اللوز وأوراق الورد ، وكان الخدم الحاضرون في الغرفة هم أنفسهم الذين رأيتهم في عرابة.

حلوة ، أصغر وأجمل الزوجات الثلاث ، بدت أكثر أنوثة ووقارا مما سبق ، دون أن يؤثر ذلك على جاذبيتها ورقتها. ارتدت سروالا حريريا وردي اللون ، وجاكيتا ضيقا باللون البنفسجي الموشى بخطوط من الساتان الدمشقي الأبيض انتشرت فيه باقات صغيرة من الورد المطرز ، وتمنطقت بشال من الكشمير الأنيق على خصرها. وكانت الزوجة الأقدم ترتدي ثوبا حريريا مغطى برسوم الورد ، أما بناتها الثلاث اللواتي كان اسم البنت الكبرى فيهن أسمى ، واللواتي نضجن وصرن أكثر جمالا ، فقد ارتدين سترات حريرية بنفسجية اللون مطرزة بخيوط فضية ومغلقة من جهة الصدر ، وكانت سراويلهن قد حيكت من الموسلين الخفيف ، وكانت كل واحدة من النسوة تعتمر طربوشا اسطنبوليا أحمر اللون ، مائلاً بكلف ودلال بعض الشيء فوق الرأس ، بينما انشغلت الزوجة الثانية بطفل رضيع كان فخرها فيه واضحا للعيان.

وبينما كنت منهمكة بالإجابة عن أسئلتهن العديدة المتعلقة برحلتي الطويلة وبتلقي مواساتهن لي لعدم زواجي أنا أو أخي حتى الآن ، أرسل سيد الحريم خبرا بأنه يرغب بالدخول لتحيتي بعد موافقتي ، فجاء ونهضت النسوة والخدم لدى دخوله الغرفة فورا ، ووقفن باحترام إلى أن جلس ، وأثناء جلوسهن في مقاعدهن ، كن يحيينه بوضع أيديهن على جباههن بحركة رشيقة وسريعة ، ينما تقدم الأطفال منه وقاموا بتقبيل يديه ، وكان حنانه وعطفه على أفراد أسرته واضحين للعيان ، ثم بادرني بالقول: انبسطنا بشوفتك ياستي ، يا ريت تضلي تزورينا على طول ، لأنه زيارتك بتنورنا دايما

أثبت الأطفال لي ، من دون أن يقصدوا ، بأنهم معتادون على دلال أبيهم ، فقد التفوا من حوله بمحبة وود ، وبدا ذاك الحب والدلال جليا من خلال سعيد الصغير الذي بادر أبيه قائلا بتملق ودلال: يابا ، بقدر أروح أشوف بيت الست الإنجليزية ؟ هي بدها اياني أروح أما أسمى ، الابنة الكبرى فلم تتحدث إلا قليلا وجلست في مقعدها برزانة وهدوء ، وتحول الوجه الذي كان قبل دقائق قليلة يضج بالحيوية والمرح إلى وجه تعوزه الجاذبية.

يبدو لي أن أصول الأتيكيت لدى الشرقيين تقتضي أن يحافظ الأبناء الأكبر سنا على قدر من

الأدب والحشمة المبالغ فيهما في حضور الأب ، بينما يستمتع الأطفال الأصغر سنا بحرية التصرف على سجيتهم وإظهار مشاعرهم الطبيعية ، كما أن إظهار العواطف الجياشة يعد تصرفا طفوليا غير جدير بالاحترام.

لم تتصرف الزوجات على راحتهن ، وقد يكون السبب وراء ذلك أنهن لم يشاهدن زوجهن من قبل بحضور امرأة غريبة ، لكنهن قمن بتحضير غليونه والوقوف على خدمته وتلبية طلباته بتفان واضح ، كان الخدم والعبيد يقفون قرب الباب وهم يتهامسون فيما بينهم ، وبدت عليهم علامات الفرح والتسلية. قال لي صالح بك بأنه سيقوم بإرسال اثنين من أبنائه الذين يبلغون الخامسة عشرة والسادسة عشرة من عمرهما إلى كلية اللاتين في عينطورة ، وهي معهد تعليمي فرنسي لا يبعد كثيرا عن بيروت ، وقال بأنه كان سيفضل إرسالهما إلى كلية إنجليزية عوضا عن الكلية الفرنسية ، لو توفرت في البلاد مؤسسات تعليمية تقدم تعليما ذا جودة مماثلة ، خلال حديثنا ، أعلن عن وصول سيدة عربية لزيارة الأسرة ، فنهض صالح بيك وانسحب مسرعا على الفور ، وأبقت السيده الخمار على وجهها أثناء مرورها بالقرب منه في الساحة الخارجية ، ونهضت الزوجة الأولى عند وصول السيدة للغرفة للترحيب بها بحفاوة وساعدتها على نزع ملاءتها البيضاء وخمارها المصنوع من الموسلين الملون ثم ناولتهما لأحد العبدات من أجل طّيهما ، تبين لي بأن الزائرة ما هي إلا أم سليم التي رحلت من يافا للإقامة في حيفا بالقرب منا ، وقد جاءت إلى جناح الحريم للالتقاء بي هنا ، وبعد تبادل التحيات المعتادة دار حديث شيّق بين أم سليم واثنتين من الزوجات ، وكن يتحدثن بسرعة وبانفعال ، بحيث لم يكن باستطاعتي فهم ولو كلمة واحدة من حوارهن ، لكن حلوة التي كانت تجلس بقربي شرحت لي بكلمات بسيطة وبطريقة رقيقة المواضيع التي كانت مدار الحديث ، والأسباب الكامنة وراء الضحكات التي كانت تنطلق بين الحين والآخر.

وبعد أن دعوت الأطفال لزيارتي في يوم محدد ، استأذنت بالانصراف وغادرت بصحبة أم سليم نحو الساحة ، حيث كان القوّاس بانتظارنا وعبرنا الباب المفتوح لغرفة الديوان المخصصة لاستقبال الرجال التي كانت تعج بالرجال ، وتقدم ابن ياسين آغا حين رآني أمر

من أمام الغرفة مني واستأذنني لكي يقودني إلى منزلهم من أجل التعرف على والدته ، فقبلت دعوته فعلا ثم قمت بزيارة أجنحة للحريم في ثلاثة بيوت أخرى.

في ثاني أيام العيد توجهت لزيارة بعض العائلات المسلمة الأكثر فقرا التي تقطن في الشوارع الخلفية للبلدة ، وقمت برفقة أم سليم والقوّاس الذي تقدمنا عبر أزقة قذرة وضيقة تشقها قنوات مكشوفة لمياه المجارير.

توقفنا عند بيت أحد المسلمين الذي كان موظفا لدى أخي ، وقد تزوج مؤخرا من ابنة أحد البستانيين الفقراء ، دخلنا عبر قنطرة إلى ساحة مربعة في حالة مزرية انتصب فيها معرش من سعف وأغصان النخيل وشجيرات أخرى ، وقد فرشت حصيرة قديمة بداخلها ودعينا للجلوس عليها ، كانت الزوجة الشابة خجولة للغاية ولم تكن ذات مظهر جذاب على الإطلاق ، فقد بدا فمها الكبير وأسنانها اللامعة أكبر حجما ولمعانا بفعل النقاط الزرقاء الموشومة حول شفاهها الغليظه ، وكانت عيناها مغطيتين بالكحل بينما كان صدرها بارزا ومكشوفا ، كما كان من الجلي بأنها خاضعة بالكامل لسطوة امرأة عجوز ، والتي أعتقد بأنها كانت حماتها ، تولت القيام بدور المضيفة وتصرفت كحارسة للزوجة الشابة ، التي لم تبد عليها علامات الارتياح ولا بوادر الإعتياد على النمط الجديد لحياتها ، لم تكن قد رأت عريسها قبل ليلة الزفاف التي كانت قبل الشهر تقريبا. لا يعرف المسلمون معنى شهر العسل ، وباعتقادي لا يوجد لديهم أية أفكار كفيلة بفهم المغزى منه.

بعد أن تناولنا قهوة سادة في فناجين صغيرة ، اصطحبتنا المرأة العجوز في جولة لرؤية البيت ، الذي كان يتألف من غرفة واحدة فقط ، يفتح بابها على الساحة مباشرة ، وكانت غرفة فسيحة وذات سقف مرتفع وتخلو من النوافذ ، بينما كان بابها كبيرا بحيث يتسع لدخول جمل مثقل بالأحمال ، وكانت هذه الغرفة متعددة الاستخدامات ، فهي غرفة استقبال ومطبخ وغرفة نوم باستثناء الأيام التي يكون الجو صحوا فيها حيث تستخدم معرشة سعف النخيل في الساحة بديلا عنها ، وقد أصابني الذهول حين رأيت لوحة زيتية إيطالية قديمة تظهر النبي موسى حاملا ألواح الشريعة ، معلقة على الحائط الذي تحول لونه للسواد بفعل الدخان ، وقد تدلت من السقف بعض بيوض النعام والفوانيس ، سألت

السيدة عن السبب في تعليق البيض ، فأجابتني قائلة: هاي مشان تبعد الحزن والغم عنا لكنها لم تكن تعرف من أين أتت لوحة النبي موسى أو السبب في وجودها وبدت عليها علامات المفاجأة عندما أخبرتها بأنها صورة لنبي الله موسى.

بعد عدة أيام ، عندما قدم صالح بيك لزيارتنا ، وقع بصره على رقعة شطرنج على مائدتنا ، وتساءل بلهفة عما إذا كان بمقدورنا أن نلعب قائلا: ما لعبت من أيام إبراهيم باشا ، أيام ما كنت ألعب مع عسكره في عكا ، لدى معرفته بأنني أجيد اللعب ، صرخ بانفعال قائلا: الحمدلله ، راح اجي كل يوم مشان ألعب شطرنج معك! فأجبته: آسفة ، بس أنا ما عنديش وقت مشان نلعب كل يوم ، غير أننا صرنا نمضي أمسية كل أسبوعين للعب الشطرنج ، وتبين لي بأنني في مواجهة خصم ماهر ومتمكن من اللعب ، لقد كان العربي الوحيد الذي يجيد لعب الشطرنج في حيفا.

كان أبناؤه ، وخصوصا الأطفال منهم ، معتادين على زيارة منزلنا والتصرف على راحتهم خلال زياراتهم ، وكانوا هم وأبناء عمومتهم الذين كانوا يأتون من عرابة لزيارتهم في حيفا ، أطفالا في غاية الذكاء ويوجهون أسئلة واستفسارات كثيرة ، وكانوا يلتقطون بسرعة كبيرة كمية وفيرة من المعلومات التي تحتويها الكتب الإيضاحية الموجودة في منزلنا.

كانت البنات الثلاث الصغيرات يأتين في بعض الأحيان برفقة سيدة من الخدم الأكبر سنا- القهرمانة- من أجل أن لا يراهم الغرباء ، وكانت هذه الزيارات تتم حصرا خلال وجود شقيقي خارج البلدة ، كما جاءت النسوة مرة لزيارتي بإذن خاص ، لكن خدمهن وعبيدهن تولوا حراسة أبواب القنصلية طوال المدة التي أمضينها في الداخل ، وكنت أذهب لزيارتهن بين الحين والآخر ، وكنت دائما أحظى بترحيب حار عند ذهابي إليهن ، وباستثناء أيام الأعياد ، فقد كن يرتدين سترات وسراويل من أقمشة مانشستر في العادة.

كما علمت بأن الزوجة الأقدم ، والتي من الواضح أنها كانت ذات جمال فائق في زمن مضى ، كانت جارية لدى أحد الأثرياء الأتراك ، الذي قدمها في شبابها كمكافأة لصالح بيك ، نظير أدائه خدمة خاصة لذلك الثري التركي ، وكانت قد ترعرعت في عزلة تامة في أحد أجنحة الحريم في إسطنبول ، ثم انتقلت بعدئذ إلى بيتها الجديد في عرابة ، حيث كانت في

غاية الحزن في أول عهدها هناك ؛ لأنها كانت غريبة ولم تكن تجيد سوى اللغة التركية ، ومن حسن حظها أن صالح بيك كان يجيد التركية أيضا ، ما ساعدها على تعلم اللغة العربية واتقانها. وعلى الرغم من أنها جاءت من مدينة عظيمة الا أنها لم تكن قد رأت سوى النزر البسيط منها ، بحيث إنها لم تعرف عن العالم وتاريخه أكثر مما تعرفه قريناتها الجدد في عرابة ، من الزوجات والمحظيات والخادمات ، اللاتي كان صالح بيك يجلبهن من القرى الصغيرة المنتشرة في الجوار. تتراوح درجة العزلة التي تفرض على الفتيات المسلمات ، وفقا لمكانتهن الاجتماعية ، حيث تحظى الفقيرات منهن بحرية أكبر نسبيا من الفتيات الثريات.

حلوة التي تنحدر من قرية كفر قرع الصغيرة ، كانت تظهر علامات ذكاء وسرعة استيعاب أكثر من نظيراتها من الزوجات الأخريات.

كن جميعا معتادات منذ زمن على سماع أحاديث تتناول المسيحيين ، وإن تميزت معلوماتهن حول المسيحيين بقدر كبير من الغموض ، بحيث أنهن بالكاد يفكرن بالمسيحيين كآدميين شبيهين بهم ، لكنهنّ الآن وبعد انتقالهّن للعيش في بلدة حيفا الساحلية الصغيرة ، حيث تتعايش فئات متباينة من السكان مع بعضها البعض ، بمن فيهم المسلمون واليهود والمسيحيون التابعون لطوائف عديدة ومتنوعة ، وأناس ينحدرون من أمم عديدة ، فقد بدأن بتكوين انطباعات جديدة وأفكار لم يكن بمقدورهن تكوينها لو استمررن بالعيش في المناطق الداخلية من فلسطين ، وفي مكان منعزل وناء كما هي الحال في جبال نابلس.

كّن قد تعرفن على بعض جاراتهن ، وبدأن بالاعتياد على سماع أمور جديدة وغريبة عليهن بشكل دائم. كنت أجد أن لديهن غرائب جديدة يحدثنني عنها في كل زيارة كنت أقوم بها لمنزلهن ، أو قصة يروينها بعد أن عرفنها بواسطة الخادمات أو عن طريق ضيفاتهن اليهوديات أو المسيحيات أو المغنيات المحترفات ، أو من خلال جلسات النميمة المعتادة في الحمامات التركية في البلدة ، وقد كانت هذه القصص في غالبيتها حكايات وأحداثاً فهمت خطأً ، بحيث كانت تفتح الباب على مصراعيه لمزيد من الأفكار والانطباعات الخاطئة ، كنت أستمتع كثيرا في ملاحظة التفسيرات التي يجتهدن في الوصول إليها بشأن

أحداث الساعة ، أو سلوك الناس أو أخلاقهم أو طريقة عبادتهم ، التي يسمعن بها لكن دون امتلاك المقدرة على فهم وإدراك مكنوناتها ، واتضح لي حجم الصعوبة في مساعدتهن على فهم الأساليب التي تختلف عن الأساليب التي اعتدن عليها ، والأفكار التي تختلف عن الأفكار التي يحملنها ، بحيث كان الأمر بصعوبة وصف الطبيعة وأثر الضوء والألوان لشخص ولد ضريرا!

حلوة على وجه التحديد ، كانت معتادة على توجيه أسئلة كثيرة حول الأديان. كانت دائمة التساؤل عن: ليش ما يكون كل الناس الهم دين واحد؟ليش الناس مش مسلمين كلهم؟ كان أحسن لو هيك!

وبدا أنها كثيرا ما كانت تنسى بأنني لم أكن مسلمة ، وفي بعض الأحيان كانت تلجأ إلي بثقة كبيرة التماسا للنصيحة عن كيفية التصرف تجاه ظروف أو أحداث معينة ، وعوضا عن اتخاذ القرار بالنيابة عنها ، اعتدت على أن أحفز مبدأ معينا في ذهنها يساعدها على اتخاذ القرار الصواب بمفردها.

كنت غالبا ما أجد إجابات جاهزة وملائمة ، عبر اقتباس كلمات السيد المسيح ، التي تجسد أبسط المعاني وأكثرها شمولا لمفهوم المحبة ، التي خرجت تعاليمها في الأزمان الغابرة في هذه البلاد ، والتي تلقاها أناس بسطاء وتواقون للمعرفة كما هي حال حلوة ، بالإضافة إلى الكتبة والفريسيين الذين التزموا الصمت أمام كلمات لم تخاطب طائفة بعينها ، بل كانت موجهة للعالم أجمع.

دفعتني تلك النسوة والتساؤلات التي كنّ يطرحنها عليّ للتفكير بجدية وعمق كما لم أفعل من قبل ، وساعدنني من دون أن يقصدن على فهم التطور الطبيعي والعفوي للأفكار . كان بمقدوري خلال معاشرتي لهن أن أتخيل عدم وجود كل تلك الأفكار والمشاعر والمفاهيم التي نمت وكبرت وتعززت خلال مراحل نضجي وتقدمي في السنّ ، بحيث صارت وكأنها جزء لا يتجزأ من ذهنيتي.

لكن جناح الحريم هذا لم يكن مدرستي الوحيدة ، ففي الوقت نفسه كنت أخالط الأروبيين والمسيحيين من السكان الأصليين للبلاد ، وخصوصا عائلة صيقلي ، ومع يهود أتقياء

وملتزمين دينيا يعود الفضل لهم في مساعدتي على على تكوين فهم أفضل لشريعتهم ، وفرائض الصيام والأعياد والشعائر الدينية التي يلتزمون بها.

يحمل المسيحيون الشرقيون مشاعر كراهية شديدة وعداء مستحكم للأسف تجاه اليهود ، وتمتاز معاملتهم لليهود بالاحتقار وعدم الاحترام ، ويحاولون تفادي الاختلاط بهم ، لكنهم يتفقون مع مواطنيهم المسلمين على الاعتراف بأن اليهود الشرقيين ، بوصفهم جماعة منتشرة في المشرق ، مميزون في طهارة ونقاء حياتهم ، وبساطة سلوكياتهم ، والتزامهم الشديد باداء فرائضهم الدينية وعباداتهم ، ومع ذلك فاليهود مشهورون بسوء سمعتهم بسبب الخلافات التي تنشب فيما بينهم ، والنزاعات العنيفة التي تندلع أحيانا بين ممثلي ورؤساء الطوائف داخل ملتّهم ، أما النساء اليهوديات ، خصوصا أولئك المنحدرات من اليهود الإشكناز (الغربيين) ، فهنّ مشهورات بمهاراتهّن في التدبير والإدارة المنزلية.

في الخامس من تشرين الأول / أكتوبر ، سافر شقيقي إلى بيروت في عمل رسمي ، وبقيت أنا في حيفا حيث تعرفت على الشمائل الطيبة وحسن الجوار التي يتمتع بها جيراني من مختلف الطبقات ، ولا بد لي أن أوجه شكرا خاصا للقنصل الفرنسي السيد أومان ، وعائلته على المشاعر الودية والتعاطف الكبير اللذين غمروني بهما ، بحيث لم أشعر بأنني بمفردي إطلاقا ، على الرغم من خلو حيفا من أي ناطق باللغة الإنجليزية في ذلك الحين.

قامت نساء حيفا المسلمات كافة تقريبا بزيارتي في تلك الفترة ، كما زارني الحاكم وأعضاء المجلس البلدي أيضا عدة مرات ؛ ليروا إذا كان بمقدورهم تقديم العون لي بأي طريقة كانت.

في الصباح الباكر من يوم العاشر من تشرين الأول / أكتوبر تعرض قارب للغرق بفعل دوامة تشكلت بالقرب من شاطئ حيفا ، كان ذلك اليوم شديد القيظ ، لكن البحر مال للهدوء في ساعات المساء وصار الهواء ثقيلا ، وعدت للبيت بعد أن أمضيت بضع ساعات مع القنصل الفرنسي وعائلته في ساحة بيتهم الرخامية التي أنارها ضوء القمر ، وعلى الرغم من شدة القيظ ، نمت بعمق إلى أن استيقظت على وقع صوت دوي يشبه صوت هزيم الرعد ، وأحسست بالسرير يهتز من تحتي ، اعتقدت في البداية أن عاصفة قد هبت ، لكن هذا الاحتمال كان أقرب للمستحيل ، نظرا لأن ناموسية الموسلين كانت ثابتة بثبات سريري

النحاسي ، الذي اهتز بشدة ، وبعد مرور قليل من الوقت اقتنعت بأنني كنت أمر بتجربة هي الأولى من نوعها في حياتي ألا وهي الهزة الأرضية ، فنهضت على الفور ، وكانت ضوء القمر المتسلل عبر فتحات المصاريع الإيطالية الطراز للنوافذ يملأ الغرفة ، ففتحت إحدى النوافذ ، وكان القمر بدرا تقريبا وقد ارتفع فوق تلال الكرمل مباشرة ، لكن لونه كان أحمر بشكل يقارب لون الشمس عند النظر إليها عبر الضباب في إنجلترا ، واهتزت الأرض بعنف ثلاث مرات متتالية ، كانت أقواها في المرة الثانية ، وتجمعت في سماء حيفا سحب داكنة اصطبغت أطرافها باللون الأحمر المنبعث من ضوء القمر ، وكانت خادمتي في أثناء ذلك تغط في نوم عميق ، فخرجت إلى الساحة الخارجية للمنزل ، حيث كان القواسان العاملان لدينا نائمين ، وقد تلفعا بلحافيهما على فرشات نومهما في الرواق المقنطر للساحة ، وبدا أنهما لم يستيقظا بفعل الهزة. وتبع ذلك هبوب عاصفة رعدية تخللها البرق ، وانتقلت أنا خلالها بين غرف المنزل لمتابعة تطور العاصفة وتفرق الغيوم.

في الصباح الباكر من اليوم التالي حضر الحاكم وعدد من نواب القناصل ، والعديد من الأصدقاء العرب للاطمئنان عما إذا كنت قد تأثرت أو ذعرت بفعل الهزة الأرضية ، وأخبرني القاطنون بالقرب من الجامع بأنهم سارعوا بالخروج من منازلهم خلال الليل كإجراء احترازي ؛ لأن مئذنة الجامع كانت تهتز اهتزازا عنيفا لدرجة جعلت كل من رآها يعتقد جازما بأنها ستهوي نحو الأرض بفعل الهزة الأرضية ، ولحسن الحظ لم تقع أية حوادث نتيجة لهذه الهزة ، باستثناء تعرض بعض الجدران القديمة للتصدع أو الاهتزاز ، وقد أخبرني المسيو ايه بأنه رأى البحر خلال الهزة وقد هاج وماج وتغطى بالزبد على الرغم من عدم وجود رياح.

و سادت أوساط العرب جميعا مشاعر من الترقب ، إذ إنهم رأوا في ثورة الطبيعة هذه فألا سيئا ، وفي الأيام التي تلت الهزة لم يتوقف الحديث بين الناس عما حدث ، وقد علمنا بأن سكان عكا وصور وصيدا قد أحسوا بالهزة بقوة ، بينما كان أثرها ضئيلا في المناطق الداخلية من فلسطين.

كان لدى كل من ضيوفي قصة ليحكيها حول الهزات الأرضية السابقة ، وخصوصا الزلزال العنيف الذي ضرب البلاد في العام 1837 عندما دُمرت صفد وطبريا وبقيت حيفا خالية من

السكان طوال ثلاثة أيام ، حيث لجأ الأهالي إلى الأراضي الخلاء دون أن يجسروا على المغامرة بدخول منازلهم ، نظرا لتكرار الهزات الارتدادية وكثرتها ، وكان لون السماء حسب رواياتهم قد تحول للسواد في رابعة النهار ، بينما اصطبغ البحر بلون أحمر غريب ، ومضى بعضهم للتأكيد بأن ميّة البحر تحولت لدم ، لكنهم اتفقوا جميعا على أن مياه البحر فقدت ملوحتها وتحولت إلى مياه عذبة.

شهد يوم الثاني والعشرين من تشرين الأول / أكتوبر هطولا مستمرا للأمطار ، وفي المساء شاهدت واحدة من أروع العواصف الرعدية التي رأيت في حياتي ، وتبعها بعد ذلك عاصفة هوجاء مصحوبة بالمطر الغزير والرياح الهوجاء استمرت طوال الليل ، ولم تتوقف الرياح إلا بعد الشروق بقليل ، وساد الهدوء في الأرجاء لكن شوارع حيفا غدت كالقنوات وكانت بعض الجدران القديمة قد تحطمت وانهارت بفعل الزلزال ، أما في البيارات فقد اقتلعت العاصفة عددا من الأشجار من جذورها أو أنها عرتها من أغصانها ، باستثناء أشجار النخيل المطواعة واللينة ، التي بدا أنها الوحيدة المصممة على الصمود أمام هذه العواصف العاتية.

أمضيت ظهيرة الثالث والعشرين من تشرين أول / أكتوبر بصحبة أرملة إبراهيم صيقلي الشابة ، التي كانت ما زالت في فترة حداد مرير على فجيعتها بفقدان زوجها ، حاولت إثارة اهتمامها ونجحت في جلب انتباهها من خلال الحديث عن مرابع طفولتي وأيامي في المدرسة ، وبدا لوهلة بأنها نسيت همومها وهي تتساءل عن كيفية تمكني من ترك والديّ والرحيل عن وطني ، وكيف تمكنت بعد ذلك من البقاء وحيدة في بلدة لا يوجد فيها حدا من أهلي!

و أثناء حديثنا ، وبشكل مفاجئ ، نهضت عبدتها السوداء التي كانت تجلس منشغلة بالتطريز أثناء جلوسها على حصيرة قرب الباب تحت أشعة الشمس المتسللة منه ، واقتربت مني لتقبل يدي وهي تقول: في أخبار حلوة ، أخبار حلوه لك ، وصل أخوكي القنصل هلأ ، سمعت صوت في الساحة ، ليتبين أنها كانت محقة ، ففي الوقت نفسه شاهدنا راية القنصلية وهي ترتفع ، وبينما خرجت مسرعة ، كنت أسمعها تقول: هاد هو جزاءك ، الله أسعدك ، لأنك اليوم حكيتي حكي منيح لأم الأولاد الأيتام

كنت بمعية شقيقي بعد دقيقة ، وكان برفقته رجل تركي رافقه في رحلته خلال قدومه من بيروت ، ولم يكن هذا الرجل سوى الحاكم الجديد المعّين لحيفا ، وكان بصحبته ابنه وهو ولد لطيف عمره عشرة أعوام تقريبا ، تناولوا طعام الغداء معنا ، حيث واجه التركي الصغير صعوبة كبيرة في استخدام الشوكة والسكين ، فطلب مني والده ان أتولى مهمة تمدينه ، لقد كانا غريبين تماما في البلدة ؛ فمكثا في بيتنا ليومين أو ثلاثة إضافيين.

في الخامس والعشرين من الشهر ، جاء زكريا آغا ، الحاكم السابق لوداعي ، ثم انتقل الحاكم الجديد للاستقرار في السرايا ، وقد أخبرني بأنه لا يعرف ما إذا كان سيرسل في طلب زوجاته للانضمام إليه ؛ إذ إنه لا يعرف كم ستطول مدة بقائه في منصبه في حيفا.

يمتلك بعض الأثرياء المسلمين بيتا وزوجة أو اثنتين في كل من القرى أو البلدات التي تضطرهم وظائفهم الحكومية أو أعمالهم الخاصة إلى الإقامة فيها لمدد زمنية متفاوتة على مدار العام.

بعد بضعة أيام من عودة أخي ، لاحظت أن معظم دكاكين حيفا قد أغلقت أبوابها ، وبأن الشوارع والأسواق قد خلت من المارة ، ولدى استفساري عن السبب ، قيل لي بأن ذلك اليوم هو يوم الفأل السيء ، وهو يوم لا يزاول المسلمين خلاله أية أعمال أو تبادلات تجارية مهما كانت طبيعتها ، وهذا اليوم المشؤوم هو أول يوم أربعاء من شهر صفر ، وهو الشهر الثاني في تقويم المسلمين (الذي كان يصادف شهر تشرين الأول / أكتوبر من العام 1856 وهي السنة التي أكتب عنها) ، ويتجنب المسلمون في هذا اليوم ما استطاعوا ان لا يخوضوا وحتى أن لا يفكروا بأي موضوع ذي أهمية ، وعادة ما يميلون للبقاء في منازلهم وعدم مغادرتها في هذا اليوم السيء الطالع.

جاء محمد بيك إلى دار القنصلية عند ظهر ذلك اليوم تقريبا ، طالبا مني أن أحميه وأن أسمح له بالبقاء بصحبتي حتى مغرب الشمس ، زاعما بأنه اعتقد بأن الأرواح الشريرة لا يمكنها الوصول إليه في هذا المكان (دار القنصلية الإنجليزية).

أبلغني أحد المؤمنين المشهورين بالورع ، بأن الشياطين ، في هذا اليوم السيء الطالع ، تمتلك القوى الكاملة والضرورية للقيام بكل الأعمال الضارة والمؤذية التي يمكن أن تكون

قد خططت لها على مدار العام ، وفي اسطنبول ، تغلق جميع الدوائر الحكومية أبوابها بسبب شيوع هذا الاعتقاد!

في يوم الخميس الرابع من كانون الأول ، احتفل المسيحيون من طائفة اللاتين بعيد القديسة بارب (عيد البربارة- المترجم) ، خرجت في الصباح الباكر لزيارة السيدة أومان ، لأجدها تزرع حبوبا من القمح والشعير والدخن ، وبذارا من العدس والعشب في أطباق وصحون فناجين ومحارات كبيرة ، وكان الماء بالكاد قد غمر الحبوب والبذار ، ثم وضعتها جميعا في الشمس ، ثم قالت: نحن نقوم بهذا العمل على الدوام في عيد البربارة ، بحيث تكون الحبوب والعشب قد نمت مع حلول عيد الميلاد ، لكنها لم تكن تعلم دلالة هذا الطقس أو الحكمة من ورائه.

دعتنا للالتقاء بجميع ألأوروبيين في البلدة في دار القنصلية الفرنسية في تلك الليلة ، حيث وجدنا الجميع وقد غمرتهم البهجة والسرور ، أحد الحضور ويدعى السيد جوليان وصل مؤخرا من الجزائر التي عمل في السلك العسكري فيها ، ارتدى زيا تنكريا يتكون من رداء كهنوتي قرمزي ، واعتمر قبعة كاهن أو كاردينال ، متقمصا شخصية كاهن القديسة باربارا ، ما أثار استغرابي كان عدم انزعاج الحضور من أكثر أفراد الطائفة الكاثوليكية ورعا وتدينا من هذا التصرف ، فسألت إحدى السيدات التي أعرف عنها شدة التدين والالتزام بما تعتقده فرائض دينية يجب عليها اتباعها ، إذا ما كانت رؤية هكذا لباس تنكري تزعجها أو تثير حنقها ، لكنها أجابتني ببساطة: هاي عاداتنا ، فش في اشي غلط بالحفله

عندما اكتمل الحضور ، أخذنا إلى غرفة كان في مركزها منضدة واطئة وضع عليها وعاء خشبي كبير ممتلئ بالقمح المغلي بالعسل أو السكر (أكلة الحبوبية المشهورة في هذا العيد لدى المسيحيين الفلسطينيين-المترجم) ، والمخلوط بالرمان ، وقد نثرت فوقه الحلوى والمكسرات المبشورة ، وأحاطت بالوعاء اثنتا عشرة شمعة رفيعة بينما وضعت راية في الوسط.

قبل أن نشرع بتناول هذا الحلوى ، قام الكاهن المزعوم بزيه التنكري بأداء صلاة بكلمات غير معروفة لم يفهمها أي من الحاضرين بمن فيهم أنا ، وبعد انتهاء هذا العرض الهزلي قامت

السيدة أومان بإخراج دبوس فضي ناعم يبلغ طوله حوالي ثلاثة إنشات وبعرض ثُمن إنش تقريبا ، وقد وضعت حلية على رأسه ، ثم قامت بإحراق بعض الصمغ واللبان بتعريضها للهب المنبعث من ذبالة سراج قديم ، ووضعت الدبوس فوق اللهب إلى أن تحول لونه إلى الأسود ، ثم انتظرت حتى برد الدبوس وأخذت تحركه ببراعة على جفنيها نصف المغمضين ، وتفركه بهما متظاهرة بأنها تكحل عينيها بالأثمد كما قال إرميا.(44)

واستمرت بفعل ذلك إلى أن اكتحلت عيناها بالطريقة المرغوبة جدا لدى أهل الشرق ، قامت بعد ذلك بتمرير الدبوس لمن حولها حيث حذا الحاضرون حذوها ، وكان من المذهل رؤية ملامح وتعابير وجوه الحاضرين ، خصوصا ذوي الوجوه المليحة وقد تغيرت في الحال بسبب هذا الكحل ، وبالكاد أمكنني تمييز شقيقي الذي ما كان ليقبل الخضوع لهذه الطقوس لولا اقتناعه بإمكانية إزالة آثارها بسهولة ، ولكن ما أحزنه بعد ذلك ، هو أن إزالة الكحل تطلبت أياما عديدة بعد الكثير من الفرك وغسل الجفون والعينين بشكل مستمر. ثم قامت هيلانه ، إحدى الخادمات ، بأخذ السراج واللبان اللذين استخدمتهما السيدة أومان ووضعت إناء خزفياً فوق اللهب بحيث جمعت كمية من السخام. يخلط السخام الناتج عن هذه العملية بمسحوق حجر الأثمد ، ويوضع في قوارير صغيرة وحناجير مزخرفة ، جاهزة للاستخدام كما سبق وشرحنا .

يتفادى الأوروبيون بحزم هذه العادات التي يعتبرونها مرتبطة بالعرب ، لكنهم أظهروا تسامحا مع الطقوس التي أقيمت في عيد البربارة ، والتي عادة ما يستهجنونها ويعبرون عن رفضهم المطلق لها في مناسبات أخرى.

لم يستطع أحد إعطائي سببا واحدا لهذه الطقوس العجيبة ، أو إخباري بأي شيء عن تاريخها أو أصولها ، أو عن علاقة القديسة برباره بإنبات القمح أو بصحن الحلوى والاثنتي عشرة شمعة ، والتي افترض أنها تمثل الحواريين الاثني عشر ، وحتى راعي أبرشية البلدة الذي سألته عن الموضوع في اليوم التالي ، لم يتمكن من تزويدي بأية معلومات ، لكنه قال: إنها عادة مرتبطة بالطوائف المسيحية الشرقية ، كما أن المسيحيين الأرثودوكس يقيمون الاحتفال نفسه ، ولكن في السادس عشر من كانون الأول / ديسمبر.

عند رجوعي إلى كتاب بتلر حياة القديسين وجدت أن باب الرابع من كانون الأول / ديسمبر ، يشير إلى أن القديسة بربارة كانت عذراء مقدسة وشهيدة تحظى بتبجيل ومحبة شديدين لدى أبناء طوائف اللاتين والأرثودوكس والأرثودكس المسكوبيين والسريان ، لكن تاريخها يكتنفه الكثير من الغموض والخرافات ، يقول البعض بأنها كانت عالمة من أوريجون ، واستشهدت في نيقوديميا من أعمال آسيا الصغرى في تركيا ، بينما يذهب البعض الأخر للاعتقاد بأنها تعرضت للاضطهاد والتعذيب في هيلوبوليس في مصر ، في حوالي العام 306 ميلادية ، كما يوجد دير يحمل أسمها في إديسا (الرها في الجزيرة الفراتية وتعرف حاليا باسم أورفة في تركيا الحديثة-المترجم).

لقد أذهلتني درجة الإخلاص والحماسة التي يقيم فيها الناس هذا العيد ، بينما لا يبدون أي فضول أو اهتمام بمعرفة أصوله أو تاريخه ، وفي واقع الأمر ، فإنهم يلتزمون بجميع الفروض الدينية ويحيون كل المناسبات والاحتفالات الدينية دون أن يتوقفوا ولو قليلا للتفكير بمعناها أو الغاية منها ، يكفيهم أن يعلموا بأنها عادات قديمة ، والعادات في المشرق تمتاز بقوة القوانين التي كانت تسود القبائل الميدية القديمة في فارس وما جاورها. أنا لا أدعي بأن إنجلترا تخلو تماما من مثل هذه الخزعبلات ، لكن هذه الأساطير تبدو اكثر انتشارا في أوساط المسيحيين الأرثودكس واللاتين في بلاد المشرق.

في يوم السبت السادس من كانون الأول / ديسمبر ، كنت ألعب الشطرنج مع صالح بيك عبد الهادي ، عندما دخل أحد الخدم العاملين لديه إلى غرفة الضيوف ، ووجه حديثه إلى سيده قائلا: اجالك ولد يا سيدي ، فبادرنا أنا ومحمد بيك وصالح صيقلي اللذان صادف وجودهما عندنا ، بتقديم التهاني والتبريكات للأب الذي استقبل تبريكاتنا بهدوء وصمت ، وما أثار استغرابي أنه أصر على إكمال لعبة الشطرنج التي أنهاها بالبرود نفسها الذي كان قد بدأها فيه ، ثم بقي لبعض الوقت بعد اللعبة ليلقي بعض القصائد الشعرية العربية القديمة لشقيقي ، حيث غادر منزلنا بعد مغيب الشمس بوقت طويل.

قمت يوم الاثنين الثامن من كانون الأول / ديسمبر بزيارة جناح الحريم في منزله ، فوجدت جمعا كبيرا من الناس في القاعة الرئيسية للجناح ، وفي أحد أركان القاعة ، وضعت فرشتان

على الأرض ، وكانت حلوة صديقتي المفضلة نصف مستلقية عليهما ، وعندما اقتربت منها احتضنتني وأجهشت في الدموع ، لكنها سرعان ما تمالكت نفسها وبادرتني قائلة: أهلين يا ضي عيوني فقلت لها بحنان: انتي مبسوطة لأنك إم لولد يا حلوة ، وين الصبي ؟ فأجابتني يحزن وغم: ماعنديش ولد ، ولدت بنت ، وهاي بتنحسبش

جلست على طرف الفرشة ، ورفعت الأغطية الثقيلة بجانبها ، وناولتني مخلوقة صغيرة مقّمطة باغطية من الكتان الأبيض والأحمر والحرير القرمزي ، وقد عُصب رأسها وكُحلت جفونها ، فقلت: شو بدك تسمي بنتك الزغيرة ؟ فأجابتني: البيك راح يسميها ، بيصيرش أنا أسميها ، فسألتها: بتحبي أسم معين ؟ ، فردت: حابه أسميها مريم على اسمك ، وهاد اسم حلو ، فرددت قائلة: هاد بيبسطني كثير ، وهيك بنتك الزغيرة بتذكرك فيي على طول ، راح اسأل البيك وأشوف اذا بيوافق ، فأجابتني على الفور: خلص لكان ، البنت اتسمت ، واسمها مريم

كانت مجموعة من النسوة يجلسن حول القاعة وقد اتكأن على جدرانها ، وبعد أن قُدمت لي القهوة وأحضرت الأرجيلة ، بدأت المربية ، وهي امرأة ذات مظهر غريب ذات شعر أشعث طويل اصطبغ بالحناء ، بحيث صار لونه أحمر ، بغناء أهازيج للترحيب بالابنة البكر لحلوة ، وشرعت جميع النسوة بالتصفيق بتناغم مع غنائها.

علمت بوقوع شجار جدي في جناح الحريم ، وللحد من هذه الخلافات إضطر صالح بيك لاستئجار بيت منفصل لواحدة من زوجاته ، حيث انتقلت للعيش هناك هي وأبناؤها وخدمها.

رأيت صالح بيك بعد عودتي لبيتنا بقليل ، فسألته إذا كان قد رأى مولودته الجديدة ، فقال: لا ، ما بيصير أشوفها أو أشوف أمها الا بعد سبع أيام ، وأضاف قائلا: سمعت بأنك حابه تسمي الصغيرة مريم ، منيح ، ما عنديش مشكله في انها بنت مش ولد ، لأنها رح تتسمى على اسمك ، واذا انتي قبلتي انك تديري بالك عليها بعد ثلاث سنين ، مشان تتعلم زيك ، راح انبسط كتير.

أخبرني فيما بعد بأن الخادم الذي زف إليه البشرى بقدوم غلام له كان يعرف تمام المعرفة

بأن المولود كان أنثى ، وأضاف: بس الناس بهالبلاد مجانين لدرجة انه خادمي استحى يقولي قدام الناس انه ولدت لي بنت ، الناس بتفكر انه خلفة البنات بتشرفش(45).

أكد لي صالح بيك بأنه لا يؤمن شخصيا بهذا التمييز ضد البنات ، مع أنه يبدي مشاعر فخر واعتزاز أكبر بابنائه مقارنة ببناته ، كان هذا أمرا طبيعيا ، إذ إنه حظي بفرصة لتعليم أبنائه وتربيتهم وفقا لما يحمله من معتقدات وأفكار ، بينما سببت بناته قدرا كبيرا من الحيرة والتشويش له. لقد توصل إلى اقتناع مفاده أن درجة تقدم ورقي أي بلد تعتمد بشكل كبير على المكانة التي تحتلها المرأة فيه ، كما كوّن أراء نيرة ومتحررة حول الأثر الإيجابي لتعليم البنات ومنحهن حريتهن ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يعرف ما هي الخطوات التي يجب اتخاذها على طريق الإصلاح ، إلا أنه شدد وبحكمة على أن أي تغيير مفاجئ سيكون خطيرا للغاية ، وسوف يحمل في طياته مضار تفوق بكثير الفوائد المرجوة ، وقد كان هذا الموضوع أحد المواضيع التي انشغلت بالتفكير بها بتعمق وجدية ، وقد اقتنعت في النهاية بصعوبة التوصل إلى نتائج قابلة للتطبيق.

لكي يكون الإصلاح في أي نظام أو كيان ، آمنا وثابتا ومستندا إلى أسس صلبة ومتينة ، يجب أن ينبع بشكل طبيعي من داخل النظام أو الكيان ، من الممكن لنساء مثل صديقتي حلوة أن يقدمن الكثير في عملية تغيير نمط الحياة في أجنحة الحريم نحو الأفضل ، وسيقدم رجال مثل صالح بيك الدعم والمؤازرة لمساع وجهود كهذه.

يبدو لي أن أقصى ما يمكن أن نقوم به هو التعاطف مع النسوة المسلمات ، وأن نحاول استنهاض وتحفيز أسمى مشاعرهن الغريزية ، وأن نساعدهن على فهم والإحساس بالطاقات والإمكانيات التي يختزننها والتي تعد أمرا لازما وضروريا لتطوير أنفسهن بشكل مدروس ، وتشجيعهن على استخدام هذه الطاقات والاستفادة منها ، وتشجيعهن أيضا على التفكير بجدية ، ومن الممكن لكل هذا أن يتحقق من دون الاستعانة بالكتب ، ومن دون تشويش أفكارهن بالمزيد من الأفكار والمعتقدات الصعبة على الفهم.

وهكذا تدريجيا ، يصبح تحرير المرأة أمرا آمنا وممكن التحقيق ، وتتحول أكثر أجنحة الحريم تشددا وحراسة إلى بيوت سعيدة ومتنورة بشكل تدريجي ، وبهذه الطريقة تتغير الشخصية

الجمعية للأمة بأكملها ، لكن مصير أية محاولة لفرض هذا التغيير من الخارج ستكون محكومة بالفشل الذريع بكل تأكيد ، إذا ما تعرضت الآراء والمعتقدات الدينية أو العادات المتوارثة التي يحملها الناس للهجوم أو الانتقاد المباشر ، وذلك لأنها ستثير روح العداوة والغضب فور إطلاقها ، كل ما يمكننا القيام به هو دفع المسلمين للتفكير بطريقة أكثر جدية ، وللسعي لاستنهاض ملكة الحق في أذهانهم ، والتي من خلالها يمكن توجيههم لرفض وإدانة كل أشكال العادات والطقوس التي يشكون بها هم أنفسهم ، والتي ستكون أية كلمات نقولها نحن عاجزة عن إقناعهم بتركها والتخلي عنها ، ومن المؤكد بأنهم سيتمسكون ويتشبثون بها بعناد وإصرار أكبر وأكثر من أي وقت مضى إذا ما دخلوا في جدال بشأنها.

حاربوا الشر بفعل الخير

في الثالث عشر من كانون الأول / ديسمبر بعد أسبوع من مولد مريمي الصغيرة ، زرت جناح الحريم في بيت صالح بيك من جديد ، فوجدته مكتظا بالضيوف ؛ إذ كان ذلك اليوم مخصصا لتلقي التبريكات بالمولودة الجديدة ، وكنت أسمع صوت النقر على الدف وغناء النسوة قبل دخولي للجناح ، وعند دخولي ساد الغرفة صمت نسبي لدقيقة أو اثنتين ، وأفسحت النسوة والصبايا طريقا لكي أتمكن من الوصول إلى حلوة ، التي كانت تجلس على وسائد في ركن من أركان الغرفة ، وقد بدت شاحبة ولكنها كانت جميلة أكثر من أي وقت مضى ، وارتدت ملابس زاهية أنيقة ، وكانت تضع أكليلا من البراعم واللؤلؤ على رأسها ، وتخضبت عيناها بالكحل وراحتا يديها بالحناء ، واكتسى وجهها بفرحة جديدة ، وعلته ملامح تصميم وجدية وحنان عندما همّت بوضع سميّتي بين ذراعايّ ، وأنا جالسة بقربها ، نهضت إحدى العبدات ووضعت لحافاً رقيقاً على ركبتّي لأتمكن من وضع الطفلة عليه(46).

ارتفع صوت الدفوف في هذه الأثناء ، وارتجلت المغنية الرئيسية أغنية من وحي المناسبة ، تشير كلماتها بشكل أساسي ، إلى أنني أنا من أختار اسم المولودة ، وبأن هذا سيكون فألا حسنا للمولودة الجديدة التي حظيت بمحبتي وحمايتي منذ لحظة ولادتها ، ثم غنوا أغاني تمتدحني كانت تتضمن تشبيهات مبالغاً فيها ، لكنها مليئة بالصور المعبرة لدرجة لم أتمكن فيها من منع نفسي من التفكير بنشيد الإنشاد الذي لسليمان! ثم صدحت امرأة ثالثة بما

يشبه الدعاء أو بالأحرى تمنيات بمستقبل أكثر رخاء وازدهارا لأجلي ، وأقحمت فيها القناعة السائدة لدى الشرقيين عن ذروة السعادة ، المتمثلة في فرحة المرأة الشابة التي تفتح عينيها على ولادة ابنها البكر ، والتي تغمض عينيها في شيخوختها على أحفادها الذين يحيطون بها ، كانت أغنية مفعمة بالعاطفة والحنان ، وبدا أن جميع الحاضرات قد تأثرن بكلماتها ، لا أعتقد بأن المغنية قد ارتجلت هذه الأغنية في الحال ، لكنها ربما تكون قد أجرت تعديلات طفيفة على واحدة من تلك الأغنيات غير المكتوبة ، التي تتناقلها الأجيال شفاهة جيلا بعد جيل ،

وتلا ذلك جولة من الرقص ، وكانت أغان جديدة تغنى في مديح الضيوف الجدد عند وصولهم ، وكانت الغرفة مغلقة ودافئة وعابقة بالدخان نظرا لأن النسوة جميعهن كنّ يدخنّ الأراجيل ، وقد سررت للغاية عند خروجي واستنشاقي للهواء المنعش من جديد.

صبيحة عيد الميلاد المجيد ، زارنا في دار القنصلية الوجهاء المسلمون في حيفا لتهنئتنا بالعيد ، حيث حضر حوالي الأربعين رجلا ، ومكثوا للوقت الكافي لشرب القهوة وتدخين الأرجيلة أو الغليون ، وتذوق الفاكهة المحلاة التي كنا نقدمها ، مكث صالح بيك وياسين آغا لوقت أطول بعد انصراف الضيوف ، حيث أبلغني صالح بيك بأنه أرسل زوجته حلوة ومريم الصغيرة إلى عرابة لتغيير الجو ، نظرا للضعف الذي كان باديا عليهما ، وفوجئت حين عرفت بأنه سمح بسفر الطفلة الصغيرة دون أن يراها ولو لمرة واحدة. وفي اليوم ذاته وبعد قداس الميلاد في كنيسة اللاتين جاء الوجهاء المسيحيون لتهنئتنا بالعيد.

في الثاني من كانون الثاني / يناير 1857 وصل الدكتور الألماني كول إلى حيفا برعاية الجمعية التبشيرية الكنسية ، وقد حظيت بشرف استقبال زوجته الإنجليزية وابنته الصغيرة.

أطلقت الكنائس المحلية تهديدا بالحرمان الكنسي ضد كل من يجرؤ على تأجير بيت للمبشر الجديد ، وبالرغم من ذلك ، تحقق النجاح بالعثور على بيت ملائم ، وقد سمع صاحبه يقول: يمكن تطردني الكنيسة مشان هالحكي ، بس مش مهم ، اذا صار هيك ، راح أدخل بالدين الإنجليزي ورح يعمدني أبونا الجديد

لم يترك وصول هذا المبشر أي أثر على البلدة عموما ، نظرا لأن الدكتور كان يعيش حياة دراسة وعزلة ، وكان الدكتور قد عانى كثيرا خلال إقامته في دمياط بفعل إصابته بالتهاب

السحايا ، وقد أرسل إلى حيفا لاستعادة قواه وتعلم اللغة العربية ، وكان يتلقى معلوماته من الكتب بشكل مخبري وليس عبر احتكاكه بالناس وهو الأمر الذي زاد من صعوبة العمل الذي كان يقوم به(47).

في العشرين من كانون الثاني / يناير قام أخي بدعوة الرجال العرب الأكثر معرفة وعلما بغض النظر عن طوائفهم ، لاجتماع مسائي في القنصلية ، بهدف وضع الترتيبات الضرورية لتأسيس جمعية تقوم على جمع ونشر المعارف المفيدة المرتبطة بالفنون والعلوم وتاريخ الحضارات ، وقد قوبل المشروع بترحيب كبير وانتخب أخي رئيسا ، وقام السيد أومان ، القنصل الفرنسي ، بإلقاء الخطاب الافتتاحي لعدد كبير من الحضور في يوم الأربعاء التالي ، فتطرق إلى الطاقات الكامنة في العقل البشري ، وفوائد الدراسة والبحث العلمي ، وأشار بحماسة كبيرة إلى تاريخ الشرق وعظمته والإنجازات العلمية التي تحققت فيه ، والأثر الفكري والمعنوي الذي تركته حضارة الشرق على العالم أجمع.

كانت المواضيع مدار البحث هي الجغرافيا والرحلات الاستكشافية والتاريخ العام ونشوء وارتقاء الحضارات في البلدان المختلفة ، وقد أبدى عدد من الحاضرين اهتماما خاصا في تاريخ الفنون والصناعة ، لم أحضر أياً من هذه الاجتماعات ؛ إذ كنت آوي إلى غرفتي بمجرد أن يتولى الرئيس رئاسة الاجتماع.

ذات مساء بعد أن اتجهت إلى غرفتي كالعادة ، وانشغلت بكتابة فروضي الدراسية باللغة العربية ، قرع أحدهم باب غرفتي ، وقد كان ياسين آغا ، أحد أكثر الوجهاء المسلمين ثراء وتأثيرا في الباشليق ، فاعتذر عن مقاطعتي وقال: بدي اترجاكي تسمحي لي أدخن غليوني في غرفتك ، لأني بدي أشاورك بموضوع مهم ، فرحبت به ، وبعد أن أخذ إذني بإغلاق الباب جلس وبادرني بالقول: صار لي من زمان بدي أحكي معك ، اخر مره زرتي بيتنا كانت من شهرين ، ليش بطلتي تزورينا ؟ فأجبته: بعد ما ماتت مرتك ، ما في حد أزوره في بيتكم ، مشان هيك ما جيت فرد علي بالقول: انا هيك قلت ، بس اليوم انا جاي أطلب منك خدمه كبيرة ، بدي اخذ رأيك بأني اتزوج مره تانيه ، فكرت بواحدة- بتعرفيها أنت- وبدك تحكي لي اذا كانت بنت كويسه ، وإذا كانت حلوة ، هي بنت صالح بيك عبدالهادي وأسمها أسمى

كنت قد رسمت وجهها فيما مضى ، فأعطيته الرسم ، فسر بذلك سرورا عظيما وقال وهو يحدق في الرسم: قديش طولها ؟ حكياتها حلوين ؟ قديش عمرها ؟ بتعرفي امها منيح ؟ فقلت: نعم فقال: معناته هي بتصدقك ، فاتحيها بموضوع جيزتي من بنتها ، قوليلها اللي بتقدري عليه ، قولي لها اني عندي بيت جديد وحلو ، وانه بنتها راح تعيش زي الأميرات ، إذا خدمتيني هاي الخدمه ، بكون عبد إلك على طول ، بدي اتزوج هاي البنت ، احكي مع ابوها كمان ، صالح بيك ، إدعيه لهون مشان يلعب معك شطرنج ، بس ما تلتهي باللعب ، فكري كيف تساعديني اتزوجها ،صالح بيك راح يسمع كلامك وياخد بمشورتك

وبعد أن انتهى من طلبه وبدأ بإعداد غليونه ، أخبرته بأنني بحاجة للتفكر بالأمر قبل أن أعده بالتحدث نيابة عنه ، لكنني تعهدت بأن أتحرى عما إذا كانت أسمى قد خطبت أو وعدت بالزواج من شخص آخر. علمت بأن أحد أصدقائي المسلمين فكر ذات مرة بالتقدم لخطبتها ، فتحريت الأمر وتبين لي بأنه قد تخلى عن الفكرة.

بعد زمن قصير ذهبت لزيارة جناح الحريم في بيت صالح بيك ، حيث لم يبد المكان كما عهدته قبل رحيل حلوة وصغيرتي مريم ، ومع ذلك فقد استقبلتني الزوجة الأولى ، السيدة التركية بحفاوة بالغة ، ورحبت بناتها بي بلطف وحرارة ، وتأكدت خلال حديثي معهن بأن أسمى قد خطبت لابن عمها الشاب ابن محمد بيك عبد الهادي من عرابة ، وبأن الزواج سيتم خلال فترة قصيرة ، وقد كان عمر العريس ستة عشر عاما فقط.

خلال عودتي للبيت أرسلت في طلب ياسين آغا لأبلغه بضرورة التخلي عن فكرته في الحال.

الفصل الرابع عشر

المشاهد الأخيرة لحيفا

بعد عيد الفصح ، كنا نقضي الكثير من الوقت بصحبة الرحالة الإنجليز ، الذين كانوا يتوقفون للاستراحة في الجوار ، إما في خيامهم البيضاء بين الأشجار المحيطة بالبلدة أو في الدير الواقع على جبل الكرمل.

في الثالث عشر من نيسان / أبريل وصل اليخت الصغير الجميل المسمى سيلفايد ، وأمضى بضعة أسابيع راسيا في ميناء حيفا ، حيث أمضيت ساعات ممتعة على متنه ، لقد نجح الكابتن ليلاند ، الذي كان مالك اليخت في ذلك الحين ، في جعله منزلا عائما بحق ، فقد كانت زوجته وابنته ومربيتها وابنه ومعلمه برفقته على متن اليخت ، بالإضافة إلى الدكتور أنتوني وهو طبيب وهاوي تصوير.

صادف يوم الأحد الرابع والعشرين من أيار / مايو أول أيام البيرم (عيد الفطر) عند المسلمين ، والذي يلي رمضان ، شهر الصيام الطويل والمضني ، وبحلول العيد ، وعلى غير عادتها ، ازدانت بلدة حيفا الصغيرة ، فكان الناس يرتدون أجمل ملابسهم ، أما اليخت سيلفايد والبارجة الحربية البريطانية ديسبيرت ، واللذان كانا راسيين في الميناء ، فقد ازدانا بالأعلام والرايات ، وبدت عكا وكأنها قد حوصرت من جديد نظرا لأن القذائف التي كانت المدافع تطلقها من مرابضها سريعا وعلى التوالي ، تكفلت بإحاطة المدينة بسحب من الدخان وهي تنفجر بصوت مرتفع عبر خليجها.

في يوم الخميس الحادي عشر من حزيران / يونيو ، سار موكب كنسي كبير احتفالا بعيد الجسد ، وقد اشترك الرهبان والكهنة من جبل الكرمل في الموكب ، بالإضافة إلى القناصل كافة تقريبا ، لم يبد المسلمون أي اعتراض على إقامة وتسيير الموكب الكنسي ، على الرغم من أن حيفا لم تشهد موكبا مماثلا له من قبل ، وقد طُلب من شقيقي أن يقوم برفع العلم البريطاني خلال المناسبة ، والسماح لقوّاسيه ، الذين كانوا من المسلمين ، بأن يسيروا أمام الكهنة من أجل قيادة الموكب وإفساح الطريق من أمامه ، برفقة القوّاسين العاملين في القنصليات الأوروبية الأخرى ، لكنه اعتذر عن الموافقة على الطلب الأخير بلطف ولكن

بحزم ، وقد أخذ رفضه هذا بنية حسنة ولم يُطلب ذلك الطلب منه مرة أخرى.

عند العصر ، امتطينا صهوات جيادنا وسرنا على رمال الخليج باتجاه عكا ، ثم إلى حدائق البهجة التي تقع على بعد حوالي 20 دقيقة من المدينة ، وهي واحدة من أجمل الأماكن في الباشليق ، وكانت فيما مضى مقرا لحريم عبدالله باشا ، الذي جلب الفنانين خصيصا من إيطاليا واليونان ، من أجل تجسيد وترجمة أفكاره حول الأبهة والفخامة.

آلت ملكية هذه الحدائق الآن للسيد جريس الجمّال ، حيث يسكن هو وأسرته في الفيلا الكبيرة الكائنة في وسط هذه الحدائق ، والتي بنيت على النمط المعماري الإيطالي ، وتحيطها أشجار السرو والصنوبر التي ترتفع فوق أشجار البرتقال والليمون والأكاسيا ، وحيث تنمو أنواع شتى من الفاكهه والأزهار ، كنت قد التقيت سيدات هذه العائلة في يافا في بادئ الأمر ، كما قمت بزيارتهن في بيت العائلة في عكا ، كما اعتاد رجالهن على زيارتنا في حيفا ، وكن على الدوام يدعونني لزيارة البهجة ، فتركني شقيقي هناك بينما قام هو بجولة في المناطق الداخلية من البلاد ، والتي كانت تشهد حربا أهلية في الأونة الأخيرة.

يسلك العرب الذين حصلوا على تعليم أوروبي وأولئك الذين احتكوا كثيرا بالأوروبيين ، مسلكهم ويرتدون أزياءهم ، ويبدون خجولين من عاداتهم وتقاليدهم ، لكن هذا لا ينطبق على عائلة الجمّال ، إذ على الرغم من أن العديد من أفراد الأسرة يتقنون الإنجليزية جيدا ، إلا أنهم نادرا ما كانوا يتخلون عن عاداتهم الشرقية ، سواء من حيث اللباس أو التصرفات ، الأخت الأصغر لجريس وتدعى فرحة ، تلقت تعليمها لدى الإرساليات التبشيرية الأمريكية في بيروت ؛ وهي تتحدث الإنجليزية بطلاقة ، وتمزجها بلكنة ومصطلحات شرقية طريفة ، وهو الأمر الذي يضفي المزيد من الجاذبية على كل ما تقول ، كما كانت واحدة من القليلات من بنات البلاد اللواتي كنّ قادرات على القراءة والكتابة باللغة العربية ، وكانت مخطوبة لشاب عربي متعلم ومواظب على القراءة من سكان حيفا ، وعلى الرغم من عدم إتقانه أي لغة أخرى غير اللغة العربية ، إلا أنه كان متمكنا منها جيدا ، وهذا ما أتاح لصديقتي الشابة الفرصة لأن تستمتع بمراسلته والكتابة اليه دون الاستعانة بكاتب للرسائل.

في عصر أحد الأيام ، بينما كنت أتمشى بمعيتها في جنينة الورد ، أرتني قصيدة قصيرة كان

قد نظمها لأجلها على شكل رسالة يشكو فيها من انقطاع أخبارها عنه لبضعة أيام.

فرحة الآن متزوجة وأم سعيدة ، وأعتقد بأنها ستسامحني على نشر ترجمة تلك القصيدة ، التي أضفت إشراقا على وجهها في ذلك اليوم السابع عشر من حزيران/ يونيو ، كنت قد كتبت الكلمات في دفتر ملاحظاتي بقدر ما استطعت حرفيا ، بعد أن تكرمت هي بتلاوتها على مسامعي بالعربية مرتين أو ثلاث مرات ، وهي تشرح بكثير من الحرص المعنى الإنجليزي لكل كلمة من الكلمات ، التي لم أتمكن من فهمها أو استيعابها من كلماتها ، (لا تغضبي مني فرحة!) ، كانت الرسالة مؤرخة في حيفا في الخامس عشر من حزيران/ يونيو:

يا قلبي.... وينك يا قلبي

إهدا يا قلبي.... واصبر على حزنك

شوف كيف الله صبّر أيوب

بناديها بس ما بترد عليّ

بحاكيها بس ما بتسمعني

ليش ما بتجاوبني ؟

ان ما خلاها كلامي ترد علي

بلكي بتروح على جنينة الورد

وبتقول للنسيم عن هوانا

وبقعد أنا تحت النخيل

وبستنى الهوا يجيب لي هواها

بتسمع النخله حكي الوردات

قعدت أنا تحت النخله

والهوا ما جاب لي هواها

ليش ما نتلاقى سوا؟

بموت أنا في هواها..... لو تعرف بس قديش تاعبني هواها

كان شفقت عليّ ، وما هان عليها أتعب كل هالتعب

بموت أنا في هواها... لو حبي كان عالصخرة

الصخره الكبيره

لتكسرت

بموت أنا في هواها..... لو حبي نزل عجبل.... جبل العالي

جبل البترا العالي

لانهد هالجبل وما ضل بمطرحو

بموت أنا في هواها.... لو حبي إجا عالشمس

إجا عالشمس في عز الظهر

لانطفت الشمس واسودّت

بموت أنا في هواها.... إيمتى تفرح يا قلبي

بشوفتها.... بشوفتك يا فرحه..... يا فرحتي ويا سعدي

فرحة هي الكلمة المستخدمة بالعربية للتعبير عن السعادة والفرح ، وهو أسم الشابة الصغيرة التي كتبت لأجلها هذه القصيدة.

يشير العرب للشمس بصيغة المؤنث ، بينما يشيرون للقمر بصيغة المذكر ، احتوت القصيدة على أبيات عن القمر ، لكنني وللأسف لم أقم بتدوينها في حينها ولم أعد قادرة على تذكرها الآن.

تعمل مجموعة من الفتيات الحبشيات الدمثات والحلوات الشمائل ، خادمات في بيت السيد جمّال ، وكنّ يبدون فاتنات في ملابسهن الجميلة والمزركشة المصنوعة من الصوف القرمزي اللون ، وقلاداتهن وخلاخيلهن الفضية وأساورهن البلورية ، والطرابيش الحمراء التي يعتمرنها ، ومناديل الموسلين ذات الألوان الزاهية على رؤوسهن.

في أحد الأيام سادت البيت فرحة كبيرة ، وتبادلت هولاء الفتيات التهاني فيما بينهن ، سألت عن السبب فعلمت بأن إحدى العبدات الشابات التي تم تعيينها من قبل السيد جمّال في الخدمة في المنزل قد نالت حريتها ، وتحررت من نير العبودية للتو ، وهي عبدة مملوكة لأرملة عربية مقيمة في حيفا ، وصلت هذه السيدة منذ قليل للبهجة ، وأعتقت رقبة عبدتها ، وأخبرتها بأنها خصصت لها جزءاً من ميراثها في وصيتها.

أصيبت الفتاة المسكينة في البداية بحالة من الذهول بفعل الفرحة والتعجب ، لكنها بعد التفكر بالأمر بدا وكأنها ترتجف خوفا من أن تكون على عاتقها وبمفردها ، ومن المسؤولية التي يفرضها عليها وضعها الجديد ، فسألت سيدتها إذا ما كان بمقدورها أن تحبها بالمستقبل كما اعتادت أن تحبها في الماضي ، وقالت لها: أفضل ان أحافظ على حبك من أن أحصل على حريتي ، فشرحت السيدة لها أنها تتقدم بالعمر ، وبأنها لن تعيش بما يكفي للعناية بها ورعايتها ، وبأن دنو الأجل هو ما دعاها لاتخاذ القرار بإعتاق رقبتها.

أخبرتني فرحة بأن السيدة أتت خصيصا من عكا في ربيع تلك السنة ، عندما مرضت العبدة بالحمى ، وبأنها سهرت طوال ليلتين متواصلتين إلى جانب فراشها للعناية بها ، ولم تتركها إلا بعد أن تعافت من مرضها تماما.

ما زالت الفتاة تعمل في خدمة السيد جمّال ، التغيير الوحيد الذي طرأ على وضعها هو أنها صارت تقبض راتبها الشهري وتحتفظ به بدلا من أن يدفع لمالكتها السابقة ، سألت الفتاة بعد يوم أو يومين عن مشاعرها بعد تحريرها ، فقالت: أنا حرة وأنا سعيدة ، لكني لا أعرف ما الذي يجعلني أشعر بالسعادة ، أنا البنت نفسها التي كنتها في الماضي ، وأنا أعمل وأعيش كما كنت في الماضي ، لكن الجميع يقولون لي بأن من الأفضل أن أكون حرةّ

وصل أخي في وقت متأخر من مساء يوم الجمعة التاسع عشر من حزيران /يونيو ، وأخبرني بضرورة عودتنا إلى حيفا في الصباح الباكر من اليوم التالي ، من أجل السفر إلى بيروت على متن الباخرة التالية المتجهة إلى هناك ، وذلك بسبب تعيينه نائبا للقنصل في بيروت لبضعة أشهر ، حيث إن السيد مور ، سيقوم بزيارة إلى إنجلترا.

مررنا بعد ذلك بأيام حافلة أمضيناها في توديع أصدقائنا الحيفاويين ، الذين لم أر الكثيرين

منهم بعد تلك الأيام من جديد.

في الساعة الرابعة والنصف من فجر يوم الرابع من تموز / يوليو سار برفقتنا عدد كبير من الناس من اليهود والمسيحيين والمسلمين ، باتجاه مرسى التحميل في الميناء ، ووقفوا لوداعنا بينما كنا نستقل قاربا عربيا صغيرا كان يتهادى على الماء باتجاه الباخرة النمساوية ، وكان بمعيتنا كل من القنصل الفرنسي ومحمد بيك ، اللذين صعدا على متن الباخرة وبقيا معنا حتى اللحظات الأخيرة.

بينما انشغل أخي بمهامه وأعماله في بيروت ، حظيت أنا بفرصة لزيارة مناطق لبنان والتعرف على تاريخ سكان جباله ، وهم من الدروز والموارنة. ساعدني أخي على فهم طبيعة الأوضاع المعقدة والمنذرة بالأخطار في المنطقة ، إذ إنه كان قادرا على أن يتنبأ بأن هذه الجبال ستصبح إن آجلا أو عاجلا ، مسرحا داميا للحرب الأهلية- لكنني لن أتطرق لهذه الأمور في هذا المقام.

عدنا إلى فلسطين في شهر تشرين الثاني / نوفمبر ، فبلغنا خليج عكا عند بزوغ الشمس ، وبسعادة رأينا سلسلة جبال الكرمل والدير الأبيض ، الذي كان زجاج نوافذه يعكس أشعة شمس الصباح ، وسرعان ما تم إنزالنا إلى زورق عربي صغير ، وبدت بساتين النخيل المعتمة وبيارات الفواكه المزدهرة وبلدة حيفا وكأنها ترتفع رويدا رويدا من فوق البحر بفعل قوى سحرية لاستقبالنا ونحن ندنو من الشاطئ ، كم كنت سعيدة حين هبطت على تلك الأرض مرة أخرى ، وغمرتني سعادة أكبر حين رأيت وجوه أصدقائي التي أذكرها جيدا ، وسمعت كلماتهم المرحبة بي التي كانوا يطلقونها بلغات ولهجات شتى.

لكن المكان شهد تغييرات كثيرة ، وفيات ومواليد جدداً ، وزيجات جديدة ، وقادمين جدداً ، وأناساً رحلوا وغادروا ، هدمت بيوت قديمة وارتفعت بيوت جديدة مكانها. أما صالح بيك عبد الهادي ، الذي اعتدت على لعب الشطرنج معه ، فقد أخذ عائلته وعاد للاستقرار من جديد في عرابة ، وسمعت وبمزيد من الحزن والأسى بأن ابنته الصغيرة سميتي مريم وأمها صديقتي حلوة قد توفيتا ، ماتت الطفلة أولا ثم تلتها الأم بعد وقت قصير ، كما سافر اثنان من أبناء صالح بيك للدراسة في الكلية الفرنسية في عينطورا بالقرب من بيروت.

أحد جيراننا ، السيد لويس كتفاغو ، وهو أرمل ، كان أكثر المسيحيين العرب ثراء وأكثرهم نفوذا وتأثيرا في حيفا ، كما كان الأكثر ثقافة واطلاعا على الأدب العربي في الباشليق بأكمله ، علاوة على إتقانه للغتين الفرنسية والإيطالية ، كما كان يعيش على النمط الأوروبي ، فقد درس أبناؤه في كلية ، وكانوا يرتدون ملابس أوروبية ، مع أن بناته الصغيرات حافظن على الزي والطريقة الشرقية في حياتهن ، كان قد تزوج امرأة ثانية خلال غيابنا ، وقد كانت من أهالي دمشق الأصليين ، وقد ذاع صيت جمالها ورقتها عبر البلاد ، فصمم السيد لويس على الظفر بها ، فسافر إلى دمشق محملا بهدايا من الحرير الثمين المجلوب من مصانع ليون الفرنسية مشغول بالذهب ، وعقود من اللؤلؤ والألماس ، فحالفه الحظ في مسعاه ورجع منتصرا ترافقه عروسه لبيبة لكي تبارك أكبر قصر في حيفا كلها ، كان عمر العريس يناهز الستين عاما بينما كانت العروس في السادسة عشرة من عمرها ، ولم تكن قد اختلطت أو عرفت المجتمعات الأوروبية أو شبه الأروبية من قبل ، لكنها تمكنت بكياستها وسمو أخلاقها من الاعتياد على حياتها وموطنها الجديدين.

اعتدت على زيارتها باستمرار ، كانت أكثر النسوة المسيحيات المشرقيات الأرستقراطيات اللواتي عرفت رقيا وكمالا من دون أي أثر للمؤثرات الأوروبية. النسوة الأرستقراطيات المسلمات يختلفن تمام الاختلاف من حيث مستوى الرقي والتمدن ، حيث يطغى عدم التمدن على أسلوبهن في البذخ والفخامة.

كان وجه العروس يسعدني بلا حدود ، فقد كان مستديرا بشكل تام وذا بشرة ذهبية صافية أقرب للون الحنطي ، تحف به ضفائر لامعة سوداء من الشعر المجدول ، ورموش غامقة طويلة تظلل العيون الزرقاء اللون ، كان ثغرها صغيرا ومرسوما بدقة ، من الصعب أن ترى فماً رقيقا لدى النسوة العربيات ، وتكون شفاه البنات الصغيرات جميلة في طفولتهن ، لكنها تتغير في الغالب عندما تبلغ الفتاة سن الزواج.

زرت لبيبة لأول مرة خلال أحد الأعياد المسيحية ، وكانت ترتدي أزياء دمشقية عصرية ، سروالها كان طويلا ومنتفخا ومصنوعا من الحرير ذي اللون الوردي اللامع ، مع شريط ذهبي ضيق على كلا الجانبين ، أما سترتها القصيرة ذات الأكمام الضيقة فكانت من مخمل حريري

أزرق مطرّز مفتوح تماما من الأمام ، مظهرا قميصاً ليلكياً كان بالكاد يخفي صدرها ، وتدلت من عنقها حلية ذهبية مكونة من كلمات عربية تتكون من دعاء لمباركة حاملة القلادة ، مربوطة بسلسلة من الذهب الثمين امتدت حتى صدرها ، وكانت تشكل إطارا مزخرفا جميلا بعرض الإنشين تقريبا ، كما وضعت عقدا شرقيا ضخما من اللؤلؤ يتوسطه صليب من الألماس الصافي ، كان شعرها الأسود مجدولا في ضفيرة قسمت إلى أربع عشرة جديلة طويلة على الطراز الإغريقي ، وقد جدلت كل من هذه الجدائل ببراعة وإتقان مع أشرطة حريرية سوداء سميكة من أجل إطالة الضفائر وزيادة وزنها ، وعقد في نهاية كل ضفيرة منها حلي صغيرة من الذهب واللؤلؤ.

كان غطاء رأسها عبارة عن قطعة صغيرة من قماش الكريب الليلكي نُسقت بأناقة وعناية ، وقد ثبتت بغصون من اللؤلؤ والزمرد ومشبك تعلوه وردة صغيرة ، تمنطقت حول خصرها بشال من الموسلين الأبيض الأنيق المطرز بخيوط من ذهب ، وقد أرتني جهاز عرسها والمطرّزات التي اشتغلتها ، فقد كانت تجيد كافة أنواع التطريز وكانت تضع تصاميمها وترسمها بنفسها بذوق رفيع ودقة متناهية ، إذ كانت تستخدم طارة التطريز (الإطار الخشبي) المثبتة على منضدة ، والمصنوعة من الخشب الداكن اللون ، والمرصعة بالصدف والعاج ، وترتدي في الأيام العادية ملابس من الموسلين الفرنسي أو القماش المصنوع في مانشستر ، لكنها كانت أنيقة على الدوام ومواظبة على وضع أزهار على غطاء رأسها تكون عادة من الورد أو القرنفل أو من أنواع أخرى.

عادة ما كنت أجدها في غرفتها الخاصة ، جالسة على وسائد وثيرة على الأرض أمام طارة التطريز خاصتها ، بينما تلعب ابنة زوجها الصغيرة كارميلا ذات الثلاث سنوات على الأرض بالقرب منها ، بإشراف عبدة إفريقية جميلة المحيا ذات وجه ضحوك ، ترتدي ملابس مزركشة باللون الأصفر أو الأرجواني ، وتضع عقدا من العملات الذهبية حول عنقها ، وخواتم ضخمة لحمايتها من السحر على أصابعها ، وأساور من الزجاج على معصميها النحيلين الأسودين ، وخلاخيل مزركشة على كاحليها ، وكانت تعتمر على مؤخرة رأسها طربوشا من القطيفة الحمراء المزدان بشرابة طويلة من الحرير الأزرق ثبتت على الطربوش بهلال مذهب.

كانت تضع على جانب أنفها العريض حجرا من الفيروز الناعم المثبت على دبوس فضي قصير وثخين ، وقد وضع داخل فتحة خصصت لذلك على طرف أنفها(48)

كانت هذه الفتاة تستقبلني ببشاشة دائما ، كما كانت تختلق قصصا متعددة باستمرار لتسلية الأطفال ، وكان لديها إعجاب كبير بسيدتها الشابة وبدت وكأنها تعاملها كملكية خاصة لها ، أو شيء غال عليها جدا بحيث تستمتع في ملاطفتها وتدليلها وحمايتها.

لم تتقن الست لبيبة لغة غير العربية التي لم تكن قادرة على قراءتها ، لكنها كانت على قدر كبير من الذكاء والحصافة وسرعة البديهة ، وكنت أستمتع كثيرا بصحبتها. وكانت من أبناء رعية اللاتين.

قالت لي بعد حوالي السنة من وصولها إلى حيفا: يا أختي ، لا يجب أن تكوّني انطباعا عاما عن شخصية المرأة العربية وأزيائها مما ترينه هنا وفي المناطق المجاورة ، إذ إن الناس في مدينتي دمشق وحلب أكثر رقيا وتمدنا ، بالرغم من أنهم لم يتعرضوا لأدنى قدر من التأثير الأوروبي. لم أستطع العثور في هذه البلدة على صديقات كاللواتي كنّ لدي في دمشق ، تعيش النساء العربيات كافة هنا ، مسيحيات ومسلمات ، كالفلاحين من أهل القرى ، ويتميزن بالجهل المطبق المسيطر عليهن ، كما أنهن يضعن الأوشام والمساحيق على وجوههن بطريقة همجية ومتوحشة ، ويضعن على رؤسهن زينة فضية ثقيلة لدرجة لا تصلح فيها سوى لرؤوس الخيول ، ولا يحافظن على نظافة بيوتهن أو أجسادهن أو أجساد أطفالهن ، لست قادرة على الاحتكاك بهن أو معاشرتهن ، بالرغم من أن القليلات اللواتي حظين بفرصة لتعلم اللغات الأوروبية أو المتزوجات من أوروبيين أو المنحدرات من زيجات مختلطة ، كففن عن التصرف كعرب ، إلا أنهن يفضلن التخاطب باللغة الفرنسية أو الإيطالية التي تعلمنها من أمهاتهن ، إلا أنني أشعر بغربتي وانفصالي عنهن أيضا

إلا أن السعادة كانت بانتظار لبيبة ، جاءت والدتها بعد مدة قصيرة للإقامة معها من أجل مساعدتها في العناية بابنها البكر يوسف ، وعندما ذهبت لزيارتها لتهنئتها بمولودها البكر ، وجدت الوالدة الشابة صامتة تقريبا بفعل الفرح الذي كان يعتريها ، لكن الجدة كانت تلهج في تدليل ومديح الوليد الصغير المقمّط والنائم داخل مهد متأرجح مصنوع من خشب

الجوز المكسو بالعاج والصدف ، والذي تعلوه ناموسية من الموسلين الفاخر ، وكان دثاره عبارة عن لحاف بنفسجي من المخمل المطّرز بخيوط من الذهب ، وبدت لبيبة بكامل جمالها وزهوها في عباءتها الطويلة الزرقاء ، التي كانت مخططة ومهدبة بالفرو الخفيف الناعم ، وابتسمت ابتسامة كبيرة حين انتبهت إلى أنها صارت تكنى ب.أم يوسف عليها السلام.

أول يوم في السنة الجديدة كان عطلة عمومية كالعادة ، تبادلنا خلاله زيارات التهاني والتبريكات من الصباح الباكر حتى مغيب الشمس ، في أول يوم سنة جديدة أقضيه في سورية فوجئت بسماع الخدم العاملين في بيتنا وفي بيوت جيراننا ، وجميع العرب من أبناء الطبقات الفقيرة يهنوئننا بالعام الجديد ، مستخدمين كلمة بسترينا! وقد اتضح لي بأنها عادة شائعة في مدن وبلدات الساحل ، حيث يتوقع قائلها الحصول على بضعة قروش ، وهو ما يحدث عادة دون معارضة من الشخص الذي توجه له الكلمة ، وتكاد هذه العادة تكون بمثابة ضريبة مفروضة على الأشخاص الميسورين في مدن بلاد الشام.

لم أوفق في تتبع أصل هذه العادة أو المغزى منها ، قال لي معارفي من العرب: الله وحده بيعرف من وين اجت هاي الكلمة ؛ فهي قديمة جدا ، بس أكيد انها مش عربية ، فتحريت الأمر عند معارفي من الأوروبيين ، فلم يتمكنوا من تزويدي بأية معلومات عن الأمر ، لكن المقال المعنون بحث في الفنون الجميلة بقلم إي. أل. تاربوك قادني للاقتناع بأن هذه العادة ان هي إلا تقليد لعادة وثنية ، وبأن الكلمة بستيرنا تعود للهدايا والمنح التي كانت تقدم للآلهة اليونانية سترينا من الصعب أن نتوقع أن الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية قد تخلوا تماما عن عقائدهم وعاداتهم السابقة لتنصيرهم ، يقول ماكلاي: غزت المسيحية الوثنية ، لكن الوثنية تركت أثرا في المسيحية ، فالطقوس والشعائر التي كانت تقام في البانثيون (معبد جميع الآلهة في روما القديمة-المترجم) دخلت طقوس العبادة المسيحية ، بينما دخلت عناوين الأكاديمية (أكاديمية روما) في قانون وأسس العقيدة المسيحية ؛ إذ تبنت الكنيسة الجديدة الكثير من الشعائر والطقوس الوثنية ، يقول تي. هوب في بحثه عن تاريخ العمارة: كانت طقوس (الساتورناليا) تستمر خلال الكرنفال ، وكان الاحتفال بتقديم

الهدايا والأعطيات للآلهة ساترينا يستمر طوال كرنفال السنة الجديدة ، من خلال تقديم الهدايا التي تسمى بالفرنسية (etrennes) ، ويمكنني أن أضيف إلى هذا ، بأنها تسمى باسترينا في مدن وبلدات الساحل السوري ، بحيث يعني المقطع با في اللغة العربية كلمة مشان أو من أجل أو كرمال

في نيسان/ابريل سافرنا لزيارة الناصرة والقرى المحيطة بها برفقة السيد جيه. لويس فارلي ، الذي أسهب بالحديث عن هذه الرحلة في الكتاب الذي ألفه عن سورية.

اتجهنا في شهر تموز/تموز إلى عسفيا ، وهي قرية درزية على جبل الكرمل ، فمكثت هناك لمدة قصيرة من الزمن للاستمتاع بنسيم الجبال العليل ، وقد حظيت باستقبال كريم من الأهالي ، وبفرصة جيدة للتعرف عن كثب على صفاتهم وأنماط حياتهم ، لكنني آمل أن أتحدث بإسهاب أكبر عن هذه القرى في مناسبة قادمة ، بحيث أتناول الديانة التي يعتنقونها في لبنان وفي حوران.

سافر أخي في شهر آب/ أغسطس إلى بيت المقدس ، على أمل العودة خلال أسبوع ، لكنه اضطر للبقاء فيها بسبب مشاغله الحكومية ، فبقيت بمفردي في حيفا ، ولأنه كان يساعدني دوما على فهم الأسباب والدوافع الكامنة وراء رحلاته والمبادئ التي يتمسك بها في قراراته وتصرفاته كافة ، فقد سعدت خلال غيابه في التصرف كنائب أو وكيل عنه في معظم شؤونه ، وقد ساعدتني المسؤولية الملقاة على عاتقي والعمل الكثير المتراكم على عدم الشعور بالملل أو الوحدة أو الخوف ، وأنا في غاية السرور لكوني قادرة على أن أشهد على وأؤكد العطف اللامتناهي والمشاعر الحميمة التي أظهرها لي العرب ، من مسيحيين ومسلمين ، وللود والمجاملات اللطيفة التي أبداها لي الأوروبيون ، خلال الفترة التي كنت وحيدة خلالها في حيفا.

سافرت إلى بيت المقدس في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ، وأمضيت فصل الشتاء بأكمله في الفندق الإنجليزي فيها ، وقد كان شتاء حزينا لنا بسبب وفاة المحترم جيه. نيكلسون ، والجريمة النكراء التي أودت بحياة السيدة كريسي ، بينما كان أصدقائي في القنصلية يقومون برعاية طفل مريض بمرض ميئوس من شفائه ، كان لا بد لهم أن يفجعوا برحيله للدار الآخرة

قبل نهاية العام ، وأصيب أخي بحمى فتاكة وخطيرة للغاية ، وكانت شدة هذه الحمى تدفعه للهذيان طالبا مني الإذن بالرحيل ، لأنه مات وبأنه لن يستريح حتى يطمئن على وصولي سالمة للوطن في إنجلترا ، لكن هذه الأيام والليالي المروعه والبغيضة انقضت بسلام في النهاية ، وشفي أخي من الحمى بفضل الجهود المضنية والعناية الفائقة التي قدمها الدكتور إدوارد أتكنسون ، وبدأ العام الجديد بداية مبشرة لنا جميعا.

فوجئت بالبرد القارس في بيت المقدس ، ورأيت المدينة مغطاة تماما بالثلوج مرتين ، لكن الشمس سرعان ما كانت تتولى إذابة الثلوج المتراكمة ، مخلفة وراءها أكاليل زغبية بيضاء على الجهات الشمالية من القباب والعقود ، كان العديد من المباني الجديدة قد بدأت بالارتفاع في الفضاء المحيط بالمدينة ، كما كانت روسيا(49)وفرنسا والنمسا قد بادرتا بشراء مساحات كبيرة من الأراضي ، وابتدأ العمل في تشييد العديد من المدارس والملاجئ وغيرها من المباني الخاصة بالمؤسسات الأجنبية.

صديقنا كامل باشا لم يعد موجودا ، وقد خلفه في منصبه سريا باشا وهو رجل ذو شخصية مختلفة تماما ، فهو لا يكن الكثير من العطف تجاه الأوروبيين ، وكان مسلما متعصبا ، وأبقى المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة الإسلامية مغلقة تماما في وجه غير المؤمنين ، وشجع ورعى روح التعصب الديني ، ومع هذا فقد أقر الكثيرون بأنه كان حاكما حصيفا وذكيا وقائدا صارما ونشطا ، وكان يتردد عنه أنه لم يأخذ رشوة على الإطلاق ، لكنه كان يعمل على فرض الضريبة وجبايتها بانتظام ، حيث كان أسلافه من الحكام يهملون في جباية الضرائب ؛ لإيمانهم بسهولة قبول الرشاوى مقارنة بالسعي لجباية الضرائب.

حرصا منه على تسهيل جباية الضرائب المفروضة على أهالي بيت المقدس ، فقد أوعز بترقيم بيوت المدينة كافة ، وأصبحت الأرقام العربية بالحجم الكبير تشاهد على أبوابها الآن ، لم يتم تقسيم الشوارع أو الأحياء كما هي الحال في المدن الأوروبية ، لكن أرقام المنازل كانت تبدأ بوحدات رقمية بلغت المئات ؛ لدرجة أن أحقر البيوت وأقلها مكانة امتلك رقما مميزا وخاصا به ، ثم تم إعداد سجل خاص دُونت فيه أسماء ملاك البيوت وساكنيها كافة ، وقد كان هذا عملا إبداعيا بحد ذاته ، وقد علمت بأنها المرة الأولى التي تشهد فيها بيت المقدس

نظاما لترقيم بيوتها في العصر الحديث ، وقد اعتبرت الطبقات الفقيرة من المسلمين هذا الإجراء فألا سيئا ، وكانوا يحملون مشاعر عدائية تجاهه ، بينما اعتبره بعض السكان إجراء تعسفيا. ورد في الآية العاشرة من الإصحاح الثاني والعشرين من سفر إشعيا: وعددتم بيوت أورشليم

غادرنا بيت المقدس في كانون الثاني /يناير ، وتسلقنا على صهوات خيولنا تلال الضفة الغربية ، وعبرنا السهل الفلسطيني الذي كان عبوره عملا محفوفا بالمخاطر ، نظرا لتجمع المياه في برك وبحيرات كبيرة ، وهو الأمر الذي جعل الأرض تعج بالمستنقعات ، لكن دليلنا كان على دراية تامة بالطريق فبلغنا يافا بأمان وفي الوقت المناسب للحاق بالباخرة الروسية المتجهة صوب حيفا.

كانت أهمية بلدتنا الصغيرة تتزايد بسرعة مطردة ، وقد شيد فيها العديد من البيوت خلال العام المنصرم ، وكانت قرية صغيرة تبنى خارج السور الغربي ، وقد أطلق عليها الأوروبيون تسمية ضاحية جبل الكرمل ، كما اكتمل بناء كنيسة ذات قبة في غاية الضخامة لطائفة الأرثودكس أو الملكيين.

حصلت الحكومة الروسية على فرمان ينص على السماح لها بتشييد رصيف بحري على شاطىء حيفا ، وجاء السيد بيروتي ، وهو مهندس معماري يعمل في خدمة الحكومة الروسية ، وسبق أن خدم ككبير مهندسين في جيش سردينيا ، للإشراف على أعمال البناء التي وفرت الكثير من فرص العمل للسكان ، وتسببت في تنشيط الحركة في المكان ، وقد شيد الرصيف من الخشب وكلف الحكومة الروسية ما يقرب من ثلاثة آلاف جنيه ، ولا يوجد رصيف تحميل مماثل له على أي من الشواطىء السورية ، وكان استخدامه متاحا بالمجان للناس من الفئات كافة ولم تفرض أية ضرائب أو مكوس من أي نوع على هذه الاستخدامات.

تم بناء نزل بجوار الكنيسة الأرثودوكسية ، ولما أنتهت الأعمال في هذه المشاريع سافر السيد بيروتي إلى الناصرة للإشراف على الأعمال المعمارية الخاصة بالكنيسة الأرثودوكسية فيها ، وهو يشغل حاليا منصب المهندس المعماري الخاص بباشا بيت المقدس.

عندما استفساري عن: السبب الذي يدفع الحكومة الروسية لتكبد نفقات بناء رصيف بحري

ومأوى هنا وآخر في الناصرة ؟ ، أجابني الموظفون الروس والأتراك الراضون عن ذلك بلا تردد: هذا لخدمة الحجيج الأرثودوكس الذين يتقاطرون بأعداد كبيرة سنوياً لزيارة الأماكن المقدسة ، لكن بعض الأوروبيين هزوا أكتافهم دلالة على الشك وقالوا: ربما يكون هذا الرصيف البحري قد بني من أجل المؤمنين الأرثودوكس ، لكن لا شك بأنه سيكون جاهزا لتسهيل نزول قوات عسكرية أيضا ، وربما تكون الملاجئ قد بنيت لإيواء الحجيج ، لكنها ستصلح للاستخدام كثكنات عسكرية أيضا ، بينما كانت غالبية العرب راضين تمام الرضا عن الأمر ، ولسان حالهم يقول: الله كريم ، والفرنجيين أغنياء ، بينما قال البعض منهم: الله أعلم شو ورا هالبنايات ، ثم تابعوا تدخين غلايينهم بصمت.

كان النفوذ الروسي يتزايد في كل مكان ، تم تدشين خطوط ملاحية للسفن الروسية على امتداد الساحل السوري ، حيث كانت هذه السفن تحط في ميناء حيفا مرتين أسبوعيا ، ولهذا كنا كثيرا ما نتعرف على القباطنة والبحارة الروس ، الذين كانوا يمتازون بلطفهم وثقافتهم الرفيعة وأفكارهم الليبرالية ، وكانت روسيا تمتلك تمثيلا جيدا في طول البلاد وعرضها ، وكان قناصلها يتقنون اللغة العربية وآدابها ، ولا يحتاجون للمترجمين من أبناء البلاد في أداء أعمالهم ومهامهم على الإطلاق ، وهذا ما جعلهم بمنأى عن الخلافات وسوء الفهم الذي قد ينتج عن الدسائس أو الأخطاء التي يحوكها أويرتكبها مرافقوهم أو موظفوهم. يكد وكلاء الإمبراطور الروسي في أعمالهم ، وهم دائمو البحث والتنقيب في الكنوز الأدبية القديمة لبلاد الشام ، فقد فتشوا الأديرة بعناية وسلّطوا الضوء على المخطوطات الأثرية القديمة من نسخ الإنجيل ورسائل الرسل ، فبفضل مبادرة روسية خاصة تمت استمالة السّمرة للتخلي عن نصوص قيمة للأسفار الخمسة الأولى من التوراة ، وقد تم إنتاج نسخة من واحد من هذه النصوص تتم طباعتها الآن ليثوغرافيا -العام 1861- في بيت المقدس ، بواسطة الدكتور ليفيسون الذي تفرغ منذ زمن ليس بالقصير لدراسة النصوص الأدبية للسمرة ، وهو قادر على قراءة هذه اللغة القديمة والآفلة للاندثار بمهارة الكاهن عمران اللاوي نفسها ، وينفق الذهب الروسي لتمويل مبادرات كهذه بسخاء منقطع النظير ، وهي مبادرات مهمة للعالم أجمع ولا شك بأنها ستثري المكتبات العامة في أنحاء أوروبا كافة ، ومن المؤكد

بأن الدكتور ليفينسون سيقوم بنشر خلاصة الاكتشافات التي توصل إليها بشأن بعض الاختلافات بين النصّين السامري والعبري لشريعة موسى التي لم يتوصل إليها مفسرو التوراة حتى الآن(50)

في آذار/ مارس ، صدرت الأوامر للقيام بحملة نظافة كبيرة لتنظيف وتسوية الشوارع الرئيسية في حيفا ، لكي تكون في حالة لائقة لاستقبال صاحب السمو الملكي الأمير ألفريد ، الذي نزل في يافا واتجه منها إلى بيت المقدس والخليل والبحر الميت أو بحر لوط ، وكان يتجه من الداخل الفلسطيني صوب حيفا للحاق بباخرته ايوريالوس ، التي كانت بانتظاره في الميناء منذ بضعة أيام ، وقد أمر باشا عكا جميع الرجال من العاملين في خدمته للبقاء على أهبة الاستعداد لمرافقته من أجل الخروج للترحيب بالبحار الملكي الشاب القادم من طبريا عن طريق شفا عمرو ، والذي وصل حيفا قبيل غروب شمس يوم الرابع من نيسان/ إبريل 1859 برفقة قبطان وكبار ضباط ايوريالوس ، يرافقهم السيد فن ، قنصل صاحبة الجلالة الملكة وشقيقي.

ترك الأمير الشاب انطباعا حسنا لدى كافة الناس الذين سعدوا لرؤياه في بلاد الشام ، وكان لدى كل منهم شيء يقوله في مديح وجهه الوضاح وعينيه الصافيتين الزرقاوين ، أو قصة يرويها حول دماثته وطيب أخلاقه.

تحدث أولئك الذين رافقوا سمو الأمير في رحلته عبر فلسطين عن حبه للمرح ، وعن روح الشجاعة والنشاط التي تميزه ، وعن سرعة بديهته ، لكنهم تحدثوا تحديدا عن امتثاله التام لصديقه والوصي عليه الرائد كاول ، كما كان مفعما بالنشاط ، وكان يستمتع كثيرا بالأنشطة الرياضية في الهواء الطلق وفي حرية الحياة تحت الخيام ، ولم يعرف عنه التضحية براحته من أجل الأبهة والمراسم إلا إذا اضطر للقيام بذلك ، خضوعا لما يقتضيه البروتوكول ، فعلى سبيل المثال ، كلما قام متسلما بإهدائه حصانا مزركشا مع سرج ثمين مصنوع يدويا ، كان يمتطيه لبضع دقائق فقط وفي بعض المناسبات يكتفي فقط بتوجيه الشكر لمقدم الهدية ، وذلك لأنه كان يفضل سرجه الإنجليزي البسيط ، وعندما بلغ الخليل ، كان يمتطي ، وفقا لما تقتضيه المراسم ، أحد الخيول المفضلة لدى الباشا ، حيث تجمع المئات من الناس

للترحيب به ، فرد على تحياتهم بمثلها ، بروحه الدمثة وأخلاقه الرفيعة ، ثم قفز عن السرج الثمين واتجه نحو الأرض التي خصصت لإقامة مخيمه ، وتناول مطرقة كبيرة وشرع في دق الأوتاد المخصصة لربط حبال الخيام ، وسط دهشة وذهول المسؤولين والوجهاء الشرقيين الغارقين في أبهتهم وجلالهم. تم نقل أحد قوارب سفينته بواسطة الجمال من يافا إلى البحر الميت لكي يتمكن سموه ، والمعروف عنه ولعه برياضة القوارب ، من أن يحظى بمتعة التجذيف في مياهه الثقيلة ، كما قام بالإبحار في مياه بحيرة طبريا.

عصر يوم الأحد السابع عشر من نيسان / أبريل كنت جالسة وشقيقي نقرأ في دار القنصلية عندما قوطعنا بالدخول المفاجئ لعبد طويل أسود وستة أطفال مسلمين ، سارعوا بإغلاق باب الغرفة فور دخولهم جميعهم إليها ، وبدت عليهم جميعا علامات التعب والإعياء الشديدين ، وكانوا كمن يحاول الفرار من خطر جسيم محدق ، وأمسك الأطفال بتلابيبنا وملابسنا أو أيدينا وكانوا يصرخون: أنا دخيلك.....أنا دخيلك(51)!

عرفت على الفور بأن هولاء الأولاد كانوا أبناء صديقي القديم صالح بيك عبد الهادي وأبناء إخوته ، وأخبرنا العبد الذي كان برفقتهم بكلمات سريعة ومتلعثمة بأن عرابة محاصرة حاليا من قبل القوات التركية ، المدعومة من قبل أبناء عائلتي جرار وطوقان ، وبأن آل عبدالهادي لم يكن لديهم أية آمال بمقدرتهم على الدفاع عن البلدة ، وهذا هو السبب الذي دفع صالح بيك إلى إرسال أبنائه الصغار بحثا عن ملاذ آمن في حيفا ، وكان الأولاد على قناعة تامة بأنهم لن يصلوا إلى بر الأمان قبل بلوغهم دار القنصلية البريطانية ، وبأنهم قد تعرضوا لمخاطر جسيمة متعددة خلال رحلتهم ، وأنهى العبد حديثه قائلا: الحمدلله اني وصلت هالاولاد لبيت سيدي ، اللي راح يحميهم ويدير باله عليهم! ، وسرعان ما انطلق خارجا من البيت قبل أن نتمكن من الرد عليه.

كان التعب قد أخذ من الأولاد كل مأخذ ، فجثموا على البساط بالقرب من مكان جلوسي ، وقد تشبث اثنان منهم بتلابيب ثوبي ، وكانوا يقولون: يا حبيبتي ، يا ستي يا الإنجليزية ، انتي رح تحمينا ، ما راح تخليهم ياخدونا على الحبس ، ما راح تخلينا نروح!

كانوا منتبهين إلى الملامح الجادة التي كان وجه شقيقي يكتسي بها خلال حديثه معي

باللغة الإنجليزية ، فلم يكونوا يدرون ما إذا كان عليهم التحلي بالأمل أم الشعور بالخوف ، فقالوا لي: إحكي مع القنصل مشاننا ، إحكي عنا حكي كويس للقنصل ياستي

أمرنا بإعداد الطعام للأولاد على الفور ، فسمعنا الأطفال أثناء ذلك ، فصرخ أحدهم قائلا: مش راح نوكل عبين ما يعطينا القنصل الأمان ويحمينا

فرد أخي حينها قائلا: سأبذل ما بوسعي لأجلكم يا أبنائي ، كلوا الآن والله يسلمكم

خلال تناولهم للطعام ذكرني أخي بأن تدخله لحماية الرعايا الأتراك يعد انتهاكا للقانون ، ولكن بما أن هولاء الأطفال أصغر من أن يكونوا قد ارتكبوا جرما بأنفسهم ، فقد قرر أن يخاطب مسؤوليه المباشرين ، القنصل والقنصل العام ، لكي يشرح لهم الموقف ويستشيرهم فيما يجب اتخاذه من إجراءات. وأضاف قائلا: سوف أتولى رعاية الأولاد إلى حين استلام التعليمات حول كيفية التصرف ، وفي تلك الأثناء لنأمل أن يكون صالح بيك قادرا على نفي تورطه أو مشاركته بهذه الثورة

ومن فوره ، شرع بتنفيذ خطته هذه ، وقام بإرسال موفدين خاصين إلى بيت المقدس وبيروت ، وبعد وقت قصير وكما توقعنا ، جاءنا الحاكم برفقة ثلة من الجنود لمطالبتنا بتسليم الأولاد بوصفهم مساجين ، فأبلغه أخي بالقرار الذي اتخذه ، فما كان من الحاكم إلا أن انسحب بأدب ولطف ، لكنه ترك خفيرا على باب القنصلية من أجل القبض على من يغامر بالخروج من الأولاد ، ومع ذلك فلم تستمر هذه الحراسة لوقت طويل بعد ذلك.

قمنا بتخصيص غرفة للأولاد كانوا يغلقون بابها عليهم في كل مرة كنا نخرج فيها من المنزل ، ولا يجرؤون على فتحها إلى أن يسمعوا أصواتنا عند عودتنا ، وعندما كانوا يعلمون بأنني في المنزل بمفردي كانوا يقولون لي: يمكن ييجي الحاكم ويخليكي تسلمينا غصب عنك ، بس أنتي راح تكوني قوية مشاننا وما راح تخليه ياخدنا عالحبس ، حتى لو كان معند مشان يوخدنا ، وأخبروني بأن شقيقتهم أسمى توفيت بعد وقت قصير من زواجها ، وقالوا لي: يمكن احنا الوحيدين اللي عايشين من عيلتنا!

في يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر عند الظهر تقريبا ، جذبتني أصوات الطبول والصراخ

المرتفع إلى النافذه لأرى ما يحدث ، فأصابتني القشعريرة لدى رؤيتي فوجاً عسكرياً من جنود المشاة الأتراك الذين كانوا يمرون عبر شوارع حيفا بعد وصولهم من عرابة ، حيث استبيحت البلدة وحظي هولاء الجنود بفرصة لنهب البلدة طوال ساعة أو تزيد ، وقيل بأنهم استولوا على غلايين مرصعة بالمجوهرات وعملات وقطع نقدية ذهبية قديمة ، وقلائد وأساور وأطقم ذهبية لتغطية رؤوس النساء ، وغير ذلك من المقتنيات الثمينة ، وكانت ملامح وجوههم تدل على مدى وحشيتهم وبربريتهم ، وتظهر نشوتهم وبهجتهم بالغنائم والمنهوبات التي سلبوها ، وكانوا يقودون مجموعة من الأسرى الموثقين بالأغلال من أهالي عرابة ، حيث كان سيتم نقلهم إلى السجن على متن باخرة راسية في عكا.

أصيب الأولاد المساكين بمجرد رؤيتهم لهذا المشهد بحالة من الخوف والحزن الشديدين ، نظرا لأننا لم نتمكن من التحقق من مصير آبائهم ، بالرغم من أننا سمعنا بأنهم قد نجحوا بالفرار شرقي نهر الأردن.

و قد تناقلت أخبار مفادها أن البلدة دمرت عن بكرة أبيها ، وبأن جميع النساء والأطفال قد قتلوا بوحشية ، وبأن الرجال كافة إما أن يكونوا قد وقعوا بالأسر أو أنهم قد قتلوا أيضا ، ولم نعرف بأن معظم هذه الأنباء لم تكن سوى مجرد مبالغة من المبالغات المعتادة لدى الشرقيين ، إلا بعد انقضاء زمن على الحادث ، وترك الأطفال بمفردهم مع ما كان يعتريهم من مشاعر الرعب والإثارة والقلق ، ولم يكونوا قادرين على التأكد مما إذا كانوا قد أصبحوا أيتاما أم لا ، قال لي أصغرهم ، وكان في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره ذات يوم: إذا كان أبوي انقتل ، الله يقدرني وأعيش مشان أكبر وأصير رجال قوي مشان آخد بثاره ، وكان من الصعب في بعض الأحيان معرفة الطريقة المثلى لتهدئة روعهم أو الإجابة عن أسئلتهم المفعمة بالخوف والقلق.

كان في حيفا العديد من الناس الذين نزحوا من عرابة ، إلا أنهم سرعان ما ألقي القبض عليهم وأخذوا كأسرى ونقلوا إلى عكا ، وبدا أن (دخيليني أو دخلائي) كما كانوا يسمون قد نُسيوا في خضم هذه الأحداث ، وقام أخي بنقلهم إلى منزل أحد الجيران المسلمين للعناية بهم هناك.

في السادس من أيار/ مايو وبعد وصول البريد ، سلمني أخي رزمة البريد الخاصة بي ثم غادر المنزل ، وخلال استغراقي بقراءة الرسائل التي وصلتني من إنجلترا ، اقتحم الغرفة بشكل مفاجئ أربعة من دخلائي وقفزوا بسرعة على الأريكة التي كنت جالسة عليها ، ووقف اثنان منهم ورائي وأحاطوا أذرعتهم بعنقي ، بينما حاول الاثنان الآخران تغطية وجوههم بتنورة ثوبي ، وكانوا ينخرطون في بكاء مرير ويرتجفون بشدة من الخوف ، ولم يكونوا قادرين سوى على النحيب والصراخ: أنا دخيلك....! أنا دخيلك....!

وقبل أن أتمكن من معرفة السبب وراء محنتهم الجديدة هذه ، وإذا بي أرى الحاكم مصحوبا بأثنين من الضباط والعديد من الجنود الأقل رتبة والمدججين بالسلاح جميعا ، أمامي في الغرفة.

وازداد الأطفال ذعرا ويأسا وصاروا يتشبثون بي أكثر من ذي قبل ، فنهضت بعض الشيء ودعوت الحاكم للجلوس بقربي ، واصطف الجنود في رتل واحد أمام الباب ، بينما جلس الضابطان بجانبهم ، وبعد أن تبادلنا التحيات المعتادة ، أخرج لي الحاكم أمرا رسميا يقضي باعتقال الأولاد ، الذين كانوا قد انخرطوا في موجة جديدة من البكاء والنحيب المريرين ، ما دعاني لمشاركتهم البكاء ، وبدا التأثر الشديد على الحاكم نفسه أيضا.

قلت بأكبر قدر من الهدوء ورباطة الجأش الممكنة للحاكم: أخبرني يا سيدي ، إلى أين سينقل هؤلاء الأطفال ؟ فأجاب: إلى عكا ، للمثول في حضرة سعادة الباشا يا ستي ، فصرخ الأولاد على الفور ، مش راح نروح على عكا ، إلا إذا إجت الست الإنجليزية ، اللي بتحمينا ، معنا ، بتقدروا تقتلونا هون ، بس مش رح تقدروا تطلعونا من هون! وقالوا كلاما كثيرا آخر لم أستطع فهمه ؛ لأنهم كانوا يتكلمون بسرعة ويتعالى صراخهم جميعا في آن واحد.

حاولت تهدئة روعهم والاستفسار عن مصير الأولاد الباقين ، فقال أكبرهم: إنهم أسرى. كنا مع بعض لما سمعنا صوت خبطات رجلين العسكر وأصواتهم ، نطّينا شباك عالي على الشارع وهربنا لعندك ، بس أخونا الصغير وقع والتوت رجله ، فا ما عادش قادر يركض ، فانقبض عليه وعلى ابن عمه اللي تأخر معاه مشان يساعده ، وأخذهم العسكر ، بس احنا قدرنا نوصل لعندك عالبيت هون

ثم تحدث الحاكم مع الأولاد قائلا: إخوتكم بأمان ، تعالوا معي وسوف آخذكم إليهم ، إوعوا تفكروا بأنكم أسرى عندي ، رح أكون زي أبوكم وأعاملكم مثل أولادي ، لكن الأولاد رفضوا الإصغاء لحديثه ، إذ إنهم سمعوا عن وضع جائزة لمن يتمكن من القبض على آبائهم ، أحياء أو أمواتاً ، ولم يكن لديهم اي ثقة أو أمل ورجاء بأي عسكري تركي.

كـان الحاكـم سيحميهم برضاه التام لو كان الأمر يتعلق بالصلاحيات الممنوحة له ، لكنه كان يتصرف كمأمور كما قال ، وكان لا بد من التزامه بنقلهم إلى عك‍ا.

كنت قد شرحت للأولاد مسبقا بأن أخي ليس بمقدوره منحهم أكثر من الحماية المشروطة ، لكنهم وببراءة الأطفال المعهودة ، التي جعلتهم يثقون تمام الثقة بمقدرتي وبرغبتي بالاعتناء بهم وحمايتهم ، أصيبوا بدهشة كبرى عندما كنت أبلغهم بأكبر قدر ممكن من الحنان واللطف ، بضرورة انصياعهم لأوامر الحاكم والذهاب معه ، ولم يكن بمقدوري سوى الاستسلام لبكائهم المتجدد وتنهداتهم ونحيبهم المرير ، وبينما كنت أحاول جاهدة تحرير نفسي من أذرعهم التي كانت تحتضنني بقوة ، كانوا يتوسلون إلي لكي لا أتركهم ومصيرهم ، قال أحد الأولاد: أطلبي من الحاكم انو يعطيكي أخونا الصغير ، أخوي مريض ، خليهم يجيبولك إياه... آه يا خوي.... آه يا خوي وقال آخر: يا حبيبتي يا ستي ، تخليهمش ياخدونا ، إحمينا... إنقذينا....!

كان‍وا ما زالوا متشبث‍ين ب‍ي ، ونه‍ض الحاكم وكانت عيناه مغرورقتين بالدموع وقال لي: لا أستطيع أن أراكِ حزينة يا سيدتي ، ثم ولدهشتي الكبيرة استأذن بالخروج وتحدث مع الأولاد بلطف وغادر الغرفة مع كل من كان معه من الجن‍ود.

عاد شقيقي بعد وقت قصير ، وبعد أن تحدث مع الأولاد محاولا تطييب خاطرهم بينما كانوا ما زالوا ينتحبون ، قال لي: سنترك الأولاد هنا بينما نتناول الفطور ، فرافقته من دون أية شكوك نحو الغرفة المجاورة ، ولم يكن قد مضى على جلوسنا بضع دقائق حتى سمعت وقع أقدام الجنود في ساحة البيت ، فنظرت للخارج ورأيت الأطفال المساكين وهم يقتادون عبر السلم ، وكانوا منخرطين في بكاء حزين لكن من دون إبداء أية مقاومة ، كان الحاكم بنفسه يقتاد الولد الأكبر بلين ولطف ، بينما سار الأولاد الأصغر سنا واحدا تلو الآخر برفقة الجنود ،

كنت أشاهدهم بحزن وأسى ولكنهم لم يروني بعد ذلك من جديد.

أخبرني أخي بعدئذ بأنه استلم بالبريد أوامر تقضي بقيامه بتسليم الأولاد ، وبأنه كان يأمل القيام بذلك بدون معرفتي ، وقد كانت توقعاته باستلام مثل هذا الأمر هي ما دعاه لنقل الأولاد من دار القنصلية ، لكي لا أكون حاضرة في لحظة القبض عليهم ، وأضاف قائلا: التقيت بالحاكم عند وصولي قبل قليل ، وكان الانزعاج الشديد باديا عليه بوضوح ، حيث قال لي: أيها السيد روجرز ، ألتمس منك أن تحتال على شقيقتك لأجلنا ، ان أبناء عبد الهادي بمعيتها وأنا لست قادراً على انتزاعهم منها ، حاول الاحتيال عليها لكي تترك الأولاد بمفردهم وسوف أعود مجددا لأجلهم

عند سماعي لهذا ، طلبت السماح لي بالتحدث مع الحاكم ، فلم يبد أخي اعتراضا ، فأرسلت قوّاسا يطلب منه الحضور لرؤيتي لبضع دقائق ، قبل الشروع في رحلته نحو عكا ، فتلطف بالحضور ، وبادرت بسؤاله عن توقعاته عما سيحل بالأولاد وماذا سيكون مصيرهم ، فقال: بالنظر إلى حداثة أعمارهم ، ونظرا إلى أنهم أبناء أسرة ذات مكانة اجتماعية عالية ، فأنا أعتقد بأنهم سيعاملون برفق ولين ، وسيتم احتجازهم مؤقتا إلى أن يحين موعد الإفراج عنهم ، سوف أصطحبهم بنفسي إلى مقر الباشا عوضا عن إرسالهم مع الجنود بمفردهم ، كما سأتحدث باسمهم بالنيابة عنك ، فقلت : هل يمكنك إبلاغي بأخبارهم أولا بأول ؟ فوعد بالقيام بذلك وحافظ على وعده ، ففي غضون بضعة أيام وصل فارس قادم من عكا لينقل تحيات الباشا لي ، وتأكيداته بأن الأولاد في صحة جيدة ويأكلون جيدا ، وبأنهم مقيمون في جناح داخل سرايـا الحاكم ، وبالرغم من عدم السماح لهم بالخروج خارج المدينة أو حتى السير في شوارعهـا ، إلا أنهم يتمشون يوميا على الأسوار كما يشاؤون وللوقت الذي يشـاؤون ، وبأنهم محتجزون كرهائن ، وبأنهم يعاملون معاملة الضيوف ، ويريد سعادته أن يعلمني بأنه أعطى كل واحد منهم طربوشا وحذاء جديدين وغيارات داخليـة وملابـس ، وبأنـه أقسم بحياة ابنه على أن لا تمسّ شعرة من رؤوسهم ، كما استلمت العديد من الرسائل بعد ذلك ، كانت جميعها بالمضمون نفسه(52).

كنا قد انشغلنا في هذه الأثناء بالتحضير لزيارتنا إلى إنجلترا ، وفي وضع الترتيبات اللازمة

لقضاء فصل الصيف فيها ، لكن في اللحظة الأخيرة وعندما كان كل شيء جاهزاً للشروع برحلتنا ، اتضح لنائب القنصل أنه لن يتمكن من ترك العمل ، وأضطررت أنا للاستمرار بخططي للسفر بمفردي ، نظرا للأصوات المرتفعة التي كان صداها يبلغني من وطني الإنجليزي ، وكانت البواخر النمساوية كافة قد تم أستدعاؤها لتعزيز قدرات الأسطول النمساوي ، فقرر شقيقي أن يصطحبني إلى بيروت على متن باخرة روسية ، ومن ثم يؤمن لي مكانا على متن باخرة تجارية بريطانية متجهة إلى إنجلترا.

خادمتي العربية حنّة ، ابنة أنجلينا ، مُزينة العرائس ، وهي فتاة رقيقة في السابعة أو الثامنة عشرة من عمرها ، وقد عملت في بيتنا لما يقارب الثلاث سنوات ، توسلت إلي لكي أسمح لها بالسفر معي ، وعندما شرحت لها عدم إمكانية ذلك ، ردت عليّ باندفاع وأسى: ليش خليتيني أحبك ، إذا كنتي ناوية تتركيني ؟ ليش أخدتيني من إمي وعلمتيني أحب حياة الإنجليز ، إذا بدك ترجعيني مشان أعيش حياة العرب من جديد؟ بقدرش أعيش مع العرب مرة تانية ، لم أكن قد حاولت تعليمها اللغة الإنجليزية ، ولم تكن قد تعلمت سوى ثلاث أو أربع كلمات فقط ، ولم تكن قد غيرت طريقة لبسها إطلاقا ، لكنها تعلمت احترام النظافة والترتيب ، ولم يعد بوسعها تحمل فكرة وجود أرضية غير نظيفة أو ممهدة ، أو الجدران المتسخة بالدخان وغير المطلية في بيوت الطبقات الفقيرة من العرب ، فتفاهمت معها وشرحت لها كيف سيكون بمقدورها إسعاد بيت عربي ، وكيف أنها ستسدي لي صنيعا أكبر لمجرد بقائها في حيفا عوضا عن مرافقتي إلى إنجلترا.

في الثاني من حزيران/ يونيو ، اقتربت من سريري وأيقظتني من النوم قبل شروق الشمس وهي تقول: أنا دخيلك يا حبيبتي ، وصلت الباخرة ، وإجا يوم فراقنا ، كانت مجموعة من أصدقائنا قد تجمعت بالفعل في دار القنصلية من أجل وداعنا ، وجاء رحالة بريطاني من دير الكرمل لمرافقتنا في رحلتنا إلى بيروت ، وسرعان ما كنا بالقرب من البحر وسط حشد من ملاحي القوارب والقواسين والحمّالين وأكداس من الأمتعة ، نظرا لأن نائبي قنصلي فرنسا وبروسيا وكبير رهبان دير جبل الكرمل كانوا برفقتنا.

أبحرت في المركب الأول برفقة حنّة وبعض الأصدقاء ، وكنت أتوق للوصول للباخرة

لمعرفتي بأن الآنسة فريدريكا بريمير كانت على متنها ، وسرعان ما عثرت عليها جالسة في صالون الباخرة ، وبالرغم من أننا كنا نعرف بعضنا عبر المراسلات فقط ، الا أننا لم نكن بحاجة إلى أية مقدمات للتعارف ، لقد سررت غاية السرور لمصافحتها ولسماع حديثها ، كانت تتحدث الإنجليزية بطلاقة وبلاغة ، ولكن مع لكنة أجنبية موسيقية ، وبينما كنت غارقة في محادثة جادة معها ، تمتمت خادمتي التي كانت غارقة بالبكاء وهي جالسة بالقرب مني: مين هاي الغريبة اللي جاي تسرقك مني في آخر وقت ؟ ، إذا ما كانتش إمك ، لليش طيرانة كتير من الفرح وأنا الزعل دابحني ؟ فهدأتها قائلة: هاي الست غريبة بهالديار ، وهي صاحبتي ومسافرة لحالها ، وهلأ رح تنزل معك على حيفا ، ومشان خاطري يا ريت تقدري تساعديها ، خديها انتي والقّواس لبيت الحكيم كول مشان تقعد بالغرفة اللي حضرولها اياها هناك

قامت بتقبيل يدي الآنسة فردريكا باندفاعها المعهود وقالت لها: خدامتك أنا يا ستي!

استأذنت أصدقائي الحيفاويين بعد حوالي الساعة ونحن نأمل بالالتقاء مجددا في غضون الأشهر القليلة القادمة ، وانتابتني مشاعر متناقضة في اللحظات التي كنت أرقب فيها المراكب الصغيرة وهي تعود إلى حيفا خلال انطلاق سفينتنا في رحلتها عبر البحر ، حيث كان سطح السفينة يعج بالحجاج الروس واليونانيين من النساء والرجال والأطفال ، الذين جاءوا لقضاء أسبوع عيد الفصح في المدينة المقدسة ، والذين سعدوا جدا في الحصول على فرصة للعماد في مياه نهر الأردن ، وقد ضم صالون الباخرة الفخم والمشرف ، العديد من الركاب الفرنسيين والإيطاليين والبروسيين والسويسريين ، الذين كنت أعرف معظمهم ، إلا أنه خلا من السيدات.

بعيد وقت قليل من إبحار السفينة ، جاءني القبطان وتحدث إلي بالفرنسية قائلا: آنستي ، يصادف اليوم عيد الدوق الأعظم كونستانتين ، وبعد إذنك ، سيقوم الأسقف بإقامة صلاة احتفالية بهذه المناسبة ، وسنكون سعداء جدا إذا تكرمت بمساعدتنا في شعائر الصلاة ، ومباشرة بعد ذلك ، جاء أربعة رهبان يونانيين يرتدون أثوابا كنسية سوداء وفردوا شرشفا من الكتان الناعم على طاولة في آخر الصالون ، ووضعوا فوقه لوحة بيزنطية قديمة وغريبة تجسد شخصية مقدسة ، وكانت الهالة المحيطة برأس الشخص المرسوم في اللوحة من

معدن مذهب ، وقد احتوت اللوحة على العديد من الأحجار الكريمة التي غرزت في أثواب الأشخاص الموجودين فيها ، وكان الرهبان يحملون هذه اللوحة بمهابة واحترام بالغين ، ورفعوها بأناة وحذر ووضعوا أمامها وعاء فضياً مملوءاً بالماء المقدس ، وثلاثة شمعدانات فضية كبيرة وضعت عليها شموع مشتعلة ومزينة بورق مذهب ، ووقف القبطان وكبار ضباط السفينة بملابسهم الرسمية ، بالإضافة إلى البحارة والمضيفين والنادل وركاب الدرجة الأولى في مجموعة واحدة في الجهة الأكثر انخفاضا من الصالون ، في مواجهة المذبح المؤقت ، ثم دخل أسقف ورئيس شمامسة روسييّن بدت عليهم ملامح التقوى والخشوع ، وقد ارتدوا أثوابا كنسية قشيبة وكأنهم كانوا على وشك إقامة شعائر الصلاة في كاتدرائية.

كان شعر كل منهما طويلا وبني اللون ، وقد جدل في ضفيرة تدلت من وسط الجزء الخلفي من الرأس ، ثم سحبت للأمام بحيث تلتقي مع الشعر في لحاهم وشواربهم الكثّة ، ركع كل منهما أمام الصورة من دون أن ينزعا قبعاتهما ، وقام أحد الرهبان بوضع كتاب كبير للصلوات أمام الأسقف ، الذي أخذ بتلاوة مقاطع الإنجيل ورسائل الرسل باللغة الروسية ، ثم سارع راهب آخر لإعداد مبخرة وبدأ بالتلويح بها ، في الوقت الذي كان فيه رئيس الشمامسة قد شرع بتلاوة ترانيم وابتهالات ، وقد بدأ تلاوته بنغمة هادئة وشجية ، ثم غير اللحن والأداء فجأة إلى طبقة صوتية ولحن أكثر بهجة ، كانت المقاطع الختامية فيها أشبه ما تكون بصرخات استحسان وتهليل للنصر ، وكان المصلون يرددون وراءه بخشوع عظيم ، خصوصا البحارة منهم ، ثم كان الصوت ينتقل للخارج ليردد صداه الثلاثمائة مسافر من الركاب الذين كانوا على متن السفينة.

اختتم الأسقف صلاته بمنح بركته العمومية ، كان يحمل في يده صليبا صغيرا نحت من حجر جُلب من الجبل الذي بنيت عليه مدينة بيت المقدس ، وهو حجر ناعم أملس تقريبا يشبه لونه ، إلى حد بعيد ، الألوان المعروفة للرخام المعروف برخام سينا ، ثم تقدم القبطان بخشوع وركع أمام الأسقف لكي يقبل الصليب ، فقام الأسقف بتبليل سبابة يده اليمنى في الماء المقدس ، ووضع إشارة الصليب على الجبين العريض للقبطان ، الذي كان ما زال راكعا أمامه.

وعلى التوالي ، تقدم الضباط كافة ، ثم تلاهم البحارة بهدوء وخشوع من أجل الحصول على هذه البركة ، وحذا المسيو أومان والعديد من الركاب المسافرين حذوهم ، بالرغم من أنهم من طائفة اللاتين وغيرها من الطوائف المسيحية ، خرج الأسقف بعد ذلك إلى سطح السفينة لمنح بركته للحجاج الموجودين هناك ، ولكي يتيح لهم تقبيل الصليب ، بينما كان الرهبان يرشونهم بالماء المقدس ويهزون بمباخرهم ، وعندما مر الأسقف بالقرب من الحجيج الراكعين على الأرض ، لثموا أهداب ردائه الكهنوتي وقبلوها ، ونظروا إليه خلال ركوعهم وكأنه ملاك نزل من السماء ، وتلا ذلك الاحتفال بالعيد فوزعت قدور كبيرة من اللحم والحساء وأرغفة كثيرة من الخبز على جميع الركاب على سطح السفينة ، على نيّة الدوق الأكبر كونستانتين ، شقيق القيصر ، بينما دعي ركاب الدرجة الأولى من قبل القبطان للمشاركة في وليمة رسمية ، وسرعان ما رفع المذبح المؤقت وأعيد تعليق اللوحة في مكانها الأصلي في نهاية الصالون(53).

ثم ملئت المائدة بأصناف من الورود والفاكهة المنسقة بعناية وذوق رفيع ، ودعاني القبطان للجلوس على الكرسي المجاور له ، وتبعتنا بقية المجموعة ، وكان مجموعنا 22 مدعوا بما في ذلك الأسقف وكبير الشمامسة ، ثم تم تقديم فطور روسي تقليدي ، وكانت الأطباق العديدة التي تم تقديمها تتألف من أصناف غريبة ومتنوعة ، وقد كانت تلك التي تذوقتها منها لاذعة لكنها متميزة.

وأُقترِح نخب لصحة الدوق الأكبر كونستانتين ، وطلب القبطان من أخي أن يبدأ بالهتاف الإنجليزي المعروف من أجل صاحب السمو الإمبراطوري ، فتردد صدى هب هب هوراى في أرجاء الصالون مرار وتكرارا ، على ألسنة ناطقة باللغات الروسية والفرنسية والبروسية والسويسرية والإيطالية ، اختلطت ببعضها البعض بطريقة غرائبية وبلكنات ونبرات مختلفة ، وقام الحجيج لدى سماعهم للهتاف وقد خمنوا معناه ، بترديده أيضا وبأعلى صوت ممكن.

لاحظت بأن جميع الحاضرين على المائدة تقريبا كانوا يستخدمون الفرنسية بطلاقة في أحاديثهم ، لكن الأجنبي الوحيد الذي كان يتقن الإنجليزية منهم كان خبير اللغويات

المشهور الدكتور روزين ، والذي يشغل منصب قنصل بروسيا في بيت المقدس.

بعد شرب المزيد من الأنخاب وخطب والمجاملات التي تركزت على الدول الحليفة ، فتحت آلة البيانو وعزفت الأناشيد الوطنية لروسيا وإنجلترا وفرنسا وتركيا ، حيث شارك الجميع في ترديد كلماتها ، بينما توليت أنا العزف على البيانو.

وصلنا بيروت عصرا ، وعندما ودعنا القبطان وضباط السفينة ، أكدوا لنا بأنهم لم يسبق وأن أبحروا على امتداد الساحل السوري برحلة ممتعة كهذه. اتجهنا إلى فندق دو بيل فو بصحبة رفيق سفرنا الرحالة الإنجليزي ، ومن على شرفة الفندق الواسعة بعد الغروب ، شاهدت السفينة الروسية وهي تتلألأ بالأضواء التي كانت تحدد شكلها العام ، بينما كانت الألعاب النارية تنطلق بشكل مستمر وسريع من على سطحها ، بالتزامن مع الصواريخ النارية التي كان يطلقها بعض التجار الأرثوذوكس في المدينة ؛ فترتفع في السماء الأرجوانية اللون لتنفجر على شكل شلالات من النجوم المنهمرة نحو الأرض ، وقد كانت كل هذه الاحتفالات على شرف الدوق الأكبر كونستانتين ، حيث كان صاحب السمو الإمبراطوري قد قام مؤخرا بزيارة بلاد الشام برفقة زوجته الدوقه وحاشية كبيرة من المرافقين.

صبيحة اليوم التالي كنت في غرفة مريحة ذات نوافذ عديدة ، محاطة بأشجار الدفلى والورود المزهرة ، وبأشجار أخرى مكسوة بالبراعم الجرسية الكبيرة ، وبينما كنت جالسة أقارن رسوماتي برسومات أحد السياح الإنجليز ، دخل أخي الغرفة ليبلغني بأنه قام بتأمين مكان لي على متن السفينة ديميتريوس ، وهي سفينة تجارية في طريقها إلى ليفربول ، فشعرت عندها بصعوبة بالغة في الحفاظ على رباطة جأشي.

صعدنا على متن السفينة في عصر يوم السبت الرابع من حزيران / يونيو ، وتم تقديمي للقبطان ، وهو بحار متمرس ورجل دمث الأخلاق من مدينة سندرلاند ، كنت المسافرة الوحيدة التي حجزت قمرة خاصة على متن السفينة ، وعلى الرغم من أنني كنت متجهة للوطن ، إلا أنني شعرت بكآبة غريبة عندما ودعني أخي وأبحرت السفينة مبتعدة عن الشواطيء السورية ، لكنني عقدت العزم على أن أستمتع بالرحلة ، وسرعان ما تصادقت مع القبطان الذي بدا عليه خوف شديد في البداية لوجود مسافرة مثلي تحت مسؤوليته ، بحيث

لم يأل جهدا في توفير سبل الراحة لي على متن السفينة ، وقد سألته عما إذا كان هناك كتب على متن السفينة ، فأجابني: كتب تتعلق بالسفن فقط يا آنستي ، لن تهتم سيدة شابة مثلك بقراءتها ، ومع ذلك فقد أطلعني عليها ، واكتشفت بأنها كانت كتباً مثيرة للاهتمام وأدلة ملاحية لشواطىء البحر الأبيض المتوسط ، وتحتوي على شرح واف للجداول التي كانت بحوزة القبطان ، وعندما رأى مدى سعادتي بالاطلاع عليها ، تخلى عن تحفظه وجديته كونه بحارا عمليا ومتحمسا لمهنته ، فتكلف عناء إطلاعي على الإحداثيات التي نعتمدها في سيرنا ، وفي إطلاعي على بعض مبادئ الملاحة البحرية ، وعرض لي جميع الأدوات والآلآت الملاحية لديه ، ووافاني بشرح عن طرق استخدامها ، ووعدني بأن يريني كيف يقوم بأخذ قراءاته لسير الرحلة يوميا.

في يوم الأحد اختفت اليابسه تماما ، وأعد القبطان مجلسا لي من الوسائد المغطاة بقماش بألوان العلم الإنجليزي ، في منطقة ظليلة من سطح السفينة.

كان سطح السفينة يعج بالبحاره باستمرار ، وكان أحدهم ، وهو رجل قام بتثقيف نفسه ذاتيا ، يمضي ساعات طويلة من وقت الفراغ المتاح له في تعلم اللغة الفرنسية ، فأتيح لي أن أساعده في التغلب على بعض الصعوبات التي كان يواجهها بين الحين والآخر.

صبيحة الاثنين السادس من حزيران/ يونيو رسونا في ميناء الإسكندرية ، حيث كانت السفينة ديميتريوس معدة لحمل حمولة من القطن ، وقد نزل جميع المسافرين باستثناء رجل يهودي حلبي كان مسافرا إلى ليفربول ، كان القبطان يأمل بتقديم بعض المساعدة له إذا أراد النزول من السفينة خلال توقفنا في ميناء الإسكندرية ، لكنه اكتشف استحالة التواصل معه ، فطلب مني القيام بدور المترجم ، فخرجت إلى السطح واقتربت من السوري المتوحد ، والذي لم ألحظ وجوده على متن السفينة مسبقا ؛ لأنه كان من ركاب الجهة الأخرى من السفينة ، وقد كان رجلا في الثلاثين من عمره تقريبا ، وبدت عليه علامات الذكاء والفطنة ، كما بدت عليه علامات الخوف والرعب الشديدين ، وكانت ملابسه نظيفة وأنيقة ، ومن النوع الذي عادة ما يرتديه وجهاء وأثرياء المدن العربية ، وعندما دنوت منه خاطبته بالعربية قائلة: الله يحفظك ، فاعترته الدهشة وانحنى سريعا وأمسك بيدي وقام بتقبيلها

بشدة ، وصرخ قائلا: الله يبارك فيكي ، الله يبارك بالصوت اللي بحاكيني بالعربي ، انا فكرت اني ضليت لحالي هون ، وعندما علم بأنني باقية على متن السفينة إلى أن تصل ليفربول ، قال بحماسة: الحمدلله الحمدلله ، منيح ، وبعد أن أبلغته على لسان القبطان بأنهم أعدوا له مكانا مسقوفا لكي ينام فيه في مقدمة السفينة ، دخلت في حديث معه ، فاتضح لي بأنه مسافر للالتقاء بمجموعة من التجار السوريين المقيمين في مانشستر ، والذين وصلتهم توصية بشأنه ، لكنه لم يسبق له الالتقاء بأي منهم ، وبأنه لا يعرف أحدا في إنجلترا ، وسألني كيف سيتمكن من معرفة طريقه إليهم من ليفربول ، وتوسل إلي طالبا مساعدتي ، وسأل الكثير من الأسئلة التي أثبتت لي بأنه لا يملك أدنى فكرة عن الاختلافات الجوهرية القائمة بين نمط الحياة المشرقية والنمط السائد في الغرب ، ولم يكن يعرف ولا حتى كلمة باللغة الإنجليزية ، وكتب اسمه بالعربية شايع أي إشعيا عطيه في دفتر ملاحظاتي ، وبعد يوم أو يومين كتبت له باللغتين الإنجليزية والعربية أسماء تجار مانشستر الثلاثة الذين أخبرني عنهم ، كما أعطيته خطاب توصية موجه لرجل سوري مقيم في ليفربول ، ومنذ ذلك الحين ، كان شايع يأتي ويجلس بقربي كلما كنت أصعد إلى سطح السفينة للمطالعة أو لمراجعة الجداول الملاحية للرحلة أو للرسم ، بحيث كان ينتظر رؤيته لي بفارغ الصبر ويحييني بكلمة: أنا دخيلك! وبدا لي بأنه كان ضليعا في اللغة العبرية ، فقد كان يحمل العديد من الكتب المطبوعة والنصوص الدينية ، وكان أحيانا ، وبناء على طلبي ، يقوم بترجمة مقاطع كاملة من التوراة العبرية إلى اللغة العربية ، وهكذا مضى الوقت بشكل سار ، ولم نغادر ميناء الإسكندرية حتى العاشر من حزيران / يونيو ؛ نظرا لأن سفينتنا ديميتريوس اصطدمت يوم السابع من الشهر بالسفينة المسماة مياندر وهي سفينة فرنسية ، ما نتج عنه تحطم الجزء الأمامي من السفينة وأكبر مرساة من مراسيها ، كما انكسر الصاري الرئيسي وانقسم إلى قسمين ، وسقط الجزء العلوي من الصاري على سطح السفينة حيث كانت جالسة بمفردي ، وكان في سقوطه أشبه بسقوط مداخن السفن عندما يتم إنزالها لعبور جسور لندن ببطء شديد ، ما منحني فرصة لرؤيته وهو يسقط ووقتا كافيا للابتعاد عن مكان سقوطه ، لكن اصطدام السفينتين كان عنيفا جدا فقد التحمت مقدمة ديميتريوس ببدن السفينة

مياندر ، واستمر هذا الالتحام حوالي العشرين دقيقة ، ما نتج عنه الكثير من الهرج والفوضى على سطح كلا من السفينتين ، وقال لي مساعد الربان: لقد تسببت مياندر لنفسها بالأضرار نفسها التي سببتها لنا يا آنستي وتم حل الحادث بعد ذلك وديا وتابعت ديميتريوس إبحارها.

بلغنا شواطئ مالطا في الرابع عشر من حزيران/ يونيو ، وعبرنا مضيق جبل طارق في الحادي والعشرين من الشهر ، وكنت أرى المتوسط في بعض الأحيان هادئا بزرقته المتلألئة في أشعة الشمس ، بينما كان يهتاج ويثور بأمواج أخدودية عميقة ، تبدو جاهزة لابتلاع سفينتنا في أحيان أخرى.

لاحظت في أثناء ذلك بأن الحاخام شايع بدت عليه علامات المرض والوهن ، وأعتقد بأن الطعام الذي كان يحمله لم يكن كافيا ، كان قد جلب مؤونة معه نظرا لأنه لا يستطيع تناول الطعام الذي يعده المسيحيون ، ولم يكن يحمل سوى الخبز وبعض المربيات الحلبية والليمون والقهوة والتبغ ، حاولت إقناعه بذبح طائر داجن وطهيه بنفسه لكنه أخبرني بأنه لا يمكنه القيام بذلك ، لأنه لا يحمل سكيناً مخصصة لذبح الحيوانات وفقا للشريعة (54) ، فسألته إذا ما كان هناك أي نوع من أنواع الطعام الذي يمكننا تقديمه له ، فاكتفى بأن أجاب: معي كثير خبز ، وهاد بيكفيني

أثار هذا الأمر قلق القبطان ، وكثيرا ما كان يردد بطريقته الودية والمواربة: لا أحب رؤية رجل يتضور جوعا عندما تتوفر كميات كبيرة مما لذ وطاب من المأكولات ، وقال لي في أحد الأيام ، بينما كان يقوم بإعداد طبق له من الشوربة: لو أنك تتمكني من إقناع سليمان بتناول القليل من هذه الشوربة يا آنستي ، لكنني أعتقد بأن رائحة الخنزير تفوح منها

وصلنا لشبونة في الثالث والعشرين من الشهر ، وما إن صعدت إلى سطح السفينة ، حتى جاء إلي شايع وانحنى راكعا على ركبتيه وأمسك بطرف فستاني وهو يبكي بكاء مريرا ، فرفعته عن الأرض وقلت له: ليش قلبك بيدق يا شايع ؟ ، فبدت نظرات الرعب في عينيه وقال: البحارة بدهم يقتلوني... رح يقتلوني ، أنا خايف منهم ، فقلت: أخبرني بصوت منخفض ، هل آذاك أحد منهم ؟ فأجاب بصوت هامس: أنا ميت من الخوف ، فقلت له: ما في شي بيستدعي إنك تخاف ، أنا رح أحميك ، قلي شو اللي صار ، فأخرج مطواة واستخدمها في عمل إشارات

توحي بأنه يخشى من أن البحارة سينحرون رقبته ، فقلت له: اترك المطوى واحكي دوغري يا شايع ، في حد أذاك من الناس اللي على السفينة ؟ فأجاب: لأ بس هم بيحكوا شغلات بتخوف عني ، وبيسبوا علي وبيلعنوني ، فقلت: كيف عرفت إنهم بيحكوا كلمات مش منيحة عنك يا شايع ؟ ما انت بتعرفش لغتهم ، قلي شو حكوا ، وكان على وشك أن يجيب لكنه نظر حوله بحذر شديد فرأى بحارا منهمكا بالعمل على مقربة منا ، فلم يتكلم ، بل أخذ قلمي الرصاص من يدي وكتب على غلاف كتاب قواعد للغة العبرية والإيطاليه الأحرف اللاتينية j.a.k و لكن بالعربية ، فاعتقدت بأنه يقصد بذلك كلمة عربية ، فقرأتها بهذا الشكل وقلت له: عمرني سمعت هاي الكلمة ، شو معناها ؟ فقال: هُس يا ستي ، هاي مو بالعربي ، هاي بالفرنجي ، عندها فقط أدركت المعنى الكامن بالكلمة التي بدت غريبة تماما بالنسبة لي عند كتابتها بالعربية ، ولم أتمالك نفسي من الابتسام عندما نطقت الكلمة نطقا صحيحا كما تنطق بالإنجليزية: جاك ، فصرخ: أيوه أيوه يا ستي ، هاي هي المسبة اللي بيضلوا يشتموني فيها ، فأجبته: يا حاخامي ، هذه مش مسبه ، هاي مش كلمة عاطلة ، جاك هي الكلمة اللي بيستخدمها الإنجليز مشان ينادوا الرجال اللي اسمه يوحنا ، وهمي ما بيعرفوا إنو اسمك شايع عطيه ، مشان هيك بينادوك جاك ، ويمكن كانوا راح ينادوني بالاسم نفسه لو كنت انا رجال ، فبدا أنه اقتنع بهذا الشرح وهدأ روعه قليلا فدخن بعض السجائر بصمت بينما كان يراقبني وانا أرسم سكتشات لمناظر من بلدة سينترا الجميلة ، لكن في صبيحة اليوم التالي قال لي القبطان: سليمان يريد أن يتحدث معك ، تبدو عليه إمارات الكآبة والبؤس الشديدين وهو ينتظرك عند الباب ، فخرجت إليه قبل أن أتناول طعام الفطور ، فوجدته مغموما وحزينا أكثر من أي وقت مضى ، وأخبرني بأن البحارة قالوا له: مرحبا جاك ، وباءت كل المحاولات التي بذلتها لإقناعه من جديد بالفشل ، فقد كان مقتنعا بأنهم كانوا يلعنونه ، وسألني عما إذا كنت قد شعرت بالخوف حين بقيت بمفردي بين الغرباء على متن السفينة ، وأضاف: شفت القنصل لما تركك ، ما خفتي ساعيتها ؟ فأجبته: لأ يا شايع ، زعلت لأنه أخوي تركني ، بس ما خفت ، إحنا في أمان هون ، فأجاب: انتي هون بأمان لأنك بين أهلك ، بس أنا يهودي ، والبحارة النصارى بيسبوا علي بصوت عالي ، فحاولت إقناعه بالعكس قائلة:

نصارى إنجلترا بيحبوا اليهود ، وبلادنا وقوانينا بحكمها وبيكتبها ناس من اليهود ومن النصارى ، في عنا يهود أعضاء بالمجلس النيابي ، والناس من جميع الأديان والمذاهب بيعيشوا عنا بأمان ، لكنه أبى أن يقتنع ، وبعد هذه المحادثة لم يعد يخرج إلى مقدمة السفينة ، وصار يحاول البقاء بقربي ما أستطاع لذلك سبيلا طوال النهار ، أما في الليل فكان ينام في مكان منعزل بين بالات القطن المغطاة بالمشمع والمكدسة أمام باب قمرتي ، وتغاضى القبطان عما يمثله هذا التصرف من انتهاك لقوانين السفينة وسمح له بالتصرف كما يشاء.

لاحظت بأن خوف شايع ووهنه يزدادان يوميا باطراد ، لكن ثقته بي شخصيا كانت غير قابلة للنقض. سألني ذات مرة: وين بدك تروحي بس نوصل ليفربول ؟ فقلت: إلى والدي المقيمين في لندن ، فكان جوابه: أنا كمان رايح على لندن اذا هيك ، راح أجي معك

قلت له بأن هذا يكاد يكون مستحيلا ، ونصحته بأن لا يقوم بتغيير خطته قائلة: أكيد انك قبل ما تترك حلب حضرت حالك منيح ومشان هيك لازم تكمل طريقك زي ما بديت ، انتا هلأ ضعيف ومريض من قلة الأكل والراحه ، بس عن قريب رح ترجعلك قوتك وسعادتك مرة تانية لما تجتمع باولاد بلدك في ليفربول ومانشستر ، وطلبت من القبطان والضباط أن يستخدموا نفوذهم في منع البحارة من تخويف شايع بأي طريقة كانت ، وخصيصا بعدم استخدام الكلمة الفظيعة جاك ، وتحدثت أيضا مع البحارة في الموضوع ، والذين وإن أبدوا مشاعر تعاطف كبيرة تجاه الرجل المسكين إلا أنهم تعاملوا مع الموضوع برمته كمزحة أو دعابة ، مهما يكن ، فأنا أعتقد بأنهم قاموا بما يلزم لكي يتفادوا مناداته بالاسم جاك ، مع أنهم كانوا عند رفع الأشرعة أو إنزالها لا بد أن يصرخوا: الآن جاك أو أفسح الطريق يا جاك من دون أن يشعروا وعلى الرغم من تعاطفهم وحذرهم ، واستمر شايع بالشعور بالخوف الشديد من البحارة ، وأخبرني كيف أن وجود يهودي وحيد بين المسيحيين يعني بأنه سيتعرض للقتل بالتأكيد ، وسرد لي حوادث قال بأنها وقعت في حلب ودمشق ، وذهبت كل محاولاتي لدب روح الأمل فيه وتشجيعه أدراج الرياح ، أما القبطان الذي كان يناديه سولومون باستمرار فقد كان يحييه ببشاشة على الدوام بصوت مرتفع بإنجليزية ركيكة ،

وبعض الكلمات الفرنسية التي صدف أنه كان ملما بالقليل منها ، وكان وكأنه يمتلك فكرة مسبقة عن ضرورة التحدث بصوت مرتفع عند مخاطبة الأجانب بلغة أجنبية.

في اعتقادي فإن هذه العادة هي ما دفع شايع للإعتقاد خطأ بأن القبطان غاضب منه ، كان كثيرا ما يقول لي: بترجاكي يا ستي أطلبي من القبطان أن يسامحني ، وبناء على طلبي كان القبطان يتباسط بالحديث معه في كثير من الأحيان ، فيربت تربيتا خفيفا على كتفه ويخاطبه قائلا: حسنا يا صديقي القديم ، أنت لا تأكل بما يكفي ، أو إذا كان الوقت مساء ، فكان يقول له: ابتهج يا سولومون ، كل شيء سيكون على ما يرام ، غدا ستكون بحال أحسن... أخلد للنوم نام... نام ، في مساء الخامس والعشرين من حزيران/ يونيو فاجأني شايع بإعلانه اعتناق المسيحية ، فقلت له: ليش شو السبب اللي بخليك تقول إنك نصراني ؟ ، فزاد من حيرتي حين أجابني: بترجاكي تقولي للريس اني صرت نصراني ، هيك راح يبطل زعلان مني ، فقلت له: تأكد يا شايع انو الريس مو زعلان وعمره ما زعل منك ، وسواء كنت مسلم أو يهودي أو نصراني فانتا في أمان في هاي السفينة زي كأنك في بيتك في حلب ، بس لو إنك بتعرف لغته كان عرفت أديش قلبه طيب ، ومع ذلك فقد أصر ، ووافقت أنا على أنقل للقبطان ما قاله ، مع أنني كنت مدركة تماما بأن ما دعاه لهذا التصرف لم يكن سوى مخاوف كبيرة لا أساس لها من الصحة ، وبذلت مساعي ومحاولات شتى لدبّ روح الثقة فيه ، فذكرته بشجاعة داوود ودانيال عندما كانا في خطر محدق ، وكيف كانت ثقتهما بالله ، وأبلغته بأنه يستطيع الأكل من طعامنا من دون أن يؤنبه ضميره بأن يدعي اعتناق المسيحية ، وقلت: يمكن لو الحاخام موسى حكى معك هلأ كان حكى لك: السلام عليك يا شايع ، كل حتى تقدر تعيش ، وأردفت قائلة: بتتذكر كيف انو داوود وجماعته أكلوا من الخبز المكرّس لما كانوا جوعانين ، فقال: الله يبارك فيكي يا حاميتي ، وبعد وقت قصير أخذ فنجان قهوة من المضيف ، كما فعل مرارا في الماضي ودخّن سيجارة ، وبدا هادئا أكثر من المعتاد عندما تمنيت له نوما هنيئا.

عندما رأيت شايع في صبيحة اليوم التالي ، السادس والعشرين من حزيران/ يونيو لم آتي على ذكر أي من المواضيع التي طرقناها في الليلة الفائتة ، لكنني دفعته للحديث في

مواضيع عامة ، كالتجارة والسلع ورجال الصناعة في سورية الشمالية ، وطلبت منه تعليمي الأحرف الأبجدية العبرية ، وهذا ما أفرحه لبعض الوقت ، وبينما كنت أجلس للقراءة كان يجلس بقربي ليدخن وليقرأ نصوصا بالعبرية من سفر المزامير ، وكنا قد عبرنا خليج بسكاي ووقفنا في المساء بالقرب من باب القمرة نشاهد غروب الشمس بلونها الأحمر خلف الغيوم القاتمة اللون ، التي بدت وكأنها تأخذ قسطا من الراحة فوق المحيط الأطلسي ، فقال شايع إنه حزين لأن الليل قد أرخى سدوله ، واشتكى من أنه يشعر بإحباط وتعب بسبب الرحلة ، فقلت له بأننا سنبلغ ليفربول بعد يوم واحد ، وأعطيته عنواني في لندن قائلة بأن بمقدوره كتابة الرسائل لي من ليفربول ليطلعني على أوضاعه ، وعما إذا كان قد أحب انجلترا ، وليبلغني فيما إذا كان بمقدرتي أن أساعده أو أخدمه بأي شكل كان ، فقبل يدي وانهمر بالبكاء وكأنه يشكو من تعب وإرهاق شديدين ، وطلب مني القبطان أن أطلب من شايع أن يمضي تلك الليلة في المأوى المسقوف ؛ نظرا لأن السفينة ستواجه أمواجا متلاطمة خلال إبحارنا في تلك الليلة ، ما سوف يؤدي إلى تعرضه للبلل بكل تأكيد إذا بقي في الجزء المكشوف من سطح السفينة ، فشرحت الأمر لشايع لكنه قال لي: ما بقدر أروح عالجهة التانية من السفينة ، أنا خايف ، وبدت إمارات القلق الشديد واضحة عليه ، وعندما اتجه القبطان نحو قمرته ، تشبث به شايع وقام بتقبيل يديه وقدميه بانفعال شديد ، فرفعه القبطان قائلا: هيا يا سولومون ، لا داعي لهذا ، ابتهج... كن رجلا.... أخلد للنوم ، أخلد للنوم عند التاسعة والنصف قلت لشايع: تأخر الوقت ، لازم تروح ترتاح ، السلام عليك ، فقال لي : تصبحين على خير يا حاميتي ، فأجبته: تصبح بألف خير يا شايع ، فخلع نعله المغربي الأحمر ووضعه بعناية على حافة قريبة ثم زحف نحو ركنه المفضل بين بالات القطن وغطى نفسه بعباءته ، ولم أر شايع المسكين من جديد مطلقا بعد هذه المحادثة! ، فبمجرد أن فتحت باب قمرتي في صبيحة اليوم التالي ناديت المضيف وسألته: كيف حال سولومون اليوم أيها المضيف ؟ فأجابني بحزن: لا أعرف يا آنستي ، إنه مفقود ، فسألته ما الذي تعنيه أيها المضيف فرد علي قائلا: لأن القبطان بحث عنه في كل مكان ولم يعثر عليه وهو متوتر جدا ، فقد بحث في كل فتحة وكل ركن من أركان السفينة يا آنستي باستثناء قمرة نومك

ما إن استوعبت المعنى الكامن وراء هذه الكلمات حتى دخلت قمرتي من جديد حيث كان فيها سرير من طابقين ، كنت أستخدم السرير السفلي كخزانة لملابسي فأزحت ستارته الحمراء بيد مرتعشة آملة بشده وخائفة من أن أعثر على شايع فيها ، لكن الأمر لم يكن كذلك ، وكان القبطان قد دخل الغرفة في تلك اللحظة وعلامات الانزعاج الشديد بادية بوضوح على وجهه ، وقال لي بأنه قلب السفينة رأسا على عقب بحثا عن شايع ، وبأنه بحث حتى في الجحور التي يمكن أن تختفي قطة بداخلها بلا جدوى ، وقال بأنه لم يسبق أن فقد رجلا أو صبيا تحت أي ظرف من الظروف على متن سفينته ، وبأنه لا يدري ماذا يفعل ، فسألته: من كان آخر شخص رأى شايع ؟ ، وبعد أن تحرينا الأمر تبين أن أحد البحارة الذين كانوا على صاري المراقبة في تلك الليلة رأى شايع عند منتصف الليل تقريبا ، وهو متكئ على حاجز السفينة وراء الصاري الرئيسي ، وقد استغرب الأمر لأنه لم يسبق وأن رأى شايع في ذلك الجزء من السفينة من قبل ، لكن ولأنه لم يشك بشيء فلم يهتم للأمر ، ولم يكن لدى أي شخص آخر أية أنباء أو معلومات عنه ، ولاحظت بأن نعلي شايع ما زالا في الوضعية والمكان ذاتهما اللذين نزعهما فيهما في الليلة السابقة.

ساد الحزن والارتباك على الجميع ، وكان الأنطباع العام أن شايع ألقى بنفسه عن ظهر السفينة ، لكنني أخبرت القبطان بأنه من المستبعد أن يقوم اليهودي بارتكاب جريمة الانتحار ، وتوقعت بأنه من المحتمل أن يكون قد تعرض لحادث ، فرجاني القبطان أن أرافقه في جولة حول السفينة بحيث أستطيع أن أحكم بنفسي عما إذا كان هناك جزء من السفينة يمكن أن يتعرض فيه المرء للوقوع في البحر بفعل حادث ، وبعد أن قمت بمعاينة دقيقة للسفينة وبتوجيه أسئلة حول أدق التفاصيل ، توصلت إلى أن المسكين شايع ، نتيجة للهلع المفرط والخيالات الجامحة ، قد فقد توازنه النفسي والعقلي ، وإما قام بكامل وعيه وإدراكه أو من غير وعي وإدراك بإلقاء نفسه في البحر.

تم جمع مقتنيات شايع ومتعلقاته الشخصية كافة وساعدت القبطان في وضع جرد ووصف تفصيلي لها ثم وضعت بعد ذلك في صندوق مقفل ومختوم.

وصلنا ميناء ليفربول صبيحة يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من حزيران / يونيو ، وقابلت

موظف الحجر الصحي ، وبعد أن كتبت اسم الشخص المفقود من ركاب السفينة في سجلاته بالعربية والإنجليزية تابعت رحلتي صوب لندن.

أجري تحقيق رسمي في وقائع اختفاء الحاخام شايع بأمر من القنصل التركي في مانشستر ، وسرعان ما ذاع النبأ بأنني كنت الشخص الوحيد من بين الركاب الذي تواصل مع الرجل المسكين ، فتم استدعائي للإدلاء بما لدي من معلومات بشأنه ، وكنت أحتفظ بدفتر يوميات أكتب فيه طوال الرحلة ، ولذلك كنت قادرة على تقديم رواية كاملة للأحداث كانت مفيدة جدا لغايات التحقيق ، قلت فيها إن التوازن الذهني والنفسي لدى شايع قد تأثر سلبا وبشكل كبير بحالة الجزع المستمر والأوهام والمخاوف غير القائمة على أي أساس ، ثم قمت بالتوقيع على صحة أقوالي في حضور مأمور التحقيق ، والذي صادق على توقيعه القنصل التركي العام في لندن ، وتم تقديم تقرير مسهب بالحادثة للحكومة التركية.

إن الأحداث التي ألمت بالمسكين شايع والكثير من الأحداث المماثلة الأخرى التي كنت شاهدة عليها ، أثبتت لي أن اليهود الشرقيين ما زالوا ينظرون للعنات والبركات بهلع وخشية شديدين ، حتى البركة التي تطلق عن طريق الخطأ ، اعتبرها يعقوب أمرا نهائيا لا يمكن الرجوع عنه ، وعندما دخل بالاك (ملك مؤاب-المترجم) إلى بلعم لكي يلعن بني إسرائيل وشعبها وكأنه كان مقتنعا تمام الاقتناع بأن اللعنة ستتحول إلى سحر سيؤثر في مجرى الأحداث ويغيرها. إن حالة شايع هي أحد الأمثلة من أمثلة كثيرة مشابهة يمكنني سردها تثبت حجم الخوف والرعب الكبيريين اللذين يكنهما يهود المشرق للمسيحيين ، خصوصا اليهود القاطنين في المناطق الشمالية لبلاد الشام ، وهذا ما يمثل برهانا ساطعا على أن المسيحية المنتشرة في المشرق لا تمثل المسيحية التي تحتضن العالم ولا التعاليم التي بشر بها السيد المسيح!!!.

الهوامش

(1) انظر مؤسسة الدراسات الفلسطينية (بيروت وواشنطن العاصمه)، ومجموعتها من المطبوعات عن المدن الفلسطينية، وإصداراتها من دورية الدراسات الفلسطينية ودورية القدس ربع السنوية؛ على سبيل المثال لا الحصر.

(2) صدرت كتابات كثيرة في هذا الموضوع، وللإحالة إلى مرجع مهم، انظر دراسات في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لفلسطين في القرنين التاسع عشر والعشرين، للمؤلف آر أوين (أكسفورد، 1982).

(3) ملاحظة من المؤلفة: هل هذا هو الإزار الذي ورد ذكره في الإصحاح الرابع عشر من سفر القضاة، حيث يقول شمشون: لاحاجينكم أحجية فإذا حللتموها لي في سبعة أيام الوليمة وأصبتموها أعطيكم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة ثياب.

(4) ملاحظة من المؤلفة: قد تكون أيوا عبارة عن الاستخدام المختصر لكلمتي أي والله وهو قسم ذو دلالة بالغة الأهمية عند العرب.

(5) ملاحظة من المؤلفة: رملة هي الكلمة العربية لرملي إذ تنحو الأسماء التي يطلقها العرب للأماكن لأن تكون وصفية.

(6) ملاحظة من المؤلفة: يعيش المجذومون في أحياء خاصة بهم في أربع مدن في سوريا (والمقصود بها هنا بلاد الشام الطبيعية - المترجم) وتحديدا في القدس ودمشق والرملة ونابلس، بحيث يتم إرسال من يولد منهم في مكان آخر إلى هذه المدن في الحال فور ظهور المرض عليهم. وأحوالهم عموما أفضل من أحوال الشحاذين والمتسولين، نظرا لتخصيص عائدات وقف خاص بهم لمنفعتهم، إذ إن الناس من جميع طبقات المجتمع في الشرق تسعى لعمل الخير لمصلحة هؤلاء وتجل من يقوم بذلك. أما المصابون بالجذام ممن كانوا في دمشق، وهم مسيحيون في غالبيتهم، فقد قتلوا عن بكرة أبيهم، أو أنهم وبسبب عجزهم عن الحركة، ماتوا حرقا خلال مذبحة وحريق العام 1860.

(7) ملاحظة من المؤلفة: كان في بيت لحم فيما مضى حي مسلم جدير بالاعتبار، ولكنه

تعرض للتدمير الكامل بعد أعمال العنف التي اندلعت في العام 1834. وقد غادر النازحون المسلمون المدينة وتوزعوا على القرى المحيطة ذات الغالبية المسلمة والتحق بعضهم بالجيش العثماني ، بينما اتجه البعض الآخر إلى حياة البدو وسكنوا الخيام ، وصاروا يرتحلون كما البدو ، إلا أنهم احتفظوا بتقاليدهم المتمثلة باحترام المناسبات والأعياد الدينية أكثر مما تفعل القبائل البدوية عادة. وهم يختارون بقعة ينصبون فيها خيامهم خلال شهر رمضان على مقربة من بيت المقدس ، لكي يكون بمقدورهم رؤية وميض المدفع الذي يطلق من القلعة عند غروب الشمس ، والذي يحدد موعد إفطار المسلمين.

وقد بدأ عدد لابأس به من هؤلاء المسلمين بالعودة مؤخراً للاستقرار في بيت لحم.

(8) ملاحظة من المؤلفة: كان من الممكن بسهولة حمل مثل هذا الفراش من قبل الرجل المريض في كفر نعوم (كفر ناحوم) على بحيرة طبريا ، الذي خاطبه السيد المسيح ، كما ورد في الإصحاح الثاني من إنجيل مرقص ، قائلا: انهض واحمل فراشك وامضي في طريقك نحو بيتك واذا كانت بيوت كفر نعوم قد بنيت كما تم بناء البيوت في بلدات فلسطين المختلفة ، فإن السقف المشار إليه في الآية الرابعة من الأصحاح نفسه ، يحتمل تفسيرا بسيطا ، إذ عادة ما تكون الساحة الداخلية لأي بيت أكثر اتساعا من أي من الغرف المحيطة بها ، وتضم في جنباتها مصاطب ومقاعد من الحجر تغطيها البسط والوسائد ، لتستخدم كمجلس خلال النهار ، وكأسرة للنوم ليلا ، وربما كان السيد المسيح قد انسحب ليرتاح في مثل هذه الساحة بعد أن تزايدت أعداد الحشود. ولنا أن نتخيله هناك محاطا بالناس المذهولين والكتبة المخادعين والذين يهزأون به (جماعة دينية من اليهود الذين عاصروا السيد المسيح- من الفريسيين) جالسين بالقرب منه على الديوان ، حيث احتموا جميعا تحت قطع من الحصير والأقمشة الكتانية حجبت عنهم أشعة الشمس اللاهبة ، والتي وضعت فوق معرشة لدوالي العنب ، عندما قام أصدقاء الرجل المشلول بجلبه محمولا للمنزل الذي كان يعظ فيه السيد المسيح إذ لم يكن باستطاعتهم إحضاره ليلا بسبب الزحمة ، لذلك يبدو من الطبيعي أن يتجهوا لسطح المنزل ويكشفوا السقف أعلى الساحة ، اي انهم رفعوا الحصير الذي كان يحجب الشمس عن أرض الساحة ثم ثقبوا معرش الدوالي وقاموا بإنزال الفراش

الذي استلقى عليه الرجل المفلوج. ولو كان السقف المشار إليه سقفا عاديا تم ثقبه لتساقطت قطع من الحجارة والتراب والأعمدة الخشبية التي يتكون منها على رؤوس الجمع الجالس أسفل هذا السقف ، وهو الأمر الذي كان سيعرض حياتهم للخطر.

(9) ملاحظة من المؤلفة: راجع صفحة 16 من الكتاب.

(10) ملاحظة من المؤلفة: هذا الطبق المعروف جيدا يذكرني دائما ب.السمكة المشوية وقرص العسل اللذين ورد ذكرهما في لوقا14 ، 42

(11) المؤلفة تحيل القارئ إلى قصة أم يوسف في الصفحة 63 من الكتاب.

(12) ملاحظة من المؤلفة: راجع صفحة 16 من الكتاب.

(13) ملاحظة من المؤلفة: بنيت بلدة حيفا في موقعها الحالي على يد ظاهر العمر ، حاكم عكا الشهير في منتصف القرن الماضي ، ويمكن رؤية أنقاض وأطلال البلدة القديمة (على شاطئ البحر في أسفل رأس جبل الكرمل) ، والذي أعتبره ظاهراً مكشوفا للغاية ومعرضا لهجمات القبائل البدوية القادمة من سهل عتليت. يذكر كبار السن من السكان بأن آباءهم كانوا يرونهم مواقع بيوتهم السابقة في البلدة القديمة.

(14) ملاحظة من المؤلفة: هل كان داوود يشير إلى هذه الممارسة (التي يبدو أنها عادة موغلة في القدم) عندما تضرع لله من أجل رخاء مملكته قائلا: لكي تكون بناتنا كأعمدة الزوايا منحوتات حسب بناء هيكل- العهد القديم ، المزمور 441.

اذ ليس هناك سوى العرائس والزوجات التي يمكن اعتبارهن أعمدة الزوايا للمساعدة التي يقدمنها في بناء الأمة ، حيث تشرق وجوههن حينئذ.

(15) ملاحظة من المؤلفة: ربما تكون الإشارة إلى هذه العملية قد وردت في سفر حزقيال 23: 04.

بل أرسلتما إلى رجال آتين من بعيد الذين أرسل إليهم رسول فهوذا جاءوا هم الذين لأجلهم استحممت وكحلت عينيك وتحليت بالحلي كما ذُكر أن ايزبيل خضبت عينيها أو وضعت ألوانا على عينيها كما قال إرميا في الاية 30 من الإصحاح الرابع: وأنت أيتها الخربة ،

ماذا تعملين ؟ إذا لبست قرمزا ، إذا تزينت بزينة من ذهب ، إذا كحلت بالأثمد عينيك ، فباطلا تحسنين ذاتك...... ، لذلك يمكننا أن نستنتج أن استخدام الكحل هو عادة موغلة في القدم.

(16) ملاحظة في الكتاب: ويبدو لي أن الشيخ عبدالله بأسلوبه هذا ، وبكل ما تعنيه الكلمة ، كان يطبق وصية النبي موسى بأن لا يتخذ المرء أخت زوجته كزوجة لكي تغيظها خلال حياتها

ولا يمكن لعبدالله مجرد التفكير بالمخاطر الناتجة عن الاقتران بزوجتين من الأسرة نفسها أو حتى من البلدة أو القرية نفسها ، لقد كان داهية في غاية الذكاء لإدراكه بالمشاكل التي ستجرها زيجات كهذه. عندما أصدر موسى التشريع الوارد أعلاه ، كان يقنن حياة الناس ، الذين حالهم كحال المسلمين ، يؤمنون بالزواج المتعدد ويعتبرونه أمرا مشروعا. ولو ترك الأمر له ولحكمته لما وافق على مثل هذه الزيجات ، ولكنه حاول تقليل مضاره والاستفادة منه قدر الإمكان ، ومما لا شك فيه بأنه شهد ، كما شهدت أنا ، الخلافات والمشاحنات ومشاعر الغيرة التي تنشب في أجنحة الحريم عندما تكون قرينات الرجل الواحد مرتبطات بعلاقة قرابة أو صلة معينة ، إذ كلما تباعدت العلاقات بين النساء اللاتي على عصمة الرجل ، كلما زادت فرصة أن يسود السلام والسكينة فيما بينهن داخل الحريم.

(17) انجيل لوقا 8 ، 72.

(18) ملاحظة من المؤلفة: راجع حزقيال 4 ، 15 :

انظر قد جعلت لك خثي البقر بدل براز الإنسان فتصنع خبزك عليه

(19) ملاحظة من المؤلفة: هل يلقي نظام السحر هذا الضوء على تاريخ من يسمون ب.(زاهوري) في اسبانيا ، والذين يقال بأنهم يمتلكون المقدرة على رؤية ما تخفيه الأرض في باطنها ؟

من المؤكد بأن التسمية جاءت من الشرق ، إذ إن (زاهور) ترادفها كلمة (ظهور) في اللغة العربية.

في الجزء الأول من كتاب مهد الماردين التوأم ، علوم وتاريخ من تأليف المحترم هنري كريسماس في الصفحة 344 نقرأ ما يلي:

يقول ديبيريو في كتابه المعنون Disquisitiones magicae نسخةماينتس 1606 بأن هناك فئة من الرجال في اسبانيا يطلق عليهم اسم زاهوريز خلال آقامته في مدريد في العام 1575 كان هناك ولد من هذه الفئة ، وقيل بأن هولاء الناس يمكنهم معرفة الأشياء المخفية في باطن الأرض من مياه جوفية ومعادن وكنوز وجثث للموتى. كان الأمر معروفا على نطاق واسع والناس مؤمنة به ، لا بين الشعراء وحسب ، بل والفلاسفة أيضا.

نورد ما يلي بشأن امرأة ، من مجلة ميركور دو فرانس ، 1728: إنها تعرف ما يختفي تحت الأرض ، وتستطيع رؤية الصخور والرمال والينابيع الموجودة على عمق 30 أو 40 قامة

(20) ملاحظة من المؤلفة: وقد نشرت رسوماتها في ذا بيلدر (البناء) العدد 878 من لوحات كنت قد رسمتها في العام 1958.

(21) ملاحظة من المؤلفة: توفي إيرينا في العام 1859 وقد حزن عليه فلاحو السهول وفقراء الناصرة حزنا عظيما.

(22) ملاحظة من المؤلفة: وإذا خبطت زيتونك فلا تراجع الأغصان وراءك للغريب واليتيم والأرملة يكون ، سفر التثنية 24:02.

(23) ملاحظة من المؤلفة: الأمطار المبكره التي وردت في الكتاب المقدس تعني في اعتقادي أمطار الخريف التي لا يمكن أن تكون أمطارا عنيفة. تتساقط هذه الأمطار بلطف لتحيي الأرض الظمآى والجافة بعد القحط الذي يصيبها خلال فصل الصيف ، وتتيح للمزارعين أن يبذروا بذار القمح والشعير. يطلق عليها في سفر التثنية اسم الأمطار الأولى ويقول يوئيل: ويا بني صهيون ابتهجوا وافرحوا بالرب إلهكم لأنه يعطيكم المطر المبكر على حقه وينزل عليكم مطرا مبكرا ومتأخرا في أول الوقت

تهطل أمطار الشتاء بغزارة في شهر تشرين الثاني وكانون الأول وأوائل كانون الثاني ثم تتوقف حتى آذار أو نيسان ، حيث ينتظر الناس أمطار الربيع بشوق لأنها تقوي المحاصيل

الزراعية وتمنحها الحيوية. هذا ما يسمى المطر المتأخر ، لأنه ذكر في الكتاب: الرب إلهكم سينزل عليكم المطر في الشهر الأول ==== وهو الشهر الذي يسمى بالعبرية أبيب أو شهر السنبلة الخضراء والذي يوافق أواخر شهر آذار/مارس وبداية شهر نيسان / أبريل.

انظروا إلى الزوج ينتظر الفاكهة الثمينة للأرض والذي صبر طويلا لأجلها ، إلى أن هطل المطر المبكر والمتأخر في فصل الصيف الذي يمتد من أيار حتى أيلول ، لا يهطل المطر على الإطلاق في فلسطين.

(24) ملاحظة من المؤلفة: زهرة السوسن المحاطة بالأشواك ، نشيد الإنشاد 2 ، 2.

(25) ملاحظة من المؤلفة: لم أتمكن من معرفة نوع أوراق النبات التي عناها محمد ، والتي ذكر أنها كانت تجمع من شجيرات تنمو على ضفاف النيل. حسب مبدأ العلاج المثلي فأنا أعتقد بأن هذه الورقة القادرة على إتلاف العين من المفروض أن تمتلك الخصائص التي تؤهلها لعلاج البصر أيضا. أبلغني العديد من المسيحيين العرب بأنهم لجأوا إلى شتى الخدع والحيل لتفادي الذهاب للمدرسة في طفولتهم ، حيث اعتادوا على دهن جفونهم بأوراق تين يانعة بواسطة عصر المستحلب الموجود بداخلها على جفونهم التي كانت سرعان ما تنتفخ بحيث يصبح من الصعب فتحها لمدة يومين أو ثلاثة ، لكن من دون إلحاق الأذى بالعين. إذا لم يتمكنوا من تدبير أوراق التين ، كانوا يستخدمون أعشاب القراصية (زقطوف) اللاذعه كحل بديل!

وأخبرني الأولاد بأنهم كانوا يستمتعون بالألم الناتج عن هذه الممارسة لبضعة أيام ، من أجل الإجازة التي كانوا يحظون بها بسبب ذلك ، وسعيا وراء الهروب المؤقت من رتابة وملل الواجبات الدراسية وعصا المدير الغليظة. ومع ذلك ، إذا تسنى للأولاد العرب أن يحصلوا على دروسهم من مدرسين عطوفين وأذكياء فإنهم يقبلون بشغف على التعلم ويحرزون تقدما سريعا!!!

(26) ملاحظة من المؤلفة: راجع سفر الخروج 35:26 (المترجم: 35: 26 وكل النساء اللواتي أنهضتهن قلوبهن بالحكمة غزلن شعر المعزى) و36:14 (المترجم: وصنع شققا من شعر معزى خيمة فوق المسكن إحدى عشرة شقة صنعها).

(27) ملاحظة من المؤلفة: هل يرتبط هذا السلوك بشكل غير مباشر بما جاء في سفر عاموس 4-6 حيث ذكر: 4: 6 وأنا أيضا أعطيتكم نظافة الأسنان في جميع مدنكم وعوز الخبز في جميع أماكنكم

(28) ملاحظة من المؤلفة: حتى في الخرائط والرسومات الإيضاحية الواردة في كتاب اليد الصادر عن دار موراي لا يوجد أي ذكر أو إشارة لقريتي كفر قرع وخبيزه. ولكن في خريطة موجودة في ويكلي ديسباتش أطلس من الممكن العثور على خبيزة وبعض القرى المحيطة ، ويبدو لي أن مواقعها في الخارطة في غاية الدقة.

(29) ملاحظة من المؤلفة: يواجه الأجانب صعوبة كبيرة في فهم كلمات الأغاني الفلسطينية. لم يكن بمقدوري فهم أكثر من مغزى وموضوع هذه الأغنيات عندما كانت النسوة يغنينها. طلبت من حلوة أن تشرح لي الكلمات بلغة مبسطة ، وقد فعلت ذلك بالاستعانة بلغة الإشارة ، بعد مرور سنة على ذلك عندما صارت جارتي في حيفا ، ساعدتني على فهم الأغاني بما يكفي لأن أترجمها للإنجليزية بهذا الشكل.

(30) ورا الشفايف لولو ومرجانِ ، أسنان السمرا أحلى أسنانِ

جوّات الثغر تلمع لمَعانِ ، لمعتها الحلوه تِضوي عَ الكونا

ربما كن يغنين هذه الأبيات أو أبياتاً شبيهة بها من الدلعونة الفلسطينية-المترجم

(31) ملاحظة من المؤلفة: وفقا لتقرير ويلسون فقد بلغ عددهم 150 في سنة 1843

(32) ملاحظة من المؤلفة: زعيم الطائفة البروستانتينية في نابلس.

(33) ملاحظة من المؤلفة: المحترم أندرو بونار من كاليسي.

(34) ملاحظة من المؤلفة: عندما كان أحد اللاويين في طريقه من بيت لحم إلى أفرايم بصحبة جاريته التي استعادها للتو ، قال لخادمه عندما شارف النهار على نهايته ، دعنا نقترب إلى أحد هذه الأماكن بحيث يكون بمقدورنا قضاء الليلة إما في قبية أو في الرامة ، وغربت الشمس من فوقهم بينما كانوا بالقرب من قبية ، حيث توقفوا هناك من أجل المبيت في قبيه ثم تعرضت البلدة للدمار وشتت سكانها بسبب الأفعال المشينة التي

ارتكبوها بحق المسافرين في تلك الليلة ، وانظروا إلى ألسنة اللهب المتصاعده من المدينة والتي بلغت السماء القضاة 91.

(35) السيدة براوننج.

(36) ملاحظة من المؤلفة: هذا هو المنظر الذي قام السيد سيدين برسمه بأمانة ، واللوحة موجودة في متحف ساوث كنجستون حاليا.

(37) مداخلة من المؤلفة: ينص الجزء الثاني من القرآن على القواعد الواجب اتباعها خلال رمضان ، والتي تتلخص في:

{يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كُتِبَ عَلَى الذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ....} (البقرة 183-184).

{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (البقرة:185).

{وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل} (البقرة 187).

تنص الشريعة الإسلامية على ثلاث درجات من الصيام ، الدرجة الأولى والثانية ماديتان (جسديتان) تماما أما الثالثة فهي صيام الفؤاد عن الاهتمام بالشؤون الدنيوية وكبح جماح الأفكار التي يجب أن توجه للتفكير بالخالق فقط- المؤلفة.

(38) ملاحظة من المؤلفة: وهذا مثير للإهتمام عند الرجوع إلى سفر صموئيل الثاني الإصحاح 21: حينئذ سبكاي الحوشي قتل ساف الذي هو من أولاد العملاق.

(39) ملاحظة من المؤلفة: تحسنت جودة التربة كثيرا فيما بعد ، ولدى زيارتي للمنطقة في عام 1859 عرفت بأن أحد أبناء السيد ميشوليم الصغار ويدعى بيتر ، وهو شاب شجاع ومقدام ، قام بعد أن أمضى خدمته العسكرية في القرم ببناء بيت حجري عليها وبتسوير واستصلاح قطعة كبيرة من الأرض. وقد كان يمضي فيها أسابيع متواصلة بلا انقطاع لا

يؤنسه في وحدته فيها سوى اثنين أو ثلاثة من الفلاحين من السكان الأصليين للبلاد ، وكلبه المدلل وبضعة حيوانات أليفة أخرى ، وقد صار يلبس الزي البدوي ويحيا حياة شبيهة بتلك التي يحياها العرب ، باستثناء الفترات التي كان يزور فيها بيت المقدس أو غيرها من البلدات. كان قد عاش في فلسطين منذ نعومة أظفاره ، وقد أكسبته قوته البدنية وسرعة حركته وحكمته وبعد نظره محبة العرب ، بحيث أضحى معروفا ومحترما لدى معظم الشيوخ في المنطقة ، وقد طلب منه أكثر من مرة أن يقبل بأن يكون زعيما لقبيلة صغيرة العدد ، وقد أخبرني بأنه كان سيرضى بمثل هذا المنصب بكل سرور ، لو كان من الممكن له أن يتولاه من دون أن يضطر لإعلان إسلامه واعتناق الإسلام ، كما كان يلقي الفزع في قلوب الخارجين على القانون في المناطق المجاورة لمنطقته ، وقد اكتشف أن المنطقة تعج بالخنازير البرية وأبناء آوى والثعالب وغيرها من الضواري ، فقتل واصطاد عددا كبيرا منها ، ونجح في قنص الصقور والنسور أيضا.

عندما قدم صاحب السمو الملكي الأمير ألفرد إلى فلسطين في ربيع العام 1859 ، كان السيد بيتر ميشوليم واحدا من مرافقيه الدائمين خلال رحلته من بيت المقدس إلى طبريا ومن ثم إلى حيفا ، حيث رست بارجة يوريليوس.

(40) ملاحظة من المؤلفة: راجع الملاحظه في صفحة 16 عن القبائل التي غادرت بيت لحم بعد الأحداث.

(41) ملاحظة من المؤلفة: أنا سمراء ولكن حسناء ، يا بنات أورشليم .

(42) ملاحظة من المؤلفة: ذهبت في مناسبة أخرى إلى هذا المكان الغريب فوجدت الجدران مبتلة تماما بينما كانت الأرض طينية رطبة.

(43) ملاحظة من المؤلفة: الصياح الثاني للديك يتزامن مع شروق الشمس.

(44) ملاحظة في الكتاب: ارميا الإصحاح الرابع.

(45) ملاحظة من المؤلفة: لا يقتصر هذا التمييز على المسلمين ، بل على المسيحيين من السكان الأصليين للبلاد ، كما تأكدت بأن جنوب إيطاليا يسوده مثل هذا الاعتقاد. تقول

السيدة كوب في مقالها المعنون: النساء في إيطاليا 1862: علمت من سيدة بريطانية تقيم في نابولي منذ زمن طويل لزواجها من رجل إيطالي ، بأنه قبل زمن ليس بالبعيد كان من العادات الدارجة بين الطبقات الفقيرة ، أن يقوموا بتعليق راية سوداء على نافذة البيت الذي تولد فيه ابنه أنثى ، من أجل تفادي الإحراج الناتج عن أسئلة الجيران عن جنس المولود

(46) ملاحظة من المؤلفة: هذه اللحافات الصغيرة شائعة الاستعمال ، وعادة ما تكون مغطاة بأغطية مزركشة أو مطرزة.

(47) ملاحظة من المؤلفة: غادر الدكتور كول وعائلته حيفا بعد أن أقاموا فيها لمدة عامين ونصف العام.

(48) ملاحظة من المؤلفة: هذه عادة شائعة ، وقد كنت كثيرا ما أرى فتيات فقيرات يضعن قرنفلا بدلا من المجوهرات داخل هذه الفتحات ، كما أن القرنفل الصناعي المشغول من الذهب والمشبوك بحبة لؤلؤ تشكل الجزء الدائري العلوي من هذه الحلية يعد من الحلي المفضلة لتزيين الأنف ، والتي تستخدمها البنات الصغيرات في السن غالبا ، باعتبارها ضرباً من ضروب الأناقة والذوق الرفيع ، بينما تميل النساء الأكبر سنا لوضع خواتم للأنف عوضا عن ذلك.

(49) ملاحظة من المؤلفة: كان العمال والبناؤون منشغلين بالعمل في الميدان ، أو الأرض الخلاء الواقعة شمال بيت المقدس ، وقد تم تسوير قسم منه ، تعود ملكيته لروسيا وتبلغ مساحته حوالي 16000 ياردة ، بجدار حجري ، وقد بنيت العديد من البيوت هناك ، وأقيمت أربعة خزانات كبيرة لغرض توفير المياه. == == كما شيدت كاتدرائية وهبت للثالوث الأقدس ، وانتصبت فوق الأرض بسرعة كبيرة وصارت الآن جاهزة لتشييد قبابها ،كما شارف منزل خصص للكهنة الروس على الانتهاء ، بالإضافة إلى مستشفى مخصص لإيواء عشرة أسرة للمرضى شارفت الأعمال في الطابق الأول منه على الانتهاء ، بينما سيتم الانتهاء من العمل في الطابق الثاني منه خلال العام ، كما أن العمل قد بدأ في أساسات مبنى للإيواء واستقبال 300 من الحجاج القادمين لزيارة المدينة.

أما في داخل المدينة فقد تم تنظيف الأرض الواقعة بالقرب من كنيسة القيامة والمملوكة

لروسيا من القاذورات التي كانت تتجمع فيها على ارتفاع يصل إلى 35 قدما ، وقد تم العثور خلال عمليات الحفر على آثار وأعمدة تعود إلى عهد الإمبراطور قسطنطين ، وسيتم افتتاح مأوى خاص بالحجيج من النساء الروسيات قبل نهاية العام.

(50) ملاحظة من المؤلفة: في رسالة مؤرخة في القدس في 26 أيلول 1861 علمت أن الدكتور ليفينسون قد اضطر لتأجيل نشر أعماله بسبب نقص التمويل ، ألن يتحرى محبو الشرق والآداب القديمة في أوروبا الغربية هذه المشكلة ويبادروا لمساعدة الدكتور ليفنسون على إتمام مهمته ؟

(51) ملاحظة من المؤلفة: من الصعوبة بمكان العثور على ترجمة قريبة من كلمة دخيلك باللغة الإنجليزية ، هناك قانون (الأصح عرف- المترجم) قديم منتشر بين القبائل البدوية يطلق عليه اسم قانون الدخيل ، ويتيح هذا العرف للسجين الفار أو الرجل المطارد من قبل أعدائه أن يحتمي بأي من بيوت الشعر أو الخيام ، حتى وإن كان بيت الشعر أو الخيمة واقعين ضمن مضارب قبيلة معادية ، حيث يدخل الدخيل الخيمة أو بيت الشعر ويمسك بحزام أو زنار صاحب البيت ويصرخ (أنا دخيلك!) ، وبالتالي فهو يصبح دخيلاً أو محمياً. العربي الأصيل يفدي دخيله ويدافع عنه بحياته ، ومع ذلك فإن قانون الدخيل يطبق فقط بين تلك القبائل التي تتيح لها قواها أو موقعها الجغرافي أن تكون مستقلة عن السلطة والحكومة التركية ، ومن الشائع بين العرب أن الرجل الذي يخذل دخيله أو يتخلى عنه يوصم بالعار مدى حياته ، بينما يستخدم الحضر من العرب المصلح أنا دخيلك للدلالة على المحبة والتدليل ولإظهار حجم الاتكال على والثقة بالشخص المعني.

(52) ملاحظة من المؤلفة: لإيضاح ملابسات هذه الأحداث بصورة أكبر ، لا بد لي من الإشارة إلى أن محمود بيك عبدالهادي بعد أن تم عزله من منصبه نتيجة لشكاوى خطيرة قدمت ضده ، أعيد تعيينه في العام 1858 حاكما لنابلس من قبل الراحل خورشيد باشا ، وقيل إن السبب في ذلك كان يعود إلى رشوة كبيرة دفعت للسرايا ، ولكن في كانون الثاني 1859تم اعتقال محمود دون أن يبدي أية مقاومة ، حيث أرسل إلى بيروت وخلفه في منصبه التركي رضا بيه ، وفي شهر نيسان أرسلت حملة عسكرية إلى عرابة بهدف إلقاء القبض على زعماء

ووجهاء عائلة عبدالهادي ، وكل الذين تورطوا في أحداث 1856 في نابلس ، فقاوم الأهالي وحوصرت البلدة من قبل القوات التركية بمساعدة مجموعتين أخريين تمتازان بالقدر نفسه من سوء السمعة. تتلخص السياسة التركية في تحريض مجموعة ما ضد الأخرى ، وتزداد الأمور تعقيدا عندما يصدف أن يقاتل الجنود مع ولمصلحة أحد الأطراف ، ثم وبعد عدة أشهر يتحول القتال ضد هذا الطرف. لم تتعرض بلدة عرابة لدمار بالحجم الذي توقعناه عند سماع الأنباء في البداية ، إذ لم يتعرض للتدمير سوى الغرف العلوية بعد أن تم هدمها من قبل بنائين قام الضباط الأتراك بتوظيفهم ، نظرا لأن هذه الغرف العلوية وشرفاتها الحصينة ، والتي كانت تعطي للبلدة مظهرا أخاذا في الماضي ، كانت قد استخدمت كحصون منيعة من قبل المحاصَرين ، لقد تم القضاء على نفوذ وقوة أسرة عبد الهادي في الوقت الحالي ، وتم إبعاد زعماء العائلة ووجهاؤها ، لكن صالح بيك وغيره ممن لم يشاركوا في الأحداث الأخيرة فقد تمت إعادة الاعتبار لهم ، وأعيد الأطفال ، دخلائي إلى والديهم.

(53) ملاحظة من المؤلفة: من المعتاد رؤية صور وأيقونات القديسين أو أفراد الأسرة المقدسة في صالونات وقمرات البواخر الروسية.

(54) ملاحظة من المؤلفة: ذبح الحيوانات بهدف الأكل أمر مقدس جدا لدى اليهود ، وهي عملية تتم تحت الإشراف المباشر للحاخام الأكبر ، إذ لا يمكن لليهودي العادي أن يقوم بذبح ماشية أو دواجن من دون حصوله على إذن بذلك ، ولا يمنح هذا الإذن إطلاقا إلى أن ينجح طالبه في اجتياز امتحان بالغ الصعوبة للتأكد من صلاحيته وأهليته لذلك ، ويعتبر نحر وذبح الحيوانات طقسا دينيا يتطلب ثقافة دينية وشعائرية ، وتفحص السكين المخصصة للذبح بدقة ، وكلما تقدم صاحب الرخصة بالذبح بطلب لتجديد الإذن الممنوح له بالقيام بمزاولة ذبح الحيوانات ، يجب عليه تقديم سكينه للفحص ، ومن الممكن إلغاء الرخصة في أي وقت إما بسبب سوء السلوك أو ارتكاب أي غلطة أو أهمال في الذبح.